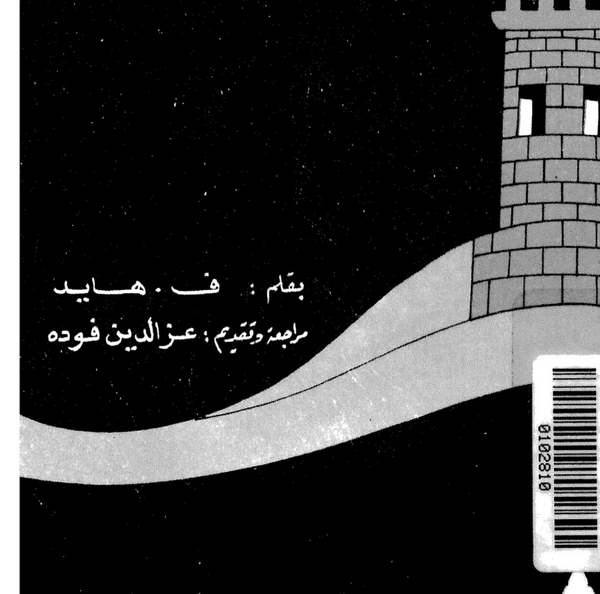
تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى
فى العصور الوسطى



بقلم : ف . هايد

مراجعة وتقديم : عز الدين فوده

الهيئة المصرية العامة للكتاب

تاريخ التجارة في الشرق الأدنى

في العصور الوسطى

الجزء الأول

بقلم

ف . هايد

W. HEYD

مراجعة وتقديم

د . عز الدين فوده

أستاذ كرسي المنظمات الدولية

بجامعة القاهرة

عربه عن الترجمة الفرنسية

أحمد محمد رضا



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٥

الاخراج الفنى	تصميم الغلاف
مـــراد نسيم	سعد الدين الشريف

تقديم

للدكتور عز الدين فودة
أستاذ كرسى المنظمات الدولية بجامعة القاهرة

يحقق ظهور هذا الكتاب ونشره فى اللغة العربية أمنية طالما ترددت فى خاطرى منذ سنوات الشباب ، حين بدأت فى جامعة القاهرة تدريس « النظم الدبلوماسية والقنصلية » كجزء متميز من أجزاء القانون الدولى العام ، وأفردت فى تدريس هذه النظم ـ جريا على ما يتطلبه الواجب ويقتضيه التأصيل فى البحث العلمى ـ فصولا فى الدبلوماسية الاسلامية ودبلوماسية البندقية ومطلع عصر النهضة الذى شاهد قيام العلاقات الدبلوماسية الدائمة والقنصليات المستقرة فى حوض البحر المتوسط وغرب أوروبا . فقد لفت نظرى وقتئذ الدكتور صلاح الدين المنجد أطال الله فى عمره الى مؤلف ف . هايد « تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى » . وباطلاعى على الكتاب شد انتباهى ما حفل به من وقائع وأحداث وتفاصيل تتبع تتبعا يقظا العلاقات الرسمية وغير الرسمية بين دول البحر المتوسط على شاطئيه الاسلامى والمسيحى ، فى الحقبة التاريخية التى تخللتها الحروب الصليبية فى الشرق الأدنى ، ما بين القرنين التاسع والرابع عشر الميلادى ، ـ وبالأهم ما تأسست عليه دراسة هذه العلاقات من بحوث معمقة وموثقة لكافة جوانبها الحضارية، حتى شملت التاريخ والجغرافية والاقتصاد والتجارة والسياسة والثقافة والاجتماع . فحققت دراسة هذه البنية التحتية الشاملة تنظيرا غير مسبوق لمؤلف العلامة ف . هايد حول طبيعة هذه العلاقات بين الشرق الاسلامى وبين بلاد المسيحية فى أوروبا وآسيا الصغرى ، بالقدر الذى يعبر تعبيرا واضحا عن حقيقة التوازن الدولى القائم حينئذ بين دول البحر المتوسط ، وبما يشهد ، على خلاف ما اعتقده هنرى

بيرين - أن هـــذا البحر ظل دائمـــا أبدا صلة ومعبرا بين الحضارتين ، بالرغم مما ألم به فى فترات الحـرب والحصار والمقاطعة والضعف والصراع ·

ولعل أكثر ما أثار دهشتى وفضـولى أنى رأيت هذا الكتاب منقولا فى صفحات وصــفحات بعدد من المؤلفـــات والرسائل العربية التى عزت الفضل لأصحابها دون هايد ، فقر عزمى على ضرورة ترجمة الكتاب ونشره باعتباره أثرا من آثار المعرفـة والتحقيق المنهجى الحـديث للتراث الثقافى ، بجانب قيمته التاريخية والحضارية ، اثباتا لفضل العـالم الباحث المتواضع الذى عكف سنين طويلة فى خزائن المكتبة الملكية فى شتوتجارت - حيث كان يعمل رئيسا لأمنائها - ينقب ويبحث ويدرس ويتعـلم اللغات الحيـة والقديمة كالاغريقية واللاتينية والعربية والفارسية ، ويراسل غيره من العلماء والبـاحثين والكتاب ، وينشر أبحـاثه فى هذا الموضوع بمجلة « توبنجن » ، ثم يعيد تنقيحها وطبعهـا فى طبعتين مزيدتين لهذا الكتاب باللغة الألمانية ، آخرها هى طبعة سنة ١٨٧٩ المنقولة الى اللغة الفرنسية فى طبعتين ، أولاهما سنة ١٨٨٥ ، وثانيتهما سنة ١٩٢٣ التى قام الأستاذ أحمد محمد رضا على نقلها بكل العناية والدقة والأمانة والوضوح الى اللغة العربية ، كى يقدم لقرائها الصورة الصادقة للعمل الفريد الذى أقدم عليه المؤلف ، وادخر له كل وقته وجهده وحياته العلمية ، - اذ لم يؤثر عنه الا هذا الكتاب وحده ، الذى كان خليقا بأن يجعل من صاحبه مثلا يحتذى فى صدق وأمانة الباحث العلمى الجاد ، حتى أورثه سمعة علمية ذاعت فى الآفاق ·

وقد سبق هايد الى الكتابة فى نفس الموضوع العلامة الفرنسى ج·ب·ديبنج Depping عضو الجمعية الملكية الفرنسية للدراسات القديمة فى مؤلفه « تاريخ التجارة بين الشرق الأدنى وأوروبا » والمنشور بباريس سنة ١٨٣٠ ، - وهو مؤلف كما قال عنه هايد بحق فى صدر مقدمته لكتابه « جدير بكل تقدير بالنسبة الى عصر مؤلفه » · فهو لم يكن مثيلا لمؤلف هايد فى طابعه الموسوعى ، أو فى خصائصه من حيث التنظير والالمام بجوانب الموضوع ، والعناية بالحواشى والاشارة الى أوثق المصادر والمراجع الأصلية ، من خلال هذا

الحشد الزاخر من الوثائق والمحفوظــات فى جنوة وبيزا وفلورنس وأمالفى ومرسيليا وبرشلونة والبندقية » الى جانب قصص الرحالة وأصاب البريد العرب · والخرائط والمؤلفات الجغرافية والتاريخية ، والمراجع والكتب التجارية والارشادية للملاحين والتجــار ، حتى ليحسب المرء آن هــايد قد جمع فأوفى ، ولكن فوق كل ذى علم عليم ·

كان ف · هايد يسوق كل هذا الحشد الزاخر من الكتب والمراجع والوثائق بلغاتها المختلفة فى كتابه هذا ، لا باعتباره مؤرخا فحسب ، أو متقصيا لأخبار التجـــارة وصنوفها ودروب أصحابها دون غير ذلك ، وانما كان عالما موسوعيا صاحب نظرة متفحصة أعمق وأدق ، ونزعة علمية نحو الشمول والاحاطة ، تقومان على بسط الحقائق وتحليل الوثائق ونقد الكتب والمراجع ، واصدار الحكم على الأحداث التى غدت مادته العلمية ، حتى يستطيع أن يخلص الى بعض النتائج السياسية ، أو يترك الى القارىء ومن جاءوا من بعده من الباحثين والمؤلفين أن يجددوا السعى للوقوف على ما كان مقفلا فى خزائن الأسر فى آكناف العالم ــ واستخلاص المزيد من هذه النتائج ·

وانه ليمكن القول ان مؤلف ف· هايد الذى نحن فى صدد النقــديم له ، وشرف التعريف به ، هو فى أضــــعف الفروض ليس مجرد كتاب فى تاريخ التجارة ، وانما هو عمل موسوعى موثق ومؤصل فى تاريخ الحضارة خلال حقبة من تاريخنا أصابها الغموض وألمت بها الشكوك أحيانا ، ونسجت حولها الافتراءات والأكاذيب أحيــانا أخرى · بل ان أكثر ما يزيد هذا الكتاب أهمية ، ويعطيه قيمة أكبر ، هو نزاهة المؤلف وموضوعينه ، والتزامه ما أمكن الحياد المنزه عن التحيز والتملق وتزويق الباطل والبعد عن اخفاء الحقـــائق ــ الأمر الذى قد يعفيه من الوقوع فى بعض الأخطاء · فلا ننس أنه من كتاب العقود الآخيرة من القرن التاسع عشر ، حين لم تكن ثمة علاقات ثقافية وعلمية موصولة بين كتاب تلك الأمصار الأوروبية وبين كتاب أفذاذ أو أنداد لهم فى بلادنا العربية والاسلامية · فلا غرو ان يخلو لهم الجو فيما يكتبون أحيانا ·

واذا كان لى أن أذكر للفضل أهله ، فلا أنس أننى حين فاتحت صديقى الراحل الشاعر النابه صلاح عبد الصبور ــ

الرئيس الأسبق للهيئة العامة للكتاب – فى ترجمة هذا الكتاب ، رأيت منه كل تشجيع وترحيب واقدام على أن تتبنى الهيئة العامة للكتاب مهمة نشره ونقله الى اللغة العربية ، وأن يضطلع الأستاذ أحمد محمد رضا بهذه الترجمة فى أربعة أجزاء متوالية . وأنه اذا كانت الترجمة مهمة شاقة ، فهى أشق عند المترجم الباحث المدقق ، بل كانت أشد مشقة فى هذا الكتاب بمصطلحاته وحواشيه ووثائقه . ولكن المترجم – أطال الله فى عمره – قد استطاع أن يكون عند حسن الظن ، كما كان العهد به فى كافة الأعمال الأدبية والعلمية العديدة التى قام على نقلها الى اللغة العربية ، والتى شاركته فى مراجعة بعض منها على مدى عشرين سنة مضت ، حتى أنست الى صدق ترجمته ، واطمأنت نفسى الى حسن صياغته فى اللغة العربية . والله ولى التوفيق ؟

القاهرة فى أول يناير سنة ١٩٨٥ .

دكتور عز الدين فودة
أستاذ كرسى المنظمات الدولية
بجامعة القاهرة
(كلية الاقتصاد والعلوم السياسية)

مقدمة المؤلف

منذ نشر كتاب « تاريخ التجارة بين الشرق الأدنى وأوروبا لديبينج Depping (باريس ١٨٣٠ ، جزءان) ، وهو مؤلف جدير بكل تقدير ، بالنسـبة الى عصره ، فان هذا الموضوع لم يعالج معالجة خاصـة . الا أنه ظهر منذ ذلك الحين مجموعة من الوثائق والمصادر التاريخية لم يكن ديبنج يعلم بوجودها ، وبخاصة فى ايطاليا وفرنسا ، تشكل وفرة ثمينة من الوثائق تنتظر من يتقدم لحصادها : فلم التقاعس ؟ هل لابد من الانتظـار حتى يتم نشر كل الوثائق المدفونة فى خزائن دور المحفوظات ، وهو عمل ضخم يتطلب من العلماء سنين طويلة من الجهود الفردية والجماعية ؟ كلا ، بالتأكيد ، ان جيلنا المتحمس لكل ما يمس تاريخ الحضارة ، سوف يعترف بفضل الكاتب الذى يجرؤ على التقدم ، ويستخلص من مواد ترد من كل صوب وحدب دراسة شاملة للعلاقات المثمرة التى كانت قائمة فى العصـور الوسطى فى مجال التجارة بين الشرق والغرب . والحروب الكبرى التى يطلق عليها بعامة اسم الحروب الصليبية . يتناولها قدر كبير من البحوث التى تزداد أهمية على الدوام ، فلم لا يكون للعلاقات السلمية التى نشأت فى معمعة الحروب . وشـملت تبادل المنتجات بين العالمين ، واستمرت بعدها ، لم لا يكون لها من يتولى تحليلها ؟ واذا كان للدول الصليبية ـ تلك الأشباح التى لا قـوام لهـا ـ مكان فى التـاريخ . فلـم لا يكون للمستعمرات التى أقامتها فى الشرق الأدنى كله أمم الغرب التجارية ، وازدهرت دهرا طويلا ، من يتولى تحليلهـا هى الأخرى ؟ كانت هذه المستعمرات التجارية منذ زمن بعيد موضوعا خاصا لأبحاثى ، وها قد انقضت عشرون سنة منذ أن نشرت فى « مجلة توبنجن » La Revue de Tubingue الايطالية ، وهى أهم المستعمرات فى هذا الخصوص . وأطلع

Tuebinger Zeitschrift fuer die gesammte Staatswissenschaft. 1858-1864.

بعض العلماء الايطاليين على هذه الدراسات • وحين سألنى السيد جوزيف مولر M. Joseph Mueller وكان وقتئذ أستاذا بجامعةُ بادوا ، ثم انتقل الى جامعة تورينو ، أن آذن له بترجمة هذه النبذات ، أذنت له بما طالب وأنا سعيد بذلك • وكان من المستحيل أن أجد انسانا أكثر منه اهتماما وتفهما كاملا لهذا النوع من الدراسات • وكانت هذه ، من ناحية أخـرى فرصة لاضافة نتائج أبحاث جديدة الى الترجمـــة ، وتنقيح بعض الأجزاء الأخرى ، حتى صارت هى الأصل فى الكتاب الذى صار عنوانه :

«Le colonie commerciali delgi Italiani in Oriente nel medio evo, dissenrtazioni del prof. Gugl. Heyd, recata in italiano da prof. Guis Muller. Venezia c Torino, 1866-1868.

وبناء على التوصـــية الكريمة التى قدمها عضو مجلس الشيوخ ، السيد فيديلى لامبريتكو Fedele Lampertico (من فيسنس Vicence) ضم الكتاب الى المجموعة القيمـة المعروفة باسم Nuova collezione di opere storiche التى نشرت بتوجيه المؤرخ الفينيسى رينالدو فولن Rinaldo Fulin ، وشغل منها المجلدين السادس والثالث عشر • ولم يكن هناك حتى ذاك الحين موجز تاريخى من هذا النوع باللغة الايطالية ، ومن ثم حظى مؤلف لكاتب أجنبى فيما وراء الألب بهذا الترحيب الرائع • فقد نلت بسبب هذا النشر شرف القبول عضوا فى جمعيتين علميتين: qn-a'lexe,ànéKig-sn.'rut1.IlTiuosâj بجنوه،و « بفنيسيا تشكل la Deputazione veneta di storia partia مطبوعاتهمـــا فى الوقت الحاضر ، كما تبشر بأن تغـــدو مستقبلا ، كنوزا من المعلومات ذات قيمة عظيمة لتاريخ التجارة ووجدت فى الجمعيتين أصـــدقاء ومعاونين من طبيعتهم مثلى الرجوع الى المصادر التاريخية الأصلية الخالية من أى تحريف ، والعمل بحماسة مدهشة على اثراء الوثائق المنشورة • فكان هذا من حسن طالعى ، ولكنه لم يكن كل شىء : فقد علمت بعد هنيهة ، وفى هذه الظروف ، أن كتابى وجد له قراء فى الشرق الأدنى نفسه ، فى اليونان والقسطنطينية • كما انتقل من اليونان الى جنوب روسيا ، حيث أوحى للسيد الأستاذ برون

M. Bruun من أوديســـا بفكرة اجراء أبحاث جديدة عن مستعمرات بنطس (★)

وفى أعقاب هذا النجاح ، فكرت ان أعرض عملى هذا فى ثوب جديد على العلماء الألمان • وقلبت هذا المشروع فى قريحتى ، حتى قر عزمى على الخروج من الحـــدود التى فرضتهـــا فى البـــداية على نفسى ، بأن أكتب ، لا تاريخا للمستعمرات التجارية الايطالية ، ولكن تاريخا للعـــلاقات التجارية بين العالم الرومانى الجرمانى ، وبين الشرق الأدنى فى العصور الوسطى • ومع ذلك بقى للايطاليين ثمة موضـــع فى الصدارة ، ذلك لأنهم لعبوا فى كل زمان الدور الفائق فى الشرق الأدنى ، وان ظهرت الى جانبهم أمم تجارية أخرى • وكان من المستحيل أيضا تضييق النطاق المخصص لتـــاريخ المستعمرات ، اذ كان لها الفضل فى تغذية التجارة ورعايتها، كما كان ازدهارها وافولها ، يتمشيان دواما مع ازدهار التجارة وكسادهـــا • وكان من الضرورى فوق ذلك دراســـــة طرق المواصلات ، وتنظيم الملاحة ، وشبكة الطرق التجارية القارية ، ونظم الجمـــــارك والضرائب ، الخ • ولما كانت معلوماتنا عن السلع التجارية فى العصور الوسطى محدودة الغاية ، كان من الضرورى أن أتوسع في دراسة التوابل ، والعصور ، ومواد الصباغة ، والأعشاب الطبية فى الشرق ، والكيفية التى كانت تنتشر بها فى الغرب ، وكذا المواد الأولية التى كان الغرب يستخلصها من الشرق ، والمنتجات الصناعية الشرقية باعتبارها سلعـــا للتصـــدير ، مقتصرا بطبيعة الحـــال على المواد الأكثر انتشارا فى تجارة ذلك العصر •

وعلى ذلك فالعمل الذى أقـــدمه اليوم للنشر هو بنوع ما الطبعة الثـــالثة للدراســـــات التى ظهـــرت فى « مجلة توبنجن » • ولما كان من الضرورى أن أقوم بتنقيح الخطة بأكملها ، وأجرى بها المزيد من الاضافات والتصحيحات، لذلك لم يبق بالاجمال شىء من النص الأصلى • ومع ذلك تم اختصار جزء واحد فقط ، فلم أضم شمال أفريقيا الى دائرة دراستى ، اللهم الا فيما يختص بمرور منتجـــات

(★) البحر الاسود ، ويكتب أيضا بنطس ، كما يسميه بعض الجغرفيين العرب نيطس ونيطش ــ أنظر المسالك والممالك لابن خرداذبة (المراجع) •

الشرف ، بينما كنت فى البداية قد خصصت ملحقا للجزء الكائن بين طرابلس والمغرب ·

ويجد القارىء ، اما فى الملاحظات الأولية أو فى الحواشى بيانا عن المصادر التى رجعت اليها · وثمة صديق قديم وكان دائما يشجعنى فى أعمالى ، هو السيد الأستاذ ج·م· موتاس G. M. Thomas من ميوينخ · فقد زودنى بالعديد من الوثائق التى لم تنشر من قبل ، والمستخلصة من دار الوثائق بالبندقية ·

ووضع السيد سيزار جواستى Cesare Guasti مدير عام دار وثائق تسكانيا بفلورنسا ، تحت تصرفى مجلدا لم ينشر بعد ، حافلا بالوثائق البيزية والفورنسية · ولم ينقطع صديقاى وزميلاى فى جمعية C. Desimoni ، la Societ à ligure السيدان ديزيمونى de Gênes و ل·ت· بيلجرانو L. T. Belgrano عن أن يكشفا لى عن كنوز علمهما الواسع ، ومجموعاتهما من الوثائق · كما فاجأنى السيد م·ج· بيرشيه M. G. Berchet مفاجأة سارة حين أرسل لى ملفا بتقارير عظيمة الأهمية عن التجارة ، حررها ايطاليون من البرتغال ، وكان فى حوزته نسخ منها · وكان للصلات التى بينى وبين الأستاذين برون Phil Bruun من أوديسا ، وفلوكنجر Fr. Flueckinger من ستراسبورج فائدة فى عملى هذا ، فقد كانا لى بمثابة الحافز والمشجع · وأخيرا ، فقد تفضل السادة أمناء مكتبات برلين وميونيخ فوضعوا تحت تصرفى كتبا نادرة : فالى هؤلاء جميعا أقدم فى ختام كلمتى هذه أصدق آيات الشكر ·

شتوتجارت ، نوفمبر ١٨٧٨

ف · هايد

الحقبة الأولى

البدايات منذ الفتوحات الكبرى
حتى الحروب الصليبية

● الفصــل الأول :

عصر جوستنيان وخلفائه

جلب طوفان الشعوب المتبربرة التى اجتاحت الامبراطورية الرومانية فى أواخر عصرها بذور حياة جديدة : وبسقوط روما بدأت هذه البذور تنمو فى كل أنحاء أوربا ، وأصبحت سلالات قوية فتية ، ولكنها شبه همجية ، أصبحت فجأة ذات أهمية كبيرة : ذلك لأنها اختلطت بشعوب كانت حتى ذلك الحين خاضعة لروما • وأسفر هذا الاختلاط عن قوميات جديدة ، أدى الى تحول عام فى الدولة والمجتمع والأخلاق • ومع ذلك لم يؤثر هذا الانقلاب بدرجة واحدة فى كل أحوال الشعوب • ففى مجال الحياة الاجتماعية التى هى موضوع دراستنا هذه ، لا نجد فى مستهل العصور الوسطى أى حدث يدانى فى أهميته واقعة اكتشاف الطريق البحرى المؤدى الى الهند الشرقية ، واكتشاف أمريكا ، وهما حدثان تما فى بداية العصر الحديث ، وفتحا للتجارة فجأة سبلا جديدة كل الجدة • فالانتقال من العصور القديمة الى العصور الوسطى لم يتم فجأة على هذا النحو ، حيث بقيت الطرق والأماكن التجارية بصفة عامة على ما كانت عليه •

فمنذ أن أتاحت فتوحات الاسكندر الأكبر للشعوب الغربية المتحضرة أن تتصل بأعماق الشرق ، اتجهت جهود التجارة هذه الوجهة ، لأن الشرق كان مصدر انتاج السلع التى أصبحت ضرورية لسادة العالم الجشعين : كان هؤلاء يستوردون من الهند التوابل التى يضعها الاغريق والرومان فى مأكولاتهم لتحسين مذاقها ، والروائح التى يريقونها على أبدانهم ، وينثرونها فى مساكنهم ، والعاج الذى يصنعون منه أثاثهــم الفاخر • وكانت الصــين تنتج الحرير الذى كانت النسوة ، ومن بعدهن مع ازدياد الرفاهية ـ رجال العصر الامبراطورى ، يحببون أن يكتسوا به • أما الجواهر ، فكانت جبال فارس والهند مصــدر أحجارهــا الكريمة ، كما كان المحيط الهندى مصدرا للآلىء• وشيئا فشيئا اتسعت التجارة، حتى كانت الامبراطورية الرومانية فى عصر « بلين » pline (بلينيوس) تدفع فى آسيا كل عام ثمنا للسلع التى تأخذها منها مائة مليون سسترس sesterces (١)

---

(١) عملة رومانية قديمة (المترجم) •

أى حوالى ٢٠ مليون فرنك ـ كانت الهند تحصل وحدها على نصفها(١) ٠

وفى العصور الوسطى كان الشرق الأدنى لم يزل المقصد الرئيسى للتاجر الغربى ٠ أما السلع التى كانت تستورد فيما بعد من المستعمرات فى أمريكا ، مثل السكر والقطن ، فانها كانت تستورد وقتئذ من سوريا ، وآسيا الصغرى ، وقبرص ، كما تستورد العطور من الهند ٠ وكانت التوابل ، وبالأخص الفلفل ، تعتبر من أهم السلع الغذائية فى ذلك العصر ٠ ونحن اذا بحثنا عن مصدر الأقمشة الرفيعة أو الطنافس التى كانت فى العصور الوسطى تزين مساكن النبلاء ، والأثرياء من الطبقة البورجوازية ، فلا بد أن ننتهى دائما الى الشرق ، فمنه تأتى بوجه عام المادة الأولية ، وفى الكثير من الأحيان النسيج والمطرزات ، وأنواع الأقمشة ٠ واذا كانت التجارة تتبع دائما الاتجاه نفسه الذى كانت تتبعه فى العصور القديمة ، فقد بقيت أيضا الطرق التجارية الكبرى هى نفسها التى كانت موجودة فى العصور القديمة ٠

ولما كانت السفن التجارية لا تعرف طريق رأس الرجاء الصالح لاحضار منتجات الشرق الأدنى ، فانها كانت تكتفى بعبور البحر المتوسط ، أو تمضى على أكثر تقدير فى المياه التى تتصل مباشرة بالبحر المتوسط ، حيث نجد يقينا على طول السواحل أسواقا معروفة منذ قديم الزمان ، كالاسكندرية ، وصور ، وبيروت ، وأنطاكية ، بيزنطة ، وطرابزون ٠ وكان نشوء سوق جديدة حدثا نادرا غير عادى ٠ وكانت البضائع تصل من قلب الشرق حتى ثغور البحر المتوسط ، أو بنطس فى الطرق المستخدمة منذ العصور القديمة ، البحر الأحمر أو الخليج الفارسى ،أما البضائع الواردة من وسط آسيا عن طريق البر فانها تسلك الطرق التى نجدها مذكورة فى مؤلفات الجغرافيين الاغريق والرومان حسبما ورد فى أخبار التجار ٠

ولعل العنصر الوحيد الذى تغير فى هذه التجارة هو عنصر الوسطاء ، حيث حل الايطاليون ، والبروفانسيون ، والقطالونيون محل الاغريق والرومان ٠ ومع ذلك ينبغى ألا ننسى فى هذا الصدد أن الانتقال من العصر القديم الى العصر الوسيط لم يتم دفعة واحدة ٠ فالواقع أنه حين انقسمت الامبراطورية قسمين ورثت الامبراطورية البيزنطية بطبيعة الحال وبتأثير موقعها الجغرافى تجارة الشرق ٠ ذلك أنها حين نجت من الغزوات ، أدت دور الوسيط فى العلاقات التجارية بين الشرق والغرب الى اليوم الذى أصبحت فيه الطبقة البورجوازية بالمدن البحرية بايطاليا وفرنسا وأسبانيا قوية بدرجة استطاعت معها أن تستغنى عن هذه الوساطة ٠

---

(١) Plin .. Hist nat. VI, 26 XII. 41.

وفى وسعنا الآن أن نطرق صميم دراستنا ، وسوف تكون نقطة البداية فى هذه الدراسة ولاية الامبراطور جوستنيان Justinien (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) : والواقع أن لدينا عن هذا العصر وثائق كثيرة تكفى لوضع قائمة كاملة توضح موقف الشرق فى هذا العصر من الناحية التجارية . كان أقصى بلد يتبادل معه اغريق بيزنطة تجارة متصلة هو البلد نفسه الذى ينتج أثمن الحاصلات التى يشتد الطلب عليها . فمنذ عدة قرون كانت صناعة الحرير (التى نريدالتحدث عنها) مزدهرة فى الصين ، غير أن سر هذه الصناعة كان مكتوما بحرص شديد ، حتى لم يستطع الأجانب بالمرة أن يتعلموا أساليبها . وأخيرا حلت اللحظة التى استطاع فيها بلد آخر أن يستغل هذا الفرع الهام من الصناعة : فقد كان هذا الحظ السعيد من نصيب مملكة صغيرة فى وسط آسيا ، مملكة « خوتان » Khotan (بالصينية هو ـ تيان ، بمقاطعة سنكيانج) اثر زواج ملكها بأميرة صينية ؛ قيل انها خانت وطنها واستطاعت أن تفلت من رقابة رجال الجمارك . فحملت معها الى وطنها الجديد دود القز وبيضه وبذور التوت(١).

وليس فى مقدورنا أن نؤكد أن نتاج الحرير قد زاد من حركته المتجهة من الشرق الى الغرب ، وأنه عبر حدود خوتان فى القرن السادس ، ولكن يمكن التسليم بأن الجزء الأكبر من المنسوجات الحريرية التى كان تجار الغرب يتلقونها فى ذاك الأوان كانت تصل اليهم من الصين . وكان الصينيون يصدرون منتجاتهم بأنفسهم ، الا أن سفنهم لم تكن وقتئذ تحمل هذه المنتجات الى أبعد من سيلان ، باستثناء حالات قليلة (٢) . ولم تكن تتخطى حدود تركستان ، ومن هناك تتكفل شعوب أخرى بنقل هذه السلع الثمينة الى الغرب . الا أنه من الصعب التمييز بين هذه الشعوب : فكتاب العصر القديم ؛ ومن بعدهم كتاب العصر البيزنطى (٣) ، كانوا يطلقون اسم « سيرس » Sères على كل من

---

(١) Abel Rémusat. Histoire de Khoten p .34 et s., 53 et s. Hiouenstang, 11Γ mémoires sur les contrées occidentales, trad p. Stanislas Julien II p. 238 et s.

(٢) استعرنا هذه المعلومة الخاصة بالعلاقات البحرية بين الصين وسيلان من Cosmas Indicopheutes Montfaucon, collectio - nova patrum II, 337 :

وأيد هذه المعلومة أيضا الحاج الصينى فاهين (فاهيان) الذى كان يرتحل فى مستهل القرن الخامس ، بادئا من سيلان وعائدا الى وطنه ، وقام بهذه الرحلة البحرية على متن سفينتين تجاريتين كبيرتين ، أوصلته احداهما الى جاوة ، والثانية الى الصين . انظر Foe - Koueki ترجمة وشرح ابيل ريموزان Abel Rémusat ، باريس ١٨٣٦ ، صفحة ٣٥٩ وما بعدها . انظر أيضا Richthofen ، الصين ١ ، ٥٢٠ .

(٣) انظر : Ritter, Erdk VIII, 692 et ss. et Richtofen, China 1, 474 :

منتجى الحرير ومختلف الشعوب التى تتولى توزيعه · ونذكر من بين الأقوام التى كان تمارس تجـارة الحرير بنوع خاص سـكان الصغد فى سـهوب بخارى ، الذين اشتهروا فى العصـور القديمة كلها بمهاراتهم وقدرتهم فى مجال التجارة (١) · وكان الحرير يأتيهم من الصين مع القوافل ، فينقلونها بالتالى ، الى أسواق شمال ايران وجنوب بحر قزوين ·

حقا ، ان المصادر المختلفة لاتذكر ذلك صراحة : نيوفان البيزنطى Théophan يذكر أن الأسواق والثغورالتى يتردد عليها تجار الحراير(٢) وقد تغير أصحابها فى وقت قصير · فبعد أن كان يمتلكها الفرس ، انتزعها منهم الهون « الأفتاليت » (اليو ـ تسى فى الصين) حتى احتلها منهم الترك · وفى رأيى أن الأقوام التى ذكرت فى هذه الفترة تحت اسم «سيرس» هى التى كادت تقطن بلاد الصغد، يؤيد ذلك بقية تاريخ تجارة الحرير · ولكن أين كانت ثغورهم ؟ لم تكن قطعا عند مصاب نهر الاندوس ، ولـو أن هذه المصاب كانت تتصل بالصين بطريق تجارى يمر بآسيا الوسطى ومعابر سلسلة جبال الهندكوش · واذا كان الفرس والهون الافتاليت قد بسطوا سيطرتهم بالتناوب حقبة من الزمن على هذا الجزء من الهند(٣)، فان سلطان الترك لم يمتد أبدا الى هذا الحد ، ينبغى اذن البحث عن بحر آخر · ويرى تيوفان أن ضياع هذه الأسـواق من الفرس كان نتيجة مباشرة لهزيمة ملكهم أبرويز Perozès أمام خان الافتاليت سنة ٤٥٧ م (٤) ، وجرت المعركة الحاسمة بالقرب من الحدود التى تفصل فى الشمال أمبراطورية الساسانيين عن الأقاليم التى يحتلها الأفتاليت سادة سهول نهر أوجزوس(٥) ونهر ياجزارت ، بالقرب من مدينة جورجو الفارسية Gorgo (٦) التى أطلق عليها العرب فيما بعد اسم جرجان ، وتقع على الطرف الجنـوبى

---

(١) Sxmatsien; trad. p. Brosset, dans le Nouveau journ. asiat II, 425. Saint Martin Mém. sur l'Armenie II, 374.
Abel Rémusat Nouveau mél asiat I, 229.
Excerpta e Theophanis historia, ed. Bonn p. 848 et s.

(٢) نهر السند حاليا (المترجم) ·

(٣) فى خصوص الهون أنظر : Cosmas 338 et s.

(٤) Agathias, ed. Bonn. p. 266; Procop. de bello pers. 1,3,4; Theophan. I, 188-190.

(٥) الاسم القديم لنهر أمودار ياوهو بالعربية جيحون ـ المراجع ·

(٦) الاسم القديم لنهر سرداريا ، وبالعربية ميحون ـ المراجع ·
Procop I. c. انظر ايضا Excerpta ex Prisco, éd. Bonn. p. 221 :

من بحر قزوين (١) . أليس من الأوفق اذن البحث على شاطىء بحر قزوين عن ثغور « السيرس » التى فقدها الفرس بعد موقعتهم مع الهون ؟ ونذكر فى هذه المناسبة انه كان يوجد فى العصور القديمة طريق تسلكه عادة بضائع الشرق الأدنى من بلاد الأوجزوس الى بحر قزوين حيث تشحن فى السفن ، وتعبر البحر ، ثم تتقدم فى نهر أراكس Araxe ، وتهبط نهر فاز Phase ، حتى تعبر أخيرا البحر الأسود (٢) .

وفى أعقاب الأحداث التى ذكرناها، أعيد استخدام هذا الطريق (أو لعله لم يبطل استخدامه بالمرة ؟) ؛ غير أنه امتد من ذلك الحين صعودا فى نهر اراكس حتى يصل الى آسيا الصغرى عن طريق نهر ارتاجزات . ثم ان طريق القوافل كان يتبع دائما الحد الشمالى لايران . وسواء كان الحرير ينقل عن هذا الطريق أم عن ذاك ، فان الفرس كانوا هم الذين يتلقونه دائما قبل غيرهم ، ويحرصون كل الحرص على ألا يصل الى الرومان الشرقيين بطريق آخر غير الذى يجتاز بلادهم ، وبأيد أخرى خلاف أيديهم(٣). واتفقت بيزنطة مع فارس على تحديد بعض الأماكن التى يتعين فيها بيع البضائع الآتية من فارس الى البيزنطيين . كذلك كان من المستحيل التملص من الأمر الذى يقضى بأن يكون كل من هذه الأماكن مقرا لمكتب جمركى(٤). وكانت أقصى نقطة فى الشمال هى ارتاجزات التى ذكرناها آنفا (٥) ، ومن بعدها ، فى وسط بلاد ما بين النهرين (أو أرض

---

(١) لا تخلط بينها وبين أورجند Ourgendj عاصمة خوارزم التى سنتحدث عنها فيما بعد
انظر Nivien de Saint - Martin Sur les Huns blanc ou Epthalites dans les Nouv. annal des voy. 1849. III p. 9 et s. not. Spiegel, Eran p. 123 125.

(٢) Plin, Hist nat. VI, 17.

(٣) Abel Rémusat, Remarques sur l'extension de l'empire chinois du Côté de l'Occident, dans les Mém. de l'Acad. des Inscr. VIII (1927) p. 125.

(٤) مرسوم عام ٤١٠ فى قوانين جستنيان .
Exerpta e Petri Patrici hist. éd Bonn. 135.
Exerpta e Menandri hist éd Bonn p. 361 ; Zachariae, Eine Verordnung justinians ueber den Seidehandel. dans les Mêm de l'Acad. de St. Petersb. Série VII. T. IX no. 6 (1865) p. 5.

(٥) يعرفنا بريكون Précope (De bello pers. II, 25, 30) بموضع آخر فى المنطقة نفسها حيث كان يجرى تبادل البضائع الهندية والفارسية : ذلك هو سهل دوبيوس Doubios فى أرمينيا الفارسية على مسيرة ثمانية أيام من تيودوسيوبوليس (ارضروم) . على أن مرسوم عام ٤١٠ يذكر مدينة ارتجزات على أنها المكان الوحيد للتجارة المتجهة الى القسم الشمالى من حدود الأمبراطورية من ناحية الفرس : ويبدو مما سبق ذكره ان هذا المرسوم لم يعد سارى المفعول فى عهد جستنيان : ولكن كون جستنيان قد اثبته فى قانونه يثبت أنه لم يزل سارى المفعول ، وتزول المشكلة اذا سلمنا بفكرة زكريا Zachariae المعقولة (فى المرجع السابق ذكره ، ص ٥ وما بعدها) : فهو اذ يعتمد على موقع المكانين ، يرى أن أسواق سهل دوبيوس كانت هى وسوق ارتجزات سوقا واحدة .

الرافدين) تأتى نصيبين Nisibe (١) . وأخيرا تأتى فى الجنوب الرقة Rakka على الفرات (٢) . وقد رأينا قبلا كيف كان الحرير يصل الى أولى هذه المدن . وكانت مدينة نصيبين تتلقى الحرير من ناحية فى قوافل تنطلق من بلاد الصغد وتجتاز فارس متجهة صوب الجنوب الغربى ؛ ومن ناحية أخرى كان قربها من نهر دجلة يجعلها على صلة بالخليج الفارسى . وجعل فى ميسورها أن تتزود بالحرير عن طريق البحر .

أما بخصــوص الرقة فان موقعهــا على نهر الفرات يبعث على الاعتقاد بأن القسم الأكبر من الحرائر ، التى تصــل أو حتى كلهــا ، كانت تجتاز الخليج الفارسى ، وتصعد نهر الفرات . ويذكرنا هذا بأن الحرير كان يحتمل أن يتبع طريقا آخر غير الذى ذكرناه ؛ فقد كان جزء منه يصدر من الصين الى سيلان عن طريق البحر ، ومن ثم ينقل الى سفن أخرى تبحر الى الخليج الفارسى محاذية الســاحل الغربى للهنــد ، والساحل الجنوبى لكرمان Caramanie . ومن البديهى أنه حين كانت البضائع الصينية تتبع طريق البحر ، كان يمكن أن تفلت من أيدى الفرس لأنه كان فى مقدورها أن تتجه بعد سيلان صوب جنوب جزيرة العرب ، وأثيوبيا (٣) .

وكان فى احتكار تجارة الحرير خطر استطاع الأمبراطور جستنيان أن يستغله . فالواقع أن ذلك الأمر كان بالنســبة الى البيزنطيين المضــطرين الى الحصول على هذه المادة عبئا ثقيلا . اذ لم يكن فى هذه التجارة وسطاء سوى الفرس ، ولم تكن ثمة أمة كأمة الفرس تكثر الحروب بينها وبينهم : ترى ألم يكن يهمهم أن يروا تجارهم يحملون الى أعدائهــم المبالغ الضــخمة المخصصة لشراء المنسوجات الحريرية ؟ وهل كان عليهم أن يقبلوا بهدوء انقطاع هذه التجارة بسبب حالة الحرب ؟ وعلاجا لهذه الأحوال السيئة حاول الامبراطور جوستنيان فى عام ٥٣٢ م أن يفتح طريقا لتجارة الحرير يمر بأثيوبيا : فقد رأى فى الامكان أن يشترى الأثيوبيون الحرير من الهنود ، ثم يبعونه بدورهم الى البيزنطيين . غير أنه حين وصل وكلاؤه الى الموانىء التى رست عندها السفن الهندية (٤) وجدوا

---

(١) لا شك فى أن نصيبين كانت توسل بضائع الهند والصين الى أسواق باتنيه Batné الواقعة شرقا فى سهل سارودج Saroudj بين بير Bir (على الفرات) واورفا Orfa (أردسا قديما) . أنظر الفقرة الغربية لامبين مارسيل Ammien Marcell (XIV,3)

ومع ذلك فان رخاء باتنيه لم يدم زمنا طويلا ، فمنذ القرن السادس ضعف شانها حتى صارت ضيعة مجهولة Procop., De bello persico II, 12)

(٢) Oppidum commerciandi opimitate «gratissimum» Ann. Marcel XXIII, 3.

(٣) Cosmas المرجع المشار اليه آنفا ص ٣٣٧ .

(٤) كانت هذه الثغور واقعة دون شك على مصب نهر الاندوس (السند) .

عندها الفرس مسيطرين على الأسواق لأنهم جيران وعملاء سابقون ، ومن ثم عادوا صفر اليدين ؛ وبقى الفرس دون نزاع ، وحتى يظهر أمر جديد ، محتكرين هذه التجارة (١) ٠

وكانت المنتجات التى تصدرها الهند الى غرب آسيا وأوربا تمر كلها أيضا ، وعلى وجه التقريب بأيدى الفرس ، على الأقل حين كانت القوافل التى تنقلها تسلك الطريق القويم الذى خطته الطبيعة عبر البنجاب ومعابر جبال الهندكوس ٠ ومن الصعب اثبات وجود هذه التجارة عن طريق البر بين الهند وفارس فى فترة الانتقال من العصور القديمة الى العصور الوسطى ٠

وثمة مسافر فى مستهل القرن السابع ، وهو الحاج هيوونتسانج Hiouenthsang وجد فى اقليم بمبان Bamian (الذى يسيطر على الممر الرئيسى فى الطريق المؤدى من الهند الى بكتريان Bactriane) قوما يزاولون التجارة ٠ وذكر بنوع خاص مدينتى كابيسا Kapiça (غير البعيدة عن كابول) واوتاكندا Outakanda (اوهند Ohind القريبة من بشاور) ، باعتبارهما سوقين ترد اليهما بكميات كبيرة أكثر البضائع ندرة وأهمية (٢) ٠ ولكنه لسوء الحظ لايذكر شيئا عن اتجاه الحركة التجارية هذه ٠ ولم يكن هناك شك فى أن بضائع الهند كانت تتجمع فى تنقلها صوب الغرب فى موضع ما عند مشارف آسيا الوسطى ، ثم تنتهى فى اقليم بيزنطة عند ارتاجزات أو نصيبين (٣) ٠

غير أن القسم الأكبر من المنتجات التى كانت الهند تصدرها الى فارس كانت تنقل بحرا بمحاذاة السواحل، فلا تنزل الى البر الا بعد أن تصل اما الى أقصى الخليج الفارسى أو الى أحد المرافىء على نهرى دجلة والفرات ، حيث يكون المجرى السفلى لهما صالحا للملاحة ٠

وكان أول مرفأ لاعادة التصدير تقابله فى هذه الرقعة السفن القادمة من الهند هو ابولوجوس Apologos الذى سمى فيما اوبولاه Obollah ، والذى ورد ذكره قبلا فى « رحلة البحر الأحمر » باعتباره أحد المواقع الرئيسية لرسو السفن المحملة ببضائع الشرق الأوسط ولم يفقد هذا الموقع شيئا من أهميته فى عهد الساسانيين (٤) ٠ فحين تتجاوز السفن هذا الميناء وتصعد نهر

---

(١) Procop, De bello persico I, 20.

(٢) Hiouentsang, Mém. I, 37, 40, 125.

(٣) يتحدث Procop. (De bello pers. II 25) عن بضائع هندية تصل الى سوق سهل دوبيوس ، انظر بعاليه ٠

(٤) راجع : Geogr groeci min, éd. Muller I, 285 et Reinaud, Mémoire sur le royaume de la mésène et de la Kharacène, dans les mém. de l'Acad., des insir., XXIV, II, pp. 189, 212, 213. Gildemeister, Script. arab, de reb. ind. loci., p. 37 et s.

دجلة ، لاتقطع مسافة طويلة حتى تصل الى حاضرة ملوك الفرس العظيمة «مدائن كسرى » (طيشفون عند الرومان) · فاذا صعدت السفن نهر الفرات تستطيع أن تتقدم حتى الحيرة Hira (بالقرب من مدينة مشهد على الحالية) دون أن تخرج من حدود الامبراطورية الساسانية ·

لقد انقضى زمن طويل على العهد الذى كانت فيه سيادة الرومان السياسية والتجارية ملموسة حتى الفرات الأدنى وشواطىء الخليج الفارسى ؛ وكانت مملكة الحيرة الصغيرة المزدهرة فى أيدى أمراء من العرب يعترفون بسلطان ملوك الفرس (من منتصف القرن الثالث حتى مستهل السابع) · وكانت سفن السند والهند (١) ، وكذلك سفن الصين ، تسير الى ديارهم التى يمكن اعتبارها الى حد ما ضمن مدن فارس · ومن هناك تتسلم القوافل حمولتها الثمينة وتسير بها فى جميع الاتجاهات ، وبخاصة فى عصر الأسواق الكبرى التى كانت تعقد فى الحيرة مرة فى كل عام (٢) ·

حقيقة أنه من الصعب تحديد جنسية السفن التى كانت فى القرن السادس تنقل حاصلات الهند الى بلاد ما بين النهرين · وقد أبدى اثنان من أكبر المستشرقين الفرنسيين ، رينو Reinaud ، وكاترمير Quatremère فى هذا الخصوص رأيين مختلفين · فقد زعم الأول أن الفرس كانوا فى عهد السيادة الساسانية يملكون أسطولا بحريا كبيرا ، فى حين لم يكن الهنود يظهرون على شاطىء الخليج الفارسى الا ليمارسوا أعمال القرصنة (٣) · ومن ثم يتعين الاجابة على السؤال الذى طرحناه آنفا بأن القسم الأكبر من السفن كانت فارسية الجنسية · أما كاترمير (٤) فيؤكد أن الفرس لم يكونوا أبدا أمة بحرية · فاذا أخذنا برأيه هذا ، تعين التسليم بأن الهنود هم الذين كانوا يتولون بأنفسهم نقل حاصلات بلادهم الى فارس ·

والراجح أن الحقيقة تقع بين هذين الرأيين · ونعتقد من جانبنا أن كلا الشعبين قام بنصيب فعال فى هذه التجارة البحرية · ففيما يختص بالهنود ، نعلم أنه الى جانب قبائل القرصان المتوحشين الذين يمارسون كثيرا أعمال النهب والتخريب على الشاطىء الفارسى ، كان يوجد منذ زمن بعيد على الساحل

---

(١) تبعا لتقليد قديم ذكره المسعودى فى « مروج الذهب » نشره وترجمه ب · باربييه دومنيار ، وباقيه دوكورتيى Barbier de Meynard et Pavet de Corteille, راجع حمزة اسباهانسيس Hamza Ispahanensis (I, p. 216, 219, (ed. Gathualdt, p. 80).

(٢) Caussin de Perceval, Hist. des Arabes II, 616 et ss.

(٣) Reinaud, Relations des voyages faits par les Arabes et les Persans, I.

(٤) فى دراسته للكتاب المذكور بعاليه Journal des Savants 1846, Nov. p. 681 et s.

الغربى للهند ، وبخاصـــة فى ملبار ، وشبه جزيرة جوجارات Goudjerate شعب متمـدن يعتمـد فى معيشته على البحر ، ويمضى بحثـا عن السلع فى بلاد نائية (١) ·

فضلا عن ذلك أثبت بروكوبيوس Procope بصورة قاطعة ، وهو يروى محاولة جوستنيان انتزاع احتكار تجارة الحرير من أيدى الفرس أن سفن الهند هى بوجه عام التى كانت تجلب الى الفرس حرير الصين · وينبئنا أخيرا كوزماس Cosmas أن جزيرة سيلان كانت ترسل فى عصره سفنا الى فارس · غير أن الفرس لم يكونوا من ناحية أخرى يجهلون فن الملاحة كما يزعم كاترمير · فقد كان فى كاليانا (كاليانى) Kalliana (Kaljani) بالقرب من بمباى على ساحل ملبار ، وفى جزيرة سيلان فى القرن السادس ، مستعمرات مسيحية فارسية الأصل ، قدم قساوستها من ذلك البلد ، وتجار خيول فارسية ، ومبعوثون من الملوك الساسانيين فى زيارة لجزيرة سيلان ·

غير أن هذه الحقائق لاتكفى بالتأكيد لاثبات وجود أسطول بحرى فارسى· ولكن من غير المحتمل أن يضطر كل هؤلاء المسافرين والمهاجـرين الفرس أن يركبوا سفنا أجنبية ليذهبوا الى الهند · يقول كوزماس ، وهذى حجة قاطعة ، انه كان يصل الى سيلان عدد كبير من السفن القادمة من فارس · نخلص من ذلك بالقول بأن الهنود كانوا يحملون الى فارس منتجات بلادهم على سفنهم الخاصة ، وأن الفرس (وربما أيضا عرب الحيرة التـابعين لهم ، كانوا يرسلون سفنا الى الهند (٢) · وكانت نهاية هؤلاء بالتحديد هى سـيلان التى كانت كل الأمم البحرية فى المحيط الهندى ترسل اليها آنئذ سفنها لمبادلة بضائعها ·

ووجد تجار الغرب هناك ، الى جانب منتجات البلد ، حـرير الصين ؛ والقرنفل ، وخشب الصبر أو الصندل (وهو من حاصلات الهند الصينية) التى تستورد كالحرير على سفن صينية (٣) تسير عند عودتها بمحاذاة سـاحل

---

(١) Hiouentsang, Mém. II, 121, 162, 165.

(٢) يدعم هذا الرأى ما رواه Theophylactus Simocatta ، اذ يقول ان يهودى الفرس قد اكتسبوا فى عهد الساسانيين ثروات كبيرة بارسالهم سفنا تجارية فى بحر ارتيريا (ed. Bonn, p. 218). ، أما الترجمة اللاتينية فانها تحرف المعنى فى المؤلف الأصلى ·

(٣) يوضح رشتهوفن Richt-hofen (China I, 520 et s.) إن الصينيين كانوا يمضون بعيدا أحيانا ، وأقل بعدا أحيانا أخرى صوب الغرب ، ولكن حملاتهم بسيلان ، تلك التى ترجع الى عهد تسن ، ملوك الشرق (٣١٧ ـ ٤١٩) كانت قوية ونشيطة ، ويتبدى ذلك أيضا فى الحوليات الصينية · ومع ذلك يبدو من المشكوك فيه أن يكون الصينيون ، بعد أن بلغوا أقصى موقع معتاد لرسو سفنهم ، قد مضوا قدما بسفنهم حتى مدينة الحيرة على نهر الفرات · وكان الذين ذكروا هذه الواقعة يعيشون بعد هذه الآونة بعدة قرون · أما رشتهوفن فانه يؤيدها بسهولة ·

ملبار ، ويمكنها أن تتزود فى طريقها بالفلفل ، أو تشحن عند مصب نهر السند (الاندوس) بمسك التبت وغيره (١) .

واذ كان الفرس يسيطرون على تجارة الهند ، فليس معنى ذلك أنه لم يكن لهم ثمة منافس : فقد كانت مملكة أثيوبيا المسيحية ترسل أيضا من ميناء أدوليس (عدولى) Adulis سفنا تقصد الهند لتبيع منتجات أفريقيا كالبخور ، والسنامكى ،والعاج المتوفر فيها ، وتأخذ منتجات هندية كأجر للعودة (٢) .

كان هذا اذن طريقا آخر مفتوحا للتجارة بين الغرب والشرق . وخلقت المصالح الدينية والسياسية المشتركة بين أثيوبيا وبيزنطة مجموعة من نقط الاتصال . كما كانت المصالح المشتركة لازمة ضرورية لهذه المصالح . فقد سيطر الأثيوبيون فى الجنوب على مخرج البحر الأحمر الذى تمتلك الأمبراطورية البيزنطية القسم الشمالى منه . بل كان الاغريق يفضلون أن يتسلموا بضائع الشرق الأوسط من أيدى أصدقائهم الأثيوبيين المسيحيين على أن يتسلموها من أيدى أعدائهم الفرس عبدة النار . لذلك كان عدد كبير من تجار الأقاليم البيزنطية يذهبون الى أثيوبيا ، اما عن طريق ايلة والعقبة والخليج الذى يحمل هذا الاسم واما عن طريق الاسكندرية طلبا لمنتجات أفريقيا ، والهند ، بل ان بعضهم كان يركب هناك سفنا أثيوبية تبحر بهم الى الهند (٣) .

وكان الأثيوبيون بطبيعة الحال يحصلون على ربح من بيعهم بضائع الهند للاغريق . ومن ثم كان اهتمامهم الكبير بالمحافظة على هذه التجارة الوسيطة . لذلك ففى اليوم الذى قتل فيه ملك اليمن اليهودى « ذو نواس » Dhou Nuwas التجار الاغريق الذين كانوا يمرون ببلاده ذاهبين الى أثيوبيا ، استاء ملك أثيوبيا كل الاستياء من هذا الفعل ، وأعلن عليه الحرب (حوالى ٥٢٥ م) (٤) .

---

(١) توجد الأخبار المستعارة من كوزماس Cosmas الى هذا الحد فى الصفحات من ٣٣٧ الى ٣٣٩ ، و ١٧٨ . راجع جيرمان
(Die Kirche der Thomaschristen : German p. 134-139).

(٢) فى المرجع نفسه ص ١٣٩ ، ٣٣٩ . وفى : Palladius, De gentibus Indioe et Bragmanibus, ed. Bissoeus, p. 59. يذكر امبروزيوس Ambrosius بنوع خاص موزيريس Muziris (Mangalore) على ساحل ملابار ، باعتبارها غاية السفن التجارية الأثيوبية .

(٣) Cosmas, p. 139, 338; Joh. Malalas, ed. Bonn, p. 433.

(٤) (المرجع السابق)
Assemani, Bibbiotheca orientalis, T. I, p. 359; John Malalas
انظر : Gratz, Geschichte der Juden, V. p. 449 et s.
ينكر جراتز أن يكون ملك أثيوبيا هو الذى قام بالهجوم ، ولكن مالالاس يسميه ملك أكسوم ، وكانت أكسوم قلب أثيوبيا .

وكان للاغريق من أباطرة بيزنطة ؟ مع ذلك وسائل أخرى لجلب بضائع الهند عن طريق البحر الأحمر ، خلاف السفن الأثيوبية ٠ فقد كانوا يملكون فى شمال هذا البحـر ثغرا محصـــنا يسمى كليســما Clisma (١) القلزم Kolzoum ، بالقرب من السويس الحالية) ؛ ولم تكن حركة التجارة فى هذا الميناء قاصرة على استقبال السفن والتجار الأجانب القادمين من الهند ٠ بل كان يخرج منها سفن ، كما كان الامبراطور اليونانى يعين بالميناء موظفا يسمى « لوجوثيت » Logothète يسافر اليها مرة كل سنة ليجلب منها البضائع(٢)٠ ويؤكد الكاتب الذى أخذنا عنه هذه المعلومة أن القلزم كانت الميناء الوحيدالواقع فى اقليم يونانى ، وترسو عنده السفن العائدة من الهند ٠ غير أن أحد الحجاج المسيحيين فى القــرن السادس (٣) رأى فى القلزم ، وكذا فى أيلة على الخليج المسمى باسمها ســـفنا قادمة من الهند ، وبها منتجات هذا البلد ٠ وكان من الروايات الثابتة المأثورة عن العرب فى العهود السابقة على الاسلام أن أيلة كانت مدينة تجارية ، ومحطة جمارك ، ترسو عندها السفن القادمة من اليمن والهند والصين وغيرها من البــلاد (٤) ؛ ومنها تنقل القوافل شـــحنات السفن الى فلسطين أو سوريا ٠

وكان لليونانيين بالقـــرب من جزيرة جوتاب Jotabe (تيران Tirân الحالية) محطة جمارك تتوقف عنـــدها السفن المتجهة الى القلزم لتسدد الرسوم المفروضة على المنتجات الهندية (٥) ٠ ومن القلزم تنقل البضائع الى البحر المتوسط على ظهور الجمال ، أو بطريق الماء ، لأن القناة المحفورة منذ أقدم العصور لربط البحر الأحمر بنهر النيل (٦) ، والتى تم حفرها فى عهد البطالمة ، وترميمها

---

(١) يجب كتابة الاسم على هذا النحو Clisma و Clysma كما يكتب بوجه عام ، انظر : Vivien de Saint - Martin, Le Nord de l'Arique, Paris, 1863 : p. 245.

(٢) انظر فى :
Petrus Diaconus. De locis sanctis (dd. Tosti, Storia della badia di Monte Cassino, II) p. 135 et s.

نبذة ممنعة عن كليسما فى عهد السيادة البيزنطية ٠

(٣) Itinerarium Antonini Placentini, ed. Tobler, St. Gall. 1963 p. 42, 44, ou dans Tobler et Molinier, Itinera hierosolymitana bellis sacris anteriora I, 113, 115, 378 et s.

(٤) Ritter, Erdk, XIV, p. 51 et ss.

(٥) Theophanes, éd. Bonn I, 218 ; of Excepta e Malohi histoira p. 232 et s. : Procop. De brllo pers I. 19; Id. Anecdota, éd .Isambert, p. 564; Ritter, op. cit XIII, 221 XIV, 19.

(٦) Letronne Recherches sur le livrs De mensura orbis terroe par Dicuil, Prolégomènes p. 9 et ss. ; Humboldt, Krit. Unters. Uber die hist. Entw. der geogr. Kenntnisse von der neuen Welt, I, 416 et s.

فى عهد تراجان Trajan ، لم نزل قائمة (حتى بداية القرن السادس على الأقل) ؛ ثم امتلأت بعد ذلك بالرمال · غير أن العرب أعادوا اصلاحها ، وعملوا على صيانتها بعض الزمن ·

وكان هناك أيضا ، خلاف القلزم وأيلة ميناء رأس بناس Bérénice (١) المشهور الذى ظل يعمل حتى القرن الرابع · فكانت بضائع الهند التى تفرغ فى هذا الميناء تتخذ طريق البر الى طيبة ، ومنها تنحدر على نهر النيل · وعلى ذلك كان البيزنطيون يتسلمون بطرق متنوعة منتجات شرق آسيا وجنوبها ·

بقى لنا أن نشير الى طريق تجارى آخر ، ذلك الذى يبدأ من وسط آسيا ، ويمضى محاذيا الساحل الشمالى لبحر قزوين ، وينتهى اما الى بحر آزوف أو الى القرم ، فى المواقع التى شيد فيها اغريق بيزنطة مدينتى بسفور Bosparous وخرسون Cherson باعتبارهما مخفرين أماميين · وأنا لنتساءل عما اذا كان هذا الطريق صالحا للاستعمال فى عهد جوستنيان ؟ وكانت هاتان المدينتان تدينان برخائهما الأكيد ــ مثلما كان الحال فى مدينتى تانا Tane وكافا Caffa الى تلك الظروف التى جعلت المنتجات الأسيوية الداخلية تنتهى عندهما قبل أن توزع على الغرب · ولكن لا أظن ذلك · أولا فيما يختص بالبسفور (وهى اليوم كيرتش kertch) ، تذكر لنا المصادر بأنها كانت على صلة بجيرانها « الهون » (٢) · ولكن الهون لم يكونوا فى هذه المنطقة يزاولون التجارة ببضائع الشرق الأوسط · فهم لم يستوردوا الى هذه السوق سوى جلود الشمال وفرائه(٣)·أما بخصوص خرسون ، فالأمر يختلف على مايبدو· يقول جوردانيس Jordanès (٤) فى سياق حديثه عن هذه السوق ، من ان التجار الجشعين كانوا يجلبون اليها كنوز آسيا ·

وكانت أهمية خرسون بنوع خاص هى أنها كانت تصدر الى الاغريق منتجات بلاد الشمال ، وتزود برابرة الشمال بالبضائع التى ترد على الأمبراطورية اليونانية · وكانت بضائع الشرق هى أكثر ما يطلبه البرابرة

---

(١) Epiphanius, Adv. hoereses, cap. 66. 1. (Opp. ed. Dindorf. III. 1 p. 17); Palladius Ep. Hist. Lausiaca dans la Bibl. vet. patr. graec. lat (éd Ducoeus, Par. 1624, II, p. 997); Acta, Arethoe dans Boissonade, Anecdota graeca, V. 45.

وفيها ذكر لبناس باعتبارها ثغرا بحريا الى جانب ايلة (ايلات)

(٢) وكليس ، وجوتابى Johannes Malalas, éd Bonn. p .432.

(٣) Jordanes Getic e. 5. (ed. Mommsen) Mon. Germ. Anfiq. V. 1, p. 63.

(٤) المرجع السابق .Jordanes Getic.

ويقدرون قيمته . لذلك كان التجار الاغريق بكولشيد Colchide وآسيا الصغرى وبيزنطة يحملون بهمة الى هذه السوق التوابل وأقمشة الشرق الأدنى الرقيقة . وعن طريق أهالى خرسون بنوع خاص كان برابرة هذه المناطق الواقعة شمالى بنطس من القوط مثلا (وهم مواطنو جوردانيس) يشترون هذه السلع الثمينة . ولا أظنني مخطئا فى تفسيرى هذا لحديث جوردانيس .

وفى رأيى أنه ليس هناك ما ينبت أن بضائع الشرق الأدنى كانت تتبع طريقا يمر بجنوب روسيا الحالية . ومن المحتمل أنه بعد عصر جوستنيان ، حين توترت العلاقات السياسية بين بلاد الصغد وفارس ، اتخذ جزء من بضائع الشرق الأدنى مؤقتا هذا الطريق الى الأمبراطورية اليونانية . وسوف تتاح لنا الفرصة للعودة الى هذه النقطة عندما نتتبع تاريخ تجارة الحرير .

ومن المعلوم أن جوستنيان قد عمل قبل كل شىء على تخليص القارة من التبعية للفرس ، وعلى القضاء على احتكارهم أثمن سلعة ، الا وهى حرير الصين . واذ تبين أن الأثيوبيين ليسوا قادرين على تحقيق هذا الغرض ، بدت المشكلة غير قابلة للحل . ولحسن الحظ نجح الأمبراطور فى الحصول على بيض دود القز . أتى له بها بعض الرهبان القائمين بالتبشير ، وكانوا قد توغلوا داخل البلاد المنتجة للحرير ، وعلى الأرجح فى « خوتان » (فى حوالى عام ٥٥٢) (١) .

وهكذا نشأت صناعة الحرير فى الأمبراطورية اليونانية .

وفى عام ٥٦٨ استطاع خليفته جوستين الثانى أن يعرض هذه الصناعة بكامل طاقتها على سفير تركى كان حاضرا فى بلاطه (٢) . ومع ذلك انقضت عدة سنوات قبل أن يتيسر للصناعة الوطنية أن تنتج قدرا من الحرير الخام يكفى لسد المطالب كلها.وكان لزاما عليها ، لزمن طويل أن تستورد من الصين الجزء الأكبر من المادة الأولية ، وأحسن أصناف الحرير ، وأن تتحمل الشروط القاسية التى يفرضها الفرس ، الوسطاء الحتميون لهذه التجارة . وكانت السفارة التركية فى عام ٥٦٨ فرصة مواتية بنوع خاص للوصول عن طريق آخر الى الغاية المنشودة ، وان ارتبطت هذه المسألة ارتباطا وثيقا بتغيرات طرأت على الحالة السياسية فى آسيا الوسطى ، يتعين التحدث عنها لفهم ما أعقب ذلك من أحداث .

---

(١) Procop. De bello gothico IV, 17, Excerpta e Theophanis historia, éd. Bonn. p. 484.

يبدو من الوصف الذى قدمه ريشتهوفن (China I 450 et s.) انه من الراجح أن سرندا Serinda بروكوبيوس ليست سوى ختان Khctan

(٢) تيوفان Theophan ، المرجع السابق .

كان جوستنيان لم يزل متربعا على العرش فى العصر الذى بلغت فيه قبيلة تركية أطلق عليها الصينيون اسم « طوكيو » Toukiou فى وسط آسيا درجة كبيرة من القوة والسلطان . فمن ناحية بسطت هذه القبيلة سيادتها من سهوب بحيرة بلخاش Balkhach (حيث مقر خانهـا الأكبر (١) . فى وسـط آسيا) حتى الحدود الغربيـة والشمالية للصين ، وأمست تهددها تهديدا خطيرا ؛ ومن ناحية أخرى انتشرت القبيلة على طول نهر أوجزوس (جيحون) ، فأخضعت تركستان وتوخارستان Tokharestan وبخارى ، وكل البقاع التى تليها حتى بحر قزوين ، وقضت على امبراطورية الهون الافتاليت (٢) . وفى الجنوب الشرقى وقفت سلسلة جبـال الهندكوش أول عقبـة فى طريق تقدمها (٣) . وعلى ذلك كانت الامبراطورية التركية الجديدة بمثابة ركن غائر بين الصين وفارس ، حتى كان على البضائع المرسلة من الصين صوب الغرب أن تمر حتما عبر اقليمها ، لمدة طويلة من الزمان بنوع ما . ولدينا فى هذا الخصوص معلومات تفصيلية دقيقة واردة فى التقرير الذى قدمه بيكيو Peikiou حاكم الحدود الصينية عن حالة « الطرق التجارية بوسط آسـيا فى مستهل القرن السابع (٤) .

وكانت هناك ثلاثة طرق تربطها بعضها ببعض ، طرق فرعية بحيث كان

---

(١) فى الامكان أن نحدد على وجه التقريب موقع هذا المقر بدلالات ثلاث : أولا ، وصف طريق الشمال التجارى كما ورد فى « أخبار بيكيو Relation de Peikiou (أنظر فيما بعد) ، ثم رواية زيماركوس بيزنطين Zemarchos Byzantin بشأن سفارته ، ونجدها فى ، Exc. e Menandri hist p. 381 et ss. وأخيرا فى « سيرة الحاج الصينى هيونتسانج بقلم هويلى Hoeili وينتسونج Yenthsong ، الناشر ستانيسلاس جوليان ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) Exc. e Menandri hist p. 354; Theophan p. 485. Theophyl. Simoe, p. 283.

(٣) عن امبراطورية طوكيو وامتدادها انظر Supplément de la bibliothèque orientale صفحة ٤٠ وما بعدها ، كذلك .

— Klaproth, Tableaux historiques de l'Asie, p. 115 et ss.;
— Stanish. Julien. Documents historiques sur les Toukious, dans le Journ. asiat, Série VI, t. III.

ولم يتيسر معرفة مدى اتساع هذه الأمبراطورية غربا وجنوبا الا منذ ظهور أخبار رحالة هيونتسانج : (Mém. I p. 16, 17 et s., 23; II p. 190-195, 478 et s.

راجع سيرته بقلم هويلى وينتسونج ص ٦١ .

(٤) Neumann, Asiatische Studien, I. p. 187 et ss; Ritter, Asien, V. p. 563 et s.

ولن نلتفت الى الطرق التجارية الثلاثة التى وصفها ، حسب مصادر أكثر قدما ، ابيل ريموزات : Abel Rémusat, Remarques sur l'extension de l'empire chinois I. I. p. 121 et s.

من السهل المرور من طريق لآخر • وتبدأ الطرق كلها من الحدود الصينية حتى تجتاز صحراء جوبى • وأول نقطة مسكونة يصل اليها طريق الشمال هى واحة « خاميل » أو « هامى » Hami Kkamil (وكانت تسمى فى ذاك الحين ايجو Igou (١) • ومن هناك يمتد الطريق الى الشمال ، ويقطع الجبال المجــاورة لبحيرة برقول Barkoul (وكانت تســـمى وقتئذ بولوى Pouloui (٢) ، ويجتاز نهر دزونجارى Dzoungari الحالى ، ويمس بنواحى بحيرة بلخاش ديار قبيلة « الاوجوريك ــ تاى لو » ouigourique des Thie-le (٣) ، ثم مقر الخان الأكبر لقبيلة طوكيــو ، ثم يمتد غربا فيصــل الى مدينة تلاس Talas الواقعة على النهر الذى يحمل هذا الاسم ؛ وهو ممر مشهور فى العصر الوسيط كله ، حيث وجد هيوونتسانج Hiouenthsang حوالى عام ٦٣٥ تجارا من بلاد مختلفة مقيمين بها(٤) ــ وهذه حقيقة ثابتة ، ولو أنها لم تذكر فى التقرير • ويجتاز الطريق بعد ذلك نهرا يســير صوب الشمال ، لابد أنه نهر سرداريا Syrdaria (باجزارت Iaxarte) أو سيحون وبعد هذا لا يذكر التقرير سوى المواضع النهائية لبيزنطة ، وبحر « الغرب » • وهذا الأخير مصطلح له عند الصينيين عدة معان •

وفي حين يجتاز طريق الشمال أقل أقاليم الأمبراطورية التركية خصوبة، كان طريق الوسط يجتاز أكثر الأقاليم ثراء وخصــبا ، فيمتد جنوبا بمحاذاة جبال سيان شـــان Thian-Chan ويمر ببورفان ، وكاراشان ، وكوتشن ، وهى مقاطعات وجـــد بها هيوونتسانج أيضــا حركة تجــارية ومناجم غنية يجرى استغلالها (٥) ويجتاز خانق تريك Térek الجبلى غربى الكاشفار Kaschgar ثم يتجه الى اقليمى فرغانة Feghâ وأوسروشـــنال Osrouchnal

(١) Vivien de Saint-Martin, notes à Hiouenthsang, Mémoires, II, 263; Ritter, Asien, I, p. 357.

(٢) Ritter, Asien, vol. I, p. 379. Stanisl. Julien dans le Journ. asiat, Série IV. VIII p. 239.

يبدو لى من الجرأة بعض الشىء أن نعتبر بحيرة بولوى Pouloui هى نفسها بحيرة لوب Lop، كما يدعى نيومان (المرجع السابق ص ١٩٣) ، وريشنهوفن (China I, 530)

(٣) فى خصوص مواطن هذه القبيلة أنظر : Ritter ، المرجع السابق، ص ٣٤٥ ، ٤٤١ وكلابروث : Klaproth ,Tabl. hist de l'Asie, p. 127.

(٤) Mem. I. p. 14.

يثبت كل من : Bretschneider (Notices of the medical geography p. 38. و : Richthofen (China I, 542 et s.)

أن تلاس القديمة لا بد أن تكون موجودة اما فى موقع حصن أولى ــ آتا الحالى أو بجواره •

(٥) Mém. I, p. 2-4. Hist de la vie de Hiouenthsang p. 47, t. s.

مارا بأسواق بلاد الصغد القديمة (سمرقند ، وبخارى) . ومن هناك ينحرف صوب الجنوب الغربى ، ويجناز ميرف Merv حتى يصل الى امبراطورية الساسانيين (١) .

أما الطريق الثالث فانه يجتاز القسم الجنوبى من الامبراطورية التركية . وكان على المسافر الذى يسلك هذا الطريق أن يقطع أولا مسافة طويلة عبر الصحراء جنوب غربى بحيرة لوب Lop حتى مملكتى خوتان ويرقند Yarkand اللتين كانتا فى ذلك العصر على درجة كبيرة من الحضارة وبعد أن يجتاز هاتين المملكتين ، يجتاز غالبا هضاب البامير Pamiiar المرتفعة ، واقليمى باداقشان Badakschan وتوخارستان Tokharestan ويصل أخيرا الى الهند عبر ممر باميان Bamian ومدينة غزنة Gazna (بأفغانستان) (٢) .

وهكذا ، فمهما كان الاتجـــاه المتخذ للوصـــول الى الغرب ، كان الحرير وسائر منتجات الصين وبلاد شرقى آسيا بعامة ، تمر عبر الامبراطورية التركية العظمى . ولسنا نعرف كيف كان الترك أنفسهم ، وهم شعب من الرعـــاة والمقـــاتلين الذين لم يزالوا من البـــدو المتنقلين ، يعملون عمل الوسطاء فى التجارة . غير أنه كان فى الاقليم الذى يحكمونه قبائل مستقرة تزاول التجارة هنـا وهناك . وقد اجتـــاز هيونتسانج اقليما تقطنه احـــدى هذه القبائل ، فابتعد عن الطريق الأوسط بعد أن اجتاز فى شمالى مدينة أكسو Aksou الحالية جبل مز - تاج Muz-tag وســـار بمحاذاة بحيرة اسيكول Issikoul ، متجها الى تلاس .

وكانت القبيلة والاقليم يعرفان باسم سولى Souli والمدينة الرئيسية سوشيه Souché (حاليا تكماك Tokmak) ، كما كان هناك تجار من مختلف الممالك ، ونصف السكان يمارســـون التجارة (٣) . وكان فى فرغانة أيضـــا أهال يمارسون التجارة ، الا أن سكان مدن الصغد كانوا قبل غيرهم يشتهرون بأنهم تجار أكفاء ، وصناع بارعون . واذا كانت سمرقند تجمع فى سوقهـــا

---

(١) فى خصوص هذا الطريق ، أنظر أخبار رحلة هيونتسانج ، وآبل ريموزات :
Nouv. mélang asiat., I, p. 200 et ss.

(٢) اتخذ هيونتسانج عند عودته الى الصين نفس الطريق . وبتتبع أخباره ، والاستعانة بالشرح الممتاز الذى قدمه فيفيان دو سان مارتان ، نجد كل محطات هذا الطريق الجنوبى على وجه التقريب . راجع : ريشتهوفن ، المؤلف السابق ذكره .

(٣) هيونتسانج (Mém. I, p. 12 et s.)

- فسر ريشتهوفن (China, I, 541 et ss) هذه الفقرة بأحسن مما فسرها فيفيان دو سان مارتان الذى لم يتسن له - فى العصر الذى كتب فيه - أن يستخدم الأبحاث التى تجرى فى روسيا فى الوقت الحاضر .

كميات هائلة من أثمن بضائع البلاد الأجنبية ، فانها تدين بذلك بالأخص لذكاء سكانها ونشاطهم (١) .

وكانت القوافل التى تحمل حرير الصين تتجه صوب بلاد الصغد بنوع خاص . ومنها تتجه الى فارس . غير أنه منذ أن خضعت هذه البلاد للترك ، لم يعد المرور بهذا الطريق ميسورا كما كان من قبل . وكان الملوك الساسانيون يخافون على سلطانهم من جوار هذا الشعب الغازى : اذ كان فى مقدور جيش تركى غازى أن يتوغل بسهولة فى الاقليم الفارسى خلف القوافل الصغدية . وعلى ذلك حظر هؤلاء الملوك على رعاياهم أن يشتروا الحرير من أهل الصغد . وبناء على طلب هؤلاء الأخيرين ، أوفد أحد نواب الملك التركى . (ويدعى تيثويولى Titheupoli عند الصينيين ، وديزابولوس Dızaboulos أو سلزبولوس Sılzıboulos عند اليونانيين (٢) وكان حاكما للقسم الغربى من الامبراطورية التركية ، أوفد بعثة الى فارس لوضع حد لهذا التوقف فى التجارة . ولم يأت هذا المسعى بنتيجة ، اذ لم يسمح ملك فارس بدخول أى حرير آت من الامبراطورية التركية .

وكان المبعوثون قد أتوا اليه معهم ببعض الحرير ، فدفع لهم ثمنه ، ولكنه أحرق الحرير أمام أنظارهم . وجاءت بعثة ثانية لقيت هى الأخرى استقبالا أسوأ — وعلى ذلك اضطر أهل الصغد الى البحث عن سوق أخرى لتصريف حريرهم . وأقنع زعيمهم مانياك Maniach خان الترك أن يوثق علاقات الصداقة بالبيزنطيين بقصد أن يبيع الهم الحرير مباشرة ، اذ كانت الأمة البيزنطية تستهلك الحرير أكثر من أية أمة أخرى . وسافرت البعثة الى بيزنطة عن طريق القوقاز ، وسافر معها مانياك نفسه ليفتح الطريق التجارى الجديد . وأحسن الامبراطور جوستين الثانى وفادة المبعوثين ، وبعث بدوره «الزيمار le Zimarque ليؤكد صداقة الترك والبيزنطيين . حدث هذا فى سنتى ٥٦٨ ، ٥٦٩ (٣) .

ومن المفيد معرفة الطريق الذى كان يسلكه تجار الحرير الصغديون فى هذا الوقت لكى يسلموا بضائعهم للبيزنطيين مباشرة ، دون أن تطأ اقدامهم الاقليم الفارسى . فقد كان الساحل الجنوبى الغربى لبحر قزوين خاضعا

---

(١) المرجع السابق صفحة ١٨ وما بعدها ، كذلك :
— Abel Rémusat, Nouv. mél I, p. 202, 228 et s.
— Géographie de Moïs de Charène dans Saint - Martin, Mém. sur l'Arménie, II, p. 375.

(٢) لا يجوز الخلط بينه وبين موشان Mouchan ، خان الترك الأكبر فى هذا العصر ، راجع : Neumann, Die Völker des südlichen Russlands, p. 113.

(٣) Excerpta ex Menander. p. 295 et ss.; 380-385; ex Theophan. p. 484 et s.

لسلطان الفرس ، وكان على التجار من أهل الصغد دون شك أن يدوروا حول هذا البحر من ناحية الشمال ليصـــلوا الى الاقليم البيرنطى ، اما عند مخرج بحر أزوف ، واما على الساحل عند مشارف القوقاز • غير ان المصادر لم تذكر بالمرة شيئا عن هذا الموضوع • وفى البداية نشطت العلاقات بين الجانبين : فقد سافر مبعوث تلو مبعوث من القسطنطينية الى الامبراطورية التركية ، وعاد كل منهم ومعه قوافل تركية كاملة • بحيث ارتفع عدد الاتراك الذين استقروا فى القسطنطينية بحجة مزاولة التجارة الى بضع مئات فى زمن وجيز(١)• وكان العـدد الأكبر من هؤلاء بطبيعة الحال من أهالى بلاد الصـغد ، أى من الذين اعتبروا أتراكا ، الا آن علاقة المودة بين خان الترك وبين الامبراطور البيزنطى لم تستمر وقتا طويلا : فقد استقبل السـفير فالنتين الذى بعثـه الامبراطور تيبريوس عام ٥٧٩ باللوم والعتـاب بسبب سياسـة الخـداع التى اتبعهـا البيزنطيون • وردا على طلباته الملحة للاستمرار فى روابط الصـداقة ، قام الترك بمحاصرة مدينة البسفور (كيرتش) (٢) •

وفى النصف الأول من القرن السابع انهارت الامبراطورية التركيـة • وكان خانات الترك فى عهد قوتهم قد أغاروا مرارا على الصين ، ولكنهـم صاروا بعد ذلك تابعين لها (٣) • وابتهجت القبائل التى تمارس التجارة فى أقاليم نهـرى أوجزس وياجزارت لهـذا التغيير : ففد أصبح فى مقـدورها أن تصل اليها قادمة من الصين دون أن تصادف أية عوائق (٤) • ومن ذلك الحين أيضا ، لم يعد الساسانيون يخشون أى شىء من جانب الترك • ومن ثم كفوا عن الاعتراض على مرور القوافل عبر اقليمهم ، واسـتردت الحركة التجارية طريقها القديم • كذلك لم يستمتع البيزنطيون بخلاصهم من سيطرة الفرس الا سنوات قليلة •، وهم وان لم يستفيدوا كثيرا من علاقاتهم المباشرة مع الترك ، لكنهم اكتسبوا مع ذلك معلومات صحيحة عن شعوب الشـرق الأقصى ، وحضارتها ، وطبائعها ، وصناعتها ، وتجارتها • (٥)

---

(١) Exc. ex Menandr p. 397 et ss.

(٢) Menandr. 1. C.

(٣) Klaproth, Tabl. hist. p. 118-120; Richthofen, China I, 530.

(٤) Abel Rémusat. Nouveaux mélanges asiat. I. p. 231.

(٥) كان المؤرخ تيوفيلاكتس سيموكاتا يملك كل ما يلزم لاعطاء معلومات تفصيلية دقيقة عن حالة شرق آسيا وبخاصة عن انتاج الحرير فى هذه المناطق (éd. Bonn. p. 283, 286-288) ولم تكن بلد التوجا Taugas التى وصفها سوى الصين ، ومدينة شبدان Chubdan (خمدان Khumdan) الواقعة فى هذا البلد هى مدينة هسى ـ نجان ـ فهو الحالية .Hei-ngan-fou وهى تشانج ـ نجان فى ذاك العصر : ولم يعد ثمة شك فى صحة هذا منذ أبحاث كلابروت
(Klaproth, Mémoires relatifs à l'Asie, III, p. 261-264).
(Cathay and The Way : Yule
(China I, 551 et s.) وريشتهوفن (Thither T. I. p. XLIX - L111.)

الى الآن لم نعتبر الشعب الفارسي الا كوسيط بين آســـيا وبيزنطة ٠ ولابد أيضا من البحث عن كميات بضائع الشرق الأدنى التى يمكن استهلاكهـا داخل فارس نفسها ٠ فالواقع انه اذا كان الفرس يصرون على أن يمر حرير الصين ببلادهم ، فذلك ليضمنوا لصناعتهم الوطنية ما تحتاج اليه من مواد أولية ٠ وينوه هيوونتسانج الذى سار بمحاذاة حدود فارس الشرقية فى مستهل القرن السابع بمهارة صناع هذا البلد فى نسج الأقمشة الحريرية والصوفية والسجاد ٠ كما نوه بتقدير الممالك المجاورة لمنتجاتهم (١) ٠ وكان ينـولى تدريب هـؤلاء الصناع عمال أجانب قادمون الى فارس طوعا أو كرها من البلاد الأسيوية الخاضعة لبيزنطة ٠

واذ اتبع جوستنيان نظاما احتكاريا غير سليم، يضر بنساجى الحرير بمملكته ضررا بليغا ، فقد هاجر عدد كبير منهم الى فارس (٢) واســـتقدم الملك شاهبور الثـانى بالقوة عددا اخر من هؤلاء النساجين مع الغنائم التى عاد بها من حملته المظفرة فى بلاد ما بين النهرين وسوريا ٠ وبعد انقضاء بضعة أجيال ، لم يزل هناك تقليد راسخ ينسب الى هذه المستوطنات البيزنطية الأصل صناعة الحرير فى توستر Touster وسوسة Sous ومدن أخرى فى فارس (٣) ٠ وكان لابد من توفير كميات كبيرة من الأقمشة الثمينة لاشباع بذخ البلاط الساسانى ٠ وحين هـــزم جيش الروم البيزنطيين بقيـــادة الامبراطور هرقل الفرس فى عـــام ٦٢٧ واستولى على قصر يزدجرد Oastagerd الملكى وجد به الكثير من الحرير الخام وأكداسا من الثياب الحريرية الكاملة ، وسجاجيد مزركشة ، وأشياء أخرى من هذا القبيل ٠ ولنا أن نفترض أنها من منتجات الصناعة المحلية ٠

وكانت الغنيمة التى ظفر بها جيش الروم البيزنطى فى تلك المناســـبة تتضمن أشياء أخرى تهمنا كثيرا ، منها كميات كبيرة من التوابل ، مصدرها الهند بلا شك ، من فلفل ، وزنجبيل ، وصبر ، وخشب الصبار ٠ وقد ألقيت هذه الأشياء كلها فى النار ، مع غيرها من أشياء ، اذ لم يكن فى المســـتطاع

(١) Mémoires II, 179. Vie de Hiouenthsang p. 208.

(٢) Procop. Anec. p. 142.

(٣) المسعودى « مروج الذهب » الجزء الثانى صفحة ١٨٥ وما يليها ٠

ياقوت : معجم فارس الجغرافى ، الناشر باربييه دو مينار ، ص ٢١٧ وما بعدها

لم يكن للصين تأثير فى هذا النطاق ، فى حين كان لها تأثير فى (ما وراء نهر اوكسيان) Trans-oxiane, حيث ترجع صناعة الحرير فى نجارى الى ما قبل الفتح العربى لهذه البلاد ٠

بيد أنها لم تبلغ ذروة ازدهارها الا فى عهد سيادة السامانيين (فى حوالى عام ٩٠٠) ٠

أنظر : Vambéry, Skizzen aux Mittelasien p. 182 et s. 208.

وكذا : Geschichte Bochara's oder Transoxaniens I, 78.

حملها كلها (١) يضيف الى هذا أنه عندما استولى العرب على المدائن (طيشفون) عاصمة مملكة الفرس الساسانيين عام ٦٣٦ - ٧٣٦ وجدوا بها كميات كبيرة من المسك والعنبر وخشب الصندل ، وكميـــة من الكافور تكفى لشحن سفينـــة بأكملها : والمادة الأخيرة تنتج فقط من الجزر الواقعة فيما وراء الهند ، ولم يكن العرب قد رأوها من قبل فظنوا أنها ملح ، وخلطوها بخبزهم ليعطيها مزيـدا من المذاق (٢) • كل هذا ينبت لنا أن ترف بلاط الساسانيين كان من الأســباب التى جذبت الى فارس حركة التجارة فى الشرق الأدنى •

وبعد أن يحتجز الفرس مؤونتهم من البضائع المارة ببلادهم ، يبـــقى من هذه البضائع كميات هائلة تنقل مباشرة الى الامبراطورية البيزنطية • ولم يشأ بلاط القسطنطينية أن يكون متخلفا عن البلاط الساسانى فى روعته وترفه • فقد كان يلذ للأباطرة أن يحيطوا أشخاصـــهم فى حفلاتهم الفاخرة بجمع من الحاشية الذين يرتدون اثوابا من الحرير والنسيج الأرجوانى • وفى أعيادهـــم الرسمية كان المدعوون الى الولائم يجلسون فى قاعات يشيع فى جوها عبير خشب الصبر ، ويتلقون هدايا من ثياب حريرية فاخرة (٣) • ولهـذا الغرض وحده كان من الضرورى توفير كميات كبيرة من التوابل والأقمشة الشرقية الثمينة • غير أنه كان هناك سبب آخر يدعو البلاط الرومانى لاستهلاك كميات كبيرة من منتجات الشرق، وهو سبب سياسى : فقد كان البلاط حريصا على أن يعرض على أنظار برابرة الشمال صلاته التجارية بالبلدين العجيبين ، الهنـــد والصين • وكلما ضعفت امكانية الايهام باستعراض مظاهر القوة والجبروت ، زادت الحاجة الى استخدام مثل هذه الوسائل لتأكيد تفوق الامبراطورية الرومانية •

ومهما كانت روابط الصداقة بين أمير بربرى وبين بيزنطة ضعيفة فان هـذه كانت تهدى اليه او الى مبعوثية أقمشة حريرية وأحجارا كريمة،وفلفلا،ومنتجات شرقية أخرى (٤) • كذلك كانت كميات كبيرة من الحرائر تذهب الى الغرب ، يهديها الامبراطور الى كنائس أو الى رؤساء الكنائس ليصنعوا منها ثيابا وحليا ، أو الى بعض الأمراء اعلاء لهيبة بلاطهم •

---

(١) Theophan. I, 494; Cedrenus I. 732.

(٢) Ritter, Asien, VII, Sect 1, p. 173; Weil. Geschichte der Chalifen, p. 75. Justi, article sur l'édition de Tabari par Zotenberg, dans l'Ausland, 1875 no. 16, p. 309.

(٣) Constantin Porphrog. De cerimonüs Aulae Abvantinae. passim : Theophanes continuatus p. 457.

(٤) Excerpta ex Prisci historia, p. 171, 185; ex menandr p. 203; Theophanes, I. p. 429; Theophylaet. Simoc. p. 294; Theophanes Continuatus, p. 343.

ولما كان أباطرة بيزنطة يريدون أن يكون فى حوزتهم دائما قدر كاف من الأقمشة لسد حاجاتهم ، وليمنحوها هدايا فاخرة ، فانهم كانوا يبذلون كل جهدهم لتشجيع تجارة الشرق الأدنى . ولم تكن المصالح التجارية مهملة فى المفاوضات التى تجرى مع أمراء فارس أو أثيوبيا ، بل كانت فى الغالب هى الموضوع الرئيسى(١) . غير أن الأباطرة كانوا يفعلون أكثر من ذلك ، كانوا يهتمون اهتماما مباشرا بالتجارة والصناعة . وكانت المبادلات التجارية بين رعاياهم وبين الفرس لا بد أن تتم ، طبقا للمراسيم فى بعض المدن الواقعة على الحدود ، وفى هذه المدن مندوبون عن الأمبراطور يطلق عليهم فى عهد جوستنيان اسم commerciarue وقبل هذا العهد اسم comites commerciorum ولم تكن وظائفهم قاصرة على واجبات محصلى الرسوم الجمركية ، ولكنهم كانوا أيضا بمثابة وكلاء فى عمليات شراء الحرير الخام(٢) . وكانت مشترواتهم فى أغلبها تخص دور الحريم بالقسطنطينية ، وتخضع لرقـــابة أمين خزانـــة الأمبراطورية comes largitionum . ويتولى بعض العبيد الملحقين بخدمة البلاط تصنيع الحرير الخام ، فينسجونه ، ويصبغونه ، ويصنعون منه كل الأقمشة التى يحتاج اليها البلاط . وكان من المحظور عـلى أى شخص خلاف هؤلاء العبيد أن يصنع أى نوع من الأقمشة الثمينة (٣) . وكانت هذه الورش فى دور الحريم الأمبراطورية تنافس الصناعة الخاصة منافسة شديدة ، ومع ذلك عاشت الصناعة الخاصة ، المحدودة فى انتاجها ، والتى تجد مشقة فى تصريف هذه المنتجات . ولم يكن موظفو الجمارك يسلمـــون البلاط كـــل ما يشترونه من حرير خام ، فقد كانوا ملزمين بأن يبيعوا جزءا منه بثمن التكلفة الى الأفراد الذين يتاجرون به أو يصنعونه . وكان هذا الاجراء يتيح فى الغالب لتجار الحرير أو صناعه أن يشتروا الحرير بثمن أقل كثيرا من الثمن الذى يشترونه به عندما يتعاملون مع الفرس ، فمن شأن المنافسة أن ترفع الأسعار(٤) . ثم انه كان من أثر موقف الفرس العدائى ، وكثرة انقطاع العلاقات بسبب اندلاع الحروب أن بقى الحرير مادة مرتفعة الثمن .

كانت المراكز الرئيسية لصناعة الحرير فى الدولة البيزنطية ، بخلاف دور الحرير فى القسطنطينية ، موجودة فى سوريا ، وبخاصة فى صـــور

(١) قارن ببعض الأمثلة المعطاة قبلا : Les Excerpta e Menandri hist. p. 361; Theophanes I, 377.

(٢) Zachariae Eine Verardnung Justinians, 1. c. p. 8 et ss.

(٣) يعرض باريزيه (Parisel, Histoire de la soie, 1, 161 et s.) مجموعة المراسيم الخاصة بمقصورات الحريم .

(٤) Zacharine, 1 c. p. 9 et ss.

وبيريت Béryte (١) . وكانت سوريا من أكثر أقاليم الأمبراطورية ازدهارا . ويقول بروكو بيوس(٢) فى معرض حديثه عن أنطاكية عاصمة هذا البلد أنها أولى المدن الرومانية الشرقية بثرائها ، واتساعها ، وسكانها ، وجمالها ، وآثارها ، ويبدى انطونين مارتير S. Antonin Martyr دهشته من مظاهر البذخ السائدة فى أنطاكية ، وكذا فخامة أباميا Apamée وبيريت وغزة(٣) . غير أن هذه الروعة ما لبثت أن خبت قليلا حين حدد الامبراطور جوستنيان ثمنا أعلى للأقمشة الحريرية . ومن ثم لم يستطع التجار والصناع أن يواصلوا نشاطهم ، وحل الخراب بالمصانع التى فرضت عليها رسوم باهظة ، وعانت من احتكار شاذ ، واضطر عدد كبير من العمال الى الهجرة(٤) . بيد أن هذه الحالة لم تكن سوى حالة عرضية . فبعد فترة وجيزة دخلت تربية دود القز فى البلد ، ولم تعد الصناعة فى حاجة الى شراء المادة الأولية من الخارج بأسعار مرتفعة ، وأصبحت قادرة على انتاج الحرير فى البلد بنفقات قليلة ، ومن ثم ازدهرت .

وفى تصورنا أن الصناع السوريين لم يفتهم أن يملأوا البلد بمزارع أشجار التوت ، وكان ريشتر Richter محقا حين أرجع بداية زراعة هذه الأشجار فى ضواحى بيروت الى القرن الأخير من عهد السيادة البيزنطية فى سوريا(٥) .

ولم يكتف السوريون بصنع الحرير ، ولكنهم كانوا أيضا تجارا نشيطين يصدرون الى جهات نائية مع الحرير أنواعا أخرى من منتجات الشرق الأدنى(٦) . ويتحدث عنهم س. جيروم S. Jérôme قائلا انهم تجار جشعون ، يجوبون بقاع العالم كله ، ومعهم بضائعهم ، متحدين البؤس والموت ، وغارات البرابرة ، باحثين عن الثروة حتى فى امبراطورية الغرب(٧) . وحين قويت سيادة الألمان على اقليم الأمبراطورية ، زادت تجولات التجار

---

(١) Procop. Aneed. cop. 25 (éd. Dindorf. III, p. 140).
Antoninus Martyr trouve à Tyr, vers 570 «gynoecea publica et oloserîcum et diversa genera telarum ». (De locis sanctis, éd. Tobler, cap. 2, p. 5. et Tabler et Molinier, Itinera hiero-solymitana, I, p. 92).

(٢) De bello persico II, 8.

(٣) Ed. Tobler et Molinier p. 92, 109, 118.

(٤) Procop. Aneed 1. c. p. 140-142.

(٥) Erdk XVII, 1, p. 496.

(٦) Procop. Aneed, p. 140.

(٧) Hieron Ep. ad Demetriadem, ed. Maurin, IV, 2, p. 788. Id., In Ezech. 27, 16 ib, 111 p. 885.

السوريين فى البلاد الرومانية ، واستقر بها عدد كبير منهم • وهكذا نجد فى عصر الميروفنجيين بعض السوريين ، وقد استقر بهم المقام ليس فقط فى المدن التجارية جنوبى فرنسا ، مثل ناربون ، وبوردو ، ولكن أيضا فى وسط فرنسا، فى أورليانز، وتور ، حيث اختلطوا اختلاطا شديدا بباقى السكان حتى لم يعد فى الامكان اعتبارهم من الأجانب ، ففى أورليانز كانوا يشتركون فى الأعياد الدينية ، وفى باريس تربع واحد منهم السدة الأسقفية (١) • وفى عصر جريجوريوس أسقف تور ، لم يكن نبيذ غزة بالشىء النادر فى بلاد الفرنجة ، بل أصبح يرد الى هذه البلاد أكياسا جلدية من فينيقيا (٢) • ولا شـــك أن التجار السوريين هم الذين كانوا يستوردون هذه الأشياء • وعندما ازداد الترف فى بلاط الميروفنجيين ، واعتاد الرجال والنساء هناك أن يلبسوا ثيابا حريرية فاخرة (٣) ، واستقر فى الكنائس عادة تغطية المذابح بالحرير ، ولف الآثار القيمة به ، واستخدامه فى صنع ثياب القساوسة ، من كان اذن يستورد هذه الأقمشة الى فرنسا غير التجار السوريين ؟

كان اقليم سوريا ، حسب الظواهر كلها يفوق سائر الأقاليم بنشـــاطه الصناعى والتجارى • ومع ذلك كانت مصر سوقا واسعة لواردات الشرق ، وكان جزء من هذه الواردات يأخذ طريقه الى الغرب عبر البحر المتوسط • وكانت مصر نفسها تنتج عددا من السلع للتصدير • وفى عهد جريجوريوس أسقف تور ، كان البردى يصل بالتأكيد الى مرسيليا عن طريق البحر (٤) ، غير أنه لا يوجد ما يشير صراحة بأن الروم فى مصر كانوا ينقلون بضائعهم بأنفسهم الى فرنسا أو ايطاليا ، أو أنهم أقاموا منشئات تجارية فى ثغور هذين البلدين • ومن جهة أخرى ، ليس من الغريب الا نجد فى مؤلفات جريجوريوس أسقف تور أو فى الوثائق الرسمية فى العصر الميروفنجى أسماء لتجار روم من القسطنطينية أو غيرها من الاقاليم الأوروبيـــة التابعة للأمبراطوريـــة

---

(١) Acta concil. Narbon. a 589, can. 4 dans Monsi, Coll. conc. IX, 1015; Grég. de Tours H.ist. Franc. VII, 31. V111, 1. X, 26. Id De glor. mart cap. 95; Vita Columbani, dans Mabillon, Acta ss. ord. Bened. saec II, p. 19.

أنظر أيضا بونامى **Bonamy** عن فقرة خاصة بجريجوار دو تور
Grégoire de Tours. (Hist de l'Acad. des Inscr), XXI, Paris, p. 96 et ss. Deguignes. Mém. sur l'état du commerce des Français dans le Levant avant les croisades, (Mém de l'Acad. des Inser). XXXVII, p. 472 et s.

(٢) Greg. de Tours, Hist Franc. VII, 29, De gloria confess. cap. 65; De gloria martyr. cap. 112.

(٣) V. Audoeni Vita S. Eligu passim; Vita S. Clodoaldi, dans Mobillon, Acta ss. ord. Bened. soec. I, p. 136.

(٤) Grég. de Tours, Hist. Franc. V, 5.

الشرقيـة (١) ، ذلك رغم كثرة المبعوثين المـوفدين بين بلاط الشرق والملوك الميروفنجيين ٠

نستطيع اذن على أية حال أن نؤكد بأن الروم الحقيقيين لم يكن لهم نصيب فعال فى العلاقات التجارية بين الشرق والغرب مثلما كان للسوريين ؟ واذا كانوا قد لعبوا دورا هاما فى هذا المجال ، فربما كان ذلك فى ايطاليا(٢)، لأن هذا البلد لا يفصله عن أقاليم الأمبراطورية الشرقية سوى البحر الأدرياتى ، وكان تابعا لهم ببعض الشيء من الوجهة السياسية ٠

وفى أسبانيا حيث مارست الدولة البيزنطية سيادتها زمنا طويلا (حتى عام ٦٢٥) على السواحل الشرقية والجنوبية الشرقية ، يمكن أن نفترض أن الروم هم الذين حملوا اليها جزءا من منتجات الشرق التى كانت منتشرة فى تلك الاصـقاع (٣) ٠ والـواقع يذكر « الشـماس الانجيلى » بـول مـريدا Paul de Mérida أن التجـار الـروم القـادمين من الشرق كانـوا يصلون (على الراجح عن طريق نهر جواديانا) الى بلدته الواقعة بعيدا فى داخل البلاد (فى قشتالة الجديدة) حيث يهدون بضائعهم لأسقف المنطقة (٤) ٠ وكانت قوانين القوط الغربيين (٥) تحتوى على تعليمات متعلقة بالتجار الذين يعبرون البحار transmarini negotiatores ٠ ولا ريب أن هذه التسمية كانت نطلق أولا على تجار شمال أفريقيا ٠ ومع ذلك يحتمل أنها تنصرف أيضا الى الروم ، حيث لا يمكن التثبت من مصدر تلك البضائع بطبيعتها(٦)٠

وفى البلاد الجرمانية الأصلية ، أو الجرمانية الرومانية ، لم يبد عـلى الأهالى استعداد كاف لمزاولة التجارة ، وبخاصة التجارة البحرية التى تتطلب مزيدا من الجهد والوقت والمال أكثر مما تتطلبه التجارة الداخليـة ٠ وكان للجرمان بنوع خاص عادات بدائية بسيطة ، ولم يكن بهم حاجة الى استيراد

---

(١) فى فقرة من درارات مجمع ناربون Marbonne الدينى لعام ٥٨٩ (مانسى Mansi المرجع السابق ذكره) فى شان الراحة الأسبوعية ذكر اليونانيون باعتبارهم يشكلون قسما من السكان ، متميزين عن القوط والرومان واليهود والسوريين ٠ بقى أن نعرف ما اذا كان هؤلاء اليونانيون ينتمون الى طبقة التجار ٠

(٢) نجد مع ذلك هاهنا أيضا سوريين ، فى بعض الجهات ، يذكر بروكوبيوس فى (De bello goth. 1, 8) واحدا منهم ، يدعى انتيوخس Antiochus كان يقطن فى نابولى ٠

(٣) Romey, Hist. d'Espagne, II, 357.

(٤) Paul, disc. Emerit, De vita patr. Emerit dans Florez Espana sagr. XIII, 348.

(٥) Lex Visigoth. lib XI, tit. 3, 1, 2.

(٦) انظر بداية Dahn, Ueber Handel und Handelsrecht der Westgothen.

التوابل والعطور والأقمشة الثمينة من الشرق • وكان كل ما يطمحون اليه هو حيازة الأرض ، فهذه الحيازة وحدها تكفل لهم نصيبا فى أهم الحقوق الأساسية فى الدولة والمجتمع ، كما تزودهم الزراعة وتربية الماشية بكل مطالب الحياة • وفى تلك العصور المضطربة ، كان الدفاع عن الملكيات ضد الغارات المسلحة ، والالتزام بالخدمة العسكرية المرتبطة ارتباطا وثيقا بملكية الأرض ، أمورا تستنفد قوة كل انسان ووقته •

وأخيرا لم يكن « الجرمان » يملكون نقودا كافية • والنقود هى أولى الضرورات اللازمة للمشروعات التجارية الكبيرة • وكان الأمر بخلاف ذلك عند « الرومان » الذين أخضعهم « الجرمان » ، اذ كانوا مولعين بالكماليات التى تجلبها تجارة الشرق الأدنى الى الغرب ، فكان ذلك عندهم عادة متأصلة • الا أنهم ، وقد أعيتهم مطالب محصلى الضرائب الرومانية ، ثم افقدتهم الغزوات أموالهم ، لم يعد لدى أغلبهم من الموارد ما يكفى لشراء هذه السلع ، أو من المال ما يكفى للمغامرة فى مشروعات تجارية كبيرة • ومن الراجح فى هذه الظروف أن اقبال التجار السوريين على الغرب لم يكن يقابله سوى تيار ضعيف جدا من القادمين من الغرب الى الشرق •

وثمة أفواج من الحجاج تأتى الى الشرق لزيارة الأماكن المقدسة ، طلبا للتنوير ، أو الاستشفاء ، أو المخلفات الثمينة (١) • غير أن أحدا من هؤلاء المسافرين لم يذكر شيئا عن أى تاجر ، اللهم الا فى القليل النادر (٢) • وكان المثال الذى يذكر عادة لاثبات أن الفرنجة كانوا يذهبون فى عصر الميروفنجيين الى سوريا للتجارة ، ينطبق بالأصح على رحلات التجار السوريين الى فرنسا • والواقع أننا نطالع فى حياة القديسة جنفييف (٣) أن القديس سيميون ستيليت S. Siméon Stylite المعروف الذى كان مقيما فى أنطاكية كان يبدى اجلالا كبيرا لتلك القديسة الفرنجية ، ويكلف التجار الذين يسافرون الى بلاد الغال أو يعودون اليها ، أى مواطنيه الذين يسافرون الى فرنسا أو يعودون اليها أن يقدموا للقديسة تحياته أو يتحرون أخبارها •

ومن العسير أن نذكر اسماء موانى بحرية فى الغرب تمارس فى ذلك العصر نشاطا تجاريا خاصا • ومع ذلك فمن المحتمل كثيرا أن تكون مرسيليا

(١) نجد هذه الحقيقة يشهد بها بالنسبة الى فرنسا جريجوار دو توار :
Grég. de Tours, Hist. Franc. 1, 10 : id. De gloria martyrum, cap. 1, 5 6, 19. 21.
كما يشهد بها بالنسبة الى ايطاليا انطونيوس مارتيز Antoninus Martyr
وبالنسبة الى انجلترا فيديلس Fidelis, dans Dicuit, De mensura arbis
(٢) نجد مثالا لذلك فى جريجوار دوتوار Grég. de Tours De gloria martyrum, cap. 78.
(٣) Acta ss. Jan. I, pag. 140.

استثناء من هذه القاعدة(١) ، اذ لم يفقدها الغزو الفرنجى كثيرا من أهميتها القديمة • ولما كنا ندين بهذه المعلومات الى أحد المؤرخين الروم(٢) ، فان لنا أن نمضى شوطا بعيدا ، ونستنتج أن مرسيليا كانت تقيم علاقات وثيقة مع الأمبراطورية البيزنطية • وكانت مرسيليا الموقع الذى يبحر منه ويعود اليه الفرنجة الذين يسافرون الى القسطنطينية (بصفتهم سفراء أو بأية صفـــة أخرى)(٣) • ويبدو من جهة أخرى أن المرسيليين كانوا يرسلون سفنا الى مصر لتأتيهم منها بورق البردى(٤) • وفى عهد جريجوار دو توار Grégoire de Tours كان ثمة ناسك يقيم فى ضواحى نيس يعيش فى أيام الصيام ، متشبها بنساك مصر على جذور نباتات هذا البلد (أى مصر) ، يأتيه بها بعض التجار ، من مواطنيه ، أى من أهالى مرسيليا ، لا من الأجانب بالتأكيد •

ومن الايطاليين ، اشتهر سكان الجزر(٥) المنتشرة على البحيرات الساحلية شمالى البحر الأدرياتى بجرأتهم فى القيام برحلات طويلـــة(٦) • وليس فى مقدورنا لسوء الحظ أن نعرف الغرض من هذه الرحلات • حقـــا ان أخبار « الطينو » Altino التى كتبت فى القرن التاسع عشر(٧) تضع على لسان « لونجن » Longin البيزنطى حديثا يفهم منه أن سفن البندقية التجارية كانت تعبر بحار الأمبراطورية البيزنطية كلها ، وتمضى حتى انطاكية • غير أن هذا الحديث ليس فى الواقع سوى ثرثرة من المؤلف لا تثبت أى شىء •

كان البيزنطيون يحتفظون اذن فى البحر المتوسط بســـيادة لم يفـكر الغربيون أن ينازعوهم فيها • كانوا سادة السواحل التى تنتهى اليها الطرق التجارية الأسيوية ، ويملكون مصر حيث يجلب لهم البحر الأحمر سلع الشرق الأدنى ، وسوريا التى تفرغ فيها حمولة القوافل القادمة من الخليج العربى ، (أو الفارسى) ، أو وسط آسيا ، وأخيرا المواقع الثانوية على البحر الأسود ،

---

(١) شوهد فى سوق سان دنيس فى عهد الملك الميروفنجى بروفنسيين الى جانب لومبارديين واسبانيين (Pardessus Dipl. II, p. 5.)

(٢) Agathias, 1, 2. éd. Bonn. p. 17.

(٣) Grég. de Tours VI, 2. VI 24 VII, 36.

(٤) المرجع السابق

(٥) Grég. de Tours VI, 6.

(٦) Cassiod., lib. 12,e p. 24.

(٧) Arch. stor. it VIII, p. 210; Mon. Germ. hist SS. XIV, p. 48.

التى تهتم بتجارة الشرق الأدنى ، غير أن العرب انتزعوا منهم فى القرن السابع أهم ولاياتهم الشرقية من حيث التجارة . ثم أن ظهور هذا الشعب على مسرح العالم كان حدثا من تلك الأحداث التى تؤثر بعمق فى كل الاتجاهات . فقد أجرى فى الحياة التجارية بالشرق انقلابات شديدة ، ومن ثم ينبغى لنا دراسته بدقة قبل أن نواصل دراسة العلاقات التجارية لدى البيزنطيين والغربيين .

● الفصـل الثـانى :

ظهور محمد (صلعم) وبداية الحروب الصليبية

١ ـ العرب والطرق التجارية فى اقليمهم

من المعروف أنه فى الوقت الذى دعا فيه محمد (صـلعم) العرب الى عقيدة جديدة ، كان يبت فى نفوسهم كرها شديدا للكفار دفعهم الى الانطلاق خارج بلدهم الذى لم يكن معروفا حتى ذلك الحين . وسرعان ما فتحوا سوريا وبلاد ما بين النهرين وفارس من جهة ، ومصر من جهة أخرى (٦٣٥ ـ ٦٤٤) . ولم ير أصحاب العقول البسيطة فى هؤلاء العرب أول الأمر سوى مدمرين لكل حضارة وصناعة وتجارة . ولكن سرعان ما تبين للجميع خلال الحروب التى شنها العرب اهتمام هؤلاء بالحقول المزروعـة ، والسـكان المسالمين المقيمين بالأرض ، والفطنة التى كانوا يتميزون بها فى تنظيم سـلطانهم فى البـلاد المفتوحة .

وكان لابد من التسليم بأن هـذه الأمة الجديدة التى برزت بين الأمم العظيمة قد بلغت بالفعل درجة مرتفعة من المدنية ، وأنها قادرة على مزيد من التقدم . غير أنه اذا كان العرب قد تلقوا شيئا من الثقافة قبل عهد محمد ، فان التجارة لم تكن أقل عناصر هذه الثقافة شأنا . وقد اتيحت لنا من قبل فرصة دراسة الدور التجارى الذى لعبته احدى قبائلهم فى الشمال بالحيرة Hira ونجد أيضا عند عرب البحرين ، قبل عهد محمد آثارا لصلات تجارية مع الهند (١) . وفى الجنوب لم تفقد سوق عدن أهميتها بالمرة (٢) . وكانت القوافل تربط القبائل العربية من الفرات الى اليمن بعضها ببعض .

وكانت مكة قبل محمد مركزا من مراكز العالم العربى الدينية ، يقطنها

---

(١) انظر فى Ritter. Erdk. XII, p. 90. الفقرة المقتبسة من قصيده سابقة على الاسلام .

(٢) يؤكد فيلوستورج Philostorge مؤلف كتاب فى تاريخ الكنيسة Histoire de l'Eglise هذه الحقيقة بالنسبة الى القرن الرابع ، المرجع السابق ، ٦٥ .

تجار نشيطون أثرياء ، ونرسل بانتظام قوافل الى الخارج ، كما تستقبل قوافل أخرى عائدة (١) • ومحمد نفسه ، ونحن نعرف أنه قام مرارا برحلات لأغراض تجارية ، لم يضع أية عراقيل أمام هذه الأوضاع • بل أنه لم ير أى خير فى أن يرتب المؤمنون أمورهم بحيث يجمعون بين أعمالهم التجارية وبين حجهم الى مكة ، كما أمرهم بذلك دينهم (٢) • وهكذا أصبحت قوافل مكة أداة قوية لمضاعفة المبادلات التجارية • وكلما انتشر الاسلام اتسعت دائرة البلاد التى كان سكانها يزورون الأماكن المقدسة حاملين معهم الى أسواق مكة منتجاتهم الطبيعية أو المصنوعة • وكل ما فعله الخلفاء ووزراؤهم لتسهيل الحج ، وبناء الطرق ، وحفر الينابيع الموزعة على طول الطريق ، وتأمين حياة المسافرين وراحتهم ، كل ذلك أفاد التجارة • وبمرور الزمن ازداد عدد الأماكن التى يحج اليها المسلمون ، واقترنت برغبة العربى فى أداء عباداته فضول غريزى ، وروح المغامرة ، مما يدفعه الى السفر لزيارة بلاد ومدن لا يعرفها • وكان المسافرون العاديون ، شأنهم شأن الحجاج يجدون فى المدن فنادق ينفق عليها من المال العام ، وحتى يحصلوا على الطعام والمؤن التى يحتاجون اليها ، كانوا يبيعون على الطريق ما أحضروه معهم من سلع •

ولا ننكر رغم كل شيء أن ازدهار التجارة قد صادف فى صدر الاسلام عقبات ، لأسباب وظروف عديدة • فطالما كانت الحرب المقدسة ضد الكفار تتطلب حشد القوى ، فان عمليات نقل البضائع ، وبالأحرى التجارة توقفت من نفسها • ولم يكن المؤمنون الحقيقيون الذين يحملون فى صدورهم ضغينة ضد معتنقى الأديان الأخرى على استعداد لأن يوثقوا مع هؤلاء علاقات سلمية • ولكن حين رفع الخلفاء أعلامهم فى ثلاثة أركان العالم ، عمت السكينة شيئا فشيئا • واذ عاش الكثير من الكفار فى سلام تحت سلطان الأمراء العرب ، خفت حدة الكراهية التى كانوا هدفا لها • ولم يعد المؤمنون الحقيقيون يخشون أن يضر بايمانهم صلتهم بالكفار • بل ان الأفكار والعادات الأجنبية كان لها تأثير متزايد على المسلمين •

يضاف أخيرا الى هذه الأسباب كلها ، زوال عقبة كانت تعترض بدايات الحياة التجارية عند العرب • فمن المعروف أن محمدا قد فرض على المؤمنين به أكبر قدر من البساطة فى الملبس والمأكل(٣) • ولكنهم حين استولوا على أقاليم مزدهرة ، وأصبحوا أثرياء ، وبخاصة حين اتحدوا تحت صولجان واحد مع

---

(١) Caussin de Perceval, Hist, des Arabes, I, 256, 270, 319, 342 et ss., III, 36; Wüstengfeld, Chroniken der Stadt Mekka, IV, 35, 39.

(٢) Coran, trad. p. Rasimirsky, chap. 2, v. 194 et note.

(٣) Pariset, Hist de la soie II p. 150 et ss.

الفرس الذين اعتادوا الوفرة والرخاء فى العيش ، نما فى نفوسهم حب البذخ والرفاهية ، ونمت معه الحاجة الى المنتجات الأجنبية ٠

واجتمعت كل هذه الظروف والأحوال التى تشجع ازدهار التجارة فى العصر الذى ارتقى فيه العباسيون الأوائل عرش الخلافة ٠ فأعطوا التجارة حافزا قويا ، اما بطريق غير مباشر ، بحياة الترف التى كانوا يعيشونها فى بلاطهم ، واما بطريق مباشر ، ببناء الطرق ، وتشييدهم مدينة فى قلب دولتهم ، أمست مهيأة بحكم موقعها المختار الملائم كل الملاءمة لأن تكون سوقا فى الدرجة الأولى من الأهمية ٠

كانت دمشق بالتأكيد ، المقر القديم للخلفاء ، ملائمة كل الملاءمة للتجارة ، واتصال القوافل الخارجة من آسيا الصغرى ، ومن بلاد نهر الفرات ، والمتجهة الى بلاد العرب ومصر ، وبالعكس ٠ غير أن الشريانين الرئيسيين للتجارة العامة الشاملة داخل دولة الخلفاء كانا على الدوام النهرين الكبيرين ، دجلة والفرات وثمة عالم عربى جغرافى من علماء القرن العاشر أطلق على الخليج الفارسى الذى يصب فيه هذان النهران اسم بحر الصين (١) ٠ ذلك لان الخليج الفارسى كان نقطة انطلاق الملاحة الى الشرق الأقصى ٠

وبعد أن أحرز العرب انتصاراتهم الأولى على الفرس (٦٣٥ — ٦٣٦) ، وأرادوا أن يمنعوا أعداءهم من الابحار على طول شاطىء الخليج الفارسى وارسال سفنهم الى عمان والهند ، شيدوا على ضفة الفرات مدينة البصرة (٢) التى أصبحت بالتالى نقطة انطلاق سفن العرب الى الشرق ٠ وبنى العباسيون مدينتهم بغداد على ضفتى الدجلة ٠ وثمة قناة صالحة للملاحة تبدأ من الفرات وتجتاز اقليم ما بين النهرين وتنتهى عند بغداد ، تربط العاصمة الجديدة بآسيا الصغرى وسوريا وبلاد العرب ومصر ، فى حين كانت قوافل وسط آسيا تأتى عبر بخارى وفارس ٠

ولنبحث فى البداية موضوع المواصلات البحرية عن طريق الخليج الفارسى ٠ نذكر أولا حقيقة هامة : فنحن نعرف رحلات « السندباد البحرى »

---

(١) المقدسى ، فى سبرنجر ٠ Sprenger, Abhand-lungen der deutschen. Morgenlandischen Gesellschaft, T. III, chap. 3, p. 66.

(٢) « مجمل التواريخ » ، أورده سان مارتان : Saint - Martin, Recherches sur l'histoire et la géographie de la mésène et de la characène, Paris, 1838 p. 54 et s. يعتبر هذا الكاتب حجة فى المسائل المتعلقة بالملاحة وبالتجارة البحرية لدى الفرس ٠

المشــهورة ، وتتضمنها حكايات ألف ليلة وليلة (١) • حسن ! كانت نقطة انطلاق ذلك المغامر البحرى الجرىء هى دائما بغداد ، منسوبة الى عهد الخليفة العباسى هارون الرشــيد (٧٨٥ ــ ٨٠٩) • ولابد أن ازدهار مدينة بغداد ، وما كان فيه ملوكها من بذخ وترف قد أضفيا على التجارة البحرية نهضة لم تكن معروفة حتى ذلك الأوان • وحتى يملأ كبار تجار بغداد حوانيتهم بتوابل الهند وعطورها ، وحرائر الصين ، كان لزاما عليهم أن يشجعوا تلك الرحلات البعيدة التى عرفنا شــيئا منهــا من مصادر أخرى غير الحكايات • ثم أننا اذا نحينا التفاصيل الخيالية ، تجد فى هذه الحكايات أصول الأشياء الواقعية التى كان الملاحون العرب يتحدثون عنها عند عودتهم ، كما كانوا يذكرون صراحة أسماء البلاد التى يقصدونها فى رحلاتهم ، أو يشيرون اليها فقط عند ذكرهم سكانها أو منتجاتها ، وبذلك نتعرف عليها : ويكفى فى ذلك الرجوع الى الحكايات أو الأخبار الموثوق بها التى يرويها الملاحون العرب الذين زاروا هــذه البــلاد بالفعل • وكانت أقصى نقطة بلغها السندباد شرقا تسمى كلح Kalah فى شبه جزيرة ملقا (أنظر فيما بعد) ، وليس ثمة ما يدعو الى أن نرى فى ذلك مفارقة تاريخية ، لأن التجار العرب واصلوا رحلاتهم منذ ذاك الحين الى تلك الأنحاء على الأقل ، بل يحتمل كثيرا أنهم وصلوا فى القرن الثامن بالفعل الى الصين ، وكانوا ضــمن الجاليات الأجنبية التى فتحت لهــا عــام ٧٠٠ ميناء كانتون وسوقها (٢) • ويبدو أن بعض الاضطرابات التى وقعت بتلك المدينة فى عام ٧٥٨ تؤكد وجــود هؤلاء العرب بها • وقد ذكر بفقرة فى « حوليــات أسرة تانج » (٣) أن بعض رعايا الخلفاء اشتركوا فى هذه الأحداث مع بعض الجنود المرتزقة من الفرس الذين استخدمهم امبراطور الصــين لمقاتلة الثــوار (٤) ، فنهبوا السكان ، وأشعلوا النيران فى بعض المنازل ثم فروا عن طريق البحر(٥) ولعل المقصود بعبارة « رعايا الخلفاء » التجار العرب ، أو بحارة الســفن

---

(١) يعتبر لانجلى Langlès أنها تشكل بذاتها دورة كاملة ، ومن ثم شرحها بالنص العربى مع ترجمة فرنسية بعنوان « رحلات السندباد البحرى » باريس ١٨١٤ . وقدم فالكز Wolkenser تفسيرا لكل ما له علاقة بالجغرافيا فى « الجوليات الجديدة للرحلات » ١٨٣٢ •

(٢) Richthofen, China 1, 569.

(٣) يقدم جوبل Gaubil مقتطفات فى مذكراته :

Mémoires concernant les chinois par les missionnaires de Pékin, XVI, p. 84.

(٤) المرجع السابق ص ٢٦٧ ، ٧١ ، ٧٣ •

(٥) أنظر فى شرح هذه الفقرة :

Reinand, Relations des voyages faits par les Arabes et les Persans, proleg ; Bretschneider : On the Knowledg possessed by the ancient Chinese of the Arabs and the arabian colonies (London 1871) p. 10 et s.; Richthofen, China I, 570.

العربية • ولا يبدو أن هذا الحادث قد قطع علاقات كانتون بالأجانب • وعلى كل حال فانها لم تفعل ذلك لوقت طويل ، اذ دامت حتى عام ٧٩٥ ، وعندئذ قر عزم الأجانب الذين لاحقتهم الجمارك بمطالبها الباهظة أن يهجروا المكان وينقلوا متاجرهم الى كوشنشن Cochinchine (١)

وهكذا فبينما كانت جزيرة سيلان تعتبر في القرن السادس أقصى حد يمكن أن تصل اليه السفن الفارسية والأثيوبية ، فان العرب في العصر العباسى تخطوا هذا الحد كثيرا وبجرأة ، وفي الوقت نفسه أبدى الصينيون تحت حكم أباطرة أسرة تانج الأكفاء (٦٢٠ ـ ٩٠٧) نشاطا عظيما على متن البحار • وتتحدث حوليات هذه الأسرة عن بعثات بحرية على طول شواطىء ملبار (ويسميها الصينيون « مولى ») حتى مصب الاندوس (السند) الذى كانوا يعرفونه باسمى « سيتيو » (سندو) وميلان (بالعربية مهران) ، ومن هناك الى الخليج الفارسى حتى سيراف ، وأحيانا حتى مصب الفرات (٢) • وكان أزهى عصر لتلك التجارة البحرية هو القرن الأول من حكم أسرة تانج (٦٢٠ ـ ٧٢٠) ، وبعد ذلك حين قام العرب بمزيد من الرحلات الى الصين ، قل بالتدريج عدد الصينيين الوافدين الى الخليج الفارسى • وكانت سفنهم ترسو عادة (٣) فى ميناء سيراف التابعة لفارسستان Farsistan ، وتقع على الساحل الشرقى للخليج الفارسى • وقد اكتشفت حديثا مخلفات هذه المدينة على مسافة غير بعيدة عن مدينة بندر ـ كنكن Bender-Konkoum وبالقرب من قرية تاريه Tharié ، فى حين بحث عنها الرحالة القدامى وعلماء الجغرافيا خطأ عند سفح جبل تشاراك Teharak قبالة جزيرة كيش Keich ، فى موضع لا أثر فيه لأية أطلال (٤) • وهناك كانت السفن الصينية تشحن عند عودتها ببضائع آتية من البصرة وعمان وجهات أخرى ، ثم تمضى محاذية الساحل العربى حتى مسقط ، وبعدها تمخر عباب البحار حوالى أربعة أسابيع ، ترسو بعدها عند كولام Coulam على ساحل ملبار • ومن هناك تواصل طريقها ، تاركة على

---

(١) ريشتهوفن ، المرجع السابق •

(٢) Extraits des Annales de la dynastie des Tang, communication faite par Mr. Deguignes, dans les Mém. de l'Acad, des Inscr. xxxii p. 367 ; Klaproti ; Lettres sur l'invention de la boussole, p. 95 ; Yule, Cathay, I.

(٣) لم يتوغلوا فى داخل الخليج الا بصفة استثنائية ، ولم يجدوا هناك سوى أعماق قليلة ، كما كانت المياه شديدة الاضطراب ، فكانت تلقيهم على الشاطىء ، فضلا عن كثرة ما يتردد عليها من قراصنة : أنظر : Relat. des voy. I c. p. 12; Proleg. p. IX et s.

ويحكى أبو الفرج كيف أن سكان البحرين نهبوا عام ٨٢٥ سفنا فارسية وهندية وصينية •

(٤) Ritter, Erdk VIII, 773 et s., XII, 386; Ibn Batouta, éd. Sanguinetti et Defrémery, II, 456 not; Annales des voyages, 1848, II, p. 50 not 2.

الأرجح سيلان الى يسارها ، وتقطع خليج البنغال فى خط مستقيم ، وتمر أخيرا عبر مضيق ملقا عائدة الى وطنها • ولا مجال هنا لذكر المزيد من التفاصيل عن تلك الرحلة البحرية ، وانما نجدها فى أخبار « سليمان » (١) ، وهو تاجر عربى عاش فى النصف الأول من القرن التاسع ، وقام مرارا بالرحلة من الهند الى الصين مستغلا السفن الصينية العائدة الى وطنها(٢) ، وكان ذلك فى الوقت الذى قل فيه ظهور هذه السفن فى سيراف • وكان الطريق الذى أشرنا اليه ترتاده السفن العربية أكثر من السفن الصينية ، وكانت سيراف الموقع الذى تبحر منه • وفى القرن التاسع دون صاحب البريد العظيم أبو القاسم بن خرداذبة — بمساعدة بعض خبراء الملاحة — دليلا للمسافرين، وصف فيه ضمن أشياء أخرى الطريق البحرى من مصب الدجلة الى الهند والصين ، وذكر كموقع لابحار السفن ميناء أوبولاه Obollah فى قلب الخليج الفارسى • وكان من أثر انشاء مستودعات كبيرة خلف هذا الميناء ، فى البصرة وبغداد انتعاش حياة جديد ، فكانت تبحر من ثمة الى الصين أساطيل تجارية عربية كاملة (٣) • ولم يمنع موانى أخرى فى الخليج نفسه من توثيق علاقات مع الصين • ومن هذه الموانىء نذكر سيراف ، ميناء فارس Fars الكبير بسكانه من التجار النشيطين ، والملاحين الجسورين (٤) • يقول ابن خرداذبة أن السفن العربية كانت تسير عادة بمحاذاة الساحل الفارسى ، ثم ساحل الهند حتى ملبار ، وكانت تتبع هذا الطريق لأنه كان عليها أن تشحن البضائع وتفرغها فى مختلف موانىء الساحل ، لا لأنها تخشى مواجهة أعالى البحار • فالواقع أنها كانت ، ابتداء من ساحل كرماندل Coromandel تعبر خليج البنغال فى خط مستقيم ، كما يفعل الصينيون ، وكان الطريق الذى ذكره ابن خرداذبه هو الطريق نفسه الذى ذكره

---

(١) هذه الأخبار التى دونت عام ٨٥١ تملأ الصفحات الستين الأولى من كتاب رينو :
Reinand, Rel. des voy. faits par les Arabes et les Perssans dans l'Inde et à la Chine, Paris 1845, II.

وبعد هذه الأخبار (٦١ — ١٥٤) يعطى الناشر مذكرات عن الاثنوجرافيا ، والتاريخ الطبيعى والتاريخ السياسى للهند والصين ، ألفها أيضا فى مستهل القرن العاشر أبو سيد حسن من واقع أخبار الرحالة •

(٢) هذا ما يبدو على الأقل أنه مستخلص من بداية اخباره ص ١٣ — ١٥ •

(٣) ابن حمدون : أوردها كريمر Kremer : Culturgesch, des Orients, II, 276.

(٤) المسعودى : مروج الذهب : النص والترجمة : باربييه دومينار ، وبافيه دو كورتيى (١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨) •

— Isstachri, Das Buch der Lānder, trad. par Mordtmann p. 19, 69, 71, 74.
— Rel. des voy. éd. Reinaud p. 79.
— Les tableaux du monde indien de Kazuini لوحات العالم الهندى للقزوينى تضم الكثير من الحكايات الخرافية ، وهى معتبسة بعض الشىء من حكايات بحارة سيراف ، أنظر : Gildemeister, Op. Cit., p. 195, 197.

سليمان بالنسبة الى السفن الصينية · ويذكر ابن خرداذبة عدة موانى صينية (١) · ولم تكن كانتون (ويسميها خاكو) فى عصره الموقع الوحيد لرسو السفن ونزول الأجانب منها ، ولم يكن موقعها البعيد عن مركز الحياة الصينية يتيح لها أن تطمح فى هذا الامتياز ومنذ بداية القرن التاسع ، كان أهم ثغر هو خان ــ فو Knan-fou الذى نجده فيما بعد فيما كتبه ماركو بولو تحت اسم جاميو Gampou الذى سوف نتكلم عنه بمزيد من التفصيل · ولما كان هذا الثغر واقعا فى الخليج جنوبى ميناء شنجهاى الحالى ، فانه كان على بعد بضعة أميال من كنج ــ سى عاصمة اسرة مونج ، وهو الآن مدينة هانجتشو ــ فو Hang-tchou-fou ، وكان بين المدينتين حركة مواصلات لا تنقطع · وفى خان ــ فو كانت السفن الصينية العائدة من رحلاتها الى الغرب تحيى بسرور أرض الوطن ، كما كانت السفن التجارية القادمة من جاوة والهند وفارس وبلاد العرب تصل الى نهاية رحلاتها المحفوفة بالمخاطر · وكان العرب يجدون فى العاصمة الكثير من مواطينهم المستقرين فى مراكز ثابتة ، وكان عندهم هناك ، بفضل كرم وسماحة امبراطور الصين قاض يصدر أحكامه طبقا لأحكام القرآن ، ويقيم الصلوات تبعا لشعائر الاسلام (٢) · وكانت كنج ــ سى تمنح تسهيلات خاصة لبيع بضائع العرب : بل كان الامبراطور نفسه يأمر بشراء بعضها لحسابه الخاص (٣) ، وكانت حوانيت مواطنى العرب، وحوانيت كبار التجار الصينيين تزود التجار العرب بوفرة من منتجات البلد ومصنوعات الحرفيين البارعين لشحن سفنهم عند عودتها · وكان فى مقدورهم التغلغل فى داخل البلد وممارسة التجارة فيه بكامل حريتهم بشرط أن يتزودوا ببطاقات سفر معتمدة من السلطات الصينية (٤) · ولقى العرب هناك لزمن طويل ترحيبا كبيرا ، وكان القضاة يعاملونهم مثلما يعاملون المواطنين · غير أنه حدث فى حوالى عام ٨٧٥ أن اندلعت ثورة فى شمال شرقى الصين (٥) ، استمرت تسع سنوات واستتبعت تحولا

---

(١) يذكر فضلا عن المنائين المذكورين فى النص Al-Wakin وفيها حديد ممتاز ، ويورسلين ، وزرز الصين ، ويقع هذا الميناء غالبا فى تونكين عند مصب نهر سونكوى Songkoï ثم كانتو أو كيماو ــ تشو Kiaou-tshou على الساحل الجنوبى لشانتونج — Richthofen, China I, 575 et s., II, 177, 262 et ss.

ويرى أن هذا الميناء اوسع واحسن موانى شمال الصين ، وقد غمره الرمل فاصبح دخوله عصيرا ، ومن ذاك الحين فضل البحارة عليه ميناء تسى ــ فو Thsi-fou

(٢) Relat. p. 13.

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٦ ، ١٠٦ ·

(٤) المرجع السابق ، ص ١٢ ، ٤١ وما بعدها ، ص ٧٩ ·

(٥) بخصوص هذه الثورة ، انظر : Mémoires concernant les Chinois, XVI, p. 261 et ss.; Richthofen, China I, 572.

كاملا ، ليس فقط في الوضع الداخلي للبلد ، ولكن أيضا في العلاقات مع الأجانب . وملأ الثوار البلد بالخرائب : وفي فورة التدمير التي جاشت بصدورهم ، لم يسلم من أيديهم شيء ، حتى أشجار التوت ، فتوقف تصدير الحرير لعدة سنوات ، وأراقوا سيلا من الدماء ، وعاني المستوطنون العرب من ذلك معاناة شديدة ، وربما حل بهم الخراب الشامل . واستطاع الامبراطور ، بمساعدة بعض الفرق الأجنبية أن يقضى على الثورة ، ولكن سلطته ضعفت ضعفا شديدا . ففى الأقاليم راح نوابه يهزأون بسلطته ، ويتصرفون كما يحلو لهم ، وعاني ربابنة السفن والتجار العرب من ناحيتهم من أعمال العنف ، ومن الامتناع عن النظر في شكاواهم ، ومن أعمال السرقة والاغتصاب . وفي هذه الأحوال قر عزمهم على قطع صلاتهم بالصين واقامة مرفأهم الرئيسى بكلخ Kalah في شبه جزيرة ملقا (١) ، وهى مدينة لم تكن حتى ذاك الحين سوى محطة وسطى (٢) على طريق الصين . ونتيجة لذلك اضطر التجار الصينيون أن يذهبوا الى هناك لكي يظلوا على صلة بعملائهم العرب . وحظيت كلخ وقتئذ ، في مجال تجارة الشرق بالأهمية التي كانت لسيلان في القرن السادس ، وأصبحت ملتقى السفن التجارية الأسيوية ، الغربية منها والشرقية ، وكان وضعها ممتازا من جميع الوجوه ، بصرف النظر عن موقعها المتوسط بين الصين وبلاد العرب (٣) . وانفتحت سوق جديدة وكبيرة للتجار العرب ، سوق لمنتجات الهند الصينية ،

---

(١) اعتقد أنه من الثابت ان كلخ (أو كالاه) كانت موجودة في شبه جزيرة ملقا ، ويشاركني في هذا الرأى كاترمير :

— Guatremère, Journ. des Savants, 1846, Déc. p. 734.

وكذا فالكنز : — Walckenaer, Nouv. annal des voy. 1832, I. p. 19.

وسبرنجر : — Sprenger, Abband. der Deutsch, morgenl. Ges III, no. 3, p. 88.

وبيشل : — Peschel, Gesch. der Erdk. p. 107.

وآخرون . ثم انه من الصعب تحديد الموقع : فموري Maury يفترض أنها كانت Kadah (Quedda) وفي هذا الفرض قدر كبير من الصحة ، انظر كذلك يول : Yule, Cathay, I, p. civ., exei.

(٢) Relations, p. 17, 93 et ss.; Maçoudi, I, 308.

في هذا الأوان ، كان لا بد للتجار العرب الراغبين في الذهاب الى الصين ، أن يستقلوا من كلخ سفنا صينية ، أنظر : المسعودى ، المرجع السابق . ولا يبدو أن الصلات البحرية قد انقطعت بين الهند والصين ، على الأقل ذهب هنود الى الصين في حوالى ٩٧٠ ، ٩٩٦ على سفن تجارية (هندية أو صينية ؟)

— Stanilas Julien, dans le Journ. asiat., Sér. IV, T. X (1847) p. 113, 120.

(٣) في كتاب أبو الفدا (Geogr. II p. 131) أن كلخ هى « ميناء لكل المناطق الواقعة بين عمان والصين » .

كالكافور ، والقرنفل ، وخشـب الألوة (أو الغلوة) ، والصـندل ، والبقم ؛ وجوز الهند ، وجوز الطيب ، بالاضافة الى القصدير الذى كان شديد الرواج فى نواحى كلخ (١) ونمت هذه التجارة لدرجة كان معها تجـار سيراف فى القرن العاشر يعتبرون الرحلة الى شبه جزيرة ملقا أمرا بسيطا للغاية ، كما زادت فى الوقت نفسه معرفتهم بجزيرة جاوة ، ووجدوا فيها تجارا صينيين كان عدد كبير منهم قد هاجر اليها فى أعقاب الاضطرابات التى جرت فى وطنهم (٢) ٠

واذا كان العرب قد زاروا كثيرا بلادا نائية كالهند الصينية والصين ، كما يبدو أن البعض منهم وصلوا الى كوريا وأقاموا بها بعض المنشآت (٣) ، قلنا أن نتصـور أن تكون « الهند الشرقية » هى غايـة الكثير من الرحلات ٠ وكان الساحل الغربى لشبه الجزيرة والغنى بالحاصلات من جميع الأنواع فى مواجهة الساحل الشرقى لبلاد العرب ، ويمكن الوصول اليه فى شهرين أو ثلاثة شهور ، بل أحيانا فى شهر واحد اذا كانت الريح مواتية(٤) ٠ وكان هناك تجار عرب يقيمون فى سيلان قبل عام ٧٠٠ ، ذلك لأنه حدث فى حوالى عام ٧٠٠ أن نساء وبنـات بعض التجار وقد أصبحن أرامل ويتـامى ، كن عائدات الى وطنهن ، فاختطفهن قراصنة هنود (٥) ٠ وقد روى الرحـالة العرب فى القرنين التاسع

---

(١) Relations, p. 93 : Ibn - Khordadbeh, éd. Barbier de Meynard p. 288, 294; Voyages de Sindbad, éd. Langlès, p. 73; Abou - Dolef. Iter asiat. éd. Schlaezer, p. 18 et s.

(٢) المسعودى ، الجزء الثانى ٥٢ ، أبو الفدا : (Géogr. introd. p. Reinaud, I).
وبهذه الواقعة تتعلق الفقرة المعروفة للادريسى ، ومضمونها أنه « يقال انه حين تضطرب شئون الصين بسبب تمرد السكان ، وحين يستفحل الفوضى والاستبداد فى الهند ، ينقل الصينيون تجـارتهم الى زاندج Zanedj والجزر الأخرى التابعة لها ٠ والحقيقة أن الادريسى يتحدث فى هذا الفصل عن الجزر الواقعة قبالة ساحل زنجبار ، ولكنه يخلط بينها وبين الأرخبيل الهندى ، والفقره المذكورة بعاليه تنطبق فى الواقع على جاوة ٠

(٣) المسعودى ، الجزء الأول ٣٤٦ ، ابن حرداذبة ، ص ٢٩٤ ، ٥٢٢ ٠
ولا يرجع أول هذه المنشئات الا الى القرن العاشر ، ففى القرن التاسع لم يكن أى عربى قد شق طريقه الى هناك : Relations, p. 60 et proleg.
وكان المعتقد فيما مضى أن سيلا Sila فى الفقرات المذكورة هى اليابان ، ولكن رشتهوفن يرى بحق أنها كوريا (China I, 576)
وكذا كونج : Goeje, Arabische Berichten over Jafon Amst. 1880, p. 3,4

(٤) Relations, p. 15; Scherzy, dans Sprenger, op. cit., p. 87.
وكذا المسعودى ، الجزء الأول ، ٣٣٢ ٠

(٥) أنظر موجز بيلادورى فى ايليوت Beladori, dans Elliot., Hist of India I, 118.
وكذا :
— Reinaud, Mém, géogr. hist et scientif. sur l'Inde, dans les Mém. de l'Acad. des Inscr. XVIII, 2 (1849), p. 79 et ss.
أنظر أيضا . Gildemeister, Scriptum arab de ref. ind. loci, p. 52 et s.

والعاشر ، أن الكثير من الملوك فى القارة الهندية كانوا يراعون مصالح العرب(١) • واعتنق الاسلام زامورن كيرومان برمال Zamorin ueroman Permal وبعض أمراء ملبار ، وأذنوا للعرب باقامة منشآت وبناء مساجد على مدى الرقعة التى يملكونها (٢) • وعندما زار المسعودى الهند فى عام ٩١٦ التقى بجالية كبيرة من هذا النوع فى مقاطعة سيمور Saimour بالقرب من مدينة نبوبيى الحالية (٣) ، وكان فيها قرابة عشرة آلاف مسلم، ولم يكن هؤلاء قوما أتوا من سيراف أو عمان أو البصرة أو بغداد أو من غيرها من أسواق دولة الخلفاء فحسب ، ولكن كان منهم من ولدوا فى البلد من آباء عرب ، ومن بين هؤلاء المستوطنين تجار كبار ، وقد عهد الملك الى واحد منهم بتولى السلطة القضائية فى المستوطنة كلها (٤) • وكان المرء عندما يرحل من سيمور ويتجه شمالا ، يصادف مجموعة من المدن التجارية ، منها مدينتان معروفتان من قديم الزمان وهما : سوبارا Soupara ، وباريجازا Barygaza ، وهما اليوم سفارا Safara (أو سفالا Soufa'a (٥) ، وباروتش Barotch ، ثم كامبى Cambaye على الخليج الذى يحمل هذا الاسم • ومن المحتمل بالنسبة الى كل هذه الأماكن ، والثابت بالنسبة الى المكان الأخير أنه كان يقطنها ، أو على الأقل يتردد عليها مسلمون(٦) • وفى حين أنشأ العرب مستوطنات سلمية على شاطىء الهند وفى مدنها (٧) ، اجتازت جيوشهم حدود فارس فى مستهل القرن الثامن واستولت على منطقة نهر الاندوس (السند) الأدنى • وكان فى احدى مدن هذا القطر واسمها ملتون Moulton معبد يحج اليه الهندوس قادمين من أقاصى البلاد • ومن حسن سياسة العرب أن أبقوا على هذا الموضع فاكتسبوا بذلك ود الأهالى ، وكان قدوم الحجاج مفيدا للبلد وللمدينة ، وكان

---

(١) Relation, p. 26, 27; Maçoudi, I, 382 et s. Isstachri, p. 82 et s.

(٢) Lassen, Indische, Alterthumskunde, IV, 255, 953, Ritter, Erdk V, 581 et ss. ; Gildemeister, I.C. p. 51.

(٣) Isstachri, p. 85 : Edrisi, I. 172 ; Reinaud, Mém sur l'Inde, p. 220 : Aboulf éd. Reinaud; Lassen, op. cit III, 183; Sprenger, op. cit., p. 80; Yule, Cathay, I.

(٤) المسعودى ، الجزء الثانى ، ٨٥ وما بعدها ، أنظر أيضا ابن حوقل فى كتاب جيلدمايستر ، المرجع السابق ص ١٦٥ ، كذلك رينو : Reinaud, Mém. sur l'Inde, p. 242.
أنظر أيضا القزوينى فى كتاب جيلدمايستر ص ٢٠٨ •

(٥) Yule, Cathay, I, 227 et s. ; Lassen, op. cit., I, 107, IV, 957 : Indian antiquary 1, 321.

(٦) Reinaud, Mém. sur l'Inde, p. 220 et ss.; Isstachri, p. 82.

(٧) ذكرت فى الكتابات الهندية فى ذاك العصر باسم يافانا Yavana أو كالايافانا Kalayavana (يافانا السوداء) • أنظر فى ذلك :
— Weber, Die Verhindungen Indiens mit den Ländern des Western ; l'Allg. Monatschrift, sept. 1953, 2 art. p. 733.

هؤلاء الحجاج يحضرون معهم بمثابة قربان لآلهتهم ، أو جزيـة للأمير العربى منتجات ثمينة من صنع بلادهم ، تباع للتجار بربح وفير (١) ٠ وثمة سوق أكبر أهمية ، سوق ديبال Daybal ، وهى مدينة على السـاحل غربى مصب السند (٢) ، كانت السفن الفارسية والعربية المتجهة الى الهند أو الصين ترسو عندها عادة ، عند ذهابها ، وعند عودتها ، فكان هناك دائما فى هـذا الموقع بضائع من كل البلاد ، يوزعها تجار المدينة الأثرياء فى داخل البلاد ، ويصدرون عن طريق البحر منتجات المنطقة والبلاد الواقعة بعدها (٣) ٠ وفى أوائل القرن العاشر ، وتحت ضغط سلاطين الأسرة الغزنوية ، مد العرب فتوحاتهم فى شمال غربى الهند ، وبذلك تمهد للتجار العرب الطريق الى المناطق الداخلية بالهند ، وكانت مغلقة دونهم تقريبا حتى ذلك الحين (٤) ٠ غير أن التعصب الدينى الذى اتصف به الغزنويون جعل الأهالى يخشون بأسهم ، واشتد نفور الهندوس الطبيعى من كل تجارة مع الأجانب ، ذلك النفور الذى بقى فى داخـل القطر أقوى منه على السواحل ٠

ولنعد الى نقط انطلاق البحرية التجارية العربية ٠ لم تكن سيراف ، حتى فى أزهى عصـورها هى المسـتودع الوحيـد لمنتجات الهند وفارس ٠ يقول الاصطخرى Isstachri بوجه عام : « ترحل البضائع الى ما وراء البحار من سيراف (٥) ٠ غير أنه لا يجوز أن يغيب عن البال أن هذا الكاتب كان يقيم فى جنوب فارس ، فى منطقة لا تستورد من سيراف سوى مؤونتها من التوابل ٠ أما المسعودى الذى كانت معلوماته أوسع فانه يكمل هذه البيانات : فبالنسبة الى سفن سيراف التجارية ، يذكر أيضا ، وبصورة عادية منطقة عمان الساحلية ومن المؤكد أن المدن الساحلية فى عمان ، وبخاصة صحار ومسقط كانت تجهز فى أحيان كثيرة بعثات بحرية الى الهند الشرقية ، والهند الصينية ، والصين ،

---

(١) Reinaud, Mém. sur l'Inde, p. 184 et s., 213, 248 et s.; Ibn-Hooukal, Oriental geography, transl. by Ouseley, p. 148 et s. ; Maçoudi, I, 373; Relations, p. 135 et s.

(٢) « فى الشرق » قراءة خاطئة لنص ابن حوقل ، وبفحص مخطوط أصح والخريطة المرفقة به ، نجد أنه يجب أن تقرأ « فى الغرب » ، أنظر : Elliot, Hist of India, muhammadan period, I, 37, 377.

(٣) بخصوص حالة هذه المدينة وأهميتها التجارية أنظر : ابن خرداذبة فى كتاب سبرنجر ، المرجع السابق ص ٨٠ ، والاصطخرى ص ٢٠ ، والمسعودى ، الجزء الأول ، ٢٠٧ ، ٢٣٩ ، ٣٧٨ ، وابن حوقل فى كتاب جيلدمايستر ص ١٧٠ ، والقزوينى ، المرجع السابق ص ٢٠٥ ، والادريسى ، الجزء الأول ١٦١ ٠

— يرى رينو أن هذه هى مدينة كراتشى الحالية (Mém. sur l'Inde, p. 170, not 6) ويؤيد ايليوت هذا الرأى (Elliot, op. cit., p. 374 et ss.).

(٤) Reinraud, Relatiins, introd.

(٥) Trad. Mordtmann, p. 74.

وتستقبل سفن هذه البلاد (١) . وهناك حقيقة أخرى تتيح لنا أن نتقدم فى معلوماتنا عن الموضوع الذى يشغلنا : ذلك أن سوقطرة Sokotora كانت وكرا للقراصنة الهنود الذين يقلعون من هناك ويغيرون على السفن العربية وهى تمر على مرأى من الجزيرة متجهة الى الهند أو الصين (٢) . ويدل موقع سوقطرة على أن هـذه السفن لا يمكن أن تأتى الا من جنـوب الجزيرة العربية أو من باب المندب ، وهذا ما يحدونا الى التحدث عن مجموعة من البلاد مثل اليمن والحجاز وأثيوبيا ومصر ، كان لها علاقات بشرقى آسيا : مثالا لذلك : كان خشب الساج (أو الدلب) مستعملا فى بناء السفن فى مصر وبلاد العرب (٣) . ولم تكن هذه البلاد مجردة من المنتجات التى تصدرها الى الهند والصين . من ذلك أن أحجار الزمرد فى الساحل الشرقى للهند كانت تصدر الى الغرب عن طريق عدن ومكة ، فى حين كان أمراء الشرق الأقصى يستوردون زمردات مصر العليا ، وأنياب الفيل البرى المتوفرة فى الحبشة ، ويصنع منها أشياء كثيرة فى الهند والصين (٤) . وكانت عدن ، فى بلاد العرب « السعيدة » من أهم أسواق هذه السلع ، وكان مرفأها ملتقى السفن القادمة من كل أنحاء آسيا ، ومن ساحل شرقى أفريقيا (٥) . ونظرة سريعة الى قائمة البلاد التى تنتمى اليها هذه السفن تدل على أن البحر الأحمر كان يستقبل مباشرة وعلى الأقل جزءا من منتجات الهند والصين ، ولا ينفى هذا قدوم سفن من سيراف ، لأن بحارة هذا الميناء كانوا يبحرون على طول الساحل الشرقى والجنوبى لبلاد العرب ، بل كانوا كذلك يتجاوزون عدن ، ويصلون أحيانا الى جدة حيث ينقلون شحناتهم الى سـفن أخرى أقدر على مواجهة أخطار الملاحة فى القسم الشمالى من الخليج(٦) . أما جدة التى شيدها بعض التجار الفرس فى أواسط القرن السابع ، وخصصها الخليفة العثمانى لتكون ثغرا لمكة فانها استفادت كثيرا من رواج التجارة بهذه المدينة ، ولكنها حافظت دائما على أهمية خاصة بها اذ كانت مرسى للملاحة فى البحر الأحمر (٧) وأما « الجار » El-Djar التى كانت آنئذ ثغرا للمدينة

---

(١) Relations, p. 93 ; Maçoudi, I, 303, 308; II, 52; Edrisi, I, 152, Almohallaby, dans Azyzy (du Xe siècle), cité par Aboulf., trad. Reinaud, II, 137; Isstachri, p. 14, 71.

(٢) المسعودى ، الجزء الثالث ، ٣٧ .

(٣) المسعودى ، الجزء الثالث ، ١٢ ، سبرنجر ، المرجع السابق ص ١٥٧ .

(٤) المسعودى ، الجزء الثالث ، ٧ وما بعدها ، ٤٣ ـ ٤٨ ، Relations, p. 153.

(٥) ابن خرداذبة : Ibn Khordadbeh; éd. Barbier de Meynard, p. 282; Isstachri, p. 13; Azyzy, dans Aboulf. trad. Reinaud, II, 127; Géographie de Moïse de Khorène dans Saint - Martin; Mém. sur l'Arménie, II, p. 371.

(٦) Relations, I, 142 et s.

(٧) Isstachri, p. 9; Sprenger, op. cit., p. 124 not. 1; Wüstenfeld, Chroniken der Stadt Mekka, IV, 122.

فكانت تزورها سفن الصين والهند والحبشة (١) • وأخيرا ، فى الشمال الغربى من الخليج ، كانت قلزم القديمة Kolsoum, Clisma ولم تزل تتمتع بشيء من الرخاء ، لأنها كانت ميناء مشتركا لسوريا ومصر (٢) • ولن نتابع أبعد من هذا سير منتجات الشرق الأدنى ، فقد وصلنا الى أقصى ما يمكن أن تنتهى اليه عن طريق البحر •

كان الانتقال بالطرق البرية قليلا بالنسبة الى حركة الملاحة الكبرى بين البلاد العربية والهند والصين (٣) • ومن وقت لآخر ، حين كان سكان سمرقند وخراسان يريدون الذهاب الى الصين ، كانوا يركبون السفن فى الخليج الفارسى مفضلين طريق البحر ، عن طريق البر ، رغم طول المسافة (٤) • ومع ذلك استمرت القوافل تنقل البضائع • وفى العصر الذى كان فيه العرب يسيطرون على مصب نهر السند ، كان هناك طريق تجارى يمتد من تلك المنطقة الى داخل بلاد الفرس عن طريق اقليم سجستان (سفستان) (٥) ، والى الشمال كانت قوافل بنجاب تحمل كميات كبيرة من البضائع عبر هضاب أفغانستان الشاهقة ، وتأتى بها الى كابول وغزنة اللذين أصبحا بذلك مركزين كبيرين لتبادل البضائع (٦) • ومن هناك تتجه القوافل من ناحية الى الغرب صوب خراسان ، ومن ناحية أخرى الى الشمال صوب بخارى ، وبهذه الكيفية ، ورغم بعد البحر بعدا كبيرا ، كانت توابل الهند تنتشر فى هذه البقاع • وفى بخارى كانت هذه التوابل موجودة مع البضائع المجلوبة من الصين عن طريق

---

(١) فى هذه النقطة غير المعروفة ، انظر : Sprenger : Die alte Géographie : Arabiens, p. 38; Rremer, Culturgeschichte des Orients, II, 278.
ويذكر كريمر فقرة من « ياقوت » خاصة بعلاقات هذه المدينة مع بلاد مختلفة •

(٢) Isstachri, p. 18.

(٣) ذكر ابن حوقل أنه فى حوالى عام ٩٧٥ كانت التجاره كلها وتحهيزات السفن المبحرة الى الهند والصين وزنجبار فى يدى تاجر واحد واسع الثراء اسمه أبو بكر أحمد بن عمر السيرافى ، وكانت مخازنه مملوءة بالأحجار الكريمة والعطور •

— أنظر فى « الصحيفة الأسيوية » Journ. asiat ١٨٧٣ ص ٥٧٤ وما بعدها مقالا عن الطبعة الجديده للنص العربى لهذا الرحالة ، نشرها جويج Goeje, •

(٤) نجد أمثلة لذلك فى المسعودى ، الجزء الأول ٣٠٧ وما بعدها ، و : Relations, p. 106 et ss.

(٥) Maçoudi, I, 349 ; Reinaud, Mém. sur l'Inde, p. 216 : Isstachri, p. 111. Elliot, Hist of India, 1, 54, 468.

(٦) Isstachri, trad. Mordtmann, p. 120; et les passages d'Ibn Haaukal, cités par Reinaud, Mém. sur l'Inde, p. 243-245.
وفى عصر هذا الرحالة كانت كميات النيلة المستوردة الى سوق كابول تصل قيمتها الى مليونى دينار وأكثر سنويا • أنظر ايضا : Eddiot, i.c.

آسيا الوسطى · والواقع أن أهالى بخارى التجار استمروا على علاقات وثيقة ونشيطة مع الصين ، وأنا لنجد برهانا على ذلك حدثا صغيرا فى تاريخ فتح العرب لهذا القطر فى مستهل القرن الثامن : فالى جانب سمرقند بخارى كانت هناك « مدينة للتجار » مزدهرة اسمها بيكوند Peikound (Beykend) (١) واقتحم العرب هذه المدينة ، وكان من بين كبار سكانها رجل أراد أن ينقذ حياته ، فعرض — دون جدوى — أن يسلم خمسة آلاف قطعة من الحرير الصينى (٢) · وبعد الاستيلاء على بخارى لم تتعد الفتوحات العربية أقاليم فرغانة ونهر ياجزات · ومن ثم لم تنشب بين هذه الأقاليم وبين الصين (٣) حروب الا فى القليل النادر · وعلى ذلك يبدو من الثابت أن التاجر الذى يريد الذهاب من دولة الخلفاء الى الصين ، دون أن يعانى المتاعب وضروب الحرمان ، والأهوال التى تلازم كل رحلة فى الصحراء ، لم يكن يصادف فى طريقه أية عقبة من قبل السلطات الرسمية · فبعد أن يعبر نهر ياجزارت ، يجد شرقى هذا النهر مساكن « الخارلوك » Kharloks ، ثم يجتاز اقليم قبيلة من أقوى القبائل التركية فى ذلك الحين ، وهى قبيلة « تجازجاز » Tagazgaz - (Hwei-hou) ويمتد هذا الاقليم مسافة كبيرة على سفحى جبال تيان — شان(٤)· وكان هناك فى زمن المسعودى طريقان مستعملان بنوع خاص : أحدهما طويل ، ويستغرق اجتيازه أربعة أسابيع أى ٢٨ يوما ، ويلائم مسير دواب النقل ، والثانى أقصر منه ، ولا يستغرق اجتيازه ٢٠ يوما (٥) غير أن هذا الرحالة لم يذكر اتجاههما بالضبط (٦) · وأخيرا كان هناك طريق عبر التبت، ولكنه محفوف بالصعوبات

---

(١) هذا هو الاسم الذى أطلقه عليها ابن خرداذبة ، فى كتاب سبرنجر (المرجع السابق ص ٢٠٥) ، والطبرى فى فايل Weil, Gesch d. Chalif. I. p. 499 et ss. not 2. —
أنظر أيضا : Vambery, Gesch, Bochara's oder Transoxaniens I, 27. —

(٢) الطبرى ، فى فايل (المرجع السابق ، ٥٠٠) ·
كذلك : l'Histoire de Bokhara, de Marchache. —
التى كتبت عام ٩٤٣ أو ٩٤٨ ، وتتحدث أيضا عن علاقات تجار هذه المدينة بالصين ·
أنظر فامبرى : Vambery, Gesch, von Bochara, I, 10. —

(٣) Yule, Cathay. I.

(٤) Isstache, p. 3; Reinaud, trad. d'Aboulféda, prolégum; Richthofen, China, I, 563-565.

(٥) يحسب ابو سعيد Abou-Saïd سفر شهرين سيرا على الأقدام من بلاد الصغد (صغديانه) الى الصين ، أنظر · Relations, p. 114. —

(٦) المسعودى ، الجزء الأول ص ٣٤٧ — ٣٤٩ : يقول انه باتخاذ أقصر الطرق ، يعبر المسافر جبالا بها رواسب من ملح النشادر · ويعتقد رينو ، وريشتهوفن أن المقصود هو جبل من سلسلة جبال تيان شو ، يقع على بعد مائتى ميل صينى شمال كوتش Koutch حيث يستخرج ملح النشادر ، ولكن هناك مناجم من هذا النوع فى صغديانة ، وبالقرب من اورومتسى Ouroumtsi (بيتسبالك Bichbalik)

أنظر أيضا : Tomaschek, Centralasiatische Studien, I, Sitz. Ber der Wiener Akad, phil. hist (1877) et. LXXXVII, p. 87-89. —

الشديدة ، فلم يكن مطروقا الا فى القليل النادر ، فيستخدمه مثلا تجار سمرقند الذين يحملون الى الصين مسك التبت (١) ٠

ويمكن التسليم بأن القوافل المرسلة الى الصين فى العصر الذى نتحدث عنه كانت أكثر ندرة ، لأن من أغراضها الرئيسية تجارة الحرير ، وكان الحرير وقتئذ ينتج أيضا فى شمال فارس ٠ واستخدمت صناعة الحرير طريق بخارى التجارى القديم فى بلاد الفرس ، ومن ثم تركزت فى زمن مبكر فى مرو ، والى هذه المدينة أقبل سكان الأقاليم الأخرى فى القرن العاشر طلبا لبيض دود القز ، ومن هناك انتشرت هذه الصناعة وامتدت على طول الحدود الشمالية لايران الى أقاليم طبرستان (وحاضرتها أمول Amôl) وجرجان ٠ وكان جو الاقليم الواقع فى الرقعة التى تنخفض أرضها بالتدريج من الهضاب العليا حتى بحر قزوين مناسبا بنوع خاص لنمو دود القز ٠ ويقول الاصطخرى وابن حوقل ان هذه البقاع كانت على عهدهما مركزا لانتاج الحرير ، واحتفظت بهذه الميزة الى يومنا هذا (٢) ٠

وبتتبع صناعة الخرير حتى فارس خلال القرون الأولى من دولة الخلفاء ، وصلنا دون أن ندرك ذلك الى حقل جديد فى هذه الدراسة ٠ والواقع أنه اذا كان الناس يصنعون فى داخل دولة الخلفاء نفسها منتجات شبيهة بما ينتجه الشرق الأقصى ، فانهم كانوا يستثمرون منتجات أخرى مطلوبة بالمثل ٠ ولم يكن ثمة حاجة للذهاب الى المالديف Maldives, Laquedives أو سواحل الهند للحصول على العنبر الرمادى ، لأن أمواج البحر تلقى بهذا العطر على الشاطىء الجنوبى لشبه الجزيرة العربية (٣) ٠ ولم تكن سيلان الوحيدة التى تملك لآلىء وحجارة كريمة ، اذ كان هناك مصايد لآلىء ذات غلة وافرة فى الخليج الفارسى ، وجزر البحرين ، وكيس Keich ، والمعروفة الآن باسم خرج Kharek (٤) ٠ ومن جبال فارس كان يستخرج أحجار كريمة ، وبخاصة الفيروز واللازورد ، وينمو قصب السكر فى أغواط مكران Makran وكوزستان Kousistan (٥) ، وكانت سهول سوريا وبلاد ما بين النهرين مغطاة بشجيرات

---

(١) Relations, p. 114 et s.

(٢) Isstachri, p. 100, 117; Ibn Hoaukal, éd. Ouseley p. 21 et s.; Ibn Haoukal, tranl. by Anderson, Journ. of The Bengal Society, XX (1853), p. 157; Ritter, Erdk. VIII, p. 232, 529, 702.

(٣) Relations, p. 4, 30; Maçoudi, I, 433 et s., 367.

(٤) ابن خرداذبة ، الناشر باربييه دو مينار ، ص ٢٨٣ ، المسعودى ، الجزء الأول ، ٢٣٩ ، ٣٢٨ والصفحات التالية ٠

(٥) ابن حوقل ، ترجمة اندرسن ٠ Journ. of the Bengal Society, XX, p. 154, 165, XXI, p. 55; Isstachri, p. 58.

القطن ، وبلاد العرب القاحلة تنتج على الأقل المر (الصبر) والبخور (١) . وكان هناك علاوة على الغلات الطبيعية ، منتجات صناعية : فلم يكن العرب يحتقرون العمل اليدوى ، والقرآن يحث عليه لأنه مقبول عند الله ، ولكنه كان حقيقا أن يظل محصورا فى حدود متواضعة لم احتفظ العرب زمنا طويلا ببساطة العادات والطبائع التى أمر بها محمد (صلعم) . نرى من كان يتوقع أياما مجيدة للصناعة العربية ، حين أمر الخليفة عمر بقسمة أبدع غنيمة استولى عليها العرب من فارس وهى بساط فاخر عليه صورة الفردوس ، لنصير ألف قطعة ، وحين حظر على قواد جيشه أن يشيدوا قصرا مثل قصور الملوك الساسانيين(٢) ؟ ولكن هل كان فى الامكان اقناع الفرس المهزومين أن من الواجب عليهم بعد اعتناقهم الاسلام أن يتخلوا عن الذوق الفنى الذى كان يخدم ترفهم ، ويغلقوا المصانع التى كانت تخرج منها منسوجاتهم الرفيعة ومطرزاتهم الرائعة ؟ هل كان من المستطاع اجبار أهالى سوريا أن يتركوا صناعة الحرير التى كانوا يزاولونها من زمن بعيد لمجرد أنهم انتقلوا من السيادة البيزنطية الى السيادة العربية ؟ وبمرور الزمن نسى الفاتحون أنفسهم أن المتع المادية الرقيقة لا يجوز أن تكون من نصيب المؤمنين الا بعد الموت ، واستسلم الأقوياء والأثرياء للملذات الدنيوية دون أى حرج ، واختاروا لثيابهم أغلى الأقمشة ، واستعملوا فى تزيين دورهم ترفا شرقيا حقيقيا . ورأينا كم استفادت التجارة من ذلك ، ولم تتخلف عن الصناعة الأهلية ، وأكسبها تقدم وسائل الرفاهية حافزا قويا . وحينما تبددت الخشية فى قلوب المسلمين من لبس الأثواب الحريرية (٣) وجد النساجون الفرس عملاءهم يزدادون عددا فى كل أنحاء البلاد التى فتحها الاسلام . وطورت مدينتا مرو ونيسابور (٤) بنجاح كبير هذا الفرع من الصناعة الذى استمر يزاول بنشاط فى الجنوب(٥) فى اقليم كوزستان وفارسستان ، ونعلم أن صناعة الحرير كانت مزدهرة فى عهد الملوك الساسانيين . وكانت مدينة « سوس » تنتج أقمشة من القطيفة الثقيلة الفريدة فى نوعها ، ولكن رخاءها لم يدم طويلا . واشتهر هناك أيضا تبستر (شستر) بأطلسها الذى ينافس أجمل المنتجات اليونانية ، وطنافسها التى تكسى بها حوائط الكعبة بمكة . ولما كان الخلفاء حريصين على توطين هذه الصناعة فى عاصمتهم الجديدة فانهم استقدموا الى بغداد جماعة من النساجين

---

(١) Relations, p. 141.

(٢) Weil, Gesch. der Chalif, I, p. 74-76.

(٣) فى عام ٦٦٥ حين ارتقى يزيد الأول عرش الخلفاء ، اعتبره الكثير من رعاياه غير جدير بالعرش لأنه كان فى شبابه يعيش حياة ماجنة ويلبس الحرير .

— أبو الفدا : Aboulf., Annal. muslem. I, p. 367.

Pariset, Histoire de la soie, II, p. 150 et ss.

(٤) Isstachri, p. 121; Ibn Haoukal, dans Anderson, op. cit., XX, p. 153 et s.

(٥) Isstachri, p. 59, 73.

من تستر ، ومع ذلك احتفظت المنسوجات الحريرية فى هذه المدينة بشهرتها حتى أواسط القرن الرابع عشر (١) • وفى دمشق وبعض مدن الوجه البحرى بمصر، وبخاصة تنيس، كانت تنسج وتطرز أقمشة ثمينة لصنع الملابس والبسط، وستائر الخيام ، وغير ذلك (٢) • وكان الأمراء العرب يحبون الأثاث المصنوع من المعادن الثمينة (من ذهب وفضة) ومن الخشب الذكى الرائحة المزين بالأحجار الكريمة • ويكفى الاطلاع على قائمة الجواهر التى تملأ كنوز العباسيين فى بغداد أو الفاطميين فى القاهرة(٣) لتكوين فكرة صحيحة عن مهارة الصناع المشتغلين بالذهب والفضة ، والأثاث والأبنوس والجواهر ، وصانعى الأسلحة •

رأينا أنه ما أن تصل السلع المستوردة من الشرق وكذا المنتجات الوطنية الى داخل دولة الخلفاء حتى تتنقل من يد الى أخرى ، ومن اقليم الى آخر • ويعزز هذه الحركة عاملان :

أولا : طبيعة العرب التى تنزع الى كثرة التحرك ، ثم بنوع خاص نظام الحج • على أن التجارة الداخلية للشعوب الاسلامية فيما بينها لا تدخل فى نطاق دراستنا هذه ، فلا يهمنا الطرق التى كان يتبعها التجار الا من حيث استخدامها لنقل البضائع الى الثغور التى لها صلة بالغرب • ولنبحث أولا فى كيفية نقل البضائع عبر البحر الأحمر حتى تصل الى البحر المتوسط •

ففى أعقاب الفتوحات العربية مباشرة ، أعيد فتح القناة التى كانت تربط فى العصور القديمة أقصى موقع فى شمال البحر الأحمر (قلزم) بعاصمة مصر (٦٤٣) لا لصالح التجارة فحسب ، وانما بالأولى لتتيح للفاتح أن يصدر بطريقة اسهل وبسرعة قمح مصر الى البلاد العربية القاحلة • وكانت القناة قد بدأت فى أوائل القرن الثامن تمتلىء بالرمال ، الى أن سدها تماما حكام مصر (٧٦١ أو ٧٦٢) لمنع ارسال المؤمن الى المدينة (المنورة) التى أصبحت بؤرة للثورات (٤) • والثابت أنه طالما كانت القناة صالحة للملاحة ، كان التجار

---

(١) Isstachri, p. 59, 73; Edrisi, I, 383; Quatrmère, Mémoires sur l'Egypte, 11, 377, 380 ; Karabacek, op. cit., p. 19 et ss.

(٢) Quatremère, loc cit., p. 308 et s., 335 et s. 339 et s., 375-382; Isstachri, p. 31.

cmfhy mfhypdréu

(٣) Aboulf. Annal muslem. II, p. 107, 333; Quatremère, op. cit., p. 366-383.

(٤) بخصوص تاريخ هذه القناة فى عهد سيادة العرب ، أنظر :

Wei!, Gesch der Chalifen, I, 119 et ss.

وكذا مقتبسات من وصف مصر للمقريزى •

يستخدمونها لنقل بضائعهم الى القاهرة ، ومنها يعيدون تصديرها الى البحر المتوسط عن طريق النيل (١) ٠

ولا شك أن شق قناة تربط البحرين عبر برزخ السويس كان خليقا بأن يعزز العلاقات التجارية بين الشرق والغرب ٠ ويقال ان الخليفة هارون الرشيد فكر فى ذلك ، ولكنه عدل عن تنفيذ فكرته حين اعترض البعض بأن اليونانيين سوف يجدون فى هذه القناة طريقا مفتوحا لهم للوصول الى البحر الأحمر ، يستغلونه لارسال حملات الى الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة ، ومنع الحج (٢) ٠ ومن ثم لم يكن بد ، لنقل البضائع التى تأتى عن طريق البحر الأحمر الى الغرب من اجتياز الصحراء ، اما بارسالها الى النيل على ظهور الجمال ، ثم نقلها على النهر ، واما بنقلها عبر صحراء برزخ السويس فقط ٠ وكان أول هذين الطريقين يصل مباشرة الى الاسكندرية ٠ وثمة رحالة هو أركلف Arculf اجتاز مصر بعد الفتح العربى بحوالى عشر سنوات (حوالى عام ٦٧٠) ، تحدث عن الاسكندرية فقال انها ملتقى التجارة العالمية اذ يأتى اليها للتزود «شعوب لا حصر لها(٣)٠ واذا كانت شهرة هذه المدينة قد خبت قليلا بعد ذلك أمام شهرة بغداد الباهرة ، فان الرخاء الذى عرفته مصر تحت حكم الطولونيين (٨٧١ ــ ٩٠٤)(٤) قد انعكس على هذه المدينة ٠ وكان جزء من البضائع الآتية من البحر الأحمر يرسل عن طريق برزخ السويس الى مدينة الفرما (بيلوز القديمة Péluse التى احتفظ ثغرها بأهميته وثرائه ٠ ومما زاد فى أهمية هذا الطريق على سائر الطرق هوأنه يختصر مدةالسفر برا الى أربعة أو خمسة أيام(٥)٠ أما بخصوص سلع الشرق الأدنى التى تفرغ فى جدة لتباع للعدد الكبير من الحجاج الذين يهرعون كل عام الى مكة ، فانها يمكن أن تصل الى الغرب ، ولكن بطريق غير مباشر ، اذا اشتراها تجار مصريون يعودون بالتالى الى وطنهم عن طريق البر فى

---

(١) نعرف أيضا امثلة لحجاج مسيحيين استنادوا من ذلك تجنبا لجزء من الرحلة عن الصحراء ٠ من ذلك الألنديون الذين سجل قصصهم القصيرة الأخ خيريلس :

— Fidelis, dans Dicuil, De mensura Orbis, ed. Letronne, p. 23 et ss.

(٢) المسعودى ، الجزء الرابع ، ص ٩٨ وما بعدها ٠

وذكر ابن سيد (المتوفى عام ١٢٧٤) فى كتاب أبو الفدا ، ترجمة رينو ، الجزء الثانى ص ١٤٦ أن عمرو ، فاتح مصر كان قد اعتزم شق هذه القناة ، ولكن الخليفة عمر رفض تنفيذ المشروع للباعث الذى ذكرناه ٠

(٣) Itinera hierosolymitana, éd. Tobler et Molinier, I., p. 188.

(٤) Weil, Gesch, der Chalif, II, 426 et ss, p. 435.

(٥) ابن خرداذبة ، الناشر باربييه دو مينار ، ص ٥١٣ ، الاصطخرى ص ٣ ، ٣٢ ، أبو الفدا ، ترجمة رينو ، الجزء الثانى ، ١٤٦ ٠

وكثيرا ما ذكرت الفرما Faramiah على أنها محطة فى الطريق الساحلى بين مصر وفلسطين ٠ أنظر فى ذلك :

— Bernardi monachi franci Itinirarium, dans Tobler et Molinier, op. cit., p. 313; Sprenger, op. cit., p. 95, etc.

صحبة حجاج من أهل بلدهم ، وذلك بالالتفاف حول طرفى البحر الأحمر ، أو تجار سوريون يحملونها الى دمشق • والحق أن طريق قوافل الحجاج السوريين الكبير كان بعيدا عن البحر لأنه يمر شرقى الأردن ، خارج فلسطين ، الا أن المسلمين كانوا يعتبرون زيارة مسجد القدس وقبر ابراهيم فى حبرون (الآن الخليل) عملا من الأعمال الصالحة ، وكان الكثير من الحجاج يختمون حجهم فى القدس بعد أدائه فى مكة(١)، وفى القدس يقابلون الحجاج المسيحيين الغربيين فتتاح الفرصـــة للمبادلات التجـارية • وفى يوم ١٥ سبتمبر من كل عام تقام فى القدس سوق كبيرة يتردد عليها عدد كبير من التجار من مختلف الأمم (٢) غير أن هذا الطريق لم يكن الا طريقا ثانويا ، ولنعد الى طريق القوافل الرئيسى• كان أغلبية الحجاج يتجهون الى دمشق مباشرة، وكانت هذه المدينة ملتقى العديد من الطرق الهامة ، فكان الحجاج القادمون من الشمال يتواعدون عندها باللقاء ليمضوا معا الى مكة ، وبعد عودتهم يفترقون عندها أيضا • وكانت هذه الحركة المستمرة تجلب بطبيعة الحال كمية كبيرة من البضائع الى دمشق • ولما كانت مدن طرابلس ، وبيروت ، وصور ، وعكا الساحلية على مسافة أيام قلائل سيرا على الأقدام ، فمن المحتمل أنها كانت منذ بداية العصور الوسطى تتزود بمؤونتها من دمشق • وكان هناك بنوع خاص طريق هام آخر ينتهى الى سوريا ، ذلك هو مجرى نهر الفرات الصالح للملاحة من الخليج الفارسى حتى مسافة صغيرة من البحر المتوسط • وابتداء من مدينتى البصرة وبغداد (وكانت بغداد متصلة بنهر الفرات بواسطة قناة) كان ثمة حركة متصلة لنقل البضائع ، تصعد النهر ، أو تتبع طريقا للقوافل بمحاذاة ضفاف النهر • ويذكر قدامى الجغرافيين العرب على هذا الطريق موقعين هامين : الرقة Rakka ، وبليس Balis وقد أتيح لنا التحدث عن المدينة الأولى حين كان اسمها كالينيكوم Callinicum وهى من الأماكن التى كان الرومان يشترون عندها الحرير من الفرس ، واستمرت هذه المدينة مزدهرة تحت السيادة العربية ، وبخاصة فى العصر العباسى(٣)، بفضل العديد من العلاقات التى كانت تربطها ، ليس فقط على طول نهر الفرات ، ولكن أيضا فى الشمال الشرقى مع نصيبين Misibe والموصل ، وفى الجنوب الغربى مع دمشق(٤)• أما بلدة بليس فانها كانت على بعد يومين سيرا على الأقدام من الرقة ، ويصفها الجغرافى العربى الاصطخرى بأنها « ميناء السوريين » ، وهذا

(١) وجد المقدسى ، المعروف بالبشارى فى أسواق أورشليم (المقدس) وفرة كبيرة من فواكه الجنوب ، وكانت السوق خاضعة لنظام دقيق ، وضرائب باهظة •

(٢) وجد الصليبيون بمدينة قيصرية كمية هائلة من الفلفل تأتيها من القدس :
— Arculf, I., c. p. 144; Ann. Jan. éd. Pertz, SS. XVIII, p. 14.

(٣) Isstachri, p. 47 ; Weil, Gesch der Chalif, II, 145, note ; Ritter, Erdk. X, 1143 et ss.

(٤) Sprenger, op. cit., p. 92 et s., 105-108.

دليل كاف على أن التجار السوريين كانوا يأتون اليها ، عند حدود بلدهم ، فيركبون السفن ومعهم بضائعهم فى طريقهم الى الشرق ، وينزلون بها عنـــد دعوتهم (١) ٠ وعلى بعــد يومين ، ناحية الغرب (٢) ، نجـد حلب ، وهى مركز تجارى فى شمال سوريا ، مثلما كانت دمشق فى وسطها ٠ ويواصل قسم كبير من البضائع الواردة على هذا الموقع طريقه الى انطاكية ويصل الى البحر على مسافة ليست ببعيدة عن هذه المدينة ٠ واذا أردنا أن نعرف مدى نشاط حركة التجارة بين حلب وأنطاكية ، حتى قبل الحروب الصليبية ، فلدينا مثال لذلك : فمن المعروف أن الروم نجحوا من ٩٦٦ الى ٩٦٨ فى انتزاع مدينة أنطاكية من العرب ، وكذا جزءا من الاقليم المجاور لها ، واحتفظوا بها حتى عام ١٠٨٤ ٠ وما كادوا يبسطون سيادتهم على أنطاكية حتى اتيحت لهم فرصة للتدخـل فى شئون حلب التى كان أميرها الشرعى الشاب سعد الدولة الحمدانى(٣) قد خلعه من العرش اثنان من كبار أتباعه : كارجوجا Kargoujah (أو Korouba كما يقول Weil) ، وباكجور (Bekdjour) Bakgour ، وطلب المغتصبان مساعدة الروم ، وأقرا بسيادة الأمبراطور ٠ ويذكر كمال الدين ، مؤرخ حلب (٤) المواد الرئيسية لمعاهدة عقداها مع حاكم أنطاكية فى شهر صفر عام ٣٥٩ هـ ٠ ومن بين هذه المواد فقرات خاصة بالتجارة ، وهى وحدها التى تهمنا فى هذا البحث ٠ تقول هذه الفقرات ، على سبيل المثال ، انه لا يجوز اعاقة الروم الذاهبين الى حلب فى تجارتهم ، وأن يصحب القوافل اليونانية حراسة كافية لضمان أمنها حتى تصل الى المدينة ، ويتبع ذلك قواعد تحدد العشـــور (الرسوم) التى تفرض على البضائع : وفى قائمة هذه البضائع ، الذهب والفضة ، والمنسوجات الحريرية اليونانية ، والحرير الخام ، والأحجار الكريمة ، واللآلىء ، والدباغ ، والأقمشة للملابس الشعبية ، والمنسوجات الكتانية ، والماشية ، الخ ٠ وعلى ذلك ينبئنا كمال الدين أن القوافل فى ذاك العصر كانت تقوم برحـلات ذهاب وعودة بين حلب وأنطاكية ٠ ترى هل يمكن التسليم بأن هذه الحالة لم تدم الا للفترة التى كانت فيها حلب تابعة من الوجهة السيـــاسية لأنطاكية وبيزنطة ؟ كلا بالتأكيد ٠ لأن المعاهدة المشار اليها لم تكن منشئة لهذه العلاقات

---

(١) الاصطخرى ، ص ٣٨ ٠

ويقول ابن خرداذبة ان اليهود الذين يحكى رحلتهم ــ وسوف نتكلم عنهم فيما بعد ، اجتازوا أيضا فى ثلاثة أيام المسافة من أنطاكية الى الفرات (éd. Barbier de Meynard p. 514)

(٢) الاصطخرى ، ص ٤١ ، وكذا : المقدسى ، فى « سبرنجر » ، المرجع السابق ص ٩٨ ، ١٠١ ، وكذا : Benjamin Tudel, éd. Asher, I, 88.

(٣) هو شريف بن على بن عبد الله بن حمدان ، أبو المعالى ، سعد الدولة الحمدانى ، ابن سيف الدولة صاحب وحمص وما بينهما ، والمتوفى سنة ٣٨١ هـ ــ ٩٩١م (المراجع) ٠

(٤) كان فريتاج Freytag أول من نشر النص العربى لهذا الجزء من تاريخه مع ترجمة ألمانية ، وأعاد نشرها لاسن Lassen باللاتينية ، وأخيرا ضمنها فريتاج تاريخه ٠

أنظر أيضا : Weil, Gesch, d. Calif., III, 38 et ss. —

الخاصة بسير القوافل ، ولكنها تثبت حالة موجودة من قبل. وعلى ذلك فعندما تستقبل أنطاكية البضائع الآتية من الفرات عن طريق حلب ، وتعيد تصديرها الى البحر ، فان هذا المكان كان لزمن طويل قبل الحروب الصليبية مستودعا هاما للبضائع وسوف نقدم فيما بعد براهين أخرى .

وعلينا الآن أن نبحث عن الموانىء الأخرى التى يمكن أن تخرج منها بضائع الشرق لتصل الى الغرب . فثمة جغرافيان عربيان من القرن العاشر ، المسعودى والاصطخرى ، يوجهان أنظارنا الى مستودع كبير لمنتجات الشرق الأدنى ، مستودع « تريبيزوند » (طربزون) Tribizonde . يقول المسعودى انه كان يقام بهذه المدينة كل سنة عدة أسواق يتردد عليها الشراكسة وعدد كبير من التجار المسلمين والبيزنطيين والأرمن وغيرهم(١) . وكتب الاصطخرى « طربزون مدينة حدود رومية يذهب اليها تجارنا كلهم ، ويمر بطربزون كل الأقمشة الاغريقية الصنع ، وكل الديباج المستورد الى الأراضى الاسلامية »(٢) . ومن الواضح أن التجار المسلمين ، وكذا الأرمن كانوا يجلبون بضائعهم الى هذا السوق ، رغم أن هذين المؤلفين لا يقولان ذلك ، ولكن من أية أجزاء دولة الخلفاء كان يأتى هؤلاء التجار المسلمون ؟ كانت آسيا الصغرى فى ذاك العصر تحت سيادة الروم ، ومن المؤكد أنه حين كان مسلمو سوريا يريدون عقد صفقات تجارية مع الروم لم يكونوا بحاجة الى اتباع طرق غير مباشرة ، وعلى ذلك فلابد أن هؤلاء التجار كانوا من أهالى منطقة الدجلة أو فارس وبخارى ، ولسنا نملك عن هذه العصور القديمة أى دليل يتيح لنا أن نتتبع الطرق التى كانوا يسلكونها . ومع ذلك يمكننا على الأقل أن نحدد نقطة مرحلية : فقد كان فى أرمينيا الكبرى مدينة قديمة اسمها جارين Garin ، جعل منها البيزنطيون حصنا منيعا ، وأطلقوا عليها اسم تيودوسيو بوليس Theodosiopolis ولما وجد السكان مشقة فى مزاولة حرفهم بسبب تحصينات المدينة ، فضلوا اقامة منشأة جديدة لا تبعد كثيرا عن المدينة ، فى موقع أكثر ملاءمة للتجارة ، ولكنه مكشوف تماما . وعلى هذا النحو نشأت المدينة المزدهرة أرز Arze أو ارزن Arzen (٣) ، وأثرى فيها عدد كبير من الأهالى والتجار ، من سوريين وغيرهم بتلقيهم أنواعا مختلفة من البضائع من فارس والهند وسائر أنحاء آسيا ، وبيعهم هذه البضائع . وفى عام ١٠٤٩ غزا السلاجقة المظفرون البلد ، واستولوا على ارزن ، وجمعوا بها غنائم هائلة من معادن ثمينة وسلع غالية ، وأحرقوا المدينة وذبحوا السكان ، ومن استطاع الفرار التجأ الى مدينة

---

(١) 11, p. 3.

(٢) التزمت هنا بالترجمة الأصح التى أجراها دفريمرى : Defrémery, le Journ.-asiat. IV's, XIV. p. 462.

(٣) Porphyr., De adm. imp. cap. 44, p. 192 et ss. Mich. Attal. p. 148.

ثيودوسيوبوليس القديمة التى هجرت منذ زمن بعيد ، وأطلق السكان الجدد على المدينة اسم البلدة التى دمرت ، أى « أرزن » وأضافوا صفة « الرومانية » بسبب تحصيناتها ، ومن ثم صار اسمها أرزنروم ، أو ارزروم (أرضروم) ، وعندما تحسنت الأحوال ، استعاد السكان نشاطهم التجارى(١) · والمعروف أن الأهمية التجارية لأرضروم الحديثة ترجع الى أنها كانت دائما مركزا من المراكز الرئيسية القائمة على الطريق الكبير المؤدى من داخل آسيا الى طربزون : ولم يكن لرخاء أرزن القديمة سبب آخر ، اذ أنه من الراجح أن التجار المسلمين والأرمن كانوا يتبعون للذهاب الى طربزون نفس الطريق الذى يتبعه أحفادهم فى العصر الحاضر · ومع ذلك يتحدث قسطنطين بورفيروجنيت Constantin Porphyrogénête عن مدينة أخرى يستطيع عن طريقها تجار وسط آسيا الوصول الى طربزون · ففى جروزى Grousie (جورجيا) ، على مسافة ليست ببعيدة عن مجرى نهر تشوروخ Tchorokh نجد ضيعة باسم ارتانوج Artanoudj (٢) كانت لها فيما مضى أهمية الموقع الحصين ، والسوق التجارية ، وكان يأتى اليها فى القرن العاشر تجار من أرمينيا وسوريا من جهة ومن ايبريا (جورجيا) ، وابازيا Abazie وطربزون من جهة أخرى · ومما هو معروف عن الرسوم الباهظة التى كانت هذه البلدة تحصلها يمكن الاستنتاج بأن الحركة التجارية بها كانت نشيطة(٣) · فضلا عن ذلك فان هذه البلدة ، كانت بحكم موقعها مقصدا لسكان منطقة كولشيد Colchide ، يزورونها أكثر مما يزورها اغريق طربزون ·

ولا بد أيضا ، وتكملة لهذا العرض لطرق المواصلات بين الشرق والغرب ، من دراسة الحدود الشمالية للمسلمين · فمن بحر قزوين الذى كان المسلمون يملكون نصفه الجنوبى ، كانت هذه الحدود تمتد شرقا حتى بحر أرال حيث تسود حركة تجارية كبيرة · كانت هذه التجارة ، فضلا عن قربها من الأسواق الكبيرة بسمرقند وبخارى ، وعلاقات هاتين المدينتين الواسعة(٤) وقربها من

---

(١) Mathieu d'Edesse, traduit par Dulaurier, dans sa Bibliothèque arménienne, p. 83 et s. et notes p. 409; Cedrenus, II, p. 577 et s.; Michel Attal. p. 148; Saint-Martin, Mém. sur l'Orménie(I, p. 68, II, p. 446 et s.; Ritter, Erdk, X, p. 271.

(٢) Wakhoucht, Description géographique de la Géorgie, éd. Brosset, p. 117; Koch, Wanderungen in Orient, II, p. 189 et ss.

(٣) Constant. Porphyrog., de adm. imp. p. 207 et s.

(٤) رأى الرحالة أبو دلف مسعر (٩٤١) تجارا لهم محلات بالهند والصين ، وكذا بالترك مكان السهوب المحيطة شمالا ببحر أرال · وكان لمدينة الحدود الاسلامية جورجانش الواقعة فى الجنوب صلات عديدة بهؤلاء التجار (الاصطخرى ، ص ١٢٧ ، ١٢٩)
— d'Ohson, Des peuples du Caucase, p. 146, 148.
انظر أخبار رحلته التى نشرها : — Kurd V. Schlozer, p. 11.

عاصمة الرى Raï (Ragoe) القديمة(١) ، تتغذى بالصناعة المزدهرة فى شمال فارس • وكانت الثغور العديدة المتناثرة على ساحل بحر قزوين ، من أبسكون Abeskoun ، وأستراباد Asterabad فى الجنوب الشرقى حتى دربند Derbent فى الغــــرب تغــذى حــركة ملاحة نشــيطة • كانت استراباد تصدر ملابس حريرية ، وأغطية للرأس ، وطاقيات ، وتعرض أسواق دربند مجموعة من السلع والمنتجات من كل أجزاء الساحل(٢) بقى أن نعرف ما اذا كانت السلع التى تجمع فى منطقة بحر قزوين تصدر الى البحر الأسود فيما وراء برزخ القوقاز ، اما بطريق الماء ، على طول مجرى نهر كورا Kour وفاز Phase واما بطريق البر ، بعبور القوقاز ابتداء من دربند ، ويبدو لنا هــــذا قليل الاحتمال • ذلك أنه كان يوجد بين القسم المسيحى من سكان البرزخ ، الملحق دينيا وسياسيا بالأمبراطورية الرومية من جهة ، وبين المسلمين سادة الجــزء الجنوبى الغربى ، والجزء الغربى من بحر قزوين من جهة أخرى نفور لا يشجع على عقد الصلات التجارية • ومن جهة أخرى فان الغارات العديدة التى كــانت جورجيا المسيحية هدفا لها من جانب العرب أولا ثم الترك السلاجقة فيما بعد جعلت الطرق غير مأمونة ، ثم أن القوقاز الأصلية بطرقها الوعرة وسكانها ذوى السلالات واللغات المختلفة لم تكن ملائمة لشق طريق تجارى كبير(٣) • وكان القاشاق Kaschaks سكان هذه البقاع يقيمون علاقات تجارية نشيطة مع سكان شواطىء بحر قزوين المسلمين من جهة ومع الروم فى طربزون من جهة أخرى • ولكنهم كانوا يكتفون بحمل منتجاتهم الخاصة الى الســـــوق وشراء المنتجات التى يحتاجون اليها(٤) ، ولم يفكروا فى مزاولة الوساطة لكى يزودوا الروم بمنتجات الشرق •

وفى هذه الظروف لم يكن بمقدور سكان منطقة بحر قزوين أن ينموا كثيرا تجارتهم مع الغرب ، ولكن كان عندهم ثغر مفتوح عن سعة صوب الشمال : ذلك هو مجرى نهر الفولجا • وكانت الحضارة البدائية عند أقوام هذه المناطق وتنقلاتهم المستمرة عقبة فى سبيل اقامة علاقات دائمة • غير أن ملوك الخزر ،

---

(١) عن موقع هذه المدن (على بعد ساعتين تقريبا من مدينة طهران الحالية) أنظر :
Ritter, Asien, VI, I, p. 595 et ss.

ولدينا كتاب لجغرافى مجهول فى القرن العاشر ، ذكرت فيه راى على انها مركز تجـــارى لارمينيا ، واذربيجان ، وخراسان ، والخزر ، وبورجان • أنظر فى ذلك :

— Sprenger, Some original passagers on the early commerce of the Arabs; Journal of the Asiat. Soc. of Bengal, XIV, 2 (1844) p. 526.

ـ أنظر أيضا الاصطخرى ، ص ٩٥ ، ٩٨

(٢) الاصطخرى ، ص ١٦١ ، وكذا ، — d'Ohsson, loc. cit., p. 6, 7.

(٣) Rasmussen, De orientis commerciocum Russia et Scandinavia, medio oevo Haven., 1825, p. 3.

(٤) المسعودى ، الجزء الثانى ، ٣ ، ٤٥ ـ ٤٧ •

سكان المناطق التى يخترقها مجرى نهر الفولجا السفلى نجحوا أخيرا فى تهيئة وضع منتظم ، وأذنوا لليهود والمسيحيين والمسلمين بالاقامة فى بلادهم بكامل حريتهم ، ومنحوهم حرية ممارسة شعائر أديانهم ، وسمحوا لهم بأن يكون قضاتهم من اخوانهم فى الدين(١) . ومن ذلك الحين (ويشهد بذلك العديد من الرحالة والجغرافيين فى القرن العاشر)(٢) استطاع التجار العرب أن يوثقوا علاقات منتظمة مع مناطق شمال بحر قزوين . وشهدت انيل Itil (Atel) عاصمة الخزر الواقعة على مصب نهر الفولجا وصول سفنهم وقوافلهم . وكانت نقطة الرحيل الرئيسية ، ثغر استراباد . أما بالنسبة الى القوافل فكانت نقطة الرحيل مدينة الحدود جورجانية Djodjunich (٣) على بحر أرال . وسوف نرى أن العرب لم يقفوا بالوصول الى اتيل ، وأنهم استطاعوا أن يصعدوا نهر الفولجا حتى قلب روسيا طلبا للجلود والفراء . ومن المفيد أن نعرف ما اذا لم يكن هناك فى ذاك العصر ، الى جانب الشريان الكبير المكون من نهر الفولجا ، تلك الطرق المتشعبة المعهودة فى العصور الوسطى ، والممتدة من الفولجا السفلى الى نهر الدن ، ومن هناك الى البحر الأسود أو بحر أزوف . وكان الخزر قد توسعوا حتى غربى نهر الدن وبحر أزوف . ولما كانوا يتلقون الكثير من البضائع بوساطة العرب ، كان بمقدورهم أن ينقلوها مباشرة عن هذا الطريق الى القسطنطينية .

والواقع أنه كان لهم مع الاغريق صلات متواترة (٤) ، ولدينا من الآثار ما ينبت علاقاتهم التجارية .

وفى القرن العاشر روى بعض السفراء البيزنطيين فى بلاط الخليفة بقرطبة ان ثمة سفنا قادمة من بلاد الخزر الى القسطنطينية تجلب اليها من وقت لآخر

---

(١) أنظر الفصل الخاص بالخزر فى كتاب المسعودى ، الجزء الثانى ، ص ٧ وما بعدها .

كذلك — Froehn, De Chasaris, dans les Mém. de l'Acad. de St. Pêters-bourg VIII, (1822) p. 590, 594; Vivien de Saint martin, Sur les Khazares, art. 1 dans les nouv. annal. des voy. 1851, Mai, p. 157 et s.

ـ يقول أيضا كاتب عربى من القرن العاشر ، اسمه ابن رسته انه كان هناك مسلمون مقيمون فى مدن الخزر ، وأنهم كانوا يمارسون ديانتهم بمطلق حريتهم .

(٢) الاصطخرى وابن حوقل . وقد جمع روسلر Rössler ودوسون d'hoson وشرحا كل ما كتبه الرحالة عن جنوب روسيا ، الاول منهما فى كتاب عنوانه :

— Ibn Fosslans und anderer Araber Reiseberichte (Petersb. 1823).

وفى دراسات أكاديمية عديدة ، والثانى فى كتابه :

— Des peuples du Caucasse, Paris 1828.

أنظر أيضا : — Dorn, Geographico, Caucasica, dans les Mém de l'Acad. de St. Petersberg, Série VI. Polit-hist.-philol., VII, p. 454 et ss.

(٣) الاصطخرى ، ص ١٠١ ، ١٢٧ .

(٤) D'Ohsson (des peuples du Caucase, p. 194 et ss.

سمكا وجلودا وفراء ٠٠ الخ(١) ، وتشحن عند عودتها أقمشة بطبيعة الحال، كما يحكى ابن حوقل أن الخزر كانوا يبتاعون من البيزنطيين بعضا من الأقمشة التى يصنعون منهـا ثيابهم (٢) ٠ ولا يبدو أن هذه الحركة التجارية قد تجاوزت حدود التجارة المحلية ، وكانت الرحلات القادمة من الشمال الى القسطنطينيـة قاصرة بالأرجح على تجارة الجلود والفراء ٠ كل ذلك اذن لا يقوم دليلا على وجود حركة لنقل البضائع من آسيا الى الغرب ٠

بقى أن نعرف أيضا ما اذا كان من المحتمل أن تمر بضائع الشرق الأدنى من الخزر الى جيرانهم البتشينج Petchénègues المقيمين فى منطقة نهـر الدن الأسفل(٣) ، وما اذا كان هؤلاء ينقلونها بطريق البر الى خرسون Cherson وهى أقرب سوق رومية الى بلدهم ، والأمر هنا مثار للشك ٠ وليست حضارة البتشينج المتخلفة هى التى تثير شكوكنا ٠ اذ يروى قسطنطين بورفيروجينيت أن البتشنيج كانوا يقدمون كل أنواع الخدمات لسكان خرسون ، ويقومون لهم بالوساطة (السياسية أو التجارية) فى الأعمال التى كان هؤلاء يعقدونها مـع الأقوام البعيدين ، وينالون أجرهم عينا عن خدماتهم ٠ ويذكر هذا المؤلف بين ما يذكره من البضائع المستعملة كأجر للخدمات ، بعض منتجات الشرق الأدنى ، كالفلفل وفرو الفهد (٤) ٠ ويدل هذا البيان دلالة كافية على أن سكان خرسون لم يكونوا يتلقون بضائع الشرق الأدنى من جيرانهم البرابرة ، وأنهم هم الذين كانوا يزودونهم بهذه البضائع بعد أن يستخلصوهـا من أجزاء أخـرى من الأمبراطورية البيزنطية ،(طربزون ، والقسطنطينية ، الخ) ٠

كان قصدنا ، باستعراض كل البلاد الخاضعة للسيادة العربية ، من مصر الى بنطس Pont والى بحر قزوين وبحر أرال ، البحث عن الطرق التجارية ، والمواقع التى تأتى منها بضائع الشرق متجهة الى الغرب ٠ الا أن العرب كانوا قد أسسوا ممالك غربى مصر على طول الساحل الشمالى لأفريقيا حتى أسبانيا وصقلية ، وكان موقع هذه الممالك ملائما كل الملائمة للوساطة فى التجارة بين الشرق والغرب ٠ وكانت بلاطات القيروان وقرطبة وبالرمو تقـدر المنتجات الآسيوية حق قدرها ، وأتاح الرخاء الذى شاع بصفة عامة فى هذه البلاد لعدد كبير من الأفراد أن يستمتعوا بهذه المنتجات ٠ وخلق هذا الأمر بعض المطالب ،

---

(١) أنظر رسالة اليهودى الاسبانى حسداى الى ملك الخزر ، باللغة الفرنسية :
— Carmoly, Itinéraires de la terre sainte (Brux. 1947), p. 38.
وبالالمانية فى :
— la Russ. Revue, VI, 74.

(٢) Froehn, Veteres memoriae Chasarorum, dans les Mém. de l'Acad. de St. Petersbourg, VIII, (1822) p. 605.

(٣) Constantin Porphyrog., De administ. imp. p. 177; ef. p. 181. en haut.

(٤) المرجع السابق ، ص ٧١ وما بعدها :

وأسهمت القوافل فى اشباع هذه المطالب ، ولكن جزءا كبيرا من بضائع الشرق كان يجلب عن طريق البحر من سوريا ومصر الى ثغور شمال أفريقيا وأسبانيا • وكانت برقة هي أول ميناء لرسو السفن بعد أن تغادر ميناء الاسكندرية : ففي القرن العاشر وجد ابن حوقل هذا الميناء مزودا بوفرة من بضائع الغرب والشرق (يذكر من بينها الفلفل) ، ورأى هناك حركة كبيرة للتجار المشتغلين بهـذه التجارة(١) • وبعد طرابلس ، تستمر سلسلة من الموانىء حتى المغرب(٢) • ومن بين هذه الموانىء كانت المهدية أكثرها رخاء لقربها من مدينة القيروان • ولا ينسى الرحالة « البكرى » الذى كتب فى حوالى عام ١٠٦٠ ، أن يذكر السفن الآتية من مصر ومن سوريا(٣) • ومن هناك تدخل فى بلاد البربر منتجات آسيا كأخشاب الهند الثمينة(٤) • وكانت اسبانيا العربية أيضا على صلات تجارية بمصر • كتب شيسداى Chasdai ، وهو يهودى فى خدمة عبد الرحمن الثالث (٩١٢ ـ ٩٦١) فى خطاب معروف موجه الى ملك الخزر ، يصف البلد الذى يحكمه سيده قائلا : « نشهد وصول الكثير من التجار فى بلدنا (أسبانيـا) قادمين من بلاد أجنبية ، ومن الجزر ، وبخاصة من مصر ، ومن بلاد أبعد منها ، يجلبون العطور والأحجار الكريمة ، وسلعا أخرى ثمينة يستعملهـا الأمراء والعظماء ، وبعامة كل منتجات مصر التى نحتاج اليها فى بلدنا(٥) • وفى هذا يبدو خسراى على حق ، لأنه كان هناك ، كما يقول أبو الفدا ، سفن تذهب من أسبانيا الى مصر حاملة البضائع ، وهناك تأخذ بضائع غيرها اعوضا عنها (٦) •

وأخيرا ، كان عرب صقلية يرسلون فى كثير من الأحيان سفنهم الى المهدية وسوسة (٧) ، وربما أيضا الى مصر ، وكان من الميسور لهم التزود بالمنتجات

---

(١) Description de l'Afrique, trad. par Slane dans le Journ. asiat., Série 3, T. XIII (1842) p. 161.

(٢) جمعت كل المعلومات التى أعطاها عن هذه النقطة قدامى الرحالة العرب فى كتاب أمارى Amari, I diplomi arabi del r. archivio Fiorentino :

وفى دراستى عن « المستعمرات التجارية الايطالية فى شمال أفريقيا فى العصر الوسيط » •

(٣) البكرى ، ترجمة سلين Slane ، المجلة الأسيوية ، المجموعة الخامسة ، الزء ١٢ ، ص ٤٨٥ •

(٤) امارى Amari

(٥) Carmoly, Itinéiras de la terre sainte, p. 36 et s.; Harkavy, dans la Russ. Pevue, VI, 73.

(٦) أسرت احدى السفن الاسبانية فى عام ٩٥٥ سفينة مصرية ، وكان هذا العمل مصدرا لنزاع بين الخليفة الفاطمى المعز والخليفة العباسى عبد الرحمن الثالث •

ـ أبو الفدا : — Ann. muslem, éd. Reiska, II, p. 463.

(٧) Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, II, 449.

الأسيوية • غير أن امكانية الحصول على هذا الوجه بطريق التجارة على أشياء كثيرة مصنوعة فى الشرق لم تكن كافية للعرب المقيمين فى الغرب ، فقد كانوا على دراية بفن زراعة نباتات فى أوروبا ، لم تكن تزرع حتى ذلك الحين الا فى آسيا وأفريقيا • ولم ينجح بالمرة توطين النباتات التى تنتج التوابل الحقيقية ، غير أن شجيرات القطن ، وقصب السكر ، ونخيل البلح ازدهرت فى بعض أنحاء أسبانيا وصقلية •

وفى هذين البلدين نمت صناعة الحرير نموا كبيرا ، وكان البلدان ينتجان جزءا على الأقل من المادة الأولية لهذه الصناعة • وهكذا فمع الجنسية العربية ، رسخت فى الغرب رفاهية الشرق وحضارته وصناعته •

ونحن اذا تساءلنا عما اذا كان العرب قد عملوا بهمة على أن يستوردوا للبلاد المسيحية السلع التى يستخلصونها من أعماق الشرق ، وكذا منتجاتهم الخاصة ، هذا الشعب (العربى) الذى كان يرسل سفنه عبر المحيط الهندى الى نهاية العالم ، وكذا عبر البحر المتوسط الى السواحل المجاورة فى اليونان وايطاليا وفرنسا حاملة كنوز الشرق ، فاننا نؤكد أنهم لم يفعلوا ذلك ، على الأقل فى القرون الأولى • ذلك أن ما كانوا يصرحون به من سيادتهم على العالم باسم الاسلام ، قد وضعهم بازاء المسيحية فى موضع العداوة التى لم يخمد أوارها الا بعد حروب طويلة • وكان لا بد أن يتعلموا بأنفسهم أن يحترموا الحدود التى واجهت محاولاتهم ، بفضل المقاومة العنيدة التى أبداها حيالهم مسيحيو الأمبراطورية الشرقية ، وبأس الأجناس الرومانية الجرمانية الفتية ، وبذلك اشتدت ضراوتهم فى القتال • وحين كانت سفنهم ترسو على سواحل اليونان وايطاليا وفرنسا ، لم يكن النازلون منها تجارا مسالمين ، ولكن شراذم من جند وقراصنة يحرقون ويدمرون كل شىء • ولسنين طويلة كان ظهور سفن المسلمين مثيرا للرعب فى قلوب المسيحيين من سكان شاطىء البحر المتوسط • ولم تكن السفن التى تحمل الركاب والبضائع تبحر الا بين أسبانيا وصقلية وأفريقيا ، ولا تخدم الا تجارة العرب فيما بينهم •

ومع ذلك أدرك العرب شيئا فشيئا أنه يوجد شمال البحر المتوسط حشد هائل من المسيحيين الذين لا يمكن تحويلهم الى الاسلام ، لا بالقوة ولا بالاقناع ، ومن ثم هدأ تعصبهم الحربى بالتدريج ، ولم يعودوا فى القرن الحادى عشر ينفرون من زيارة أوروبا كسياح فضوليين أو تجار ينشدون الثراء • وفى هذه الآونة قام العربى الاسبانى أبو بكر محمد الطرطوشى (من طرطوشة) برحلته فى قسم من أوروبا المسيحية(١) • ويبدى دونتزو Donizo الورع فى كتابة

---

(١) أنظر كانرمير فى « المجلة الأسيوية » المجموعة الخامسة ، الجزء ١٧ ، ص ١٤٧ وما بعدها •

Froehn, dans les Mém. de l'Acad. de St. Petersb., Série VI, Sciences politiques, T. II (1834), p. 87 et ss.

« حياة الكونتيسة الكبيرة ماتيلدا الرشابية » سخطه من وجود عدد كبير من الكفار الترك والليبيين والبارثيين والسود الكلديين الذين يجوبون شـــوارع بيزا(١)٠ ولنا أن نسلم بأن هؤلاء المسلمين الأسيويين والأفريقيين لم ينتظروا حتى بداية القرن الثاني عشر (كتب دونتزو ماكتبه في عام ١١١٤) ليزوروا بيزا ٠ ومن المحتمل أنه في الفترات الأولى من الحروب الصليبية جاءت فترة توقف فيها تدفق المسلمين ٠ ولا شك أن دونتزو قد صور في شعره حالة سابقة على الحروب الصليبية ٠ وفي عصر أكثر قدما كانت المدن التجارية في جنـــوب ايطاليا تستقبل داخل جدرانها مسلمين من شمال أفريقيا ، بل ومن مصر وسوريا وسوف نرى فيما بعد أن هذه المدن كانت في القرن التاسع ملاذا للقراصنة الأفريقيين ، وكانت تعقد معهم أحلافا ، وتشترك معهم في بعض الحملات ٠ واذا كان القراصنة الأفريقيون يحظون بترحيب طيب في ســالرنو وأمالفي ونابولي وجائيتا ، ألم يجد التجار المسلمون ، من باب أولى ترحيبا أفضل ؟ ومع ذلك فانا لم نجد في أي مكان برهانا أكيدا يثبت ذلك ، ولا حتى فيما ذكره الأفريقي المشهور أران Arrane (حراني Harrani الذي أراد أن يظهر امتنانه لأمير سالرنو Waifre فحذره من أن المسلمين يدبرون هجوما على تلك المدينة (٢) ٠

ويجب البحث في القسطنطينية عن آثار أكثر وضوحا لهجرة المسلمين الى الأراضي المسيحية ٠ وان وجود مسجد في هذه المدينة لدليل يثبت هذه الهجرة : فقد شيد العرب بها مسجدا في عام ٧١٧ عند حصارها في عـــهد الأمبراطور ليو الايسوري Léon l'Isaurien ، ولكن المسجد تهدم(٣) ٠ وفي عام ١٠٤٩ أو ١٠٥٠ شيد الأمبراطور قسطنطين مونوماك مسجدا جديدا وزوده على حسابه الخاص بجميع لوازم العقيدة الاسلامية ٠ حقا كان الباعث على هذا الكرم الرغبة في اكتساب ود الأمير السلجوقي القوي طغرل بك (٤) ٠ ولكن اذا كان الامبراطور قد بني مسجدا ، فذلك لأنه كان هناك مسلمون يترددون عليه ، وهذا ما يثبته أبو الفرج (٥) وهو يروي قصة ثورة اندلعت منذ بضع سنوات مضت (١٠٤٤) اشترك فيها أرمن ويهود وعرب ٠ ولا شك أن الأخيرين كانوا قد قدموا الى عاصمة الأمبراطورية اليونانية من أجل مصالحهم التجارية ٠ ثم أن ظهور تجار

---

(١) Pertz, SS. XII. 379.

(٢) Chron. Salern, dans Pertz, ss. 111, p. 528; Amari, Storia dei Musulm., di Sicilia, I, 383 et ss.

(٣) Constant. Porphyrog., De administr. imp., éd. Bonn, III, 101.

(٤) Aboulf., Ann. musl. III, 131 ; Barchebroeus, Chron syr. éd Br uns jel Kirsoh versio, p. 248.

(٥) Barhebroeus, loc. cit., p. 245.

عرب فى الاقليم المسيحى كان ولم يزل ظاهرة فردية ، حتى ان دورهم فى حركة استيراد منتجات الشرق الى الغرب لم يكن سوى دور متواضع للغاية ٠

٢ ــ الروم

ظل الشعب الذى كان معظم طرق آسيا تمر بأراضيه أو تنتهى اليها غريبا عن الحركة التجارية ، ويبدو أنه لم يكن له مصلحة فى أن يصدر الى الغرب البضائع الواردة من وسط آسيا ، بل لم يهتم بأن يقدم للاوروبيين منتجاته الزراعية أو الصناعية ٠ لا بد اذن من التسليم بأن هناك أمما أخرى كانت تقوم بدور الوساطة بين الشرق والغرب ، وينبغى البحث عن هذه الأمم ٠ ومن الطبيعى فى هذا البحث التفكير أولا فى اليونانيين ٠ ولما كان هؤلاء يقيمون بين أتباع الاسلام ، وبين أمم المجموعة الرومانية الجرمانية ، كــان دور الوسيط يناسبهم كل المناسبة ٠ حقا انهم مسيحيون ، اشتركوا بدور فعال فى النضال بين الديانتين ، غير أنه منذ كانت لهم السيادة على سوريا ومصر ، ومن ثم على الأراضى التى تنتهى عندها الطرق الأسيوية ، أصبح استعمال منتجات الشرق عادة عندهم ، وكان من العسير أن يحرموا منها ٠ ولما كانوا مولــعين بترف المائدة والملبس ، فانهم لم يستطيعوا الاستغناء عن الفلفل والحرير والنسيج الأرجوانى ، وكان لابد لولائمهم من عطر خشب الهند (خشب الصندل)(١)٠ وحين أحاط أطباء الروم علما بأدب اللغة العربية ، واكتسبوا بذلك معرفة أكثر صحة وكمالا بالطبيعة وتأثير العقاقير التى يستعملها أطباء الشرق (٢) . كان عليهم بدورهم أن يستخــدموا هــذه العقاقير فى مهنتهم ، وكان لا بد لهم لاستيرادها أن يستعينوا بالتجارة ٠ ولهذه الأسباب كلها ، كان لا بد من أن يزول نفور اليونانيين من العرب ، دينيا وسياسيا لحاجتهم الى الاتجار معهم ٠

وفى بداية الفتوحات العربية كانت السفن البيزنطية متباعدة عن ثغــور مصر وسوريا ، الا أن هذا التباعد لم يدم طويلا ٠ ومع ذلك لا يرجع أول أثر أكيد لعودة الصلات الا الى مطلع القرن التاسع ٠ وفى هذا العصر ، حين اعتدى المسلمون على الأراضى المقدسة ، حظر ليو (لاؤون) الخامس الأرمنى رعاياه من

(١) Theophan, contin. p. 457.

(٢) فى هذا الخصوص كتاب مشهور ، لسيميون سيت Siméon Seth. مهدى الى الامبراطور ميخائيل السابع روكاس (١٠٧١ ــ ١٠٧٨) بعنوان : De alimentorum facultatibus, يعالج فيه عن خبرة تأثيرات الزنجبيل والقرفة والقرنفل وجوز الطيب والكافور ، وخشب الصبر ، والفلفل : (éd. Langkavel, p. 40 et s., 55, 56, 58-66 et s. 74 et s.

الذهاب الى مصر وسوريا(١) ، ولا بد أن الأمبراطور أراد بقطعه العلاقات المفيدة للعرب أن يجعلهم يشعرون بوطأة غضبه • غير أن مرسومه هذا يدل على شيء واحد : ذلك أن الروم كانوا في ذلك العهد لا يتورعون عن مصادقة العرب فيما يتعلق بالتجارة • ويروى المؤرخ Cedrenus (٢) بخصوص هذا الأمبراطور أن من بين الهدايا التى منحها لراهب من أصدقائه نباتات عطرية ، يقول عنها انها « مثل تلك التى تأتينا من الهند » وتدل هذه الحكاية الصغيرة على استدامة التيار الذى كان يجلب منتجات الشرق الى القسطنطينية ، غير أنها لا تنبئنا عمن كان يأتى بها ، التجار الروم أم الأجانب ، وعلى أية حال فان تجارة الروم مع العرب نمت نموا هائلا فى القرن العاشر • وتبعا لما سجله الكتاب العرب الذين ذكرناهم قبلا ، كانت أنطاكية وطربزون السوقين الرئيسيين اللذين تتم فيهما المبادلات التجارية ، ونضيف اليهما دون تردد الاسكندرية التى كان يتردد عليها تجار كثيرون من جنسيات مختلفة • وكان الجزء الأكبر من البضائع التى يستخلصها الروم من هذه الموانىء يتجه الى القسطينية ، اما عن طريق البحر المتوسط أو البحر الأسود ، واما عن طريق البر ، عبر آسيا الصغرى • غير أن تقدم السلاجقة لم يلبث أن جعل هذا الطريق غير صالح للسفر • كذلك كانت تسالونيك(٣) ، وخرسون(٤) تتلقيان نصيبها من بضائع الشرق •

وقد يخطر على البال أن تقدم الصناعة فى بلاد الروم يترتب عليه الغاء استيراد المنتجات المصنوعة فى الشرق؛ • ولكن هذا ليس بصحيح : ذلك أن انتاج الحرير لم يكن متقدما بالدولة البيزنطية وكميات المنســوجات الحريرية التى تنتجها مشــاغل الحريم فى البلاط الامبراطورى بالقســطنطينية لم تكن كافية لسد مطالب البلاط والدولة • وفى القرن التاســع ، وحتى فى القرن العاشر ، كان الأباطرة يشترون من أجل تزيين قصورهم ، وتوزيع الهبات على حاشيتهم أقمشة مستوردة من مصر ومعروضة فى أسواق القسطنطينية (٥) ، وكذا وبوجه عام سلعا مصنوعة فى الشرق ، وتدل أسماؤها بوضوح — وهى مستعارة من اللغة العربية — على مصدرها (٦) • ولم تكن الصناعة الخاصة ، شأنها شأن مشاغل حريم القصر الامبراطورى بقادرة على انتاج كميات المنسوجات الحريرية التى تتطلبها التجارة : أولا لأنها كانت تعانى من علتين أساسيتين :

---

(١) Dandolo, p. 167.

(٢) Ed. Bonn. II, 54.

(٣) يذكر كامنياتا Joh. Cameniata من بين السلع التى تباع فى هذا السوق أحجارا كريمة واردة من الشرق ، وهذا أمر لا شك فيه ، أما الاقمشة الحريرية التى يذكرها فليست آتية حتما من الشرق •

(٤) Constant Porphyrog. De adm. imp. p. 72 et s.

(٥) Constant. Porphyrog. De cerim, p. 373, 595, et les notes de Reiske, p. 563, 700.

(٦) Ibid, p. 468, 706 et les notes de Reiske p. 529, 712, 716.

منافسة مصانع الدولة المتمتعة بالامتيازات ، وعبء الضرائب الفادح • وثانيا أنه ما أن أتى القرن العاشر حتى كان من أثر فتح العرب سوريا (١) أن انتزع منها أحسن أسواقها ، وكان لابد من مضى بعض الوقت لكى يسد البيع فى أقاليم الامبراطورية هذا العجز •

وادعى بعض المؤرخين أن انتاج الحرير وصناعته كانا مزدهرين قبلا فى المورة ، وذكروا انباتا لذلك الأقمشة الفاخرة التى أحضرنها سيدة ثرية اسمها دانيليس Danilis من بتراس Patras الى القسطنطينية لاهدائها الى الامبراطور باسيل الأول (٨٦٧ ــ ٨٨٨) • غير أنه بدراسة أصل النص الذى أخذت منه هذه القصة دراسة دقيقة (٢) يتبين لنا أنه لم يرد به ذكر لاقمشة حريرية • وانما ذكرت به أقمشة من القطن والكتان • وحتى اذا ثبت أن هذه الأقمشة صنعت فى البيلوبونيز لا فى الخارج ، فان هذه الحقيقة فى ذاتها تثبت شيئا واحدا ، ذلك هو براعة صناع البلد فى نسج القطن والكتان • ونجد أيضا ضمن الأشياء المذكورة بساطا كبيرا أمرت دانيليس بصفة على نفقتها الخاصة فى البيلوبونيز من أجل كنيسة جديدة فى القسطنطينية ، ومن ثم لا يمكن الاستناد الى هذا النص للتسليم بازدهار ــ صناعة الحرير (٣) • ثم ان البيلوبونيز لم تكن معروفة خلال القرون التالية بانتاج الحرير بنوع خاص : ولم يكن ذلك الا افتراضا نبع من تشابه كلمة المورة Morée بكلمة Morus ومعناها شجرة التوت ، وقد تبين الخطأ فى أصل الكلمة منذ زمن بعيد • وكان انتاج الحرير أكثر تقدما فى هيلاس نفسها (اليونان القديمة) ، وفى جزر الأرخبيل • ومع ذلك لم يبلغ ازدهار هذه الصناعة ذروته الا خلال الفترة التى أعقبت الفترة التى تهمنا فى هذا البحث •

كان التاجر الذى يذهب الى القسطنطينية ، يسره كل السرور أن يجد فيها تشكيلة كبيرة من المنسوجات الحريرية ، الوطنية أو الأجنبية ، لذلك اشتهرت عاصمة الامبراطورية اليونانية بأنها أحسن سوق مزودة بمختلف أصناف هذه السلعة ، وكان الناس يطلبون فيها بنوع خاص الأقمشة الأرجوانية وكانت مشاغل الحريم بالقصر الامبراطورى تصنع هذه الأقمشة باتقان شديد غير أن الروم كانوا يحبون ارتداء أفخم هذه الأقمشة ، ولم تكن الحكومة تحظر رسميا تصديرها ، ولكنها مع ذلك تقيم كل أنواع العراقيل فى سبيل هذا التصدير •

---

(١) عوض عن هذه الخساره تعويضا جزئيا حين عاد اليونانيون فاحتلوا أنطاكية ومجاوراتها • وحين ارتقى الكسيوس كومنينوس العرش ، كان أخوه اسحق حاكما على المدينة ، ولكى يحافظ على ود الكسيوس ، أرسل الى البلاط مرارا أقمشة حريرية :
— Nicèph. Bryennius, éd. Bonn. p. 156.

(٢) Theophan, contin p: 318.

(٣) Finlay, Hist of the byzantine and greed empires from 716 to 1453 ; I. p. 302; Pariset, Hist. de la soie, II, p. 25 et ss.

وسوف نرى فيما بعد القيود المفروضة على التجار الروس المصدرين للمنسوجات الحريرية ، ونكتفي الآن بحكاية ما حدث للويتبراند Luitprand أسقف كريمونة في ختام سفارته الثانية بالقسطنطينية : فقد كان في حقائبه منسوجات حريرية ، كان قد اشترى بعضها ، وأهدى اليه البعض الآخر ٠ وحين أراد اجتياز الحدود احتجز موظفو الجمارك خمسا من أجمل القطع بدعوى أن تصديرها ممنوع ٠ وعبثا حاول الأسقف اقناعهم بأن هذه الأقمشة تخص كنيسته ، وأن الامبراطور صرح له بأن يشترى للكنيسة أوشحة (من طيلسان) دون أن يحدد ثمنا لها ، وتوسل اليهم ـ دون جدوى ـ أن يتركوا له على الأقل القطع المهداة اليه ، فقد أصر رجال الجمارك دون رحمة على مصادرة الأقمشة ٠ ولابد من القول بأن هذه المعاملة القاسية كانت امتدادا لما عاناه لويتبراند خلال سفارته من اهانات من جانب رجال الحاشية وموظفي الامبراطورية ، كما كانت هذه المعاملة متمشية تماما مع طبيعة الامبراطور نيقفور الذى كان يتولى مقاليد الحكم وقتئذ ، وكان من عادته أن يعامل الأجانب بغطرسة ملؤها الخشونة ٠ وكان لويتبراند ابان سفارته الأولى عام ٩٤٩ (١) يتعامل مع الامبراطور قسطنطين السابع الذى كان يحسن معاملة الأجانب ، وكان لويتبراند قد حمل في عهده أقمشة ثمينة ، ولم يمنعه أى موظف بالجمارك من الخروج بها ، ولم يفتشه أى واحد منهم (٢) ٠ وبديهي أن الأمور كانت تجرى على هذا النحو بالنسبة الى التجار ٠ فحينا كانت الرقابة تنفذ بصرامة ، وحينا كانت متراخية ٠ وكان بعض موظفي الجمارك يقبلون الرشوة ، وبعض المصدرين يستخدمون طرقا احتيالية للتخلص من تفتيش الجمارك ٠ والواقع أن البضائع الثمينة التى كان تصديرها ممنوعا ، وكانت تصل مع ذلك الى ايطاليا ، اما عن طريق البندقية أو أمالفي (٣) ، لم تكن بقليلة ٠

وبوجه عام لم يكن الروم يبذلون جهدا كبيرا لتوزيع المنتجات الوطنية والأسيوية المكدسة في المخازن في البلاد المجاورة ٠ بل كان الأباطرة يبذلون جهدهم لابهار الأمراء الأجانب بكرمهم ، وهداياهم من التحف الأجنبية ، ويحبون عرض البضائع الثمينة التى ترد الى القسطنطينية ، ولكنهم لم يدركوا فائدة انتهاج سياسة تجارية واسعة النطاق (٤) ، تتيح للأمم الأخرى أن تحصل على

---

(١) لتحديد هذا التاريخ انظر Kapke, De vita et scriptis Liudprandi, p. 11.

(٢) Liudprandi, relatio de legatione Constantinopolitana, dans Pertz, ss. III, p. 359 et s.

(٣) Liudprandi, loc cit.,

(٤) كان الرسم الذى يجبى على التصدير يبلغ بعامة ١٠٪ من قيمة البضاعة ، أنظر ابن خرداذبة ص ٥١ ، وكذا :

Cinnamus, lib. 6, cap. 10 ; Joh. Cantacuz, lib 4, 12 ; Zacharioe van Lingenthal, les Mém. de l'Acad. de St. Pétersberg VII, série, T. IX, no 6, p. 6.

هذه التحف الرائعة · أما بخصوص رعاياهم ، فان كل جهودهم كانت قاصرة على الحصول على الأشياء اللازمة لرفاهيتهم ، ونركوا للأجانب المشاق والمخاطر الملازمة لرحلات العمل الطويلة · وكان يحلو لهم ، ويرضى كبرياءهم أن يشاهدوا السفن التجارية التابعة لمختلف البلاد الأوروبية وهى تدخل ميناء القسطنطينية ، وأن تصير « ملكة المدائن » مركزا لتجارة الغرب ، ولا يهمهم كثيرا بعد ذلك أن يفقدوا باهمالهم أجمل الفرص لانماء ثروتهم · وكان من السهل عليهم أن يلقوا كميات هائلة من بضائع الشرق الأدنى فى أسواق جنوب ايطاليا حيث بقيت مدن بارى ونابولى وأمالفى وغيرها قرونا طويلة تحت سيادة قياصرة الروم ، ويستثمرون ذلك فى سائر أنحاء ايطاليا : ولكنهم كانوا يفضلون دعوة سكان هذه المدن الى الحضـور الى القسطنطينية ، وكان هؤلاء السكان قد احتفظوا حتى فى عهـد السيادة البيزنطية بروح المغامرة التى اتصفت بها العبقرية الايطالية · وبمرور الزمن أصبح أهالى البنـدقية وبيزا وجنوا هم الموردين الرئيسـيين لمنتجات الشرق الأدنى فى الغرب كله ، وتنـازل لهم عن هذه المكانة التجار الروم الذين استسلموا للكسل والبطالة واكتفوا بالتذمر · واذا كان نشاط التجار الروم فى الغرب ضعيفا للغاية ، فانهم مع ذلك أبدوا نشاطا أكثر بقليل فى الشمال ، فى البلاد التى يرويها نهر الدانوب ، وفى روسيا ؛ وثبت أنهم كانوا يزورون بلد البلغـار الذين يقيمـون على ضـفاف الدانوب (١) : وذهب البعض منهم الى روسيا (٢) ، وكانت نقطة انطلاقهم خرسون · ومن المحتمل أن يكون قسطنطين بورفيروجنتوس قد استقى معلوماته التفصيلية عن الملاحة فى الدينبر السفلى ، مما كان يحكيه تجار خرسون ؛ ويعين هذا الأمبراطور العالم بالجغرافيا بالقرب من المخاضة المسماة كراريك Krarique الموضع الذى يعبر عنده أهالى خرسون النهر عند عودتهم من روسيا (٣) ·

ومع ذلك فان اليونانيين قد تفوق عليهم فى هذه الناحية ، وكذا فى الغرب « برابرة » الشمال الأكثر منهم نشاطا · وسوف نرى فيما بعد كيف أثار نجاح التجار البلغار المقيمين بالقسطنطينية غيرة اليونانيين ، وأن الروس كانوا يفدون الى هناك فى جموع كبيرة لممارسة التجارة ·

---

(١) Theophanes, I, 775.

(٢) Cedren, II, 551.

هذا ما تشته المعاهدات التى عقدها بعض غراندوقات روسيا مع أباطرة بيزنطة ·

(٣) De adm. imp., p. 77.

كانت المخاضة المذكورة موجودة أعلى بقليل من مدينة الكسندروفسك الحالية ·

٣ ـ روســـيا واسكندناوة

(أ) التجارة مع العرب

مما يثير الدهشة تلك الكمية الهائلة من النقود الفضية شرقية الأصل التى تظهر فى الحفريات التى تجرى شـمال أوروبا ؛ ولابد أن أصحابها قد دفنوها بالأرض عند انصرافهم ، اما فى رحلة عمل طويلة ، أو للاشـتراك فى حـرب . أو لعلهم دفنوها ثمة حتى لايستولى عليها غاز من الغزاة ، ثم منعهـم فيما بعد من استرداد كنوزهم موت أو هجرة أو أسباب أخرى ؛ وهكذا يكتشفها فى الوقت الحاضر بعض المزارعين أو الحطابين ، ويظهر معها أحيانا كميات كبيرة من النقود تشكل مبالغ ضخمة . وقد نشر ليدبور Ledebur عام ١٨٤٠ دراسة مصحوبة بخريطة طوبوجرافيـــة ، تعطى فكرة واضـحة للغاية عن توزيع هذه المكتشفات فى منطقة بحر البلطيق ؛ ولم يعد هذا البيان يمثل بالضبط حقيقة معلوماتنا بهذا الخصوص فى الوقت الحاضر ، اذ لاتمر سنة دون أن يتم اكتشاف جديد ، ومع ذلك فلم تزل هذه الدراسة بوجه عام ذات قيمة وبالنسبة الى روسيا يجب الرجوع الى خريطة بول ساوليبف Paul Sauelieff (١) ، أو الموجز الطوبوجرافى للنقود العربية القديمة فى روسيا (٢) الذى ندين به للمستشرق فريهن Froehn . وما نعرفه عن الاكتشافات التى جرت فى شمال شرقى روسيا على نهر بتشورا غير أكيد ، فلسنا ملزمين بأن نأخذها فى اعتبـــارنا ، ومن ثم فان حكومة قازان شرقى أوروبا هى المنطقة القصوى التى عثر فيها على مكتشـــفات مؤكدة من هذا النـــوع (٣) . والى الغرب ، وبغض النظر عن بعض المكتشفات القليلة الأهمية التى تمت فى أيسلندا وانجلترا ، فان أقصى موقع عثر فيه على مثل هذه التحف هو اجرسند Egersund **باقليم كرستيانسند** Christiansund بالنرويج . أما بخصـــوص روســـيا فان الحد الشـــمالى للمكتشفات يتمثل فى خط مستقيم يمتد من قازان الى بحيرة لادوجا ومنها الى فنلندا ؛ أما المنطقة الجنوبية القصوى فانها عند خرسونيز القديمة Chersonèse (القرم) ، وهنا أيضا لم يتم سوى اكتشاف واحد . وبوجه عام فان البلاد التى كشفت فيها الحفريات عن أكبر كميات من النقود الفضـــية العربية هى الأقاليم الواقعة فى قلب روسيا ، على المجرى الأعلى والأســفل لنهر الفولجا ، وروافده

---

(١) لم أستطع مع الأسف الحصول على هذه الخريطة ، ولا على كتاب « المسكوكات الاسلامية » للمؤلف نفسه (سان بطرسبرج ١٨٤٧) وفيه يبحث بنوع خاص موضوع الحفريات التى أجريت فى روسيا ونتائجها بالنسبة الى تاريخ هذا البلد .

(٢) Bullet. de l'Acad. de St. Pétersbourg, I, IX (1842) no. 20, 21.

(٣) Frahn, dans le Bulletin, ib. no. 19. p. 295-297.

الجنوبية ، والأقاليم الواقعة على المجرى العلوى لنهر الدينبر ، وأخيرا الأقاليم المجاورة لبحر البلطيق وخليج فنلندا (١) • ومن فنلندا الى السويد يمر الانسان بجزر أولاند Aland حيث استخرجت نقود فضية قديمة غريبة الشكل ، لعلها شرقية الأصل • والى الجنوب تشكل جزيرتا جوتلاند وأولاند شبه قنطرة بين أقاليم البلطيق الروسية وبين اسكندناوة • وقد عثر فى أقاليم البلطيق على كميات كبيرة من النقود العربية • ويحكى هايد لبراند Hilderbrand أن الحفريات المعروفة هناك أسفرت عن أكثر من ١٣٠٠٠ قطعة (٢) • واسهمت جزيرة أولاند الصغيرة بقدر كبير فى هذا الخصوص ، فقد عثر فى حفرية واحدة على ١١٢٢ قطعة نقد عربية نادرة المثال • وفى السويد نصادف كثيرا نقودا عربية على طول الساحل الشرقى ، وهذه النقود أكثر ندرة فى داخل القطر وفى قسمة الغربى (٣) • وفى النرويج لاتوجد نقود عربية الا فى السواحل الجنوبية (٤) • وبخصوص الدانمرك ، وجد أكبر قدر من هذه النقود فى جزيرة بورنولم Bornholm ، وعثر على بعض منها فى جزر مون Moen ، وفالستر Falster ، ولانجلاند langeland ، وأجيرسو Aggersoe (فى بلت Belt الكبرى) ، كما عثر فى أنحاء متفرقة من جتلاند وشلزويج على قطع فضية عليها حروف كوفية (٥) •

ومن السهل تحديد العصر الذى تنتمى اليه النقود الفضية العربية (الدراهم) التى يعثر عليها فى أقاليم البحر البلطى بروسيا ، لأنها كلها تحمل تاريخ صنعها• ووفقا لقربهن ، يرجع أقدم هذه النقود الى أواخر القرن السابع، وأحدثها الى مستهل القرن الحادى عشر • وينطبق هذا الرأى تماما على الملحوظة التى أبداها تورنبرج Tornberg وفحواها أن مجموعة الدراهم التى وجدت فى السويد تبدأ بقطعة من عام ٦٩٨ فى عصر الأمويين ، وتنتهى بقطعة من عام ١٠١٠ فى عصر البويهيين • يقول تورنبرج ان القرن الأول من هذا العصر لاينتمى اليه الا القليل جدا من هذه النقود ، فدراهم السنوات ٧٩٥ ــ ٨١٦ كثيرة ، ولكن الأكثر عددا هى نقود أواخر القرن التاسع حتى وسط القرن العاشر ؛ وتقدم السنوات ٩٠٩ ــ ٩١٤ أكبر حصة من هذه النقود • وابتداء من

(١) أنظر Frahn وفيما يختص باقاليم بحر البلطيق بنوع خاص ، انظر : Kruse, Necrolivonica, Suppl. D. p. 6 et ss.

(٢) Hildebrand Das heidnische Zeitalter in Schweden, trad. Mestorf. (Hambourg. 1873) p. 184.

(٣) Mumi, cufici regü numophylacii Holmiensis (Ups. 1848) ; Ledebur, p. 8-30; Minutoli, op. cit., p. 7 et ss.

(٤) Tornberg, loc. cit., note Ledebur, op. cit., p. 5-7; Minitoli, p. 5 et s.

(٥) Worsaoe Däenemarks Vorzeit, trad. allem. par Bertelsen (Copenhag 1844), p. 53 et s.; Ledebur, op. cit., p. 71-76; Minutoli, p. 19-22.

عام ٩٥٥ تقل بالتدريـج ؛ وبعد العقد الأول من القـــرن الحادى عشر ينعدم وجودها (١) ٠

وبدراسة ماهو مكتوب على قطع النقود ، نتعرف على أسماء الأمراء الذين ضربت النقود فى عهدهم ، وأسماء الأماكن أو البلاد التى أتت منها ٠ ومن ذلك يتبين أن أكبر عدد من النقود (أكثر من ثلثيها) آتية من الدولة السامانية التى حكمت فيما وراء النهر ، وخراسان منذ الربع الأخير من القرن التاسع حتى نهاية القرن العاشر ، والأسماء التى ترد غالبـا فى الشروح المنقوشة على قطع النقود التى اكتشفت فى روسيا والسويد هى سمرقند ، وبخارى ، وشاش (طشقند)؛ وبلخ ، وأندراب ، ونيسابور وغيرها وبعد هذه الممالك تأتى البلاد الواقعة الى الغرب منها ؛ على طول الساحل الجنوبى لبحر قزوين : جرجان ، وطبرستان ، والديلم ٠ وتعرفنا النقود بأسماء بعض صغار الأمراء الذين حكموا هناك ٠ ومع ذلك تتمثل أرمينيا أكثر من غيرها فى هذه النقود ، وبخاصة فى نقود «بيردا» Berdaa باقليم « أران » Arran فى الجنوب الشرقى من بحر قزوين٠ وتقدم بغداد ، مقر الخلفاء العباسيين نصيبا كبيرا من النقود ، فى حين لاتظهر دمشق ، مقر أسلافهم الأمويين الا قليلا على النقود ٠ وبوجه عام تنتمى النقود التى عثر عليها الى ما وراء نهر أوجزوس شمالى فارس ، أى البلاد التى ترويها أنهار كورا والدجلة والفرات ٠ أما التقود الآتية من جنوب فارس وبلاد العرب وسوريا ومصر وأفريقيا والمغرب وأسبانيا فانها أكثر ندرة (٢) ٠

ويهمنا الآن البحث فى الكيفية التى وصلت بها هذه النقود العربية فى عصر موغل فى القدم الى أقصى المناطق الشمالية فى روسيا ٠ وثمة علماء قدامى قدموا فى هذا الخصوص افتراضات قد تكون على شىء من الصحة ؛ ولسنا نريد أن نتوقف عندها ، لذلك نبدأ بتقديم تصريح نرجو أن يلمس القـراء أهميته ، الثانـــوية على الأقل ٠ اننـــا نعرف الغزوات التى كان يشـــــنها الفايكنج الاسكندناويون ؛ كذلك ظهرت السفن الروسية ـ والروس قبائل من أصـــل اسكندناوى ـ ظهرت على بحر قزوين ، وأغار القرصـــان الذين خرجـوا من صفوفهم مرتين خلال القرن العاشر (٩١٣ ، ٩٤٣) على البـلاد الواقعة جنوبى وجنوب شرقى هذا البحر ونهبوها ٠ كذلك تلقى عرب أســبانيا وشمال غربى أفريقيا عدة مرات فى القرن التاسع زيارة هؤلاء القرصان النورمان (٣) ٠ ولابد أن هذه الغارات قد أتاحت للمغيرين فرصا لكى يحملوا معهم الى الشمال نقودا عربية ، وهذا أمر لاجدال فيه ، غير أنه مهما تصورنا جسامة الغنائم التى جلبها

---

(١) Froehn, op. cit., p. 304; Tornberg, loc. cit.,

(٢) Froehn, op. cit., p. 303; et s.,Tornberg, loc cit.,

(٣) Froehn, op. cit., p. 305 et s., 310 et s.

هؤلاء القرصان ؛ فلا يمكن أن تنسب الى هذا السبب وحده الا جزء ضئيلا من النقود التى اكتشفت(١)، فهناك من هذه النقود كميات هائلة ، وآلاف النماذج، ومن المستحيل أن تكون قد أتت كلها من هذه الغزوات التى كانت بالاجمال قليلة العدد نسبيا • وثمة ملحوظة أخرى : ذلك أن عددا كبيرا من هذه النقود وجدت مكسورة ، والملاحظ أن عملية كسر النقود هذه كانت شائعة فى أسواق الشرق ، فى سمرقند مثلا فى عهد السامانيين (٢) ، ومن البديهى أن مقاتلى الشمال ليسوا هم الذين كانوا يتسلون ، ازجاء للوقت بكسر النقود التى كانت فى غنائمهم ؛ ذلك لأن تجار الشمال هم الذين تلقوا النقود بهذه الصورة سدادا (لمبيعاتهم) • وكان العرف السائد وقتئذ يقتضى وزن الفضة المعطاة سدادا للبيع ، فكان الى جانب قطع النقود السليمة ، أجزاء مكسورة لاكمال الوزن ، ويحدث هذا أيضا حين لا يساوى الشيء (المبيع) الا نصف درهم أو ربعه (٣)• وعلى ذلك فالتجارة هى السبب الأول لهذه الظاهرة • واذا لم تكن هذه الأسباب كافية ، فانه يكفينا أن نبدى ملاحظة واقعية : ذلك أن أهم النقود المكتشفة وأكثرها عددا قد عثر عليها فى جوار المناطق التى تشير اليها المصادر على أنها المراكز التجارية فى ذلك العصر ، وهذا هو ما أثبته ليدبور • حقا ، لايسعنا أن نثبت أن التجار العرب قد غامروا بالذهاب الى اسكندناوة ، وهذا لايمنع من أن الجغرافيين العرب كان عندهم معلومات صحيحة عن هذه المناطق • وعلى أية حال فان القسم الأكبر من روسيا بقى بعيدا عن طريق هؤلاء التجار ؛ ولكن الثابت أنهم صعدوا نهر الفولجا بسفنهم حتى بلاد البلغار • والمعروف أن بعض قبائل البلغار تقدموا صوب نهر الدانوب فى حين بقيت قبائل أخرى فى روسيا واستقرت عند منتصف مجرى نهر الفولجا ، وكانت « بلغار » Boulgar عاصمتهم واقعة بين قازان وسمبرسك Simbirsk أسفل ملتقى نهرى كاما والفولجا(٤) • ولما كانت « بلغار » نقطة تجمع منتجات الشمال فانها جذبت اليها التجار العرب بقوة ، وكان هؤلاء التجار واثقين من أن يجدوا بها ترحيبا طيبا لأن الملك والأهالى كانوا قد اعتنقوا الاسلام(٥) • وكان ما يسعى التجار العرب للحصول عليه فى تلك الأصقاع هو الفراء الذى كان مولعا باقتنائه عظماء

---

(١) أنظر أيضا تردد تورنبرج فى شأن النقوذ الأفريقية والاسبانية •

(٢) Oriental geography by Ibn Haoukal, éd. Ouseley, p. 258.

(٣) Froehn, op. cit., p. 304; Bohlen, op. cit., p. 20; Weinhold, Altnordisches Leben, p. 118.

(٤) F. H. Mueller. Der ugrische Volksstann, 1e partie, ehap. 2, p. 414 et ss.

(٥) Froehn, les Mém. de l'Acad. de St. Pétersb., Série VI, Sciences politiques, T. I. p. 183-199.

الشرق (١) . والواقع ان التجار البلغار والروس وغيرهم من سكان الشمال كانوا من قبل يسافرون حاملين الجلود والفراء الى انيل Itil عاصمة الخزر عند مصب نهر الفولجا حيث يملكون المستودعات (٢) غير أن التجار العرب لم يرهبوا مواجهة شهرين من الملاحة (٣) أو شهرا من السفر برا (٤) حتى يقتربوا بقدر المستطاع من مصدر أجل أنواع الفراء ؛ ومع ذلك فانهم لم يجرءوا على المضى الحر أبعد من بلغار (٥) ، ولم يكونوا فى حاجة الى ذلك ، لأنهم كانوا يجدون ثمة منتجات الشمال بفضل نشاط البلغار (٦) . فالى الغرب من تلك المدينة شعب تهبط سفنه نهر الفولجا طلبا لبضائعه ، هؤلاء هم الروس . هذا الاسم الذى أطلقوه على أنفسهم ، وأجسامهم القوية ، وقوامهم الفارع ، وعاداتهم الغريبة التى يصفها ابن فضلان الذى رآهم بنفسه فى عام ٩٢٠ (٧) ، كل ذلك يدل دلاله كافية على أن هؤلاء الناس لم يكونوا من القبائل السلافية التى لم يطلق عليها اسم الروس الا فيما بعد ، ولكنهم قبائل اسكندناوية . ومنذ أربعين سنة مضت بالكاد قبل الزمن الذى أرسل فيه الخليفة المقتدر هذا الكاتب (ابن فضلان) الذى ندين اليه بالمعلومات الهامة عن بلغار الفولجا وجيرانهم ، بعثة فى مهمة الى مدينة بلغار ، كان روريك واخوته قد غادروا وطنهم السويد ، وقدموا الى ضواحى بحيرتى لادوجا والمن ، أى فى مجاورات منابع الفولجا ، وأقبل فى أثرهم الكثير من مواطنيهم . وعلى هذه الرقعة الجديدة أطلقوا العنان لجرأتهم ونشاطهم فى كل ميادين الحرب والسلام . وهكذا فانهم حين هبطوا بمراكبهم نهر الفولجا ، نجحوا فى توثيق العلاقات مع البلغار الذين كانوا ــ كما رأينا ــ يتاجرون بالفعل مع العرب فيما وراء بحر قزوين . ودخل

---

(١) من بين السلع الأقل أهمية التى كانت متداولة فى هذه التجارة ، نذكر قرون الماموث ، وكان عمال خوارزم يصنعون منها أشياء متنوعة ، مثل عنبر الأقاليم البلطية .

(٢) Froehn, De Chasaris, loc cit., p. 591, 601 et s. ; Frahn, Ibn-Fosslan, p. 147; Maçoudi, II, p. 9, 11.

(٣) كانت سفنهم التجارية تدفع للملك رسما (عشرا) عند دخولها منطقة البلغار .

(٤) ابن حوقل Ibn Haoukal dans l'Ohsson, loc. cit,. pp. 73.

(٥) Froehn, Ibn-Fosslan, p. 168, 258, 266.

(٦) Saweljew, op. cit., p. 91 et ss.; Froehn, Ibn-Fosslan, p. 226 et s.; Ibn-Dasta, op. cit.

ومما يدل على طبيعتهم المغامرة ارسالهم قوافل الى جورجانية (خوارزم) : المسعودى ، الجزء الثانى ص ١٥ وما بعدها ، أبو حامد الاندلسى فى : Saweljew, op. cit., p. 97. —

(٧) أنظر الفصل الذى كتبه فى شان الروس فى :

— Froehn, Ibn-Fosslan, p. 1-23.

أنظر أيضا Ibn-Dasta ، المرجع السابق .

الروس الاسكندناويون لدى البلغار فى المجال الذى كانت فيه النقود العربية سارية المفعول • والواقع اننا نعلم من مذكرة كتبها ابن رســتة (١) أن بلغار الفولجا كانوا يقبلون من المسلمين سدادا لقيمة بضائعهم دراهم بيضاء مستديرة ؟ أما فيما بينهم ــ كما يقول ابن رسنة ــ فكانت جلود السمور نحل محل النقود الرنانة • ومع ذلك فمن الثابت أنه كان عندهم فى بلغار أوصوار Souwar ورش يضربون فيها نقودهم ، ويزيفون الدراهم السامانية (٢) ، ويستفيدون من ذلك فائدة كبيرة فى تجارتهم مع بلاد ما وراء النهر وخراســـــان • وعلى ذلك كان الروس يحضرون الى السوق البلغارية بضائعهم التى يبدو أنهــا تشمل بنوع خاص جلودا وفراء وعبيدا ، ويبيعونها للبلغار أو العرب ، ويحصلون فى مقابلها اما على نقود اسيوية كانت ثمة متوفرة ، أو نقود بلغارية تشابه النقود الأسيوية حتى ليصعب التمييز بينها • ثم انهم لم يتوقفوا دائمــا هنــــاك ، فقد كان من السهل الملاحة فى النهر مع التيار حتى ايتل عاصـــمة الخزر ، وهذا مافعلوه وانشأوا هناك مستودعات (٣) • ونحن نعرف من ابن خـرداذبة أن ســـفنهم شوهدت فى بحر قزوين ، وأن بضائعهم كانت تنقــل على ظهور الجمـــال من جورجان الى بغداد (٤) • ولما كانوا يتقدمون بسفنهم حتى الشـــاطىء الغــربى لبحر قزوين ، وتصل بضائعهم الى المركز السياسى للعالم الاسلامى ، فانه كان من الطبيعى أن يأتى الى روسيا نقود مصـــــدرها ليس فقط الأقاليم الواقعـــة جنوبى بحر قزوين ، ولكن أيضــــا كل أجزاء العالم الاســـلامى ، وتنتشر فى الشمال كله •

كان الاسكندناويون فى المناطق الواقعة وراء بحـر البلطيق يعرفون منذ أقدم العصور « طريق الشرق » • وعنـــدما أتى مواطنوهم الى روســــيا ، واستقروا بها ، وفرضوا سادتهم عليها (٥) ، كثرت رحلاتهم فى تلك النواحى،

---

(١) Roesler, op. cit., p. 362.

(٢) اثبت فريهن وجود هذين المصنعين ، على قطعتين وجدتا فى روسيا :
Mém. de l'Acad. de St. Pétersberg ; Série VI, T. I. p. 171 et s.
T. IV, p. 243, note; Bulletin, loc cit., p. 305, 316, 320, 323;
ــ أشار تورنبرح أيضا الى الواقعة نفسها بالنسبة الى قطع وجدت فى السويد •

(٣) أنظر المعلومات التى أعطاها ياقوت وابن حوقل فى :
Froehn, De Chasaris, Mém. de l'Acad. de St. Petersh. T. VIII (1822), p. 591, 601 et ss.
ــ كذلك المسعودى فى « مروج الذهب » الجزء الثانى ، صفحتا ٩ ، ١١ •

(٤) Journ. Asiat Série VI, T. V, p. 514.

(٥) بخصوص العلاقات الودية بين السويد وروسيا فى القرنين الأولين من تاريخ روسيا ، انظر : — Kunik, Die Berfung der schwedischen Rodsen II, 131 et ss.

وكانوا أغلبية بين العديد من التجار الذين تقاطروا من كل الأنحاء على آسـواق نوفجورود ، وجلبوا اليها الفراء ، والصوف ، اذ شـاعت تربيـة الأغنام فى الشمال ، والريش ، وشوارب الحوت ـ وزيت السمك، الخ(١)، ويتلقون نظير بيعها قطعا من نقود فضية عربية سارية المفعول لدى مواطينهم الروس ، ذلك لأنهم لم يكونوا قد بدأوا فى سك نقود لحسـابهم الا فى زمن متأخـر (٢) ٠ والثابت أن من بين اسكندناويى السويد كلهم ، كان سكان الساحل الشرقى هم الذين أقاموا علاقات متواترة مع روسيا ، يشـهد بذلك النقود العربيـة التى اكتشفت على هذا الساحل ٠ والأمر ثابت كذلك لأن هذه النقود تكدرت بنوع خاص فى الاقليم الذى ازدهرت فيه فى العصور القديمة مدينة « بيركا » Birka السويدية التجارية المشهورة(٣)٠ وكانت الدانمرك (وبخاصة مدينة شلزويج)(٤) هى أيضا ، منذ زمن قديم نقطة انطلاق لتجارة بحرية نشيطة مع روسيا (٥)٠ وكانت السفن المبحرة ترسو أحيانا فى جومنيه Jumne وهى مدينة تجارية مشـهورة فى بوميرانيـا Poméranie ، وأحيـانا فى جزيرة بورنهولم Bornholm (٦) ، وكشفت الحفريات التى أجريت فى هذه البقاع عن كثير من النقود العربية (٧) ٠ الا أن كل السفن التجارية المتجهة الى روسيا ، سواء كانت آتية من السويد ، أو من مواقع بعيدة على الساحل البلطى ، أو أبعد من ذلك كانت كلها ترسو عند جزيرة جتلاند ٠ وفى عصور الوثنية ، قبـل ازدهار مدينة فسبى Visby بزمن بعيد ـ، استغل سكان الجزيرة موقعهم الجغرافى الممتاز ؛ ولابد من التسليم بنمو علاقاتهم مع الغرب والشرق عند رؤية كتل النقود الأنجلو سكسونية والألمانية والعربية التى تكشف عنها الحفريات التى تجرى فى الجزيرة (٨) ٠

---

(١) فاينهولد هو الذى أشار الى هذه السلع التصديرية :
— Weinhold, Altnordisches Lefen, p. 103.

(٢) كان سوينون تيفسكيج Suénon Tyfoeskeg أول ملك دانمركى سك النقود فى حوالى عام ١٠٠٠ ، وكان أولاف شوسكونيج Alaf Schosskonig (توفى عام ١٠٢٤) أول من سك النقود فى السويد ٠ ولم يكن للنرويج نقود خاصة بها الا فى النصف الأول من القرن العاشر ٠ أنظر : Weinhold, op. cit., p. 120.

(٣) Ledébur. op. cit., p. 24 et s.

(٤) Adam Brem. dans Pertz., SS. VII, 312, 368.

(٥) Adam Brem. loc. cit 372.

(٦) Adam Brem p. 312, 373.

(٧) Ledebur, op. cit., p. 54 et ss., 78 et s.

(٨) Bonnel, Russisch-livländische Chronologie, Commentar, p. 24; Worsaoe, Danemarks Vorzeit, trad. allem, p. Bertelesen, p. 54 : Hilderbrand, Das heidnische Zeitalter in Scheweden, trad. allem, n. Mestorf, p. 181 et ss.

يتبين مما سبق ذكره بصورة لاتقبل الشك أن الشمال الاسكندناوى وروسيا قد وثقا لزمن طويل علاقات مباشرة وغير مباشرة مع البقاع الأسيوية الخاضعة لسيادة العرب · بقى أن نعرف ما اذا كانت منتجات الشرق قد دخلت أوروبا عن هذا الطريق ؛ ولايمكن الرد على هذا السؤال بالايجاب دون ابداء تحفظات صريحة · ان الكميات المدهشة من النقود العربية التى بقيت فى روسيا وفى الأقاليم البلطية ، والتى خرجت بذلك من أيدى العرب ولم تعد اليهم تثبت بوجه عام أن شعوب الشمال كانت تشترى من العرب أقل مما تبيع لهم (١)· وكان العرب الذين يصعدون نهر الفولجا يقومون برحلاتهم هذه للحصول على فراء الشمال الذى يقدرونه حق قدره ، وكذا عنبر البلطيق · ترى هل كانوا يحضرون معهم فى مقابل ذلك الكثير من منتجات بلادهم الطبيعية أو المصنوعة ؟ هذا هو السؤال المطلوب ·

فى هذا العصر كانت عادات المعيشة فى شمال أوروبا بسيطة ، فلم يتيسر للعرب بيع السلعة الرئيسية فى تجارتهم ، وهى التوابل · أما فيما يختص بالثياب ، فان الروس الاسكندناويين الذين عرفهم ابن فضلان عند البلغار لم يكونوا يطلبون الحلى الا لنسائهم ، ويدفعون عن طيب خاطر درهما واحدا ثمنا لخرزة من الزجاج الأخضر ، ويتبين مما يرويه ابن فضلان أن هذى هى السلعة الوحيدة التى كانوا يشترونها (٢) · أما السلاسل الذهبية أو الفضية التى كانت النساء الروسيات يحملنها حول أعناقهن بأعداد كثيرة أو قليلة تبعا لنزوتهن فانها كانت صناعة محلية كما يؤكد ابن فضلان · وكان « البروكار » (نسيج مقصب بخيوط الحرير والذهب ـ المترجم) التى رآها الروس وبلغار الفولجا يرد من الامبراطورية اليونانية ، وسوف نتكلم عن هذا البلد من ناحية السلع الكمالية التى كانت شعوب الشمال تستوردها من هناك بالفعل · وعلى هذا لايبدو ، حسبما يقول ابن فضلان أن الروس قد اشتروا الكثير من البضائع العربية ، لا لأنفسهم ، ولا لحملها الى بنى جنسهم الإسكندناويين · ومع ذلك يهمنا أن نعرف ما اذا كانت الحفائر التى أجريت ومازالت تجرى كل يوم فى الشمال سوف تؤدى الى نتيجة أخرى · هناك أيضا حقيقة : فقد وجدت الى جانب النقود العربية خواتم ، ومشابك ؛ وسلاسل ، و « بروشات » مدفونة فى الأرض ، ومن الطبيعى أن ينسب الى هذه الحلى نفس المصدر الذى تنسب اليه النقود · فاذا كان عليها نقوش عربية ، فان هذا الافتراض يغدو حقيقة ثابتة ؛ ولكن ليس

---

(١) Froehn, Ibn-Fosslan, p. 80 et s.; Saweljew, dans les Ermans Archiv., VI p. 101 et autres.

(٢) Froehn, Ibn-Fosslan, p. 5.

عليها أية نقوش : ولانعرف من ذلك الا مثلا واحدا . ذلك هو حلية لطقم فرس، مموهة بالفضـــة ، وجدت فى ولاية باروســـلاو Jaroslaw وكانت تنتمى بالتأكيد الى أحد بلغارى الفولجا ، قرأ عليها فريهن كلمتين عربيتين (١) . ومع عدم وجود مثل هذه النقوش ؛ أكد البعض على البراعة الفائقة التى تتجلى فى هذه الحلى ، وقيل ان الصناعة الشرقية هى الوحيدة المتقدمة بدرجـة تستطيع معها انتاج مثل هذه التحف الفنية الممتازة ؛ ولم تكن الصناعة فى الشمال بقادرة على ذلك . وفى رأينا أن هذا غير صحيح ، اذ لا يجوز الحط على هذا النحو من قيمة فن صناع الذهب والفضة القدامى بالبـــلاد الشمالية ، هذا الفن الذى يرتبط بتقاليد الرجال والنساء الخاصة بارتداء الأطواق حول العنق والذراع ، والخواتم فى الأصابع (٢) . وفى متاحف الشـــمال أشـــياء تحمل حروفا رونية (أقدم الحروف الجرمانية والاسكندناوية ــ المترجم) ، ومن ثم فان أصلهـــا معروف لاشك فيه ، وهى دليل على معارف تقنية متقدمة . ويميل الخبراء الحديثون الى أن ينسبوا الى صناع الشمال عددا كبيرا من الأشياء التى كان الهواة فى الماضى يعتبرونها شرقية المصدر (٣) . ثم ان الأشياء التى يدل طرازها على أنها من الواردات الأجنبية ليست كلها عربية الأصل ، فمنها فى الكثير من الأحيان ماهو من أصل أفرنجى أو بيزنطى ، وبخاصة الحلى الذهبية (٤) . وجدير بالذكر أن الحلى التى يقال انها شرقية ، توجد كثيرا فى الحفريات مختلطة بنقود عربية وانجلو سكسونية وألمانية واغريقية ، ومن ثم لايوجد دليل كاف على نسبة هذه الأشياء الى أصل شرقى . وبفرض العثور على حلى مع نقود عربية أصيلة ، فان ذلك لايثبت حتما اشتراك هذه الأشياء فى أصل واحد ، لأن الاسكندناوى يمكن أن يملك نقودا عربية وحليا وطنية فى آن واحد ، ويدفنها معا فى الأرض . ومع ذلك فهناك حقيقة غريبة تستحق الذكر ، ولايمكن أن تفسر بأنها مجرد صدفة ؛ ذلك أنه حين يعثر ، بوجه عام على بعض الحلى (حلقات من ضفائر فضـــية) مع نقود عربية حقيقية ، فانها تكون من معدن واحد ؛ أى مثلها من فضـــة . والنتيجة التى نستخلصها من هذه الملاحظة الثابتة هى أن الحركة التجارية كانت تجلب أحيانا من الشرق (٥) مع النقود الفضية ، حليا من فضة ، أما بمثـابة سلع ، أو انها وسيلة من وسائل دفع الثمن ، وفى هذا الفرض الأخير شىء من

---

(١) Bulletin de l'Acad. de St. Pétersb. T., IX (1842) p. 319.

(٢) Weinhold, Altnordisches Leben, p. 184 et s.

(٣) Worsaoe, op. cit., p. 57; Munch, Die nordisch-germanischen Völker, trad. Claussen, p. 255 et s.

(٤) Worsaoe, p. 55 et s.

(٥) Worsaoe, op. cit., p. 55 et s.; Hildebrand, op. cit., p. 127.

الصحة لأن هذه الحلى كثيرا ماتوجد مجزأة قطعا ، شأنهـا شأن النقود : ففى التحركات التجارية ، ذهابا وعودة ، كثيرا ما تكون السلعة الكاملة ذات قيمة أكبر من حاجة الناس اليها ؛ وبتقسيمها الى أجزاء ، تنشأ أجزاء من النقود • وباختصار ، فانه مع التسليم بأن هذه الحلى الفضية كانت سـلعة تجـارية ، فالثابت أن سكان شمال أوروبا لم يكونوا يشترون الا عددا قليلا من السلع العربية المصدر •

رأينـا كيف كانت طبيعة التجارة بين أهالى الشـمال والعرب ؛ وفى استطاعتنا أن نحدد مدتها ؛ وتنبئنا النقود التى وجدت فى الحفريات بقدر كاف من المعلومات فى هذا الخصـوص • وحتى الآن لم نبحث الا فى الفترة الاكثر ازدهارا فى هذه التجارة التى بدأت فى حوالى عام ٩٠٠ ، والتى عرفنا بها معرفة يقينية اثنان من الشهود ، عاشا فى عصر واحد تقريبا ، ابن فضلان والمسعودى• وثمة عنصران أسهما فى هذا الازدهار: فمن جهة كان العرب يستمتعون بفتوحاتهم فى هدوء وسلام ، وبخاصة فى القسم الشمالى من دولتهم العريضة ، على ضفاف بحر قزوين ، وفى كل رقعة بسطت عليهـا اسرة السـامانيين سيادتها : ومن هناك انطلقوا صوب الشمال ، لا بصفتهم غزاة ، ولكن بصفتهم تجارا ، فصعدوا مجرى نهر الفولجا ، ووجدوا من يرحب بهم فى كل مكان ؛ عند الخزر ، وهم أمة مهذبة متسامحة تعيش عند مصب النهر ؛ وكذلك عند البلغار ، وهم أقوام من التجار اعتنقوا الاسلام واستوطنوا القسم الأوسط من النهر • ومن جهـة أخرى وجد الاسكندناويون الذين استقروا حديثا فى روسيا ، وجدوا فى النهر نفسه أداة صالحة لمزاجهم الحربى والتجارى ، فانحدروا فى مجـراه ، وزاروا البلغار ، وانشأوا لغرض التجارة مستودعات عند الخزر كما رأينا قبلا وفضلا عن ذلك بذل أمراء الخزر كل ما فى وسعهم لمنعهم من الاتجار فى هدوء مع العرب سادة المناطق الواقعة وراء القوقاز وبحر قزوين (١) •

ومع ذلك لايجوز الظن بأن الشرق لم يكن أبدا حتى ذلك الحين على اتصال بشمال أوروبا ؛ فالقطع الذهبية العربية التى تنتمى الى القرنين الثامن والتاسع، والتى يعثر عليها مدفونة فى روسـيا ومناطق البلطيق دليل هام على قدم هذه العلاقات ؛ فالواقع أن النقود لم يكن لها قيمة عند العرب الا فى حيـاة الأمير الحاكم ، ثم يأتى خليفته فيبطل سريانها ويسك نقودا جديدة • مثال ذلك أنه لم يكن فى الامكان فى القرن العاشر اصدار أو تداول عملات مسكوكة باسـم خليفة أو سلطان القرن التاسع ، وبالأولى من القرن الثامن • وعلى ذلك ، فقبل أن يؤسس روك مملكته بزمن طويل ، حين كانت القبائل السلافية تعيش فى

---

(١) أنظر رسالة يوسف ملك الخزر فى :
Vambéry, Ursprung der Magyaren, p. 71.

عزلة واستقلال على الأرض الروسية ، فان هذه القبائل كانت تصــدر البضائع الى آسيا ، وتتسلم فى مقابلها نقودا عربية ، ان لم تكن بغزارة كما حدث فما بعد، ولكن على الأقل بكميات كبيرة ، وفى ذلك الحين أيضا انتشرت تلك النقود فيما وراء بحر البلطيق • وعندما خضع السلاف للغازى الأجنبى ، استمروا مع ذلك يسهمون فى تجارة الشرق الأدنى • وفى مســـتهل القرن العاشر كان للروس الاسكندناويين ، كما كان للسلاف مستوطنــة تجارية عنــد مصب الفولجا ، فى مدينة ايتل عاصمة الخزر (١) • لذلك يعثر على نقود عربية ، قديمة وحديثة فى كل أنحاء روسيا ، ليس فقط فى الجهات التى ركز فيها الاســـكندناويون منشئاتهم الكبرى فى مجاورات نوفجورود مثلا ، ولكن أيضا فى داخل البلاد ، فى الأقاليم التى احتفظ فيهـــا الســـلاف بقوميتهم دون أن يختلطوا بغيرهم من الأجناس • فاذا اتخذنا النقود التى عثر عليها أساسا لاستدلالنا ، وأرجعنا بذلك الى القرن الثامن بدايات العلاقات بين روسيا والشرق ، فلنا أن نعتبر أن أكثر الفترات ازدهارا بالتجارة هى الفترة الممتدة من أواخر القرن التاسع الى منتصف القرن العاشر ، ونستنتج من ندرة هذه النقود فى روسيا واسكندناوة فى النصف الثــانى من القرن العاشر ازدياد ضعف التجــارة بالتدريج • ومن السهل معرفة أسباب هذا الانحلال لدى الطرفين • ففى هذا العصر كانت روسيا فى حـــالة انحلال ، مجزأة الى عدة امارات صغيرة ممزقة الأوصال بحروب أهلية ، ولم يكن عند الأمة المنقسمة على نفسها أية رغبة أو قدرة على مزاولة التجارة مع الأجانب • ومن جهة أخرى فان الروس ، باخضاعهم البلغار المسلمين ، وتحويلهم بالقوة الى الديانة المسيحية ، قضوا بأيديهم على الوســيط الذى كان يربطهــم بالشرق بما يعود عليهم بالخير الجزيل • ومن جانب الشرق قضى اليك خان التركمانى على أسرة السامانيين المستنيرة التى صنعت الكثير فى سبيل النهضة بالتجارة ، وكانت بداية فترة من حروب بين الأمراء الأتراك الذين خربوا بلاد ما وراء النهر • ومن تلك الآونة أصابت الأقدار السيئة ذلك الطريق التجارى الذى يصـــل الشرق ببحر البلطيق عن طريق بحر قزوين ، فظل غير صالح للاستعمال طوال العصور الوسطى ، وسوف نتكلم فيما بعد عن أسباب ذلك •

(ب) التجارة مع بيزنطة

ننتقل الى طريق آخر للمواصلات بين بيزنطة والشمال • تتحدث أقدم الأخبار التاريخية الروسية (٢) عن « طريق من القسطنطينية الى بحر البلطيق»؟

(١) المسعودى « مروج الذهب » ، الجزء الثانى ٩ ، ١١ •

(٢) Nestor, Russische Annalen, trad, allen p. Schlözer, 2e part, p. 88; of Krug, Zur Münzkunde, Russlands, p. 32. et s. ; Bonnell, Russische-livlandische Chronologie, Commentaire p. 3 et s.

ويبدأ هذا الطريق بصعود مجرى نهر الدنيبر ، ثم يبتعد عنه حتى يصل الى نهر لوفات Lovat الذى يتقدم عليه المسافر هبوطا حتى بحيرة المن Ilmen ومن هناك يتبع مجرى نهر فلخوف Volchov حتى يصـل الى بحيرة لادوجا ladoga ، وأخيرا يصل الى بحر البلطيق عن طريق نهر نيفا Neva • وهكذا يمر معظم هذا الطريق بقنوات مائية صالحة للملاحة ، ونضيف أنه يمر أيضا بأكبر مدينتين فى روسـيا فى ذلك الزمان : كييف ونوفجورود • ولا تذكر الأخبار التاريخية العصر الذى بدأ فيه ارتياد هذا الطريق ، ولكن من المؤكد أنه كان مستعملا قبل عصر رورك (حوالى ٨٦٠) • من غير المعروف أيضا البلاد التى ينتمى اليها التجار الذين استخدموه • ولا بد من التسليم لأول وهلة أنهم كانوا من الاغريق ، ذلك أن وصف هذا الطريق يبدأ دائما من الجنوب الى الشمال : غير أنه من المشكوك فيه كثيرا أن يكون الاغريق قد توغلوا الى أبعد من كييف ، وعلى أية حال فان ما تعرفه عنهم من الحوليات الروسية القديمة يسمح لنا بأن نؤكد أنهم لم يصعدوا حتى خليج فنلندة • وبدراسة النصوص ، نصل الى ملاحظة عجيبة : ذلك أن وصف الطريق مزدوج ، فهو يبدأ أولا من بلاد الفاريج Varègues أى اسكندناوة ، ويعود اليها فى النهاية • بيد أن طريق الذهاب (عبر البحار ؟) ملخص فى بضع كلمات فى حين يوصف طريق العودة بالمزيد من التفاصيل • ولكن من الواضح أن المؤلف يتحدث عن مسافرين اسكندناويين ، وليسوا من السلاف • ولم يكن أهالى الشمال يعرفون الاستقرار فى بلادهم ، بل كانوا ينجذبون بصورة عجيبة نحو الجنوب • ولما كانت روح المغامرة فى طبيعتهم ، كانوا يرحلون عن طيب خاطر طلبا للمجد والثروة فى خدمة الامبراطور فى المدينـة الكبيرة (مكلاجارد Miklagard) أى القسطنطينية (١) • وفى حملاتهم فى بحار الشمال ، كانت الحرب والتجارة غالبا متلازمتين ، وكان الفرد الواحد قرصانا وتاجرا مرة بعد أخرى (٢) ؟ كذلك فالى جانب المحارب الذى يسلك الطريق الذى وصـفته الوقائع الرسمية القديمة ليحظى بالخدمة فى القسطنطينية ، كان هناك التاجر الذى يذهب الى هناك طلبا للمنتجات الأجنبية • أما الاسكندناويون الأوائل الذين استقروا على ضفاف بحيرتى لادوجا وألمن ، ثم وصلوا الى المجرى المتوسط لنهر الدينبر وانتهى بهم الأمر الى فرض سيادتهم على هذه البقاع ، فانهم مع ذلك لم يكفوا عن مشاركة أفراد جنسهم فى ميولهم • وتمثل الحافز الذى دفعهم صوب الجنوب أولا بغارات مسلحة على القسطنطينية • ولم يكد معاونا روريك : أسكولد Ascold . ودر Dir يسيطران على كييف

---

(١) ترجع هذه العادة الى زمن سابق ، ليس ببعيد ، فى عصر روديك • أنظر :
Kunik, Die Berufung der schwedischen Rodsen, II, 329.

(٢) أنظر مثلا : Antiquités russes (par Rafn) I, 285, 431, II, 235.

حتى راحا في عام ٨٦٦ يشنان حملة سلب ونهب على الامبراطورية البيزنطية ، وتجددت هذه الغارات بكثرة حتى عام ١٠٤٣ (١) • غير ان اقدم المعاهدات المعروفة بين الاغريق والروس (سنتى ٩١١ ، ٩٤٤) تبينان أن الامور تغيرت وأن عددا كبيرا من التجار الروس كانوا يقيمون علاقات سلميه مع الاغريق ، ويقيمون فترات طويلة في القسطنطينية • وكانت الحكومة اليونانيه ترتاب فى هؤلاء « الضيوف » ، وجبهم تقريبا من أصل اسكندناوى (٢) ، أى من جنس معروف بولعة بالمغامرات والسلب والنهب ، ومن ثم كانت تشترط أن يتزود كل فرد منهم بجواز سفر موقع عليه من عاهل بلده (٣) ، وأى فرد يتقدم دون أن يكون معه هذه الوثيقة يفترض فيه سوء النية ويقبض عليه • وقد خصص لهـؤلاء التجـار حى يقع خارج أسـوار المدينة بالقرب من دير القديس ناماس St. Namas (٤) ووضعت كل تحركاتهم تحت الرقابة الدقيقة لمنعهم من اقتراف أى عمل ضار ، ولم يكن فى وسعهم الدخول الى المدينة الا من باب واحد ، ويجب عند دخولهم ثمة أن يكونوا مجردين من السلاح ، ويصحبهم شرطى يونانى ، ولا يجوز أن يجتمع أكثر من خمسين شخصا منهم ، وتهتم الحكومة بألا يقيموا وقتا أكثر مما ينبغى ، ولم يكن يصرح لهم بقضاء الشتاء فى القسطنطينية ، أو عند مصب الدينبر ، بل يجب عليهم العودة الى بلادهم قبل حلول فصل الشتاء • ومع ذلك فلا بد من القول بأن الاغريق كانوا يمنحون الروس الحائزين على ثقتهم بعض الامتيازات ،وكذلك الروس المقيمين فى القسطنطينية من أجل أعمالهم ، وتزودهم الدولة شهريا بكمية من المواد الغذائية ، وتضع تحت تصرفهم عندما يرحلون كل ما يلزمهم من مؤن أثنـــاء رحلتهم ، والأشياء الضرورية لتجهيز سفنهم • وكفلت لهم معاهدة السلام الأولى دخول منتجاتهم بلا رسوم ، ولم

---

(١) Wilken, Die Verhaeltnisse der Russen zum byzant. Reich in 9-12 Jahrh. dans les Abh. der Berl. Acad. 1829. Hist. philol. Cl. p. 75 et ss

(٢) هذا الغرض له ما يبرره ، اولا باسماء كبار الذين كانوا يرافقون سفير الغراندوق ايجور وعقدوا معه معاهدة ٩٤٤ ، انظر Kunik ، المرجع السابق ص ١٧٨ ، وثانيا بالتضحيات الرسمية التى كان يؤديها فى جزيرة Chorticy على نهد الدينبر أصحاب السفن المتجهة الى القسطنطينية ، وهى تضحيات تذكر تماما بالعادات الاسكتنافية ، وأخيرا كانت لقناطر النهر أسماء اخرى بلغة الشمال ، زيادة على الأسماء التى اطلقها عليها سكان البلد القدامى •

أنظر ، المرجع السابق ص ٤٢٢ وما بعدها ، وكذا :

— V. Thomsen, The relations between ancient Russia and Scandinavia and the origin of Russian state, Oxf. and Lond. 1877.

(٣) فرض الشرط نفسه على البلغار بموجب معاهدة ، انظر : Théophane, I, 775.

(٤) Ducange, Cpol. christ, lib IV, p. 185.

كان هذا الحى فى Stenon وكان بالقرب منه ميناء صغير ، أنظر أيضا •

— V. Unger, Guellen der byzantinischen Kunstgeschicte, le partie p. 79, 258 et s.

يرد فى المعاهدة الثانية أى ذكر لهذا الامتياز ، فلم يتجدد ، ولم يسحب (١) .
ويبدو أن الروس كانوا قبل معاهدة عام ٩١١ يدفعون عند دخولهم الامبراطورية اليونانية رسما قدره ١٠٪ ، ولكن ليس فى وسعنا أن نؤكد أن هذا الرسم كان مفروضا على البضائع المرسلة الى بيزنطة أو التى نعبر البسفور لكى تصل الى البلاد المشرفة على البحر المتوسط . ولا يتحدث ابن خرداذبة الذى استقينا منه هذه المعلومات الا عن البضائع الأخيرة (أى التى تعبر البسفور) ، غير أن شهادته لها قيمتها لانهـا تتوافق مع فقرة من كتابات قسطنطين بورفيروجنيت تقول ان « السفن الروسية تذهب حتى سوريا » (٢) . وعلى ذلك ففى القرنين التاسع والعاشر كانت سفن هذا الشعب الجرىء تتجاوز القسطنطينية وتعبر البحر المتوسط . ولعله من المناسب أن نذكر فى هذا الصدد ملاحظة للمسعودى(٣) اذ يقول ان قبيلة « الروس » الكثيرة العدد كانت تقيم علاقات تجارية مع أسبانيا وروما والقسطنطينية وبلد الخزر ، ويطلق على هذه القبيلة اسم « لودانيه » Loudaanèh . ويبدو لى أنه من الصعب التسليم مع الناشرين بأن هذا الاسم ينصرف الى اللتوانيين ، وأعتقد أنه يشير الى احدى القبائل السلافية الخاضعة لسيادة الروس الاسكندناويين ، قبيلة اللوتشان Loutchanes أو اللوزايتان Louzaniens الذين يجعل لوليل Lelewel مقامهم فى لوتسك Loutsk (على نهر ستير Styr) فى فولهيا Volhynie ، بينما يجعل شافاريك Schafarik مقامهم ناحية الشمال فى : فليكيا لوكى Vélikia-Louky (gouv de Pleskow) (٤) ويتحدث قسطنطين بورفيروجنيت (٥) المعاصر للمسعودى عن هؤلاء اللوتشان ، ولكنه يقول فقط انهم يبنون سفنا يبيعونها للروس ، ويبدو أنه ليس من المستحيل أن يحذو هؤلاء حذو الاسكندناويين،

---

(١) ذكرت المعاهدتان اللتان أبرم أولاهما الأمير أوليج Oleg فى عام ٩١١ ، وثانيتهما الأمير ايجور Igor فى عام ٩٤٤ (من حيث التواريخ أنظر كروج : (Krug, Forschungen II, 348) فى نستور Nestor ، وأثبتهما ستراهل Strahl بالكامل ، ويعطى ايورز Ewers عنهما تفسيرا قانونيا ممتازا ، كذلك اسهم كروج كثيرا فى ايضاح كل ذلك .

(٢) ابن خرداذبة فى : éd. Barbier de Meynard, dans le Journ. Asiat. — VI S. T. V, p. 514.

ـ أنظر كذلك : Constant. Porphyrog., De adm. imp. p. 180; éd. Bonn. —

توضح هذه الفقرات أيضا الطريق الذى كانت تسلكه نقود الاقاليم الجنوبية فى العالم الاسلامى وهى تتوغل أحيانا فى شمال أوروبا .

(٣) مروج الذهب ، الجزء الثانى ، ١٨ .

(٤) Lelewel Géogr, du moyen age III p. 48 Schafarik Slawischew Althenthümer, trad allem p. Mosig von Aehrenfeld II, 113.

(٥) Constant. Porphyrog. de Adm. imp. p. 75.

فيقومون بدورهم برحلات طويلة ، وهذا شيء ميسور لهم لأن بلدهم يتصل بالبحر الأسود بطريق مائي . ويعتقد فريهن (١) أن الاسم الصحيح لودانيه ، ويشير بذلك الى الأهالي المقيمين على ضفاف بحيرة لادوجا (التى قامت بجوارها مدينتا لادوجا القديمة ، ونوفجورود) : فهل توجد رواية أخرى صحيحة بدرجة كافية تسمح بهذا الفرض ؟ لست أجرؤ على أن أؤكد ذلك .

حسبنا هذا الاستطراد ، ولنعد الى العلاقات التجارية بين الروس والاغريق . يبدو أنه من الثابت أن الروس فى عصر قسطنطين بورفيروجنيت (حوالى ٩٥٠) كانوا يخطون كل عام مجرى نهر الدينبر ويصلون الى القسطنطينية بمحاذاة الساحل الغربى للبحر الأسود ، ولم يكن ينثيهم عن رحلتهم هذه شيء ، لامشاق الا بحار على نهر الدينبر الذى يعترضه على سبع نقاط مختلفة سدود صخرية ، ولا غارات القراصنة البتشنج Petchénègues على النهر الأدنى(٢) . ومن جهة أخرى كان الاغريق يفهمون دائما المزايا التى توفرها لهم هذه التجارة مع الروس . وفى المعاهدة التى عقدها الامبراطور يوحنا تزيميسيس Jean Zimiscès عام ٩٧١ مع الأمير سفيتوسلاف Svoctoslav أقر الأول بالمزايا القديمة التى كانت ممنوحة للتجار الروس فى امبراطوريته (٣) . ويدل النزاع المسلح الأخير الذى نشب بين الاغريق والروس فى عام ١٠٤٣ بنوع خاص على أن عددا كبيرا من الروس قد استفاد من هذه الاعفاءات وزاول العمل فى القسطنطينية : فقد حدث أن احدى الشخصيات الروسية الكبيرة لقيت مصرعها فى احدى هذه المعارك الكثيرة التى كانت تحتدم فى القسطنطينية بين الروس والاغريق ، ومن ثم اندلعت الحرب ، ومن أول الاحتياطات التى اتخذها الامبراطور أن وزع على الأقاليم التجار الروس المقيمين فى القسطنطينية ووضعهم بذلك تحت رقابة شديدة (٤) .

وفى وسعنا أيضا أن نحدد على وجه التقريب السلع التى كانت موضوع التجارة بين الروس والاغريق . كان الروس يجلبون الى القسطنطينية فراءهم ، والعسل والشمع اللذين ينتجهما نحلهم ، ثم ما عندهم من أسرى الحرب ، وكانوا يبيعونهم بيع الرقيق(٥) . والمسألة الأكثر أهمية بالنسبة لنا هى معرفة ما كانوا يحملونه معهم ، وتزودنا معاهدة ايجور Igor بجزء من الاجابة ، اذ تتضمن حظرا فرضه الاغريق على الأقمشة الثمينة : فقد نص فيها على أنه لا يجوز للروس

(١) ابن فضلان ، ص ٧١ ، ١٧٤ .

(٢) Constant. Porphyrog. I. c. p. 74 et ss., 69 et s.

(٣) Leo Diac. éd. Bonn. p. 156.

(٤) Cedren., II, 551.

(٥) Nestor, ed. Schloezer, IV, 100; V, 140; Const. Porphyrog. I. c. p. 77.

أن يشترواً أقمشة حريرية (١) يزيد ثمنها على خمسين «صولا» ذهبيا Sols (٢) ، فاذا حدث استثناء من هذه القاعدة كان على موظف الجمارك الذى صرح بذلك (٣) أن يدمغ الاقمشة بطابعه · وكانت هذه الاقمشــة الثمينة مطلوبة كثيرا فى بلاد الشمال ، وكان الخزر ، والترك ، والروس وســائر البرابرة يطلبونهــا سدادا لخدماتهم بالحاح شديد كان يعتبره قسطنطين بورفيروجنيت غير مقبول لأن هذه الأقمشة الثمينة كانت مخصصة لحفلات البلاط الامبراطورى ، والأعياد الرسمية بكنيسة القديسة صوفيا · (٤) · واذا صرح فى بعض الحالات الاستثنائية للتجار الروس بالخروج ببعض هذه الأقمشة الحريرية الثمينة ، فذلك لأنهم كانوا عادة يشترون كميات كبيرة من أنواع أخرى شائعة ·

والواقع أننا نجد فى الوقائع الروسية القديمة ، فى كل أوان اشارة الى حرائر القسطنطينية · وتذكر الوقائع أيضا مع هذه الأقمشة ، من الأشياء المستوردة عادة من القسطنطينية الذهب والفضة (٥) · ويلاحظ ابن فضلان أن الروس كانوا يشترون « بروكار » من صنع الاغريق · ونضيف الى هذه السلع التجارية أصــنافا أخرى نجدها مذكورة فى عبارات يضعهــا نسطور Nestor على لسان الغرندوق سفيتوسلاف Svoetoslav : « أرسل الينا الاغريق حرائر وذهبا ونبيذا وفاكهة من كل نوع · » (٦) وبالتأكيــد كانت القسطنطينية . وخرسون تصدران أيضا الى بلاد الروس توابل آسيا ، وبخاصة الفلفل (٧) ·

وتذكر المصادر أيضا الأسواق الرئيسية فى روسيا ، والتى تنتهى اليها المنتجات الواردة من اليونان · ويقول قسطنطين بورفيروجنيت ان أولئك الذين كانوا يمارسون الملاحة التجارية على نهر الدينبر والبحر الأسود كانوا يأتون من مناطق واقعة خارج امارة كييف التى يعتبرها روسيا الحقيقية ، من نوفجورود ، وسمولنسك ، ولوبتش ، وتشير ينجوف ، وفيشيبجراد ، الا أن كييف كانت مركز تجمع السفن · ومن جهة أخرى ، نرى فى معاهدة ايجور أن التجار الروس المجتمعين تحت أسوار القسطنطينية ، كانوا منقسمين الى مجموعات تبعا للأقاليم ، والغرض من هذا الانقسام تيسير توزيع المؤن شهريا ، وتذكر الوثيقة المشار

---

(١) بالروسية بافولوكى Pavoloki ، ويناقش كردج طويلا

(٢) هذى هى القيمة التى يذكرها كروج

(٣) Schloezer, Nestor IV, 67.

(٤) Constant. Porphyrog. De adm. p. 88.

(٥) انظر مثلا Nostor الجزء الرابع ، ٤٤ ·

(٦) Schloezer, V. 140.

(٧) Porphyrog. p. 72.

اليها أولا أهالى كييف ، ثم أهالى تشـــير ينجوف ، وأخـيرا أهالى بيريجاسلاف Perejaslave ، ولم يذكر اسم أية مدينة أخرى · وهكذا يذكر الكاتب الاغريقى أولا سكان نوفجورود ، بينما نذكر المعاهدة سكان كييف · نرى ما سبب هذا الاختلاف ؟ هذان المركزان السياسيان كانا فى الوقت نفسه مركزين تجاريين . فبعد أن نشأت كييف نشأة متواضعة . أصبحت فى عام ٨٨٢ عاصمة المملكة ، ونهضت سريعا حتى بدت وكأنها تريد أن تنافس القسطنطينية ، وكانت البضائع ترد اليها بوفرة هائلة ، اقتضى الأمر انشاء أسواق فى ثمانية مواقع مختلفه بالمدينة (١) · أما نوفجورود التى كانت قوية قبل وصول روريك ، وآهلة بعدد كبير من السكان الذين يمارسون التجارة فانها صمدت بعزيمة فى مجال المنافسة، ودام رخاؤها القـائم على أسس متينة الى ما بعد ازدهـار كييف العابر ، وكانت المدينتان واقعتين على الطريق الكبير الممتد من الشمال الى الجنوب والذى وصفنا مساره فيها قبل تبعا للوقائع الروسية القديمة · وكان لكييف ميزة اسـتقبال البضائع اليونانية من مصدرها مباشرة ، ولكن نوفجورود كانت تتلقىأيضا بضائع يونانية ، وعلاوة على ذلك كانت متصلة بالطرق النهرية لنهر الفولجـا ودفينا Dvina . وكانت التجارة تسلك هذه الطرق منذ العصور التاريخية القديمه . كما يشهد بذلك نسطور (٢) ، ثم ان موقعها كان قريبا من خليج فنلندا مما يجعلها اسهل منالا من كييف بالنسبة الى التجار القادمين من الغرب طلبا لمنتجات روســيا وبيزنطة · وكما قيل بعاليه كان الاسكندناويون يذهبون كثيرا الى نوفجورود للتجارة : فاذا أراد ملك من ملوك الشمال أن يحصل على أقمشة حريرية أو قرمزية أو منســوجات مطرزة بالذهب ، أو أدوات للمائدة مشغولة بمهارة فنية ، فانه يبعث بتجارة الى جارداريك (روسيا) ، الى سوق هولمجارد (نوفجورود) الحافلة دواما بكل أنواع السلع (٣) · ومنذ أن أنشىء بهذه المدينة مستودع لمنتجات الصناعة اليونانية ، أصبح فى مقدور تجار البلاد الاسكندناوية أن يوفروا نفقاتالسفر الىبيزنطة· حقا ، لقد تحدثآدم دو بريم Adam de Brème عن أهالى شلزويج الذين كانوا يتنافرون « حتى اليونان » ، ويذكر بورنهولم انها مرسى متوسط للسفن المتجهة «صوب بلاد الأغريق»(٤) ، ولكن من الخطأ أن نظن أن بيزنطة كانت بالفعل المكان الذى يتجة اليه العديد من تجار البحر البلطى · كان لآدم دوبريم فكرة غامضة عن امكانية الذهاب من اسكندناوة الى

---

(١) Adam Brem. dans Pertz. ss. p. 7, 313; Ditm. Merseburg, ibid, III, 871.

(٢) Schlözer, II, 90-92.

(٣) Rafn, Antiquités russes, I, 295, 432. II, 119; cf. I, 317, 426.

من المشكوك فيه أن تكون الجدائل الذهبية التى توجد أحيانا فى بلاد الشمال بجوار النقود البيزنطية واردة من الاقليم نفسه · أنظر Worsaoe ، المرجع السابق ، ص ٥٥ ·

(٤) Adam. Brem. Op. Cit., p. 368, 378.

القسطنطينية بالطرق المائيــة كل الوقت ، والشيء الذى كان يجهله هو انه لابد لذلك من صعود الانهار وهبوطها وعبور بحيرات . وكان يتصور انه يمكن الوصـــول الى اليونان بالملاحة على بحر البلطيق • ومع ذلك يقول فى فقرات أخرى ، وهذا صحيح ان روسيا تشــكل حد البحر البلطيق ، وان غاية ملاحى شلزويج هى روسيا لا اليونان(١) والشيء الذى أوقعه فى الخطأ هو أن الروس قد تحولوا الى ديانة اليونان ، ومن ثم خلط بين روسيا واليونان ، بل وصل به الأمر الى ان يصف كييف بأنها أجمــل جوهرة فى اليونان(٢) وكان الكتاب يخلطون بين كلمة جارداريك Gardarike التى تطلق على روسيا فى لغتهم ، وكلمة جريكلانـــد Grikland أو جيركلاند Girkland وهى اســم اليونان la Grèce ، ويخلطون أكثر من ذلك بين النعتين جيروسكر Gerdskr (روسى) ، وجريسكر grisks أو جيسكر giskr (يونانى) (٣) • وفى الواقع كان التجار الاسكندناويون الذين يذهبون فعلا الى اليونان منذ العصر الذى تحدثنا عنه استثناء من الحقيقة الواقعة • وليس فى الامكان أن أذكر سوى مثل واحد ، ذلك هو شخص يدعى جريس سومنجسن Gris Soemingsson كان يعيش فى حوالى عام ١٠٠٠ ويذهب الى القسطنطينية لانجاز أعماله • (٤)

وفيما يختص بالروس ، كانت علاقتهم مع الأغريق عن طريق نهر الدنيبر أكثر دواما من علاقتهم مع العرب عن طريق نهر الفولجا • وكان لوحدة الدين أثر كبير فى ذلك ، فقد كانت القسطنطينية هى التى حولت الروس الى المسيحية وكان القساوسة يتلقون منها سلطاتهم ، كما كانت الكنائس تأخذ منهــا لوازمها وحلياتها • غير أنه كلما تماثل سكان روسيا مع الأغريق من الوجهة الدينية ، وتفوق العنصر السلافى الأكثر عددا على العنصر الاسكندناوى ، تراخت الصلات التى كانت ، تربط الروس بالاسكندناويين فى عهد الوثنية • وتلقى الاسكندناويون المسيحية بدورهم ، ولكنها جاءتهم من ألمانيا ، فى صورة كاثوليكية رومانية ، ومن ذلك الحين ازداد انجذابهم لألمانيا التى تسكنها أمة متقدمة، من جنسهم نفسه •

---

(١) Adam, Brem, Op. cit., p. 373, 312.

(٢) Ibid. p. 313.

(٣) Kunik, op. cit., p. 145 et s.; Rafn, op. citè, I, 295 not. a.

(٤) Voyez la Saga d'Alaf Tryggveson dans les Antiq. russ. II, 113.

٤ ـ المانيـــا

اكتشفت أيضا نقود عربية في حفريات أجريت على طول الشواطىء الجنوبية للبحر البلطي ، ولكن لا يبدو أنها كانت متقاربة ووفيرة في أية جهة مثلما كانت في الشمال وفي الشرق ٠ وقد وجدت كميات كبيرة نسبيا من هذه النقود في مكلنبورج ، وبومرانيا ، وبروســيا الغربية ٠ ومن الأقاليم التي تستحق الذكر في هذا الخصوص ، تلك المجاورة لمصب نهري الأودر والفستولا ، وكذا السواحل الممتدة بين هذين النهرين ٠ وقد تمت الاكتشافات بنوع خاص على طول الأنهار ، وامتدت أحيانا بعمق في داخل الأراضي : مثال ذلك ، بصعود مجرى نهر الفستولا تم اكتشاف كبير في مونسترفالد بالقرب من مارينفردر ، وعلى نهر الأودر ، عثر على نقود حتى مجاورات فرنكفورت التي نعتبر ، خطأ ، أقصى موقع في الجنوب جرت فيه مثل هذه الاكتشافات (١) ٠ وهنا أيضا حقيقة ايجابية تدل على الصلة الوثيقة بين هذه الاكتشافات وبين المواصلات التجارية : فالمكتشفات أكثر عددا في المواقع الميسرة للملاحة البحرية والنهرية منها في الداخل ٠ ففي بومرانيــا وجدت أكثر المكتشفات وفرة في جومنيه Jumne ، المبناء الكبير على البحر البلطي ، وفي مجاوراته (٢) ٠ وفي العصر الذي دفنت فيه هذه الكنوز ، لم يكن الألمان قد توغلوا في هذا المناطق التي كان يسكنها وقتئذ سلافيون (صقالبة) في الغالب ، وأقلية من البروسيين ، ولم يكن لأي منهم صلات مباشرة بالعرب ؛ ولم يكن عندهم ما يقدمونه للشرقيين سوى سلعتين : الفراء والكهرمان ، وكان الكهرمان مطلوبا في الشرق منذ قديم الزمان (٣) ٠ وتبين أن البلاد التي يكتشف فيها أقل قدر من النقود العربية هي بالذات ساملاند Samland التي يكثر فيها الكهرمان بنوع خاص ، وبروسيا الشرقية بنوع عام ٠ ولا بد أن جزءا صغيرا جدا من النقود المكتشفة قد استعمل في سداد ثمن البضائع التي صدرت بالفعل الى الشرق ، ويدل وجود هذه النقود فقط على أن السلاف والبروسيين كانوا يبيعون منتجاتهم للشعوب التي تستخدم النقود العربية ، ولذلك لم يكن عليهم الا أن يذهبوا الى السويد أو روسيا ، ولا شك أن تجارهم كانوا يزورون هذين البلدين ٠ ولنذكر فقط اسم التاجر الساملاندي فيدجوت Vidgaut الذي قام برحلات كبيرة في روسيا في بداية القرن الثاني عشر (٤) ، وكذلك السفن

---

(١) Ledebur, op. cit., p. 44-70; Minutoli, p. 2?-40.

(٢) أنظر القائمة الممتازة للنقود التي عثر عليها (ومعها خريطة) في بوميرانياكوهن ٠ Kühne, les Baltiche Stuien, 27, 203 et ss.

(٣) Sawelijew, dans Erman's Archiv, VI, p. 98.

(٤) Rafn, Antiquités russes II, 134 et s.

السلافية والساملاندية التى كانت تأتى فى زمن آدم دو بريم نلقى مراسيها عند بيركا Birka ، وهى من أغنى موانىء السويد(١) : ونحن نسلم بأن هذين المثالين مقتبسان من عصر لاحق لم يعد فيه النقد العربى سارى المفعول على شواطىء البحر البلطى ، ولكن ينبغى لنا ، بالنظر الى عدم وجود مصادر قديمة بشأن موضوعنا هنا أن نبحث عن الأدلة فى وثائق أكثر حداثة • ومن جهة أخرى ، كانت السفن التجارية الدانمركية المبحرة من شلزويـج تمضى لتزور البلاد السلافية التى تشرف على البحر البلطى ، وكذا ساملاند البروسية (٢) • ومن شلزويج نفسها انطلق الرحالة المشهور فولفستان Wulfstan فى أواخر القرن التاسع تاركا الى يمينه بلاد الوند Wendes ، فبلغ مجاورات مصب الفستولا ، وكانت غايته تروسو Truso وهى ميناء بروسيا القديمة ، اكتشفت أطلاله حديثا بروسكمارك Preuschmark (أى سوق البروسيين) أو بالأصح بروسنماركت Prussenmarkt على مسافة ليست ببعيدة عن الضفة الشرقية لبحيرة دراوسن Drausen بالقرب من « البنج» Elbing (٣) • وفى كثير من الأحيـان كان الدانمركيون أو غيرهم من الاسكندناويين الغربيين المسافرين الى روسيا يرسون فقط فى البلاد السلافية أو البروسية ، ولعلهم اذا وجدوا هناك بضائع يشحنونها ليبيعوها فى روسيا ، فانهم يدفعون ثمن هذه البضائع بنقود عربية ان لم توجد نقود أهلية • وعلى ذلك فان منتجات السواحل الجنوبية للبحر البلطى يمكن أن يحملها الى روسيا اما السلاف أو البروسيون أنفسهم ، واما الدانمركيون ، ومن ثم تنتقل عند الضرورة الى الشرق • والثابت أن السفن التى تحمل هذه المنتجات تعود بالتالى وهى تحمل سلعا روسية ، وربما أيضا أشياء شرقية • ومن المحتمل اذن أن يكون عدد من الحلى التى اكتشفت بجانب النقود العربية شرقية المصدر ، ويبدو لى أنه لكى يمكن التيقن من أن شيئا ما « شرقى بالتأكيد » ـ الأمر الذى يفعله « لوديور » بسخاء ـ يتعين البدء باجراء دراسات مقارنة تؤدى الى تحديد السـمات المميزة للحلى العربية أو البيزنطية أو الشمالية فى أقدم فترة من العصر الوسيط •

وبخلاف هذا الطريق البلطى الذى يربط السلاف بروسيا ، ومنها الى الشرق بوساطة الروس وبلغار الفولجا ، يمكن أن نتتبع الى داخل روسيا ولتوانيا وبولندا خطا يتكون من ودائع النقود الشرقية ، ويبدو أن هذا الخط يدل على طريق يرى عبر البلاد السلافية • وقد رأينـــا فى الواقع أن ابن خرداذبة يؤكد

---

(١) Ed. Pertz ss. VII, 305.

(٢) Adam. Brem. loc. cit., p. 312, 368.

(٣) هذى هى الخلاصة التى انتهى اليها نيومان Neumann بعد بحوث متعمقة أجراها فى البنج Elbing

أن المسافر الذى يرحل فى أيامه من غرب أوروبا (من أسبانيا أو فرنسا) يستطيع دائما ان يصل برا عبر ألمانيا والبلاد السلافية الى عاصمه الخزر (اتيل) ، ومن هناك الى ما وراء نهر الاجزوس (بلخ) عن طريق بحر قزوين ، ويواصل رحلته حتى الصين عن طريق بلاد التاجازجاز Tagazagaz فى آسيا الوسطى (١) .
ومن الواضح ان هذا ليس مجرد احتمال فى ذهن الكاتب العربى ، ولكنه يقصد بوصفه هذا الطريق بالخطوط العريضة التعريف بطريق برى كان كبار التجار اليهود الذين كان دورهم كوسطاء بين الشرق والغرب شديد الاهمية فى ذاك الأوان يستخدمونه الى جانب طرق بحرية فى القسم الأكبر من رحلتهم. فاذا كان هذا الطريق الذى يخترق البلاد السلافية مفتوحا لليهود ، فلا بد أن يكون من باب أولى مفتوحا للسلاف ، والثابت أنهم كان ينتفعون به ، على الاقل حتى مشارف العالم العربى ، وهذا هو ما يدل عليه المنشئات التى أقاموها فى عاصمة الخزر ، والتى تحدثنا عنها من قبل .

بيد أن السلاف الغربيين لم يكونوا على صلة بالعالم الشرقى وحده ، اذ كانوا يستطيعون الاتصال بالعالم الاغريقى ، أو على الأقل بمنتجاته ، ولذلك كان لديهم طريقان ، أحدهما عبر البحر البلطى وينتهى عند نوفجورود ، والثانى طريق برى أقصر ينتهى فى كييف ، والراجح أنه كان مطروقا أكثر من الأول (٢). وفى النصف الثانى من القرن التاسع ومستهل القرن العاشر نشأت على مصب نهر الأودر مدينة سلافية كانت آنئذ مزدهرة : مدينة جومنيه Jumne (٣) وهى سوق كبيرة الأهمية . ولا شك أنه رغم الحكايات الخرافية التى يرويها ستورش Storch ، فان منتجات الهند وشرق آسيا لا بد أن تكون نادرة الوجود بهذه المدينة ، أما منتجات بيزنطة فلم تكن كذلك ، وليس معنى هذا أن الاغريق كانوا يأتون هناك ومعهم منتجاتهم ، اذ لا يجوز أن نفسر تفسيرا حرفيا ما يقوله آدم دو بريم : فهو يذكر الاغريق حين يحصى الأمم التى تتردد على هذا المكان (٤) ، ولكن الواقع أنه يطلق هذه التسمية (أى الاغريق) على كل من يعتنق الديانة اليونانية ، ومنهم قبل كل شىء الروس ، وبأيدى هؤلاء كانت تمر البضائع اليونانية .

وما دامت منتجات الامبراطورية اليونانية ، وربما منتجات آسيا تصل الى سكان الساحل الجنوبى للبحر البلطى ، فليس ثمة ما يمنع من أن تتولى

---

(١) Ed. Barbier de Meynard, p. 515.

(٢) Lelewel, Tableau historique du commerce des slavons, dans sa Munismatique du Moyen - Age, 3e part. p. 98 et s.

(٣) Historisch - statistisches Gemaelde des russichen Reichs, IV, 45 .

(٤) Pertz, ss. ,312

التجارة توزيعها على الألمان . وفى عهد شارلمان كان نهرا الب وسال Saale يكونان بوجه عام الحد الفاصل بين الشعوب الالمانية والشعوب السلافية ، وقد عين شارلمان غربى هذين النهرين بعض المدن التى يجب أن تجرى فيها المبادلات بين الأمتين : باردويك ، شيزلا (١) ، مجدبورج ، وارفرت (٢) . ولسنا نعرف أنواع السلع التى كان السلاف يستوردونها من هناك ، فالمصادر صامتة فى هذا الخصوص . وفى القرون التالية عبرت جموع الألمان حاجز نهر الالب اما محاربين أو مبشرين أو مستعمرين ، ولم يتخلف عنهم التجار . وثمة ساكسون ترددوا على جومنيه Jumne واستقر بها بعضهم ، رغم أن هذه المدينة كانت وثنية ، وكانت ممارسة الطقوس المسيحية علانية محظورة ، وكان هؤلاء يأتون بالأرجح من مجدبورج ، أو باردويك ، أو هامبورج . ويقول آدم دو بريم ان المسافة من هامبورج أو من نهر الب الى جومنيه تبلغ ثمانية أيام (٣) ترى ما هى البضائع التى كان الألمان يأتون بها من المستودع السلافى الكبير ؟ هل كانت من منتجات الشمال فقط ، وهل كان معها سلع بيزنطية أو أسيوية ؟ لا تنبئنا المصادر بشىء من ذلك .

ولننتقل الى وسط ألمانيا ، فنجد هناك منذ زمن مبكر طريقا تجاريا يمتد من ثرنجيا Tharinge الى مايانس Mayence (أو ماينتس) يستخدمه السلاف (٤) . هل لنا أن نعتبر هذا الطريق امتدادا غريبا لطريق مستخدم للتجارة العالمية ، يجتاز البلاد السلافية من طرف الى آخر ؟ هل استخدم هذا الطريق لنقل منتجات الشرق الى ضفاف الراين ؟ أو كان سكان ثرنجيا (الذين قد يوجد بينهم الكثير من السلاف) هم بالأحرى الذين استخدموه للذهاب الى مايانس ، المركز التجارى العام للمنطقة ، طلبا للأشياء التى يحتاجون اليها ؟ هذه حقيقة يبدو أنها تثبت وجود علاقات تجارية بين مايانس والشرق الأقصى لقد زار العربى الاسبانى أبو بكر محمد (المولود عام ١٠٥٩ فى طرطوسا ، ومن ثم لقب بالطرطوشى ، وعرف بهذا اللقب) زار ذات يوم مايانس ، غالبا فى احدى رحلاته الكبيرة التى قام بها فى شبابه عبر البلاد المسيحية ، ورأى فيها نقودا فضية من سمرقند ، سكت فى الأعوام من ٩١٣ الى ٩١٥ باسم الأمير السامانى نصر الثانى ، ابن أحمد . ومن الصعب التسليم بأن هذه النقود التى ضربت فى بداية القرن العاشر لم تزل سارية المفعول فى مايانس فى أواخر القرن الحادى عشر ، لذلك فمن المحتمل أن الطرطوشى لم يجدها فى السوق كعملة متداولة ، وانما عرضها

---

(١) أنظر فى خصوص هذا المكان :
Les Mechlin - Burgische Jahrbuecher XXXVI, 1871, p. 107 et ss.

(٢) Capitulaire, Dec. 805, dans Pertz, Leges, I, 33.

(٣) Adam. Brem, dans Pertz, ss. VII, 312.

(٤) Vita Starmi, éd. Pertz, ss. 11, 369.

عليه بعضهم باعتبارها تحفة بالنسبة الى طابعها العربي . ومع ذلك فان هذه الواقعة قد تحمل على الظن بأن مايانس اشتركت ، على الأقل من بعيد ، وفي زمن قديم في تجارة البلاد البلطية مع روسيا والشرق ، وهي تجارة جلبت الى أوروبا كميات كبيرة من النقود السامانية . نضيف الى ذلك أن هذه الواقعة فريدة في نوعها ، ذلك لأنه لم يعثر فيما وراء نهر الب على أثر نقود عربية ، ومن ثم ينبغي مراعاة الحذر في هذا الخصوص . وفي الامكان اعطاء تفسير آخر : ذلك أنه ربما يكون بعض الروس القادمين الى ألمانيا لأسباب غير التجارة قد أحضروا معهم هذه النقود وتركوها هناك . وتذكر الوقائع الألمانية الكثير من البعثات الروسية الرسمية التي وفدت على البلاط الألماني في غضون القرنين العاشر والحادي عشر (٩٥٩ ، ٩٧٣ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤٢) . ومع أنها لا تذكر ما اذا كانت هذه البعثات قد مرت بمدينة مايانس ، فاننا نعلم أن الغرندوق ايسيسلاف Isoeslav قد أتى من كييف الى مايانس نفسها في عام ١٠٧٥ يلتمس معونة الملك هنري الرابع ، وأنه أتى معه بكمية من الأشياء الثمينة . حدث هذا بالضبط في الوقت الذي كان فيه الطرطوشي يتجول في أوروبا ذلك، لأنه ابتداء من عام ١٠٨٣ استقر في مصر وبقي فيها الى آخر عمره . أليس من المحتمل أن تكون الدراهم التي رآها في مايانس قد تركها هناك الغرندوق الروسي ؟ ليس هناك ما يمنع من ترجيح التفسير الثاني على الأول ، ومع ذلك فليس ثمة خطأ في الافتراض بأن مايانس كانت على صلة بالشرق ويقدم المصدر العربي الذي زودنا به رواية الطرطوشي الدليل على صحة هذه الصلة لأنه يضيف قائلا : « من العجيب أن توجد في هذه المدينة الواقعة في أقصى الغرب وفرة من التوابل التي لا تصادف الا في الشرق الأقصى ، كالفلفل ، والزنجبيل ، والقرنفل ، والخولنجان ، وكلها حاصلات صادرة من الهند . » . ولو كان الجغرافي القزويني (الذي استعرنا منه هذا البيان) قد علم من بعض معاصريه أن هذه التوابل كانت موجودة في مايانس لكان لدينا البرهان على أنه في العصر الذي كانت فيه التجارة مع الشرق أكثر نشاطا ، كان بعض هذه التوابل يجلب الى هذه المدينة ، الأمر الذي يثير الدهشة لأن القزويني حرر كتابه في عام ١٢٦٣ ، وأعاد كتابته في عام ١٢٧٦ (١) ، ولكن يغلب أن يكون قد استعار معلوماته بخصوص التوابل من الطرطوشي ، وهذا ينبئنا بشيء أكثر أهمية ، ذلك أن مايانس كانت قبل الحروب الصليبية تتلقى من الهند توابل من كل صنف . غير أن هذه التوابل لا يمكن أن تصل الى هناك بالطريق نفسه الذي تصل به النقود السامانية ، ويمكن أن نؤكد أنها كانت تأتي عبر البحر المتوسط

---

(١) Wuestenfeld, Kazwini, Goett. gel, Anz. 1343, p. 350 et s.

على سفن فينيسية (١) ٠ ومع ذلك لا يصــح أن نتصــور أن دور أهالى مايانس فى هذه التجارة كان سلبيا محضا ٠ ويرى Gfroerer (٢) بحق أن بعض كبار تجار مايانس فى عصر الملوك «الأوتونيين» Othons الألمـــان كانوا يذهبـــون الى القسطنطينية لقضاء بعض الأعمال التجارية ، وهذى هى الطريقة الوحيدة لتفسير التصرف الذى أجراه الملك أوتو الأول فى عام ٩٤٩ ــ وهو تصرف يبدو غير عادى فى أية ظروف ــ بأن عين سفيرا فى بلاط بيزنطة تاجرا ثريا من تجار مايانس اسمه ليوتفريد Liuttrid (٣) ؛ ومر ليوتفريد هذا بالبندقية فى طريقه من مايانس الى القسطنطينية ، لذلك يمكن التسليم بأن منتجات الشرق كانت تتبع نفس الطريق فى ذهابها من القسطنطينية الى مايانس ٠ ولا يسعنا أن ندخل فى مزيد من التفاصيل فى هذا الموضوع ٠ وفى العصر الوسيط كان على المسافر الذى يريد الذهاب من ايطاليا الى ألمانيا أن يتبع بوجه عام الطريق الرومانى القديم المحاذى لبحيرة « كوم » (كونو) Côme (٤) ويقطع خط الجمارك عند كيافينا Chiavenna (٥) ، ويجتاز نهر بريجاليا Bregaglia ، وممر سبتيمر Septimer (٦) ويمر بكوار Coire وينتهى عند بحيرة كونستانس Constance وهناك تطور نشاط تجارى منذ زمن مبكر فى موقعين : رورشاخ Rorschach فى الجنوب الغربى ، وكونستانس فى الطرف العلوى من البحيرة (٧) ، وكانت مدن بحيرة كونستانس طوال العصر الوسيط كله تغذى علاقات نشيطة مع مدن الراين العلوى والأوسط ٠

بقى علينا أن نلقى نظرة خاطفة على جنوب شرقى ألمانيا ، ونبحث عما اذا لم يكن هناك قبل الحروب الصليبية تيار تجارى بين الشرق الأدنى والدانوب ٠ والمعروف أن شارلمان بدأ فى شق قناة بين التموهل Altmuehl وردنتز Rednitz وهو مشروع لم يتم ، ونسب اليه البعض رغبته فى تسهيل المواصلات بين الشرق والغرب ٠ وفى العصر الذى بدأت فيه الأعمال ، كان يعد العدة لحملة جديدة ضد « الأبر » (الأفار Avars) ، وكان قد انتصر عليهم منذ قليل فى حملة أولى ،

---

(١) Froehn... dans les Mém. de l'Acad de St. Pétersb., Série VI; Sciences politiques II (1834) p. 87-99.

(٢) Gregor VII, p. 212.

(٣) Liutprandi antapodosis, dans Pertz, SS. III, 338.

(٤) Annal. Fuld., dans Pertz. ss. I, 412.

(٥) Mohr, Cod. dipl. I, 97 et s.

(٦) Mohr. ibid, I, 58 et s., 155, 396 et s.

(٧) Neugart, Cod. dipl. Alamann, no. 729, 820.

ليس من شك فى أن رهبان سان جال St. Gall كانوا يستوردون من بحيرة كونستانس التوابل ويخلطونها بنبيذهم ، والفلفل الذى يتبلون به الاسماك والصلصه ٠

ولكنه كان نصرا قصير الأمد لا يسمح له بالقضاء على هؤلاء الأعداء المرهوبين ٠ والثابت أن الامبراطور ربط النهرين بعناة صناعيه بقصد ضمان سرعه ترليز جيشه وسهولة نقل مؤنه ٠ ومن المحتمل أن يكون قد فكر فى تشجيع التجارة الى جانب غرضه المباشر ، غير أنه من المبالغه أن ننسب الى هذا المشروع المدى البعيد الذى أشرنا اليه قبلا (١) ٠ كان شارلمان بالتأكيد واسع الأفق ـ وسوف نرى ذلك فيما بعد ـ يدرك قيمة طريق يضع امبراطوريته على صلة بالشرق ، ولكنه يدرك أيضا حقيقة الوضع السياسى للبلاد الواقعة على مجرى الدانوب الأدنى ، ويعلم أنه لن يكون فى الامكان لزمن طويل اعداد خدمة منتظمة للبضائع على هذا الطريق ٠ وفى شمال الامبراطورية اليونانية كان بلغار الدانوب يحتلون القطر كله ، ولا يمكن القول بأنهم كانوا على درجة متأخـرة من المدنيـة لا تتيح لهم الاشتغال بالتجارة بل انهم على العكس من ذلك كانوا كاخوانهم على حوض الفولجا يحبون التجارة ، وقد أقاموا مع الاغريق منذ زمن موغل فى القدم علاقات تنظمها معاهدات (٢) ، وكان فى القسطنطينية تجار من بنى جنسهم مستقرين فى قواعد ثابتة ، وكانت أعمالهم مزدهرة لدرجة أثارت غيرة التجار الاغريق ٠

وفى أعقاب مجموعة من المؤامرات ، أجبروا على نقل متاجرهم الى سوق ثانوية فى سالونيك ، وأدى هذا العمل الى اندلاع الحرب بين الملك البلغارى سيميون والامبراطور لاؤن السادس (٣) ٠ وكان يحتمل مع ذلك أن تسير الأمور على هذا المنوال رغم الحروب الكثيرة التى كانت من وقت لآخر تقيم العراقيل فى سبيل التجارة ٠ غير أنه بصعود مجرى الدانوب ، يصل المرء الى سهول بانوينا Pannonie التى كان يحتلها الأفار (الأبر) ، وهم شعب من الفرسان الرحل احتفظوا حتى النهاية بطباعهم الغليظة (٤) ، وكدسوا كنوزا هائلة فى قصرهم الدائرى الحصين ، ولم تكن التجارة هى التى زودتهم بهذه الكنوز ، ولكنها كانت ثمرة ما كانوا يقترفونه من قطع الطرق وفرض الجزى على جيرانهم الضعاف ٠

---

(١) فى طبعة حديثة ، أيد السيد اناما ستيرنج بقوة هذا الفرض :
Mr. V. Inama Sternegg, (Deutsche Wissenschaftsgesch. I 435 et s.)
وفى رأى السيد سمسون أن الامبراطور لم يكن يتغيا سوى تسهيل العمليات العسكرية :
— Simon (Jahrbücher des deutschen dReichs unter Karl d. Gr. II, 55).
ويسلم كل من Riezler, Waitz ان القناة كانت ، الى جانب الغرض العسكرى منها ، تستخدم لنقل البضائع بوجه عام ٠

(٢) Théophanes, éd. Bonn, 1, 775.
كان وسطاؤهم التجار اليونانيون فى المدن الساحلية ببنطس pont التى انتزعها الملوك البلغار من الأباطرة البيزنطيين ، مثل : Anchiales, Mesembria

(٣) Théophanes contin. p. 357; Leo Grammaticus, p. 266 et s.; Georgèus Hamartolus, éd. Muralt, p. 771; Théodosius Melitenus, éd. Tufel (Monum. saecul. acad. Monac. 1859) p. 186; Cedren II, 254.

(٤) Bûdinger, Oesterr, Geschichte I, p. 61 et ss. 131.

وتضطرنا المعلومات التى تزودنا بها المصادر الجديرة بالثقة الى أن نعتبر هؤلاء القوم غير قادرين على مزاولة التجارة • وثمة رواية نقلهـا البلغار الى الاغريق ، وسجلها سويداس Suidas (١) ، وهى ذات سمة أسطورية ، تنسب ضياع هؤلاء القوم الى عدة أسباب منها أنهم أصبحوا جميعا تجارا • ويلاحظ المؤلف أن أخلاقهم فسدت . وجعلوا يغشون بعضهم بعضا مما يدل بوضوح على أن الأمر هنا لم يكن تجارة دولية لبضائع الشرق فيها مكانتها ، ولكنه مجرد تجارة بين أفراد الآفار ، موضوعها الغنائم • وفى عام ٧٩٦ غزا جيش الفرنجة بلادهم وأعمل فيها الخراب والدمار ، وجنى منها غنائم هائلة ، من ذهب وفضة وحلى ، غير أنه ليس ثمة شىء من هذه الأشياء يدل حتما وتبعا لمصدره على وجود علاقات تجارية مع الشرق • فالمعاطف الحريرية التى أشار اليها المؤلف كانت على الأرجح جزءا من الجزية التى يدفعهـــا لهـم الأباطرة البيزنطيون (٢) • وبعد هذه الكارثة انهار الآفار سريعا • وفى مطلع القرن التاسع ، ارتاد بعض التجار الألمان من راتسبون Ratisbonne ، ولورخ Lorch بلادهم (٣) ، ومن المشكوك فيه أن يكونوا قد وجدوا فيها شيئا من منتجات الشرق • ولم يتحسن الحال من الوجهة التجارية حين استقر المجر فى أواخر القرن نفسه فى سهول بانوينا ، اذا كان لنا أن نتحدث عن الاستقرار بالنسبة الى شعب اجتاح كعاصفة هوجاء نصف أوروبا ، وغطاها بالخرائب وجثث القتلى • كان المجـر لا يعرفون أية مدنيـة ، ويجهلون كل شىء حتى الزراعة ، مرهوبين عن بعد ، وكأنهم آفة مخيفة ، ولم يكن عندهم ذكاء تجارى (٤) أو أى ميـــل للتجارة ، أو أية فكرة للعمل وسطاء فى التجارة بين الشرق والغرب • ولم يتسن للتجارة العالمية أن تشق لها طريقا عبر البلاد التى يرويها الدانوب والتايس الا حين انجز الملك القديس اسطفان St. Etienne (توفى عام ١٠٣٨) العمل الحضارى العظيم الذى خلد اسمه : فكان لترحيبه بقدوم الأجانب من كل أمة وطبقة ليستعين بهم فى نشر الحضارة فى شعبه ، الصرامة التى استخدمها فى قمع اللصوصية ، والسهر على أمن الطرق أثره فى تشجيع الحجاج على المرور بهنغاريا فى طريقهم الى القدس ، ومن ذلك الحين كان الحجاج القادمون من فرنسا

---

(١) Ed. Bernhardy, I, p. 1017.

(٢) Sinson, op. cit. 11, 104, 106 et s. 123 et s.

(٣) Capitulaire Caroli Magni, in Theodoris villa promulgatum, Dec. 805 dans Pertz, Leges, I, 133.

(٤) زعم البعض أنه فى عهد الملك الميروفانجى داجوبير Dagobert رؤى بعض المجر فى أسواق دنيس بالقرب من باريس ، ولكن هذا خطأ ترتب على قراءة غير صحيحة •

انظر أيضا : Pardessus, Diplomata, Chartoe, etc. II, 4. —

وايطاليا يفضلون هذا الطريق لأنه يجنبهم السفر عن طريق البحر (١) • وليس هناك ما يمنع من الاعتقاد بأن هذه البواعث نفسها كانت تحمل التجار الاجانب على الاكثار من زيارة البلد • وثمة فقرة فى قانون بتاريخ ١٠٩٢ (٢) تثبت انه كان فى هنغاريا فى تلك الآونة مسلمون مقيمون بها اقامه دائمة ، ويتعيشون من تجارتهم • ومن جهة أخرى استفاد التجار المجريون من العلاقات التى وثقها الملك القديس اسطفان مع مختلف البلاد الأوروبية • ويبدو أنه قد نشأ فى القسطنطينية فى ذلك العصر مستعمرة هنغارية ، لأن الكنيسة الفخمـــة التى شيدها هناك الملك القديس اسطفان لم تكن بالتأكيد مجرد صرح رائع يشهد بالبذخ (٣) • وقد يخطر على البال أن نوعا من الزهو لم يكن بعيدا عن الشعور الذى ألهم الملك القديس فكرة اشهار اسمه بتشييد منشآت مقدسة فى المراكز المسيحية الرئيســية ، ولا يمكن انكار أن بناء كنيسة القسطنطينية كان تكملة عملية للمنشــآت المماثلة التى أقيمت فى روما والقدس : لقد أراد أن يكفل للهنغاريين الذين يؤدون الحج فى موطن المسيحية أو فى الأماكن المقدسة وسائل للتنوير ومأوى مضيافا فى آن واحد ، ومن ثم كان تشييد كنيسة رسمية فى روما ، وديرا فى القدس • ولكن القسطنطينية لم تكن مكانا يقصده الهنغاريون للحج ، بل كانت على الأكثر مرحلة فى الطريق الى القدس • فلأى غرض اذن كان بناء كنيسة فى تلك المدينة ، ان لم يكن للوفاء بالمطالب الدينية لدى التجار المقيمين بها ؟ لسوء الحظ ، ساءت الأحوال بعد وفاة القديس اسطفان ، وأدت المنافسات بين الطامعين فى خلافته ، والحروب المتواترة ضد الألمان الى عوده المملكة الى حالة الفوضى والوثنيــة القديمة بعض الوقت (٤) • وكان على الملك أندريه André (١٠٤٥ ــ ١٠٦٠) والملك لادسلاس Ladislas (١٠٧٧ ــ ١٠٩٥) أن يعيدا الأمن الداخلى والنظام الى نصابهما وثمة واقعة تعطينا فكرة عن اهتمام

---

(١) Glaber, Rodulfus hist., éd. Pertz ss. VII, 62; Guillaume, comte d'Angoulème 1026-1027, d'après la relation d'Adhémar, dans Pertz SS. IV, 145 et s.; enfin, en 1059-1059, le fameux annaliste Lambert von Hersfeld ; voy. ses Annales dans Pertz, ss. V. 159, 160.

(٢) Ladisalai regis decretum I, cap. 9. dans Endlicher, Monumenta Arpadiana, p. 327.

(٣) Vita major Stephani regis, cap. 12, dans Pertz ss. XI, 235.

(٤) لدينا اثبات لا يمكن انكاره للعلاقات القائمة بين هنغاريا والقسطنطينية ، وبينها وبين العالم العربى ، ذلك هو حلة القداس (ثوب بلا كمين) التى منحتها فى عام ١٠٣١ الملكة جيزيل زوجة القديس اسطفان لكنيسة سانت مارى ستالفسنبرج Stahlwissenbourg والتى ما زالت محفوظة فى أوفن Ofen بمثابة معطف للتويج ، وهى من حريــر أرجــوانى ، بيزنطيـــة التصميم ، موشاة بخيوط ذهبية بيد جيزيل نفسها ، ثم الحرير البنفسجى الضارب الى الحمرة المبطن للياقة ، وعليه رسوم لحيوانات غريبة ، ورسوم الهلال والنجوم ذات الرؤوس السبعة ، وكل ذلك يشهد بأصلها العربى •

المسافرين قبل هذين الملكين بتجنب اقليم هنغاريا ، وذلك أن الملك أندريه نفسه قد نازعه الشك في نوايا جماعة من الحجاج عبروا مملكته في عام ١٠٥٤ بقيادة ليتبرت Lietbert أسقف كامبرى ، وذلك كما يقول كاتب سيرة ليتبرت لانه « لم يكن أحد تقريبا يسلك هذا الطريق » (١) . ولكى نوجز فى بضع كلمات تاريخ الهنغاريين قبل الحروب الصليبيه ، نقول اننا نعلم الان أنه فى غضون القرن الأول الذى أعقب استقرارهم على ضفاف الدانوب ، لم يكن هناك فترة طويلة واحدة من الهدوء تسمح للتجار الأجانب بالقيام برحلات متتابعة عبر البلد ومعهم منتجات بيزنطية أو شرقية ، كذلك لم تكن طباعهم ترضخ لمقتضيات هذه التجارة العابرة ، ولا يمكن أن تقوم لهذه التجارة قائمة الا فى ظل نظام مستتب ، ولم يستقر النظام الا فى القرن الحادى عشر . وفى حوالى منتصف هذا القرن اضطربت البلاد من جديد بمجموعة من القلاقل الداخلية والخارجية تضر حتما بنمو التجارة . وليس من النادر أن نجد بعض الكتاب يستبيحون لأنفسهم ، فى مجال تاريخ التجارة أن يؤكدوا أن العلاقات بين ألمانيا وايطاليا كانت قبل الحروب الصليبية غير نشيطة ، وأن ألمانيا كانت تتلقى منتجات الشرق عن طريق الدانوب . هذا الرأى لا يصمد أمام المناقشة . وعلى أية حال فانى لا أستطيع أن أجد فى هذا العصر مجموعة من السنوات ، مهما كانت قليلة . سمحت فيها الحالة الداخلية لهنغاريا بتعزيز هذه التجارة العابرة . ولست أنكر أنه قد تبدت هنا وهناك لحظات كان من المحتمل أن تجرى فيها بعض المحاولات فى هذا الاتجاه ، ولكنى أؤكد أن تجارة الشرق الأدنى لم تسلك أبدا هذا الطريق بصورة مستمرة فى العصر الذى نتحدث عنه .

ومع ذلك كان هناك طرق أخرى من الشمال الى نهر الدانوب عبر البلاد السلافية ، تنتهى الى الاقليم الألمانى دون أن تمر بالاقليم الهنغارى ، ولدينا وثيقة كتبت فى رافلستتن Raffelstetten بين عام ٩٠٣ و ٩٠٧ تعرفنا بالنظام الجمركى فى القسم من الدانوب الواقع بين باسان Passan وموترن Mautern (٢) ونرى فى هذه الوثيقة أن الألمان كانوا يترددون على أسواق جيرانهم سلاف موراقيا ، وأن التجار السلافيين القادمين من روسيا وبوهيميا كانوا يمرون بمكاتب الجمارك المتناثرة على طول نهر الدانوب . يقول النص :

Sclavi qui de Rugis vel de Boemanis mercandi causa exeunt

ويتطلب هذا النص بعض الايضاح . فال Rugi هم فى رأى دوملر Duemmler ودودك Dudik موراقيون ، وهم فى رأى بودنجر Buedinger روجيون Rugiens من البحر البلطى ، وهم روس فى رأى فيتز Waitz وكيميل Koemmel ، وريزلر Riezler . ويبدو لى أنه من غير المقبول أن يذكر

---

(١) Vita Lietberti, Acta SS. Boll. 5 Juin. p. 507.

(٢) Pertz, Legg. III, 480 et ss.; Urkundenbuch des Landes ob der Enns, II, 54.

المورافيون فى وثيقة واحدة تارة باسم « مورافيون » (Moravi, Marahi)
وتارة باسم آخر (روجيون Rugiens) ولا أظن أيضا أن أحدا فى مستهل القرن العاشر وعلى ضفاف الدانوب كان يحتفظ بذكرى ظهور الروجيين ظهورا عابرا فى عصر الغزوات الكبرى ، كما لا أظن أن أحدا أطلق على المورافيين اسم هذه العشيرة القديمة التى ربما صاروا خلفاءها على الحوض المتوسط لنهر الدانوب وسواحل البحر البلطى بعيدة جدا بحيث لا يتيح المجال هنا للحديث عن الروجيين الذين أطلقوا اسمهم على جزيرة Ruegen • غير أنه لا يبدو لى مستحيلا أن يكون الروس قد ظهروا كثيرا على ضفاف الدانوب ، وفى تكملة رجينو Regino (اضافة فى ٩٦٠ — ٩٦٢) ، ذكروا بالذات باسم روجى Rugi • فهل كان هؤلاء التجار السلاف القادمين من روسيا يحضرون معهم منتجات الشرق ؟ الاجابة على هـذا بالنفى ، على الأقل تصديقا لما ورد بهذه الوثيقة ، لأن المؤلف لا يذكر سوى الخيل والعبيد والشمع الذى هو من أكثر المنتجات وفرة عند السلاف وهم من كبار مربى النحل •

وعلى هذا لم تكن الأقسام الألمانية من حوض الدانوب تتلقى أيا من منتجات الشرق عن طريق البلاد السلافية ، وتتلقى القليل جدا منها عن طريق هنغاريا ، وكان الجزء الأكبر من هذه المنتجات يصل من الجنوب عن طريق ايطاليا • ولم تزل الطرق القديمة التى شقها الرومان عبر جبال الألب موجودة من ناحية التيرول وكارنثيا ، وكذا من ناحية سويسرا ، لحسن الحظ لم يستقر على هذا الطريق الطويل أى من العشائر الهمجية الرحالة التى يمكن أن تعرقل التجارة أو تقضى عليها تماما • وبالغ بعض المؤرخين فى هذا الأمر الى حد ادعائهم بأن الأنقاض التى تخلفت عن جماعة من قدامى التجار الرومانيين ظلت محفوظة فى راتسبون Ratisbonne حتى منتصف العصر الوسـيط (١) ، ولكن بامعان النظر ، يتبين أن هذه الجماعة ليست سوى فرد واحد من أصل رومانى ، يحمل اسما ألمانيا ، ويعيش فى القرن التاسع ، ونصادف أمثاله من الأصل نفسه هنا وهناك ، فى جنوب ألمانيا ، ولكن بين سكان الريف أكثر من سكان المدن (٢) • ونجد فى بعض وثائق القرون التالية شارعا من شوارع راتسبون مذكورا باسم inter Latinos وبالألمانية Walhengasse (Gasse der Woelschen) ، والجدير بالملاحظة أن هذا الشارع موجود فى المدينة الجديدة وأن كلمة Vilchov لا تشير الى نواة من الرومان القدامى مندمجة بالطبقة البورجوازية ، ولكن الى عدد من أسر التجار الذين يتكلمون باللغة الرومانية أو الايطالية أو الفرنسية ، آية ذلك أن تسمية inter Latinos قـد استبدل بهـا فى احـدى هذه الوثائـق عبـاره

(١) Gemeiner, Ursprung der Stadt Regensburg, p. 22, 47, 54.

(٢) Watz, Deutsche Verfassungageschichte, II; 177 et s

inter Gallicos (١) • نضيف الى ذلك انه اذا ثبت أن الذين كانوا يزاولون التجارة بين ايطاليا وراتسبون لم يكونوا تجارا من أصل رومانى ، فان هذه التجارة كانت مع ذلك حقيقة لا مراء فيها • فتبعا لاحدى المأثورات الثابتة ، كان أهالى راتسبون هم أول من نردد على فينيسيا (البندقية) من الألمان لأعمال تجارية : ولا بد أن هذه المأتورة قد نبعت من بعض الحقائق • ويبدو كذلك أنه منذ بداية القرن العاشر ، كانت مدينة أوجزبرج تقيم علاقات تجارية مع ايطاليا وتتلقى منها منتجات شرقية • ترى من أى طريق جاءت أقمشة « صور » الأرجوانية التى أهداها ادالبيرون Adalbéron أسقف أوجزبرج عام ٩٠٨ الى دير سنت جال St. Gall (٢) ، ان لم يكن عن طريق ايطاليا أو بالراجح فينيسيا ؟ وكان من المعروف لدى الكافة فى هذا العصر أن الألمان يأخذون من ايطاليا منسوجاتهم الحريرية وتوابلهم •

٥ ـ بريطانيا العظمى

لم تكن بريطانيا فى الفترة التى سبقت الحروب الصليبية منقطعة الصلة بالشرق كل الانقطاع ، وكان الاسكندناويون من جهة والألمان من جهة أخرى وسطاءها « فى التجارة » • وبحفر الأرض ، هنا وهناك ، فى انجلترا وايرلندا تكتشف نقود شرقية ، أحيانا مع عقود أو حلى فضية أخرى ، دليلا على أن تجارة الشرق الأدنى كانت تسلك طريق الشمال لتمد نشاطها الى هناك • والواقع أن هذه النقود لا يمكن أن تصل هناك الا بعد أن تجتاز اسكندناوة فى السفن الاسكندناوية التى ترتاد سواحل بحر الشمال بنفس السهولة التى تعبر بها السفن البحر البلطى ، والتى تجذب الى بريطانيا العظمى المنشئات الضخمة التى كان يبنيها النورمانديون • وكان للبحرية الاسكندناوية التفوق فى بحر الشمال ، وبخاصة فى عصر حملات الفيكنج حتى لم يبق للانجليز السكسونيين أى مجال للاسهام فى التجارة اسهاما نشيطا • وقد عثر فى الحفائر التى أجريت بالبلاد الاسكندناوية على كميات ضخمة من النقود الانجلوسكسونية ، دلالة على وجود تجارة نشيطة جدا كان للاسكندناويين حرية التصدير فيها • ولما كانت النقود موجودة غالبا فى السويد ، وبنوع خاص فى جزيرتى أولاند وجتلاند (٣) ، فانا نستنتج من هذه الظاهرة أن الاسكندناويين الشرقيين هم

---

(١) Gemeiner, op. cit., p. 22.
كان لهيجل Hegl الفضل فى ايضاح أوجه الخطأ فى هذه الاخبار القديمة •
(٢) Trudp Neugart. Cod dipl. Alamann. no. 667.
(٣) Hilderbrand, Das heidnische Zeitalter in Schweden, p. 184.

بالأخص الذين كانوا يزاولون التجارة مع الانجليز السكسونيين ، وهم الذين كانوا على صلة بروسيا ، وعن طريقها بالشرق ٠

ومن جهة أخرى كان سكان ضفاف الأنهار التى نصب فى القسم الجنوبى من بحر الشمال بحكم موقعهم هذا يميلون بطبيعة الحال الى توثيق العلاقات مع انجلترا ٠ وأقدم وثيقة تتبت وجود تجار الماں فى انجلترا هى قانون من لندن يرجع الى عهد الملك اينلرد Ethelred (٩٧٨ — ١٠١٦) (١) ففى نظير الامتياز الممنوح لهؤلاء الألمان التجار بمزاولة أعمالهم فى سوق لنـدن ، كان عليهم أن يدفعوا مرتين فى السنة ، فى عيد الميلاد وعيد القيامة قطعتين من جوخ رمادى ، وقطعة من جوخ بنى ، وأربعة أرطال من الفلفل ، وخمسة أزواج من القفازات ، وبرميلين صغيرين من الخل ٠ وكثيرا ما نجد فى العصر الوسيط كمية معينة من الفلفل مفروضة كأتاوة عينية على التجار أو ســـواهم من الأفراد ٠ ومما يسترعى الاهتمام التسليم فى عصر مبكر كهذا العصر بأنه من المعتاد أن يكون لدى التجار الألمان فلفل فى مخازنهم ٠ وليس فى وسعنا أن نفترض أنهم لم يكونوا يستوردون الى انجلترا الا الكمية الضرورية من الفلفل لأداء الضريبة ، ومن ثم فليس ثمة خطورة فى التسليم بأنهم اعتادوا أن يســتوردوا الى لندن الفلفل والتوابل بوجه عام ٠ ولسنا نملك بخصوص المدن التى كان يأتى منها هؤلاء التجار الألمان سوى بعض التخمينات، وأكبر احتمال أنهم أتوا من تييل Thiel على نهر الوال Waal ، ودفنتر على نهر ايسل Deventer sur l'Ussel ، ولييج على ميز Liège sur la Meuse وكولونى على الراين ، وبريمن على الفيزر Weser (٢) وقد رأينا أن ما ينس كانت من قبل ، وفى هذا العصر مستودعا كبيرا للتوابل ٠ هناك اذن ما يبرر الاعتقاد بأن توابل الشرق كانت تشحن فى السفن من نهر الراين فى طريقها الى انجلترا ٠

وفى غير ذلك ، كان ملوك انجلترا وكبار رجال الكنيســة الانجليزية ، حين يذهبون الى روما ، يحضرون معهم عند عودتهم أقمشــة بيزنطية الأصـل اشتروها (٤) ، أو تلقوها كهدايا ٠

---

(١) Worsaoe. Dis Dänen und Nordmänner in England, Schottland, und Irland, trad. allem. p. Meissner (Leipzig, 1852) p. 67-71.

(٢) Ancient laws and institutes of England, ed. Thorpe, p. 127. Hansisches Urkundenb., I, no. 2.

(٣) Lappenberg, Urkundl. Geschichte des hansischen Stahlhofs in London, p. 5 ; Hirsch, Kaiser Heinrich II, p. 346 et s.

(٤) Inguphus. dans Fell, Hist angl. script., I, 60; Beda, Hist., abbat Wiremith, dans son Hist. eccl., éd. Smith (Cantabr. 1722), p. 297.

٦ ـ فرنسا

رأينا أنه قد توطد بين فرنسا الميروفنجية ومسيحيى مصر وســوريا تجارة نشيطة جدا ٠ وكان سكان شواطىء البحر المتوسط قد اعتادوا هذه الصلات ، ولم تبطلها الفتوحات العربية ٠ ومع ذلك فمن المحتمل أنهم كفوا منذ الفترات الاولى من العصر الميروفنجي عن تلقى خمور غزة وصربتا Sarepta (صيدا؟) (١) وكان هناك لذلك باعث آخر ؟ فالعرب كانوا فى حميتهم الدينية الأولى قد حرموا زراعة الكروم فى الأرض السورية ، ولكن بعد ذلك تلقت فرنسا ، كما كانت تتلقى من قبل المنتجات الصادرة من البلاد العربية أو التى تمر بها ٠ وتبعا لوثيقة رسمية من الملك الميروفنجى شلدريك الثانى Childéric II عام ٧١٦ (٢) ، كان دير كوربى Corbie يحصل من ايرادات جمارك فوس Fos دخلا سنويا يشمل ، ضمن أشياء أخرى فلفلا ، وقرنفلا ، وقرفة ، ونباردين وتمرا وورقا Carta tomi (٣) ٠ وكانت قناة فوس القديمة تيسر بنوع خاص اتصالات المدن الواقعة على المجرى السفلى لنهر الرون بالبحر المتوسط (٤) يمكن اذن أن نستنتج مما قلناه آنفا أن منتجات آسيا وأفريقيا فى مستهل القرن التامن كانت تصل الى دولتى الرون فى سفن كانت ترسل على الأرجح من مدن جنوب فرنسا ٠ وفى هــذا العصر لم تكن التوابل نادرة الوجــود فى فرنسا ، ويتضح ذلك من مرسوم صادر من الملوك الميروفنجيين على أن لموظفى المملكة المسافرين فى مهام خاصة بوظائفهم الحق ، فى كل أنحاء البلد ، فى التمتع بكل رعاية ، وفضلا عن ذلك فى الحصول على كمية من السلع الكمالية لتتبيل مأكولاتهم ومشروباتهم (٥) ٠ من هذا نرى أن كبار رجال المملكة كانت لديهم هذه العادة ، وكان فى الامكان تزويدهم بالتوابل من جهــات غير المدن الكبرى ٠

---

(١) Sidon. Apoll. Carm., XVII, 15; Grég. de Tours, VII, 29.

(٢) Pardessus, Diplomata, Chartae etc., 11, 309.

(٣) هذه ورقة بردى مصرية ، يسميها العرب « قرطاس » ، وبعد الفتح بقيت صناعة ورق البردى فى أيدى عمال مسيحيين ، ودهش الغربيون الذين استعملوا هذا الورق حين اكتشفوا وهم يفحصون النقوش هذه الكلمات : « الأب ، الابن ، وروح القدس » ، ولم تختف هذه الكتابة الا فى بداية القرن الثامن ، واستبدل بها شعار اسلامى ٠

انظر Sauvaire, Matériaux pour servir à l'hist de la numism et de la métrol musulm. Journ. asiat. Série VII, T. XIV (1879), p. 458 et ss. — Desjardius, Géogr. de la Caule romaine, I, 199 et ss.

(٤) كذلك فان موقع فوس Fos (les Martigues) مبين على الخريطة ٠

(٥) Formuloe Marculfi, lib. I, cap. 11 dans les Mon. Germ. hist. legum, sectio V, p. 49 : Pardessus, dipl. l. c.

وانا لنجد التوابل فى العصر الكاروفنجى مستعملة بقدر أكبر اما لتتبيل الأطعمة (١) أو لتطييب النبيذ ، أو كعناصر فى تركيب الأدوية (٢) • ومع أن هذه النوابل كانت مرتفعة التمن للغاية (٣) • فان الكتير من الناس ، وبخاصة رجال الكنيسة كانوا يستمتعون بها ، ولم يكن الأطباء يترددون فى ادخالها فى عقاقيرهم حتى تزيد فعاليتها •

وفى عهد شارلمان تضاعفت العلاقات بين فرنسا والشرق • وكان اتساع امبراطوريته ، والشدة التى استخدامها لحفظ الأمن والنظام فى جميع أنحائها ، واهتمامه بنمو الرفاهية العامة من العوامل المشجعة للتجارة • واذا كان هو نفسه قد أعرض عن صنوف الترف فى الطعام والشراب والكساء (٤) ، فانه كان يقدر الأشياء الجميلة التى يمكن أن توفرها التجارة • يحكى أنه كان يتحدث ذات يوم مع سفير الامبراطورية الشرقية فأبدى له أسفه الشديد من أن الامبراطوريتين يفصلهما البحر ، الأمر الذى يحول بينه وبين الاشتراك مع الاغريق فى ثروات الشرق (٥) • واذا كان هذا هو فكره ، فمن الطبيعى أن يحبذ اقامة العلاقات مع الشرق الأدنى • والمعروف أنه أول من بعث السفراء الى الخليفة هارون الرشيد ، وأن الخليفة أجابه مرحبا بصداقته (٦) • وتوثقت بين الأميرين علاقات ودية قائمة على تقدير متبادل ، هذا فى الوقت الذى كان فيه شارلمان يحارب عرب أسبانيا • غير أن هذا الموقف لم يضع العراقيل فى الصلات القائمة بين الأميرين ، بل انه كان فى صالحها ، لأن قادة عرب أسبانيا لم يكونوا سوى متمردين فى نظر خليفة بغداد • وكان الغرض من المفاوضات التى كلف باجرائها مبعوثو شارلمان فى بلاط الخليفة هو بالتأكيد الأماكن المقدسة فى بيت المقدس ، وحماية الحجاج • ومنذ أن توج شارلمان امبراطورا اعتبر نفسه زعيم المسيحية ، ومن واجبه بهذه الصفة أن يهتم بمصير

---

(١) Cibi pigmentati. «Theodulf. episc. Aurelian ad. Carolum regem, V, 198, éd. Dümmler, p. 4 et ss.

(٢) Alcuin, Epp. éd. Jaffé, dans la Biblioth. rer. german., VI, 593; Constitutio Ansegisi, abb., dans Pertz, ss., II, 300.

(٣) « Indica pigmentorum genera magno emenda pretio» Alcuin, ib. 628 et s.

(٤) Einhardı vita Caroli cap. 23, 24, dans Pertz ss. II, 455 et s; Monachus S. Gall., ib. 761.

(٥) Monach. S. Gall. I. c. p. 743.

« لا يفكر شارلمان بالمره فى تجارة برية بين بلاد نائية »

(٦) كانت هدايا الخليفة الى الامبراطور تشمل حيوانات نادرة (فيلة وقرودا) ، وقطعا ميكانيكية ، وآلات موسيقية ، ونجف ، وأقمشة حريرية ، وخيمة بستائرها ، وأدوية ، وتوابل ، وعطورا (بلسما ، ونادرين) •

مسيحيى الشرق ، وبأولئك الذين يسافرون الى هناك للحج (١) • وفى عام ٧٩٩ أقر بطريرك القدس آراءه بأن اعترف له علنا بحق الرعاية على المدينة والاماكن المقدسة ، وبعد قليل أقره الخليفة بنوع ما عاهلا على البلد ، بقى أن نوضح كيف استطاع شارلمان ، بلا أسطول خاص أن يعزز مطالبه فى بلد بعيد الى هذا الحد ، ولكن المسلمين كانت لديهم فكرة عالية عن قدرته ويعلمون علاقاته الودية بالخلفاء ، وكان هذا كافيا لايقافهم عند حدهم : وتمتع كل من الحجاج والتجار بالأمن والسلام ، وجمع الكثير من المسافرين فى أشخاصهم صفة الحاج والتاجر ، وأقام لهم شارلمان مستشفى فى القدس ، وكان هذا عملا عظيما من أعمال البر ، وقبالة هذا المستشفى سوق مباح لكل انســان أن يعرض فيها سلعة فى مقابل أجر قدره قطعتان من الذهب فى السنة (٢) • فضلا عن ذلك لم تكن المصالح التجارية فى نظر الامبراطورية الا فى المرتبة التانية بين كل ما أداه فى الشرق ، ومن المشـكوك فيه أن يكون لهذه المصالح أى تأثير فى اختيار الهدايا التى كان يرسلها الى الخليفة • ويذكر راهب القديس جال St. Gall أنه كان من بين هذه الهدايا أقمشة صوفية من فريزية Frise من أصناف وألوان منوعة ، وأن الامبراطور يعلم أنها نادرة وثمينة فى الشرق (٣) • حقا ، لا يضيف المؤرخ هذه الملحوظة الا ليثبت أنه فى الامكان القول بأن قيمة هذه الأقمشة الصوفية تمثل هدية تسر الخليفة ، وربما يتهمنا البعض بأننا نبالغ فى القراءة بين السطور حين نسبنا الى الامبراطور الرغبة فى تشجيع تصريف أقمشة « فريزية » الصوفية فى الشرق بأن يجعلهـا أولا مقبولة فى بلاط الخليفة (٤) • وعلى أية حال فان ملاحظة المؤرخ تعرفنا بأنه كان فى الامكـان فى ذلك العصر القديم تصدير بعض المنتجات المصنوعة فى الغرب الى الشرق ، وأن تحظى هناك بالتقدير • ومن المعروف أن التجار الفريزيين كانوا يجوبون ألمانيا وفرنسا وانجلترا ، ولكن لا ينبغى لنا بالمرة أن نتساءل عما اذا كانوا

(١) يكفى اثباتا لذلك أن نذكر المعونة التى أرســلها الى المسيحين الفقراء فى القدس ، والاسكندرية ، والقيروان • انظر — Einhardi, vita Caroli, cap. 27; ibid. p. 457.
انظر أيضا — Annales Laurissenses majores, ad an. 800, dans Pertz, ss. I, 186.

(٢) Bernardus monachus francus, dans Tobler et Molinier, Itinera hierosolymitana, I, p. 314.

اخذ صاحب القصيدة البطولية الفرنسية القديمة بشــأن رحلة شارلمان الى القدس والقسطنطينية أوصافه للقدس من « أخبار الحجاج » فى القرن الحادى عشر ، ويتحدث عن هـذه الســوق التى يتردد عليها تجار يتكلمون لغات عديدة ، ويستوردون أقمشة حريرية وصوفية ثمينة ، وقرفة ، فلفلا ، وتوابل ، ونباتات طبية • واذا كان لنا أن نسترشد بشهادة شاعر ، فان هــذه الفقرة تثبت أن القدس كانت على علاقة بالبلاد النائية جدا بآسيا ، انظر •
— L'éd. de ce poème par Koschwitz, 1883, p. 13, V. 209-212.

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٥٢

(٤) Gfrörer, Gregor VII, vol. VII, p. 200 ; Sugenheim, Geschichte des deutschen Volks, I, 124.

يحملون بأنفسهم الى الشرق أقمشتهم الصوفية اذا كانت مرسيليا أو البندقية تقوم لهم بدور الوساطة ، فهذى أسئلة لا قبل لنا بالاجابة عليها ·

وليس من شك فى أن التفاهم السلمى والودى الذى استقر بين شارلمان والعاهل الشرقى كان حقيقا بأن يعزز تقدم البحرية التجارية فى الغرب (١) ، غير أنه لا يصح لنا أن نتصور أنه قد أعد فى ذلك العصر خدمات بحرية منتظمة بين ثغور جنوب فرنسا وبين الشرق الأدنى وثمة كاتب من الدرجة الثانية ادعى فى قصة محلية (٢) أن البرجوازيين فى مدينة ليون كانوا يجتمعون منذ عام ٨١٣ مع برجوازيى مرسيليا وأفينيون ، ويسافرون معهم الى الاسكندرية مرتين كل سنة ويعودون منها ومعهم توابل الهند وعطور بلاد العرب ، وتنتشر هذه السلع بالتالى فى فرنسا وألمانيا عن طريق نهر الرون وسائر الطرق المائية ، وهذا زعم باطل ، لم يقبله دوجينى Deguignes (٣) الا بتحفظ ، ورفضه هيرين Heeren بحق فى مجال الحكاية الخرافية ، ولم أكن أعتقد انه من الواجب التنويه به لولا أن عالما معروفا ذكره أخيرا من جديد (٤) · ولم تنتظم مثل هذه الخدمات الا فى عصر الحروب الصليبية · علاوة على ذلك فان من بين المدن الثلاث المذكورة بعاليه ، مرسيليا وليون وأفينيون ، كانت الأولى هى أكثرهن التى تكفل خدمة بحرية منتظمة مع الاسكندرية ، ولم يكن ذلك فى العصر الكارلوفنجى ، وانما فقط بعد عدة قرون ·

وفى عهد خلفاء شارلمان انفتح لفرنسا عصر ملىء بالكوارث · ففى حين راح النورمان ينهبون ويدمرون السواحل الشمالية ، وتوغلوا فى الأنهار التى تروى هذه المناطق ، ظهر قراصنة عرب على سواحل بروفانس واستولوا على حصن فراكسينتوم Fraxinetum (la Garde Frainet) ومن هذا الموقع الحصين تقدموا فى داخل البلاد ينهبون ويخربون قرابة قرن من الزمان · وكان كل حاج يجتاز جبال الألب ذاهبا الى روما عرضة للوقوع فى أيديهم ، وكل سفينة

---

(١) يبدو أن مدينة آرل Arles كان لها مزية توثيق العلاقات بالعرب ، وقد وجد بها الأسقف تيودلف دورليانز Théodulphe d'Orléans فى عام ٨١٢ نقودا عربية بكميات كبيرة ، ولآلىء من الشرق ، وأصوافا مختلفة الألوان ، عربية الصنع · والمطلوب معرفة ما اذا كانت هذه النقود والسلع تأتى من عرب الشرق أو من عرب اسبانيا ، الأمر الذى يبدو لى أكثر احتمالا · وعلى أية حال كان يأتى من أسبانيا جلود قرطبة التى ذكرت مع سائر الأشياء · انظر فى ذلك :

— Theodulfi Epise. Aurel, versus contra judices, V. 171-174, 211 et s. éd. Dummber, 1. c. p. 498 et s.

(٢) Pollin de Lumina, Abrégé chronologique de l'histoire de Lyon : Lyon 1767, p. 31.

(٣) Mém. de l'Acad. des Inscriptions, XXXVII, 475.

(٤) Peschel, Das Zeitalter der Entdechungen, p. 8 ; én Saivator, Hist. des échelles. du Levant. Paris 1857, p. 28.

تجرؤ على الخروج من أحـد الثغور فى الجنوب الشرقى والابحـار الى الشرق الأدنى تقع فى قبضتهم حتى قبل أن تصل الى أعالى البحر ، ذلك لأنهم كانوا يسيطرون على الجزر كلها تقريبا ، وأنشأوا أوكارا للقرصنة • ولم يكن من الصعب أن نعتقد فى هذه الظروف أن التجارة البحرية بين فرنسا والشرق الأدنى توقفت تماما ، لذلك كان الحجاج الفرنسيون الذين يريدون الذهاب الى القدس يفضـلون الذهاب الى ايطاليا ، وركوب السـفن من أحد موانيها ، وينجون بذلك من عرب الغرب •

ولا يبدو مع ذلك حتى فى هذه الفترة أن فرنسا قد انقطعت عنها تماما منتجات الشرق • فبقالو كامبريا Cambria مثلا كانوا يتزودون بوفرة من هذه المنتجات ، اذا كان صحيحا أن دير كورى Corie استطاع أن يحصل منهم على كل التوابل المبينة فى مذكرة مكتوبة على ما يبدو بين عام ٨٢٢ و ٩٨٦ •

والغالب أن تجارا ايطاليين هم الذين زودوا فرنسا بمنتجات الشرق ، أما باجتيازهم • هم أنفسهم البلد (١) ، واما بتسليمها الى باعة بالتجزئة ، من الفرنسـيين •، وقـد ادعى البعض أنه كان فى ليموج فى بدايـة القرن الحادى عشر مستعمرة حقيقية للتجار البنادقة ، ولكن هذه الواقعة مشكوك فى صحتها ، ولا يعتمد أولئك الذين يرددونهـا الا على صحة كتاب لم يطبع ولم يعرف صـاحبه ، يرجع الى عام ١٦٣٨ (٢) ، ويبحث فى « آثار ليموج »

٧ ـ ايطاليا

ليس هناك بلد فى أوروبا اسـتورد منتجات الشرق بكميات ضخمة وأشكال شديدة التنوع مثلما فعلت ايطاليا ، ولذلك بواعث كثيرة : فهى أولا ، وبسبب موقعها الجغرافى كان لها صـلات كثيرة مع الشرق ، وخاصـة مع الامبراطورية البيزنطية ، وثانيا لأن الامبراطورية اليونانية كانت تملك ايطاليا السفلى ، ورافينا ، والبندقية ، وكان لهـذا الجوار تأثير كبير فى العلاقات المتبادلة ، كما كانت هناك حركة ذهاب واياب مستمرة بين روما والقسطنطينية ودامت هذه العلاقات الودية حتى القرون الأولى من العصر الوسيط ، لم يعكرها شىء الا فيما بعد ، فى أعقاب المنازعات العقيدية ، والمنافسات الطبقية • وأخيرا راح البذخ فى الطقوس الدينية ينمو باطراد فى العاصـمة الغنية ، عاصـمة المسيحية الغربية • وكان لابد لاشباع هذا البذخ من أقمشة متألقة وكميات

(١) Pardessus, Diplom., Chart. etc. II, p. 5.

(٢) Verneilh, L'architecture byzantine en France, p. 130 et s.

كبيرة من العطور · الا أن الصناعة كانت متأخرة فى العالم الجرمانى الرومانى ، والتربة الأوروبية فقيرة لا تكفى لاشباع هذه المطالب ·

لنتوقف قليلا عند هذه النقطة · ففى مستهل العصر الوسيط ، كانت روما هى التى تتلقى وتستهلك القسم الأكبر من منتجات الشرق · ولا تشتمل سير البابوات ، وبخاصة بابوات القرنين الثامن والتاسع (١) الا على القليل من الأحداث التاريخية ، ولكنها على العكس من ذلك تزخر بمعلومات شديدة الأهمية عن الموضوع الذى نبحثه · والشىء الذى يحتل أكبر حيز فى هذه السير هو كشوف الهبات التى كان البابوات يمنحونها لمختلف الكنائس فى روما ، من حليات ثمينة للقساوسة ، وأقمشة فاخرة ، وبسط ، وطنافس لكسوة الحوائط والهياكل والعمد · وبالبحث فى هذه الكشوف عن مصادر الأقمشة نجد بها أحيانا أقمشة صنعت فى روما أو جاءت من أسبانيا العربية (٢) ، الا أن العدد الأكبر منها خرج من أيدى صناع الاسكندرية أو بيزنطة · ولما كانت الاسكندرية ، ومصر بوجه عام خاضعة لسيادة العرب ، فانه من الراجح أن الكثير من النساجين أو المطرزين العرب كانوا يعملون من أجل أبهة العقيدة المسيحية ، دون أن يدركوا ذلك · كانت هذه الأقمشة والبسط بوجه عام مغطاة برسوم الاسود والفيلة والنسور والدجاج والطاووس والحيات الأسطورية ، والعنقاء (حيوان خرافى نصفه نسر ونصفه أسد) (٣)، والقارن (حيوان اسطورى بجسم حصان ، وله قرن وسط الجبين) (٤) الخ ، منسوجة أو مطرزة ، ولكن لا جدوى من أن نحاول أن نجد فى كل ذلك رمزا للمسيحية ، فلكل هذه الزخارف طابع شرقى غالب عند كل من العرب والاغريق ·

والأمر على خلاف ذلك تماما فى الأقمشة التى عليها صور الأشخاص ، والتى تمثل أحداثا من التاريخ المقدس أو الأساطير أو الصلبان ، وفى هذه نجد بداهة أعمالا يونانية · ومن بين هذه الزخارف الكنسية نجد أمثلة من الأقمشة القرمزية ، وليست الأسماء اليونانية المدونة على بعض المنسوجات نادرة الوجود ، وهى من السمات الدالة على الأصل الشرقى · ولنتصور أيضا كميات اللآلىء والأحجار الثمينة التى تغطى الأشياء المكرسة للعبادة ، من صلبان وغيرها ، وكمية البخور والعطور التى تحرق أثناء القداس · وفى الامكان أن

(١) Anastasius Bibliothecarius, dans Vignoli T. II et III.

(٢) Ibid II, 231, 243-245, 248; Stragulum hispanicum de fundatum et stauracin, dans la Vie de St. Ansegius, abbé de Fontenelle, par Mabillon, Acta ss. Bened. saec IV, pars I, p. 634.

(٣) المترجم ·

(٤) المترجم ·

نتصــور مقدار ما تســتهلكه مدينة روما وحدها من منتجات الشرق ، وكان الغرب كله يحذو حذو روما فيما يختص بالطقوس الدينية ، كما أن الكثير من الكنائس كان يطلب منها الأقمشة التى تحتاج اليها ، وكان الكثير من الأساقفة ورؤساء الأديرة يستغلون أداءهم الحج فى روما ليشتروا بها أشياء يستعملونها فى تجميل كنائسهم وأديرتهم . من ذلك أن بنوا Benoît رئيس دير ويرموث Wearmouth بانجلترا أحضر من روما قطعتين من قماش لا نظير لهما فى جمال الصنع ، ولو أنهما استعملتا بعد ذلك لغرض خلاف الغرض الدينى ، لأنه أعطاهما للملك اجفرايد Egfried نظير حصوله على قطعة كبيرة من الأرض (١) .
كذلك كانت بعض الأشياء المكرسة للعبادة تنتشر فى الكثير من الأحيان فى الغرب على شكل هبات . من ذلك أن القديس بونيفاس St. Boniface قديس الألمان كان يتلقى من رجال الدين الرومان هدايا من عطور نادرة لتســتعمل كبخور (٢) . وكان يخلط بالبخور أحيانا اصطرك ، وفلفل ، وزنجبيل مما يدل على أن روما كانت مزودة بوفرة من التوابل التى تستعمل لتتبيل الطعــام أو بمثابة أدوية . ولكن برجوازيى روما لم يتميزوا البتة بمزاولة نشـــاط تجارى كبير ، فكيف اذن حصلوا على تلك التوابل والأقمشة الثمينة ، اليونانية أو العربية الصنع ؟ أولا ، كان أباطرة روما الجديدة يرسلون فى الكثير من الأحيــان الى البابوات هدايا من أقمشــة حريرية ثمينة خارجة من المصــانع اليونانية ، ونجد برهانا لذلك فى سير البابوات . غير أن هذا التفسير ليس بكاف ، لأن الأغلبية العظمى من هذه الأشياء كانت بالطبع مستوردة عن طريق التجارة ، وكانت ايطاليا غنية بالبحارة المتمرسين ، والتجار الأكفاء النشيطين ، وكان هؤلاء فى كل الأزمان على اتصال باليونانيين ، ولكنهم لم يكونوا يترددون فى عقد الصلات مع العرب ، بل أنهم زادوا فى تآلفهم مع العرب أكثر مما كان البابوات يسمحون بذلك ، اذ سرعان ما تبين أن بعض التجار المســيحيين لم يكونوا يتورعون ، لفرط ولعهم بحياة الترف ، أن يبيعوا اخوتهم فى الدين بيع الرقيق لعرب أسبانيا أو أفريقيا أو سوريا . واتخذ شارلمان ، ومن بعده البابوان زخارى Zacharie وأدريان الأول Adrien I اجراءات صارمة للقضاء على هذه التجارة الشنيعة (٣) . الم تصل جرأة البنادقة الى درجة أن يشتروا فى روما نفسها عبيدا من الجنسين ؟ (٤) غير أن تجارة سائر التجار كانت

(١) Beda, Vita S. Benedicti abbot. Wiremuth, primi lib. I, no. 9.

(٢) Jaffé, Bibliotheca rerum germanicarum, III, 156, 157, 199, 218, 231

(٣) Cenni, Monumenta dominationis pontfiicioe, I, 369 et ss.

(٤) Liber Pontificalis, vita Zacharioe papoe éd. Vignoli, II, 79.

ـ كان هناك أيضا يونانيون ، من تجار الرقيق الذين يجولون بحرا على طول سواحل تسكانيا ، ومعهم لومبارديون يدفعهم الفقر الى الاستسلام لهم ، أو كان هؤلاء التجار يشترونهم .

تتمشى مع تجارة الرقيق الشـــنيعة · ومن المفيد البحث عما اذا كان التجار البنادقة هم أنفسهم الذى يحصلون على منتجات الشرق فى مقابل عبيدهم ، أو أنهم كانوا يشترون فقط هذه المنتجات ويذهبون بها الى روما · ومع ذلك لا ننسى الأمالفيين الذين ربما ينبغى ذكرهم قبل البنادقة عند البحث عن الأشخاص الذين كانت روما تتلقى منهم منتجات الشرق · ومدينة أمالفى أكثر قربا من روما منها الى البندقية ، وكان سكانها يزورون الشرق أسوة بالبنادقة· وسوف نرى ذلك بعد قليل ·

نبحث الآن عن المدن الايطاليـة التى كانت تمارس التجارة مع الشرق بهمة ونشاط فى الفترة التى نتحدث عنها ، ونبدأ بجنوب ايطاليا · كانت هناك طريقة لاختصار الرحلة الى الشرق الأدنى ، وذلك بركوب السفن من أحد ثغور ابوليا Pouille ، ومن ثم كان هذا الثغر ملتقى الحجاج الراغبين فى الذهاب الى القدس مع قضاء أقل وقت ممكن فى بحر لجى خطر · وقد يكون أمرا غريبا لو أن التجارة لم تستغل هذا الظرف ، غير أن الحروب ، والتغيرات الكثيرة التى تطرأ على الحكام منعت مناطق السواحل زمنا طويلا من الاســـتمتاع بالهدوء اللازم لرخائها · فمن جهة توغل اللمبارديون فى داخل ايطاليـا ، ومن جهة أخرى نازع عرب صقلية سادتها القدامى ، الأباطرة البيزنطيين · وأخيرا نجح هؤلاء فى أواخر القرن العاشر فى بسط سيادتهم بصورة دائمة : وأصبحت بارى Bari مقرا لواليهم (الكاتابان Katapane) واستغل سكان المدينة ، وهم خليط من عناصر يونانية ،(١) هذا الوضع فى تنمية تجارتها مع وطنهم الأصلى · ولدينا فى هذا الخصوص دليل ، سلبى على الأقل ، فى مرسوم للأباطرة باسيل وقسطنطين ، بتاريخ ٩٩٢ ، يحظر على ربابنة ســـفن البندقية الابحـــار الى القسطنطينية وفى ســفنهم تجار من بارى ومعهـم بضائعهـم مما ييسر لهؤلاء التجار التمتع بالمزايا الممنوحة للبنادقة اضرارا بخزانة الامبراطوريـة (٢) · والواضـح أن الوثيقة لم تكن لتذكر أهالى بارى صراحة لو لم يكن لهؤلاء أية صلة بالقسطنطينية ، ولكنهم لم يقصروا رحلاتهم على العاصمة : ففى عام ١٠٨٦ ذهبت سفنهم وهى تحمل فاكهة وبضائع أخرى الى انطاكية · وكان من المحتمل أن تغدو هذه الرحلة نسيا منسيا ، كغيرها من الرحلات لو لم تقترن بها تحفة تذكارية ثمينة أتى بها أهالى بارى وأصبحت موضع فخرهم · حدث ذلك أثناء عودتهم ، حين القوا مراسيهم عند ميرا Myra وهى مدينة فى ليكيا Lycie كان المسلمون قد استولوا عليها ودمروها ، وانتهز أهالى بارى فرصة الفوضى التى ســـادت المدينة ، واختلســـوا عظام القديس نقولا دو مير الشــــهير

(١) Petroni, Storia di Bari, I, 35 et s., 103.

(٢) Taf. et Thom. I, 38.

وعادوا بها الى باري (١) حيث نزلوا ثمة فى شهر مايو St. Nicolas de Myre ١٠٨٧ (٢) • وفى زمن هذه الحملة كانت انطاكية فى أيدى المسلمين ، ثم أن سوريا العربية المسلمة كانت بلدا مألوفا لدى بحارة باري : فعند عودة بعثة الحج المشهورة التى أعطت الحافز النهائى للحركة التى أدت الى قيام الحرب الصليبية الأولى ، وجد بطرس الناسك على ساحل سوريا سفنا تجارية من بارى استقلها عائدا الى بلده (٣) • وربما كان أصل هذه العلاقات التجارية بين سكان بارى وعرب الشرق يرجع الى الفترة القصيرة التى كانت فيها مدينة بارى خاضعة لسيادة أحد السلاطين (٨٤٢ ـ ٨٧١) ، غير أنه من الصعب اثبات ذلك بصورة ايجابية • ومع ذلك فانا نطالع فى التواريخ القديمة أن هذا السلطان نفسه منح ذات يوم حاجا فرنسيا ، هو ناسك اسمه برنار Bernard بناء على طلبه نوعا من جواز السفر (وبه وصفه) يضمنه لدى حكام الاسكندرية والقاهرة • وتزود برنار بجواز السفر هذا وركب سفينة عربية فى تارانتو (٤) Tarente قاصدا الاسكندرية • ويبدو لنا بهذه المناسبة أنه اذا كان حاج فرنسى قد جرؤ على ابداء هذا الطلب للسلطان ، فلابد أن بحارة بارى وتجارها كانوا أقل منه تخوفا من حيث تقديم مثل هذا الطلب للسلطان ، ولابد أن السلطان من جانبه كان يعطيهم عن طيب خاطر مثل هذا الجواز ، لأن هذا الجواز بالنسبة اليه مصدر للايراد • ويحتمل أن تكون مدن ترانى ، وبرنديزى ، وتارانتو كذلك قد أرسلت من قبل الى الشرق قبل الحروب الصليبية سفنا تجارية ، غير أنها لم تكتسب أهمية فى هذا الشأن الا فيما بعد • ولسنا نستثنى من ذلك مدينة ترانى رغم ما يقوله البعض فى ذلك • وقد تكلم البعض كثيرا عن القانون البحرى الذى كان سارى المفعول هناك ، والمؤرخ عام ١٠٦٣ ، ولكن هذا القانون لا يحوى أى حكم خاص بملاحة الشرق الأدنى (٥) ومن جهة البحر التيرانى (يترهينيا) ، نجد مجموعة من المدن الساحلية التى تميزت

---

(١) هناك روايتان عن هذا النقل ، كتب احداهما رئيس الشمامسة جان دوبارى Jean de Duri بامر رئيس الأساقفة أورسو Urso (١٠٧٨ ـ ١٠٨٩) ، والثانية ألفها الراهب ينقفور Nicéphore الأولى نجدها فى سوريوس : Surius, De probatis ss. historüs, VII, 397 et ss.
والثانية فى فالكونيوس :
Falconius, S. Nicolai acta primigenia. Neap. 1751, p. 131 et ss.

(٢) نجد هذه الواقعة مذكورة ببضعة سطور فى :
— Lup. Protosp., Pertz ss. V, 62. Cf. Petroni, Storia di Bari, I, 197 et s.

(٣) Alb. Aq. I, 2. Guill de Tyr. I, 12.

(٤) Bernard, monach. franc. dans Tobler et Molinier, I. c. p. 310.

(٥) Alianelli : Delle antiche consuetudini e leggi marittime delle provincie Napolitane, Nap. 1871 ; et dans le Blackbook of Admirality, éd. Twiss. Lond. 1876.

عن غيرها بما فى ســـكانها من روح الاقدام والمغامرة : سالرنو ، وأمالفى ، ونابولى ، وجائيتو · كانت ســـالرنو تابعة للأمراء اللومبارديين ، أما المدن الأخرى فكانت خاضعة خضوعا اسميا لسيادة الأباطرة اليونانيين ، ولكنها فى الواقع كانت تنتخب بنفسها رجال الســلطة من بين أفراد الأسر النبيلة فى المدينة ، على اختلاف ألقابهم Proefecturii, comites, hypati, duces وغيرهم · ولم تنكر القسطنطينية سلطتهم ، حتى حين أدعى أصحاب هذه السلطة حقهم فى توارثها ·

وكان فى مقدور أصحاب السلطة هؤلاء ، وهم يملكون حرية التصرف أن يرضوا بمطلق الحرية طموحهم وحبهم للكسب · لذلك فانهم ، على غرار جيرانهم الأمراء اللومبارديين ، لم يترددوا فى التحالف مع المسلمين حين أقبل هؤلاء ووطئوا بأقدامهم أرض القـــارة الأوروبية · وفى البداية ، كانت الضرورة هى التى تبرر هذه التحالفات ، وكانت هذى هى الطريقة الوحيدة ليتجنبوا غاراتهم· ولكن فيما بعد وصل الأمر بهذه المدن الى الاستعانة بالعرب جهارا ، اما للقيام بمساعدتهم بشن حملات لم تكن فى الواقع سوى غارات للســـلب والنهب ، واما للدفاع ضد بعض الجيران الأقوياء · ويتبين من وثائق هــذا العصر (١) أن الامبراطور لويس الثانى ، حين اتهم نابولى بأنها أصبحت بمثابة « بالرمو » أخرى ، أى تابعة لأفريقية ، كان على حق ، لأنهـــا (أى نابولى) كانت توفر للقراصنة العرب مأوى أمينا ، ونقطة انطلاق مريحة لرحلاتهم البحرية ، وتزودهم بالأسلحة والمؤن ، وتقتسم معهم الأسلاب (٢) · وفى عام ٨٧٥ عقد أمراء سالرنو ونابولى وجائيتو وأمالفى تحالفا مع العرب ، ونهبوا معهم الاقليم الرومانى · وبذل البابا يوحنا الثامن كل ما فى وسعه من وعد ووعيد للقضاء على هـــذا التحالف ، ولكنه لم ينجح الا فى اخراج ويفرى Waifre أمير ســالرنو من الحلف ، أما بالنســبة للآخرين ، فان حرمان الكنيســة الموقع عليهم لم يكن الا سلاحا كليلا (٣) · وأدرك البابا بداهة أنه بالنسبة الى أهالى أمالفى لم تكن التهديدات بالحرمان الكنسى كافية ، لذلك أضاف بالنسبة اليهم خاصة أنهم اذا لم يتنازلوا عن هذا التحالف فانه سوف يغلق فى وجه سفنهم التجارية كل الموانى التى اعتادوا الدخول فيها (٤) · وأخيرا تمكن فى عام ٩١٦ من حشد جيش من اليونانيين والايطاليين طهر أرض ايطاليا من هؤلاء الغزاة المرعبين ، وفى

---

(١) Chron., Salern., dans Pertz, ss. III, 521, 527.

(٢) Chon., Salern., dans Pertz, ss. III, 526.

(٣) Mansi, Coll. concil., XVII, p. 34-38, 41, 44, 45, 58, 62, 157 et s., 167, 169, 177, 196 et s., 215, 243; Chron., Salern. p. 531; Erchemperti, Hist. Longob., dans Pertz, ss. III, 253-258, 261.

(٤) Mansi, Loc. Cit. p. 178.

اللحظة الحاسمة انقلب دوقات نابولى وجائيتو وأمالفى أنفسهم فى صفوف المسيحيين ولكن المؤرخ لم يفته وهو يذكر أسماءهم أن يضيف أنهم كانوا قبل ذلك أعوانا للعرب (١) · هذا الالحاح من جانب سكان نابولى وجائيتو وأمالفى على المحافظة على تحالفهم مع العرب يجد له تفسيرا صحيحا فى علاقاتهم التجاريه، وعندنا فى هذا الخصوص دلالات ثابتة بالنسبة الى أهالى نابولى : ففى عام ٨٣٦ عقد سيكارد Sicard امير بنيمنتو Bénévent معاهدة سلام مع نابولى ، ولكنه اشترط أن يمتنع أهالى نابولى عن شراء رعايا لومبارديين تم بيعهم فى الجانب الآخر من البحر ، وهذا برهان جديد على أن النابوليين كانوا يتاجرون فى الرقيق مع البلاد الاسلامية ، ويستوردون فى مقابل ذلك منتجات تلك البلاد (٣) · نرى بالمثل فى حوالى عام ٨٧٠ أهالى أمالفى يزاولون التجارة بنشاط مع العرب ويشهد بذلك أنه فى عام ٨٧١ حين بعث الأمير الأغلبى محمد بن أحمد مولاه عبد الله ليغزو سالرنو ، كان ثمة أفريقى يقر بجميل اسداه اليه أمير سالرنو ، فحذر الأمير عن طريق أحد أهالى أمالفى ويدعى فلورس Florus (من الغزو) ·

وكان فلورس هذا موجودا وقتئذ فى أفريقيا مع بعض مواطنيه فى شئون تجارية ، وشهد كل تجهيزات الحملة دون أن يعتريه شك فى الغرض منها (٤) · وكان الأسطول يتجمع غالبا فى « المهدية » ميناء القيروان الآهلة بالسكان ، مقر الأمراء الأغالبة · وكان الساحل الأفريقى الشمالى يجذب اليه الأمالفيين بطبيعة الحال ، حيث كانت العلاقات التى أقامها هؤلاء مع العرب تمهيدا ممتازا للعلاقات التى وثقوها فيما بعد مع العرب فى مصر وسوريا · وثمة عقد تجارى أبرم عام ٩٧٣ بين عدد من الأمالفيين فى سالرنو ، أى بعد انقضاء أكثر من مائة عام على الحدث الذى ذكرناه آنفا ، هذا العقد هو أقدم برهان لدينا على « رحلات الى مصر لأعمال تجارية » قام بها هؤلاء الجماعة من البحارة ، ونرى فى العقد أن مفعوله لا يسرى الا عند عودة أحد المتعاقدين ، وكان موجودا فى تلك الآونة فى بابيلون ، أى فى القاهرة (٥) ·

وهكذا فمنذ القرن العاشر ، ربما قبله ، كان لتجارة أمالفى فروع تصل

---

(١) Lec Marsicanus, Chronic. monast. Casin, dans Pertz, ss. VII, 616 et s.

(٢) Capitulare Sicardi, dans Pertz, Legg. IV, 218.

(٣) من ناحيه أخرى ، رأى فيليبالد Willibald اسقف ابشتات Eichstaedf الذى . اشتهر بحجه الى القدس ، رأى عام ٧٢٢ فى ميناء نابولى سفينة قادمة من مصر ·

(٤) Chron. Salern., loc. cit., p. 528, et Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, I, 383 et ss.

(٥) De Blasio, Séries principum Longob. Salern.

الى الاسكندرية ، والى القاهرة ، وفى الوقت نفسه كان فى مقدور كل تاجر أمالفى أن يرتاد كل أنحاء الامبراطورية اليونانية دون أن يصادف أى عائق : فمع أن هذه المدينة لم يكن بداخل أسوارها حاكم معين من قبل بيزنطة ، وكانت تنتخب حكامها (الذين نالوا فى النهاية لقب دوج) من بين الأسر القديمة فى المدينة ، فانها كانت تقر للامبراطور اليونانى بالسيادة ، ودام هذا الوضع حتى عام ١٠٧٣ (١) . حقا ، ان نفوذ الامبراطور كان قاصرا على منح الشخصيات الرئيسية فى المدينة الألقاب اليونانية ، وهى ألقاب فخرية فحسب ، ورغم ضعف تبعية المدينة سياسيا للامبراطور اليونانى ، فان المدينة كانت مع ذلك تسمح لعدد كبير من الأمالفيين بالخدمة فى الجيش الامبراطورى (٢) ، كما استقر الكثير منهم فى القسطنطينية بصفتهم تجارا ، وكان لهم فيها حوانيت ، ويشكلون طائفة دينية مستقلة كما سوف نرى . وكان الأمالفيون يستوردون الى الغرب المنتجات اليونانية ، ويتنافسون فى ذلك مع البنادقة ، ويحصلون على الأقمشة القرمزية التى كان خروجها (من اليونان) محظورا بنوع خاص ، ويتاجرون فيها .

وفى غضون الأربعين سنة التى سبقت الحروب الصليبية ، يتجمع كل ما نعرفه عن علاقات أمالفى بالقسطنطينية ، وكذا بسوريا ومصر حول تاريخ اسرة واحدة كانت من أغنى وأنبل الأسر فى المدينة (٤) ، ويرجع أصلها الى الكونت مورو Mauro . وهناك من وجهة بحثنا هذا عضوان فى هذه الأسرة لعبا دورا هاما : مورروس Maurus وابنه الأكبر بانتاليون Pantaléon وكان للاثنين مكانة كبيرة فى القسطنطينية ، ويملكان بها منزلا مجهزا بأثاث فاخر (٥) ويقرن المؤرخون والسجلات دائما باسم بانتاليون لقبى بطريق وقنصل (هيپاتوس) (٦) اللذين منحهما اياه الأباطرة . كذلك فانه وضع نفوذه فى خدمتهم ، وعمل على تكوين تحالف للقضاء على سيادة النورمان فى ايطاليا . وفى عامى ١٠٦٢ ، ١٠٦٨ ضاعف جهوده ، اما بالرسائل أو بشخصه ليجذب

---

(١) فى أواسط القرن الحادى عشر ، نشبت ثورة أمالفى ، طرد أثناءها أحد دوجات المدينة ، فلجأ الدوج الى الامبراطور قسطنطين الثانى مونوماكس ، وبمساعدته استعاد منصبه ، أنظر : Camera, Mémorie di Amalfi, I, 243, 250 et s.

(٢) Liutpr. Legat. Cpol dans Pertz SS. III, 357.

(٣) Liutpr. ibid, p. 359.

(٤) سبق أن نشرت دراسة عن هذه الأسرة واهميتها ، وبخاصة من الوجهة التاريخية والفنية فى : — Deutsche Kunstblatt, IX (1858) p. 233 et s.
كذلك تحدث ستريلك Strehlke فى هذا الخصوص بكثير من التفاصيل

(٥) Aimé, l'ystoire de li Normant, publ. p. Champollion - Figeac, p. 231.

(٦) Schulz, Denmäler, II, 248.

البابا المزيف هونوريوس الثانى (كادالوس) ، ويحمل بوساطته البلاط الألمانى (أوصياء الملك هنرى الرابع) على التعاون ضد النورمان (١) مع الامبراطور اليونانى قسطنطين العاشر دوكاس . وعندئذ جمع الامبراطور فرقا عسكرية فى la Pouille « بوليا » لايقاف غزوات النورمان (٢) ، وعمل موروس لنفس الغاية التى عمل لها ابنه ، وساعد بنصائحه جيزولف Gisulf دوق سالرنو ، وعندما مر هذا الأمير بالقسطنطينية بحجة أداء الحج بالقدس ، ولكى يحمل الامبراطور اليونانى على اعلان الحرب على النورمان ، كان موروس أيضا هو الذى استضافه فى منزل ابنه بانتاليون (٣) . وفشلت محاولات الاثارة هذه ، واستمرت السيطرة النورماندية تتسع وتتوطد ، بل وأسهمت أمالفى كثيرا فى ذلك ، أولا بخضوعها عن طيب خاطر لروبرت جيسكار Robert Guiscard (١٠٧٦) (٤) . غير أن بانتاليون ترك عن نفسه ذكريات طيبة أكثر دواما فى مجال آخر ، بعيدا عن السياسة . ذلك أنه تحت تأثير مشاعر دينية سامية راح يمنح الكنائس والأديرة فى جنوب ايطاليا هبات فاخرة . وكانت هبته المفضلة تتمثل فى أبواب برونزية فخمة من صنع مسابك القسطنطينية ، وهب منها أولا لكاتدرائية المدينة التى ولد فيها (قبل ١٠٦٦) ، ثم لكنيسة القديس بولس المشهورة خارج أسوار روما (١٠٧٠) ، وأخيرا لكنيسة سنت ميشيل التى يحج اليها الناس على جبل جرجانو بالقرب من ما نفريدونيا Monfredonia (١٠٧٦) . ولابد أن هذه الروائع من ابداع الفنانين البيزنطيين ، المنقولة الى ايطاليا والمعروضة فى أماكن يرتادها خلق كثيرون كان لها أثر كبير فى تقدم الفن (٥) . فما أن ثبتت أبواب كاتدرائية أمالفى فى مكانها حتى صور

---

(١) Benzo, Panogyricus, dans Pertz, ss. XI, 615, 622, 623, 626 et ss. Giesebrecht : Annal Altah. p. 216, not. 2; De Blasiis, La insurrezione Pugliese e la conquista Normanna, II (Napl. 1864), p. 88 et s.

(٢) De Blasüs, op. cit., p. 64 et s., 82 et s.

(٣) Aimé, op. cit. p. 129 et ss. 231.

— يبدو أن هذه الرحلة جرت بين سنتى ١٠٦٢ ، ١٠٦٦

(٤) بخصوص تحديد هذه التواريخ انظر :

— Weinreich, De conditione Italioe inferioris Gregorio VII pontifice (Regimont 1864), p. 34 et ss., 89 et ss.

(٥) انظر شولز Schulz ومقال اونجر Unger فى الفن اليونانى فى العصر الوسيط فى .

— l'Encyclopédie générale de Ersch et Gruber, sect. I, Vol. LXXXIV, p. 438 et s.

— لعل هذه الأبواب وأشباهها ، التى صنعت لكنائس ايطالية مختلفة على نمط أبواب بانتاليون قد ركبت فى ايطاليا ، واستعمل فى تركيبها صفائح من البرونز ، لعلها يونانية الصنع ، استوردها تجار أمالفيون .

دزيديريوس Désidérius رئيس ديرمون كاسان نسخة منها وطلب أن تصنع أبواب منها في القسطنطينية (١) ، وأرسل مقاسات أبواب مصلى ديره ! وتكفل موروس ، أبوبانتاليون بكل النفقات (٢) . وفي هذه الآونة كانت مباني الدير البدائية مازالت قائمة . واذا كان القس دزيديريوس قد رأى أنه لتجميل الدير يجب الاستعانة بفنانين أجانب ، فانه يمكن نصور ما كان يدور بخلده في هذا الخصوص حين شرع في اعادة بناء الدير بأحجام كبيرة ، ولابد أن العمل غير المتقن الذي كان يؤديه الصناع الأمالفيون واللومبارديون كان يبدو له غير كاف في هذا الشأن ، لذلك استقدم من القسطنطينية والاسكندرية فنانين من اليونانيين والعرب ، وبخاصة في أشغال الموزايك (الفسيفساء) التي يتفوق فيها هؤلاء بكثير على الايطاليين (٣) . ومن المرجح أنه حين يقتضي الأمر استقدام عمال من بلاد بعيدة على هذا النحو ، فان التجـار الأمالفيين كانـوا هم الذين يتكفلون باحضارهم . وحين أراد دزيديريوس الحصول على أشياء لازمة لأثاث الكنيسة بعث الى القسطنطينية بأحد رهبان ديره ومعه مبلغ من المال وخطـاب توصية للامبراطور لكي يتولى السباكون والصاغة والرسامون اليونانيون صنع الأشياء التي تتطلب دقة كبيرة ليس في قدرة الصناع الوطنيين ، والمتعهدين العاديين لشئون الدير أن يصلوا اليها (٤) .

ولنعد الى بانتاليون . ان الألقاب التي تنسب اليه تثبت أنه كان يشغل مركزا كبيرا ، ومع ذلك لا يحتمل أن يكون على رأس حكومة أمالفي ، فلدينا القائمة الكاملة لدوجات هذه المدينة (٥) ، وليس بها هذا الاسم . ويمكن على العكس من ذلك أن نفترض أنه كان على رأس «الجالية الأمالفية في القسطنطينية» لفترة معينة على الأقل (٦) . وكانت هذه الجالية موجودة بالفعل ، وها هي معلومة تاريخية تثبت ذلك : فحين ســافر جيزولف دوق سالرنو لأداء الحج ، كما رأينا من قبل ، كان في صحبته الفانس Alfanus اسقف سالرنو ، وبرنارد ،

---

(١) Leo Ostiens. Chron. Casin, dans Pertz, ss. VII, 711.

(٢) تتبين هذه الواقعة من الكتابة التي تذكر موروس Maurus باعتباره الراهب .

انظر : Schulz, Denkmäler, II, 116 et s. —

(٣) Aimé, p. 105. Leo Ostiens, op. cit., p. 717-718.

(٤) Leo Ostiens, Chron. op. cit., p. 722 et s.

(٥) Camera, Istoria della citta e costiero di Amalfi (Napoli 1836), p. 149. et s.; Memorioe di Amalfi (Salerno 1876) p. 251 et s.

(٦) Caravita, I, codici e le arti a Monte Cassino, I, 194.

يظن كارفيتا أيضا أن بانتاليون كان أحد القناصلة البحريين لاحدى المستعمرات التجارية في الشرق

أسقف بالرمو الذى توفى بالقسطنطينية ودفن بها فى الدير الأمالفى(١)، وهو اما دير القديس سوفير St. Sauveur المذكور فى قائمة قديمة برؤساء أساقفة أمالفى وأما دير القديسة ماريا دى لاتينا Santa Maria de Latina الذى أعطى البابا الكسندر الرابع بخصوصه فى عام ١٢٥٦ خطابات توصية لم تزل موجودة الى الآن (٢) ٠ واذا كان للأمالفيين أديرة خاصة بهم فى القسطنطينية (٣) ، فذلك بالتأكيد لأنه كان بها جالية من أصل أمالفى ٠ ويحكى أنه (٤) فى حوالى عام ١٠٨٤ دخل دير مون كاســـان نبيل أمالفى فأهدى للدير قطعة من الصليب الحقيقى الذى كان ضمن نصيبه من الغنيمة التى حصل عليها فى القسطنطينيه، ولا يمكن أن يكون الشخص الذى ينسب اليه هذا الخبر أحد الأفراد المغامرين٠

وسوف نحاول أن نتتبع خطوة خطوة آثار هذه الأسرة الأمالفية النبيلة ٠ نجد أولا أن آثار أعمال البر المسيحية التى الهمت موروس قد امتدت الى أنطاكية حيث أسس بها مستشفى تعهدها بالرعاية من ماله الخاص (٥) ٠ وبترتيب المعلومات المتناثرة فى تاريخ أماتوس Amatus الذى نستقى منه هذه المعلومة ، نرى أن تأسيس هذا المستشفى كان لصالح الحجاج الغربيين : الا أن انطاكية لم تكن مكانا للحج بالنسبة الى الغربيين ، ومن جهة أخرى لم تكن بالنسبة الى المسافرين الذين يقصـــدون القدس تحولا بعيدا عن الطريق المباشر ، حتى ان القليل من هؤلاء المسافرين كانوا يمرون بها ٠ من الراجح اذن أن موروس أراد ببناء هذا المستشفى استقبال واستضافة مواطنيه الذين تجذبهم التجارة الى هذه السوق السورية الكبيرة (٦) ٠ ويزودنا جويوم (وليم) Guillaume (من صور) برأى يعزز هذا الافتراض : فقد تبين له أن الأمالفيين كان لهم قبل الحروب الصليبية فنادق فى موانى سوريا ، وهذا ما لا شك فى أنه أوحى اليهم الرغبة فى أن يكون لهم ملجأ ومكان للاجتماع شبيه ببيت المقدس ٠ والواقع أنهم كثيرا ما كانوا يذهبون الى هناك اما لأعمالهم أو لزيارة الأماكن المقدسة ، أو للغرضين

---

(١) Aimé, p. 129 et s.
كذلك الكتابة الصغيرة التى الفها الثانس Alfanus ونقشها على قبر رفاقه فى الرحلة : انظر : — Giesebrecht, De litter. stud. ap. Ital. p. 37 et s.

(٢) Ughelli, op. cit., p. 222 et s.

(٣) كان يوجد أيضا فى جبل أتوس Athos دير أمالفى شـيد فى القرن العاشر . حظى بامتيازات من الأباطرة الكسيس ، ويوحنا كومنينوس ٠

(٤) Petr. diac. Chron. monast. Casin. dans Pertz, SS. VII, 742.

(٥) Aimé, p. 231.

(٦) فى القرن التاسع ، نجد خلفاء لشخص يدعى Maurus Vicarius Antiochenus أو Antiochia يحملون لقب كونت على رأس حكومة أمالفى ، ومن ثم يبدو أن العلاقات بين أمالفى وانطاكية ترجع الى عهد بعيد ٠

كليهما • ولكن كان من الضرورى لاقامة منشأة من هذا النوع فى بيت المقدس الحصول على تصريح من الخليفة فى مصر ، وكان الأمالفيون فى أحسن وضع يتيح لهم الحصول على مثل هذا التصريح . لأن علاقاتهم التجارية بمصر ترجع الى زمن بعيد ، وكانوا يجدون فى مصر كل ترحيب لأنهم يجلبون اليها من الغرب أشياء يطلبها المصريون والسوريون • لذلك فما أن علم الأمير الفاطمى الحاكم وقتئذ برغبتهم هذه حتى خصص لهم مساحة كبيرة فى الحى المسيحى بالقدس • وللحال شرعوا فى العمل ، وسرعان ما ارتفعت مبانى دير سنتا ماريا دى لاتينا (١) التى كانت تستضيف أيضا الأمالفيين عند وصولهم • وكان هذا الدير خاصا بالرجال ، فالحق به فيما بعد ، كما يروى جويوم الصورى دير للنساء يستخدم كذلك ملجأ لنساء أمالفى • وشيد أخيرا بناء خاص للحجاج الغربيين الفقراء والمرضى دون تمييز بينهم من حيث الموطن • وكانت هـذه المنشئات كلها قبل أن تقع المدينة فى أيدى الصليبيين تعتمد فى انفاقها على حصيلة الصدقات التى كان الأثرياء الأمالفيون يرسلونها الى القدس أو يتركونها هناك فى نهاية اقامتهم بها • ويبدو أن رواية جيوم الصورى (٢) التى استقينا منها هذه المعلومات جديرة بالثقة ، ومع ذلك فهناك نقطة ليست صحيحة كل الصحة : ذلك أن الأمالفيين لم يكونوا مؤسسى كنيسة القديسة ماريا دى لاتينا ، بل انهم هم الذين رمموها • ففى وثيقة لعام ٩٩٣ (٣) نجد اشارة الى كنيسة بهذا الاسم فى بيت المقدس ، تملك أموالا مختلفة فى ايطاليا ، ويرجح أنها هى التى شيدها شارلمان • ولما كان موقعها بجوار كنيسة القديس سيبولكر St. Sépulcre فانها هدمت حين هدمت هذه الأخيرة بناء على أمر أصدره فى لحظة تعصب دينى الخليفة الحاكم بأمر الله (١٠١٠) • وعلى أية حال فانها اذا كانت قد تهدمت فان الأمالفيين أعادوا بناءها فى نفس الموقع • ولم يحدد جويوم الصورى العصر الذى تم فيه البناء ، ويجعله الكونت دو فوجيه de Vogué (٤) بين ١٠١٤ ، ١٠٢٣ ، وهذا خطأ بين لأن المساحة المخصصة للأمالفيين ليقيموا عليها المبانى الجديدة واقعة فى الحى المسيحى • ولكن حتى عام ١٠٦٣ كان مسيحيو بيت المقدس يعيشـون متفرقين فى المدينة ، وفى تلك السـنة فقط نشر الخليفة المستنصر بالله المرسوم الذى يجبرهم على الاقامة فى حى محدد (٥) • وعلى ذلك

---

(١) Sanuto, Secr. fidel cruc., p. 178.

(٢) Lib. XVIII, cap. 4, 5.

(٣) Martène, Coll. vet. monum., I, 347.

هذه نسخة رديئة ، مأخوذة من نص يعتبره السيد ريو Riaut أنه النص الأصلى :
Mém. de l'Acad. des inscr XXXI, 2 (1884) p. 151. et ss.

(٤) — Les Eglises de la terre sainte, p. 249.

(٥) Guill. de Tyre; lib. IX, cap. 18.

لايمكننا أن نسلم بأن بناء هذه الأديرة والفنادق كان سابقا على عام ١٠٦٣ ، كذلك لا يمكن أن يكون لاحقا على عام ١٠٧٠ (١) ، لأن فى هذه السنة طـرد الأتراك الخليفة من بيت المقدس · حقا ، انه فى هذه المرة لم يلبث أن عاد الى المدينة ، ولكنها انتزعت منه نهائيا فى عام ١٠٧٨ ، وبالتأكيد لم يعمل الأتراك حسابا لامتياز منحة العاهل المصرى للأمالفيين · وعلى أية حال فان المبانى كانت موجودة فى عام ١٠٨٠ : ذلك لأن يوحنا أسقف أمالفى حين زار القدس فى تلك الآونة رأى هناك ملجأين للرجال والنساء ، شيدهما مواطنوه منذ بضع سنين (٢) ، والثابت أن هذين الملجأين لا يمكن أن يكونا غير النزلين الملحقين بالديرين · ومن جهة أخرى ، فان المنشأة الأخيرة ، أى الملجأ المخصص للحجاج الغربيين الفقراء والمرضى دون تمييز بسبب الجنسية لايمكن أن تكون قد شيدت بعد عام ١٠٨٠ ، فالواقع أنها كانت منذ أعوام ١٠٨٣ ـ ١٠٨٥ معروفة تماما فى الغرب ، حتى لقد وهب لها عدة أراضى واقعة فى الألبجوا l'Albigeois (فى جنوب فرنسا) · بل ان شخصا يدعى انسيلينوس Ancelinus كان مكلفا هناك بتسلم هذه الهبات وتدبير شئونها (magister domus hospitalis, (٣) ·

وسرعان ما اتسع نطاق هذه المنشأة بتأثير غايتها العامة ، وأصبحت مهدا لرهبنة القديس يوحنا الغنية القوية ، فى حين أن الأديرة التى نشـأت منهـا ولا تستقبل سوى الامالفيين ، أو بالأكثر الايطاليين لم تلبث أن انحط شأنها · وعلى ذلك كان التجار الأمالفيون يتولون الانفاق على منشئات خاصة فى القدس العربية ، لا لاستعمالهم الخاص أو لاستعمال مواطنيهم ، وانما أيضا لصالح الحجاج الغربيين كلهم ، ويجد هؤلاء فى هذه المنشئات معونات دينية وعادية أكيدة ، وعلاجا فى حالة المرض ، واحسانا فى حالة العوز · ويقول جويوم الصورى ان كل التجـار الأمالفيين الذين يذهبون الى القدس يسهمون بتقديم صدقات كبيرة ، اما لتأسيس هذه المنشـئات أو للانفاق عليها · الا أن فقرة من سانوتو Sanuto (٤) تنبئنا بأن واحدا منهم شيد على نفقته الخاصة دير القديسة ماريا لاتينا · ويمضى أماتوس Amatus الى أبعد من ذلك ، فيذكر اسم ذلك التاجر الكريم : فهو موروس أبو بانتاليون · ويقول هذا المؤرخ ان موروس شيد مستشفى فى القدس ، وخصص ايرادات كبيرة للانفاق عليها ، ولعل أماتوس كان يقصد بذلك النزل الملحق بدير القديسة ماريا لاتنا أو المنشأة التى أصبحت مهدا

---

(١) حدد الكونت ريان Riant بحق هذا التاريخ باعتباره انه الحد الأقصى :
— Arch. de l'or. lat., I. 28.

(٢) la Petite chronique d'Amalfi, dans Ughelli, Ital. sacra VII, 198.

(٣) Actes des Archives de Toulouse, communiqués par Saige, dans la Bibliothèque de l'Ecole des chartes, Série V, T. V p. 552 et ss.

(٤) Secr. fidel cruc. dans Bongars. II, 178.

لرهبنة القديس يوحنا (١)٠ وعلى أية حال فسواء أكان موروس هو الذى أسس أقدم هذه المنشآت أو أحدثها ، فانه يكفينا أن نعرف النصيب الذى اضطلع به فى اقامتها لكى نضع حدودا زمنية للبحث الذى نجريه حاليا ، ذلك لأننا نعلم أن موروس ، بعد أن انسحب من العديد من الاعمال التى اشترك فيها ، ترهب فى عام ١٠٧١ فى أحد الاديرة تأهبا للقاء ربه (٢) ٠

أوضحنا أن تجارة الأمالفيين كان لها فروع فى قسم كبير من البلاد المشرفة على البحر المتوسط ٠ هذه التجارة أثرت أمالفي ، وكدس تجارها فى مخازنهم أندر السلع وأثمنها ، وكان الحرير بها متوفرا بنوع خاص(٣) ٠ وذات يوم كان دزيدريوس رئيس دير مونت كاسان ينتظر زيارة الملك هنرى الرابع ، فاشترى من أمالفى ، اكراما للملك عشرين قطعة من الحرير المسمى triblattia (أرجوانى ثلاثى الألوان) ، ويشير هذا الاسم اليونانى الى البلد الذى صنع فيه هذا الحرير (٤) ٠ ويحملنا هذا الخبر على الاعتقاد بأن دير مونت كاسان كان يأخذ عادة من أمالفى سلع الشرق الأدنى التى هو فى حاجة اليها ، ويمكن أن نفترض أن تجار أمالفى هم الذين استوردوا قماش أغطية المذبح الحريرية من بيزنطة وأفريقيا ، وشموع القاهرة (بابيلون) التى وهبها القس تيوبالد Théobald فى بداية القرن الحادى عشر الى دير القديس ليبراتورى St. Liberatore بالقرب من كيتيى Chieti ، الفرع التابع لمونت كاسان (٥) ٠ وسبق أن أوضحنا أن روما كانت على الأرجح تستورد من أمالفى الكميات الكبيرة التى تحتاج اليها من سلع الشرق ٠

ولسوء حظ الأمالفيين ، لم يستدم الوضع السياسى الذى كان أقوى عوامل رخائهم التجارى ٠ ويتلخص هذا الوضع فى كلمتين : فى الداخل استقلال فى ادارة شئونهم ، وفى الخارج تبعية اسمية تقريبا للامبراطورية اليونانية ٠ ولما

---

(١) Strehkle, dans la Zeitschrift fur christiche Archölogie und Kunst, de Quast et Otto, II, (1858), p. 118-120.

ـ وينسب الى بانتاليون الشيد مستشفيات انطاكية والقدس ، ولكن يبدو لى أن المؤرخ لم يصل الى هذه النتيجة الا بتحريف معنى النص ٠

(٢) Aimé, p. 232.

(٣) Guill. Ap. I.C.V. 478.

ـ يصف أماتوس ، ص ٣٨ أمالفى بأنها « مدينة زاخرة بالذهب والحرير »

(٤) Leo Ostiens. I, c. p. 711.

ـ كان دير مونت كاسان يشترى أقمشة صوفية من بيزا . بفضل امتياز كان للكونتس ماتيلدا التسكانية : Tosti, Storia della badia di Monte Cassino, II, 426 et s.

(٥) Murat. Antiq. it, IV, 767 et ss.

كانوا ضعفاء لاقبل لهم بمقاومة جيرانهم الأقوياء ، فان هؤلاء الجيران ما ليسوا أن سحقوهم . ففى عام ١٠٣٩ اسـتولى جوايمار الرابع Guaymar IV أمير اللمبارد قبل الاخير على أمالفى . وفى عام ١٠٥٢ ثار القسم الأكثر استقلالا فى الطبقة البورجوازية ، وظن أنه تخلص من السيطرة التى كان خاضعا لها بقتله جوايمار،ولكن محاولته فشلت اذ بسط جيزولف Gisulf بن جوايمار سيادة على المدينة بمزيد من القسوة . ولما كانت أمالفى عاجزة عن اسـترداد حريتهـا بمفردها ، فانها التمست معونة روبرت جيسكار الدوق النورماندى (١٠٧٣) . وسقطت سالرنو ، وأبعد جيزولف عن عرسه ، ونفى (١٠٧٦ - ١٠٧٧) ، ولكن أمالفى فقدت استقلالها الى الأبد،وعاشت الجمهورية ، واندمجت فى المملكة النورماندية (١) . وقضى هذا التغير السياسى قضاء تاما على تجارة أمالفى مع الشرق الأدنى .

والمعروف أن النورمان كانوا أعداء اليونانيين الألداء ، فلم يكتفوا بطردهم من ايطاليا ، ولم يلبثوا أن هاجموهم فى عقر ديارهم . وعلى ذلك فمنذ أن لم يعد الأمالفيون من رعايا الامبراطورية البيزنطية ، فانهم أصبحوا من رعايا أعدائهم : ومن ذلك الحين فقدوا عطف الامبراطور الذى حول كل رعايته لأهالى البندقية ، ووقع بهم الذل والهوان يوم أن أصدر الامبراطور الكسيت كومينوس فى عام ١٠٨٢ مرسوما بأن على كل أمالفى يملك حانوتا فى القسطنطينية أو فى أية مدينة أخرى بالامبراطورية أن يدفع لكنيسة سان مارك بالبندقية ضريبة سنوية مقدارها ثلاثة « هيبربر » hyperpres (٢) . وحتى ذلك الحين كان الأمالفيون والبنادقة يتنافسون على قدم المساواة التامة . وابتداء من صدور هذا المرسوم هبط مستوى الأمالفيين بالنسبة الى البنادقة ، وأقروا بأفول نجمهم فى حين أن نجم البنادقة كان يزداد تألقا يوما بعد يوم .

ويبدو أن جائيتى Gaête قد أسهمت بعض الشىء فى تجارة اليونان . ففى عام ١٠٦٤ توفى فى القسطنطينية شخص يدعى يوحنا الجائيتى بعد أن أجرى عدة تصرفات وصائية ، ومن الراجح أنه أقام فى القسطنطينية لمزاولة التجارة .

---

(١) Chron. Amalph. dans Murat. Antig. it I, 211; Annal Cav. dans Pertz, ss. III, 190; Aimé, p. 229 et s. 235 et ss., 247 et ss, Leo Ostisus, I. c. p. 672, 658, 735.
- وبالنسبة الى التسلسل التاريخى للأحداث انظر :
— Weinreich, De conditione Italioe infer, p. 32, 34-37, 89-91 ; Koepke, dans les Archiv, der Ges für deutsche Gesch. IX, 170 et s. ; Hirsch. art. sur Amatus, dans les forschungen zur Deutschen Gesch VIII, 317. et ss.

(٢) Taf et Thom. I, 52 : Anne Comm. I 286, éd. Bonn.

غير أنه ليس في وسعنا أن نتريث لنناقش هذه الفروض : ولننتقل الآن الى شمال ايطاليا • فهناك ، في كل ما يتعلق بشـــئون التجارة ، كان الدور الأول يتولاه البنادقة الذين قال عنهم كاسيدور Cassidore ان سفنهم تجوب البحار وتقطع مسافات كبيرة • وكان أجدادهم قـد لاذوا بالفرار من شراذم البرابرة ، ولجأوا بكل ما يملكون الى جزر فينيتو Vénétie ولم تكن فينيتو الجزائرية هذه منفصلة عن رض القارة الا بذراع ضيقة من البحر ، ولكنه كان كافيا لحماية سكانها من البحارة من الانقلابات التى تعصف بسائر شـــعوب ايطاليا ، وبفضل هذا الوضع استطاعت أن تخلق لنفسهـا حيـــاة اجتماعية وسياسية خاصة بها • وقد بذل حكام شمال ايطاليا أكثر من محاولة للسيطرة على هذه الجزر ، بـل تكون بها أكثر من مرة حزب موال لهؤلاء الحكام ، الا أن باقى الطبقة البورجوازية المخلصة لسادتها الوراثيين ، أباطرة بيزنطة ؛ كانت تستطيع دواما أن تقاومهم • على أن سيطرة بيزنطة لم تكن ثقيلة الوطأة على سكان الجزر ، وذلك لسببين : أولا ، بعد الشقة ، ثم الظروف التى تجبر الأباطرة على مراضاتهم حتى لايقعوا فى أيدى حكام ايطاليا العليا•وكان الأدواج الذين حكموا الدولة منذ عام ٧٠٠ ينتخبهم منذ البداية مواطنوهم انتخابا حرا ، الا أن هذا الانتخاب كان يخضع لموافقة الاباطرة ، ولم يكن الأباطـرة يتدخلون كثيرا فى تصريف الشئون الداخلية للمجتمع ؛ ولكنهم كانوا ، فيما يختص بالعـلاقات الخارجية يصدرون الى الأدواج تعليماتهم التى كانت بمثابة أوامر • وفى حالة الحرب كان الأباطرة يستدعون قوات البندقية للخدمة فى جيوشهم ، ولما كانت المنازعات كثيرة فى ايطاليا السفلى بين اليونانين والعرب ، كان هذا الاســـتدعاء يتكرر كثيرا • وهكذا فان الدولة الفينيسية (البندقية) الصغيرة الكائنة بين قوتين عظميين ، لم تعد احداهما تسيطر عليها الا بوشائج تضعف يوما بعد يوم، فى حين تحاول الأخرى عبثا أن تضمها اليها • وراحت هذه الدولة الفينيسية الصغيرة تخطو كل عام خطوة جديدة نحو استقلالها ، وكان لها فى ذلك أسبقية كبيرة على سائر المدن الايطالية • وكانت هذه الأحوال ملائمة للتجارة كل الملاءمة . فاستفاد منها أفراد الطبقة البورجوازية الفينيسية فائدة كبيرة • وكان موقع فينيسيا (البندقية) الجغرافي وتاريخها كله يؤهلها للاضطلاع بدور الوسيط بين الشعوب الجرمانية الرومانية وبين الشرق • ويمـــكن القول بأن كلا من الحزبين اللذين كانا يتنازعان السلطة ، الحزب الايطالى ، والحزب البيزنطى ؛ كان يحل جانبـا من جانبى المشـــكلة ؛ وله مبرراته ، ليس فقط فى النطاق السياسى ، ولكن أيضا فى النطاق التجارى • كان الحزب البيزنطى يعمل على ابقاء الوضع بالنسبة الى الأمبراطورية اليونانيـــة ، ويريد أن تبقى البندقيـــة خاضعة لدولة أجنبية ، وكانت هذه السياسة ملائمة لأقصى درجة لاتساع نطاق تجارتها ، وفتحت أمام سفنها العديد من الثغور فى الشرق ، وكفلت لها أسواقا فسيحة لتصريف بضائعها ؛ كما ضمنت لها ما هو أهم من ذلك ، وهو دخول

أسواق مزودة بوفرة من منتجات الشرق الأدنى · أما الحزب الايطالى فانه بذل كل ما فى وسعه للاتحاد مع حكام القارة المجاورة ، وبهذا كان يمثل مصلحة من مصالح البندقية الحيوية ، اذ كان من مصلحتها بالفعل أن تعقد مع هؤلاء الأمراء معاهدات صلح وصداقة حتى تحتفظ لنفسها بحرية استخدام الطرق والمجارى المائية التى تصل بوساطتها الى البندقيـة بضائع القارة لتنقل منها الى الشرق ، وتوزع عن طريقها بضائع الشرق الأدنى المستوردة فى أنحاء القارة · وكانت نتيجة هذا الازدواج من جهة نمو ثروات الأفراد ، وارتفاع شأن المجتمع الفينيسى، ومن جهة أخرى زيادة عدد البنادقة الذين تعتمل فى نفوسـهم مشـاعر وطنية صادقة ، ويدركون أهمية عدم خضوعهم لأى من القوتين العظميين المتنافستين، ويريدون أن يجعلوا من البندقية مدينة مستقلة ، ومنطقة محايدة ، وسوقا حرة مفتوحة لمنتجات الشرق والغرب ·

وفى عهد الكارولنجيين ، كانت تجارة البندقية قد بلغت درجة كبيرة من التقدم · فبغض النظر عن المتاجر التى فتحوها بجوارهم فى اقليم رافنا (١) ، وسوق روما التى كانوا دواما يترددون عليها ، وكان بها من البواعث ما يجذبهم اليها ؛ خلاف ابتيـاع العبيد ، فانا نكتفى بأن نذكر أن سـفنهم كانت تقوم برحلات ذهاب وعودة بين أفريقيا وصقلية ، حاملة الركاب (٢) والبضائع ، وأنها كانت من قبل تزور سـوريا ومصر · وحين حظر الأمبراطور لأوون الخامس الأرمنى (٨١٤ — ٨٢٠) على تجار أمبراطوريته ، لبواعث أوضحناها من قبل كل اتصال بهذين البلدين ، اتخذ الدوج الحاكم وقتئذ فى البندقية الاجراء نفسه مع مواطنيه (٣) · ولم يكن لهذا المرسـوم أى معنى لو لم تكن هناك علاقات تجـارية بين البندقيـة وبين سـوريا ومصر · وبعد انقضـاء بضع سنين (٨٢٧ أو ٨٢٨) (٤) كان فى الاسكندرية تجار بنادقة ، اما لأن الحظر قد رفع عنهم ، واما لأنه لم ينفذ بدقة ؛ (٥) بل استطاع هؤلاء التجار أن يسرقوا ثمة رفات القديس مرقس (سان مارك) الذى غدا شفيع مدينتهم (البندقية) ، والذى كان حتى ذلك الحين ، وفقا للسيرة التى تتعلق بنقل رفاته (٦) ، موضوعا لتقديس خاص من جانب البنادقة الموجودين فى الاسكندرية ·

---

(١) Cenni, T. C. I, 459 et s.

(٢) Cenni, I. C. 11. 79 ; Jaffé, Monum, Carol. p. 327 ; cf. Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, I, 225 et ss.

(٣) Dandolo, p. 167.

(٤) — Zon et Cicogna, à la Chronique de Canale, dans l'Archiv. Stor. ital. T, VIII, p. 710.

(٥) الواقع أنه لا أحد يصدق أن العاصفة القت بهم رغما عنهم فى ميناء الاسكندرية · (Dandolo, p. 170).

(٦) Acta ss. Boll., Avril, III, 353 et ss.

وبالنسبة الى تعيين المنتجات الغربية التى كان البنادقة يزودون بهـــا اليونانيين والعرب ، فليس عندنا بشأنهـا سـوى بعض الفـروض : كانت على الراجح أصوافا ، وخشب البناء ، وأسلحة ؛ و ٠٠٠ عبيدا • ولكننا نعرف معرفة أفضل ما كانوا يستوردونه من الشرق ؛ ويزودنا التاريخ المشهور الذى سجله راهب القديس جال St. Gall في هذا الخصوص بمعلومات قيمة ، اذ يحكى أن عددا من رفاقه كانوا يلبسون ذات يوم فى رحلة قام بها شارلمان فى ايطاليا ثيابا فخمة تتعارض مع بساطة الأمبراطور وتقشفه ، وكانوا قد اشتروها فى مدينة بافيا Pavie حيث أقيمت وقتئذ سوق كبيرة ، وكان هناك تجار بنادقة يبيعون سلعا قيمة من الشرق الأدنى ، ولا يذكر لنا المؤرخ مصدر هذه الثياب ، ولكن بالنسبة لقراء القاقم ، فان كل ماذكر عنها يشير الى بيزنطة بسبب علاقتها بروسيا ، كما يشير الى سوريا ما ذكره عن ثياب مدينة صور الأرجوانية (١) • أما الأقمشة المتعددة الألوان المنسوجة أو المطرزة بصور الطيور (٢) • فلعلها يونانية أو عربية فارسية ، لأن ذوق هذا النوع من الزخارف كان مشتركا عند الجنسين • هذه الفترة تجعلنـا نتتبع الاتجاه الذى كانت تتخذه البضـائع التى يستوردها البنادقة وقد عقد شارلمان مع أمبراطور الشرق عدة معاهدات تحالف ، ومن الراجح أن الأمبراطور تكفل بهذه المناسبة برعاية مصالح البنادقة ، وأن شارلمان منحهم الحرية التامة فى مزاولة التجارة فى ولاياته • حقا ان الوثيقة الخاصة بهذا الامتياز لم يعد لها أثر ، غير أنه يمكن اعادة انشاء مضمونها على وجه التقريب، أما بوساطة خطابات التعزيز التى أعطاها خلفاؤه من الأباطرة والملوك ، والتى يشـــار فيهـا الى وثيقة شـــارلمان الرسـمية أو بوســـاطة « تاريخ الطينو » Chronique d'Altino (٣) •

والشىء الذى يمكن تأكيده بصورة ايجابية تقريبـا هو أن شارلمان منح البنادقة حرية التجارة فى أمبراطوريته بشرط أن يدفعوا الضرائب المعتادة فى أماكن رسو السفن ؛ وعند ممرات الأنهار • وكانت ايطاليا العليا من بين أقاليم هذه الأمبراطورية الشاسعة أقربها الى البندقية ، وثمة طريقان ، نهر البو Po

---

(١) يبدو اذن أن مصنع النسيج الأرجوانى فى صور استمر قائما تحت سيادة العرب ، ولكنه لم يعد يعمل لحساب بلاط القسطنطينية ، ففى هذا البلاط كانت هذه الصناعة تجرى على نفقة بيت المال ، وفى دار الامبراطور نفسه ، وهذا ما انتهى اليه ، و٠أ٠ شميث W. A. Schmidt من كثرة ذكر عبارة : blatta byzantea فى Anastasius Bibliothecarius

(٢) يبدو أن المؤرخ كان يعتقد أنها طيور حقيقية ذات ريش مختلف الألوان يلصقها أفراد الحاشية على ثيابهم •

(٣) بخصوص خطابات التعزيز انظر :

— Romanin, Storia di Venezia, I, 359, 364, 366, 384.

وبخصوص الـ... انظر دراسة .

— Kohlsbütter, Venedig unter dem Herzog Peter II. Orseolo (Gött, 1868), p. 75 et ss.

ونهر أديجة adige مصباهما بعيدان قليلا عن المدينة . وتشكل تعرجاتهما شريانين تجاريين كبيرين ، يتيحان لسفنها المرور حتى داخل البلاد وعن طريق نهر بو تصعد السفن حتى مدينة بافيا Pavie ، وكانت هذه المدينة القائمة عند ملتقى ممرات الألب الكبرى متصلة بفرنسا وسويسرا وألمانيا عن طريق مجرى سانت برنارد ؛ وسبلوجن Splugen (١) • وكانت بافيا وقتئذ مدينة كبيرة ؛ يحمل اليها البنادقة على مايبدو منتجات الشرق الادنى بنوع خاص • ولانستطيع القول عما اذا كانت مدينة فيرونا على نهر أديجة ، وعلى مسافه منها التيروك تستفيدان بعض الشيء من تجارة البنادقة مع الشرق الأدنى •

وبعد العصر الكارولنجي ازدادت تجارة البندقية مع اليونانيين البيزنطيين نشاطا يوما بعد يوم . وأسهم في ذلك بقدر كبير العلاقات المتصلة التى كان الأدواج يوتقونها مع الأباطرة (٢) • وكان لويتبراند Luitprand أسقف كريمونة قد أقام بالقسطنطينية بصفة سفير مرتين ، الاولى فى ٩٤٩ ـ ٩٥٠ والثانية فى ٩٦٨ فوجد فيها عددا من البنادقة فى الجيش اليونانى ، كما رأى فى الميناء سفنا تجارية فينيسية ، ولاحظ أن موظفى الجمارك اليونانيين يفتشون السفن، ويفحصون المنسوجات الحريرية المشحونة بها ، ويدمغون بعض القطع المصرح فى ذلك الحين بنقلها ، ويصادرون قطعا أخرى يحظر القانون تصديرها • وتحدث الأسقف بنفسه مع موظفى الجمارك وشرح لهم أن اجراءات الحظر التى يقومون بها غير مجدية ، وأن الأمالفيين والبنادقة يعرضون فى أسواق الغرب أجمل الحرائر البيزنطية ، وهى ذات الحرائر الممنوع تصديرها ، وأنه من السهل اذن التهرب من نتائج التفتيش الرسمى (٣) • ولابد أن رحلات السفن التجارية الفينيسية الى اليونان كانت متواترة ، ان لم تكن منتظمة ، والدليل على ذلك أن البنادقة كانوا يتولون مهمة نقل الرسائل بين ايطاليا العليا وألمانيا والأمبراطورية اليونانية • وتسبب هذا الامر ذات يوم فى مشاكل مؤلمة : ففى عام ٩٦٠ وصل بهذا الطريق الى البلاط خطابات سببت به كربا شديدا ، وأوقع الأمبراطور سخطه على الذين أحضروا له هذه الخطابات : لذلك كانت الرسائل التى يلتمس بها أصحاب السلطة فى البندقية ومرؤوسوهم عطف الأمبراطور تقابل بأسوأ ما تكون المقابلة • وبلغ هذا الأمر مسامع الدوق بيتيرو كانديانو الرابع Pietro Candiano IV ، وللفور منع منعا باتا أداء هذه الخدمة الخاصة

(١) انظر ملاحظات كولشوتر ، المرجع السابق ص ١٨
(٢) من وجهة النظر هذه يحسن الاطلاع على مجموعة :
— Armingaud, Venise et le Bas-empire, dans les Archives des missions scientifiques, Série II, T. IV, p. 328 et ss.
(٣) Luitpr. I.C. p. 350, 357, 359.

بنفل الرسائل ، حتى لا يترتب على ارسال خطاب مكدر ، يسلم الى صاحب الشأن بشىء من الطيش ، أن يفقد التجار البنادقة عطف الامبراطور ، وهم فى حاجة شديدة الى عطفه ، وأمست رسائل الدوق من ذلك الحين هى وحدها المستثناة من هذا الاجراء (١) ، وكانت علاقات البنادقة بالعرب عرضـــة لأن تثير مشـــاكل أكثر خطورة ٠ ذلك أن من بين الأشياء التى كانت تحملها السفن الفينيســية أسلحة ، وخشب من المستعمل فى بنـاء السفن ، وهو وارد من غابات دلماشــيا Dalmatie ، أما الأسلحة فربما كانت خارجة من مسابك سيتريا Sterie وكارنثيا Carinthie (٢) ٠ ولابد أن الأباطرة الحربيين من الأسرة الباسيلية كانوا غاضبين من رؤيتهم ربابنة السفن الفينيسية وهم يزودون بالعتاد الحربى المسلمين الذين كانوا يشنون عليهم حربا ضروسا فى آسيا الصغرى وسوريا وكريت ٠ وفى عـــام ٩٧١ بعث الامبراطور يوحنـــا تزيميسيس Jean Zimiscès بشكاواه الى الدوق عن طريق السفراء ، وهدد بحرق السفن المستخدمة فى هذه التجـارة ، أينما وجدت ٠ وللحـــال حظـر الدوق بيع الأسلحة الى المسلمين أو تزويدهم فى بلادهم بخشب يمكن استعماله اما لبناء السفن أو تسليحها ، ويستثنى من ذلك ألواح خشب الدردار أو الحور التى طولهـا خمسة أقدام ، والأدوات المنزلية الخشبية (القصعات والجفنات) ، ويعاقب كل مخالف بغرامة جسيمة ، أو يعدم اذا كان معسرا ٠ وطبق هذا الاجراء فى الحال على ثلاث سفن كانت على أهبة الابحار ، اثنتين منها متجهتين الى المهدية (ميناء القيروان) والثالثة الى طرابلس (بأفريقيا) (٣) ٠ ولا يجوز أن نستنتج من هذه الواقعة أن شمال أفريقيا كان السوق الرئيسية للخشب والأسلحة ، فلم يكن الأمبراطور اليونانى ليهتم كثيرا بالقضاء على هذه التجارة لو لم تكن البندقيـة تزود بها أيضا المسلمين فى مصر وسوريا ٠ ولعل الوسيلة الأقوى فعالية هى حمل سلطات البندقية على الغاء كل صلة تجارية بالمسلمين الغاء مطلقـــا ؛ ولكن الامبراطور اليونانى كان يعلم تمام العلم أنه سوف يصطدم بذلك بمقاومة شديدة ، ولم يجرؤ

---

(١) كانت هذه الرسائل من بافاريا ، وسكس ، ولومبارديا ذات صلة بالسياسة بطبيعة الحال ٠ وفى هذا الوقت كان امبراطور المانيا أوتو الأول ، والمركيز برنجر (من ايفريا) يتنازعان سلطة الملك فى ايطاليا ، وكان بلاط بيزنطة على علاقة ودية بالامبراطور أوتو الأول ، ولم يكن الامبراطور اليونانى رومانوس الثانى الذى تولى الحكم عام ٩٦٠ يتوقع خيرا كثيرا من الأمير الثانى ٠ والواقع أن بيرنجر كان هو الذى طرد من ايطاليا الملك هوج ، ملك بروفانس ، حما رومانوس ، وابن هوج لوثير الذى تشفع من أجله الامبراطور لدى بيرنجر ، انظر :

— Luitpr. dans Pertz, ss. III, 337.

ومات مسموما بيد بيرنجر ــ هذا على الأقل ما أكدته الشائعات ٠ يمكن اذن أن نفترض أن كاتبى الرسائل المشار اليها كانوا أعداء لأوتو الأول ٠

(٢) Gfrörer, Gregor VII, 215 et ss.

(٣) Taf. et Thom. I, 25-30.

على اقتضاء هذا الامر . الواقع أن البنادقة كانوا قد اعتادوا هذه التجارة حتى أصبحت لهم ضرورة حيوية ، ولم يتقبلوا الحظر الذى فرض عليهم الا لانهم شعروا أن مساندة ولو غير مباشرة تبذل للمسلمين ليحاربوا المسيحيين تكون بمثابة اعتداء على الآداب العامة . وبالاجمال كانت جهودهم تميل دائما الى تعزيز علاقاتهم أكثر فأكثر بالعالم الاسلامى . وقد أقام الدوق بيترو الثانى أورسيولو Pietro II Orseolo مجده على انماء مدينته ومسقط رأسه ، جمالا وثراء (١) ؛ وجمع الى هذا الشعور الوطنى عقلا راجحا وأفقا واسعا مجردا من كل تعصب ، ومن ثم بعث بالسفراء الى « كل » الأمراء المسلمين واستطاع أن يكسب مودتهم(٢) . ويبدو لنا أن فى هذا شيئا من المبالغة ، وأنه ينبغى ابداء بعض التحفظات . من ذلك أن كولشوتر Kohlschütter (٣) يستثنى بحق بلاط الأمويين فى قرطبة . وأرى أنه يمكن أيضا استثناء بغداد التى كان موقعها النائى بداخل القارة يجعل الوصول اليها عسيرا على المسافرين المسيحيين . كان هؤلاء المبعوثون يقومون على الأرجح بزيارة بلاطات حلب ودمشق والقاهرة والقيروان وبالرمو (٤) ، ويعودون ومعهم بلا شك امتيازات تضمن من جديد لتجار البندقية حسن استقبال مسلمى سوريا وشمال أفريقيا وصقلية . وفى الوقت نفسه بعث اورسيولو سفراء الى القسطنطينية حيث كان يتولى الحكم وقتئذ الأمبراطور باسيل الثانى بالاشتراك مع أخيه قسطنطين ، وكلفهم أن يطلبوا خفض الضرائب على السفن التجارية الفينيسية فى الأمبراطورية اليونانية . والواقع أنه فى كل زمان كان على كل سفينة يستأجرها تجار بنادقة ، قادمة من البندقية أو من أى ميناء آخر أن تدفع عند مدخل مضيق أبيدوس Abydos أى الدردنيل رسما لايتجاوز « صوليديين » Solidi . غير أنه جد فى الأمر بالتدريج مطالب أكثر من ذلك بحجة أو بأخرى ، وأثبت تحقيق أجرى على ما يحتمل بناء على طلب سفير البندقية أنهم كثيرا ما اقتضوا وحصلوا بالفعل على أكثر من ٣٠ صوليدى ؛ وأن الأمبراطور قد فرض رسما للدخول من صوليديين؛ ولكن رسم الخروج يمكن أن يكون أكبر من ذلك ، دون ضرر ، لأن البنادقة يصدرون من الأمبراطورية اليونانية منتجات أثمن وأغلى بكثير من المنتجات التى يستوردونها اليها ، وقد تحدد رسم الخروج بمبلغ ١٥ صوليديا فقط ، فكان على السفن الفينيسية اعتبارا من تلك اللحظة أن تدفع بالاجمال ١٧ صوليديا . ولما كان فى هذا امتياز خاص ، فانه حظر على البنادقة ـ والا حرموا من هذا

---

(١) Johannis Diaconi Chron. Venet., dans Pertz, ss. VII, 29.

(٢) Johannis Diaconi I. c. ; Dandolo, dans Murat XII, 223.

(٣) Venedig unter Peter II. Orseolo, p. 18.

(٤) Kohlschütter, Op. cit., p. 16-17 : Gfrörer, Byzantische Geschichten, I, 375.

الامتيـــاز ـ أن يشحنوا سفنهم ببضائع تنتمى الى أمالفيين أو يهـــود أو باريين (سكان بارى) (١) ، الخ والادعاء بأنها بضائعهم • ومن جهة أخرى ، ولازالة كل شكوى من جانب البنادقة من المغالاة فى المكوس ، سحب من صغار موظفى الجمارك ومراقبى الموانىء مهمة تفتيش السفن الفينيسية وسلطتهم القضائيـــة بشأن بحارة هذه السفن ، وكلف بهذه المهمة ـ كما كان فى الماضى ـ موظفا كبيرا من موظفى المالية ؛ كما نص على أن السفن التى تريد الابحار لايجوز احتجازها دون مبرر جدى أكثر من ثلاثة أيام • وكان على البنادقة من ناحيتهم أن يتعهدوا بوضع سفن تحت تصرف الحكومة اليونانية فى كل وقت لنقل جيوشها الى ايطاليا ؛ وصدر هذا المرسوم الهام فى شهر مارس عام ٩٩٢ (٢) ولكننا لا نملك النص اليونانى الأصلى للمرسوم ، وليس معنا سوى ترجمة لاتينية أعجمية ، فضلا عن أنها غير كاملة (٣) •

وبعد أن تم اعطاء دفعة جديدة لتنمية تجارة البندقية مع الشرق بالطرق الدبلوماسية ، بقيت عقبة لايمكن ازالتها الا باستخدام القوة وحدها ، وتتمثل هذه العقبة فى قراصنة كرواتيا ، وهذا ما فعله بيتيرو أورسيولو فى عام ١٠٠٠ ، اذ أعطى هؤلاء القراصنة درسا قاسيا ، وفَرَض عليهم الجزية (٤) ؛ وبعد هذه الضربة الشديدة تم له اخضاع الدالماشيين فى رومانيا حتى راجوزة Raguse (دبروفنك حاليا ـ المترجم) ، ومن هذا الحين أصبحت البندقية سيدة البحر الادرياتى بلا منازع •

كل هذه الجهود لم تمنع الدوق من الاهتمام بأن يكفل لشعبه حرية التجول على طرق ايطاليا وأنهارها ، فجدد مرارا مع صـــديقه الأمبراطور أوتو الثالث المعاهدات القديمة (٥) ، وكانت هذه المعاهدات قد أقرها منذ عهد شارلمان عدد من ملوك ايطاليا العليا ، ثم أوتو الأول ، وأوتو الثانى ؛ وفى كل مرة كان ينص فى المعاهدات على أن يتولى الأمير حمـــاية التجـــار البنادقة الذين يرتحلون بهذا البلد • وفى عهد حـــكومة أوتو أورســـــيولو ، ابن بيتيرو الثانى وخليفتـــه

---

(١) Longombardos de civitale Bari.

(٢) Kohlschütter, p. 65 et s.

(٣) Taf. et Thom, I. 35-39 ; Cf. la discussion de Kohlschütter, op. cit., p. 11-14, 65 et s. : Gfrörer., Op. cit., p. 359 et ss. ;

غير أن هذا الكاتب يدعى كثيرا أنه يقرأ بين السطور ، فى هذه النقطة وفى غيرها بوجه عام •

(٤) Hirsch, Heinirich II., I. 168, not. 3 : Kohlschütter, op. cit., p. 39.

(٥) بخصوص معاهدة ٩٩٢ انظر : Romanin, I, 383 et ss.

وبخصوص معاهدة ٩٩٦ انظر : Joh. ioc. Chronis-venet I.C. p. 30.

(١٠٠٩ ــ ١٠٢٦) صدر مرسوم للأمبراطور هنرى الثانى على الأرجح (١) يحظر على البنادقة عرض حرائرهم للبيع فى أى مكان خلاف بافيا Pavia ، وسوقين آخرين يصعب تحديد موقعهما (Mercatum S. Martini et Olivum) (٢) ؛ غير أن هذا الحظر لم يكن سوى حظر مؤقت • وبوجه عام لم يكن مما يتعارض مع مصالح الألمان أن ينشر البنادقة منتجات الشرق الى مدى بعيد ، لأنهم كانوا على غرار اللمبارديين مضطرين الى الاتصال بالبندقيـــة للحصول على المنتجات التى يحتاجون اليها ، كما تتكفل البندقية فى مقابل ذلك بتصريف منتجاتهم فى الشرق • لذلك كان الناس ، حتى فى وسط ألمانيا ؛ يتابعون باهتمام رحلات البنادقة • وفى عام ١٠١٧ غرقت أربع سفن ضخمة محملة بالتوابل ، فذاع خبر هذه الكارثة حتى وصل الى مرزبورج Mersebourg التى اهتم أسقفها تييتمار Thietmar بتدوين هذا الخبر فى سجله التاريخى (٣) •

ونذكر أيضا ، كدلالة على خطوة جديدة فى تقـدم تجارة البندقية ، المزايا التى منحها لهذه المدينة الامبراطور الكسيوس الأول كونينوس اعترافا بالمعونات التى تلقاها منها فى فترة حرجة : اذ ما أن اعتلى العرش (فى ابريل ١٠٨١) حتى تعرضت امبراطوريته لغزو خطر ، فقد حشد أمير بارع فى فنون الحرب كلها ، وهو الدوق النورماندى روبرت جيسكار فى ميناءى برنديزى واوترانت Otrante جيشا قليــل العدد ، ولكنـه ممتاز ، تأهب به للاســتيلاء على بعض أقاليــم الامبراطورية اليونانية • وكان فى مقدور الامبراطور أن يواجه النورمان بجيوش كثيرة العدد ومدربة على القتال ، لاينقص أفرادها الشجاعة والاقدام ، ومع ذلك رأى من الضرورى البحث عن حلفاء • واسـطول القوى فى مثل هذا الوقت عون له قيمته ، وفى مقدوره أن يقيم فى وجه العدو مصاعب خطيرة ، اما فى عرض البحر ؛ أو وقت نزول الجند من السفن ؛ بل فى امكانها اذا واتاها الحظ أن تقضى على الحملة برمتها • غير أن الأمبراطور لم يكن يثق كثيرا فى أسطوله ، ومن ثم ولى وجهه شطر جمهورية فينيسيا ، فبعث اليها بالهدايا ؛ ووعدها بهدايا أخرى ، حتى ولو لم ينجح ؛ واستجاب لكل مطالب الشخصيات التى آرسـلها البنادقة الى القسطنطينية للتحالف معه (٤) • ولم يكن ثمة داع لكل ذلك اذ لم يكن بوسع الجمهورية أن تنظر بلا مبالاة الى نابولى وبيزنطة أو حتى السواحل

---

(١) Gfrörer op. cit., p. 435.

ثم أن هذا الامبراطور صدق فى عام ١٠٠٢ على معاهدات الملك أوتو مع البندقية ، انظر : — Hirsch, Heinrich II, I, 235.

(٢) تذييل يضاف فى نهاية : Codex urbinas de la chronique de Johannes. Diaconas, dans Pertz I, c. p. 38.

(٣) Pertz, ss. III, 860.

(٤) Anne Comnène, Alexias, éd. Bonn. I, 191 et s.

اليونانية والايطالية للبحر الأدرياتى تحت سـيطرة قوة حربيـة فتية كقوة النورمان . وكانت تلك مسألة حياة أو موت بالنسبة الى تجارتهـا البحرية . وحتى بفرض أن النورمان لم ينجحوا الا فى الاستيلاء على سواحل البحر الادرياتى الشرقية أو سواحل الجزر الأيونية ، فان البندقية لن تكون بمأمن من هجماتهم . ألم يحاول روبرت جيسكار فى عام ١٠٧٥ الاستيلاء على جزء من الاقليم الفينيسى بأن أغار على سواحل دالماشيا ؟ غير أن النورمان اختبروا آنئذ تفوق البحرية الفينيسـية ، فقد طردهـم الدوق دومينيـك سـلفو Dominique Selvo من دالماشيا ، وأجبرت مقاطعات سبالاتو ؛ وترو ، وزارا ، وبلغراد على التعهد بألا يستنجد أى من مواطنيها بالنورمان أو بأى عدو آخر من عداء البندقية (١) ولعل هذه المعلومة تثبت أن بعضا من سكان دالماشيا كانوا يتحيزون للنورمان ويفكرون فى أن يزعزعوا بمعونتهم تفوق البندقية . ونعود الى عام ١٠٨١ حين هاجم روبرت جيسكار الأمبراطورية اليونانية ، فارسلت مدينة راجوزة الحرة لمساعداته أسطولا حارب الى جانب السفن النورماندية (٢) .

ومن الواضح أن البنادقة فى هذه الأحوال لم يصبروا طويلا على دعوات الكسيوس : ففى شهر يولية عام ١٠٨١ ، قبل التاريخ الذى حدده الامبراطور بثلاثة أيام ، ظهر أسطولهم فى مياه دورازو Durazzo مجهزا بكل سرعة وبعدد كبير من البحارة تحت قيادة الدوج دومينيك سلفو نفسه ، وكان هذا الموقع هو مفتـاح الامبراطورية اليونانية من ناحية الغرب (٣) ، وهذا هو الباعث الذى دفع النورمان الى أن يوجهوا اليهـا جهدهم الرئيسى ، فحاصروها برا وبحرا منذ ٧ من يونية (٤) ، وتصـادم الأسطولان بشـدة ، وتقاتلا ثلاثة أيام (٥) ، وفى اليوم الثانى اقتحم البنادقة مدخل الميناء ، وأجبروا العـدو على رفع الحصار من ناحيـة البحر (٦) ، وفى اليوم الثـالث تمت هزيمـة

---

(١) Dandolo, p. 248; Taf. et Thom. I, 41, 43; Lucius, De regno Dalmat. lib. II, p. 85.

(٢) Guill. Apulus ; lib. IV, v. 134, 302.

(٣) هذا هو الوصف الذى أجراه بصدق لهذه المدينة كارل شوارتز فى دراسته الرائعة للحملات التى شنها روبرت جيسكار على الأمبراطورية البيزنطية :
— Fuldaer Gymnasial - programm, 1854, p. 11.

(٤) هذا هو التاريخ الذى ذكرته أناكومينا :
— Anne Comnène, Op. Cit., éd. Bonn. I, 187.
– ويذكر شهر يونية : — l'Anon. Barensis, dans Murat. III, 173.
أما : — Lupus Protosphotharius, dans Pertz ss. V, 60.
فانه يؤخر الحدث الى شهر يولية ، ولكن هذا غير صحيح .

(٥) بخصوص التفاصيل ، انظر — Schwartz, p. 14-18.

(٦) Lupus Protosp., ibid, p. 60 et s.; Dand p. 248 et s.

الأسطول النورماندى • وفى هذه الأثناء تقدم الكسيوس برا صوب دورازو ، وشن على مرأى من المدينة معركة حاسمة ، ولكنه خسرها ، واضطر الى الفرار، ولم يتوان فى أن يعهد بالدفاع عن القلعة الى فرقة من صفوة مختـــارة من الجند ، من بينهم بنادقة من ســكان دورازو ، وسلم امرة المدينة الى شخص يدعى كوميسكوريز Comiscortès (١) • وتسجل أنا كومنينا Anne Comnène أن البنادقة والأمالفيين وهم الغالبية من سكان دورازو ، وقد أوهن عزمهـم هزيمة الامبراطور ، وخشوا تجدد الحصار فى الخريف القادم ، عقدوا العزم بالاجماع على فتح أبواب المدينــــة للدوق النورماندى(٢) وتحكى السـجلات التاريخية النورماندية بكثير من التفاصيل ــ وهى أكثر دراية بهذه المسألة •• كيف سقطت المدينة بخيانة رجل فينيسى واحد رغم دفاعها العنيف (٣) • وعلى أية حال لم يلق الامبراطور على البندقية مسئولية الخطأ الذى ارتكبـــه أفراد جاليتها فى دورازو ، أو بالأحرى خطأ واحد منهم • فبعد الانتصـــار البحرى الذى تحدثنا عنه آنفا ، بعث بهدايا فاخرة الى الدوج ومعاونيه (٤) •

وفى شهر مايو عام ١٠٨٢ أوفى بوعده ، ومكافأة للمساعدة التى تلقاها من الجمهورية ، منحها بمرسوم مجموعة من الامتيازات • وتعطينا أنا كومنينا لمحة من ذلك ، ولكنها تخطىء فى تحديد التاريخ . ذلك لأنها تربط هــذه الامتيازات بأحداث عام ١٠٨٤ : ففى هذه المرة ، أراد أسطول فينيسى أن يصد محاولة أخيرة قام بها روبرت جيسكار ، فعمل الأسطول مرة أخرى فى البحر الأدرياتى ، ولكنه لم يوفق كما ينبغى (٥) • ويبدو أن النص الأصــلى لهــذا المرسوم قد فقد ، ولكنــه نقل حرفيــا فى وثيقتين لاحقتين أصــدرهما الامبراطوران عمانويل Manuel واسحق Isaac (٦) • وســوف أضرب صفحا عن الهدايا الفاخرة التى وزعت بهذه المناسبة على كنائس البندقية ، والألقاب الرنانة التى منحت للدوج والبطريرك ، لهما ولخلفائها ، وأكتفى بأن أذكر أن التجار الأمالفيين المقيمين بالامبراطورية اليونانية أصبحوا فى هذه الآونة تابعين لكنيسة القديس مرقس • وكانت النقطة الأساسية فى المرسـوم هى الامتيــاز الممنوح للتجــار البنادقة بأن يزاولوا البيع والشراء فى كل ربــوع الامبراطورية اليونانية دون أن يتعرض لهم موظفو الجمـــارك أو المالية أو الموانىء ، وحظر على الآخرين القيام بتفتيش بضائعهم أو مطالبتهم باســـم

---

(١) Anne Comnène 1. c. éd. Bonn, 1. 221.

(٢) Anne Comnène ed. Bonn, I, 223.

(٣) Gaufr. malat. p. 584 et s.; Guill. Apulus, lib. IV, v. 449 et ss.

(٤) Anne Comnène, éd. Bnn. J. 194.

(٥) Ibid, éd. Bonn, I, 286 et s.

(٦) Tof et Thom. I, 51-54, 116 123, 182-186.

الدولة بأداء ضريبة لذلك . وقد جعل هذا الاجراء البنادقة فجأة في وضع متميز عن كل منافسيهم ، وفتح لهم مجموعة لا حصر لها من الموانىء دون أن يلتزموا بدفع أى شيء ، سواء لرسو سفنهم ، أو لشحن أو تفريغ بضائعهم، وأصبح في مقدورهم أن يجوبوا أقاليم شاسعة دون أن يلتزموا بدفع أية ضرائب عن الاستيراد أو التصوير أو البيع أو الشراء . ولابد أن منح البنادقة هذه الامتيازات غير العادية كان فرصة لنمو جديد في نشاطهم التجارى في الامبراطورية اليونانية . ثم ان المرسوم الذى نحن بصدده يدعوهم الى ذلك ، فهو يذكر عددا كبيرا من المدن الواقعة على شواطىء البحر ، أو التى يمكن أن تصل اليها بسهولة البضائع الآتية عن طريق البحر ، يذكرها على أنها أماكن تجارية مفتوحة للبنادقة ، دون أن يتضمن هذا التعداد أى قيد (بالنسبة الى التجارة) على المدن الأخرى . وتبدأ هذه القائمة بشمال سوريا ، وبها أسماء اللاذقية ، وأنطاكية (١) ، ومن هناك يتتبع الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، فيذكر مدن مامسترا Mamistra (mopsueste) وأطنة ، وطرسوس، وقليقية ، وأطليا Attalia (Satalia) فى بامفيليا Pamphylie ثم يصعد شمالا ، ويتبع خطا يمر باستروبيلوس Strobilos فى كاريا Carie وينتهى الى كيو Chio (٢) وفوكيا Phocée (Fog'ia) ويثب فجأة الى أوروبا ، ويفتح مجموعة ثانية تبدأ بأسماء مدن واقعة فى الجزء من الاقليم اليونانى الذى يواجه ايطاليا ، ونجد ثمة أسماء دورازو ، وأفلونا Avlona ، وبوندتزا Bonditza وجزيرة كورفو ، ومودون Modon وكورون Coron ونوبليا Napulie وكورنثيا Corinthe فى البيلوبونيز ، وأثينا ، وطيبة فى اليونان الوسطى ثم نجربونت (ايوبويا حاليا ، ــ المترجم) (Eurippos) وديمترياس Démétrias فى خليج فواوس Volo ، وتسالونيك Thessalonique وكريزوبوليس Chrysopolis أعلا مصب نهر ستريمن Strymon وأخيرا مدن ترافيا Thrace ، وبيريثيوريون Perithéorion وأبيدوس Abydos واندرينويل (حاليا درنة) Andrimople وأپروس Apros واراكليون Héraclée وسلمبيربا Selymbria على بحر مرمرة ، وفى النهاية القسطنطينية ، وقد ذكرت هنا كما ذكرت فى وثائق أخرى باسم Megalopolis (٣) (أى المدينة

---

(١) فى حوزتنا دلائل مختلفة تثبت أن البنادقة كانوا يزورون هذه المدينة قبل الحروب الصليبية . فذات يوم ، على سبيل المثال ، قام بعض البحاره البنادقة بتخليص ابن ملك حربى اسمه قسطنطين بودينوس Constantin Bodinus كان ثمة أسيرا فى أيدى اليونانيين (فى حوالى عام ١٠٧٠) . وفى مرة أخرى كان أهالى بارى الذين سرقوا المخلفات الأثرية فى مير Myre (١٠٨٦ ــ ١٠٨٧) قد قابلوا بأنطاكية بنادقة يدبرون مؤامرة مماثلة : أنظر :
— Joh. Curopal, éd. Bonn. p. 718.

(٢) سوف اتحدث فيما بعد عن اسم ثيولوجوس Théologos الذى أطلق هنا على أفسس

(٣) Nicet, p. 205, 522 ; Eustathius, Opp. p. 234, 271, 273 et s. ;
Documenti sulle relazioni, toscane, coll'Oriente, p. 42.

الكبيرة) ، وهو حقا اسم على مسمى • ومن الطبيعي أن يتردد البنادقة منذ تلك اللحظة ، وأكثر من قبل على موانيء وأسواق الامبراطورية اليونانية ، وأن يعرفوا كيف يستغلون الوضع المتميز الذى جعلهم الامة الأكثر رعاية • وكان لابد من انقضاء زمن طويل قبل أن تظهر أمة خرى تنازعهم مكان هذه الصدارة •وفى هذه الآونة لم يكن أهالىجنوا وبيزا مزاحمو البنادقة فىالمستقبل قد ظهروا بعد فى اقليم الامبراطورية • وكان البنادقة والأمالفيون فى كل العهود مرتبطين بروما الشرقية بوشائج سياسية •

أما بخصوص جنوا وبيزا ، فلم يكن لهذه التبعية وجود ، لأن هاتين المدينتين كانتا واقعتين فى القسم من ايطاليا الذى استقر فيه وساده القوط واللمبارديون والفرنجة على التوالى • وبتأثير النفوذ الجرمانى على هذه المناطق كان نمو استقلال المدن بها أبطأ من نموه فى سائر المدن • وفى البداية كانت السلطة الملكية الممثلة فى الكونتات والدوقات هى المسيطرة بقوة على السلطات المحلية ، وفيما بعد أصبح السادة الاقطاعيون الأقوياء هم المتحكمون فى هذه المدن • وفى القرن الحادى عشر مارس مركيزات توسكى Tuscie (تسكانيا Toscane) سلطتهم القضائية بصفتهم كونتات فى مدينة بيزا (١) ، أما بأشخاصهم ، لأنهم كثيرا ما كانوا يعقدون بها محكمتهم ، واما بوساطة الفيكونتات (٢) ، وفى الوقت نفسه كان لمركيزات بيت أوبرتى Oberti بمحكمتهم الخاصة داخل أسوار مدينة جنوا (٣) • فقط ، قبل الحروب الصليبية الأولى بقليل ، كما سوف نرى فيما بعد ، ضم بورجوازيو المدينتين جهودهم ، ونجحوا فى الحصول على استقلالهم المحلى • وطالما كانت المدينتان اللتان قدر لهما أن تلعبا دورا عظيما وبحريتهما مضطرتين للكفاح خطوة بعد خطوة ضد سادة اقليمين قويين لدعم حريتهما السياسية فانهما صادفتا عقبة بعد أخرى فى طريق تقدمهما •

والمعروف أن جنوب ايطاليا لم يكن هو وحده الذى قاسى من غارات المسلمين فقد تلقت سواحل تسكانيا وليجوريا زيارات هؤلاء الضيوف المرعبين الذين استولوا على جنوا ونهبوها فى عام ٩٣٥ (٤) ، وتحملت بيزا فى عامى ١٠٠٤،

---

(١) Murat. Antig. ital III. 1091.

(٢) Chron. S. Hubert. Andag., dans Pertz ss. VIII, 583; Fiorentini, Vita della Grancontessa Matilda, 2e éd. II, 130.

(٣) Monum. hist. patr. Chartoe, I, 527-529.

(٤) Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia II, 181 et s.

– يحكى أمارى عن هذا الحدث رواية مختلفة ، وفقا لما ذكره الكتاب العرب • وقد اتخذ هذا الحدث من الوقائع الغربية فى زمن مبكر صورة أسطورية ، وبقى تحديد العصر مجهولا • أنظر • Liutpr. Antapod., dans Pertz, ss. III, 316; Dandolo, dans Murat XII. 201 ; Jac. de Voragine, ibid IX, 10 et s. ; Cf. Pallavicino dans les Mem. dell'Acad, di Tornio, 2e série, T. II, 120 et ss.

١٠١١ نفس المصير (١) ٠ على أن كل هذا لم يكن لحسن الحظ سوى أحداث عارضة سرعان مازالت آثارها ، ومع ذلك كان من المستحيل على المدينتين أن تتوسعا طالما بقى القراصنة العرب مسـيطرين على القسم الغربى من البحر المتوسط.يهددون أمن السفن التجارية المسيحية،وقد كانوا من قبل مسيطرين على جزر صقلية والبليار ٠ وكان الموقف خطيرا : اذ لو أنهم استقروا بصفة دائمة فى سردينيا ، الأمر الذى كان يخشى منـه نتيجة لغاراتهم المتكررة لكان فى ذلك قضاء على بحرية ليجوريا وتسكانيا المحاصرتين والمهددتين من جميع الجهات٠ ودرءا لهذا الخطر بذل أهالى بيزا جهودا شـديدة ، وساعدهم أهالى جنوا فى ذلك بشجاعة ٠ وفى مرتين ، عامى ١٠١٥ ، ١٠١٦ سيروا أساطيلهم الحربية الى سردينيا حيث استقر بها منذ قليل قائد من عرب اسبانيا ، هو مجاهد بن عبد الله الأميرى (٢) ، ونجحوا فى طرده منها (٣) ٠ واذ قويت شكيمتهم بهـذا النجاح ، فانهم مضوا للقـاء عرب أفريقيا فى عقر ديارهم ٠ وفى عام ١٠٣٤ استولوا على بونة Bône (٤) (حاليا عنابة ، بالجزائر ـ المترجم) ٠ وتميز عام ١٠٨٧ بحملة هامة : ففى تلك الفترة كان يحكم المهدية الأمير تميم (١٠٦٢ ـ ١١٠٧) من أسرة بنى زيرى ، وهو قرصـان ذائع الصيت أشاعت حملاته البحرية الرعب فى أنحاء بعيدة من البحر المتوسط ، واستعبد الكثير من الأسرى المسيحيين ، وعامل بقسوة تجار بيزا ٠ وكان لابد من الانتقام من هذه الاهانات وكان البابا فيكتور الثالث هو الذى أعطى اشارة البدء فى الثورة المسلحة (٥) ، وعين على رأس الحمـلة قائـدا من رجـال الدين يدعى Praesul Benedictus (القائد بندكتس) ، واشترك فى الحملة جنود من الرومان تحت امرة بانتاليون

---

(١) Marang. Annal Pis., dans Pertz ss. XIX, 238 .

ـ ذكر « مارنج » العامين ١٠٠٥ ، ١٠١٢ ، ربما لأنه اعتمد على التاريخ البيزى ٠

أنظر أيضا : — Dove, De Sardinia insula, p. 65 et s.

(٢) Dove, I.C. p. 50, 63 et ss.

ـ لم يثبت أن العرب امتلكوا سردينيا زمنا طويلا ، أنظر :

— Dove, p. 51 Amari, 1.c. III, 1e p. 5 et ss. 12; Biblioth. Arabo-sicul trad. I., 436 et ss.

(٣) Marang. loc cit.; Dove, p. 65-67. Amari, I. c.. p. 8, 9.

ـ ذكرت هذه الواقعة كتابة منقوشة على حوائط كاتدرائية بيزا ، بلا تاريخ ٠

— Morrona, Pis illustr. I, 155; Marang., 1. c. p. 238; Amari, I. c. p. 13.

ـ يفترض أمارى أن سفن جنوا وبروفانس قد اشتركت فى هذه الحملة ٠

(٤) Petr. Diac. Chron. Cassin, dans Pertz ss. VII, 751.

(٥) أنظر مقال ستريلك :

Strehlke, dans les Denkmäler de Schulz : II, 244 : Guigliecimotti, Storia della marina pontifica nel medio evo, I, 218 et s.

يعرض هنا الأخير الواقعة بصورة أخرى ،

فيقول ان بانتاليون كان تحت امرته الأمالفيين ، وعلى رأس الرومانيين شخص يدعى بييترو Pietro

الأمالفى (١) • الا أن معظم الجيش الذى نقدر المصادر العربية نعداده بحـــوالى ٣٠٠٠٠ رجل على ظهر ٣٠٠ الى ٤٠٠ ســـفينة (٢) كان مكونا من جنود بيزا وجنوا • اســـتولت الحملة أولا على بلدة زويلة Zuila وهى ضاحية تجارية على مشارف مدينة المهدية ، ثم اســـتولت على المدينة نفسها • واذ انتهى الأمر بتميم الى الاعتصام بداخل قلعته ، فانه لم يتوصل الى انسحاب المسيحيين الا بعد أن بذل تضحيات كبيرة من مال وأسرى ؛ واضطر فوق ذلك أن يأخذ على نفســه تعهدات ثقيلة ؛ أهمها — بالنســـبة الى المدن التجارية . الســـماح لتجارها بدخول اقليمه دون أن يؤدوا أية ضريبة (٣) ؛ وهكذا عاقب أهالى جنوا وبيزا عرب أفريقيا ، وفتحوا الطريق لتجارتهم البحرية •

كان من المقدر لأمة أخرى أن تطرد العرب من صقلية ، الا أن البيزيين لم يكتفوا من هذه الناحية بدور المتفرجين • فمنذ زمن بعيد ؛ ورغم وجود المسلمين، كان تجارهم يزورون هذه الجزيرة : ولما كانوا يقاسون المعاملة السيئة من جانب سادة البلد ، فانهم راحـوا يتابعون باهتمام انتصـــارات الدوق النورماندى روجر ، والتى كانت تبشر ببسط ســيادة مسيحية فى المستقبل فى صقلية • ومع ذلك كان تقدم الدوق بطيئاجدا فى نظرهم ، فقد كانوا يودون لو أنه وجه جهوده أولا الى بالرمو ، عاصمة الجزيرة ومركز الحياة التجارية ، ولكنه تردد فى الهجوم على المدينة لأن جيشه كان قليل العدد ؛ وكان قسم من قواته مشغولا فى ناحية أخـــرى • وتوســـل اليه البيزيون دون جدوى أن يتعاون معهم فى حصار المدينة • وازاء رفضه ، قر عزمهم فى عام ١٠٦٢ على أن يغامروا وحدهم بتنفيذ هذا المشروع ، وقام أسطولهم ذات يوم بمهاجمة الميناء ،ودمروا السلسلة التى تغلق مدخلها ؛ واقتحموها ؛ واســـتولوا على بضع سفن عربية مشحونة ببضائع ثمينة ، وأنزلوا فرقا شنت هجوما موفقا تحت أسوار المدينة ؛ غير أن نجاحهم توقف عند هذا الحد ، فلم يستطيعوا الاستيلاء على المدينة نفسها (٤) •

---

(١) Amari, 1. c. p. 102.

(٢)

(٣) Marango, 1, c. p. 239; Gaufr. Malaterra, dans Murat. SS. V. 590 590 et s.

Abou-S. Salt Omeia, dont El Tidjani a reproduit la relation dans ses voyages (Journ. asiat., série V.I.I. p. 375 et s) ;
Amari (Stor. dei mus. III, 171, note); Cf. Biblioth. Arabo-Sic., trad. T. I, p. 440 et s., II, 32 et s., 62 et ss. 153 et s., 213.

(٤) فى كاتدرائية بيزا كتابة تحتوى على قصة هذه الحملة ، وتحدد تاريخها (عام ١٠٦٣ حسب التقويم البيزى :
— Publ. par Morrona, Pisa illustr. I, 157, 2e éd.

أما مارانج فانه يحدد اليوم •
— Marang. I. c. p. 238 et s.

— Gaufr. Malat. p. 569; art. de Hirsch sur Amatus, dans les Forschungen. Zur deutschen Gesch p. 304; Amari, III, 102; Giesebrecht, Gesch. d. deutsch Kaiserzeit III, 3, p. 1082.

وانصرم أيضا قرابة عشر سنوات قبل أن يستطيع النورمان السيطرة على بالرمو (١) ، ثم بالتدريج على الجزيرة بأكملها . وكان لاستيلاء المسيحيين على صقلية أعظم النتائج لصالح الأمم البحرية في أوروبا ، اذ فتح لهم أبواب بلد لم يزل يباهي بشهرته القديمة بالخصوبة ، ووضع في متناولهم كمية كبيرة من الحاصلات الطبيعية والمنتجات الصناعية ، أتيح للعرب الوقت الكافي لاقامتها أثناء احتلالهم الطويل للجزيرة ، من سكر ، وبلح ؛ وقطن ؛ ومنسوجات حريرية. ولم يلبث أهالي أمالفيا (٢) ، والبندقية (٣) ، وجنوا (٤) أن حصلوا من الملوك النورمان على الحق في دخول الجزيرة والتصريح لهم باقامة متاجر فيها ؛ واستطاعوا تزويد حوانيتهم ومخازنهم بهذه المنتجات ، واستيرادها في سفنهم . واجتذب هذا الحدث الأنظار الى موضوعات أخرى ، ذلك أن كل السفن المبحرة من أسبانيا ، أو فرنسا ، أو الساحل الغربي لايطاليا صوب الشرق الأدنى أو شمال أفريقيا كان لابد لها أن تمر على مرأى من صقلية الكائنة وسط طريقها . لم يعد أمام هذه السفن من تلك اللحظة أية مشكلة ! فقد أصبح في امكان السفن التي تمضي بمحاذاة الساحل الغربي للجزيرة أن ترسو بأمان عند ترابانى Trapani (٥) ، وكانت السفن تجتاز دون خوف مضيق مسينا الذي كان شاطئاه خاضعين لسلطة أمراء أصدقاء ، ولم يعد الرسو في موانى مسينا ، وكاتانيا ، وسيراقوسة (٦) التي نما رخاؤها سريعا بتأثير الحروب الصليبية يمثل مشكلة بالنسبة اليهم منذ أن كفلت لهم الامتيازات التي منحها

---

(١) أشك في أن البيزيين أنفسهم نجحوا في الاستيلاء عليها . ذلك لأن الواقعة لم تذكر في تواريخ لاحقة ، ولا يعتقد كثيرا برواياتها ، أنظر :

— Le Breviarium hist Pis. dans Murat. ss. VI. 168; Ranieri Sardo, dans les Archiv. stor. VI, 2, p. 77.

(٢) Hugo Falcandus dans Del Re, Cronisti, p. 283; Gregorio, Considerazioni sopra la storia di Sicilia, T. II, prove, p. 23, lig. 5, 6.

(٣) Mortillaro, Opere I, 379 et s.; 388 et s.; Taf et Thom. I, 135 et s., 171 et ss.; Romuald Salern; dans Pertz ss. XIX, 450 et s., Töche., Heinrich VI, p. 630.

(٤) لا يرجع استيطانهم مسينا الا الى مطلع القرن الثاني عشر ، كما سنرى فيما بعد :
Annal Jan., dans Pertz SS. XVIII, 108.

(٥) بخصوص أهمية هذه المدينة ، أنظر ابن جبير :
Ibn-Giofair, trad. P. Amari dans les Arch stor. it App. 4, p. 41-43

انظر كذلك : — Amari, Bibl. Arabo-sic trad. I, 165 et s.

Gregorio, Discorsi intorno alla Sicilja, I, 135 et ss.

(٦) الادريسي ، الجزء الثاني ٨١ — ٨٣ ، أثبت ازدهار هذه المدن الثلاث في عهد السيادة النورماندية .

انظر أيضا : — Amari, Bibl Arabo-sic, trad. I, 67-73.

وبخصوص سينا ، أنظر ابن جبير ، المرجع السابق ص ٣٣ ، و « أماري » :
—Amari, Bibl. cit I, 144 et s.

اياهم الملوك النورمان استقبالا وديا ، ووثقوا من الحصول بالجزيرة على مساعدة قناصل دولهـم ، أو على الأقل مواطنيهم المقيمين بهـا من أجـل أعمالهم • هذه الملاحظات تعود بنا الى الموضـــوع الخاص بدراســتنا هذه ، أى تاريخ تجارة الشرق الأدنى •

لم يتريث ربابنة السفن التجارية التابعـــة لجنوا حتى يضمن لهـم غزو صقليـة الأمن فى طريقهم الى الشرق : فنحن حين نقــرأ أن جيزولف Gisulf أمير سالرنو (١٠٥٢ ـ ١٠٧٧) (١) كان بدافع من جشع شديد يستولى فى كثير من الأحيان على سفن بيزا أو جنوا التى كانت لسوء حظها تمر أمام سالرنو، فانا نتساءل للفور عن الجهة التى تقصدها هذه السفن ، فتأتينا الاجابة للتو : لابد أنها مبحرة الى سوريا أو مصر عن طريق مضيق مسينا • ولكنا نعتمد فى ذلك على مجرد افتراضات • أما بخصوص أهالى جنوا ، فانا نعلم بشهادة حاج انجليزى أنهم كانوا فى هذا العصر على علاقة تجـارية بفلسطين • فالواقع أن انجلف Ingulf قس كرويلاند Croyland ، بعد أن أدى الحج فى القدس فى ربيع عام ١٠٦٣ ركب البحر ثانية فى يافا فى سفينة من أســطول جنوا التجارى (٢) • ويقال ان جودفروى دو بويون ، فى رحلة الحج التى قام بها الى قبر السيد المسيح (بالقدس) مع كونت الفلاندر وأشراف آخرين ، أبحر أيضا الى الاسكندرية على سفينة من جنوا تسمى لابوميللا la Pomella ، وركب السفينة نفسها عند عودته (٣) •

غير أن جنوا وبيزا لم تبدءا فى الاسهام بنصيب فعال فى تجارة الشرق الأدنى الا منذ الحروب الصليبية ؛ وحتى ذلك الحين كانت هذه التجارة فى أيدى الأمالفيين والبنادقة وحدهم ، وتدين ايطاليا لهؤلاء بنوع خاص بتزويدها بمنتجات الشرق التى كانت تحصل عليها بوفرة والتى أسهمت بقــدر كبير فى تهذيب الطبائع (٤) ، كما ندين لهم بشهرتها فى أنها أحسن مصدر لهذه السلع الثمينة ، والميزة فى أنها بمثابة مستودع لهذه السلع بالنسبة الى العالم الرومانى الجرمانى•

---

(١) Gaufr. Malat. I. c. p. 569, 590.

(٢) Ingulphi Abb. Croyland, Chronic., dans Fell, Rer. anglic script. I, 74.

(٣) Cagaro, De liber civit, orient, dans Pertz ss. XVIII, 40.

لم يرد ذكر هذا الحج فى أى مصدر آخر ثم انه كان موضع شك النقد التاريخى •

(٤) قبل الحروب الصليبية ، نعى بعض الرقباء المتشددين على رجال الدين الايطالى أنهم يكدسون على موائدهم توابل هندية ، ويسيئون استعمالها لاستثارة الأحاسيس المخجلة :

— Ratherius de Vérone, dans son ouvrage, De contemtu canonum, écrit en 963 (dans Dachery, Spicil. II, 188), et Petrus Damiani, vers 1070 (Opusc. 31, cap. 6).

٣ – اليهـود

بقى علينا ، قبل أن ننتقل الى فترة الحروب الصليبية أن نبحث عما اذا لم يكن اليهود الذين يعيشون متفرقين وسط شعوب الشرق والغرب قد أسهموا بنصيب فعال في تجارة الشرق الأدنى • لقد لعبوا منذ زمن مبكر دورا هاما فى التجارة • ففى الغرب لم تكن الغزوات الكبرى عنصرا قليل الشأن من عناصر ثروتهم • ذلك أنهم اذ كانوا محتقرين من كل الأمم التى عاشوا فى كنفها ، فأنهم لم يشاركوا ايا منها فى شئونه • لذلك فبينما كانت الشعوب تتقاتل فيما بينها ، استطاعوا هم أن يتجولوا ويربحوا أرباحا طائلة ، دون أن يثيروا ريبة فيهم ، ودون أن يتعرضوا لأية أخطار ، واتخذهم ملوك القبائل الجرمانية التى استقرت فى الاقاليم الغربية للأمبراطورية الرومانية موردين لهم ، وفى الممالك الجديدة لم يتردد الكثير من أعيان الكنيسة فى أن يشتروا منهم أشياء ثمينة (١) ولما كان اليهود يعيشون فى التجارة فقط ، فأنهم كانوا يقيمون فى المدن وحدها تقريبا ، شأنهم فى ذلك شأن السوريين الذين كثيرا مانجدهم مذكورين معهم ، وكانت مدن ناربون Narbonne (٢) ، ومرسيليا (٣) ، وآرل Arles (٤) ، وجنوا (٥) ، ونابولى (٦) ، وبالرمو (٧) ، الخ مراكزهم المفضلة • بقى أن نعلم ما اذا كان نشاط هؤلاء اليهود الغربيين فى التجارة قد امتد الى الشرق : هذا هو السؤال الذى سنتولى بحثه • ومن الضرورى الالمام قليلا بعادات جريجورى دوتور Grégoire de Tours اللغوية لكى نسلم بأن لفظة Species التى يشير بها الى بضائع اليهود ، تعنى ببساطة épices (توابل) ، وتشمل بوجه عام كل أنواع الأشياء الثمينة • ومن جهة أخرى نطالع فى أخبار الكاتب نفسه أن شخصا يهوديا كان يملك سفينة تبحر من نيس الى مرسيليا(٨)؛ غير أننا لا نجرؤ أن نستنتج من ذلك أن اليهود كانوا فى ذاك الأوان يمتلكون سفنا تذرع البحر المتوسط كله • ومع ذلك نصادف هنا وهناك اشارة الى بعض التجار اليهود الآتين من بلاد الفرنجة لزيارة فلسطين • وكانت تجارة الرقيق

---

(١) Grégoire de Tours. Hist. franc. IV. 12, 35; VI, 5; V11, 23.

(٢) Gregor. M, Epist lib VII,no 24 ; Concil Narbonn, op. Mausi, 1 c.

(٣) Grégoire de Tours, 1. c. V, 11; VI, 17; Greg. M. Epist. I, 45.

(٤) Greg. M. 1. c. ; Vita Coesarü, dans les Acta ss. Boll. Août, T. VI, p. 69.

(٥) Cassiod, Var. 1. IV, ép. 33.

(٦) Procop; De bello goth. 1, 8, 16.

(٧) Greg. II. Epist. IX, 55.

(٨) De gloria martyrum, cap. 97.

التى يؤثرون مزاولتها (١) تجعلهم بالضرورة على صلة بالمسلمين • وكان كثير من الأطباء اليهود يدرسون كتب العرب ، فاذا اقتضى الأمر أن يطبقوا المعلومات التى اكتسبوها على هذا النحو ، لجأوا الى عقاقير شرقية لا يتسنى الحصول عليها الا عن طريق وسطاء التجارة • وكان اليهود فى ذاك العصر يجوبون بصفتهم تجار جملة كل أنحاء العالم المعروف ، ولدينا فى هذا الخصوص دليل ايجابى فى فقرة ممتعة لابن خرداذبة (٢) • كان هناك دواما فى زمن هذا الكاتب ، أى فى أواسط القرن التاسع تجار يهود يؤدون برا وبحرا الرحلة الطويلة من بلد الفرنجة الى الصين : فبعد أن يغادروا بلد الفرنجة بحرا ، ينزلون عند الفرما بمصر ، ويجتازون برزخ السويس فى خمسة أيام ، ثم يركبون البحر ثانية عند القلزم ، ويمرون أمام محطتى الجار Et-Djar (ثغر المدينة) ، وجدة (ثغرمكة) ويدخلون فى المحيط الهندى • وفى أحيان أخرى ، يطرقون قارة آسيا عند مصب نهر اورونت Oronte (نهر العاصى) ويمرون بأنطاكية (وحلب) ويصلون الى نهر الفرات ، ويتتبعون مجراه حتى مدينة بغداد ، ومن هناك يواصلون مسيرتهم حتى المحيط الهندى عن طريق نهر الدجلة والخليج الفارسى • ولكن مهما كان الطريق الذى يتخيرونه . فان غايتهم هى الوصول الى مصب نهر الاندوس (السند) ، ثم الهند ، وأخيرا الصين ، والعودة بالطرق نفسها ؛ غير أنهم لا يعودون كلهم الى بلد الفرنجة ، اذ يتوقف عدد منهم فى القسطنطينية ومعهم بضائعهم • ويتم القسم الاكبر من هذه الرحلة بطريق البحر ، غير أن هناك أيضا طريقين آخرين يستخدمهما الكثيرون ، فيهما المسافات البرية أطول من البحرية ؛ والمسافر اما يبدأ رحلته من فرنسا واسبانيا فيمر من مضيق جبل طارق ويجتاز أفريقيا كلها ، ثم سوريا ، بابل وأقاليم فارس الجنوبية ، وفارستان ، وكرمان ، وينتهى على هذا النحو الى الهند أو الصين ، واما يجتاز ألمانيا (٣) وبلاد الصقالبة حتى مدينة الخزر (اتيل Itil ، أعلى مصب الفولجا) ، ويعبر بحر قزوين ، ثم يعود الى الطريق البرى فيمر ببلخ ، ومنها يتجه الى الصين عبر نهر أوجزوس (اموداريا ، وبالعربية جيمون) • وكان ابن خرداذبة « صاحب البريد » على علم واف بأمور مهنته ، ومن ثم لا ندهش حين

---

(١) Agobardi, Opp. éd. Baluyze, p. 62, 65 ; Rosière, Recueil général des formules, no. 27, 28, 29 : Greg M. Epist IX, 36.

(٢) A. Sprenger (Same passages on the early commerce of the Arabs, dans le Journal of the Asiatic society of Bengal. vol. XIV, 2e part., 2, 1844, p. 519 et ss.

كان سبرنجر أول من نشر هذه الفقرة ، وبعده أدمجها رينو Reinaud فى مقدمته المشهورة لجغرافية أبو الفدا • وأخيرا نشرها باربييه دو مينار مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة : — Journ. asiat., série 6, T. V.p. 512 et ss.

انظر أيضاً : — Richthofen, China, I, 558 et s.

(٣) يذكر النص الاسم العربى لأرمينيا ، غير أن تغييرا خفيفا فى الاسم يجعله « ألمانيا » ، الأمر الذى يتمشى مع الأفكار •

نتصفح اللوحات التى رسمها ، فنرى أنه كان هناك ما لا يقل عن أربعة طـــرق يرتادها التجار ذهابا وعودة بين غرب أوروبا وشرق آسيا ؛ هذا فى زمن كانت فيه المصادر الأوروبية فقيرة جدا فى المعلومـات حتى لنميــــل الى التسليم بأن العلاقات بين هذين القسمين من العالم كانت نادرة للغاية • ويعرفنا ابن خرداذبة أيضا بالأشياء التى كان التجار اليهود يحملونها عبر هذه الطرق : فهى تشمـل فى الرحلة من الغرب الى الشرق خصيا ، وعبيدا من الجنسين ، وحريرا (لا يمكن أن يرد الا من الأمبراطورية البيزنطية) ، وفراء ، وسيوفا ، ومن الشرق الى الغرب ، مسكا ، وصبرا ، وكافورا ، وقرفة ، وغير ذلك من المنتجات المماثلة • ولسوء الحظ مازلنا نجهل موطن اليهود القادرين على زيارة هذا العدد الكبير من البلاد ، وفهم مختلف اللغات ، ويضفى ابن خرداذبة على هؤلاء اليهود نعتا يعبر عنه باربييه دومينـــار Barbier de Meynard فى ترجمته الفرنســــية بكلمـة Rodanites التى يرى أنها تشير الى أصلهم ؛ ولكنها فى الواقع وبيساطة مرادفة لعبارة « جوابو البلاد ، رحالة » (١) ومن ثم لا يتيح هذا النعت معرفة ما اذا كان هؤلاء اليهود من أهل الشرق أو الغرب • ويمكن تأييدا للافتراض الأول (أى أنهم من الشرق) القول بأنه يتعين لقيام أى انسان بمثل هذه الرحلات أن يكون عنده معلومات جغرافية لا وجود لها الا فى العالم العربى ، وبخاصة فى وسطه، أى فى بغداد • غير أنه من جهة أخرى ، كان هناك من اسبانيا الى الصين مجموعة من اليهود متصلة بعضها ببعض بحيث يستطيع الاسرائيليون فى كل البـلاد أن يحصلوا على معلومات غزيرة عن مختلف الأماكن التجارية والطرق والفرص المتاحة• وبفضل هذه المساعدة يستطيع يهود الغرب أيضا القيام بأطول الرحلات • وعلى هذا يمكن التسليم بأنهم كانوا ينظمون رحلات كبيرة لصالح تجارتهم ، ذلك لأن العصر الكارولنجى ، وهو نفس العصر الذى كتب فيه ابن خرداذبة ما كتب كان بالنسبة اليهم فترة رخاء غير عادى (٢) • ويبدو أن المؤلف العربى يقصد بقوله ان تجار الحملة الذين يتحدث عنهم كانوا غربيين ، لأنه فى وصفه ، يرسم الطريق بادئا من أوروبا الى آسيا ، ثم من آسيا الى أوروبا •

(١) Goeje, Bibl. géogr. arab., gloss., p. 251.

(٢) Groetz, Gesch. der Juden, V, 216 et ss., 245 et ss.

– لم يكن من النادر فى ذلك الوقت وجود سفن يهودية • وذات يوم ظهرت سفن على مرأى من موانى غالة الناربونية ، فراح الناس يتشاورون لمعرفة الأمة التى تنتمى اليها ، فرأى البعض أنها تنتمى الى تجار يهود ، غير أن شارلمان عرف بنظره الثاقب أنها من سفن القراصنة النورمان •
— Monach. S. Gall., dans Pertz, ss. II, 737, 757.

الحقبة الثانية

انشاء مستوطنات تجارية على سواحل الليفانت
(شرقى البحر المتوسط)

(عصر الحروب الصليبية)

١ ـ الدول الصليبية فى سوريا فى القرن الأول من وجودها

(ا) المستوطنات التجارية فى الدول الصليبية

لم نكن حملات جنوا وبيزا ضد مسلمى الغرب ، وغزو النورمان صقلية . وهجوم روبرت جيسكار على الامبراطورية البيزنطية الا تمهيدا لمشروعات أكبر نطاقا ، نستهدف الشرق ، أسهم فيها كل شعوب الغرب : تلك هى الحروب الصليبية • وأثارت هذه الحملات حماسة شاملة فى بلاط الأمراء ، وقصور الاقطاع ، وفى المدن والأرياف • وكان الشعور الدينى والروحى بالتأكيد هو الباعث الأول والرئيسى الذى دفع كل طبقات المجتمع الى الاشتراك فى هذه الحركة • ولكن الى جانب هذا كانت كل طبقة تتبع مبدأ ماديا مختلفا : كان هذا المبدأ عند الأمراء والفرسان هو حب القتال والمغامرة ، وعند الطبقات الدنيا الرغبة فى التخلص من وضعها الذى لا يحتمل ، الوضع الذى خلقته الحالة الاجتماعية ، وعند بورجوازية المدن ، التعطش الى الربح • وفى الحملات الصليبية الكبرى التى قادها أمراء من طبقات متفاوتة المرتبة ، بقى بورجوازيو المدن مختلطين بعامة الشعب• من ذلك أن الصليبيين من مواطنى ناربون Narbonne (مدينة بجنوبى فرنسا ، المترجم) كانوا يعملون تحت امرة ريمون ، كونت تولوز (١)

غير أنه بجانب الجيوش الكبيرة التى زحفت برا ، كان هناك أيضا أساطيل كبيرة وصغيرة تتجه الى سوريا • وكانت هذه الأساطيل تجهز وتشحن فى الموانىء الايطالية حاملة الى الجيوش الصليبية فرقا مكونة من بورجوازيين من سكان المدن ، تعمل لحسابها الخاص ، تحت امرة قادتها ، وتأتى بقوات ومعدات مفيدة للغاية ، ان لم تكن ضرورية لا غنى عنها • ولم تكن الجيوش البرية بقادرة وحدها على أن تستولى على الموانىء المحصنة التى كانت فى أيدى المسلمين فى سوريا ، ولم يكن فى وسع الشجاعة والفنون العسكرية عند الفرسان أن تفعل شيئا فى هذا المجال ، فقد كان من الضرورى تدخل الأساطيل لاتمام الحصار ، والبحارة الذين يقاتلون بحرا لمساعدة الجنود الذين يقاتلون برا • وبهذه الصورة أسهم البورجوازيون فى الأحداث العسكرية ، وبذلك اكتسبوا حق الحصول على أرباح تتناسب مع الخدمات التى يقدمونها • وهكذا مثلت مدن ثلاث وبالاخص جمهوريات ثلاث : فينيسيا ، وجنوا ، وبيزا العنصر البورجوازى فى الحروب الصليبية •

---

(١) Raoul de Caen dans les Hist des crois, hist dccid. III, 676, Cf. Raim, d'Aiguilhe, ibid. 266.

والى ذلك الحين ، مارست جنوا وبيزا بنوع خاص نشـــاطهما التجـارى فى القسم الغربى من البحر المتوسط ، أما فينيسيا (البندقية) فانها كانت ترتاد بالأرلى البحر الأدرياتى والبحار التى تحف بالامبراطورية اليونانيـــة • ولاول مرة تتلاقى الدول الثلاث على اقليم مشترك ، هو ســوريا • والى جانب البنادقة الذين كانوا منذ ســنين طويلة يتمتعون بالحـرية ويتفوق لا جـدال فيــه فى مجال البحـــار ، فى ظل الجمهـــورية ، ظهر أهــالى جنوا وبيزا كأنهـــم وصوليون ، محدثو نعمة • ومع ذلك ، فمنذ عدة سنين كانت أســـاطيلهم تحارب المسلمين ، وفازوا بأكثر من نصر مجيد • ومن جهـة أخرى تطورت الحياة السياسية فى الجمهوريتين تطورا سريعا ، وعندما بدأ عصر الحروب الصليبية كانتا منذ قليل تمتلكان كامل حريتهما القومية ، فلم يكن بوسع أية سلطة أجنبية أن تقيم العوائق فى طريق نشاطهما الخارجى • وفى أواخر القرن الحادى عشر كان بورجوازيو جنوا الأحرار قد شكلوا رابطة سياســية (Compagna) على رأسها قناصل ينتخبونهم انتخابا حـرا ، يتولون مقاليد (على رأســـها قناصـــل ينتخبونهم انتخـــابا حـــرا ، يتولون مقاليـــد الحكم بالمدينة رغم معارضة الامراء والأحزاب • ويبدو أن هذه الثورة قد قامت بايحاء من كبار الأساقفة ، غير أنه ليس فى امكاننا اليوم أن نتتبع تاريخها • ولا تذكر حوليات جنوا التى بدأت عام ١١٠٠ انشاء حكومة القناصل ، وانما تذكر عودتها الى السلطة • والواقع أنها الغيت سنة ونصف سنة فى أعقـاب خلافات داخلية • وينبغى ارجاع نشأة حكومة القناصل الى تاريخ سابق ، وعلى الاقل الى سنة ١٠٩٨ ، وربما الى قبل ذلك (١) • وكان للجمهورية فى بيزا نشأة مماثلة •• فبعد أن عارض مركيزات تسكانيا زمنا طويلا تحرر هذه المدنية (أى بيزا) وجدوا أن نفوذهم يزداد ضعفا فى غضون القرن الحادى عشر ، وانحاز ممثلوهم ، الفيكونتات الى « القومون » • ومن ناحيـــة أخـرى أدى طموح بعض أسر النبلاء الذين يريدون أن يحلوا سلطتهم بالقوة محل سلطة المركيزات الى اثارة منازعات داخلية انتهت بهزيمتهم • وفى عـام ١٠٨٥ وصل الأسقف ديبرت Daibert الى فرض وســـاطته ، واعترف الكافة بسلطة قومون البورجوازيين (Commune colloquium civitatis) بموجب ميثاق للسلام (٢)• ويبدو أن هذا الميثاق يحدد نقطة البداية للسلطة الفعلية للقومون • حقيقة ، لا مجال للبحث فى موضوع انشاء وظائف القناصل ، ومع ذلك فاننا نجـــد منذ عام ١٠٨٧ حكاما يحملون هذا اللقب (٣) على رأس البيزيين فى الحملة

---

(١) Ann. Jan., dans Pertz SS XVIII, p. 11, et Caffaro, De liberatione civitatum Orientis, ibid, p. 45.

(٢) Bonaini, Statuti Pisani, 1, 16.

(٣) أنظر الأبيات ١٦١ وما بعدها من القصيدة اللاتينية المؤلفة عن هذه الحملة •

التى وجهت الى مدينة « المهدية » وكذا فى المواثيق الصادرة فى السنوات ١٠٩٤ ، ١١٠٠ ، الخ (١) ٠

وعلى هذا ففى اللحظة التى اشتركت فيها البندقية وجنوا وبيزا فى العمليات العسكرية التى جرت على سواحل سوريا ، لم تكن هذه المدن مجرد قوات بحرية من الطراز الأول ، ولكنها كانت قد أصبحت بالفعل جمهوريات منظمة ٠ وكانت السفن الأولى التى غادرت موانيها متخذة هذا الاتجاه قد أبحرت فرادى تحمل مؤنا وأسلحة والات حصار لجيش الصليبيين الذى كان يزحف من ناحيته برا ، أو تحمل أفرادا من الجنود قاصدين الانضمام الى هذا الجيش(٢)٠ غير أن عددا كبيرا من بورجوازيى جنوا ، من أبرزهم وأقدرهم على حمل السلاح أعلنوا الجهاد الصليبى فى شهر مايو ١٠٩٧ ، ورحلوا على متن اثنتى عشرة سفينة حربية ، وحين وصلوا الى ميناء سان سيميون
على بعد بضعة أميال من انطاكية ، كان جيش الصليبيين قد بدأ حصار هذه المدينة ٠ ومع ذلك لم يستطع هؤلاء الذين وصلوا آخيرا أن يعززوا اتصالهم بقلب الجيش القائم بالحصار الا بعد معارك ضارية ، وانضم آكبر عدد من جنود جنوا الى سائر الصليبيين ، واقتسموا معهم متاعب الحصار وقسوته٠ ومع ذلك لم يبق أولئك الذين لم يبرحوا السفن عاطلين ، وانما انهمكوا فى توثيق الاتصال بالبحر ، وتموين الجيش ، وهى مهمة شاقة ، كبيرة الأهمية (٣) ، وأقاموا حامية فى ميناء سان سيميون ، ومارسوا فيها وحدهم حقوق السيادة (٤) ، وظلوا مستولين عليها حتى ضمت الى امارة أنطاكية الجديدة ٠ وبعد أن استولى بوهيمند Bohémond الأمير الجديد على أنطاكية ، وهب لمواطنى جنوا ثلاثين منزلا داخل المدينة ، وكنيسة القديس يوحنا ، وسوقا، ونافورة (٥) ، وفى نظير ذلك ، تعهدوا بتقديم المساعدة للأمير ضد كل من يحاول

---

(١) Pawinski, op. cit., p. 28-40.

(٢) Raim. d'Aig., dans le Rec. des hist. des crois. 1. c. p. 276, 290 (dans Bong., I, 164, 173) Baldricus, dans Bong., I, 89. Orderic Vital, hist eccl., éd. Le Prévost, III, 479 ; Guill. de Tyr, Y, 4, VII, 21.

(٣) Caffar. De liberat civ. Orient, dans Pertz SS. XXIII, 41-44. Cf. Raim d'Aig. dans le Recueil, I, c. p. 242-290 (dans Bong. p. 143, 173). Guill. de Tyr, V, 4.

(٤) تقول وثيقة لخصت فيها أعمال الجنويين فى سوريا من ١٠٩٧ الى ١١٠٥ :
« Solinum per se ceperunt» : Lib jur. I, 17.
وسوف نعود الى هذه الوثيقة والى اسم Solinum الذى أطلق على ميناء سان سيميون
وفى عام ١١٠١ ، بعد الاستيلاء على أرسوف وقيصرية انسحب الحنويون الى هناك (أى الى سولنيوم)
ليتقاسموا فى هدوء غنيمتهم الكبيرة : (Ann. Jan p. 14).
ومع ذلك لم يدم الاحتلال أكثر من بضع سنوات ٠

(٥) Charte du 14 Juillet 1098, dans Ughelli. It sacr IV, 846 et s.

الاستيلاء على المدينة · وفى هذا التعهد بند خاص يتعلق بالكونت ريموند دو سان جيل Raimond de St. Gilles الذى كان يحتل بضعة مواقع محصنة رفض التخلى عنها (١) · وكان بوهيمند يريد أن يتكفل جنود جنوا بمهاجمة هذا الأمير اذا نازعه ملكية المدينة ، غير أن جنود جنوا كانوا مرتبطين برابطة صداقة مع البروفانسيين ، وكانت لهم صلات عمل مع سان جيل (٢) ، ومن ثم رفضوا ما يطلبه بوهيمند · وعلى ذلك اكتفى فى المعاهدة بالنص على أنه فى حالة ما اذا باشر ريموند أعمالا عدوانية ضد بوهيمند ، يعرض مواطنو جنوا وساطتهم ، فاذا مافشلت هذه الوساطة فعليهم أن يراعوا الحياد · وبالفعل لم يقدم ريموند على اخلاء أجزاء المدينة التى كان قد استولى عليها الا على مضض ، وكان من الضرورى اجلاء رجاله منها بالقوة ·

كان بين الصليبيين الذين اشتركوا فى أول عمل بطولى فى الحرب الصليبية الأولى ، وهو الاستيلاء على بيت المقدس ، جنود من جنوا ، قليلو العدد؛ لأن الجمهورية كانت فى ذلك الوقت فى صميم حرب أهلية : فقد ألغى نظام القناصل ، ولم يعد للجمهورية حكام ، وكان على الأفراد أن يتولوا بأنفسهم تجهيز السفن لرحلات طويلة (٣) · وهكذا وصل الى يافا على متن سفينتين حربيتين بضعةأفراد من جنوا على رأسهم جويوم امبرياكو Guillaume Embriaco وأخوه بريموس Primus ، ولحق بهم هناك سفن أخرى جهزها بعض الصليبيين (٣) · ولما كانوا يريدون البقاء فى هذ الميناء ، فانهم طلبوا مساعدة الأمراء الذين كانوا وقتئذ معسكرين تحت أسوار القدس ، وحصلوا على المساعدة المطلوبة · غير أن أسطولا للمسلمين أقبل ذات ليلة من عسقلون Ascalon وانقض على الأسطول الراسى بالميناء : وكانت المقاومة مستحيلة ، ومن ثم لم يكن لمواطنى جنوا من بديل سوى أن يهجروا سفنهم ومعهم كل مايمكن استعماله فى بناء الآلات الحربية ، ومضوا فلحقوا بالصليبيين القائمين أمام القدس ، وانضموا الى فرق ريموند كونت تولوز ، وقدموا لها ، كمهندسين أثناء الحصار خدمات جليلة (٤) ·

---

(١) Sybel, Gesch. der ersten Kreuzzüge, p. 446, 450.

(٢) Canale, Nuova istoria della republica di Genova, I, 352, II, 493 et ss.

(٣) Pawinski, op. cit., p. 43 et ss.

(٤) يتراوح العدد الاجمالى بين ستة وتسعة :
les msc. de Raim. d'Aig, Recueil, 1, c. p. 294 :
ومن الغريب أن « كافرو » يحدده باثنين فقط : — De liber or. p. 44.

(٥) Caff. 1. c. et Raim d'Aig, p. 294, 298.
يقول جويوم دى تير (الصورى) VIII, 9, 10. انه كان فى عزم الجنويين منذ البداية أن ينضموا الى الجيش ، ولم يطلبوا هذا التعزيز الا لمرافقة الجيش ، ولكن يبدو أنهم لم ينضموا الى الجيش الا غصبا ·

أما بيزا فانها ركزت كل قواها فى تلك الآونة فى اعداد حملة صليبية كبيرة • وفى صيف عام ١٠٩٩ أبحر البورجوازيون القادرون على حمل السلاح على متن ١٢٠ سفينة اتجهت الى سوريا تحت قيادة الأسقف ديبرت Daibert ، ووصل معظمها قبالة اللاذقية (١) • وفى ١٥ من يولية كان بيت المقدس فى أيدى الصليبيين : واستطاع يوهمند أمير أنطاكية أن يقنعهم بمحاصرة ميناء اللاذقية الذى كان خاضعا لليونانيين ، وذلك لحسابه ، الا أن المحاصرين قاوموا بشجاعة • أما سائر القادة الصليبيين فانهم لم يوافقوا على مشروعات يوهمند ، وتوسطوا فى الموضوع ، ورفع الحصار عن الميناء • واذ ترك البيزيون وشأنهم ، فانهم ساروا الى بيت المقدس ، وكان جودفرى دو بويون ، ومن اعتزموا البقاء معه منهمكين بتنظيم شئون الدولة والكنيسة ؛ فلم يكن ثمة مجال وقتئذ لاجراء عمليات عسكرية ، واضطر البيزيون أن يقنعوا بالمساهمة فى الأعمال المتعلقة بتحصين بيت المقدس ويافا (٢) ، وبقى زعيمهم ديبرت الذى عين بطريركا لبيت المقدس ، بقى فى الأرض المقدسة ، وحذا حذوه بلا شك الكثير من رفاقه بأمل أن يحظوا بحمايته ، والمرجح أن يافا أصبحت مركزهم الرئيسى ، لأن جودفرى دو بوبون كان قد خصص حيا بأكمله من أحياء المدينة اقطاعية للبطريرك (٢ من فبراير ١١٠٠) (٣) ؛ وبدا أن للمدينة مستقبلا زاهرا باعتبارها ثغرا للقدس • وسوف نرى فيما بعد كيف نشأت بها جالية كبيرة من البيزيين •

واذا كانت جماعات التجار الايطاليين قد أسهمت بنصيب كبير فى انشاء دول الصليبيين ، فان دورها كان أهم أيضا فى تنظيم هذه الدول • ويمكن أن تؤكد أنه من غير معونة الأساطيل الايطالية ، لم يكن بمقدور اللاتينيين أن يحافظوا على فتوحاتهم • ومن البديهى أن امتلاك الثغور على ساحل سوريا كان مسألة حياة أو موت بالنسبة الى الدول الصليبية ، فكان امتلاكها وحده يضمن لهذه الدول اتصالاتها بالغرب حتى يصلها منه المعونات البشرية والمالية الضرورية لبقائها • ثم ان ملوك هذه الدول لم ينكروا البتة أهمية الخدمات التى أدتها لهم الأساطيل الايطالية ، وبرهنوا على عرفانهم بهذا الجميل بتقديم الكثير من المنح والامتيازات • كذلك كانت القوات البحرية الايطالية من ناحيتها مقتنعة بحاجة هؤلاء الأمراء الى مساعدتهم ، ومن ثم كانت تهتم قبل الاستيلاء على أى مكان أن تشترط ، ثمنا لمساعدتها ، التنازل لها عن بعض الممتلكات والحقوق داخل المدينة وفى ضواحيها • وعلى هذا النحو نشأ عدد كبير من المستوطنات التى تتكون من

---

(١) فى شهر ستمبر غالبا ، انظر :
— Hagenmeyer, Ekkehardi Hierosolymita (Tubing. 1877) p. 183.

(٢) Gesta triumphal. per pisanos facta, dans Murat. ss. VI, 100. Chron. Pis., dans Ughelli, It. sacr. X, 121.

(٣) Guill de Tyr, IX, 16.

بورجوازيين ايطاليين ، والتى أصبحت مراكز هامـة بنـوع ما لتجارة الشرق الأدنى ٠

وكانت القوات التابعة لجودفرى دو بويون قليلة جدا ، فلا يستطيع أن يستولى بها على مدن فلسطين الساحلية ، وكان بعض هذه المدن قويا لدرجة لا يمكن معهـا أن يفكر فى غزوها ان لم يصـله مدد لا يتوقعه ٠ ففى صيف عام ١١٠٠ (١) قدم اسطول قوامه حوالى مائتى سفينة جهزها البنادقة ، وألقت مراسيها عند يافا (٢) ٠ وتعهد هؤلاء القادمون أن يخدموا تحت امرة جودفرى من عيد القديس يوحنا المعمدان (٢٤ يونية) حتى عيد صـعود العـذراء (١٥ أغسطس) ، وطلبوا فى مقابل ذلك أن يتعهد بالتنازل لهم عن كنيسة وموقع ملائم لاقامة سوق ، وذلك فى كل مدينة اسـتولى عليهـا الصليبيون أو يستولون عليها مستقبلا ، سواء فى ذلك الثغور والمدن الداخلية ، واشترطوا كذلك أن يتنازل لهم فى كل موقع يستولى عليه فى الحملة القادمة عن ثلث المدينة ، فاذا نجح فى الاستيلاء على طرابلس ، فانهم يمتلكونها كلها نظير ادائهم جزية سنوية صغيرة ٠ وأخيرا ، يجب اعفاء البنادقة من الضرائب فى مدن مملكة القدس كلها ، ويحظر على أى من اتباع الملك أن يحجز على بضائع سفن البندقية التى تجنح على الساحل (٣) ٠ ويبدو أن هـذه الحملة كان يتوقع لها نتائج عظيمة ، والواقع أنها ضربت الحصار على عكا (٤) ، وهى من أهم ثغور سوريا ، ولكن الحصار لم يأت بنتيجة (٥) ، وكان لابد من الاكتفاء بالاستيلاء على مدينة كايفا Caiffa الصغيرة (حاليا حيفا) عند سفح جبل كرمل (٦)

ولم يكن حصـار هذه المدينـة قد انتهى (٧) حين توفى جودفرى دو بويون (١٨ من يولية ١١٠٠) ولم يتخذ أى اجـراء لتعيين خليفـة له ؛ وكان بوهمند أمير أنطاكية قد وقع فى هذه الفترة فى أيدى المسـلمين ، لذلك كانت الامارات

---

(١) بخصوص تحديد هذا التاريخ ، انظر :
Kugler, Boemund und Tancred, p. 63.

(٢) Dandolo, p. 258. Historia translationis S. Nicolai, dans Flaminio Corner, Ecol. Venet. IX, p. 19.

(٣) تلك هى الشروط المذكورة فى وثيقة معاصرة :
— l'Historia transl. Si Nic. p. 19, 20.
واندولو قد أوجز فى هذه النقطة ، اذ كتب فى صفحة ٢٥٨ :
"immunitatis obtento privil egio»

(٤) المصدر الوحيد الذى ذكرت به هذه الواقعة : Hist-transl S. Nic. p. 22-25.

(٥) داندولو (فى المرجع السابق) يناقض التاريخ وهو يتحدث عن الاسـتيلاء على عكا ٠

(٦) Cf. aussi Alb. Aq. dans Bong. pag. 299-301 ;
— Ibn-Khaldoun, dans les Nov. act. Acad. Upsal XII, 57.

(٧) هذا هو الرأى الذى يؤيده هاجنماير :
Hagenmeyer, Ekkehardi Hierosolymita, p. 202.

الصليبية تجتاز أزمة شديدة • وفى خريف السـنة نفسها نزل جيش جنوى فى ميناء اللاذقية ، وكان وصوله مناسبا فى أوانه ، وتكفل قادته بحل المشاكل القائمة، وبدأوا بأن بذلوا كل مافى وسعهم لاقامة بلدوين (بغدوين) Baudouin كونت أدسا Edessa (حاليا أورفا) على عرش القدس ، وتعيين تانكرد Tancrède وصيا على عرش أنطاكية ، واسترط بلدوين أن يقاتل الجنويون تحت امرته حتى يفتح مدينتين • وقبل الجنويون عن طيب خاطر هذه المهمة وسـاعدوه فى ربيع عام ١١٠١ فى الاستيلاء على أرسوف Arsouf وقيصرية Césarée • (١) وكانت الغنائم هائلة وبخاصة فى قيصرية (٢) حيث نال الجندى العـادى من النقود ٤٨ فلسا ، ورطلين من الفلفل (٣) ؛ وكان أثمن مافى الغنائم « الوعاء المقدس » المشهور Sacro Catino ، وكان من نصيب كاتدرائية جنوا (٤) • وقد أسهمت هذه النتائج الباهرة فى تقوية روح المغامرة لدى أهالى جنوا واجتذابهم الى سوريا ومدنها الثرية • أما بالنسبة الى أولئك الذين ينظرون الى الأمور نظرة بعيدة ، فان الغنيمة لم تكن فى اعتبارهم سوى أمر ثانوى ، وأدركوا مصدر الثروة العظيمة الذى سوف يتيحه للغربيين نمو الحياة التجارية على سـواحل سوريا • وفى عيد الصعود (٢٦ مايو) عام ١١٠٤ فتحت عكا أخرا أبوابها للملك بلدوين (٥) ؛ وفى هذه المرة أيضا قدم أسطول جنوا مساعدة كبيرة أسهمت فى نجاح العملية• ترى من الذى ربح أكثر من غيره فى هذه الغزوة؟ الأمم التجارية الايطالطية التى فتح لها هذا النصر ميناء من أكثر موانىء الساحل أمنا ورواجا ، أو الملك بلدوين الذى ضم الى مملكته موقعا من أمنع المواقع فى سوريا ؟ واعترافا بأهمية الخدمات التى أسداها أهالى جنوا ، منحهم بلدوين فى كل من المدن الثلاث التى فتحها ثلث المدينة ، بالاضافة الى مساحة مماثلة من الأراضى المجاورة ، كما منحهم ثلث ايرادات جمارك ميناء عكا ، ولابد أنها كانت تشكل دخلا كبيرا ' وأعفاهم من

---

(١) التواريخ هى : بالنسبة للأولى ٩ مايو ، وللثانية ٣١ مايو ، وذلك حسب تقدير هاجنماير : Hagenmeyer, Ekkeh. Hierosol. p. 220 et s.

(٢) كانت قيصرية أكثر أهمية قبل أن يستولى عليها الصليبيون ، انظر :
— de Vogué, Les églises de la terre sainte, p. 430.

(٣) Gaffar. Ann. Jan. p. 11-14 ; De liber civ. or p. 45-47 ; Lib-jur. 1, 17.

(٤) يقال ان هذه هى الكاس التى شرب منها السيد المسيح فى العشاء الأخير ، وكا ن المعتقد زمنا طويلا أنها مصنوعة من زمردة واحدة لا نظير لها فى قوامها وجمالها ، ولكن بفحصها جيدا تبين أنها من زجاج :
— Guill de Tyr, X, 16; Jac. de Vorag., Chron. Jan. dans Murat. ss. IX, 32 : La Révue archéologique .. ann. 1845, p. 149-157 (une courte notice sur le catino).

(٥) Foucher de Chartres, dans le Recueil, 1. c. p. 407 et s.; Abb. Aq. dans Bong. p. 335; Guill de Tyr, X, 28; Caffar. Ann p. 14; De liberat. p. 47; Lib. jur. I, 17.

الضرائب فى جميع أنحاء المملكه . تم انه وهبهم بأثر رجعى حيا من أحياء كل من مدينتى القدس ويافا ،وتعهد بأن يمنحهم فى المستقبل حيا فى كل مدينه يستولى عليها بمساعدتهم(١) . وحرص الجنويون حرصا شديدا على أن يضمنوا لأنفسهم الى الأبد هذه الأملاك الشاسعة ، لذلك طالبوا بلدوين وحصلوا منه على تصريح بأن يضعوا فى صدر كنيسة القبر المقدس خلف المذبح الرئيسى لوحة نقش عليها بحروف ذهبية قائمة بالمنح التى نالوها ، وكلفتهم هذه اللوحة الفى دينار ذهبى بيزنطى (٢) . وليس من شـــك فى أن نص هذه الوثيقـــة موجـود فى الـ Liber jurium reipub icoe Genuensis بعد ميثاق التنازل الذى قلنا بضع كلمات عنه (٣) . وهذا النص منقوش بحروف أكبر مما قبله ، وجزء منه بالحبر الأحمر ، ويشمل بأسـلوب موجز للغـاية تعدادا للخدمات التى أداها الجنويون للامارات الصليبية المعاصرة للحملة الصليبية الأولى ، وأهم الامتيازات التى منحها اياهم بلدوين (٤) . ولايقتصر الجزء الأول على سرد الأحداث التى وقعت فى مملكة بيت المقدس نفسها ، اذ نجد فيه أسماء أنطاكية وثغرها سان سيميون ، واللاذقية، وطرطوس Tortose ، وجبلة Gibetet ، ذكرت باعتبارها مسرحا لمختلف العمليات الحربية التى أسهم فيها الجنويون .

وتذكرنا الأسماء التى أشرنا اليها ، بأنه بقى علينا أن نتحدث عن الدور الذى أداه الجنويون فى القسم الأوسط من سوريا ، حيث أسهموا اسهاما قويا فى انشاء « كونتية طرابلس » ، تلك الدولة التى اســـتولى عليها الكونت ريموند التولوزى وخلفاؤه قطعة قطعة .

وفى خريف عام ١١٠١ غادر ميناء جنوا (٥) اسطول صغير ، وحين وصل الى سوريا ، انضم رجال الأسطول الى الكونت ريموند وساعدوه فى الاغارة على مدينة طرطوس ، وتم الاستيلاء على المدينة بعد حصار دام بضعة أيام ، وكان ذلك

---

(١) Fouch. de Chartr. Recueil, p. 387 et s.; Guill. de Tyr. X, 14, 28; Caffar. De liberat p. 48; Lib. jur I, 16 et s.

(٢) Caff. De liber p. 48, 49.

(٣) Le sénateur Federici, dans sa «Lettera a Gasp. Scioppio sulle cose di Genova»; Ansaldo (Atti della Soc. Lig. I, 1, p. 71).
Langer (Polit Gesch. Genua's und Pisa's im XII. Jahrh - Leipz. 1882- p. 156).

(٤) Lib. jur. I, 17.

(٥) قابل هذا الأسطول الصغير فى كورفو الأسطول الذى أحضر الى جنوا الغنيمة التى أخذت من قيصرية ، من يولية الى أكوبر ، انظر : Caffar, p. 14, 47.

فى أواخر عام ١١٠١ أو أوائل عام ١١٠٢ (١) • وكان هذا الفتح نواة لكونتية طرابلس • وفى عام ١١٠٤ استولى ريموند على مدينة ثانية هى جبلة Gibelet الواقعة بين بيروت وطرابلس ، وتم ذلك بمساعدة جيش جنوى آخر ، وهو نفس الجيش الذى استولى من قبل على عكا (٢) • غير أن أهم موقع فى هذه المنطقة ، وهو طرابلس ، أبدى مقاومة أشد ، ودافع به المسلمون دفاعا عنيفا ، واستطال الحصار عدة سنوات ؛ ولم يكن قد انتهى عندما توفى ريموند عام ١١٠٥ • وطالب بوراثة أملاكه فى سوريا ، وادارة المشروعات التى بدأها فى حيـــاته اثنـــان من أقربائه : جو يوم Guillaume كونت ســـرداني Cerdagne ابن أخيـه ، وبرترام Bertram ابنه الطبيعى ؛ واتصل الاثنان بجنوا طالبين المعونة اللازمة لانهاء حصار طرابلس ، فبعث أحدهما بعض السفراء ، وسافر الآخر الى هنـاك بنفسه • وفاز براترام بمطلبه • وفى مستهل عام ١١٠٩ عاد من جنوا الى سوريا ومعه أسطول يضم ستين سفينة • واذ أتاح له وفاة مزاحمه أن يضع يده على كل ما حصلت عليه أسرته فى سوريا من أملاك ، فانه تنازل بموجب وثيقة محررة بتاريخ ٢٦ يونية من السنة نفسها (٣) لصالح خلفائه عن ملكية جبلة التى كان ريموند قد احتفظ بها لنفسه ، ومن ثم آل لجنوا ملكيـة هذه المدينة بالكامل ، وفضلا عن ذلك وهب برترام لجمهورية جنوا قصر القائد روجر Roger (٥) ، وثلث مدينة طرابلس من جهة البحر ، مع الميناء والجزر الواقعة قبالته • حقا لم تكن طرابلس قد وقعت فى قبضته ، ولكن كان من المؤكد قرب وقوعها ، وبالفعل استسلمت المدينة بعد بضعة أسابيع ؛ فى حوالى منتصف شهر يولية (٥) • وبعد هذا الانتصار الحربى ، عقد قادة الأسطول الجنوى معاهدة تحالف مع تانكرد أمير أنطاكية وساعدوه فى اقامة الحصـــار حول جبيللوم Gibellaum التى

---

(١) Fouch de Chart, i.c. p. 399Alb, aq. dans Bong. 326.
Guill de Tyr. X, 13, 19 ; Caff. Deliber. p. 47 ; annal jan, p. 15.

ـ كل المؤرخين العرب • أبو الفدا ابن الأثير ، ابن خلدون يجعلون الاستيلاء على هذه المدينة فى عام ٤٩٥ هـ • الذى يبدأ فى ٢٥ من أكتوبر عام ١١٠١ م • ويرجع « كافارو » هذا الحدث الى عام ١١٠١ م وكذلك بفعل « فوس » على الأرجح •

(٢) Lib. jur. I, 18, D. Vaissette, Hist de Languedoc, IV, 348 et s.

(٣) يظهر اسم القائد العام روجر Roger كثيرا فى مواثيق النصف الأول من القرن الثانى عشر ، والخاصة بشمال سوريا •

(٤) Ritter (Erdk. XVII, 1. p. 606, 619 et s., 625).

ـ فى عصر الحروب الصليبية ، اهديت احدى الجزر الصغيرة الى القديس نيقولا •
St. Nicolas : Wilken, Gesch. d. Kreuzz. VII, 705.

(٥) Foucher de Chartr. p. 420; Caffar Annal p. 15; De liberat. p. 48; Hist. regni hieros. p. 49; Guill de Tyr, XI, 10. Kugler, op. cit. p. 74. Hagenmeyer, Ekkeh. p. 328.

يحدد هاجنماير مع فوش يوم ١٣ من يولية تاريخ الاستيلاء على المدينة •

استسلمت فى ٢٣ من يولية (١) ، وأتم الاستيلاء على هذه المدينة ربط الجزء من سواحل سوريا الذى يملكه البروفانسيون بالاقليم الشمالى الذى يحتله النورمانديون ، وكانت هذه خطوة عظيمة فى سبيل الحفاظ على الدول الصليبية بوجه عام • ومع ذلك لم يزل باقيا بين مملكة القدس وكونتية طرابلس ثغرة شديدة الخطورة : فقد كانت عكا الواقعة فى أقصى الشمال من المملكة ، وجبلة فى أقصى الجنوب من الكونتية مفصولتين بشريط عريض من اقليم لم يفتح بعد : وفى هذا الاقليم تقع مدن صور Tyre ، وسيدون (صيدا حاليا) Sidon ، وبيروت (بيريت) Beryte ، ومن هذا الحين أصبح الاهتمام الرئيسى عند ملوك بيت المقدس أن ينتزعوا هذه المدن من أيدى المسلمين ، ويضموها الى مملكتهم• وفى غضون عام ١١١٠ نجح الملك بلدوين فى فتح اثنتين من هذه المدن : بيروت ، وصيدا ، الأولى فى ١٧ من مايو بمساعدة اسطول جنوى (٢) ، والثانية فى ١١ من ديسمبر بمساعدة صليبيى الشمال بقيادة سيجورد جورسالا فارى Sigurd jorsalafari وأسطول فينيسى بقيادة الدوج اوردلافو (٣) فاليبرو Ordelafo Falier نفسه • ولاتذكر وقائع الحروب الصليبية شيئا عن تعاون البنادقة فى هذه الظروف ، غير أن هذا التعاون أكده فيما بعد داندولو Dandolo فى أخباره (٤) ، وعزز قوله هذا بمواثيق (٥) أثبت فيها أنه فى مناسبة الاستيلاء على صيدا ، تنازل الملك بلدوين لكنيسة القديس مرقس بالبندقية وللدوج اوردلافو فاليبرو عن أملاك وحقوق عديدة فى عكا • وقد فقد النص الأصلى للميثاق المشار اليه ، ومن ثم لانعرف عنه سوى ماذكرناه آنفا ، ولكن من المرجح كثيرا أنه كان يتضمن أيضا تنازلات عن بعض الأملاك لصالح البنادقة•

وانقضت فترة تزيد على عشر سنوات قبل أن يظهر ثانية أسطول ايطالى على سواحل سوريا ؛ وفى هذه الفترة كان البيزيون يحاربون المسلمين فى جزيرة ماجورقا Majorque (مالوركا بالاسبانية ـ المترجم) التى استولى عليها المسيحيون فى وقت ما (١١١٤) ، ولكنها مالبثت أن ضاعت منهم • وكانت جمهوريتا جنوا وبيزا تتصارعان علنا ، صراعا طال أمده ، كان العقبة الرئيسية

---

١٠٠ Ann. Jan. p. 15.

ـ تبعا لابن الأثير (ص ٢٧٤) وابن خلدون (ص ٧١) ، كان تانكرد هو الذى استولى فى الواقع على المدينة ، وألحقها بامارة أنطاكية ، ومنح الجنوبين فى الداخل رقعة من الأرض يقيمون عليها مبانيهم

(٢) Ann. Jan. p. 15; Fouch. de Chartr. p. 420 et s.; Alb. Aq. p. 362; Guill de Tyr. XI, 13.

(٣) Riant, Expéditions et Pélérinages des Scandinaves en Terre Sainte, p. 190 et ss.

(٤) Murat. SS. XII, 264.

(٥) Taf et Thom, I, 86, 91, 145.

التى حالت بينهما وبين متابعة مشروعاتهما فى الشرق ٠ وفى عهد بلدوين الثانى أدى هذا التوقف من جانب الغربيين الى وقوع المسيحيين فى سوريا فى ضيق شديد : فقد جعل المسلمون يناوشونهم من الشمال والجنوب فى وقت واحد ٠ وعندما كان وجود الملك فى الجنوب ضروريا للغاية ، كان مضطرا فى الوقت نفسه للدفاع فى الشمال عن امارة أنطاكية التى كان أميرها آنئذ فى قبضة المسلمين ، ومن ثم أرسل بلدوين الى البندقية طلبا للنجدة ، فى اسلوب شديد الالحاح ، ضمنه وعودا خلابة (١) ٠ ولما كان البابا يؤيده بكل ما يملك من سلطة، فان نداءه قوبل بالترحيب من جانب أهالى البندقية ودوجها دومنيكو ميشيل Domenic Michiel ٠ ومن البندقية أقلع فى عام ١١٢٢ (٢) أسطول قوامه مائتا سفينة شراعية (٣) بقيادة الدوج نفسه ٠ ولكن طال انتظار وصول الأسطول الى سوريا لأن البنادقة توقفوا فى الطريق لفض نزاع بينهم وبين الأمبراطور اليونانى ، وضربوا الحصار قبالة كورفو Corfou ، وفى هذه الأثناء ازدادت الحالة سوءا فى فلسطين ، ووقع الملك بلدوين أسيرا فى أيدى المسلمين (أبريل ١١٢٣) ؛ وكان العدو القادم من مصر يتأهب لغزو البلد برا وبحرا ، وأرسل الأهالى الى البنادقة رسالة بعد أخرى يستعجلون وصولهم ٠ وأخيرا وقر عزم البنادقة على الابتعاد عن كورفو ، واقترن وصولهم الى سوريا بانتصار بحرى عظيم على المصريين قبالة عسقلون ، وهزم فرسانهم الجيش المصرى قبل ذلك ببضعة أيام (٤) ٠ وقد كشف هذان النصران عن شجاعة ضباط الملك الأسير ، وقر عزم هؤلاء الضباط على أن يحاصروا بمساعدة البنادقة موقعا من الموقعين البحريين اللذين لم يزالا فى قبضة الأعداء ، وهما عسقلان وصور : وعلى ذلك عقدت معاهدة (٥) فى أواخر عام ١١٢٣ غالبا ، فى مدينة عكا حيث كان الأسطول

---

(١) Historia-ducum Veneticorum, éd. Simonsfeld, Mon. Germ. hist. SS. XIV, 73; Dandolo, p. 269 et s. et Sanuto qui s'inspire du précedent, dans Bongars, p. 158; cf. Taf et Thom. I, 85.

(٢) بين ابحار الأسطول من البندقية ووصوله الى سوريا عام ١١٢٣ فترة فصل الشتاء ، قضاها الأسطول أمام كورفو ٠

(٣) هذا هو الرقم الذى ذكره المؤرخون البنادقة : ويذكر ارقاما أخرى كل من :
— Fouch. de Chartr. p. 449. et Guill de Tyr., XII, 22.

(٤) بخصوص هذا النصر البحرى ، أنظر :
— le Pactum Warmundi, dans Taf. el Thom. I, 84; Guill. de Tyr, 1. c. L'hist. duc Venet., 1.c. p. 73 et s., et Dandolo, p. 270
وحسبما ذكر هؤلاء ، جرت المعركة على مرأى من Joppé ٠ حقا ، كان أسطول العدو قد رسا ثمة قبل ذلك بعدة أيام ، ولكن بعد هزيمة الجيش البرى انسحب الأسطول الى عسقلان ٠

(٥) فى حوزتنا النسخة الأصلية من هذه المعاهدة ، ونسخ أخرى مدبمة ولكنها سليمة ، نشرها : Tafiet Thom. I, 79 et ss. Guill de Tyr باكملها فى كتابه (XII, 25) ، وعرض داندولو ، ص ٢٧٠ نبذة منها ٠

الفينيسى قد ألقى مراسيه ، وذلك بين نواب بودوان (بلدوين) ، والبطـريرك ويرمند Waremund ، والقائد العام جويوم دو بور Guillaume de Bures (مجتمعين مع سائر الأشراف ، من مدنيين واكليروس فى المملكة) من جهة ، والبنادقة من جهة أخرى ، وعززت هذه المعاهدة الوعود التى أعطاها فيما مضى الملك بلدوين ، وأضافت اليها وعودا جديدة • ونص فى المعاهدة على أنه اذا أسهم البنادقة اسهاما رئيسيا فى الاستيلاء على المدينتين ، يصير ثلث كل منهما ملكا خالصا لهم ، ويبقى الثلثان الآخران للملك ، ويقسم الاقليم وفقا لهذا المبدأ • وفضلا عن ذلك ؛ يجب فى كل مدينـــة تنتمى الى الملك أو الى أحد باروناته ، أن يوضع فى أيدى البنادقة شارع ،وميدان ،وكنيسة ، وحمام ،وفرن — دون ان يدفعوا أى تعويض — وتكون مجردة من ى حق ارتفاق ،ويخصص لهم فى القدس حى تساوى مساحته مســـاحة حى الملك (١) • واحتفظ البنادقة بالحق فى أن يكون لهم فى عكا مخبز ،وطاحونة ، وحمام — رغم أية مطالبة من قبل السكان — وكانوا معافين من جميع الضرائب على المشتروات والمبيعات ؛ ومن رسوم الدخول الى الأراضى التابعة للملك وأتباعه والخروج منها •

وبعد تمـام التوقيع على المعاهدة أجـريت القـرعة لتحديد أى من المدينتين تحاصر أولا • وخرج اسم مدينة صور (٢) فى القرعة ، وكان موقعها منيعا بطبيعته؛ ومحاطا بحصون قوية • وبدأ الحصار فى ١٥ من فبراير ١١٢٤ • وارتأى للبنادقة أن المدينة لايمكن غزوها من ناحية البحر ، لذلك سحبوا سفنهم الحربية كلها الى البر ، فيما عدا واحدة تتجول أمام الميناء ؛ وصنعوا آلات للحصار ، وقاتلوا بشجاعة الى جانب الفرنجة (٣) • ولما كان الفرنجة يعوزهم المال ، فانهم أعانوهم وقدموا لهم مائة ألف دينـار ذهبى بيزنطى (٤) • وفى ٧ من يولية استسلمت المدينة (٥) ، ونفذت المعاهدة فى الحال ، فاحتل البنادقة ثلث المدينة ، ملكا خالصا لهم (٦) ؛ ويدعى البعض أنهم منحوا نصف المدينـة أو ثلثيها عرفانا لهم

---

(١) بخصوص نصوص المعاهدة ، انظر ترجمة جويوم دو بير (Taf. et Thom. I. 85) بالفرنسية القديمة •

(٢) لم يتم الاستيلاء على عسقلان الا فيما بعد ، استولى عليها الملك بلدوين الثالث دون الاستعانة بأسطول ايطالى • ويجعل ويلكن Wilken بحق هذا الحدث فى عام ١١٥٣ ، وتايد هذا الرأى فيما بعد ، أولا بكتابة وجدت فى بارليتا Barletta ونشرها شولز فى : (Denkmaeler Unteritaliens I, 138). ، ثم بمصادر عربية ، أنظر :
— Wüstenfeld, Gesch. der Fatimiden Chalifen, Goett. Abh. XXVII, 1881, sect. 3, p. 92.

(٣) Guill de Tyr, XIII, 1-14; Fouch. de Chartr. p. 479 et ss; Hist. duc Venet. 1.c.p. 74; Dandolo, p. 271.

(٤) هذا المبلغ قرابة ١٣٠٠٠٠ فرنك Hist duc. Venet. 1. c.

(٥) Fouch. de Chartr. p. 465.

(٦) Guill de Tyr, XIII, 14; Dand 1 c.

بما أدوه من خدمات جليلة ، غير أن الدوج رفض ذلك (١) · وحين استعاد الملك بلدوين حريته بعد هذه الواقعة بقليل ، لم يفته أن يصدق على ما وعد به نوابه(٢)، ولكنه أضاف أن على البنادقة أن يحشدوا للدفاع عن صور جيشا يتناسب قوامه مع دخل الثلث الذى يملكونه · أما فى المحرر الأصلى للمعاهدة ، فكان ثمة التزام بعدم دفع الرسوم الجمركية التى تحصل فى المملكة من الأمم التى تمارس التجارة مع البنادقة · وبالتأكيد لم يكن هناك حذف أو اضـافة ، بالصدفة أو عن خطأ ، ولكن الحقيقة أن الملك لم يكن يريد أن يتقيد بشىء فى موضوع الجمارك (٣)·

وباختصـــار ، يتبين من كل ما ســبق ذكره أن أمراء الدول الصليبية لم يستولوا على أية مدينـة من مدن ســوريا الساحليـة دون معاونة الأساطيل الايطالية · وقد أسهم الجنويون فى غزو العدد الأكبر من هذه المدن ، أما نصيب البنادقة فى الغزو فكان أقل من نصيبهم ، ولكنهم ساعدوا فى الاستيلاء على صور ، أهم هذه المدن ·

أما البيزيون بعـد الحملة الطمـوح التى قادها ديبيرت Daibert رئيس الأساقفة ، والتى لم تأت بنتائج ذات شـأن ، فاننا لانراهم بعد ذلك سوى مرة واحدة ، فى عام ١١٠٨ بصفتهم حلفاء للصليبيين ؛ وكان الأمر ، بالصدفة الغريبة يتعلق مرة أخرى بالاستيلاء على « اللاذقية » Laodicée ، ولم يكن الأعداء الذين يحاربونهم هم المسلمون ، ولكنهم كانوا اليونانيين · وانتهت المنافســة التى اشتدت شمالى سوريا بين النورمان وبين اليونانيين الى صراع فاصل للاستيلاء على اللاذقية · وحارب الطرفان بضراوة · ولم يكد الأمير تانكرد يصير سيدا على المدينة (١١٠٣) بعد حصار دام سنة ونصف سنة (٤) حتى وصل جيش يونانى جديد للنجدة واسترد المدينة والميناء · الا أن القلعة ، التى دافع عنها حامية نورماندية ، كانت هى وحدها التى صمدت طويلا ضد عدو يفوقها كثيرا فى القوة (٥) ؛ ومع ذلك فانها استسلمت فى النهاية على ما يبدو ، لأن تانكرد لم يستطع أن يرسل

---

(١) Chron. Altin. 1. c.

يذكر هذا المصدر أنه كان ثمة مشروع باقامة الدوج على العرش بدلا من بلدوين الذى وقع فى الأسر ، هذه المعلومة غير صحيحة بالتأكيد ·

(٢) لم تكن وثيقة التصديق ، فى نقاطها الرئيسية سوى نسخة من المعاهدة ، ويعطى مورات عنها (Murat. Ad. calc. Dandul. p. 274 et s.) نصا غير صحيح ، وتاريخا كاذبا · أما : (Taf. et Thom. I, 90 et ss.) فيعطيان عنها معلومات أصح ، ويحددان التاريخ الحقيقى ، (عكا ، مايو ١١٢٥) ·

(٣) ويلكن Wilken, Gesch. d. Kreuzz. p. 501. ميل هذا عكس ما زعمه ·

(٤) Raoul de Caen, p. 708 ; Ann Comn. II, 107 ; cf. Fouch, de Chartr. p. 407.

(٥) Tudebod. contin., dans le Recueil des hist des crois p. 228 ; Anne Comn., II, 123-126; Raoul de Caen, p. 712, 715 et s.

اليها أية نجدة لانشغاله فى جهة أخرى • غير أنه ما أن استعاد قدرته على التحرك حتى ظهر ثانية تحت جدران الحصن بجيش بيزى ساعده فى الاستلاء عليه وضمه الى امارة أنطاكية (١١٠٨) (١) ؛ وكان قد وعد البيزيين ، قبل استسلام اللاذقية أن يعطيهم ، فى حالة نجاحهم ؛ حيـــا فى كل من اللاذقية وانطاكية يمارسون به تجارتهم ، كما وعدهم بممارسة التجارة بكامل حريتهم ، واعفائهم من الضرائب فى موانيه وأقاليمه بصفة عامة • وبعد الاستيلاء على المدينة ، عزز وعوده بميثاق قائم على نصوص مماثلة (٢) • وقد قيل انه كان هناك أسطول بيزى الى جانب الأسطول الجنوى فى حصار أرسوف وقيصرية عام ١١٠١ ، وعكا عام ١١٠٤ ، وطرابلس عام ١١٠٩ ، ولكننا نشك فى صحة هذه الزمالة فى الســلاح اذ نعلم ما كانت عليه العلاقات بين الجنويين والبيزيين • ونحن اذا فكرنا ، فضلا عن ذلك ، بصدد هذه الحملات الثلاث ، فى أن مؤرخا واحدا ؛ « البير من ايكس » Albert d'Aix هو الذى جمع بين البيزيين والجنويين (٣) ، فى حين أن المصادر الأخرى كلها لاتذكر الا الأخيرين (أى الجنويين) ، فانه من العسير التسليم بأن البيزيين كانوا حاضرين فى هذه الحصارات • ومع ذلك فمن الثابت بشهادة شاهد موثوق بصدقه ، أوردها فوشيه دوشـــارتر Foucher de Chartre أنه كان فى صفوف جيش جنوا فى حصار أرسوف وقيصرية ايطاليون من قوميات أخرى (٤) • كذلك من المحتمل أن نبيــلا بيزيا يدعى جاندولنس Gandolfus كان يحارب الى جوار الجنويين ومعه عدد من أقربائه ، اما فى هذه المناســبة ، واما فى حصار عكا ، وبرز فى القتال بنوع خاص ، ذلك لأن الملك بلدوين الأول شمل أفراد أسرته بالاعفاء من رسوم الجمارك ، أسوة بالجنويين (٥) •

---

(١) فى الوقت الذى تم فيه الصلح بين الأمبراطور الكسس ووهيمند (سبتمبر ١١٠٨) فى دورازو Durazzo لم تعد اللاذقية بالتأكيد تنتمى الى اليونانيين ، ولكن من العسير تحديد التاريخ الذى انفصلت فيه عن الأمبراطوريـــة • ويحدد كوجـــلر لذلك عام ١١٠٦ (Kugler, op. cit., p. 71) أما ويلكن فيحدد له عام ١١٠٨ (Wilken, op. cit., II, 276 et s.) وأما الوثيقة البيزية الأصل ، والتى سوف نتحدث عنها بعد قليل ، فانها تؤيد التاريخ الأخير •

(٢) الميثاقان بتاريخ ١١٠٨ Dal Borgo. Dipl. Pis. p. 85 et s.; Documenti sulle. relaz. tox. coll'Oriente, p. 3.

ـكانت اللاذقية متصلة بالبحر بوساطة شارع ذى أعمدة ، وهذى خاصية تتميز بها المدن السورية • وكانت هذه الطرق ذات العمد ، مع كنيسة القديس نيقولا المبنية عند المدخل تشكل القسم الخاص بالبيزيين • وأضاف الأمير رينو ، بصفة مؤقتة ، ساحة أخرى للبناء واسعة عند الميناء ، أنظر :

— Dal Borgo, p. 86 et s., 94; Doc. sulle relaz. p. 6, 15 et s.

(٣) Ed. Bong. p. 310, 335 et s.

(٤) Recueil, p. 385.

(٥) Lib. jur. reip Jan. I. 16.

وبعد أن ذكرنا المدن البحرية الايطالية الثلاث التى أسهمت اسهاما فعالا فى تأسيس الدول الصليبية وتوسيعها ، لا بد لنا من التنويه بمدينة فى جنوب فرنسا ، هى موسيليا ، والقاء المزيد من الأضواء على الدور الذى أداه المرسيليون فى هذا العمل . ويبدو أنهم قد برزوا قبلا أثناء الحملة الصليبية الأولى : ذلك لأن بلدوين الأول ، اعترافا منه بالخدمات التى أسدوها لسلفه جودفرى دوبويون أصدر لصالحهم فى عام ١١١٧ (١) مرسوما يبيح لهم تخطيط حدود حيهم فى مدينة القدس بحيث لا يسمح لأى أجنبى بالاقامة فى هذا الحى ، وأن يكون لهم به فرن خاص .

وأضاف المرسيليون الى الخدمات التى أدوها فى الأصل ، خدمات أخرى ، وكانوا نافعين ليس فقط لمملكة القدس ، ولكن لكونتية طرابلس ، اما بعمل مباشر أثناء المعارك ، واما بتقديم أموال ، واما باسداء نصائح مفيدة . هذى هى الحقائق التى أثبتها مديحا لهم كل من الملك فولك دانجو Foulques d'Anjou فى عام ١١٣٦ ، والملك بلدوين الثالث فى عام ١١٥٢ . وكانت مكافأة الجالية المرسيلية نظير خدماتها هذه الاعفاء من الرسوم الجمركية ، والقريبة على الانتاج ، والحق فى امتلاك شارع وكنيسة وفرن فى القدس وعكا وكل المدن الساحلية فى المملكة (٢) .

ومن الطبيعى أن تكون لكل الأمم التجارية التى قدمت تضحيات فى الأرواح والمال للمساعدة فى انشاء الدول الصليبية الحق فى امتيازات خاصة يمنحها اياها ملوك هذه الدول . وهناك على العكس من ذلك أمم لم يتأت لها أن تقدم مثل هذه الخدمات ، ومن ثم تخلفت فى هذا المضمار ، مثال ذلك الأمالفيون الذين كانت لهم علاقات قديمة بسوريا كانت خليقة بأن تكفل لهم فى هذه الظروف بعض المزايا . وكان فى أنطاكية قبل اندلاع الحروب الصليبية حى أمالفيا (٣)، بقى على ما كان عليه ، وبنى الى جواره حى جنوى ، الا أن الأمراء الجدد لم يضيفوا الى أملاك الأمالفيين الا شيئا قليلا جدا ، واقتصرت أملاكهم فى مجموعها على

---

(١) يعطى M. Deguignes. ملخصا لهذا الميثاق فى :
les Mém. de l'Acad. des Inscr., XXXVII, 515.
ولكنه ينسبه خطأ الى بلدوين الثانى ، فى حين أن
بلدوين الأول (المتوفى عام ١١١٩) كان ولم يزل يتولى الحكم فى عام ١١١٧ .

(٢) Papon, Hist de Provence II. Preuves, no XVIII ; Méry et Guindon, Histoire des actes de la municipalité de Marseille, I, 183 et s.
— Papon, l. c. no XIV ; Méry et Guindon, I, 182.
— لما ورد فى مرسوم بلدوين ذكر لمبالغ قدمها المرسيليون ، فان هذا المعلومة تتيح لنا أن نفترض ان المرسوم لم يكن تاريخه فى الواقع عام ١١٥٢ ، ولكنه مؤرخ بعام ١١٥٣ ، لأن التاريخ الأخير ، هو تاريخ حصار عسقلان والاستيلاء عليها .

(٣) Ughelli, it. sacr. IV, 847; Paoli, Cod. dipl. I, 27, 38.

ثلاثة حوانيت فى ميناء اللاذقية منحها لهم الأمير بوهمند الثالث (١) . وفى مدينة طرابلس حصلوا فى عهد سيادة الصليبيين على بضعة منازل (٢) ، ذكر منها منزل الفيكونت ، وسوق احتفظوا بها الى أن استعاد العرب المدينة ، وكان الملاك الحقيقيون هم أساقفة أمالفى ، وقد تركوا ريع هذه العقارات لبعض المواطنين الذين تكفلوا بصيانتها على حسابهم الخاص (٣) . وختاما لهذه النقطة نضيف أن عكا هى المدينة الوحيدة بين كل مدن مملكة القدس التى ثبت وجود جالية أمالفية فيها ، لهم بهما بعض الأملاك الى جوار الحى البيزى (٤) . كذلك كان فى جبانة القديس نيقولا قسم لموتاهم ، ومستودع لعظام الموتى بناه نبيل أمالفى يدعى مانسو (٥) . ولم أصادف فى أية وثيقة اسم فيكونت أو قنصل أمالفى فى سوريا .

ما أعظم الفرق بين الهبات الزهيدة التى كانت تعطى للأمالفيين ، وبين المنح الضخمة والتنازلات الكبيرة عن الأراضى للبنادقة والجنويين والبيزيين ! ولكنا نقول ، حتى نكون صادقين ، ان المزايا الموعودة بها لم تكن تنفذ كلها دائما ، وأن البعض منها قد سحب فيما بعد . مثال ذلك أن معاهدة عام ١١٢٣ التى كانت فى الواقع تجديدا وتوسيعا للوعود المبرمة فى عام ١١٠٠ ، والتى أقرت للبنادقة الحق فى ملكية حى كامل (أى بما فيه موضع للسوق وكنيسة وحمام وفرن) فى كل مدينة بمملكة القدس ، هذه المعاهدة لم تنفذ أبدا تنفيذا دقيقا . والحقيقة أن البنادقة أنفسهم لم يتمسكوا بهذه المعاهدة ، دون شك ، على الأقل بالنسبة الى المدن الداخلية ، فيما عدا القدس ، ولكنهم لم يحصلوا بهذه المعاهدة على حقوقهم ، حتى فى المدن الساحلية كلها ، وفى عسقلان التى ضمن لهم فيها الثلث بنوع خاص (٦) ، والمرجح أن الأمر كان كذلك بالنسبة الى المرسيليين الذين كان لهم أيضا الحق فى ملكية حى فى كل مدينة ساحلية .

---

(١) Ughelli, it sacr. VII, 203 ; Pansa, Istoria dell'antica republica di Amalfi, I, 94 ; Camera, Istoria d'Amalfi, p. 204 ; Memorie di Amalfi, p. 202.
وأصدق نص فى هذا الخصوص هو نص كاميرا

(٢) صودرت بعض هذه المنازل ، ولكنها اعيدت الى ملكية أصحابها بحكم أصدره الكونت ريموند الثالث (١٥ من يونية ١١٦٣) انظر Camera, Memorie di Amalfi II, 202 et s.

(٣) انظر وثيقة ١٩ من نوفمبر ١١٨٦ فى Pansa, op. cit., I, 97; dans Camera, Storia, p. 205; Memorie, p. 203 et s.; Ughelli, op. cit. p. 204
وكذلك ملخصات وثائق عامى ١٢٦٧ ، ١٢٨٦ فى : Pansa, II, 53 et s., 137 et s. —

(٤) ملخص لوثيقة فى عام ١٢٦٧ فى : Pansa, II, 53 et s., 137 et s. —

(٥) Pansa, I, 91; Ughelli, VII 203; Camera, Storia di Amalfi, p. 206! id. Memorie di Amalfi, p. 200.

(٦) أنظر الشكوى التى حررها عام ١٢٤٤ البايل (الحاكم) البندقى مارسيليوس جورجيوس فى : Taf et Thom. II, 398. ويطالب فيها بتنفيذ نصوص معاهدات سابقة .

وكثيرا ما رأى الجنويون بمرور الزمن امتيازاتهم وقد انتهكت وأملاكهم وقد نقصت غصبا ، وقدموا لذلك العديد من الشكاوى (١) · بل ان الملك أمورى(١١٦٢ — ١١٧٣) ، بالتواطؤ مع كهنة كنيسة قبر السيد المسيح مضى فى هذا السلوك الى حد محو الكتابة المنقوشة احياء لذكرى الخدمات التى أداها الجنويون للملكة ، وتعدادا للمزايا التى حصــلوا عليها مكافأة لهم على هذه الخدمات (٢) · وأثار هذا العمل مخاوف الجنويين من أن تضيع شيئا فشيئا حقوقهم فى الأملاك التى يتمتعون بها ، لذلك سعوا مرة بعد أخرى لدى البابوات الذين أظهروا لهم العطف، حتى يستطيعوا بفضل تدخلهم أن يعيدوا نقش هذه الكتابات (٣) · ولم تنجح هذه المساعى ، وتصرف معهم بلدوين الرابع ابن أمورى بقصد سيء ، ونازعهم أملاكهم ، وأنكر حقوقهم · وأصابتهم خيبه أمل مماثلة فى كونتية طرابلس : فما أن تسلموا هذه المدينة حتى طردهم منها الأمير برترام Bertram نقضا لما سبق أن وعدهم به (٤) · وليس من الثابت أن الجمهورية أنتفعت بعــد ذلك بالثلث الذى كانت تملكه ، كما نازعها هذا الثلث الكونت ريموند الثالث ، وأرسل اليه البابا أوربان الثالث Urbain III انذارا فى هذا الشأن (٥) ، ولم يثبت بالمرة أن كان لهذا الانذار أى أثر ·

وظهر فى توزيع الأموال التى تمتلكهــا الأمم الثــلاث الأكثر رعاية فى اقليم سوريا تفاوتات كبيرة ، وكان هذا التوزيع يمثل بوجة عام نصيب كل من هذه الأمم عند غزو أية منطقة · مثال ذلك أن البنادقة لم يقدموا أية وحدة عسكرية فى القسم الشمالى من سوريا ، لذلك فانهم لم يمتلكوا بها الا النزر اليسير ، وكان كل مايملكونه فى امارة انطاكية ، وفى كونتية طرابلس محصورا

---

(١) Annal.. Jan. p. 24, 31.

(٢) Annual, Jan. p. 51 ; Mr. de Vogüé (Les églises de la terre sainte, p. 221).

يعتقد السيد فوجويه أن الكتابة محيت بسبب بعض التغييرات التى أجريت داخل الكنيسة ، وأنه ليس هناك ما يثبت سوء نية الملك تجاه الجنويين · ولنسلم بأن هذه التغييرات قد أدت الى هدم كل ما بداخل الكنيسة ، ولكن ذلك لا يمنع من الاحتفاظ بالكتابة ، ونقلها الى جهة أخرى اذا توفر حسن النية ، كما أنه قد وصل الى علمنا تصرفات أخرى عدائية من جانب الملك نحو الجنويين ، فمن المعروف أنه لجأ الى البيزيين ، أعداء الجنويين الألداء ، ملتمسا مساعدتهم له فى حملة يوجهها الى مصر ·

(٣) Lib. jur. 1, 228 et s., 309, 331 et ss.; Ughelli, 1. c. IV, 874 et S. ; Langer, op. cit., p. 156.

وقد اذن كونراد دو مونفيرا ، أمير صور فى عام ١١٩٢ بترميم الكتابة ، غير أن الجنويين لم يستفيدوا من ذلك لأن القدس وقعت منذ عام ١١٨٧ فى أيدى المسلمين ·

(٤) Calff. p. 48, 49.

(٥) Lib. jur. I, 338 et s.

داخل أسوار العاصمة . أما الجنويون فانهم نالوا من الهبات ، عقب الاستيلاء على أنطاكية un fondaco (مستودع) ، وكينسة القديس يوحنا ، وثلاثين بيتا (١) . وفيما بعد ، منحهم تانكرد موقعا للبناء فى ميناء هذه المدينة ، وعقارا (فيللا) خارج المدينة ، كما منحهم فى اللاذقية حيا فى الميناء ، وقصر ابليا Elie وكنيسة (٣) ، مكافأة لهم دون شك على المساعدة التى قدموها له لكى يستولى على جيبل Gibel (يولية ١١٠٩) . وفى هذا الحين تلقى البيزيون ملكا خالصا لهم ، حيا فى أنطاكية ، وشارعا ذا عمد ، وكنيسة القديس نيقولا فى اللاذقية (٤)، فى حين قنع البنادقة بكنيسة ، و (مستودع) fondaco . وبضعة منازل فى أنطاكية (٥) . وجرت الأمور على هذا المنوال فى كونتية طرابلس . ولم يصل الينا طوال القرن الأول من تاريخ هذه الكونتية سوى صك امتياز واحد ، أصدره عام ١١١٧ لصالح البنادقة أحد كونتات طرابلس ، كما أن الهبة التى قدمها الكونت بونس Ponce لكنيسة القديس مرقس كانت قاصرة على بيت فى الميناء (٦) . أما البيزيون فكانوا على العكس من ذلك يمتلكون فى المدينة الكثير من المنازل التى ازداد عددها بهبات أو بالشراء (٧) . أما بخصوص الجنويين ، فان سوء نية الأمير برترام منهم من الحصول على ثلث مدينة طرابلس . وهو الثلث الذى كان لهم حق امتلاكه ، ولكنهم حصلوا عوضا عن ذلك على مدينة بأكملها ، مدينة جبلة Gibelet ، وضيعة « جبـل القائد العـام » Puy du Connetable فكانوا بذلك الأمة الأكثر رعاية .

وكان الأمر على خلاف ذلك تماما فى مملكة القدس ، اذ بقى البيزيون هناك متخلفين على الأمتين الأخريين ، أولا لم يكونوا يملكون بها سوى خمسة منازل فى صور ، وهبها لهم الملك بلدوين الثانى (٨) . وفى غضون القرن الثانى عشر اضافوا الى هذه العقارات ، بالشراء أو بهبات جديدة عدة منازل وأراضى

---

(١) Ughelli, It sacr. IV, 846 et s.

(٢) Cf. sur ce chateau Raoul de Caen, cap. 151.

(٣) Ughalli, It sacra, IV, 847 et s.

(٤) Dal Borgo, Dipl Pis, p. 85 ; doc. sulle relazioni tox. coll' Oriente, p. 3.

، تلقوا أيضا فيما بعد منزلا فى أنطاكية ، وموقعا للبناء فى اللاذقية ، انظر :
— Dal Borgo, p. 86, 93; Doc. p. 6, 15 et s.

(٥) Taf et Thom. I, 102 et s.; 134, 149, 176.

(٦) Taf el Thom. I, 76; cf. I, 146.

(٧) Dal Borgo, p. 95, 84, 84 103; Doc. sulle relaz tox. p. 17, 24, 25.

(٨) (باسفل الصفحة ٧) Doc. sulle relaz tox, au bas de la p. 7.

للبناء ، وسوقا ، وكنيسة ، وحدائق ، وطواحين في الضواحي (١) ، شكلت في النهاية مستعمرة كبيرة وغنية •

وفي عكا تنازل لهم الملكان أموري (١١٦٨) وبلدوين الرابع (١١٨٢) عن أراض لبناء كنيسة ودور عامة وخاصة (٢) • وفي عام ١١٤ أعطاهم الكونت أموري العسقلاني بلا مقابل في يافا موقعا ملائما لاقامة سوق وكنيسة وبيوتا سكنية كثيرة (٣) • ونعلم أن الجالية البيزية كان لها أملاك في القدس وقيصرية ، ووجدنا البرهان على ذلك في وثيقة بها فقرة تتعلق بمنازعات بين البيزيين وبين بطريرك القدس ودير سانتا ماريا دي لاتينا Saneta Maria de Latina بالقدس ، واكليروس قيصرية (٤) •

واذا أردنا المقابلة بين الجنويين ووضع البيزيين ، فان معنا قائمة بالتنازلات التي منحت للأولين في عام ١١٠٤ بموجب وثيقة رسمية للملك بلدوين الأول(٥)، هذه التنازلات تشمل : حيا في كل من مدينتي القدس ويافا ، وثلثا من كل من مدن أرسوف ، وقيصرية ، وعكا وضواحيها ، وكذا من كل مدينة يشترك في حصارها في المستقبل فرقة من خمسين جنويا على الأقل ، وحدث هذا الاشتراك بعد ست سنين في حصار بيروت •

وأخيرا ، كان للبنادقة امتياز وحيد في نوعه ، اذ كان لهم الحق في حصة في كل مدينة من مدن المملكة ، حتى ولو تم الاستيلاء عليها بدون مشاركتهم • وقد رأينا أنهم لم يتوصلوا الى تنفيذ هذا الحق في كل الجهات ، ولكن هذا كان استثناء من القاعدة ، ونحن على ثقة من أن الاتفاقية قد طبقت في حيفا (اسمها القديم Caïffa وفي صيدا ، وهذا ثابت في صك امتياز صادر في عام ١١٦٥ بالنسبة الى حيفا (٦) • وبالنسبة الى صيدا ، فقد أسهم البنادقة في الاستيلاء عليها ، لذلك منحهم الملك بلدوين الأول صك امتياز • ضاع لسوء الحظ • وأنا لنجد ذكرا لهذه المسألة في صكوك لاحقة (٧) تتعلق بشارع في عكا منحوه في هذه الفترة • ونمت أملاك البنادقة بهبة جديدة في عام ١١٢٣ ، وفي الوقت نفسه منحهم الملك في القدس رقعة من الأرض مماثلة في مساحتها

---

(١) انظر براءات أعوام ١١٥٦ ، ١١٦٥ ، ١١٨٧ في Doc. sulle relaz tox, p. 6 et s.: (Dal Borgo, Dipl. p. 87 et ss., 90, 100 et ss.) ; Taf et Thom II, 385.

(٢) Doc. sulle relaz. tox. p. 14, 23. (Dal Borgo, p. 91 et s., 96).

(٣) Doc. sulle relaz. tax. p. 8 (Dal Borgo, p. 89).

(٤) Doc sull relaz. tox, p. 8 (Dal Borgo, p. 88).

(٥) Lib. jur. I, 16 et s;

(٦) Taf. et Thom. I, 146.

(٧) Taf. et Thom I. 88, 91, 145.

الرقعة التى يملكها هو نفسه • الا أن أهم أملاكهم كانت فى صور (١) ، وقد تسلموا ثلثها بالكامل ، بما فيه الأراضى والحقول التابعة لها ، المستأجرة بطريق المزارعة (٢) • نرى مما سبق أن الامتيازات الممنوحة فى المدن للجاليات المبعوثة من قبل الجمهوريات التجارية الغربية تتكون من أراض تقام عليها المبانى ، أو من عدد من المنازل ، أو من شارع كامل ، أومن قسم من المدينة • وكان مجموع المبانى التى تصبح ملكا لأمة تجارية ، يطلق عليه اسم ruga أو vicus لهذه الأمة (٣) ، وتتضمن المبانى الخاصةبالسلطات والمنشآت العامة التى يستخدمها أفراد الجالية ، وبيوت الأفراد • ونذكر فى مقدمة المبانى من النوع الأول ال Bailliage ، مقر الادارة والمحكمة ، ويقيم به رئيس الجالية ، ويجتمع به مع المحلفين الذين تتشكل منهم المحكمة ،كما يجتمع بمجلسه (٤) •وفىالجاليات الصغيرة كانت دار واحدة تضم أحيانا الادارة والمحكمة والمخازن ، مثال ذلك فى أنطاكية حيث طلب البنادقة من الأمير رينو التصريح لهم بنصريف شئونهم القضائية فى المبنى الخاص بمخازنهم (٥) • ومع ذلك كان هذان المبنيان منفصلين بوجه عام ، كمـا فى أحيـاء صـور وعكا (٦) : ففى هذين المركزين التجاريين الكبيرين ، كانت الحاجة تتطلب مستودعا فسيحا صالحا لأن يكون مخزنا ودارا للبيع • ولم تكن المطالب الدينية للمستوطنين مهملة،اما لأن حيهم يضم كنيسة موهوبة لهم ، واما لأن أفراد الجاليـة قد شيدوا كنيسة أو أكثر (٧) • وكانت هذه الكنائس تهدى عن طيب خاطر للقديس شفيع كاتدراتية الوطن الأصلى •

---

(١) يؤكد السيد الاستاذ بروتز Prutz الذى درس هذه الجهات أن هذا الثلث الذى حصل عليه البنادقة يشكل القسم الجنوبى ، أو بالأصح الجنوب الشرقى من مدينة صور الحالية أنظر : Aus Phönizien, p. 269.

(٢) Taf et Thom I, 79 et ss. 140 et ss., 145 et ss., 167 et ss.

(٣) حينما نصادف بعد كلمة ruga كلمة Campus ، فان هذه الكلمة الأخيرة يقصد بها أرض مكشوفة (سوق) تنتمى الى حى تجارى • مثال ذلك فى :

— Sanuto, Istoria di Romania, dans Hopf, Chron. greco-rom. p. 165 Taf. et Thom. III, 32.

(٤) Taf et Thom. III, 40; ibid Ibid 11, 364, 390 et s.

وفى أحد البيوت التى تمتلكها الجالية الجنوية فى عكا ، كان الدور الأرضى مخصصا للمحكمة وكان البيت المخصص لهذا الغرض نفسه فى المستعمرة الجنوية بصور ، يطلق عليه اسم lobia communis

أنظر فى ذلك : Arch de l'Or lat. II, 2, p. 215, 222.

(٥) Taf. et Thom. I, 134.

(٦) Ibid. II, 364, 390-393.

(٧) كان للبنادقة ثلاث كنائس فى صور : Taf et Thom II, 362 et s.

وكانت أكبر وأغنى كنيسة هى كنيسة القديس مرقس St. Marc.

من ذلك نجد أن البنادقة كان لهم كنائس للقديس مرقس فى صور وعكا وبيريت (أو بيروت) Béryte ، كما كان للجنويين كنائس القديس لوران St. Laurent فى صور ، وعكا ، وفى قيصرية (على ما يحتمل) (١) ٠ ومن جهة أخرى ، كان للمستوطنين طواحينهم وأفرانهم وسلخاناتهم الخاصة ، تكملها دار خاصة للاستحمام ، مخصصة لهم دون غيرهم ، يستخدمونها مرة فى الاسبوع (٢) ٠

وكلما كان الحى التجارى واسعا ، ازداد ما فيه من بيوت سكنية ، وحوانيت للبيع ، وورش صغيرة يشتغل بها الأفراد ، وتؤجرها أو تبيعها لهم الجالية ، فتحصل على ايرادات كبيرة (٣) ٠ وكانت ايجارات البيوت والمخازن التجارية والحوانيت ترتفع (٤) بنوع خاص فى فترات السنة التى تصل فيها قوافل السفن التجارية القادمة من الغرب ، وفى كل مرة ، كان وصول هذه القوافل فرصة لمضاعفة نشاط الحركة التجارية (٥) ٠ وكان المسافرون الذين تأتى بهم هذه القوافل ، ثم تعود بهم فيما بعد ينزلون فى ديار المستوطنين حتى تنتهى أعمالهم ٠ ومن المفيد أن نعرف أى جنس من الناس يتشكل منهم السكان المقيمون فى كل من هذه المستوطنات ٠ الا أنه من العبث البحث عن احصائية تفيدنا فى هذا الخصوص ٠ وكل ما نعلمه ، علم اليقين ، هو أنه فى عكا أو فى صور ، على سبيل المثال ، لم يكن الحى البندقى فى أحداها ، أو

---

(١) Taf. et Thom I, 140, 148, 281 et ss., 425; II, 26, 126, 174, 362 et s. 429 et s., 445 et ss.; III, 31 et ss., 153.

(٢) Paoli, Cod. dipl. I, 164; Ughelli, It sacr. IV, 882; Lib jur. 1, 412; Caffar. p. 14; Arch de l'Or. lat. II, 2 p. 215, 220.

(٣) كان للحنويين دار من هذا اليوم فى بيروت ، أنظر ٠ Lib jur I, 665, 687.

(٤) وضع البايل (الحاكم) مارسيليو جورجيو قائمة تفصيلية بالايجارات التى كانت تحصلها الادارة القينيسية فى عكا عام ١٢٤٤ ، أنظر : Taf et Thom. II, 389 et ss. وبعد بضع سنين ، وضع Gugl. di Bulgaro Simone Malocello من قناصلة المستعمرات الجنوية ، قائمة بايجارات المنازل ، والحوانيت ، والأفنية ، الخ التابعة لبلدية عكا (١٤ من يولية ١٢٤٩) ، وكانت التأجيرات تتخذ اما لفترة السوق ، واما للسنة كلها ٠ وقد وضع S. Malocello قائمة واحدة من هذا النوع لايرادات مستوطنة صور ، بما فيها ايرادات الحدائق والأراضى والمزارع الواقعة فى النواحى المجاورة (١٢ من ديسمبر ١٢٤٩) ، وفى السنة التالية وضع قائمة مماثلة لمدينة عكا (٣ من مايو ١٢٥٠) ٠ هذه القوائم ذات أهمية كبيرة ولا يوجد منها حاليا سوى مطبوعات ناقصة وملأى بالأخطاء والمتناقضات وقد نشرها السيد C. Desimoni les Archiv de l'Or. Lat II, 2, p. 215-224.

(٥) Tar-et Thom. II, 362, 390 et ss. ; Camera, Istoria, p. 204 ; Murat, Antiq ital II, 413.

(٦) Taf. et Thom. II, 391 et ss. وسوف نتحدث عن هذا الموضوع فيما بعد ، بمزيد من التفاصيل ٠

الجنوى فى الأخرى يسكنه فقط أفراد ينتمون الى هذه الأمة أو تلك ، دون غيرهم من سائر الأمم وكانت الأمم التجارية ، عندما تضع يدها على حى من الأحياء لا تقدم على طرد السكان الموجودين أصلا فى الحى . من ذلك مثلا أنه قد نص فى المعاهدة المبرمة فى عام ١١٢٣ بين سادة مملكة القدس وبين دوج البندقية على أن المستوطنين الذين ينتمون الى جنسيات مختلفة يستطيعون أن يقيموا مساكنهم فى الحى الفينيسى (١) ـ باعتبار ذلك أمرا طبيعيا . والواقع أنه كان فى الثلث الفينيسى بمدينة صور سوريون ويهود يستمتعون ثمة بأمن وطمأنينة تامه (٢) . وفضلا عن أنهم يدفعون ايجارا ، كانوا يضعون فى خدمة التجار الأجانب ما لديهم من معلومات ، وكان التجار الاجانب يجدون عندهم بنوع خاص عمالا مهرة ، لذلك رأينا بالمدينة مصانع للحرير يديرها سوريون ، ومصانع للزجاج يستغلها يهود ، قائمة فى قلب حى البنادقة (٤) .

وفى توزيع الأملاك على طوائف التجار ، لم تكن الحدائق هى التى تعتبر وحدها ، وبوجه عام بمثابة أجزاء مكملة لهذه الأملاك ، ولكن يضاف اليها عادة امتيازات كبيرة حول المدن ، وفى الأرياف . فاذا كان ثلث المدينة هو الممنوح للطوائف ، فانه يضاف اليه ثلث الأراضى المجاورة فى دائرة نصف قطرها ميل واحد ، وكانت هذه العادة تيسر لأفراد هذه الطوائف أن يزرعوا فى أراض يملكونها حبوبهم وخضرهم وعددا كبيرا من النباتات التى يختص بها الشرق ، والتى كانوا يجهلونها حتى ذلك الحين . وكانت الحقول تشكل مجموعات حول مبان تسمى Casaux ، وتطلق هذه التسمية على مزارع صغيرة ، وكفور ، وقرى (٥) . وفى المعاهدات الأولى نجد تنازلات فى الأرياف من هذا القبيل ، بمثابة ملاحق للتنازلات المنعقدة فى داخل المدن (٦) .

---

(١) Taf. et Thom. I, 88, 92; cf. III, 152.

(٢) Ibid ,II, 358 et s.

وكان اليهود يقيمون فى مجموعة منعزلة من المساكن ، وهذا ما استنتجه روتز بحق من عبارة "domus nostrorum Indiorum" ، انظر : Taf. et Thom II, 364.

(٣) Ibid. II, 359.

(٤) انظر فى قائمة الايرادات التى تكتسبها الجالية التينيسية من صناعة الزجاج : (Taf. et Thom. II, 385) والفقرة التى كتبها Benjamin de Tudèle فى امتداح مهارة صناع الزجاج اليهود فى صور : (éd. Asher, p. 62 et s.)

(٥) Beugnot, Mém. sur le régime des terres dans les principautés fardées en Syrie par les Francs à la suite des croisades. Bibl. de l'école des chartes. 3e série (1854), p. 252-256.

(٦) Lib. jur. I, 16; Taf et Thom. I, 88.

وعلى هذا نمت الملكيات العقارية التي تكونت لصالح الجاليات (١) • وفى الامكان أن نتصور أهمية الاملاك التى كانت للبنادقة داخل المدن السورية ، كما ورد فى أخبار مارسليو جورجيو Marsilio Giorgio (زورزى Zorzi) الذى صار فى عام ١٢٤٠ بايل (*) الجمهورية فى سوريا ، واحتفظ بمنصبه عدة سنوات (٢) ونجد فى أخباره قائمة (٣) بأسماء حوالى ثمانين ضيعة casaux حول مدينة صور ، وكان أغلبها فى عام ١٢٤٣ ملكا حقيقيا للمستعمرة الفينيسية وقد انتزع عدد صغير منها فى أعقاب أعمال عدوانية عنيفة يقترفها بعض الجيران أو الأتباع الجشعين ، أو بسبب اهمال معاونيه • كانت هذه الأملاك تمتد من ساحل البحر حتى الهضبة التى تتوج المرتفعات المجاورة للمدينة ، وترى فيها حقول ، وحدائق ، وبساتين فاكهة ، وكروم ، ومزارع قصب السكر ؛ وأشجار الزيتون والتين ، وهنا وهناك بيوت الفلاحين ، منعزلة أو متجمعة فى شكل ضياع • ويبدو أن البنادقة لم يباشروا بأنفسهم استغلال هذه الأملاك ، الا أنه يمكن الاستنتاج من بعض العبارات على أنهم لم يكونوا يهملون هذا المصدر للدخل • من ذلك أنهم كانوا يقدمون للفلاحين بذورا «لتجود زراعة أراضيهم» كما قيل • وكانوا يعينون فى الضياع (ال casaux) الكبيرة مديرين يقال لهم gastaldiones • وكان المزارعون الحقيقيون لهذه الأراضى فلاحين سوريين ، ونتعرف عليهم من الأسماء التى تصادفها هنا وهناك • ومع ذلك فانهم لا ينتمون كلهم لطبقات الشعب الأكثر وضاعة ، ففيهم من نسب اليه صفة « الريس » ، وهذا نعت لمنصب من مناصب الحكام ، ويدل على أن أصحابه يتمتعون بين مواطنيهم ببعض الاعتبار (٤) • وجرى العرف على أن يترك لهؤلاء ثلثا أو ثلاثة أرباع المحصول ، فلم تكن الجالية تقتضى منهم سوى الثلث أو الربع (٥) • فضلا عن ذلك كان على المزارعين عادة أن يعطوا « البايل » (حاكم مستعمرة

---

(١) فى عام ١١٦٣ تنازل راؤول Raoul أسقف بيت لحم للجالية المرسيلية عن الكثير من المنازل فى عكا ، انظر Bifl. de l'Ecole de chart. XXXIV, 1873, p. 656 et s. —

ـ وفيما يختص بالجنويين انظر :

— Lib jur. J. 358, 401; Taf et Thom. II, 368 et s.;
Arch. de l'or lat. II, 2, p. 223, 228.

وبالنسبة الى ال casaux التى يمتلكها البيزيون فى ضواحى عكا ، وصور ، و Joppé انظر Doc. sulle relaz. tox. p. 26 et s., 28, 30, 34, 36, 39 (Dal Borgo, p. 97, 101. 107, 109) ; Taf et Thom. II, 377 ; Prutz Phönizien, p. 286 et s.

(★) لقب حكام المستعمرات التابعة لمدينة البندقية فى القطاع الشرقى (المترجم) •

(٢) Wilken, Gesch der Kreuzz. VII, 371 et ss.; Taf. et Thom. 11, 351 et ss.

(٣) Prutz, Aus Phönizien, p. 276 et ss.; Quatremière édition de l'His des sult. mamel. de Makrizi, II, 1, p. 216 et s.

(٤) Beugnot, I. c. p. 413.

(٥) تبدو ان هذا العرف كان شائعا فى البلاد الصليبية سوريا •

البنادقة) ثلاث مرات فى السنة ، فى بعض مناسبات الأعياد دجاجة ، أو عشر بيضـــــات ، أو نصـــف وزن من الجبن ، الخ من كل حـــرث · وفى مـــرة من المرات ذكرت كلمة السخرة (angarioe) التى كان عليهم أن ينفذوها بدوابهم · وقيل احيانا ان عددا معينا من المحاريث تشكل «كازالا» casal حرا ، ويبـــدو أن ذلك يعنى أن جزءا من الأراضى الممنوحة للفلاحين معفى من الضرائب · وأخيرا ، فيما يختص بحالة الفلاحين الاجتماعية ، يبدو أنهم لم يهبطوا جميعا الى طبقة القنانة (رقيق الأرض) ، لأن عددا منهم ذكروا على أنهم hom.iges ، وهذا مثال ممتع لتطبيق عرف اقطاعى فى الشرق ·

والى جانب هذه الأموال العقارية فى المدن وفى الأرياف كانت الجاليات التجارية تتمتع بنصيب من بعض ايرادات المدينة · من ذلك أن الجنويين كانوا يحصلون ، حسب المعاهدات ، فى صور ، وعكا ، واللاذقية ، والسويدية على ثلث ايرادات الميناء (١)·وكان للبنادقة أيضا فى صور الحق فى ثلث الرسوم التى تحصل فى الميناء ، وبعض الايرادات الأخرى ، وفضلا عن ذلك ، وبمقتضى معاهداتهم ، كان لهم أن يتسلموا سنويا مبلغ ٣٠٠ دينار بيزنطى ، كانت تدفع لهم أولا من الصندوق الملكى لرسوم الانتاج (funda) فى صور ، وفيما بعد من ايرادات جمارك ميناء عكا (٢) · ولدينا أيضا فى هذا الخصوص مثل لعدم مراعاة ملوك بيت المقدس الذين كانوا دائما فى حاجة الى المال ، للحقوق من هذا النوع ، والتى منحت للأمم التجارية · وكان الملك فولك Foulques أول من نازع البنادقة مبلغ الثلاثمائة دينار بيزنطى هذه ، وفعل خلفاؤه الشىء نفسه · وعلى مر الأيام انتهى الأمر بانكار الحقوق كلها وعدم صرف ما سبق لهم أن صرفوه من ثلث الايرادات العامة بصور (٣) ·

والجدير بالملاحظة أن كل الامتيازات التى منحها ملوك الدول الصليبية لجماعات التجار ، سواء عن طريق المعاهدة ، أو عن طريق الهبة الخالصة لم تؤد بهؤلاء التجار الى حالة العبودية الاقطاعية ، أو تفرض عليهم ضرائب الزامية ·· وكانت الجمهوريات الايطالية قد اشتركت فى الحملات الصليبية الى جانب قادة الجيوش بصفتها حليفات لهم ، وعلى قدم المساواة معهم ، ونالت نصيبها من الغنائم ، وامتلكت هذه الغنائم معفاة من كل التزام أسوة بالأمراء (٤) · ومع ذلك فقد نص فى المعاهدات على أن تسهم مستعمراتها فى الدفاع عن المدن التى

---

(١) Lib jur. I, 16, 30 et s., 249, 358, 401; Canale, Nuova istoria della repubblica di Genova, II, 293.

(٢) Taf. et Thom. I, 86, 92 141, 168; II, 367 et s. Arch. de l'Or. lat. II, 2, p. 225.

(٣) Ibid. I, 141; 11, 384 ct s.

(٤) Taf. et Thom. I, 85; Ibid 88; éd. Thomas p. 15.

استوطنتها . وفرض الملك بلدوين الثانى على بنادقة صور أن يقدموا للدفاع عن المدينة عددا من الرجال يتناسب مع دخل الثلث الذى يملكونه فيها . ونتيجة لهذا المبدأ نجد البنادقة مقيدين بقائمة الأفراد الخاضعين للخدمة الالزامية وقت الحرب ، ووصلت الينا هذه القائمة ضمن مجموعة قوانين ومراسيم مملكة بيت المقدس (١) Assises de jérusalem ، فكان عليهم أن يجهزوا ثلاثة فرسان من بين الثمانية والعشرين فارسا الذين كان على مدينة صور (٢) أن تقدمهم (٣) . وكان على المدينة فضلا عن ذلك أن تجهز مائة « رقيب » (من الجند) ، ولم يقل أحد بأن البنادقة كانوا ملزمين بتقديم وحدة منهم ضمن هذه الجماعة (٤) . ويبدو أنه قد فرض عليهم أيضا فى عكا أن يجهزوا عددا معينا من رجالهم للدفاع عن المدينة . وأضاف سانوتو Sunuto الى هذا الأمر خريطة لمدينة عكا ، نرى فيها ، بعيدا عن حى البنادقة ، قسما من سور المدينة وبرجا كانا دون شك فى حراسة البنادقة ، لأننا نقرأ ثمة هذه العبارة eustodia Venetorum (أى حراسة البنادقة) . ما بالنسبة الى الجنويين ، فليس هناك ما يثبت التزامهم بالخدمة العسكرية فى أوقات الحرب ، والعجيب أنه لم يرد لهم ذكر فى مجموعة قوانين مملكة بيت المقدس . وليس من النادر أن نرى فرق الجاليات التجارية ضمن الحملات التى كان الملوك أو نوابهم يشنونها على المسلمين أو غيرهم (٥) . غير أن الجاليات كانت تتمتع بحرية تامة فى هذا الشأن ، فلم يطلب أحد بالمرة من الجاليات الصغيرة أن تزود الجيش بالرجال فى حملات عسكرية هجومية . وفى عام ١٢٥٧ حين أنشأ سكان « انكونا » (*) مستعمرة بمدينة عكا ، فانهم التزموا فقط بأن يضعوا تحت تصرف الملك خمسين رجلا مسلحا فى حالة قيام عدوان بالهجوم برا أو بحرا على المدينة أو مينائها أو اقليمها (٦) .

وقد طبق النظام الاقطاعى بكامل أوصافه على الدويلات التى أنشأها الصليبيون ، وكانت الجاليات التجارية بأملاكها المستقلة بمثابة بقع شاذة وسط هذا النظام ، لذلك كان البارونات ينظرون اليها باستياء . ولما كانت الأملاك التى اكتسبتها تلك الجاليات قد صارت فى مركز أمين غير قابل للطعن ، فان البارونات كانوا يجتهدون على الأقل أن يحولوا دون أن يقع فى أيدى الجاليات

---

(١) Le livre de Jean d'Ibelin, dans Beugnot, I, 425.

(٢) Sanut, Secr. fid. cruc. p. 174.

(٣) Tof et Thom. II, 387.

(٤) Sanuto, 1. C. ; Assises, 1 426 ; Prutz, Aus Phönizien, p. 258.

(٥) Cf. p. ex. Cont. de Guill de Tyr, p. 218 D. 219 et s., 334, 433.

(٦) Paoli, Cod. dipl. I, 157-161.

(*) مدينة ايطالية وميناء على البحر الادرياتى — (المترجم) .

أية منطقة يقترن بملكيتها أى ارتفاق. ولهذا السبب فان «مجموعة قوانين مملكة بيت المقدس» التى هى كما نعلم تعبير عن الأفكار الاقطاعيه ، حظرت على هذه الجاليات شراء أية أملاك اقطاعية ، أو من تلك المسماة بورجوازية (١) . فضلا عن ذلك فان المستعمرات التجارية ، بتكوينها نفسه وأسلوب ادارتها تشكل تباينا جليا مع العالم الاقطاعى . ولكى نفهم ذلك فهما صحيحا ، ينبغى لنا أن نعود قليلا الى الوراء وندرس هذه المستعمرات منذ نشأتها . فحين تحصل احدى القوى التجارية على امتياز فى مدينة ما ، كان عليها أن تعين بعض الأشخاص لادارة المستعمرة الجديدة ، واقامة القضاء فيها ، والدفاع عنها ضد اعتداءات جيرانها . من ذلك أن قادة الجيش الجنوبى الذى استولى على جبلة لم يبرحوا المدينة الا بعد أن عهدوا بحكم الحى الذى كان لجنوا حق امتلاكه (وكان يشغل وقتئذ ثلث المدينة) الى أحد مواطنيهم ويدعى انصالدوكورسو Ansaldo Corso وفيما بعد ، حين تم التنازل عن الثلثين الآخرين بالمدينة الى مدينة جنوا ، عين حاكما عليها رجل يدعى اوجونى امبرياكو Ugone Embriaco جمع بين يديه بعد قليل ادارة المجموعة كلها . وجرى الأمر على هذا المنوال بعد الاستيلاء على عكا ، وهنا أقيم على رأس الحى الجنوى رجل يدعى سيجبالدوس Sygbaldus وهو من كهنة كاتدرائية جنوا (٢) ، ذلك لأن كنيسة سان لورنزو ، كاتدرائية جنوا هى فى الواقع التى منحها صك الامتياز ملكية هذا الحى (٣) . وكان لسيجبالدوس لقب viccomes ، وهو لقب كان لزمن طويل لرئيس مستعمرة جنوا فى عكا (٤) . وفى البداية اتخذ البنادقة هذا اللقب لممثلى الجمهورية فى منشآتهم بسوريا . حقا . لقد قال ماركو فوسكارينى (٥) Marco Foscarini ان أحد البنادقة ويدعى تيوفيلو زينو Teofilo Zeno شغل هذا المنصب فى سوريا بلقب بايل (أو بايلو) Bailo ، وكانت هذه الواقعة مسلما بصحتها حتى عام ١٨٦٠ ، تصديقا لما رواه هذا العالم الذى كان اسمه موضع ثقة كبيرة ، ولكنى أوضحت عندئذ أن فوسكارينى قد أخطأ فى مائة سنة ، فالواقع أن الوثيقة التى استند اليها لم تكن سوى صك امتياز « جى » Guy سيد « جبلة » ، وهذا الصك مؤرخ بعام ١٢١٧ (٦) ، وطوال فترة تمتد عشرات

---

(١) Assises de Jérusalem, éd. Beugnot, I. 372, 399 ; II, 255.
وكذا ملاحظات الناشر فى مقدمة الطبعة الثانية .

(٢) حكى هذه المعلومات « كافرو » De liber liv. or., l.c. p. 47, 48 Caffro.

(٣) ومن ثم كان اسم «Ruga beati Laurentü» الذى أطلق على الحى الجنوى فى عكا ،
انظر : — lib. jur. I, 412.

(٤) Belgrano, dans l'Archiv. stor. it Sér. 3, VIII, 2, p. 160.

(٥) Delle letteratura Veneziana, 2e éd. p. 25.

(٦) Taf. et Thom. II, 196.

السنين بعد تأسيس الدويلات الصليبية ، لم تتضمن أية وثيقة اسم موظف ملحق بمستعمرات البندقية ، وأول وثيقة نصادف فيها اسما من هـذا القبيل ترجع الى عام ١١٨٣ وهى خاصه بمن يدعى Jacobus Gradenicus visecomes in Achan (١) • أما بخصوص البيزيين ، فيبدو أن رؤساء مستعمراتهم كان لهم فى الأصل لقب فيكونت ، ذلك أنه فى عام ١١٥٦ منحهم بلدوين الرابع فى شكل امتياز بفيكونتية ، امتياز محكمة خاصة فى مدينة صور (٢) • وبعد ثلاث وعشرين سنة ظهر رئيس المستعمرة البيزية بعكا حاملا لقب القنصل (٣) الذى استخدمه البيزيون من ذلك الحين فى سوريا • ثم ان هذه العادة ، عادة اقامة فيكونتات على رأس مستعمرات الدول التجارية كانت من تقاليد سادة البلد الآخرين • فبعد الاستيلاء على جبلة ، كلف ريموند التولوزى فيكونتا بمهمة ادارة القسـم الذى كان يتبعه فى المدينـة (٤) ، فكان من الطبيعى أن يكون للجنويين أيضا فيكونت يتولى ادارة القسم الخاص بهم • ونرى فى مجموعة قوانين مملكة القدس أن لكل مدينة فيكونتا ، سواء كانت المدينة تابعة للملك مباشرة ، أو تنتمى الى أحد أتباعه ، وكان الفيكونت هو رئيس الادارة ، ورئيس « محكمة البورجوازيين » : كان رئيس كل السكان غير النبلاء فى مقاطعته ، فى أوقات السلم والحرب ، وكانت المحكمة التى يرأسها مختصة بنظر كل القضـايا المتعلقة بالبورجوازيين ، فى حين يحاكم النبـلاء فى « المحكمة العليا » المشـكلة من نظرائهم (٥) • وكانت الجمهوريات الايطالية تبذل جهـدها لخلق وضع استثنائى لمستوطنيهم ، بحيث لا يتلقى هؤلاء أمرا ، أو يلتمسون عدالة من موظفى الدولة ، ولا شأن لهم الا بموظفى أمتهم • ثم ان الأمراء والملوك والأتباع منحوا هذا الجمهوريات فى البـداية وعن طيب خاطر تلك الاعفـاءات اعترافا بالخدمات العظيمة التى قدمتها لهم ، وصرحوا لها فى الجهات التى يعيش فيها مواطنوها بأعداد كبيرة أن يكون لهم فيكونتاتهم ومحاكمهم الخاصة ، حيث يحاكم المستوطنون بمعرفة محلفين من بنى أمتهم (٦) ، يجتمعون تحت رئاسة الفيكونت • وعندما تمنح أمة غربية فى مدينة سـورية مجموعة من المنازل والشوارع المجاورة لها ، فان هذا الحى يشكل منطقة خاصة مستقلة ، لهـا حصاناتها ، ولا يمكن لأى موظف من موظفى الدولة أن يعطى فيها أية أوامر ، أو يصدر أى حكم ، ولم يكن لسكان المنطقة كلهم ، دون تمييز رئيس أو قاض

---

(١) Ibid. I, 176.

(٢) Doc. sulle relaz. tox. p. 7.

(٣) Ibid. p. 17, Pipindo consul Aconensis (Pianorum) 1179.

(٤) Caffaro, De liber. civ. or. p. 47.

(٥) Assises de Jérus., éd. Beugnot, T. I, Introd. p. XVI, s.; T. 11, p. XX et 22, note.

(٦) Taf. et Thom. 2, 361, Lünig, Cod. dipl. Ital. I, 2459 et s.

خلاف الفيكونت المفوض من الوطن الأصلى (١) • وفيما بعد ، حين اهتم الملوك بتنظيم دويلاتهم وتطبيق النظام الاقطاعى فيها ، أصبح وجود هذه المستعمرات الخارجة عن سلطتهم عائقا لهم فى الكثير من الأحيان ، لذلك فانهم ما لبثوا أن بذلوا جهودهم للحد من سلطات الفيكونتات وتوسيع سلطات موظفيهم هم • وفى عام ١١٥٥ ، رفعت جمهورية جنوا عدة شكاوى ضد ملك القدس ، وكونت طرابلس ، وأمير أنطاكية لأنهم يحاولون يوما بعد يوم تضييق اختصاص المحاكم الجنوية فى سوريا • وفى تلك الآونة (فى شهر نوفمبر أو ديسمبر) تواجد البابا ادريان الرابع Adrien IV مع بعض الأحبار الشرقيين فى مدينة بينفنتو Bénévent (بايطاليا) ، فرفعت اليه جنوا شكواها ، عن طريق مبعوث خاص • وهدد البابا الأمراء بالحرمان اذا هم استمروا فى التعدى على الجنويين • ولسوء الحظ لم يبق من هذا النص سوى رسالة واحدة من الرسائل البابوية التى حررت فى هذه المناسبة ، وكانت موجهة الى بلدوين الرابع ملك القدس ، نرى فيها أن الملك استهدف باعتداءاته بنوع خاص فيكونتية جنوا بمدينة عكا ، وأن رجاله استولوا على سفينة جنوية محملة بالنقود (٢) • وفى عام ١١٥٦ عقد بلدوين الرابع معاهدة صلح مع البيزيين ، ويتبين من هذه الوثيقة أن المعاهدة سبقتها أعمال عدوانية (٣) • وكانت بيزا قد عقدت فى هذه الآونة علاقات ودية مع مصر ، الا أن هذا لم يكن وحده سببا كافيا لتبرير الاعتداءات ، فى حين أن تزامن هذا النزاع مع ما كان يجرى مع الجنويين ، كما رأينا منذ قليل يثبت وجود نوع من التآمر من جانب ملوك سوريا ضد الحريات التى تتمتع بها المستعمرات التجارية • ثم ان الموقف كان مماثلا لذلك فى المجال الدينى ، فقد علقت الجمهوريات الايطالية أهمية كبيرة على أن يشغل الوظائف الكهنوتية فى مستعمراتها رجال من مواطنيها (٤) • وهنا برزت مسألة خطيرة : فهل يخضع القساوسة المبعوثون من جانب الوطن الأصلى الى احدى المستعمرات لسلطة الأساقفة المحليين أو لسلطة أساقفة وطنهم الأصلى ؟ ومن هذه المسألة تولد بين الأساقفة والمطارنة فى سوريا من جهة ، وبين الامم التجارية من جهة أخرى سلسلة من المنازعات • وقد أدى موقف الكهنة البنادقة فى صور بالنسبة الى أسقف الأبرشية الى قضية طويلة فى محكمة روما ، لم تعرف نتيجتها

---

(١) بعد الاستيلاء على صور ، حررت معاهدة ، بمناسبة فتح البنادقة حيا فى المدينة :
— Taf et Thom. I, 88, 92.

(٢) Cf. Caffar. Jan. p. 23, 24; Jaffé, Reg. pontif. p. 664 et s.

(٣) Doc sulle relaz. tox. p. 6 et s.; Langer, op. cit., p. 66.

(٤) رسائل جاك دوفترى Jacques de Vitry مطران عكا : (Mém de l'Acad de — Brux T. XXIII 1849). ونرى فى الرسالة الثانية أن هذا الأسقف ينعى على الجنويين ، والبيزيين ، والبنادقة عصيانهم الكنيسة •

بوضـــوح (١) • وقد نجح أسقف عكا عن طريق اتفـاق تسوية فى أن يضـم لسلطه كهنة كنيسة القديس مرقس بتلك المدينة ، وللوصول الى هدا الاتفاق تنـازل لهم عن كنيسة القديس ديمتريوس St. Demetrius التى كانت فى داخل « خورنية »(*) • البنادقة (٢) • وبين الوثائق التى فى أيدينا أن مثل هذا النزاع كان قائما بالنسبة الى الجنويين والبيزيين (٣) •

وعلى ذلك كانت الأمم التجارية المستقرة فى سوريا فى نزاع متواصل مع الملوك وأصحاب المناصب الكبيرة ، الكنسيين منهم والعلمانيين فى البلد ، من أجل الدفاع عن أموالهم وحقوقهم وحرياتهم • غير أن متاعبهم لم تقف عند هذا الحد ، ذلك لأن المستوطنين كانوا فى الكثير من الأحيان أول من ينتهكون أملاك الوطن الأصلى وحقوقه ، على الأقل ما يختص منهـا بالبندقية وجنوا • وبالتأكيد لم تحظر جمهورية جنـوا فى عـام ١٢٢٥ دون مبرر على رؤسـاء مستعمراتها فيما وراء البحار أن يتصرفوا فى الأملاك البلدية ، والا تعرضوا لأشد العقوبات (٤) • ومن جهة أخرى اسفر اهمال بعض مديرى مستعمرات البندقية عن خسائر أصابت الدولة (٥) • غير أن أكبر الاختلاسات كانت تلك التى اقترفتها أسر الأشراف التى استغلت اتجاه ذاك العصر نحو النظامالاقطاعى، فاستطاعت بمهارتها أن تستولى على أملاك بلدية باعتبار أنها من قبيل الاقطاعيات• مثال ذلك : كان دوق البندقية قد منح شخصا يدعى رولاند كونتارينى ، بصفة اقطاعية منازل و « ضياع » Casaux كائنة فى صور ، ولما توفى كونتارينى بلا وريث،أعلنت ادارة المستعمرة الفينيسية ضم أملاكه الى البلدية بحق الأيلولة، الا أن الأرملة رفضت التخلى عنها ، واحتكمت الى الملك ، ونجحت بهذا الاجراء فى أن تحتفظ بملكية العقارات ، وحررت أخيرا وصية لصالحالملك، فضاعت هذه الأموال على البلدية (٦) • وفى جنوا ، كانت التنازلات عن الأملاك البلدية فى سوريا بصفة اقطاعية أو اجارة زراعية أكثر منها فى البندقية • وقد رأينا أنه بعد الاستيلاء على جبيل تنازل الأمراء الصليبيون لجمهورية جنوا أولا عن ثلث

---

(١) Dandolo, dans Murat., XII, 319; Archiv. Venet. XXII. (1881), p. 325. et ss.; Taf. et Thom. I, 281 et ss., 425; II, 26 et s., 174, 362, 445 et s.; Innocent. III. epist. lib. IX no. 138, éd. Bréquigny, II, 951 et s. Registrum epistolarum perditarum Innoc. III dans Theiner, Monum hist. Slav. merid. p. 48, 67.

(*) (قرية يخدمها كاهن • المترجم) •

(٢) Taf. et Thom. III, 31 et ss.

(٣) Ughelli, Ital sacr. IV, 876-883; Doc. sull relaz. tosc. p. 27, 37. 82 et s.; Tronci, Memor. pis p. 169.

(٤) Lib. jur. I. 753; Belgrano : Le colonie commerciali degli Italiani in Orient : Archiv. stor. ital Série III, T. VIII, part. 2 p. 160.

(٥) Taf et Thom. II, 388.

(٦) Ibid, II, 387 et s.

المدينة ، ثم عنها كلها ، وأن الجمهورية أقامت على ادارة الثلث الأول انصالدو كورسو ، وعلى ادارة الثلثين الآخرين اوجونى امبرياكو ، وبعد قليل حصل الأخير على تنازل لصالحه عن المدينة كلها باعتبارها اقطاعية ورانية ، وتعهد فى مقابل ذلك بأن يدفع للجمهورية أتاوة سنوية · ويشهد البابا أوربان الثالث بأنه أوفى بالتزامه بانتظام (١) · وورث ابنه غليوم الاقطاعية فى حوالى عام ١١٣٥ ، وحصل فى عام ١١٥٤ على تجديد الاقطاع لمدة تسعة وعشرين عاما . الا أن ديونه كانت قد تراكمت (٢) · وعندما انتقلت الاقطاعية الى ابنه هوج Hugues (٣) اضطرت الجمهورية الى أن تحتكم ثلاث مرات الى البابوات اسكندر الثالث ، لوسيان الثالث ، وأوربان الثالث للحصول على الريع الذى الذى رفض هوج باصرار أن يدفعه ، وكانت تعلم مقدما أنها لن تحصل على شيء من خلفه الذى يدعى أيضا هوج (٤) · وفى هذه الأثناء غزا صلاح الدين البلد واستولى على جبيل (٥) التى بقيت ست سنوات (١١٨٧ – ١١٩٣) فى قبضة المسلمين · وفى عام ١١٩٣ استطاع آل امبرياتشى Embriaci العودة الى المدينة بعد رشوة حاميتها المسلمة (٦) ولكن لم يكن بها أحد يطالب بحقوق الوطن الأصلى ، ونسى سادة جبلة الذين اكتسبوا مركزا رفيعا بين بارونات الدويلات الصليبية بفضل ما حصلوا عليه من ثروات كبيرة ، أو مصاهرات متألقة ، نسوا تماما ما كان عليهم من التزامات (٧) · ولابد أن الشيء نفسه قد حدث لجزء من أملاك جمهورية جنوا فى أنطاكية واللاذقية وسولينم Solinum · (ميناء سان سيمون) ، وجابولم Gabulum وعكا ، وكانت أسرة امبرياتشى Embriaci قد أنجبت العديد من الأبناء ، وحصل هؤلاء فى كل هذه المدن على حيازة أموال بلدية نظير ريع سنوى يدفعونه ، غير أن هذه الحيازة كانت محددة بعشرين سنة ، وحين انقضت هذه المدة فى عام ١١٤٧ ،

---

(١) Lib. jur. I, 336.
المعروف أن شخصا يدعى جويوم امبرياكو اشترك فى حصار بيت المقدس مع أخيه بريمو ·

(٢) Ibid. I, 173; Itinerary, éd. Asher, I, 28, 60; 11, 69 et s.
– رأى الرحالة الشهير بنيامين من تيوديل Benjamin de Tudèle جويوم هذا ، وكان وقتئذ سيد جبلة ، وأسماه بنيامين جيليانس (Guglielmo) Gilianus

(٣) كان سيد جبلة فى الزمن الذى كتب فيه جويوم الصورى تاريخه ، أنظر : liv. XI, chap. 9.

(٤) Lib. jur. I, 308 et s., 336-338.

(٥) Wilken, Gesch. d. Kreuzz. III, 2, p. 295.

(٦) Contin. de Guill, de Tyr. p. 217 et s., Jacq. de Vitry, p. 1124.

(٧) بخصوص أنساب هذه الأسرة أنظر : Ducange, Familles d'autremer, éd. Rey p. 316 et ss.
– ولسوء الحظ نسى المؤلف أن يستفيد من الايضاحات التى تتيحها الـ Lib. jur. بشأن تاريخ أسرة امبرياتشى ، كما أنه أهمل كل الاعمال السجلات الجنوية والبيزية والفينيسية ، وهذا الأهمال كان له ضرر كبير على قيمة أبحاثه ·

عملوا على تحـويل هـذه الأموال التى ينتفعون بهـا الى ملكية خاصـة ، ورفضوا التخلى عنها (١) • وليس فى الامكان معرفة ما اذا كانت الجمهورية قد قضت على مطالبهم أو أنها فقدت حقوقها فى هذا الصدد • وبافتراض حدوث خسارة ما ، فان مدينة جنوا هى وحدها التى تكبدت هذه الخسارة ، أما السكان فلم يكونوا يأبهون لذلك ، لأنه اينما كان أفراد أسرة امبرياتشى سادة ، كان المستوطنون والمرتحلون الجنويون يلقون كل ترحيب ومودة •

(ب) الدول الصليبية من وجهة تجارة الشرق الأدنى

حظيت تجارة الشرق الأدنى خلال الحروب الصليبية بنهضة لم نكن نحلم بها قبل ذلك بقليل • وربما كانت هذه أول مرة يطأ فيها التجار الغربيون أرض آسيا ، وقد قنعوا فى البداية باحتلال شريط ضيق من البلاد على طول الساحل ، ولكن هذا الشريط كان يجمع كل المزايا الممكنة ، فأول كل شىء لم تعد سوريا اقليما أجنبيا ، لم تعد بلدا من تلك البلاد التى كان فيها التاجر الغربى تحت رحمة أمراء من أصل وطبائع شرقية ، يتعامل فيها مع سكان تختلف لغتهم وطبائعهم ، وعاداتهم كل الاختلاف عما يراه فى وطنه ، ولم يكن فى وسعه أن يستقر هناك الا بحصوله على حظوة يشتريها بوسائل عسيرة للغاية ، دون أن يكون لحظة واحدة فى مأمن على نفسه • أما الآن فانه أصبح بحق فى وطنه ، فى كنف حكومة من أمراء من جنسيات غربية ، وسط سكان يسودهم العنصر اللاتينى ، وهناك لم يعد الشرقيون المقهورون يؤدون سوى دور ثانوى ، وأصبح فضلا عن ذلك يتمتع بمزايا وامتيازات منحهـا اياه الأمراء بصفتهم مواطنين ورفقاء فى السلاح : كان كل شىء بالنسبة اليه كسبا وامتيازا • وهو اذا أراد أن يستقر نهائيا فى البلد ، فانه يختار مسكنه فى حى تملكه مدينته الأصلية ، حى فيه رجال الادارة والشرطة والرؤساء الدينيون من مواطنيه ، ويحيط به عدد كبير من بنى وطنه • فاذا كانت اقامته فى سوريا اقامة عرضية وقتية ، فانه يجد فيها أيضا قاعدة متينة لعملياته التجارية ، ومسكنا جيدا له ولبضاعته ، وحماية من قبل السلطات الاستعمارية ، وعونا ونصحا من جانب المواطنين المستقرين بالبلد •

كان التجار الغربيون يجدون فى سوريا منتجات الشرق كله على وجه التقريب ، فلم يكونوا مضطرين من أجل الحصول عليها للقيام برحلات طويلة الى قلب آسيا ، اذ كان هناك العديد من الطرق التجارية الكبيرة التى تأتى عبرها هذه المنتجات حتى شواطىء البلد • ولكن لكى نفهم جيدا أهمية الدول

---

(١) Lib. jur. 1, 133 172-174 ; cf. Doc. sull relaz. tosc. p. 6, 16; Monum. hist patr., Leges municipalis, p. 248, 276 et s.

الصليبية من وجهة « الترانزيت » (عبور البضائع والأشخاص) ، ونحيط علما بتطور الحياة التجارية بها ، ينبغى أن نبدأ بدراسة ما آلت اليه الحركة التجارية فى آسيا فى أواخر القرن الحادى عشر ٠

فى عصر الحروب الصليبية ، كانت التجارة فى المحيط الهندى نشيطة كما كانت فى أزهى عصور الخلفاء ، وكان العرب ، بما اتصفوا به من روح الاقدام والمغامرة ينافسون الصينيين فى هذا المجال ٠ ولم تزل سيلان التى كانت وقتئذ كما كانت قبلا مركزا للتجارة البحرية فى الشرق ، وباروتشى Barotch بخليج كامبيى Cambaye (بالهند) ، وديبال Daybal المجاورة لمصب نهر الاندوس (السند حاليا) ، لم تزل تشهد فى القرن الثانى عشر السفن الصينية وهى تتوافد على ثغورها (١) ٠ وفى القرن التالى ، وتحت التأثير الوقتى للسياسة التجارية التى كانت تتبعها حكومة الصين ، لم يعد الصينيون يتجاوزون من ناحية الغرب جزيرة سومطرة (٢) ٠ ومع ذلك لم تنقطع الصلات بين غربى آسيا وشرقيها : فقد تكفل العرب بتعزيز هذه الصلات ٠ فاذا اعتبرنا أولا الجزيرة العربية ذاتها وجدنا أن التجارة على ساحل عمان قد أصابها الشلل بسبب أعمال القرصنة التى مارسها السلطان المرعب ، سلطان جزيرة قيش Kéich الواقعة فى الخليج الفارسى(٣) ٠ لذلك امتنع سكان صحار Sohâr عن ارسال سفن تجارية الى الصين ٠ وعلى العكس من ذلك لم تزل Kalhat فى الجنوب الشرقى من مسقط ، فى القرن الثالث عشر ملتقى عدد كبير من السفن القادمة من جهات مختلفة (٤) ٠ وكانت عدن فى أوج ازدهارها، وعلاقاتها تزداد نموا (٥) ، وكانت نقطة اقلاع السفن المتجهة الى السند ، والهند ، والهند الصينية ، بل والى الصين حيث كانت خان فو Khan-fou هى غاية الملاحة (٦) ، وفى كل هذه البلاد كانت السفن التجارية تشحن عند عودتها بالمسك ، والصبر وخشب الصبر ، والفلفل ، والقاقلة (*) ، والقرفة ، وجذور الخولجان (**) ، وجوز الطيب ، والكافور ، والقرنفل ٠٠٠ الخ (٧) ، وباختصار التوابل التى كان الغربيون يعتبرون حيازتها أعظم نتيجة لصلاتهم

(١) الادريسى : Edrisi, Géogr. trad. Janbert, I, 73, 161, 175.

(٢) القزوينى : Kazwini, dans Gildemeister, Script. arab loci de rebus. indicis, p. 193.

(٣) الادريسى : Edrisi, I, 152.

(٤) Ibn-al-Mogawir (1228), cité par Miles, Account of Kalhat, dans l'Indian Antiquary, IV. (1875), p. 48-51.

(٥) Karabacek, Ueber einige Benennungen mittel-alterlicher Gewebe, I, p 15.

(٦) الادريسى ، الجزء الأول ، ٨٤ وما بعدها ، ٩٩ ٠

(★) (القاقلة الهال ــ فوه من أفواه الطيب ، وهو المعروف بالحبهان ــ المترجم)

(★★) والخولجان (نبات طبى من الفصيلة الزنجبيليه ــ المترجم) ٠

(٧) الادريسى ، الجزء الأول ، ٥١ ٠

بالشرق . ومن الناحية الأخرى ، أى من ناحية الخليج الفارسى ، تقلع أيضا أساطيل من السفن التجارية قاصدة بحار الهند والصين . ولم يفقد أهالى سيراف ولعهم بالأسفار البعيدة ، ولم يكن نشاطهم مفيدا لجيرانهم فقط ، أى لأقاليم فارس ، وكانت مدينتهم من أغنى المدن (١) . وكان أحد سكان هذه المدينة يؤدى أعمالا كثيرة مع الصين ، حتى ان أحد وكلائه أحضر من « خان فو » فى رحلة واحدة بضائع قيمتها ٥٠٠,٠٠٠ دينار . وفى عام ١١٣٧ أهدى هذا التاجر العظيم لمسجد مكة ستائر نفيسة من حرير الصين مما أكسبه شهرة بين اخوانه فى الدين (٢) . ومع ذلك يبدو أنه فى أوائل القرن الثالث عشر بدأ تدهور مدينه سيراف . وحين زارها « ياقوت » لم يجد بها الا نفرا من الأهالى الفقراء ، وهجرت الأسر الثرية مساكنها الجميلة التى صارت خرائب (٣) . وانتزعت جزيرة قيش المكانة الأولى من المدينة الساحلية ، وسادها حكام نشيطون ، بسطوا سلطانهم على كل الجزر المجاورة ، وأغارت أساطيلهم على الكثير من السفن ونهبتها ، ودمرت الكثير من الأنحاء الساحلية ، وأوقعوا الرعب فى النفوس حتى فى بلاد الهند (٤) . وقد جعل نفوذهم ، أو بالأحرى الضغوط التى يمارسونها من جزيرة قيش Keïch المرفأ الرئيسى للسفن القادمة من الهند (٥) ، ولم تكن أية سفينة قادمة من بلاد الدجلة والفرات تجرؤ على المرور على مرأى من الجزيرة دون أن ترسو عندها (٦) . وهكذا أصبحت الجزيرة سوقا هامة ، وكان تجار الهند ، والهند الصينية يبيعون فيها كميات كبيرة من توابلهم لتجار الجزيرة العربية ، وفارس ، وبلاد ما بين النهرين ، الذين يجلبون بدورهم منتجات هذه البلاد الصناعية والزراعية (٧) . وكان تجار الجملة من كل الأنواع يتواعدون للقاء فيها . وثمة فقرة فيما كتبه الشاعر « سعدى » تعطينا فكرة عن الأعمال التى كانت تجرى فيها : فقد قال له تاجر ثرى قابله فى قيش ، فى غضون حديث دار بينهما انه سوف يقوم برحلته الأخيرة قبل أن يعتزل العمل ، وانه كان مشغولا وقتئذ بشحن كبريت من فارس الى الصين حيث كانت اسعار هذه المادة مرتفعة كثيرا فى تلك

---

(١) الادريسى ، الجزء الأول ، ٣٩٧ .

(٢) Pariset, Histoire de la soie, II, 142, not. 1.

(٣) Wüstenfeld, Jakut's Reisen dans la Zeitscher der deutsch. morgenl. Des XVIII, 420 et s. Jaqout Dictionn. de la Perse, par Barbier de Meynard, p. 332 ; Weil, Gesch d. Chalif III, 23 et s.

(٤) Edrisi, I, 59, 152, 171 : Jaqout, dans Wüstenfeld, op. cit., p. 419 et s.

(٥) ياقوت ــ المرجع السابق .

(٦) ماركو بولو . Marco Polo, éd Pauthier, I, 47.

(٧) Benj : of Tudela itinerary, éd. Asher, I, 137 : Zaccaria Kazwini et Abdallah Schirazi, cités par Ouseley, Travels in various countries of the East, I, 171 et s.

الآونة ، وبعد ذلك يصدر الى اليونان خزفا صينيا ، والى الهند ديباجا من اليونان ، والى حلب فولاذا من الهند ، والى اليمن زجاجا من حلب ، وأخيرا الى فارس أقمشة مخططة من اليمن (٢) . ولم يقل سعدى ما اذا كان هذا التاجر من أهالى جزيرة قيش ، غير أن هذا لم يكن محتملا لأن أهالى هذه الجزيرة لم يكونوا من الرحالة ، وانما هم يقنعون بالعمل سماسرة للتجار الأجانب (٢) . وكان من بين السلع الرئيسية في سوق قيش ، بخلاف منتجات الهند ، سلعة من منتجات الخليج الفارسى ، ونعنى بها اللآلىء ، فقد كان هناك أكثر من ثلثمائة مغاص متناثرة على طول السواحل ، وبخاصة بالقرب من جزيرة أفال Aval (البحرين) ، ولذلك كانت على الدوام ملتقى العديد من التجار (٣) . وكان الجزء الأكبر من هذه اللآلىء يصعد الى الشمال ، عن طريق مصب نهر الدجلة (٤)، ويتكدس في سوق بغداد الكبيرة . وكانت بغداد فى عصور الخلفاء سوقا رئيسية من أسواق آسيا ، تصل اليها عن طريق البر منتجات فارس ووسط آسيا والصين . وكانت القوافل المنطلقة من فارس والمتجهة غربا تسلك غالبا طريق بغداد . وهذا أمر طبيعى بالنظر الى السيادة التى كان يمارسها الخلفاء على هذا البلد . ومن جهة أخرى كان العرب والفرس والتاوجك المستوطنون حول نهر الأجروس (حاليا أموداريا ــ جيحون ــ المترجم)، على حدود دولة الخلفاء يجتازون مناطق وسط آسيا التى يقطنها شعوب مستقلة من الجنس التركى ، ويواصلون طريقهم حتى الصين ، ويعودون لمنتجاتها الى الأسواق العربية . وكان يرحلون من فرغانة (خوقند Khokand على نهر ياجزارت الأعلى ، ويعبرون ممر تريك Térek ، أو يسلكون الطريق الكبير الذى يمر بطلس Talas ويحاذى بحيرة اسيك قول **Issik Koul** وينتهى فى حوض نهر تريم **Tarim** عند كوتشا Koucha حيث يتلاقى الطريقان ، ومن هناك يواصلون سيرهم صوب الحدود الصينية مارين غالبا بواحة خامى **Khami**، وكانوا يذهبون أيضا الى الخوتان **Khotan** لاحضار المسك والراوند . وكان سكان الخوتان والتبت يمضون من جانبهم حاملين بضائعهم الى فرغانة وأفغانستان وفارس (٥) . كانت هذه الحركة كلها فى صالح بغداد التى تصب فيها منتجات الشرق كله . وكانت المنتجات التى لا يستهلكها سكان المدينة الكثيرون تخرج من هناك وتنتشر فى العالم

---

(١) توجد هذه المعلومة فى القصة الثانية والعشرين من الفصل الثالث من كتاب « الجلستان » للسعدى (المكتوب فى عام ١٢٥٨) . أنظر الترجمة الفرنسية ل : Defrémery, p. 177-179.

(٢) Benj. Tudel I.C.

(٣) الادريسى ، الجزء الأول ، ص ٣٧٢ وما بعدها

(٤) وهناك أيضا ، كان يتصدى لها جمارك سلطان قيش ، انظر « ياقوت » فى : -- Barbier de meynard, p. 112; dans Wüstenfeld, p. 418 et s.

(٥) الادريسى ، الجزء الأول ، ٤٩٢ وما بعدها ، الجزء الثانى ٢١٤ وما بعدها ، ينبغى أيضا قراءة تفسيرات رشتهوفن (Richthofen, China, I, 502 et ss.) وأنظر أيضا الخريطة رقم ٩ المرفقة ، لهذا المؤلف .

كله ، اما عبر الطرق النهرية العديدة ، واما عبر طرق القوافل الممتدة حولها ٠
ويؤدى بنا موضوع هذا الفصل الى الاهتمام أولا بالطرق المؤدية الى سوريا ٠
ومن المزايا العديدة لموقع بغداد ، مزية ليست أقلها شأنا ، ذلك أنها واقعة على نقطة يكون عندها مجرى الدجلة ومجرى الفرات أقرب ما يكونان احداهما من الآخر ، ويتصل النهران أحدهما الآخر بقناة قصيرة ، تسمى « نهر عيسى » Nahr-Issa ، وتشكل في بحثنا هذا الشريان التجارى الرئيسى ٠ وكانت منتجات الهند وفارس التى تصدر عن هذا الطريق تصل الى الفرات عند عنبر Ambar وتصعد النهر حتى الرقة Rakka وهى موقع تجارى مزدهر منذ عدة قرون (١) ٠ وكانت نقطة تقاطع طريقى القوافل الكبيرين المؤديين الى الفرات : أحدهما يخرج من نهر الفرات شمالى بغداد ، عند الموصل ، وهى مقر صناعة أنسجة هامة وتجارة ساسعة (٢) ، ويتحول الى Nisibe (نصيبين ؟) ثم يمتد وراءها فيصب فى آسيا الصغرى كمية هائلة من منتجات الشرق ، أما الطريق الآخر فانه يبتعد عن الدجلة عند أميدا Amida (ديار بكير) ، ويصل الى الرقة مارا بساموساطة Samosate ، وادسا Edessa ، وحران Harran (٣) ٠

ونصادف هنا بضعة أسماء تتردد كثيرا فى تاريخ الحروب الصليبية ، ونحن نعلم أن الصليبيين واصلوا غزواتهم حتى نهر الفرات وما بعده الى بلاد ما بين النهرين ، وأسسوا كونتيــة فى ادســا ، عاشت حــوالى نصف قرن (١٠٩٨ ــ ١١٤٤) ٠ ولعله يهمنا أن نعرف ما اذا كان الغربيون الذين استقروا فى هذه الكونتية قد استفادوا فى تجارتهم من التسهيلات التى أتاحها لهم مجرى النهــر الصــالح للملاحة ، أم أنهم اتبعوا طرق القوافل للذهاب لأداء مشترواتهم فى بغداد أو الموصل ٠ ولا يوجد فى الأخبار التاريخية أية اشارة فى هذا الخصوص ، غير أنى لا أتردد فى القول بأنهم لم يفعلوا شيئا من هذا أو من ذاك : فقد اقتصرت سيطرة الفرنجة على اقليم الفرات على احتلال أهم المدن والقلاع احتلالا عسكريا ، وكانت الحاميات قليلة نسبيا ، ولم يكن لدى الرجال المسلحين الذين يشكلون هذه الحاميات أى وقت أو ميل لممارســة التجارة ، لذلك لا نرى من أية جهة أن الجنويين أو البيزيين قد مضوا الى ضفاف الفرات طلبا للثروة ٠ فالسـكان من الأهالى القدامى ، وغالبيتهم العظمى من

---

(١) الادريسى ، الجزء الثانى ، ١٣٦ ، ١٤٤ ٠

(٢) اقرأ ما نقوله ماركو بولو بشأن الموصل : éd. Pauthier, p. 45.

وسوف اثبت فيما بعد أن هؤلاء التجار الكبار ، تجار الموصل كانوا يزورون أيضا مملكة بيت المقدس ٠

(٣) الادريسى ، الجزء الثانى ، ١٤٨ ــ ١٥٣ : ياقوت ، فى — Wuestenfeld, op. cit., p. 431-444;

السوريين والأرمن المسيحيين هم وحدهم الذين زاولوا هذا النشاط تبعا لعاداتهم القديمة (١) ٠

لقد تتبعنا حتى الرقة الطريق التجارى الرئيسى الممتد من الشرق الى الغرب ، وابتداء من هذه المدينة يصعد الطريق مجرى نهر الفرات حتى الى القرب من بليس Balis ، ثم يبتعد منحرفا أولا الى حلب (٢) ، سوق الحراير الكبير ، الأمر الذى يثبت أن هـذه المدينة كان لها علاقات عـديدة بوسـط آسيا (٣) ، ومن هناك ينقسم الطريق الى فرعين رئيسيين ، يصلان الى البحر المتوسط عند أنطاكية من جهة ، ولاوديكيا من جهة أخرى ٠ ويحكى سانوتو Sanuto الذى كتب فى بداية القرن الرابع عشر ما يلى : « فى الزمان الماضى كان القسم الأكبر من السلع والتوابل (الهندية) المرسلة الى الغرب تمر ببغداد ، وتنقل منها الى بحرنا (البحر المتوسط) عن طريق أنطاكية ولاوديكيا ، وكان عندنا وقتئذ منتجات الهند بكميات كبر وثمن أقل مما هى عليه فى الوقت الحاضر » (٥) ٠

والمؤرخ حين ينـوه برخص ثمن المنتجـات الهنـدية فى زمن ماض فانه يسترجع ذكريات أيام شبابه ، أو يردد حكايات شائعة لدى مواطنيه البنادقة ؛ ذلك لأنه لايوجد فى ذلك العصر مؤرخ كان له صـلة بهذا الموضوع ٠ وعلى ذلك فان عبارة « فى الزمان الماضى ، لايمـكن أن تنصرف الى عصر سـابق على عصر الحروب الصليبية ٠ ونحن نعلم أن احدى المدينتين اللتين ذكر اسمهما توا ٠ وهى أنطاكية ، لم تكن بذاتها ثغرا على البحر ، وانما كانت متصلة بالبحر بطريق طوله عشرة أميـال (٦) ، ينتهى الى مينـاء سان سيمون (مدينة السويدية

---

(١) Guill. de Tyr. XVI, 4.

(٢) يؤيد الادرسى ، الحزء الثانى ١٣٦ أن الطريق الكبير ، طريق « العراق » ، والفرس ، وخراسان » يمر بحلب ٠

(٣) رحله ابن بطلان Ibn-Boutlan (المتوفى عام ١٠٥٢) ، ويتضمنها المؤلف الجغرافى الكبير لياقوت ٠ أنظر Wuestenfeld, Jakut's Reisen, op. cit., p. 450; — Kremer, Auszuege aus Ibn-osch-schinch's Gesch V. Haleb, dans les Wiener Sitz. Ber phil. hist Cl. 1850, Avril, p. 239, 243.

(٤) عند الاستيلاء على أنطاكية ، وجد الصلبيون بها كمية كبيرة من الفلفل والبهار ، أنظر : (Alb. d'Aix dans Bongars, p. 247)٠ هـذا النا يثبت أن تـلك المدينـة كـان لها صلات بالهند (عن طريق الفرات) ٠

(٥) Secr. fid. cruc. p. 22.

(٦) Guill. de Tyr, XV, 13; XVI, 26 : Sanuto, op. cit., p. 244 : Eugesippus, De distantues locorum terrae sanctae, éd. Allatius Symmict. p. 4.

الحالية (١) الواقعة على مصب نهر الأورنت Oronte) (*) على الضفة الشمالية من النهر • أما اللاوديكيا (اللاذقية) فانها تقع على شاطىء البحر ، وميناؤها من أجمل موانىء سوريا ، وكانت آنئذ حصينة ، مفتوحة لكل السفن (٢) • وفى الفقرة التى ذكرناها آنفا لا يذكر سانوتو الاسكندرونة التى أصبحت فى هذا العصر ميناء التصدير الرئيسى لسوق حلب ، ولكن هذا السكوت ليس بمستغرب لأن هذه المدينة لم يكن لها فى زمن الكاتب أية أهمية تجارية • ومع ذلك كان هناك وقتئذ مدينة تستحق الذكر الى جانب أنطاكية واللاذقية : تلك هى جبلة Gibel (le grand Gibel, Gabulum) ، وتبعد عن حلب نفس المسافة التى تبعد بها عنها المدينتان الأخريان (٣) . وكانت تتلقى بالتأكيد فى مينائها الصغير جزءا من البضائع الواردة من الفرات ؛ وكان استيطان الجنويين بها أكبر دليل على أن لها أهمية تجارية خاصة •

لقد تتبعنا حركة البضائع من الشرق الى الغرب حتى تصل الى شاطىء البحر المتوسط ، وسندرس الآن الطرق التى تمتد من الشمال الى الجنوب وراء الدول الصليبية • وكانت السوقان الاسلاميتان الكبيرتان ، حلب ودمشق متصلتين احداهما بالأخرى بطريق نرتاده القوافل كثيرا ، يجتاز مدينة حماه وحمص ، والاثنتان نهتمان كثيرا بحركة مرور البضائع (٤) • كذلك كانت أسواق حمص نستقبل البضائع من جهة أخرى،لأن طريقا للقوافل حاذيا لحدود الصحراء كان يصلها مباشرة بالرقة والفرات (٥)• ولما كانت حماه وحمص على بعد قليل من البحر ، كان على تجار هاتين المدينتين بطبيعة الحال أن يبحثوا عن منفذ اليهما ، غير أن الجزء منالساحل الأقرب الى المدينتين كانوقتئذ فى قبضة كنتطرابلسى،

---

(١) كان هدا الاسم مستعملا عند العرب فى عصر الحروب الصليبيه . أنطر الادريسى ، الجرء الثانى ١٣١ : .(Adoulf. Géogr. II, 2, p. 12) وكان الغربيون أيضا يعرفون هذا الاسم ، وأجروا عليه مخلف التحويرات ، والأسماء الأقرب شبها من الشكل الأشورى هى الألفاظ Sedium فى كتابه Raoul de Caen ص ١٥١ و Suidin Sudinum هى المواثيق الفينيسيه أ والجنوية أنطر : (Taf. et Thom. I, 102! Lib jur. I, 30, 31, 249.) ثم ياتى اسم Soldinum, Soldyn مبتعدين عن التسميه القديمه . ثم Solinum, Sollinum انظر : (Ughelli, It sacr. IV, 847; Lib jur. I, 17, 133; Caffar. Annal. p. 14 ; De liber civ. or. p. 41, 42).

(★) نهر العاص ـ المترجم

(٢) Edrisi, II, 131 : Aboulf. Géogr. II, 2, p. 35 : Chemseddin Dimachky, trad Mehren, p. 285 : Ibn Batouta. I. 185 : Wilbr. V. Oldenburg, p. 171. وقد تغيرت الأحوال منذ ذلك الحين •

(٣) يقدر ياقوت فى (Wuestenfeld, op. cit., p. 452). المسافه بينها وبين كل من المدينتينالأخريين بثلاثة أيام •

(٤) ياقوت ، المرجع السابق ، ص ٤٥٥ : الادريسى ، الجزء الأول ٣٥٧ وما يليها •

(٥) الادريسى ، الجزء الثانى ، ١٣٧ •

وكان لابد من شحن البضائع الواردة من القسم الأعلى من نهر الأورونت (العاصى) فى موانىء تابعة للفرنجة. كان الانسان يصادف أولا ، وعلى مسيرة يومين مرفأ صغيرا كثير النشاط ، ذلك هو مرفأ طرطوس Tortose الذى يذكره الادريسى ، تبعا لما ذكره الاصطخرى على أنه مرفأ حمص (١) ، وعلى بعد قليل ، طرابلس التى كانت مخازنها مكتظة بالبضائع الثمينة ، وميناؤها يجذب اليه السفن من كل البلاد ، وسكانهـــا خليطـــا من اللاتينيين ، واليونانيين ، والأرمن ، والمارنيين ، والنستوريين ، واليهود ، والمسلمين ، يمارسون التجارة والصناعة بنشاط(٢) . وهناك أخيرا على مسافة قليلة جبلة ، الميناء الصغير الصالح لرسو السفن ذات الحمولة الصغيرة ، وبه سوق ذكره أبو الفدا (٣) . فاذا عدنا أدراجنا الى الجزء من سوريا الذى بقى فى أيدى المسلمين ، صدمنـــا باسم دمشق ، مركز المنطقة ، وأهم سوق فى ذاك القطر . ومما يجعل أهمية كبيرة لهذا الموقع هو أنه نقطة تلاقى البضائع الواردة من فارس ، وبلاد مابين النهرين ، وآسيا الصغرى مع البضائع القادمة من مصر ، وبلاد العرب والمتجهة الى الشمال . وقد قلنا سالفا ان دمشق كانت نقطة انطلاق أكبر القوافل ، قوافل الحجاج الذاهبـــة الى مكة ، قافلة « الحج السورية » ، وكانت تضم أيضـــا الكثير من المســـلمين من البلاد ومعهم منتجات بلاد العرب ، وبضائع الهند المستوردة عن طريق عدن . وهكذا الشمالية . وكان التجار الذين يصحبون هذه القافلة وغيرها من القوافل الأقل أهمية ــ فقد كانت هناك قوافل من هذا النوع طوال السنة ــ يعودون من مكة ومعهم منتجات بلاد العرب وبضائع الهند المستوردة عن طريق عدن .

وهكذا كانت دمشق تتلقى توابل الهند من جهتين ، عن طريق الخليج الفارسى ونهر الفرات ، وعن طريق عدن ومكة ، كما ترد اليها منتجات غرب آسيا بكميات هائلة . ثم انها كانت أخيرا تقيم علاقات نشيطة مع مصر ، وبخاصة منذ أن اتحد البلدان تحت سيادة الأيوبيين . وفوق هذا التدفق للبضائع من كل البلاد ، كانت دمشق التى يسكنها قوم أذكياء بارعون (٤) ، تنتج بنفسها مواد ذات قيمة كبيرة ، فكانت الأقمشة الحريرية على اختلاف أنواعها ، وبخاصة الديباج المطرز بخيوط ذهبية تصنع هناك باتقان شديد ، لم يوجد ما يفوقه الا فى اصفهان ونيسابور ، ولم يستطع اليونانيون أن يبلغوا مستواه ، ولذلك كان هذا الحرير مطلوبا فى بلاد بعيدة (٥) . وكان يصنع بها مربيات ممتازة (٦) ، كما كان

---

(١) الادريسى ، الجزء الأول ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ : الجزء الثانى . ١٣٠ ، الاصطخرى ، ٣٧ .

(٢) الادريسى ، الجزء الأول . ٣٦٥ ، Burchardus, éd. Laurent, p. 28 : Wilbr., V. Oldenb., éd. Laur., p. 168.

(٣) الادريسى ، الجزء الأول ، ٣٥٦ : — Wilbr. I, c. p. 167 : Aboulf. Géogr. II, 2, p. 26.

(٤) Thietnar, éd. Laurent, p. 10.

(٥) Edrisi, I, 352 et s. : Francisque Michel, Recherches sur le commerce des étoffes de soie I, 254, 310 et s.; II, 214 et ss.

(٦) الادريسى ، الجزء الأول ، ٣٥٣ .

لسيوف دمشق شهرة عالمية ، مثلما كان لسائر الأشياء التى تخرج من أيدى صانعى الأسلحة بهذه المدينة . ولم تكن ثمة مدينة اسلامية جنوبى دمشق وشرقى الدول الصليبية فى عصر الحروب الصليبية تمارس التجارة بنشاط ؛ وكانت المدينة الوحيدة التى امتد رخاؤها الى مابعد نشأة الاسلام ، وهى بسترا Bastra قد اضمحلت . ومع ذلك لاننسى أن نتحدث عن سوق كانت تقام فى صيف كل عام فى الهواء الطلق على السهل شرقى الأردن ، وقد حدد السيد Motzarib حديثا موقع هذا السوق (meidan) بدقة تفوق من سبقوه فى ذلك ، فقد عين موقع موزرب Mauzarib فى الحوران Haruran (١) . ولما كانت موزرب مرحلة من المراحل الرئيسية فى طريق قافلة الحج السورية(٢) فمن المفترض أن السوق كانت تقام ثمة عند وصول القافلة القادمة من مكة . وعلى أية حال ففى مستهل الصيف ، كان جمع حاشد من المسلمين يهرع من جميع الأنحاء ، حتى من بلاد مابين النهرين ، ويتدفق على سهل موزرب ؛ ويقضى هناك تحت الخيام فترة السوق (٣) . ومن المحتمل أنه كان يرتاد هذه السوق أيضا تجار من الغرب لأن سكان الدول الصليبية حاربوا فى كل الأنحاء المجاورة ، ويعرفونها باسم سويتا Sueta أو سويت Suite (وحاليا سويت Souwet كما ذكر Wetzstein) ، وكانت جزءا من مملكة القدس فى أقصى امتداد لها (٤) . وعلى أية حال فلابد أن حركة المبادلات التجارية التى كانت تجرى فى سوق موزرب كان لها تأثير محسوس على المدن التجارية بمملكة القدس . فالواقع أنه فى الوقت الذى كانت فيه امارة أنطاكية وكونتية طرابلس بمثابة المعبر لتجارة البلاد الاسلامية والغرب ، كانت مملكة القدس ، مع بقائها على الدوام فى حالة حرب مع المسلمين ، توثق معهم فى أكثر من ناحية علاقات سلمية . كانت قوافل المسلمين التى تجتاز اقليم يحكمه أمير مسيحى أو أحد أتباعه تتعرض بالتأكيد

---

(١) Westzstein : Job, de Delitzsch (Leipzig 1864) p. 522 et ss. ; Ritter, op. cit., p. 1018 et ss.

(٢) Ritter, Erdk. XIII, 420, 423 ; l'éd, anglaise, dans les publications de la Hakluyt Society, p. 16.

(٣) Eugesippus, 1. C. p. 4 : Theodoricus, Libellus de locis sanctis, éd. Tobler, p. 109 : Thietmar, éd. Laur, p. 8 : Anon. lat., dans Vogué, op. cit. p. 422; Burchard., éd. Laur. p. 37; Guill de Tyr, XVI, 9 (cf. X111 18 : XXII, 21) : Sanut. Secr. fid cruc. p. 246.

(٤) Chartes de Terre Sainte provenant de l'abbaye de Notre Dame de Josaphat, publ par Delaborde (Bibl. des écoles française d'Athènes et de Rome, fasc. 19).

— رى Rey . مذكرات عن الاقاليم التى يمتلكها الفرنجة شرقى بحيرة طبرية ، والبحر الميت ، والاردن : (Mém. de la Soc. des antiq. de France, XLI) —

للسلب والنهب (١) ، ولم تكن هـذه حالة نادرة ، وربما لم تكن الرغبـة في الاستيلاء على الغنيمة هي الباعث الوحيد لدى سادة البلاد ؛ فقد تكون عندهم اسباب سياسية تدفعهم الى عرقلة التقدم المستمر في التجارة بين سوريا ومصر، لأن اتحاد هذين البلدين لايمكن أن يتم الا اضرارا بمملكة القدس . على أن هذه التجارة كانت تجرى بنوع خاص بوساطة القوافل التى نضطر الى اجتياز مملكة القدس ، فتدخلها اما عن طريق غزة ، وتصعد نحو الشمال الشرقى لتخرج ثانية عند بحر الجليل (بحيرة طبرية (Génézareth ، أو أنها تصل الى هناك قادمة من البحر الأحمر ، فتدخل وادي الأردن عن طريق غور Ghôr . ومهما كان الطريق الذى تسلكه القوافل ، فانها تجد نفسـها تحت رحمـة ملوك القدس لأن طريق الغور تتحكم فيه قلعتا كرك Kurak وشوبك Choubek (٢) . وحتي قبـل عهد صـلاح الدين ، كانت المملكة تمتد حتى « ايلة » Ailah (ايلات) على البحر الأحمر (٣) . وكان صاحب حصن كرك هو رينو دوشاتيون Renaud de Châtillon المغامر المشاغب الذى تركت احدى حملاته ضد قافلة للمسلمين ، وما أعقبهـا من سـلب ونهب ؛ تركت ذكرى لاتنسى ؛ ذلك أن صلاح الدين أعلن على الصليبيين فى عام ١١٨٧ حربا مشئومة انتقاما من هذه الأعمال . كانت أعمال النهب والسلب هذه ، على قول كل من الاصدقاء والأعداء انتهاكا صريحا للهدنة . ومهما كان الأمر ، فان تلك الاحداث تثبت أن قوافل المسلمين كانت فى أوقات السلم تجتاز حسب عادتها الاقليم المسيحى (٤) . وكانت معاهدات الصلح أحيانا تفرض أمن القوافل صراحة (٥) . وكانت هذه الحركة التجارية فضلا عن ذلك جزيلة الفائدة للدول الصليبية . ذلك لأننا حين نتصفح التعريفات الجمركية لمملكة بيت المقدس فى مجمـوعة قوانين المملكة ، نرى مثلا أن الكتان المصدر من القـاهرة الى دمشق يخضع لرسـم مرور (٦) . وكم من السلع الأخرى الذاهبة والعائدة على نفس الطريق كانت تأتى للخزانة الملكية بعوائد كبيرة ، ولم ينس الملك بلدوين الثالث هذا المورد فى الصكوك

---

(١) Alb. d'Aix, X, 35; XII : Joinville, Hist de Saint-Louis, éd de Wailly (1874) p. 294.
ـ استولى ريتشارد قلب الأسد على احدى هذه القوافل Itin Reg. Ricardi, p. 290; Contin de Guill. de Tyr, p. 185 D. 189, 196 et s. D.)

(٢) فى أهمية هذه القلاع أنظر : Wilken, II, 616 111, 2, p. 141, 229, 236, note
— Oliver. Scholast., De captione Damiatae, éd. Bong. p. 1191

(٣) أبو الفدا : Annal. musl. III, 633.

(٤) Ekkeh. (Hierosolymita, éd Hagenmeyer, p. 195 et s.)

(٥) نجد مثالا لذلك ، فى عهد بودوان (بلدوين) الثانى ، فى الجزء من الوقائع الذى ذكره بيجنو Beugnot فى كتابه : Assises de Jérusalem, II, 181.

(٦) بيجنو ، المرجع السابق ، II ، ١٧٥ .

التى نزل فيها عن قلاع الشوبك والكرك ، ووادى موسى بصفتها اقطاعيات . فنص فيها على تحفظ خاص بالقوافل (أى برسوم المرور التى تخضع لها) التى تمر على مرأى من هذه القلاع وهى ذاهبة من مصر الى بغداد ، وبالعكس(١) · وفى غير هذه الضريبة المباشرة ، كانت القوافل المارة تترك دائما بعض الأشياء فى مدن المملكة التى تجتازها · فاذا كانت مدينة طبرية ، متلا ؛ أهم مدن وادى الأردن ؛ فذلك لأنها واقعة على الطريق الكبير الممتد من مصر الى دمشق ؛ على مسيرة ثلاثة أيام من هذه المدينة : فهذا الجوار جعل منها مدينة تجارية ، وكانت البضائع التى تصدرها ترسل عن طريق مينـــــاء حيفا الواقع عند سفح جبل الكرمل Carmel (٢) ·

ومع ذلك لم تقتصر تجـــارة مملكة بيت المقدس على حركة مرور من بلد اسلامى الى بلد اسلامى آخر ، فقد أصبح البلد بعد قليل مركزا كبيرا للمبادلات بين الشرق والغرب · حقا ، لم يكن هنـــاك طريق من الطرق التجارية الكبيرة الموصلة من الشرق الى البحر المتوسط يصب فى اقليم المملكة : فبضائع الشرق التى تسلك هذه الطرق تصل اما الى شـــمال سوريا ، أو الى شمال مصر تبعا لما اذا كانت قد عبرت الخليج الفارسى وصعدت نهر الفـــرات أو عبرت البحر الأحمر · وكان هذا أمرا سيئا ناتجـا عن موقع البلد نفســه : ولكن ثمة مزايا تعوضه · فدمشق ، المستودع الكبير الذى ترد اليه منتجات الشرق كله بكميات هائلة ، يقع خلف المملكة ، وعلى مسيرة بضعة أيام من موانئها التجـارية ، ثلاثة أيام من بيروت وصيدا ، وأربعة من صور وعكا (٣) · ومن جهة أخرى، كان لأمم الغرب التجارية منشآتها الرئيسية فى موانىء مملكة بيت المقدس · وكان لهذا الاختيـــار ما يبرره : فهذه الأمم ، فى مجال الغزو قد كرست كل جهودها وقراها للاستيلاء على هذه الأماكن ، ومن ثم كان لابد أن تتركز هناك الحياة التجارية (٤) ·

قلنا فيما سبق كلمة عن التعريفات الجمركية ، ويرجع أول ذكر لها على الأرجح الى القرن الثانى عشر ، ونرى فيها تشكيلة كبيرة من السلع من منتجات معظم بلاد الشرق · فاذا كانت هذه التعريفات تطبق فى مدينة عكا ، وليس فى

---

(١) Chart de l'année 1161, dans Strehlke, Tab. ord. teuton, p. 4.

(٢) الادريسى ، الجزء الأول ٣٤٧ : ٣٤٨ : ياقوت فى وستنفلد Wuestenfeld ص ٤٦٠٠ ·

(٣) ياقوت ، فى وستنفيلد ، ص ٤٥٩ ·

(٤) لم تكن امارة انطاكية تجتذب الكثر من التجار الغربيين . وثمة ظاهرتان تثبتان ذلك . أولاهما ندرة التصاريح التى يمنحها أمراء انطاكية للأمم التجارية (الغربية) ، ثم ، وبنوع خاص ، الرسالة التى حررها الأمير بوهمند الثالث فى عام ١١٦٩ وفيها يحث صراحة الجنويين على الاكثار من التردد على بلده ، والاستيطان به فى أعداد كبيرة : (Lib. jur. I, 249)

ذلك أى شك ، فاننا نجد فى سوق هذه المدينة الراوند الوارد من الشرق الأقصى ، ومسك التبت ، والفلفل ، والقرفة ، وجوز الطيب ، والقرنفل ، وخشب الصبر ، والكافور ، وغير ذلك من حاصلات شبه القارة الهندية وجزرها ، وعاج الهند وأفريقيا ، والبخور ، والبلح من بلاد العرب ، وغير ذلك (١) . ويذكر بيجولوتى Pegolotti وهو يتحدث عن حالة التجارة فى عكا قبل أن تخرج المدينة نهائيا من أيدى المسيحيين ، يذكر من بين السلع التى كانت تباع فيها عددا كبيرا من منتجات الشرق الأقصى ، منها التوابل (٢) . ونجد أيضا فى أحد الصكوك (٣) ، أنه كان فى سوق بيروت الفلفل ، والبخور ، والنيلة ، وخشب البقم ، واللآلئ . من الواضح اذن أن موانئ مملكة بيت المقدس كانت تتلقى كميات كبيرة من منتجات وسط آسيا .

كان أهم هذه الموانئ بلا مراء ميناء عكا ، فكان ينزل من السفن هناك أعداد كبيرة من الحجاج ، ويعود الى السفن أغلبية هؤلاء الحجاج . وكان الميناء الفسيح الأمين يأوى عـددا كبيرا من السفن (٤) المخصصة لنقل الحجاج أو البضائع ، ويجد التجار فرصا كثيرة لتصدير منتجات الشرق الى أوروبا . ويلى عكا مدينة صور ، وهى مدينة زاهرة ، ومستودع فسيح ، تتيح للسفن الوطنية والأجنبية مأوى أمينا بنوع خاص ، بفضل مينائها المزدوج ، وحصونها المنيعة(٥). ولم تكن بيروت فى حالة تسمح لها بمنافسة هاتين المدينتين ، ومع ذلك فانها كانت أقرب منهما الى دمشق ، وكان ميناؤها ممتازا ، وقد اسهم هذان الظرفان آنئذ فى بعث الحياة والحركة داخل أسوارها (٦) . ولهذا السبب نفسه ، ولكن على نطاق أصغر ، كان لميناء حيفا الصغير بعض الأهمية اذ تمر به القوافل القادمة من طبرية . وكانت كل الموانئ التى ذكرناها تتبع القسم الشمالى من المملكة ، أما القسم الجنوبى فلم يكن به أى مرفأ له اتساع كاف لايواء السفن التجارية : ومن هذه الموانئ قيصرية (٧) ، ويافا (٨) ، وعسقلان (٩) . ومع ذلك ، ورغم

---

(١) Assises de Jérus. II, 173 et ss.

(٢) Practica della mercatura, dans Pagnini, Della decima e delle altre gravezze dei Fiorentini III, 48 et s.

(٣) Taf. et Tham. II, 233.

(٤) أحصى الحاج ثيودوريك الذى زار هذا الميناء بين ١١٧١ و ١١٧٣ ثمانين بها .
انظر : — Theodericus, De locis sanctis, éd. Tobler, p. 91.

(٥) Theoder I. C. p. 111 : Benj de Tud. p. 62 et s. : Jacq de Vitry, 1. c.

(٦) أبو الفدا : — Aboulf. Géogr, II, 2, p. 25 et s.; Phoeas, 1 c. p. 531.

(٧) Guill. de Tyr. X, 15 : Jacq de Vitr p. 1067.

(٨) Cf. Tobler, Topographie von Jerusalem und seinen Umgebungen, II, 585.

(٩) أبو الفدا : Aboulf. Géogr. II, 2, p. 17.

هذا العيب ، كان ميناء يافا أقرب ميناء من وسط المملكة ، ومن مقصد الحجاج ، لذلك كان يستقبل كثيرا من سفن الغرب طالما بقى اللاتينيون سادة بيت المقدس • وحتى بعد سقوط المدينة المقدسة ، ولأن دخول الميناء كان مسموحا للحجاج الغربيين ، فان حركة المرور لم تتوقف أبدا توقفا كليا • ولم يكن للتجارة الكبيرة شأن يذكر بهذه الناحية ، ولم يكن باستطاعة بيت المقدس أن ينافس المدن الساحلية مثل صور وعكا • كان بيت المقدس متصلا بمصر وبلاد العرب بطرق تجارية ، وكان بأسواقه توابل من الشرق الأقصى ، غير أن التجارة هناك كانت قاصرة على الحركة المحلية ، لسد حاجات بلاط لم يكن غنيا بنوع خاص ، وسكان قليلين ، وجمهور متذبذب من الحجاج • ومن أجل هذه الحاجات ، كان هناك مثلا حوانيت الصيارف ، وتجار الجوخ ، والصاغة ، يديرها بعض الفرنجة من الأهالى الذين ورد الحديث عنهم فى أوصاف بيت المقدس فى ذاك العصر (١) • وفى هذه الظروف ، لم يكن فى المستطاع أن تصير يافا ميناء بيت المقدس مركزا للمبادلات الهامة بين الشرق والغرب ، ومع ذلك كانت أسواقها فى عهد سيادة الفرنجة مليئة بالسلع (٢) • والى الجنوب ، كانت عسقلان أيضا مركزا لحركة تجارية كبيرة (٣) ، غير أنه بسبب قربها من مصر ، وسهولة الوصول منها الى هذا البلد ، عن طريق البحر أو البر ، باتباع طريق غزة المحاذى للساحل ، فان ميناءها كان بالأغلب وسيطا بين سوريا ومصر ، أكثر منه بين الشرق والغرب •

استعرضنا سواحل الدول الصليبية كلها ، من السويدية الى غزة ، وبينا الموانىء التى كانت تأتى اليها وتخزن بها منتجات الشرق بكميات كبيرة أو صغيرة فى انتظار سنوح الفرص لكى تصدر الى أوروبا • بقى علينا أن نعرف ما اذا كان التجار الفرنجة المقيمون بهذه الموانىء يتسلمون مباشرة بضائعهم الواردة من الشرق ، أو يذهبون لشراء هذه البضائع من أسواق المسلمين • ليس لدينا فى هـذا الخصوص ، وبالنسبة الى العصر الذى بلغت فيه الدول الصليبية ذروة مجدها سوى معلومات قليلة ، هى والعدم سواء • أما بالنسبة الى العهود التالية ، فاننا نقر بأن الوسيلتين كانتا متبعتين (٤) ، فالثابت أن

---

(١) 3e vol. de la série géographique publiée par la Société de l'Orient latin (Itinéraires à Jérusalem, rédigés en français aux XIe, XIIe et XIIIe siècles) ... p. 34, 38, 42 et s., 146, 147, 155.

(٢) أبو الفدا : Aboulf., Géogr. II, 2, p. 17.

(٣) Benj-de Tud., éd. Asher, I, 79, 80.

(٤) استقبل العالم المسيحى بصيحات الفرح والأمل لبا انتصارات جنكيز خان :
Lettre de Jacq. de Vitry, dans d'Achéry, Spicilegium, III, 591, et dans Zaurocke, Der Priester Johannes, Suppl. II, p. 14.

البنادقة كانوا فى حوالى منتصف القرن الثالث عشر يذهبون الى دمشق ، والى جهات متنوعه من اقليم المسلمين لأغراض البيع والشراء (١) ، ومن جهة أخرى نجد فى عكا ، الى جانب طائفة التجار الفرنجه عددا كبيرا من المسيحيين واليهود الشرقيين (٢) الدين يعيشون من التجارة : كذلك نرى تجار الموصل الكبار (٣) الذين تشير اليهم فقرة مما كتبه ماركو بولو ، اذ يحكى هذا الرحالة المشهور أن « أهالى الموصل » هم الذين يتاجرون فى التوابل ، والحرائر ، والديباج ، ومن ثم يحق لنا أن نفترض أن هؤلاء هم الذين كانوا يستوردون هذه السلع الى عكا • وما كان يجرى فى عكا كان يجرى ايضا فى سائر المدن الساحلية بمملكة بيت المقدس : لذلك فانا نقر بأن التجار الغربيين كانوا يذهبون بأنفسهم الى أقرب الأسواق الاسلامية طلبا لمنتجات البلاد الآسيوية ، أو أنهم لا يذهبون بعيدا عن مقارهم ، ويستلمون هـــذه المنتجات من أيدى الشرقيين المقيمين بجوارهم • وكان لحلب فى شمالى سوريا ، بالنسبة الى أمم الغرب التجارية نفس الجاذبية التى كانت لدمشق فى وسط سوريا • وليس من شك فى أن البيزيين بأنطاكية كانوا فى حوالى عام ١٢٠٠ يتاجرون ببضائعهم فى داخل البلد ، وأن وجهتهم كانت حلب ، لأنهم يدفعون رسما لأمير أنطاكية عند مرورهم على جسر أورونت المحصن (على نهر العـــاصى ــ حاليا) ، وهو الآن « جسر الحديد » على طريق أنطاكية ــ حلب (٤) • ومنذ أوائل القرن الثالث عشر ، عقــد البنادقة مع أمير حلب العــديد من المعاهدات التى ســوف ندرسها فى فصل خاص •

اننا الى الآن لم ننظر الى الدول الصليبية الا من حيث مرور البضائع الواردة من داخل آسيا بها : غير أن التجار الأوروبيين كانوا يجدون فى البلد نفسه حاصلات طبيعية أو صناعية تستحق التصدير • وكانت سوريا وفلسطين تتمتعان وقتئذ بخصوبة مدهشة (٥) . وكانت المنشآت الكبيرة المقامة لرى الأراضى ، والعديد من المزارع والحقول المؤجرة بطريق المزارعة ، والقرى (٦)

---

(١) Taf. et Thom. II, 397 et s.

(٢) وجد فيلبراند دولدنبرج Wilbrand d'Aldenbourg (الناشر لوران ، ص ١٦٣) سكان عكا من عناصر يونانية ، وسورية ، من يهود ويعاقبة •

(٣) Assises de Jérus. II, 178 : Contin : de Tyr, p. 474.

(٤) Doc. sulle relaz. tox p. 80 ; voy. Ritter, Erdk, 2, p. 1641.

(٥) ى خصوص الحاصلات الطبيعية فى هذه البلاد فى عصر الحروب الصليبية ، أنظر بخاصة : Iacques de Vitry, p. 1099 et s. Burchardus de Monte Syon, éd. Laurent, p. 86-88.

(٦) أحصى حول عسقلان ٧٢ مزرعة كبيرة يسكنها ٢٠٠ أسرة ، وعشرون مزرعة صغيرة : (Taf. et Thom. II, 398)
ويقول المصدر نفسه أن الثلث العنبسى بمدينة صور كان يضم قرابة ٨٠ مزرعة ، فكانت هناك فى المجموع حوالى ٢٤٠ مزرعة فى الضاحية •

التى وجدها القادمون الجدد فى ضواحى المدن ، واستمروا فى استغلالها ، تشهد كلها بمدى ما تلقاه الزراعة من عناية . كذلك كانت الحدائق ، وخاصة فى ضواحى طرابلس (١) ، وصور (٢) غاصة بفواكه الجنوب ، من ليمون ، وبرتقال ، وتين ولوز . وعلى سفوح لبنان من جهة البحر ، وعلى الكثير من النواحى الأخرى ، تزرع الكروم ، ويصنع منها نبيذ فاخر ، أشهر أنواعه نبيذ نيفن Nefin فى كونتيــة طرابلس (٣) . وكانت مزارع الزيتــون وحقول السمسم (٤) تعطى محاصيل وفيرة من ثمار زيتية (٥) ، وفى الأراضى المقدسة رأى الغربيون قصب السكر لأول مرة (٦) . وكثيرا ما ارتوى الصليبيون بقصب السكر حــين كانت جيوشهم تجتاز ســوريا وفلسطين ابان الحملة الصليبية الأولى . وفيما بعد ، حين أصبح الفرنجة سادة البلد ، تعلموا من السوريين زراعته واستخلاص عصيره ، وأصبح السكر من السلع التصديرية الرئيسية فى سوريا (٧) ، وأصبح الكثير من المحاصيل الفاتحة للشهية ، التى تنتجهــا تربة سوريا زينة لموائد الغربيين . وفى القرن الثانى عشر ، قدم ثرى من كانوسا Canossa لضيوفه ، مع الفواكه المستوردة من الخارج ، فواكه فلسطين وطرابلس التى استجلبها غالبا عن طريق بارى أو ترانى Trani (٨) .

واذا انتقلنا من الأغذية الى الثياب ، نرى أن الدول الصليبية تنتج القطن والحرير (٩) ، وكان جزء من هاتين المادتين يصدر كمادة خام (١٠) ، وجزء منهما يصنع محليا . ففى سوريا تنسج أقمشــة بارعة فى فنها ، تتمتع بشــهرة

---

(١) Burchard. éd. Laur. p. 28 : Edrisi, I, 356.

(٢) Guill. de Tyr, XIII, 3 : Taf et Thom. 11, 351 et ss.

(٣) Burch. p. 88, 28 etc. : Wilbr. ab Oldenb. éd. Laur. p. 168 : Assises de Jérusalem II, 177, 179, 180.

وبخصوص زراعة الكروم والنباتات الزيتية فى الدول الصليبية ، أنظر :

— Prutz, Culturgesch der Kruzz, p. 553 et ss.

(٤) ذكر زيت السمسم فى قوانين مملكة القدس ، الجزء الثانى ، ١٧٥ :

— Taf. et Thom. II, 385 ; etc. etc.

(٥) فى عصر الخليفة المأمون كانت فلسطين تصدر سنويا لبلاط بغداد ٣٠٠٫٠٠٠ رطل من الزيت : cf. Ibn Khaldoun, Prolégomènes, I, 366.

(٦) Jacq. de Vitry, pp. 1075, 1099.

(٧) سوف نقدم مزيدا من التفاصيل عن موضوع السكر فى الفصل الخاص بالمواد التى كانت موضوعا للتجارة .

(٨) Joh. Sarisberiensis, De nugis curialium, lib. 8, cap. 7.

(٩) Jacq. de Vitry, p. 1099; Burkhard p. 86 et s.; Wilbrand d'Oldenbourg trouve la sire au nord de Tripoli (éd. Laurent, p. 169).

(١٠) Taf et Thom. II, 233; Assises de Jérusalem, II, 173; Lib. jur. 1, 71 et s.

عريضة (١) ٠ وعندما كان القديس لويس فى فلسطين ، بعث نائبه دو جوانفيل ليبتاع فى طرطوس مائة قطعة من قماش « الكاميلان » المختلف الألوان ليهديها عند عودته الى الفرنسيسكان (٢) : ويدل هذا الخبر الصغير على أن أصغر المدن كان لها تخصصاتها فى هـذا الفرع من الصـناعة ٠ ومع ذلك كانت المراكز الرئيسية لصناعة الحرير أنطاكية وطرابلس وصور ٠ وعندما استولى الصليبيون على أنطاكية وجدوا من الغنائم بخلاف الذهب والفضة والأحجار الكريمة والاوانى الفاخرة سجاجيد وأقمشة من الحرير الخالص (٣) ٠ وفى عهد سيادة الفرنجة استمر فى تلك المدينة صناعة الأقمشة البديعة (٤) ٠ وفى طرابلس ، شغل نسيج الحرير عددا كبيرا من الصناع ٠ وفى نسخة من «وصف الأراضى المقدسة» لبركهارد Burkhard — محفوظة الى يومنا هذا — نجد أن عدد المشتغلين بنسيج الحرير و « الشملة » (*) فى هذه المدينة بلغ ٤٠٠٠ عامل وأكثر (٥) ٠ ويلاحظ أن هذا الرقم يطابق تماما الرقم الذى ذكره المقريزى ، فيقول هذا المؤرخ أنه فى الزمن الذى استعاد فيه السلطان قلاوون هذه المدينة ، بعد رحلة بركهارد فى سوريا ببضع سنين ، كان بها ٤٠٠٠ نول تعمل بهمة ونشاط (٦) ٠ وكانت صور متخصصة فى صناعة أقمشة بيضاء ثمينة تصدر الى جهات بعيدة ، وكانت الأقمشة الحريرية الخارجة من مصانعها تباع أيضا فى الغرب (٧) ، كما كانت الأقمشة التى يصنعها النساجون السوريون فى حى البنادقة مطلوبة كثيرا حتى ليقال أن السفن الفينيسية كثيرا مما كانت تنتظر الانتهاء من صنعها لتشحنها الى أوروبا ٠ وكان معظم هذه الأقمشة يلون بألوان متنوعة ، وتزودها الطبيعة بهذه الألوان ، وكانت مواد الصباغة موجودة فى البلاد نفسها ؛ فينتج وادى الأردن النيلة (٨) ، وتنتج ضواحى دمشق ووادى « الأورونت » (نهر العاصى) « الفوة » (**) (٩) ٠ وكان البحر يلقى على شاطىء صور الأرجوان (١٠)، تلك الصدفة المعروفة من قديم الزمان ٠ وكانت الصباغة صناعة مزدهرة ، ازدهار

(١) Francisque Michel, Recherches sur les étoffes de soie, I, 347 et s.

(٢) Joinville, Hist de St Louis, éd de Wailly (1874) p. 328.

(٣) Guıll de Tyr, V, 23.

(٤) الأدريسى ، الجزء الثانى ، ١٣١ ، « قوانين مملكة القدس » ، الجزء الثانى ، ١٧٩ ٠

(*) (كساء من صوف أو شعر يلقى به على الكتفين — المترجم)

(٥) Edition de Reinerus Reieccius (Magdeb. 1578) no 13; éd. Laurent, p. 25; Neumann, dans l'Asterr. Monatschrift fuer den Orient, 1880, p. 78.

(٦) المقريزى Mekrisi, Hist. des sultans mamlouks, éd. Quatremère, II, 1, p. 103.

(٧) الادريسى ، الجزء الأول ، ٣٤٩ : — Michel, 1, c. I. 208.

(٨) الادريسى ، الجزء الأول ، ٣٣٩ ٠

(**) (عشب معمر ، يستخرج من شذوره مادة تستعمل فى صنع الصوف والحرير — المترجم)

(٩) Ritter, Erdk. XVII, 1, p. 622; XVII, 2, p. 1358, 1391.

(١٠) Benj. de Tudèl., éd. Asher, I, 63.

صناعة النسيج ، وكانت مركزة فى أيدى اليهود (١) · وكان بسوريا مصانع للأوانى الخزفية والزجاجية الدقيقة (٢) ، واحتفظ زجاج صور دائما بشهرته القديمة الراجعة الى شفافيته غير العادية · وثمة سببان لهذه الشهرة : جودة المواد الأولية (البوتاس المستخلص من الرماد) التى ينتجها البلد نفسه · ثم مهارة الصناع ، وكلهم تقريبا من اليهود · وكانت التجارة تصدر هذه الزجاج الى جهات بعيدة ، وتحصل منه على أرباح كبيرة (٣) ·

مما سبق كله يتبين لنا مدى ثراء سوريا بسلع التصدير · الا أنه من الثابت أن السفن التى كانت تأتى طلبا لمنتجات الشرق لم تكن تصل خالية ، ولكنها تجلب شحنات من بضائع الغرب · ذلك أن فرسان الغرب وسيداته ، الذين استقر بهم المقام فى قصور سوريا ، ورجال الدين الذين نشأوا فى الكنائس والأديرة وأفراد الطبقة البورجوازية فى المدن الفرنجية الذين انتقلوا الى مدن الشرق الأدنى ، كانوا فى حاجة الى أشياء كثيرة لا يمكن أن يزودهم بها غير الصناعات القائمة فى أوطانهم الأصلية · بل ان الوطنيين أنفسهم قد عرفوا منهم أقمشة أوروبا وأدواتها المنزلية · والثابت ان احضار منتجات الغرب لعرضها فى أسواق الشرق كان يتطلب جهودا لا نملك بشأنها سوى دلائل غير كافية · يضاف الى هذه الحركة التجارية حركة غير عادية للمسافرين بين أوروبا وفلسطين ، فكان هناك كل يوم أعداد كبيرة من رجال الدين والفرسان والحجاج والمغامرون ورجال الصناعة يرغبون فى السفر حتى لم تكن ثمة سفينة تبحر وهى خالية من الركاب ، وكانت حركة السفر نشيطة جدا ، فكان الى جانب السفن الفردية ، أساطيل حقيقية ، تسمى « قوافل » ، وكان التجار الذين يحضرون معهم سلعا ثمينة ، يفضلون هذه الوسيلة فى السفر ، لأنها تكفل لهم أمنا كبيرا من غارات القراصنة · وكان ينتظم بعامة فى موانىء الغرب رحلتان كبيرتان فى الموسم الملائم : الأولى فى (أعياد الفصح تقريبا) (٤) ، والثانية فى عيد القديس يوحنا

---

(١) Ibid. I, 58, 63, 65, 69, 75, 78, 79 : Carmoly, Itinéraires de la Terre sainte, p. 129 et passim ; Cf. Ritter Erd., XVIII 1, p. 379.

(٢) فى يافا وصور : — Carmoly, 1. c. p. 248, Edrisi, I, 349.

(٣) Guill, de Tyr, XVII, 3 ; Jacq de Vitry p. 1098 : Benj de Tudél. I, 63 : Edrisi, I, 349. Benj. du Tudèl, I, 58.

ـ كان اليهود القلائل الذين يقطنون فى أنطاكية يزاولون صناعة الزجاج ·

(٤) Taf. et Thom. II, 391 et ss. Cf. Annal. Jan. p. 238, 239, 412, 457, 489, 508; Dandolo dans Murat., SS., XII, 371; Cont. de Guill. de Tyr, p. 447, 610.

(٥) «Passagium pascnoe s. Martii» Paoli, Cod. dipl. I, 125 : Ravnold. Annal eccles. ad an. 1238, no 26 : Roger, de Hoveden, éd. Stubs, IV, 187, "Passage de Marz» : Villeh., éd. de Wailly, p. 44; Jacq. de Vitry p. 1138 : Guill de Tyr. XVII, 8, étc.

المعمـــــدان (١) (٢٤ يونيــــــة) • ومـع ذلك كانت رحـلة الربيــع تؤجل أحيانا الى شـــهر مايو (٢) كما تؤجل رحلة الصـــيف الى شهر أغسطس أو سبتمبر (٣) • وفي مستهل القرن الثالث عشر ، نظم البنادقة رحله شتاء (٤) الى سوريا ، الا ان الرحلات بقيت بوجه عام قاصرة على رحلتين ، حتى عام ١٢٧٨ ، وفي هذه السنة قرر مجلس شيوخ البندقية الا يرحل كل عام سوى أسطول واحد ، في شهر أغسطس ، قاصدا سوريا وأرمينيا ومصر وقبرص ، وحظر على السفن المبعوثة الى جهات أخرى أن تغير وجهتها لتزور هذه البلاد (٥)، وكان الاقلال من الرحلات يبرره غالبا الحاجة الى عدد أكبر من السفن لخدمة خطوط ملاحية جديدة • وكان وصول أسطول من هذه الأساطيل دليلا على تجدد النشاط التجارى فى موانى الشرق الأدنى ، وتنتظم التجارة فى سوق كبيرة طوال فترة توقف الأسطول فى الميناء • ومع ذلك كان التجار الغربيون الكثيرون المستقرون فى مواقع ثابتة من موانى سوريا يهتمون بالا تفرغ مخازنهم من السلع ، فتظل حوانيتهم مفتوحة ، وتستمر حركة التبادل التجارى بين منتجات الغرب ومنتجات الشرق نشيطة طوال السنة • من الصحيح اذن أن نسلم بأن هؤلاء المستوطنين يؤدون لتجارة الشرق الأدنى من الخدمات أكثر مما يؤديه التجار الذين تقتصر مهمتهم على الذهاب والعودة مع الأساطيل التجارية • ولم يكن فى عبور البحر المتوسط مصاعب كثيرة ، وكان فى مقدور الذين يخشون مخاطر السفر فى أعالى البحار أن يعبروا مع ذلك البحر المتوسط بالسير بحذاء سواحل أوروبا ، والانتقال بين الجزر العديدة المتناثرة فى هذا البحر ، فيجدوا بذلك موانى مناسبة يرسون عندها • ثم انه كان من النادر فى ذاك الأوان أن يخاطر الناس بالابتعاد عن الشواطىء ، فنرى مثالا لذلك أن الصليبيين الحجاج القادمين من بحر الشمال (٦) ، بعد أن يجتازوا مضيق جبل طارق ،

---

(١) «Passagium oestivale, passagium S. Johannis»; v. les lettres de Grégoire IX dans Reynald, 1. c. no 2, de St Louis, dans Duchesche, V. 432, de Guillaume, partiarche de Jérusalem, dans la Biblioth. de l'école des charles, 4e serie, T, IV, p. 124.

(٢) Duchesne, 1. c.

(٣) Duchesne, 1. c.; Guill de Tyr, XI, 20 ; Paoli, 1. c. Dal Borgo, Dipl. Pis., p. 185 Taf et Thom. III, 36 : Mas-Latrie, Traités de paix et de commerce, Suppl. p. 2, 3 : «Caravana Augusti», dans la «Commission pour la Crète» de l'an 1350, publié par Thomas, Alh. d. bayr. Akad. Cl. T, vol. XIV, Sect. 1, p. 195; Bibl. de l'éc des Chartes, 4e série, T. IV, p. 124.

(٤) Taf. et Thom II, 261.

(٥) Collect des doc. inéd., Mélang. hist. III (1880), p. 17.

(٦) نجد بيانات السفر لبعض هؤلاء الحجاج في : Adam de Brèm, Pertz, ss. VII, 368 (addit), et dans les Annal. Stad. ibid. XVI, 340, et dans lsa Chron d'Emcn et de Menkon Pertz ss. XXIII 478 et ss., 554 et ss.

ـ توقف كل هؤلاء الحجاج فى ميناء مرسيليا •

يخشون المخاطرة بالابحار على طريق مباشر من الغرب الى الشرق ، ويفضلون اتباع طريق طويل يحاذى شوطىء أسبانيا وفرنسا وايطاليا • وفى البداية ، كان أهالى مرسيليا يسيرون أيضا بحذاء سواحل ايطاليا ، ويتوقفون عند صقلية كانديا،وربما أيضا عند رودس وقبرص،ولم يجسروا على الابتعاد عن الملاجىء الأمينة التى توفرها السواحل والجزر الا فيما بعد ، فكانوا عندئذ يتركون سردينيا وصقلية وكانديا الى يسارهم ، وينطلقون فى أعالى البحار على خط مباشر الى عكا ، ولم يكن هذا العبور يستغرق أكثر من خمسة عشر يوما وليلة اذا أتيح له ريح مواتية (١) • ولم يتبع هذا الطريق بوجه عام الا فى أواسط القرن الثانى عشر ، وحتى بداية هذا العصر لم تكن السفن تخاطر باتباعه الا بنوع استثنائى ، وفى بحر هادىء ، ولم تكن تواصل الملاحة الا بجوار السواحل (٢) • ولما كان نقل البضائع يتم ففط على سفن شراعية تجارية ثقيلة ، وكان المطلوب عدم تعرضها لأية مخاطر ، فقد بقى الطريق التجارى المطروق أكثر من غيره ، كما كان فى الماضى هو ذلك الذى يخترق مضيق مسينا • وبالنسبة الى أهالى جنوا ، وبيزا وأمالفى لم يكن هذا الطريق هو الأكثر أمانا من غيره ، ولكنه كان أيضا الأقصر • وابتداء من صقلية كانت السفن تسلك طريقا مباشرا صوب الشرق عبر البحر الأيونى حيث تنضم السفن القادمة من غربى البحر المتوسط الى القادمة من البندقية وأنكونا وموانىء بوليا (أو أبوليا) • وكان أول مرسى لهذه السفن كانديا فى منتصف الطريق بين صقلية وعكا ، وقلما كانت السفن تمر أمام رودس دون أن تتوقف عندها ، وكانت قبرص آخر موقع ترسو عنده •

كانت الدول التى لها علاقة تجاربه بالشرق تهتم بمعرفة المحاط الوسطى التى فى أيدى بلاد صديقة • ففى صقلية كان الأمراء النورمان قد طردوا العرب منها ، وكانت كانديا ورودس وقبرص تابعة للأمبراطورية اليونانية ، وقد عقد كل منها معاهدات مع الدول التجارية • وفيما يختص بالملوك النورمان فانهم منحوا الجنويين فى صقلية مجموعة من الامتيازات (٣) عرف هؤلاء كيف

---

(١) هذى هى المدة التى ذكرها روجر دو هوفدن :
Roger de Hoveden (éd. Stubbs, III, 51) :
أما المعلق على « آدم دو بريم » (المرجع السابق) فانه بحسب ٤ أيام من مرسيليا الى مسينا ، و ١٤ بوما من مسينا الى عكا ، فيكون المجموع ١٨ يوما •

(٢) Gesta Regis Ricardi, éd. Stubbs II II, 198 et s. : Roger de Hoveden, I. c. 51, 160 Annal Stad. 1. c.

(٣) نعرف براءة منحها أياهم روجر الثانى فى عام ١١١٧ ، ونعرف أيضا براءتين اخريين منحهما الملك جويوم الأول (Lib jur. I, 190, 202 et s.). غيز أن الدراسة الدقيقة تتيح لنا أن نعرف أنهما ورفنان ماخوذتان من وثيفة واحدة تنتمى الى سنة ١١٥٦ ، أنظر فى ذلك : — Atti della Società Ligure, I, 289 et s.

يستغلونها لصالح تجارتهم مع الشرق الأدنى . وكانت سفنهم ترسو عند مسينا ، ومنذ بداية القرن الثانى عشر ، كانوا قد أقاموا هناك قنصلية (١) ، ويمتلكون بها تحت رعاية القديس يوحنا مستودعا (٢) يحتوى فى الكثير من الأحيان على بضائع من الشرق الأدنى تجلبها سفن جنوية عائدة من الاسكندرية أو سوريا لتباع فى صقلية(٣) .وكان للأمالفيين أيضا مستودع فى مسينا (٤). أما البيزيون فكانوا على مايبدو أقل حظا ، اذ كانت علاقاتهم الواهية بأسرة هوهنشتاوفن تجعلهم بلا شك مخطئين فى نظر الملوك النورمان (٥) .لذلك يبدو أنهم استفادوا كل الفائدة ، من حيث المزايا وكسب المال من الحملة التى أعدها فردريك بارباروسا ، ونفذها ابنه هنرى السادس بنجـاح بغزوة الجزيرة ، فعقدوا تحالفا مع الامبراطور ، ومـع الجنويين الذين لم يكونوا مع ذلك من الجبلليين (*) ، ولكنهم حدعوا ولم ينالوا الأجر الذى وعدوهم به (٦) . وفى هذه الأثناء توفى هنرى السادس ، واستغل البيزيون فرصة خلو العرش فى أعقاب هذا الحدث واستولوا على سيراكيوز : الا أن الامبراطورين كانا قد وعدا الجنويين بالذات بمنحهم هذه المدينة ، ولم يقبل هؤلاء أن يسيطر البيزيون على مدينة وقع عليها اختيارهم (أى البيزيين) ليفرضوا سيادتهم عليها . وفى عام ١٢٠٤ ، اجتمع عدد من سفن جنوا أمام جزيرة كريت ،وكانت احداها تحت قيادة رجل يدعى الامانوس دى كوستا Alamannus de Costa قد استولت من البيزيين على كمية كبيرة من الأسلحة فى معركة بحرية ، وشعر بحارتها بأن لهم من العدد والقوة ما يؤهلهم للقيام بهجوم مفاجىء على سيراقوسة . وفى الطريق انضم الى الأسطول جنوى آخر ، هو الكونت انريكو بسكاتورى Enrico Pescatore من مالطة، وبعد حصار دام سبعة أيام سقطت المـدينة فى أيدى هؤلاء القرصان الأشـداء واستولوا عليها باسم جمهورية جنوا ، وأقاموا حاكما عليها الامانوس دى كوستا الذى منح نفسه لقب كونت سيراقوسة(٧) . واستطاع أن يحكمها سنوات طويلة. ومن هناك أرسل سفنه تشق عباب البحر المتوسط كله للاستيلاء على سفن أعداء.

---

(١) أنظر براءة الملك روجر الثانى ، المذكورة بعاليه .

(٢) Annal. Jan. ad an. 1194. p. 108.

(٣) Lib jur. I, 202.

(٤) «Ravellus magister Amalphitanorum (Messanae» figure comme témoin dans un document de l'année 1172, cité par Gregorio, I, c. p. 23.

(٥) Gregorio, Cosiderazioni, II, 226.

(★) (أنصار الأباطرة من آل هوهنشتاوفن — المترجم)

(٦) Lib. jur. I, 207 et ss., 369 et ss.; Dal Borg,o Dipl. Pis p. 26, 34; Annal. Jan. p. 108-110.

(٧) Annal Jan. p. 121 et s.; Pirri, Sicil. sacra I, 658, II, 936 et s.

جنوا (١) ٠ وأخيرا ، فى عام ١٢٢١ وضع فردريك الثانى نهاية لهذه الأمور (٢) ، كما أنهى سيادة جنوا على سيراقوسة ، وكان الباعث له على هذا التصرف ان هذه الأقاليم التى كانت تابعة للسلطة الملكية تبعية اسمية فحسب لا يتوافق وصفها مع النظام المركزى الدقيق الذى اجتهد فى تطبيقه على صقلية ٠ وهكذا فبعد سبع عشرة سنة من الحيازة فقدت جنوا واحدة من أهم المحاط لتجارتها مع الشرق الأدنى ، وحاولت استردادها بتحالفها مع الكنيسة ضد الامبراطور ، وحمل الكرسى البابوى على التنازل لها عنها بصفتها اقطاعية (٣) ٠ وأثبتت الأحداث أن هذا كان وهما ٠ وفى الوقت نفسه استرد الامبراطور من الجنويين ملكية قصر فى مسينا كان قد وهبه لهم فى عام ١٢٠٠ (٤) ٠ وباستثناء هذا الخلاف الذى استمر أمدا طويلا ، كان عهد فردريك الثانى (٥) وابنه مانفرد Manfred (٦) ملائما كل الملاءمة للجنويين ، فقد منحهم الأميران الكثير من الامتيازات التى جعلت منهم ـ رغم فقدهم ـ سيراقوسة ـ الأمة الأكثر رعاية ، وأعطتهم فى صقلية مركزا متفوقا ٠

وفى العصر الذى تنازعت فيه جنوا وبيزا من أجل امتلاك سيراقوسة وانتهى هذا النزاع لصالح الأولى ، بدأ نزاع جديد بين جنوا وبين دولة أخرى بشأن محطة أخرى من محاط التجارة مع الشرق الادنى ٠ وكان الموضوع يتعلق بكانديا ، وهل تتبع البندقية أو جنوا ، وبقيت المسألة مزعزعة ، واضطرت البندقية الى استخدام كل طاقاتها للاستيلاء على تلك الجزيرة والاحتفاظ بها (٧) ٠ وسوف تتاح لنا الفرصة لنعود الى دراسة تاريخ هذا النضال ٠

هذه الوقائع تعرض علينا الأمم التجارية ، وكل منها يحاول التفوق على الآخر بامتلاك المحاط المتراصة على طول طريق الشرق ، وسوف نقدم الآن برهانا

---

(١) Annal Jan. p. 123 et s., 127, 129, 130, 132, 138, 141.

(٢) Annal. Jan. p. 146. Cf Winkelmann, Kaiser Friedrich II, p. 143, 145, 165.

(٣) انظر معاهدة الصلح التى أبرمت عام ١٢٣٩ بين البابا جريجوار (غريغوريوس) التاسع من جهة وجنوا وفينيسيا من جهة أخرى فى : — Lib. jur. I, 980 et ss.

(٤) Lib. jur. I, 462 et s.

(٥) Ibid. I, 621, 462, 564 : Annal. Jan. p. 139 Lib. jur. I, 653 et ss. 774 et ss.

(٦) براءة عام ١٢٥٧ (البراءة وثيقة رسمية ـ المترجم) المصدق عليها من مانفرد فى ٢٢ مارس ١٢٥٩ ـ بالرمو ١٨٥٧ ص ١٠٢ وما بعدها ، ومن جمهورية جنوا فى ١٧ من سبتمبر ١٢٥٩ (Lib. jur. I, 1293).

وثمة براءة أخرى تحتوى على أحكام مماثلة ، صادرة فى يولية ١٢٦١ : — Lib. jur. 1346 et ss.; Orlando, I. c. p. 115 et ss.

ـ يقر فايرا Vayra ان مانفرد منح الجنويين وحدهم حق استغلال أسواق صقلية : Vayra, dans l'introduction des Fandetta delle gabelle, 1. c. p. 31.

(٧) (كانديا Candia هو الاسم القديم لجزيرة كريت ـ المترجم)

على الجهود التى كانت تبذلها الأمم الأقدم والأقوى من غيرها لسد الطريق فى وجه الأمم الأحدث منها ، فمنذ مستهل القرن الثانى عشر على أكثر تقدير ، نمت حركة تجارية نشيطة للغاية بين المدن التجارية الواقعة على ساحل ايطاليا الغربى وجنوب فرنسا • ولسنا نريد اثباتا لذلك سوى العديد من المعاهدات التى عقدتها جنوا بنوع خاص ، وكذا بيزا مع كثير من المدن الكبيرة والصغيرة ، والسادة ، والأشراف بجنوب فرنسا • وكان الغرض من هذه المعاهدات أن تكفل لتجار هاتين المدينتين استقبالا طيبا فى جميع الأنحاء ، وضمان الأمن للأشخاص والبضائع فى البر والبحر(١) • وكان الساحل الجنوبى لفرنسا فى كثير من الأحيان مسرحا لحروب طويلة الأمد ناتجة عن المنافسة بين جنوا وبيزا الأمر الذى يثبت أهمية المصالح التى كان على هاتين الجمهوريتين أن تعملا على رعايتها فى هذه المناطق ، وقيمة الأموال العقارية والمنقولة التى تدافعان عنها هناك • وكان حماس التجار الايطاليين فى أن يفتحوا لأنفسهم أسواقا فى فرنسا ويقيموا بها منشآت يعود بالتأكيد على سكان القسم الجنوبى من فرنسا بمنافع هائلة ، كما يعود بالمنفعة بطريق غير مباشر على جيرانهم فى الشمال• وكان هؤلاء التجار يجلبون معهم كميات كبيرة من المنتجات الكثيرة التنوع من كل البلاد • وفى الزمن الذى زار فيه بنيامين دى توديل Benjamin de Tudèle مونبيلييه (١١٦٦ ـ ١١٦٧) كانت هذه المدينة سوقا عالمية شديدة الأهمية يفد اليها التجار من البلاد الاسلامية والمسيحية(٢) ، وكما قال هذا السائح الذى نقتبس منه هذه المعلومة ، كانت المدينة تدين برخائها الى وجود التجار الجنوبيين والبيزيين بها(٣) • وكان هذا هو السبب فى نجاح أسواق سان جيل Saint-Gille وفريجوس Fréjus ، فقد ثبت بأدلة كثيرة أن الجنويين والبيزيين كانوا يتجرون بهما(٤) • وكانت الأمتان تملكان مستودعات دائمة(٥) فى بعض المدن الكبيرة مثل مونبيلييه وناربون(٥) ، وكانت حوانيتهما مفتوحة بها طول العام •

---

(١) من المستحيل أن نذكر بالتفصيل كل الوثائق التى يتضمنها ال Liber jurium بحنوا ، وكتابى جيرمان Germain عن مونبيلييه (تاريخ بلدة مونبلييه ، وتاريخ تجارة مونبيلييه) وغيرها •

(٢) يعدد بنيامين دى توديل البلاد الآتية : الجارفة (بالبرتغال) ، ولمباردیا ، والامبراطورية الرومانية (ألمانيا ؟) ، ومصر ، وفلسطين ، واليونان ، وفرنسا ، وأسبانيا ، وانجلترا •

(٣) Ed. Asher, p. 33.

(٤) Marang., Annal. Pis. p. 253 bis 266 : Annal Jan. p. 66 Lib. jur. I, 512 et ss., 1277 : Canale, Nuova istoria di Genova, I, 333.

(٥) Lib jur. I, 39 ; ibid. I, 88 : Germain Hist. de la commune de montp. II, 424, 431 434, 476 : Lib jur. I, 1146.; Germain, Hist. du commerce de Montp. I, 113, not. 1, 234-236, 395.

غير أن مدن جنوب فرنسا هذه كان لها أيضا سفنها ، ولم تكن مجرد مدن قائمة على شاطئ البحر ، ولكن منها ما يتصل بالبحر بطرق غير مباشرة ، مثل آرل عن طريق الرون ، وناربون عن طريق الأود ، ومونبيلييه عن طريق ثغر لات Lattus وفيما بعد « ايج مورت » «Aigues-Mortes» ولم تقتصر سفن هذه المدن على الملاحة بطول السواحل المجاورة في أسبانيا وايطاليا ، ولكنها كثيرا ما قامت برحلات الى الشرق الأدنى ، كنتيجة لازمة للحروب الصليبية • وقدمت هذه الرحلات للحجاج تسهيلات زادت من أعدادهم زيادة كبيرة • وفى حوالى عام ١٢٣٨ كانت مرسيليا ترسل مرتين كل عام في شهر مارس (فى أعياد الفصح) ، وفى شهر أغسطس قوافل كاملة من الحجاج ، وباشرت السلطات البلدية رقابة فعالة تكفل للحجاج أماكن كافية بالسفن، ومعاملة طيبة(١) • ومن ثغر مرسيليا أيضا ، وبتصريح من السلطات ، فى عهد الرحلات البحرية ، تقلع السفن التى يجهزها « فرسان الهيكل » ، وفرسان القديس يوحنا(٣) لنقل الحجاج الى فلسطين ، وسفينة يملكها كونت امبورياس Empurias ، تجمع لها الركاب وكالة خاصة « تابيولا » Tabula (٤) ، ويسافر أيضا حجاج كثيرون من سان جيل(٥) ، وآخرون من آرل ، ومن ناربون، كما سوف نرى • على أن نقل الحجاج لم يكن الباعث الوحيد لهذه الرحلات ، اذ كان جزء من حمولة السفن يتشكل من التجار والبضائع(٧) ، وبخاصة حين حصل المرسيليون على امتياز ببعض الأحياء التجارية فى مملكة بيت المقدس • وان رؤية الفرنسيين يرسلون بأنفسهم من جنوب فرنسا سفنا الى الشرق ، ويذهبون الى هناك لاحضار السلع التى هم فى حاجة اليها دون الاعتماد على وساطة الايطاليين ليثبت قيام منافسة لم يكن بوسع الجنويين أن يتقبلوها عن طيب خاطر • وكشفت الجمهورية عن مقاصدها فى عام ١١٠٩ حين طلبت من بترام Betram كونت تولوز أن يتعهد بعدم التصريح بدخول مدينة سان جيل التابعة له لأى تاجر قادم عن طريق البحر ان لم يكن من أهالى

---

(١) Mery et Guindon, Hist. de la municipalité de Marseille, II, 279 et ss., IV, 118 et ss., 128 et ss.

(٢) Winkelmann, Acta imperii inedita, p. 117.

(٣) Paoli, Cod. dipl. I, 124-127.

كانت السفن التى تجهزها الطوائف الدينية تحمل فى الرحلة الواحدة من الحجاج عددا يصل الى ١٥٠٠ حاج ، وادت هذه المنافسة الى شكوى مجهزى سفن ميناء مرسيليا ، أنظر :

— Prutz, Culturgesch der Kreuzz. p. 105.

(٤) Teulet, Layettes du trésor des Chartes, I, p. 482 et ss.

(٥) Benj. de Tudèl. éd Asher, II 35.

(٦) Leges municipales Arelatis 1162-1202, cap. 140, dans Giraud, Essai sur l'hist du droit français au moyen âge II, 232 et s.

(٧) كانت سفن « فرسان الهيكل » المجهزة لخدمة الحجاج مرخصا لها صراحة بحمل التجار والبضائع ، أنظر فى ذلك : Winklemann, op. cit.,

جنوا(١) ، ولم يكن القصد من هذا سوى الهبوط بمدن جنوب فرنسا الى حالة من التبعية لجنوا فى مجالى التجارة والملاحة ، وخلق تفوق بحرى لصالح هذه الجمهورية(٢) شبيه بالتفوق الذى انتزعته البندقيــة لنفســها فى البحــر الادريانى ، ولكن فى ظروف أفضــل • بل جعل الجنويون يراقبــون باهتمام السياسة المتزايدة يوما بعد يوم ، التى يحـظى بها بورجوازيــو بروفانس ولاتجدوك • وفى عام ١١٤٣ ساعدوا جوبوم الرابع ، سيد مونبيلييه فى القضاء على ثورة محلية(٣) ، فكان عليه فى نظير هذه الخدمة أن يعدهم بمعافاتهم من رسوم تفريغ سفنهم فى ميناء هذه المدينة ، وتعهد بألا يصرح بدخول الميناء أو الخروج منه الا للسفن التى يمتلكها سكان مونبيلييه ، والتى تقصد سواحل اسبانيا ، أو تنقل الحجاج ، ولا يجوز التصريح لأهالى مونبيلييه بالابحار شرقا الا بحذاء السواحل ، بحيث لا يتجاوزون مدينة جنوا (ومن البديهى أن نقل الحجاج كان مستبعدا ضمنا من هذا البند) • ولم تكن هذه الاتفاقية سارية المفعول الا لخمس سنوات ، غير أن الجنويين عقدوا فى عام ١١٥٥ معاهدة جديدة أبقوا فيها على الشروط الخاصة بقصر حركة سفن مونبيلييه على الملاحة بحذاء الساحل غربا الى اسبانيا ، وشرقا حتى جنوا(٤) • والواقع أن كل المدن البحرية فى جنوب فرنسا لم تكن تلقى من الجنويين مثل هذه المعاملة السيئة ، فقد وثق هؤلاء علاقات طيبة مع ناربون وسمحوا لبحارتها بالملاحة فى كــل الاتجاهات بشرط الا ترسل المدينة أكثر من سفينة واحدة تحمل حجاجا فى كل عام (٥) • وكان الحظر والتصريح يقومان أيضا على أساس ادعاء الجنويين بحقهم المطلق فى تحديد المسافة التى يجوز لفرنسيى الجنوب أن يقطعوها فى البحر المتوسط • وكان هذا التفوق خليقا بأن يصــير غير محتمــل بالمرة لو استطاع الجنويون أن ينفــذوا المشروع الذى وضعوه بالاتفاق مع ريموند كونت تولوز (١١٧٤) الخاص بغزو مقاطعة بروفانس بقواتهم المشتركة • وتم الاتفاق مسبقا على اقتسام الغنيمة ، واحتفظ الجنويون لأنفسهم بملكية مدينة مرسيليا ، وحصلوا على وعد بألا تفتح الموانىء على مدى الأقاليم التابعة

---

(١) Lib. jur. 1, 19.

(٢) أنظر تفسيرات Corn. Decimoni لمصطلح pelago (أعالى البحار) فى « الوثائق الجنوية » (Atti della Soc. Lig. II, 2, p. 740-742 et 111, p. xc) وتتبين منها أن جنوا كانت فى الماضى تعتبر أعالى البحار بمثابه مجالها الخاص ، ولا تسمح للأمم البحريه فى القسم الغربى من البحر المتوسط بالملاحة الا بحذاء السواحل •

(٣) Germain, Hist de la commune de Montpelleir, I, 12.

(٤) Lib. jur I, 88, 182.

(٥) معاهدة عام ١١٦٦ ، Vic et Vaissette, Hist. de Languedoc, éd. Dumège, IV, 517 et s.

— لم يكن من الجائز أن يكون هؤلاء الحجاج من أهالى مونبيلييه أو سان جيل ، أو الاقليم الواقع بين الرون ونيس (بروفانس) •

تكونت تولوز الا للجنويين والأمم التى يصرحون لها بذلك ، وأن يحظر ، حتى على رعايا الكونت ، تسيير سفن فى أعالى البحار دون اذن من القناصل ومن الأغلبية فى مجلس جنوا(١) . ولو انقضى على هذا زمن قليل لأصبحت تجارة جنوب فرنسا وبحريتها التجارية فى وضع قريب الشبه من وضع البنجا Albenga ، وسافونا Savone ، وفنتميللا Vintimille ومدن أخرى من الريفييرا دى بونتى Riviera di Ponente التى فرضت عليها الجمهورية القوية زعامتها(٢) . ولحسن الحظ فشلت هذه الحملة . وثمة مؤامرة أخرى دبرت فى عام ١١٧٦ بين كونت تولوز ، وسادة آخرين وجنوا لتخريب مرسيليا وميناءها ، انتهت هى الأخرى الى المصير نفسه(٣) .

ومنذ أن بذل الجنويون كل ما فى وسعهم لمنع سفن جنوب فرنسا التجارية من الذهاب الى الشرق ، كان من الطبيعى أن يعملوا على سد الطريق الى صقلية فى وجه البروفانسيين : هاتان الفكرتان مرتبطتان احداهما بالأخرى ارتباطا وثيقا ، فقد رأينا أن صقلية كانت من أهم المحاط فى الطريق الى الشرق الأدنى . وفى عام ١١٥٦ أوفدت الجمهورية مبعوثا الى الملك النورماندى وليم الأول ملك صقلية يطلب منه التصديق على الحصانات التى تتمتع بها فى الجزيرة ، ويطالب بغيرها ، كما طالبت بالحصول منه على تعهد برفض دخول السفن التجارية البروفانسية فى موانىء مملكته ، والا يرسل هو نفسه سفنا تجارية صقلية الى جنوب فرنسا(٤) . وفيما بعد ، حين احتاج فردريك باربروسا الى مساعدة الجنويين لينتزع من النورمان ملكية صقلية ، منحهم تفويضا مطلقا بمنع البروفانسيين وفرنسيى الشمال من مزاولة التجارة مع صقلية وجنوب ايطاليا ، وسد طريق الذهاب والعودة أمامهم ، بكل ما لديهم من وسائل(٥) .

ولحسن الحظ بقيت هذه الأمور كلها فى نطاق المشروع ، وأدرك الجنويون أخيرا أن كل العوائق الممكنة سوف تتحطم بمرور الزمن ، دون أن تمنع نمو البحرية البروفانسية ، ولم تعد المعاهدات التى انعقدت فى غضون القرن الثالث عشر بين جنوا ومونبلييه تحمل أى أثر لمطالب جنوا المبالغ فيها ،

---

(١) Lib. jur I, 294-300.
وكان الكونت ريمون قد تعهد بالتزامات مماثلة فى عام ١١٧١ . المرجع نفسه ص ٢٥٦ .

(٢) Lib. jur. I, 106, 312, 316, 436, 448, 451, 475, 478, 621, 1040; 1079.

(٣) Lib. jur. I, 302.

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٠٨ وما بعدها . نقل هنرى السادس هذا الحكم بحذافيره فى براءة أصدرها لصالح الجنويين فى عام ١١٩١ : المرجع السابق ، ص ٣٧١ .

ونجد فيها أسماء تجار من مونبيلييه يقيمون فى القسطنطينية أو فى سوريا دون أن تبدى جنوا أية مطالب ضد اتساع تجارة منافستها(١) ٠

وفى حين نجا البروفانسيون من طغيان الجنويين ، ولم يصبهم منهم أذى ، راحت أمالفى ضحية لغيرة منافس لها ، وحدث ذلك على الوجه الآتى : ففى عهد ولاية روجر الثانى ، ارتأى لبيزا أن تتدخل فى شـئون المملكة النورماندية فى ايطاليا، وكان الملك يعمل على تركيز السلطة فى يديه مما أثار عليـه بارونانة فتمردوا ٠ وبالاتفاق مع البابا انوسنت النـانى ، عرض البيزيون على هـؤلاء البارونات مساندتهم وأرسلوا اليهم مددا من سفن حربية وقوات عسكرية(٢)٠ وفي‌الوقت نفسه سنحت‌لهم الفرصة ليرووا غليلهم من أمالفى٠ وذات يوم حاصر أسطول قوامه ست وأربعون سفينة حربية المدينة فجأة ، واستولى علبها وعلى مواقع حصينة فى ضواحيها ،ونهب من‌عليه كل شيء ، وأحرقوا البيوت والسفن الراسية فى الميناء (٤ ــ ٥ من أغسطس ١١٣٥)(٣) ٠ وبعد سنتين ظهــر أسطول بيزى فى مياه جنوب ايطاليا ، وذلك لتحويل أنظار العدو فى الوقت الذى قام فيه الأمبراطور لوثير Lothaire بغزو مملكة روجر ٠ وكادت أمالفى تلقى من جديد المصير الذى لقيته أول مرة ، ولم يتخلص السكان من الخطر الذى تهددهم الا بدفع جزية ، والتعهد بالولاء للبيزيين ، واكتفى هؤلاء بتخريب الضواحى ، وحلت الكارثة بكل ثقلها على مدينة سالرنو السيئة الحظ (يولية وأغسطس ١١٣٧)(٤) ٠ الا أن غارة عام ١١٣٥ كانت كافية لتحطيم قدرة أمالفى التجارية بما بذله البيزيون من جهد لتحطيم اسطولهم ٠ ومن هذا الحين نلحظ أن الأمالفيين قل نشاطهم فى الشرق عما كان عليه فيما مضى ، وصاروا أقل جرأة ، وذلك بلا شك بسبب الكارثة التى حلت بهم ٠

وكان هناك مع ذلك أمر آخر : ذلك أنه اذا كانت أمالفى قد تخلفت عن سائر الأمم فى الشرق ، فالعلة فى ذلك أنها وقعت تحت سلطة النورمان ، وأن أمراء هذه السلالة شديدو البأس ، لا يرتاحون الى الحريات البلدية التى يتمتع بها البورجوازيون ، والحصانات التى يتمتع بها البارونات ٠ وعندما ارتقى روجر الثانى العرش ، كان من أول أعماله الاعتداء على استقلال أمالفى القديم

---

(١) Germain, Hist de la commune de montpellier, II, 427, 469 (Lib. jur. I, 761, 1148).

(٢) Alexandri Telesini abb. De rebus gestis Rogerii, dans Del Re,. Cronisti e scrittori sincrcnj Napoletani 1, p. 121 et s., 129, 132, 140 et s., 148; Falco Benev. ibid. p. 220, 222, 225, 227 et s; Romuald Salern., dans Pertz ss. XIX, 420-422; cf. Epist. Wibaldi, 324, éd. Joffé.

(٣) Alex. Teles. I.c. p. 140; Falco Benev. if. p. 227; Romuald, I.C. p. 421; Marangonis Annal. Pis., dans Pertz, SS. XIX, 250; Annal Saxo, ss. VI, 774.

(٤) Falco Benev. p. 232 et s. ; cf. Marangonis Annal. Pis p. 241.

العهد . ولما كانت المدينة محاطة بقصور منيعة تعتبرها بمثابة قــلاع تحمى حريتها فقد طلب منها روجر أن تسحب حامياتها من هذه القصور لتحل محلها قوات عسكرية ملكية . ولما رفض الأمالفيون تنفيذ الأمر ، استخــدم الملك القوة ، فاستولى على القصور(١) ، ورأى الأمالفيون معاقلهم القديمة وقد صارت حصونا تتهددهم . وتحت هذا الضغط اضطر البورجوازيون الى التخـلى عن حرياتهم البلدية ، وفقدوا معها بالتدريج نشاطهم وطبيعتهم المغامرة .

بيزنطة تحت حكم أسرة كومنينوس وأسرة انجيلوس

أعقبت الحروب ضد النورمان فى الأمبراطورية اليونانية كلها فترة من الهدوء الوقتى ، لم تلبث الحملة الصليبية الأولى أن عكرت صفوه بقوة . ذلك لأن « مشروع الغربيين » هذا كان حقيقا بأن يسبب لسادة الأمبراطورية أشد أنواع القلق : فقد كان مجرد مرور تلك العصابات التى لا حصر لها ، ولا نظام يسودها مما أصاب نظام الدولة ، وهناء سكانها بأضرار بليغة . غير أن كل هذا لم يكن سوى أقل المصائب فداحة : فقد حام على الأمبراطورية نفسها وعــلى وجودها خطر دائم ، لأن مرأى هذه البقاع الخصبة وسكانها المترفين كان خليقا بأن يثير فى نفوس الصليبيين الرغبة فى الاستيلاء على اليونان التى كان موقعها صالحا لأن يكون نقطة ارتكاز لأملاكهم الحديثة فى سوريا ، ولم يكن الأباطرة اليونانيون فى حالة تسمح لهم بمقاومة القوات المشتركة التابعة للدول الغربية. ومرت الحملة الصليبية الأولى فى سلام ، اذ لم يكن لقادتها سوى فكرة ثابتة واحدة ، وهدف واحد ، هو سوريا . غير أن الجيوش تتابعت ، والأساطيل تعاقبت ، وفى كل مرة تثير نوبات جديدة من الفزع فى قلب الأمبراطور . ومنذ البداية اتخذ الكسيوس موقفا متحفظا وحذرا لم يلبث أن تحــول الى عداء مكشوف . وعندما كانت أساطيل جنوا المرسلة لمساعدة الدول الصليبية تعبر مياه الأمبراطورية ، كانت تلقى مقاومة من جانب حاميات الجزر أو أساطيل الأمبراطورية ، فلا تلبث أن تأخذ بثأرها . من ذلك أنه حدث فى عام ١٠٩٩ أن أسطولا بيزيا كان مبحرا صوب الأراضى المقدسة بقيــادة المطران ديبرت Daibert ، فوجد عند الجزر الأيونية حامية يونانية حاولت اعتراض طريقه ، ولكن الأسطول شق له طريقا بين الجزر واستولى على جزر كورفو ، وكيفالونيا ، وسانت مور ، وزانتى (٢) (زكشوس باليونانية) ، وطارد أسطولا

(١) Alex. Teles. 1. c. p. 103-105.

(٢) Murat. ss. VI, 99: Maragone, dans l'Archiv. stor ital VI, 2, p. 7, et Prtz, ss. XIX, 239 ; Anne Comnène Alex., éd. Bonn., 11, 115. : Alb. d'Aix, IX, 16, dans Bongars, p. 332.

يونيا فى بحر ايجه وأدركه وهاجمه بين جزيرة رودس . ومدينة باتارا Patara فى ليكيا Lycie (١) . وتحكى بعض الوقائع المتأخرة أن هذا الأسطول عند عودته انتقم بالاستيلاء على عدة مدن يونانية(٢) . ولما كانت هذه الوقائع تقابل بين الأحداث وبين بعض الامتيازات التى منحها الأمبراطور يوحنا (كالو يوانس) الذى لم يرتق العرش الا بعد فترة طويلة ، كما أن أقدم الوقائع لا تذكر شيئا عن هذه المعارك . فلنا أن نقر بأن هذه المعلومات لا قيمة لها ، وأن نهملها . وبعد انقضاء عام على رحيل هذا الأسطول البيزى قدم أسطول جنوى متجها بدوره الى الشرق ، وعكف أميرال يونانى على مناوشة هذا الأسطول(٣) . وفى خريف عام ١١٠١ بعد أن استولى الأسطول على أرسوف وقيصرية ، وكان عائدا الى الوطن ، وبازاء ايتاكيا Ithaque (٤) التقى بأسطول يونانى كبير أراد قائده أن يختبر بسالة الجنويين ، ولكنه عانى من هذا الاختبار ، واضطر أن يطلب التفاوض للصلح . واستمرت فى القسطنطينية المفاوضات التى بدأت فى كورفو ومثل الجنويين فيها رينالدس دى رودلفو Raynaldus de Rodulfo ولامبرتس جيتوس Lambertus Ghetus اللذان انتقلا من كورفو الى بلاط الامبراطور الكسيوس لمتابعة المفاوضات ، ولا يبعد أن يكونا قد حصلا فى هذه المناسبة على بعض المزايا التى ساعدت على نمو تجارة أمتهما فى الامبراطورية اليونانية (٥) .

غير أن بوهمند Bohémond سبب للأمبراطورية ارتباكات شديدة ، ولما استقر به المقام أخيرا فى امارته بأنطاكية ، عمل على انقاذها بتنظيم حملة صليبية كبيرة ، الهدف الأول منها قلب عرش القسطنطينية . ولكى يضم اليه

---

(١) « أنا كومنينا » Anne Comnène هى المؤلفة الوحيده التى ذكرت هذه الواقعة .

(٢) Annal. rer. Pisan., dans Ughelli. It sacra, 2e éd. X, 99; Chron breve Pis., ib. p. 118 ; Mich de Vieo, dans Murat, ss. VI, 168 ; Ranieri Sardo, dans l'Archiv. stor. it VI, 2, p. 79.

ـ عند عوده البيزيين ، سنحت لهم الفرصة لاختطاف ابن الامبراطور وسجنه :

— Tronci, Annal, Pis p. 37; Roncioni, Istorie Pisane : Archiv. stor. it. VI. 1, p. 152.

(٣) Ann Comn. II, 121 et s.

ـ اذا سلمنا بأن الحرب بين اليونانيين والبيزيين نشبت فى عام ١٠٩٩ بدلا من ١١٠٣ ، فان مطارده الأسطول اليونانى لأسطول جنوى فى السنة التالية ، حسبما ذكرت أنا كومنينا نفسها تكون قد جرت فى عام ١١٠٠ . وهذا التاريخ هو بالذات تاريخ حملة صليبية قام بها الجنويون : (Caffaro, dans Pertz, XVIII, 11, 45)

(٤) هى اتباكيا ، انظر Le Val de Compar Gesta Uzzano, p. 218; Bened. Petrob Richardi, éd. Stubbs II, 198, 203 ; Georg.
Germnic, dans Pez, Thes anecd II, 3e part., p. 633; Archiv. Venet., 20, 93 ; Sanudo. Diarii, III, 444, 498 et s., V, 883, 1009.

(٥) Caffaro, De liberatione civitatum Orientis, dans Pertz, op. c. p. 46; les Atti della Societé Ligure, I, 1, p. 70.

بعض الحلفاء قام بجولة فى فرنسا وايطاليـــا (١١٠٥ ـ ١١٠٦) حيث أثار المشاعر ضد الكسيوس ، واتهمه باستخدام الدهاء تارة والعنف تارة أخرى لايقاع الصليبيين فى كوارث لا آخر لها ٠ ولكى يخمد الكسيوس العاصفة التى تجمعت فوق رأسه بعث الى عدد كبير من أمراء الغرب ومدنه ، وبخاصة بيزا وجنوا والبندقية رسائل دافع فيها عن نفسه ضد الاتهامات الموجهـة اليه ، وناشــد الدول ألا تتحالف مع الأمــير النورماندى (١) ٠ وفى البندقية نجح بسهولة فى مسعاه ٠ ولما كانت الجمهورية (البندقية) مخلصة لسياسته فانها أرسلت أسطولها لينضم الى الأسطول اليونانى ، باعتبارها حليفة لليونان ٠ وراعت جنوا وبيزا موقفا محايدا على الأقل ، وبقيتا بمنأى عن الأحداث خلال الحملة التى شنها الأمير النورماندى ٠ والمعروف أن تلك الحرب انتهت بفشل بوهمند ، وبعقد معاهدة مخزية بالنسبة الى اللاتينيين (١١٠٨) ٠ ومع ذلك تعهد الامبراطور بأن يحمى مستقبلا كل شخص يجتاز اقليمه فى طريقه الى الدول الصليبية اذا امتنع القضاء عن حمايته (٣) ٠

كان للأحداث التى ذكرناها آنفا فى كلمات قلائل تأثير مباشر على تأسيس الجالية التجارية البيزية فى القسطنطينية ٠ ونحن نعلم أنه عندما كانت الحرب توشك على الاندلاع بين بوهمند والكسيوس ، عمل الأخير على اجتذاب بيزا الى صفه ، وجرى عندئذ بين القسطنطينية وبين الجمهورية تنقـــلات لسفراء البلدين ٠وانقطعت المفاوضات مرارا٠ ومع ذلك يبدو أن السفير (Couropalatés) باسيليوس ميزيميريوس Basilius Mesimérius (٤) أجرى فى عــام ١١١١ نيابة عن الكسيوس مفاوضات ناجحة ، أدت الى عقـــد اتفـــاق ، واذ ارتاح البيزيون الى تصريحاته فانهم تعهدوا بالامتناع مستقبلا عن أى عمل عدائى ضد الامبراطورية البيزنطية ، وأن يدفعوا تعويضا عند أول طلب من الأمبراطور اذا نقض واحد منهم هذا التعهد ٠ ويجب أيضا على كل بيزى يقيم بالقسطنطينية أو بأى ناحية أخرى باقليم الامبراطورية أن يحمل السلاح فى حالة الضرورة دفاعا عن الامبراظورية ضد أعدائها ٠ وسجلت هذه التعهدات وسلمت الوثيقة الى ميزيميريوس فى ١٨ من أبريل ١١١١ ٠ ومع ذلك ففى خريف السنة نفسها أبحر أسطول مشترك من سفن حربية بيزية وجنوية وسفن ايطالية أخـــرى

---

(١) Ann Comnène, II, 132 et s.

(٣) Dandolo, p. 261.

(٣) Fouch. de Chartres dans le Recueil des historiens des croisades, p. 418.

(٤) نجد الشخصية نفسها وقد كلفها الكسيوس بمهمة فى البلاط الرومانى ، أنظر : Jaffé, Reg. Pontif. no. 4782.

قاصدا سواحل الامبراطورية اليونانية لتخريبها (١) ، ولا شك فى أن الباعث على هذا السلوك المخالف صراحة للتعهدات السابـق تسجيلهـا كان تأخر الكسيوس فى الوفاء بوعوده · واتخذ الامبراطور اجراءاته ببراعة ، فقضى على الحملة قضاء مبرما ، ولكنه تعب أخيرا من هذه المنازعات الدائمة ، فقر عزمه فى شهر أكتوبر عام ١١١١ أن يسلم السفير البيزى المبعوث خصيصا للقائه وثيقة رسمية ، نقدم فيما يلى تحليلا لأحكامها الأساسية :

يتعهد الكسيوس ، بعد أن يشير الى أحداث السفن السابق ذكرها بألا يقيم في المستقبل أية عقبات في طريق الحملات الصليبية التى يشنها البيزيون ، وأن يضمن للبيزيين المقيمين فى ولاياته عدالة القضاء · واثباتا لعطفه السامى على الجمهورية ، يتعهد بأن يقدم كل سنة لكاتدرائية بيزا وكبير أساقفتها هبة تتكون من مال وحرير · ويمكن تفريغ البضائع التى تأتى بها السفن من بيزا فى اقليم الامبراطورية كله وعرضها تمة للبيع · ولا يدفع البيزيون أية رسوم على استيراد الذهب والفضة ، وبالنسبة الى المواد الأخرى يدفعون رسما قدره ٤٪ · وبالنسبة الى السلع التى يشترونها داخل الأمبراطورية وينقلونها الى جهة أخرى فى اقليمها ، فانهم يخضعون للرسوم نفسها التى يخضع لها الأهالى · ويخصص لهم فى القسطنطينية رصيف بحـــرى ، وحى مناسب يضم بيوتا لسكناهم وحوانيت لبضائعهم · ويتنازل لهم أيضا عن أماكن فى كـــل مدن الامبراطورية وجزرها حيث اعتادت سفنهم أن ترسوا عندها · وتشجيعـــا للتجار على الاقامة فى القسطنطينية ، يخصص لهم فى كنيسة أيا صوفيا أماكن فى احتفالات القداس ، وفى مضمار الخيل أثناء اقامة العروض العامة · ويتعهد الأمبراطور أخيرا بالاسراع فى اصدار الأحكام القضائية فى شأن ما يقترف ضد البيزيين من اهانات أو اغتصابات ، ويتعهد لهم بتقديم الترضية الكافية فيما يصيبهم من اهانات ، وتعويضهم عما يقع لهم من سرقات · وقبل كل هذه الأحكام وضمنها الأمير يوحنا ، وابنه وولى عهده (٢) ·

ومن الطبيعى الا ينظر البنادقة بعين راضية الى خصومهم (البيزيين) وهم يوطدون أقدامهم فى أرض كانوا هم تقريبا وحدهم حتى ذلك الحين سادة

---

(١) آن كومننا ، الجزء الثانى ٢٦٤ وما بعدها ، و ٢٧٠ وما بعدها : تقول ان الشتاء يقترب، شتاء ١١١١ الى ١١١٢ لأن الملك بودوان تلقى نبأ نفشل تلك الحملة حين كان مشغولا بحصار مدينة صور فى ذلك الشتاء نفسه ، أنظر : Wilken, Gesch. der Kreuzz. II, 227 et ss.

(٢) هذا المبثاق الذى يحتوى فى الوقت نفسه على عرض للمفاوضات التمهيدية ، قد أدرج فى ميثاق لاحق لاسحاق انحيلوس ، نجده باللغة اليونانية فى :

— Miklosich et Muller, Acta et dipl. graeca, III, 9-13.

وباللاتينية فى :

— Dal Borgo, Dipl. Pis., p. 151-154;

وباللغتين فى

— Les Docum. sulle relazioni toscane coll' Oriente, p. 43. 45, 52-54.

فيها . واذا أردنا أن نكون فكرة عن الجهود التى بذلوها لاقصاء الأجانب من سوق اليونان ، فانا نذكر مثلا متميزا : ذلك أن أسطولا يحمل صليبيين من البنادقة استقر به المقام فى رودس فى شتاء ١٠٩٩/١١٠٠ ، وفى هذه الأثناء قدم أسطول بيزى كان متجها أيضا الى فلسطين فأغار على أسطول البنادقة ، ولكنه انهزم . وأسر البنادقة عددا من البيزيين ، ولكنهم لم يحتفظوا بهم مدة طويلة . وحين أطلقوا سراحهم ، أخذوا منهم عهدا بألا يطأوا أرض رومانيا Romanie لأغراض تجارية (١) . وهنا حصل البيزيون على امتياز بحيازة حى تجارى ، وتأهبوا لزيادة نشاطهم التجارى الذى كانوا يزاولونه مع بيزنطة حتى ذلك الحين ! والواقع أن علاقات البنادقة مع العالم اليونانى كانت قديمة العهد . وكانوا يتمتعون بالمعافاة من رسوم الجمارك استثناء من سائر الأمم(٢) ، وهذا امتياز كبير ، حتى انهم لم يكونوا يخشون شيئا من جانب منافسيهم الجدد . واذا كانوا قد تغلبوا من هذه الناحية على منافسيهم ، فانهم كانوا يدركون تفوقهم على اليونانيين الذين لم يكونوا قادرين على مباراة الغربيين فى القدرة والنشاط ، سواء فى فنون الحرب أو فى فنون السلم ، وأسهمت الثروات التى جمعوها بالتجارة فى تنمية شعورهم بقيمتهم ، ولعل المؤرخ البيزنطى كينامس Cinnamus كان على حق حين اتهم كلا من الطبقة الدنيا وذوى المكانة الرفيعة منهم بالغطرسة حيال اليونانيين ، وبخاصة أولئك الذين يحملون ألقابا رنانة من قبيل سباستوس Sébastos (٣) .

وبعد وفاة ألكسيوس (١١١٨) أرسل الدوق دومنيكو ميشيل سفراء الى خليفته يوحنا الثانى (كالو يوانيس) طالبا منه تأكيد الامتيازات التى سبق أن منحها أبوه ، فرفض الامبراطور الجديد (٤) . ويذكر كينامس أن الباعث على هذا الرفض كبرياء البنادقة المفرط ، ولعل من الجائز أن نفترض أن ايحاءات بعض الأمم الغربية التى ألقيت فى أذن الامبراطور فى لحظة مناسبة كان لها بعض التأثير فى هذا الرفض . وكان البنادقة يعتقدون ، بسبب الخدمات الكثيرة التى أدوها للأباطرة البيزنطيين فى العديد من الحروب ، أنهم اكتسبوا حقا فى أن يعترف الأباطرة لهم دواما بالجميل : ولكنهم مع ذلك لقوا جزاءهم ! وبلغ سخطهم أقصاه ، وزودتهم الحملة الصليبية التى شنوها فى عام ١١٢٢ بفرصة للانتقام . وفى البداية ضربوا الحصار أمام عاصمة جزيرة كورفو ، الا أن النداءات الملحة التى وصلتهم من فلسطين اضطرتهم الى رفع الحصار (فى ربيع

(١) Hist transl, S. Nicola, dans cornelius, Ecol. Venet. IX, 8, 9.

(٢) Cinnam., éd. Bonn, p. 281.

(٣) Cinnam 1. c.

(٤) Hist. duc. Venet., dans Pertz, ss. XIV, 73; Dandolo, p. 269; Cinnamus, op. cit.,

عام ١١٢٣) ، ولكن عند عودتهم اتسع لهم الوقت ليعودوا الى ما كانوا قد بدأوه • وفى رودس امتنع الأهالى عن تزويدهم بالمؤن التى كانوا فى حاجة اليها ، وعاملوهم كالأعداء • غير أن الغارة على المدينة ، والاستيلاء عليها ونهبها ، كل ذلك لم يستغرق بضعة أيام • ومن هناك أغاروا على جزيرة خيوس Chio ، واستولوا على العاصمة ، وعسكروا بها طوال شتاء ١١٢٤ – ١١٢٥ ، وانتشروا حول خيوس ، وراحوا ينهبون ويخربون جزر ساموس ، ولسبوس ، واندروس ، وحين استطاعوا فى الربيع أن يعودوا الى وطنهم ، نهبوا مدينة مودون Modon على الساحل الجنوبى لشبه جزيرة المورة (١) •

وكان الأمبراطور يوحنا ضعيفا فلم يكن بوسعه أن يتصدى لمشروعاتهم ، وانتهزوا هذه الفرصة لمعاودة حملاتهم • وفى عام ١١٢٦ كانوا قد استولوا على جزيرة كيفالونيا Cephalonie وارتأى للأمبراطور أنه من الحكمة أن يتنازل لهم عنها ، وأنبأ الدوق سرا أنه اذا أراد أن يرسل اليه سفراء لتسوية الخلاف فانهم يكونون على الرحب والسعة (٢) • وكان الدوق طاعنا فى السن ، ويسعده أن يستتب الأمن ، فلم يتمنع كثيرا • وفى شهر أغسطس عام ١١٢٦ عقدوا اتفاقية ، وأصبح البنادقة حلفاء لبيزنطة ، ووعد الامبراطور من جهة أن يتناسى أعمالهم العدوانية الأخيرة نظير خدماتهم السابقة ، وأن يعيد اليهم دون قيد الانتفاع بالحقوق والايرادات التى كان الكسيس قد منحها اياهم(٣) • ولم يكن البنادقة قد ظهروا فى أسواق الامبراطورية منذ ثلاث سنوات(٤) •واستطاعوا أخيرا أن يعودوا من جديد الى ممارسة عاداتهم القديمة ، ومزاولة تجارتهم المربحة • ومن تلك الآونة نشطت الأعمال من جديد بين بيزنطة والغرب اللاتينى(٥) : ثم ان الظروف كانت مواتية بشكل غريب • ذلك أن الامبراطور يوحنا حافظ على صلات ودية للغاية مع أوربا طوال فترة حكمه ، فى حين لم يكف عن النضال من ناحية سوريا وآسيا الصغرى • ويصور نيكتاس Nicétas (٦) التجار الايطاليين فى هذا العهد وهم يدخلون بسفنهم الشراعية

---

(١) Hist. duc. Venet. I. c. p. 73 et s.; Dandolo, p. 270 et s.; Fouch; d. Chartr. 1.c. p. 470 Cinnam. p. 281.

(٢) Hist duc Venet. 1. c. p. 74; Dandolo, p. 274.

(٣) هذه الوثيقة مدرجة فى وثيقة لمانويل ، ونجدها على حدة فى : — Taf. et Thom. I, 96-98.

(٤) Hist duc Venet. 1. c. p. 74.

ترى هل هاجر البنادقة الذين أقاموا بالقسطنطينية منذ سنين طويلة ؟ هذى نقطة لم توضح بعد •

(٥) فى حوالى عام ١١٢٩ شب حريق فى الحى الفينيسى بالقسطنطينية وأتلف مجموعة قيمة ومع ذلك لا يبدو أن هذا الحدث كان كارثة بالنسبة الى الحالية (الفينيسية) بوجه عام ، والا تحدث عنها المؤرخون •

Moise de Bergame (Cod. dipl. Bergam., éd. Ronchetti, II, p. 951)

(٦) Nicétas, p. 25.

تغر ملكة المدائن (القسطنطينية) ، والامبراطور وهو يحاول أن يتأكد من حسن نواياهم ، وفى سريرته مقاصد طموحة • ويسود العلاقات بين مدينة بيزا وبين الأمبراطور يوحنا غموض تام حتى عام ١١٣٦ • ولم يذكر أى مؤرخ — من الاغريق أو من البيزيين — حدوث أى انقطاع فى العلاقات ، أو يقول ان الامبراطور ثارت ثائرته من غارة البنادقة ، فأنزل جام غضبه على البيزيين الأبرياء من هذه الآثام • ومع ذلك يؤيد السيد لانجير M. Lagner (١) هذه الواقعة ، ففى رأيه أنه ليس هناك الا تفسير واحد للكمية الهائلة من الحرير التى أحضرها السفراء الاغريق الذين قدموا الى بيزا عام ١١٣٦ من طرف الأمبراطور : ذلك أن الأمبراطور يوحنا كان غاضبا على البيزيين سنين طويلة ، ومن ثم منع عنهم المنحة السنوية التى تشمل ثلاثة أثواب (الباليوم ، وهو طيلسان الأساقفة) التى كان مدينا لهم بها بمقتضى المعاهدات ، والتى أوفى لهم بها مرة واحدة فى هذه المناسبة • واذا كانت الرواية التى سجلتها « الحوليات البيزية » صحيحة ، وكان السفراء الاغريق قد أحضروا بالفعل فى عام ١١٣٦ ووهبوا لكاتدرائية بيزا حوالى مائتى « باليوم » أمبراطورى بالاضافة الى كساء للمذبح بديع الصنع ومطرز بالذهب (٢) ، فمن المؤكد ، حسبما هو معروف عن هدايا الأباطرة ، أن الهدية التى قدمها الامبراطور كانت عظيمة • غير أن نص فقرة الحوليات المشار اليها قد طرأ عليه تحريف كبير • ويرى السيد لانجر نفسه أن الرقم CC (٢٠٠) فى النص مشكوك فى صحته ، ويستبدل به الرقم Li (٥١) ، انه مجرد تخمين ، ولكن ما المانع من اجراء تخمين آخر ، وجعل الرقم II (٢) ؟ وبذلك يكون هذا الرقم هو الذى حددته المعاهدات ، وتكون الهدية المشروطة قد تأجل الوفاء بها فى عام ١١٣٦ كما حدث فى السنوات السابقة • ومن المرجح أن يكون أعضاء بعثة عام ١١٣٦ مكلفين بتجديد المعاهدة القديمة باسم سيدهم ، لأن وثيقة التصديق موجودة ، والبرهان على ذلك ثابت فى وثيقة محررة باسم ابنه « مونويل » Manuel (٣) • وعلى دلك لا يجوز فى خصوص هذه المعاهدة القول بأنها لم يكن لها وجود الا فى خيال المؤرخين الذين جاءوا بعد هذه الأحداث بزمن طويل (٤) • وحين يضيف هؤلاء أنه عند رحيل السفراء الاغريق انضم اليهم « اجونى دوودى » Ugone Duodi فذهب معهم الى القسطنطينية للتصديق على المعاهدة باسم مدينة بيزا ، وادارة شئون الجالية البيزية بالقسطنطينية ، فان

(١) Pol. Gesch. Genua's und Pisa's, p. 9-11, 203 et s.

(٢) Marang., Annal. Pis, dans Pertz, SS. XIX, 240.

(٣) Doc. sulle relaz. tox. p. 45, 54.

(٤) Tronci, Annali Pisani, p. 71 ; Roncioni, Istorie Pisane, dans l'Archiv. stor. ital. VI, a, p. 250.

هذه الأقوال تبدو قائمة على أخبار جديرة بالثقة (١) ٠ لأننا نملك وثيقة متعلقة بمنشأة أقامها فى القسطنطينية عام ١١٤١ زوجان من بيزا ، والوثيقة موقع عليها فى الصدارة باسم Ugo Dudonis, qui tune erat legatus Pise (٢) ٠
والمعروف عن دوودى هذا أنه بقى فى القسطنطينيـــة حتى وفاة الأمبراطور يوحنا ، ولما توج ابنه مانويل فى عام ١١٤٣ ، سلم الامبراطور الجديد خطاب عزاء من مدينة بيزا ، وعقد معه معاهدة جديدة (٣) ٠ وظلت الجالية البيزية مقيمة بالقسطنطينية فى أمان تام ، وكانت قبلا تملك كنيسة مكرسة للقديس نقولا (٤) ٠

وفى هذا العصر نفسه ، أجرت جمهورية جنوا لأول مرة مفاوضات مع بلاط بيزنطة٠ وفىعام ١١٤٢ ذهب السفيران أوبرتو ديللا تورىOberto della torre وجوليلمو ديللا باركا Guglieimo della Barca باســم القناصلة لمقابلة الامبراطور يوحنا الذى كان موجودا وقتئذ مع الجيش فى شمال سوريا (٥) ٠ ولا يعرف أحد شيئا عن الاقتراحات التى كانا يحملانها اليه ، وما حصلا عليه منها (٦) ، غير أن الثابت هو أن السبب الرئيسى لهذه المهمـة كان متعلقـــا بمسائل تجارية ٠

ومات يوحنا بعد هذا بوقت قصير (فى ٨ من أبريل ١١٤٣) تاركا عرشه لابنه مانويل ٠ واستهل حكم هذا الأمير مع فترة خطيرة بالنسبة الى الأمبراطورية والجاليات الايطالية ٠ ويبدو أن الأحداث التى تجمعت خـلال السنوات الأولى كانت تكرارا للأحداث التى ميزت نشأة جاليـــة البندقية ٠ وما حدث فى عهد روبرت جيسكار ، حين أعلن ابن أخيه روجر الحرب عـلى الامبراطورية ، حدث فى عهد الكسيوس اذ دعا مانويل البنادقة الى مساعدته ٠ وارتأى للأمبراطور أن طلبه لن يرفض : فحين بذل أبوه يوحنا مساعيه لدى الامبراطور لوثير لحمله على الزحف ضـــد روجر (١١٣٥) (٧) ، قدمت له جمهورية البندقية مساندة دبلوماسيتها ، ولم تكن تقصد وقتئذ مجرد الانتقام من الملك النورماندى المتهم بأنه سلب من بعض التجار البنادقـــة كمية من

---

(١) نبدى مع ذلك تحفظا : ذلك أنه لا توجد أية وثيقة تثبت أن دوودى كان يحمل لقب قنصل الذى نسبه اليه ترونس Tronei ، ورونسيونى Roncioni

(٢) Documenti sulle relaz. tox coll' Oriente, p. 4.

(٣) Roncioni, 1. c.

Documenti sulle relaz tox, p. 4.

(٥) Annal Jan. p. 20.

(٦) يزعم لانجر Langer أن المفاوضات التى أجراها السفراء الجنويون لم تحز رضاء مواطنيهم (ص ١٠) ، ولكن براهينه على ذلك ليست قوية ٠

(٧) Annal. Erphesfurdenses, dans Pertz, SS. VI, 540.

البضائع يقدر ثمنها بمبلغ ٤٠٠٠٠ جنيه فضة ، ولكن كان يدفعها الى ذلك مصلحة سياسية رفيعة · وفي هذه المرة ، في عام ١١٤٧ (١) ، كان روجر يعلم أن الملك الألماني كونراد الثالث ، ومانويل منهمكين تماما ، الأول بالاستعدادات للحرب الصليبية ، والثاني بالاجراءات اللازمة لاستقبال الصليبيين (٢) ، لذلك اعتقد أن الفرصة ملائمة للاغارة على الامبراطورية اليونانية ، ولكن الجمهورية (البندقية) وضعت هذه المرة أيضا قواتها تحت تصرف الامبراطور الذى فوجىء على غير استعداد · ولم يكتف الدوج بهذا بل طلب من البنادقة الموجودين فى الامبراطورية لأعمال تجارية أن ينضموا الى الجيش (٣) · وتركز الصراع حول كورفو ، وقاتل الجنود من كلا الطرفين بضراوة شديدة · وبعد أن مرت العصابات النورماندية كالسيل الجارف على كورنيته ، وأثينا ، وطيبة ، ونجربونت Nègrepont (جزيرة ايوبويا حاليا) وهى مدن عزلاء من السلاح ، اختفت سريعا ، كما ظهرت ، حاملة معها الذهب والفضة والحرائر ، واستصحبوا معهم قسرا بعض نساجي الحرير (٤) · غير أن روجر ثبت فى كورفو ، وكان هذا الموقع قد سقط فى قبضته بالخدعة والخيانة ، فعقد العزم على أن يبقى به مهما كلفه ذلك · وكان الحصار عسيرا طويل الأمد ، وأسدى البنادقة بمعداتهم الحربية الممتازة خدمات جليلة للاغريق · ولسوء الحظ وقع حادث مؤسف أظهر مقدار ما يكنه كل من الحليفين للآخر من نفور وكراهية ، كراهية ولدتها تصرفات الامبراطور يوحنا السيئة فى نفوس البنادقة ، وشعورهم بجدارتهم ، واحتقارهم اليونانيين ، كل هذه الأشياء خلقت الشقاق بين الطرفين ، ومن ثم اقتضت الفطنة أن يخصص لقوات الأمتين مواقع منفصلة بعضها عن بعض (٥) · ومع ذلك لم يكن هذا الاحتياط الحكيم كافيا لمنع النزاع (٦) ، وتطرق الأمر من الأقوال الى الأعمال العنيفة ، فأريقت الدماء رغم الجهود التى بذلها القادة لتهدئة النفوس · وغلب البنادقة على أمرهم ، واستشاطوا غيظا ، ومن جزيرة صغيرة كانوا يحتلونها راحوا ينسلون باطلاق

---

(١) Kugler (Studien Zur Geschichte des Zweiten Kreuzzugs, p. 116. et s., not 13); et Amari (Storia dei Musulmani di Sicilia, III, 435, not 2).
لا شك أنه يجب تحديد بداية الحرب (بالاتفاق مع سيمونسفيلد) فى ربيع عام ١١٤٧ ، وعلى ذلك تمتد فترة حصار كورفو من ربيع ١١٤٨ الى نهاية صيف ١١٤٩ ·

(٢) Taf. et Thom I, 110.

(٣) Hist duc. Venet. dans les Mon. Germ. SS. XIV, p. 75; Dandolo, l.c.; Taf. et Thom. op. cit.,

(٤) Cinnam. p. 92, 119; Nicet. p. 96 et ss.; Annal. Cavens., dans Pertz, SS. III, 192; Sigeberti contin. Praemonstrat., ibid. V1, 453; Romuald. Salern., ibid. XIX, 424; Otto Frising. ibid. XX, 370; Hist duc Venet. 1. c. p. 75; Dondolo, p. 282.

(٥) Nicet, p. 103.

(٦) Cinnam p. 98 ; Nicet p. 113 et s.

القذائف على الأسطول اليوناني ، وأشعلوا النيران فى بعض السفن ، وانتهوا بالاستيلاء على سفينة الامبراطور ، حيث مثلوا بها ملهاة آذت مشاعره : فبعد أن غلفوا جدران غرفته بأقمشة أرجوازية ومذهبة ، أدخلوا بها زنجيا ليؤدى دور الامبراطور (وكانت بشرة مانويل شديدة السمرة) (١) ، ووضعوا تاجا على رأسه ، وأقاموا حفلة اختلطت فيها ضروب التكريم الموجهة للامبراطـــور باهانات وضروب من الشطط والتهريج • أما الامبراطور المتعجرف فأنه أخفى مؤقتا ما كان يعتمل فى صدره من ضغينة . اذ كان من الضرورى أن يستمر الحصار الذى كان له فيه مصالح كبيرة : وانتهى الأمر بالتغلب على المتمردين . واستسلام الموقع (١١٤٩) بعد طول معاناة •

وكانت النتيجة الظاهرة لهذه الحرب بالنسبة الى البنادقة ، دعم مستوطناتهم التجارية فى الامبراطورية البيزنطية ، وامتداد جديد لهذه المستوطنات • الا أن هذه الحرب كانت فى الواقع نواة لأحداث مشئومة سوف نتحدث عنها فيما بعد • وحتى تلك الآونة ، منح مانويل حلفاءه امتيازين خلال عام ١١٤٨ (٢) : أحدهما زاد من أملاك التجار البنادقة فى القسطنطينية : اذ لما أصبح الحى الذى يشغلونه بين باب اليهود والمخفر الأمامى (فيجلا Vigla) ضيقا أكثر مما ينبغى ، فانه أعطاهم مجموعة جديدة من المنازل بجوار المخفر الأمامى ، ورصيفا رابعا بالاضافة الى الأرصفة الثلاثة التى كانت لهم من قبل (٣) • أما الامتياز الثانى الذى منحوه فى شهر أكتوبر ١١٤٨ فانه مد الاعفاءات الممنوحة لهم لمبيعاتهم ومشترياتهم لتشمل علاقاتهم مع جزيرتى كريت وقبرص (٤) •وفى تعداد محاط الامبراطورية التى كان على البنادقة أن يتقدموا اليها ليتمتعوا بالاعفاء بموجب البراءة التى منحها اياهم الكسيوس فى عام ١٠٨٢ أغفل اسما هاتين الجزيرتين عمدا ، ومن ثم كان موظفو الامبراطورية حتى ذلك الحين يقتضون من التجار البنادقة الرسوم المفروضة • وعلى ذلك صدر مرسوم من الامبراطور يوحنا يلغى هذا الاستثناء الذى بقى فى الواقع قائما ، ولم يلغ الا بعد صدور رسوم مانويل • واذ رضى البنادقة بالامتيازات التى منحهم اياها الامبراطور الجديد ، فانهم رسخوا أقدامهم أكثر فأكثر فى الامبراطورية اليونانية ، وزاد اختلاطهم يوما بعد يوم بالأهالى ، وتزوجوا من نسائهم ، وراحوا يقيمون وسط اليونانيين خارج حدود الحى الخاص بهم ، ومضوا كذلك يستوطنون فى كثير من مدن الامبراطورية ، وجعلوا بعجرفتهم التى كانت تتزايد بسبب شعورهم بما يملكون من ثروات يجرحون فى كل لحظة

---

(١) Eustathii opp. éd., Tafel, p. 201.

(٢) كان السفيران الفينيسيان وقتئذ دومينيكو موروسينى Domenico Morosini واندريا جينو ، انظر : Taf. et Thom. I, 107.

(٣) Taf et. Thom. I, 109-113.

(٤) Taf. et Thom. I, 113-124.

مشاعر اليونانيين ، كما راحوا ، بعدم مراعاتهم مرة بعد أخرى القوانين واللوائح ، يغضبون الامبراطور الذى كان غيورا على حقوقه باعتباره عاهل البلاد (١) . وصمم مانويل على وضع حد لهذه الانتهاكات فانشأ — كما يذكر كيناموس — وضعا خاصا للبنادقة المستوطنين في الامبراطورية ، وكان هؤلاء حتى ذلك الحين يخضعون لنفس النظام الذى يخضع له مواطنوهم الذين يأتون في سفنهم ثم يرحلون عائدين الى بلادهم ولما لم يكن فى الامبراطورية وقتئذ وضع مماثل لهذا الوضع فقد أطلق عليه اسم مستعار من اللغات الغربية ، هو burgenses وقبل أن نفسر معنى هذه الكلمة ، نقول ان المرسوم المشار اليه قد ضمن فى فئة ال burgenses هذه ليس فقط البنادقة — كما يقول كيناموس — ولكن أيضا كل المستوطنين الغربيين . ويبدو أن مانويل نظر بشىء من القلق الى هؤلاء الأجانب وهم يشكلون جماعات محتشدة على أرض الامبراطورية ، وبخاصة فى العاصمة ، وليس هناك ما يضمن ولاءهم واخلاصهم . وفى هذه الآونة بالذات كان هناك نبيل بيزى يدعى سينيوريتو Signoretto قام نزاع بينه وبين موطنه الأصلى ، وربما استبعد منه ، فجاء ليعيش فى القسطنطينية ، واعتبر مواطنوه هجرته هذه من قبيل فقد الجنسية ، وقالوا انه كان من قبل مواطنا بورجوازيا ينتمى الى أمة عظيمة ، ولكنه لم يعد الآن سوى burgensis تابع للامبراطور مانويل (٢) . وبعد انقضاء خمس سنوات على وفاة مانويل حاصر النورمان تسالونيك ، وبلغت مسامع المحاصرين أنباء عن حدوث خيانة ، ولحظوا اشارات تجرى من أعلى برج مجاورلحى التجار الغربيين. ولم يذكر أوستاث Eustathe أسقف سالونيك الذى يروى هذه الواقعة هؤلاء الغربيين الا بكلمة burgensis (٣) . من الثابت اذن أن الوضع الذى جعل للبنادقة كان يشمل أيضا كل الأمم التجارية الأخرى . كذلك يصف كيناموس الوضع القانونى الذى وجدوا فيه منذ أن أصبحوا burgensis ، اذ يضيف أن عليهم أن يقدموا ضمانا على أن يخضعوا طوال حياتهم للالتزامات المفروضة على الرعايا اليونانيين (٤) . وعلى ذلك اقتضى مانويل منهم نوعا من الولاء ، وضمانا للاخلاص ، وكذا فى الغالب تأمينا على الأراضى والبيوت الممنوحة لهم . والواقع أن البورجوازى يتمتع تبعا للقوانين الاقطاعية بكامل حريته الشخصية ، ولكنه يدين للأمير أو البارون الذى يعيش فى اقليمه بايراد عن منزله أو ماله ، واعانات.

---

(١) Cinnamus, p. 282; Nicét. p. 223.

(٢) Docum. sulle relaz. tosc. coll' Oriente, p. 12.

(٣) Eustathue opuscula, éd. Tafel, p. 290.

(٤) Cinnam. loc. cit.

مالية ، والخدمة العسكرية ، الخ (١) ٠ونحن نجهل المدى الذى بلغته مطالب مانويل فى هذا الخصوص، الا أن الثابت انه فرض ضرائب على الجاليات الأجنبية ، ضرائب فادحة فى بعض الأحيان ٠ من ذلك أنه فى عام ١١٦٦ عند عودنه من حملة فى هنغاريا (٢) ، استقدم معـــه يهوديا يدعى استافورت Astatorte ، اشـتهر بخبرته فى الشئون المالية ، وأثبت كفاءته بأن أثقل بالضرائب اللاتينيين المتفرقين فى أنحاء الامبراطورية ٠ ويبدو أن الامبراطور كان يريد أن يرث أموال الأشخاص الذين يتوفون دون أن يتركوا وصية ٠ وفى حالة نذكرها ، بالغ استافورت فى حماسته واخلاصه لمالية الامبراطورية ، وذلك فى مسألة تخص تركة سينيوريتو الذى ذكرناه آنفا : فقد أوصى المتوفى بأملاكه لمؤسسة خيرية ، فأمر استافورت بمصادرة الأملاك وألقى فى السجن منفذ الوصية المعين حسب الأصول القانونية ٠ على أننا نقول ان هذا الاجراء قد ألغى بعد ذلك بحكم قضائى (٣) ٠ وأخيرا فرض مانويل على أفراد الجاليات الغربية أداء الخدمة العسكرية ، وفى الغالب كنتيجة لوضعهم الخاص باعتبارهم Burgenses ٠ ونجد آثارا للقواعد التى وضعها فى هذا الشأن فى المعاهدات التى عقــدها مع مدينــة جنوا : ففى حالة اغارة أسطول للعدو على اقليم الامبراطورية اليونانية ، تلتزم الجاليات الجنوية بالخدمة على السفن الحربية التابعة للامبراطورية . وفى نظير ذلك يكون لأفرادها الحق فى مرتبات ، ولا يسمح لهم بالاحتفاظ بأكثر من عشرين رجلا لحراسة سفنهم الخاصــة (٤) ٠

وفى الوقت الذى عمل فيه مانويل ، بهذه الوسائل والاجراءات على استغلال الجاليات الغربية المقيمة فى امبراطوريته لمصلحته الخاصة ، عمل أيضا على كسب صداقة شعوبهم ٠ والواقع أنه اتبع فى ايطاليا سياسة ذات هدف كبير ، تتمثل فى بعث السيطرة الاغريقية بالحالة التى كانت عليها من قبل ، واستعادة لقب الأباطرة الرومان وسلطانهم لصالح أسرة كومنينوس ٠ وفى هذا السبيل كان لا بد له من حلفاء بين مدن ايطاليا وأمرائها ٠ وكان من الطبيعى أن يولى وجهه

---

(١) Ducange, dans son Gloss. med. et inf. latinitatis, s.v. burgagium, burgensis, et les Notes du même auteur sur cinnamus, éd. Paris, p. 487-490; Ordonnances des roys de France, XII; Gregorio, Considerazioni sopra la storia di Sicilia, I et II, passim ; Amari, Storia der Musulmani di Sicilia, III, 250 et ss.

(٢) Cinnam. p. 248.

(٣) Doc. sulle relaz. tosc. coll' Oriente, p. 11-13.

(٤) Lib. jur. I, 184, 186, 253 ; Langer op. cit. p. 60, not. 3).

يقول لانجر انه كان فى مصلحة الجاليات (الغربية) أن تشارك فى الدفاع عن الامبراطورية ، وهذا صحيح من الوجهة النظرية ، غير أنه قد يحدث عندما يلتحق المستوطنون بجيوش الامبراطورية أن تبقى المواقع التى توجد فيها متاجرهم ومصانعهم وسفنهم بلا حراسة كافية ، أو من غير حراسة بالمرة ٠

أولا شطر المدن التجارية المرتبطة معه فبلا بمصالحها فى الشرق الأدنى ، فيغريها بالامتيازات والوكالات التجارية ، ولكنه يحاسب جالياتها اذا لم تلتزم بالطاعة والخضوع ، ونبعا لهذه السياسة الطموح ، أصبح الجنويون فى عداد الأمم الأكثر رعاية فى الامبراطورية اليونانية • وبعد أن أحبط الامبراطور محاولة النورمان غزو كورفو ، عقد العزم فى عام ١١٥٥ على نقل الحرب الى أرض العدو • وكان عدد كبير من بارونات جنوب ايطاليا قد ثاروا علنا ضد وليم الأول ، خليفة روجر ، كما أظهر البابا وامبراطور ألمانيا عداءهما له ، ومن ثم بدت الأحوال ملائمة ، وبدا لخاطر مانويل — وله بعض الحق فى ذلك — أنه بتحالفه مع خصوم الملك سوف يتسنى له توطيد أقدامه فى ايطاليا (١) • ولم يدخر مالا أو وعودا فى سبيل اكتساب حلفاء له ، أو على الأقل تخليص حلفائه من سيطرة أعدائه • وعلى ذلك انطلق مندوبوه من حليف الى آخر حتى وصلوا الى جنوا ، وكان المندوب الذى حل الى هناك أول اقتراحات مانويل هو نفســـه الذى تفاوض فى انكونا مع الامبراطور بارباروسا (٢) ، وفى بنيفنتو مع البابا أدريان الرابع (٣) لحملهما على تشكيل رابطة ضد ملك صقلية : كان هذا المندوب هو ميشيل باليولوجوس Michel Paléologue ، وهو من أبرع قباطنة ذلك العصر (٤) ، ولكن استبدل به بعد ذلك ديمتريوس ماكريمبوليتس Démétrius Macrembolitès (٥) ، وكل ما طلبه الامبراطور من قناصلة جنوا على ما يبدو هو الا يرتبطوا بأية تعهدات مع أعدائه ، وأن يفرضوا على مواطنيهم المقيمين بأرض الامبراطورية واجب المعاونة فى الدفاع عن الامبراطورية فى حالة الهجوم عليها • وتمسك بشدة بهاتين النقطتين ، وفى نظير الحصول عليهما وعد الجمهورية بهدايا فاخرة تشمل قطعا من المصوغات والحرير ، وحيا تجاريا وأرصفة فى القسطنطينية ، فى أجزاء المدينة التى كان للبيزيين والبنادقة فيها أحياؤهم وأرصفتهم من قبل • ولم يحدد ماكر يمبوليتس موقع هذا الحى ، ولكنه تعهد بأنه اذا كان سلفه أو زميله (٦) قد وعد بمنح معين أو رصيف معين فان الامبراطور سوف يفى بالوعد

---

(١) Cinnam. p. 135 et ss.; Nicét. p. 120 et s., 124 et ss.; Guill de Tyr, XVIII Chap. 2, 7, 8,; Romuald. Salern., dans Pertz, ss. XIX, 428 et ss.; Marango, ibid. 242 et s.

(٢) Otto Fris., dans Pertz, SS. XX, 408, 413.

(٣) Hadriani vita out. Bosone, dans Watterich, Vitae pontif. roman. II, 332 et s.

(٤) Hase, Introd au Dialogue de Timarion, Not. et extr. IX, 2e part. p. 154 et s.

(٥) يظهر اسم هذا الشخص أيضا فى مناسبة أخرى : فقد بعثه مانويل الى كوزاد الثالث حين اقترب الجيش الصليبى بقيادة هذا الأمير من الحدود (Cinnam p. 67)

(٦) يطلق على هذا الزميل لقب Subitus : وهو فى الغالب le Sebatos Jean Ducas يقترن اسم كثيرا فى ذاك الحين باسم باليولوجوس (Cinnamus, p. 135 et ss.)

دون مناقشة ٠فضلا على ذلك يستطيع الجنويون ،مثلهم مثل البيزيينأن يقيموا منشئات فى مدن أخرى من مدن الامبراطورية ، ويكون وضعهم القانونى على أية حال مماثلا لوضع البيزيين ، ولا تكون رسوم الجمارك التى تحصل منهم أعلى من الرسوم التى تحصل من الآخرين ٠ وسجلت التزامات ماكريمبوليتس من جهة والتزامات القناصلة من جهة أخرى وشكلت وثيقتين مرتبطتين (١) ٠ ويتفق مضمون الوثيقتين تماما مع ما يقوله كافارو Caffaro فى خصوص هذه المعاهدة فى عام ١١٥٥ (٢) ، وينبئنا فوق ذلك أن الحى الموعود به يشمل كنيسة ٠ وترتب على المماثلة بين الجنويين والبيزيين ، بالنسبة الى الجنويين أن خفض ١٠٪ من الرسوم الجمركية ، و ٤٪ من التعريفة الخاصة بالذين لا يتمتعون بأى امتياز ٠

وأرسل قناصلة جنوا لعام ١١٥٧ الى القسطنطينية أميكو دى مورتا Amico de Murta ليستلم الحى المخصص لاقامة التجار ، والأماكن المخصصة لرسو سفنهم (٣) ، وخلفه فى عام ١١٦٠ ايرنكو جويرو Enrico Guerico (٤)٠ ويبدو أن الجنويين كانوا يملكون فى القسطنطينية فى هذا الحين منشئات ومنازل كثيرة ، الا أن منافسيهم لم يتركوهم يتمتعون زمنا طويلا بهذه الأشياء٠ ففى ذات يوم من عام ١١٦٢ أقبل آلف شخص من البيزيين المتعطشين للنهب والدماء ، وأغاروا على الجنويين الذين لا يزيد عددهم على التلاثمائه ، والذين دافعوا مع ذلك بشجاعة حتى المساء ، واضطر المغيرون الى الانسحاب دون أن يحققوا جريمتهم ٠ ولكنهم أعادوا الكرة فى اليوم التالى ، وانضم اليهم مدد من بنادقة ويونانيين وعصبة من الأوباش من كل نوع ، وقصدهم نهب مخازن الجنويين ٠ ولما رأى هؤلاء أنهم سوف ينهزمون أمام تفوق أعدائهم فى العدد ، تركوا منازلهم وأموالهم ، وحمل الأعداء غنائم تقدر بمبلغ ٣٠٠٠٠ هيبربر hyperpres وقتلوا نبيلا جنويا شابا ، ابن اوتو روفو Otto Rufo ٠ وعاد الجنويون الى وطنهم ، وكان هذا الحادث بداية لحرب ضروس نشبت بين جنوا وبيزا ٠ ولما كانت هذه الحرب قد اتخذت من ايطاليا ميدانا لها ، فاننا لن

---

(١) Sauli : Della colonia dei Genovesi in Galata, II, 181 et s.; Lib. jur. I, 183-186.

ـ صارت هذه المعاهدة ملزمة للجنويين فى عام ١١٥٧ ، انظر فى ذلك :

— Atti della società Ligure di storia patria, I, 192.

(٢) Annal. Jan. p. 23.

(٣) Ibid. p. 25 ; Olivieri, dans les Atti della Soc. Lig. l. c. p. 30 Cf. Monum hist patr. Chartae, II, 402 et s.

(٤) Annal. Jan. p. 30.

نتصدى لها فى مجالنا هذا (١) . وعلى ذلك انتهت بالفشل المحاولة الاستعمارية الأولى التى قام بها الجنويون فى القسطنطينية . ومع ذلك لم يتوان الامبراطور مانويل فى أن يقدم لهم بنفسه مزايا جديدة ، وطلب اليهم أن يبعثوا بالسفراء الى بلاطه ، وأعلن أنه مستعد من جانبه لتنفيذ المعاهدات القديمة . واستجابة لهذه الدعوة بعثت الجمهورية ثلاثة سفراء مفوضين استقبلوا بحفاوة ، ولكنهم لم يحصــلوا على أية نتائج هامه (٢) . وســارت الأمور على هذا المنوال حتى قيام الســفارة الثانية التى تولاها اميكــو دى مورتا (١١٦٨) (٣) ، وانتهى هذا السفير بعد مفاوضات طويلة بالحصول (فى أكتوبر ١١٦٩) (٤) ، على موافقة الحكومة اليونانية على تحرير معاهدة تبقى مع ذلك مجرد مشروع الى آن تصدق عليها حكومة جنوا . ويتبين من تصريحات السفير آن جمهورية جنوا تتعهد بألا تقوم بأى عمل ضد الامبراطورية اليونانية لحسابها الخاص أو لحساب أى حاكم متوج أو غير متوج (٥) . وتعد أيضا بالعمل على احباط أى هجوم على أى مكان فى اقليم الامبراطــورية ، ووضــــــع كل مواطنى جنوا المقيمين فى الامبراطورية تحت تصرف الامبراطور للدفاع عنه ، وتلتزم — فى حالة قيام حرب بين مانويل وبين أية شخصية متوجة أو غير متوجة ، ويرى من المفيد أن يرسل الى جنوا قوافل محملة بالذهب ، أو سفنا أو فرقا عسكرية — أن تتصرف حياله تصرف دولة صديقة . ويضمن مانويل من ناحيته لمدينة جنوا أن يمنحها حيا ورصيفا وكنيسة فى موضع مناسب خارج القسطنطينية ، فى منطقة غير معروفة مع ذلك ، اسمها أوركو Orcou . ولم يغرب عن البال اشتراط الهدايا المعتادة ، من ذهب وحرير ، وهى كبيرة المقدار ، نظرا الى النفقات الكبيرة التى سوف تلتزم الجمهورية بتغطيتها ، ومن ثم يجدد الوعد الذى سبق أن أعطاه ماكريمبوليتس بدفع اعانة مالية قدرها ٥٠٠ هيبربر ، ويتعهد بأن يسدد دفعة واحدة الستة والعشرين قسطا سنويا الأولى . وفيما يختص بالرسوم الجمركية ، يجب على الجنويين أن يدفعوا للقسطنطينية اعتبارا من ذلك الحين ٤٪ فقط ، كما

---

(١) Annal. Jan. p. 33;
— فى أعقاب هذا العدوان ساءت جنوا للأمبراطور فى عام ١١٧٤ على يد السفير حريما لدى طلبا بدفع تعويضات تبلغ ٢٩٤٤٣ هيبربر (تذكر الحوليات رقما صحيحا هو ٣٠٠٠٠) ، أنظر ، فى خصوص موت روفو الصغير Desimoni, dans le Giorn. ligust. 1874, p. 157-159.

(٢) Annal. Jan. p. 61.

(٣) Ibid. p. 78.

(٤) ذكر عام ١١٧٠ فى ال Lib jur خطأ ، بسبب قراءة غير صحيحة ، أنظر :
— Olivieri, dans les Atti della Soc. Lig. I, 338 et s. desimoni dans le Giorn. lig. 1874, p. 148 et ss.

(٥) ذكر اسم الأمير المقصود بهذه العبارة شفاهة الى السفير ، فوافق هذا وصرح بأن من صالح وطنه أن يمتنع عن مساندة هذا الأمير اذا شن حملة ضد الأمبراطورية اليونانية . وكان هذا الأمير الذى بقى اسمه مضمرا ، هو بالتأكيد فردريك بارباروسا .

يدفعون فى الأماكن الأخرى نفس النسبة التى يدفعها سائر اللاتينيين اذا كانو
خاضعين لهذه الرسوم . وأخيرا ، اتفق على أنه يمكن للسفن التجارية الجنوية أن
تدخل فى كل موانىء الامبراطورية بكامل حريتها فيما عدا ميناءى روسيا Rossia
و Matracha ماتريكا الا اذا صدر مرسوم لاحق يلغى هذا الحظر (١) . ويبدو
أن هذا المرسوم لم يصدر أبدا ، وعلى العكس ، انعقد اتفاق جديد مع مانويل
فى العام التالى جدد التحفظ المشروط بالنسبة الى الميناءين ، وفى وقت لاحق
لم يتحدد تاريخه ، أرسل الجنويون وفدا مكلفا بالعمل على رفع الحظر (٢) .
ولكن الثابت أنه أخفق فى ذلك .

ترى ما السبب فى تشبث الامبراطور بهذا الحظر ؟ من المفيد البحث عن
هذا السبب (٣) . لا شك فى أن ماتريكا Matricha ليست سوى Tamatarcha
التابعة لقسطنطين بورفيروجنتوس ولم يكن يفصل اقليم هذه المدينة سوى أحد
أنهار اقليم Zichie ، وهو أقصى اقليم شمالى للامبراطورية فى جبال القوقاز ،
وكان الاقليمان تابعين لرئيس أساقفة واحدة (٤) . ويفول وليم (جويوم) دى
روبروك Guill de Rubrouk الذى يطلق على المدينة اسم ماتريكا Matrica (٥)
ان اقليمه يحد من الغرب بالمضيق الذى يربط البحر الأسود ببحر أزوف .
وعلى ذلك كانت Matracha المذكورة فى وثيقة مانويل واقعة فى شبه جزيرة
تهامان Taman وتشكل المركز السياسى والتجارى لمنطقة شاسعة مغطاة
بالقرى (٦) ، تصل اليها السفن الآتية من أعالى البحار ، وتمتاز فوق ذلك بأنها
قائمة على ضفاف نهر كبير يسميه الادريسى (سكير أوستير) Le Eokir (٧) ،
ومن ثم فهى كائنة على أحد مصاب نهر كوبان ، وهو مصب لم يعد له وجود (٨).
ويصعب معرفة جنسية أمراء وسكان ماتريكا Matricha فى عصر الامبراطور
مانويل . وكان الأمراء الروس فيما مضى قد دفعوا بغزواتهم حتى هناك ،
واستولوا على امارة تموتوراكان Tmoutorakan التى أجمع العلماء على

---

(١) هناك ترجمتان باللاتينية لهذه المعاهدة ، احداهما فى : le Lib. jur. I, 252-255.
والثانية فى : Sauli, II, 188 et ss.

(٢) Desimoni, Giorn ligustico, 1874, p. 156.

(٣) Lib. jur. I, 255; Sauli II, 192, Miklosich et Muller, Acta graeca, 111, 35 . mfhy cmfhmb

(٤) Const. Porph, De administrando imp., p. 181, 268 , Mikloschi et Muller, Acta graec. I, 76, 477; II, 268; Tafel, Const. Porph. Europa, p. 45, 53, 55.

(٥) Recueil de voy. et de mém. publ. p. la Soc. de géogr. IV, 215.

(٦) الادريسى ، الجزء الأول ، ٤٠٠ .

(٧) Guill. de Rubrouck, p. 215; Edrisi, II, 396, 400.

(٨) Dubois de Montpéreux, Voyage autour du Caucase, V, 37, 64, 78 et s.

اعتبارها هي وماتريكا Matricha اقليما واحدا ، غير أن اسم هذه الامارة اختفى من المصادر التاريخية منذ الربع الأول من القرن التانى عشر · ولما كان هذا الاختفاء معاصرا تقريبا لغزو البوتوفسست Polovtses هذا البلد ، فالراجح أنهم هم الذين دمروا الامارة (١) · وفي الوقت الذى كتب فيه الادريس كتابه في الجغرافيا (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ــ المترجم) (١١٥٤) أى فى عهد مانويل ، كان سكان مانريكا Matricha فى حرب متصلة مع جيرانهم الروس (٢) ، وليس فى وسعنا أن نطلق اسما آخر على سكان روسيا Rousia التى سوف نتكلم عنها بعد قليل·ومع ذلك يبدو أن الادريس نفسه يشير الى جنسية أمراء Matricha لأننا نقرأ فى ترجمة جوبير Jaubert (٣) أنهم كانوا معروفين باسم Alou-Abas وهذه التسمية قريبة الشبه من اسم Abkases (٤) · ولكن دوزى Dozy وخويه Goeje (٥) يذكران أن المصطلح الذى اســـتخدمه الادريسى ليس اسم علم ولكنه نعت يصف هؤلاء الأمراء بأنهم أولو بأس شديد · ها نحن اذن فد وقعنا فى حيرة ·

وعلى أية حال فالراجح أنهم ينتمون الى احدى القبائل التىكانت تسكن جبال القوقاز ، وبخاصة قبيلة اعتنقت الحضارة والديانة اليونانية·والواقع أن المبشرين الذين أرسلهم هنغريو نهر التايس Theiss عام ١٢٣٠ الى اخوانهم الوثنيين فى حوض نهر الفولجا ، مروا بماتريكا Matricha ووجدوا فيها أميرا وشعبا يتكلمون ويكتبون اليونانية،كما وجدوا ثمة كهنةيونانيين (٦)· من الصعب اذنالتسليم بأن الحظر الذى فرض على التجار الجنويين من أن يزوروا ماتريكا كان الباعثله علاقات عدائية بين الأمبراطور وامارة ماتريكا · ويشير الرحـــالة وليم دى روبروك (١٢٥٣) الى الباعث الحقيقى ، اذ يرى (٧) أن تجار القسطنطينية كانوا يذهبون الى ماتريكا ، ومن هناك يعبرون بحر أزوف على قوارب صغيرة ليصلوا الى مصب نهر تنايس Tanais حيث يشترون كميات كبيرة من السمك · وما كان يفعله تجار الفرنجة فى عهد الأمبراطورية الرومانية ، كان التجار اليونانيون يفعلونه بالتأكيد فى عهد الكومنينوس · وعلى ذلك كان

---

(١) انظر مقال Pogodin عن وضع اماره تموتوراكان فى :
— l'Eraman's Archiv fuer die Kunde Russlands, V, 429-431; Karamsin,
Gesch. des russ. Reiches, I, 140, 345; II, 117.

(٢) الادريسى ، الجزء الثانى ، ٤٠٠ ·

(٣) الادريسى ، الجزء الثانى ، ٣٩٥ ·

(٤) هذا هو التفسير الذى يقره المترجم نفسه :
Lewel, Géogr. du moyen-âge, III, 197.

(٥) الادريسى Edrisi, Description de l'Afrique et de l'Espagne, Préf. p. xix

(٦) Theiner : Monum. vetera Hungar. I, 152.

(٧) Guill de Rubrouk, p. 215.

الاجراء الذى اتخذه مانويل يستهدف منع الجنويين من استخدام هذه المياه التى يقصدها اليونانيون للتزود بالسمك ، وأن يضمن لرعاياه احتكار فرع من فروع التجارة الأكثر ربحا ٠

ومن العسير تحديد مدلول كلمة Rosia (روسيا) المذكورة فى مرسوم مانويل ٠ وفى رأيى أنه اذا كان المقصود بهذه الكلمة « بلد الروس » فانى لا أعارض فى ذلك ٠ وبالاجمال فان مانويل قد يكون لديه بواعثه التى تدعوه الى منع الأمم التجارية الغربية من التعامل بالتجارة مع الروس ، فكثيرا ما كان هؤلاء يبدون نوايا عدوانية ضد الأمبراطورية ، وحتى حين يأتون الى القسطنطينية فى مظهر سلمى ، فان الأهالى يستشعرون الخوف والحذر منهم ، وفى الامكان تفسير قرار الامبراطور تفسيرا أكثر استساغة : فبين ما تراك الواقعة على خليج تامان وبين سولدايا Soldaïa (سوداك Soudak) فى القرم ، يشير الادريسى(١) المعاصر لمانويل الى محطتين ، احداهما أكثر قربا من سوداك ، ويطلق عليها اسم Boutra أو Bouter ، وهم اسم لا أثر له فى أى مكان ، والأخرى أكثر قربا من ماتراك وتجدها مذكورة أحيانا على أنها منفذ لنهر من أنهار روسيا ، نهر الدن ، وأحيانا على أنها مدينة اسمها « روسيا » Rousia واقعة على نهر كبير ينحدر من جبال كوكايا Kokaia ، أى نهر الدن أيضا ٠ هذه النقاط الأربع كما تبدو على خريطة الادريسى(٢) واقعة على أبعاد متساوية من بعضها بعضا ، يقدر كل بعد منها بعشرين ميلا(٣) ، ومصطفة على طول البحر الأسود على خط عرض واحد ٠ ويمكن تبعا لهذه المعلومات أن تكون Boutra فى كافا Caffa (٤) ، وروسيا فى كيرتش Kertch (٥) ٠ والواضح أن الأدريسى يعتبر مصبا للدن ما هو فى الواقع مضيق كيرتش ٠ ثم أن وليم دى روبروك (٦) لا ينظر هو أيضا الى بحر أزوف الا باعتباره انتفاخا لمجرى نهر الدن ٠ وفى رأيه أن هذا النهر يضيق (مكونا مضيق كيرتش) قبل أن يصب فى البحر الأسود ٠ غير أنه كلما ذكرت مدينة كيرتش فى كتابة من كتابات العصور الوسطى ، سماها الكاتب « البسفور » Bosfous (Vosporo) القديم ، أو أطلق عليها اسمها الحالى ، ولم يطلق عليها أحد اسم روسيا Rosia, Rousia ، ولا يذكر التاريخ فى أى مكان منشأة أقامها الروس فى هذا الموقع ٠ ومن جهة أخرى اذا

---

(١) الادريسى ، الجزء الثانى ، ٣٩٥ر٤٠٠ وما بعدها ٠

(٢) يحدد الادريسى المسافة بين ماتركا وروسيا ب ٢٧ ميلا فى ثانيه الفقرات المشار اليها ٠

(٣) Hommaire de Hell, Steppes de la mer Caspienne, Atlae : Monumens géographiques, no. 4.

(٤) Lelewel, 1. c.

(٥) Ibid. ; Brunn, Notices sur les colonies italiennes en Gazarie, p. 6.

(٦) Guill de Rubrouk, p. 215, 250.

كانت « روسيا » تختلط بكيرتش ، فهناك تناقض مع خريطة الادريسى الذى يجعلها على الضفة اليسرى للنهر الذى ظن أنه نهر الدن ، أى البسفور ، فى حين أن كيرتش موجودة على الضفة المقابلة كما يعلم الجميع · ولنحاول وضع الحقائق فى نصابها : فالادريسى نقل الى البحر الأسود مصب نهر الدن الذى يصب فى الواقع فى بحر أزوف ، ولكن كان تحت ناظريه خط سير صحيح يجعل مدينة الروس على يسار المصب الحقيقى للنهر ، ومع ذلك نقل المدينة الى الجنوب من موقعها الحقيقى ، وهذا هو ما أخطأ فيه · وهناك خرائط من بداية القرن الخامس عشر ، نرى عليها جنوبى مصب نهر الدن اسم : Casal (Cassar) degli Rossi (١) (كزال ـ أو كسار الروس) ، والراجح أنه كان هناك بقايا منشأة للروس · كان هؤلاء القوم فى الأصل سادة على أهالى النهر فقط ، ولكنهم ما لبثوا أن نظموا حركة ملاحة نشيطة للغاية ، حتى سمى النهر فى عهد الادريسى نهر الروس(٢) · وفى الامكان أن نسلم بأنهم أنشأوا هناك محطة غير بعيدة عن مصب الدن ، نمت نموا سريعا جعل لها مظهر المدينة ، ثم انكمشت فيما بعد حتى صارت مجرد قرية صغيرة (Casal) هى « روسيا » لدى الجغرافيين العرب(٣) · ويروى وليم دى روبروك أن تجار القسطنطينية كانوا يرسلون زوارقهم من ماتركا لتأتى بالسمك من مصب الدن ، ولا شك أنهم كانوا يتعاملون هناك مع المستعمرة الروسية ، فاذا كنا بذلك على صواب ، فان الحظر الذى فرضه الأمبراطور على الجنويين يسرى على كل من روسيا وماتركا ·

حسبنا هذا الاستطراد ، ولنعد الى المفاوضات التى جرت بين جنوا والأمبراطور مانويل ، ففى جنوا لم يكن أحد راضيا عن المعاهدة المنعقدة بين اميكو دى مورتا والأمبراطور فى شهر أكتوبر ١١٦٩ والتى اشترطت تصديق حكومة جنوا عليها · وبوجه عام لم يتشبث الجنويون ، أو على الأقل لم يعودوا يحرصون فى تلك الآونة على أن يفرضوا على اليونانيين التزامات واسعة · والشىء العجيب أن المعاهدة كانت على ما يبدو بوضوح سلاحا موجها ضد

---

(١) Lelewel, Alt. p. 13. dans Thomas, Periplus des Pontus Euxinus, p. 245 et s., 266, et dans les Wiener Jahrbuech. 1834, I, p. 9.; Rubr. p. 249.

(٢) Edrisi, II, 395; cf. Traehn, Ibn Fosslan, p. 38.

(٣) لتحديد موقع روسيا Rousia ، اتبع ابن سعيد (المتوفى عام ١٢٧٤) وشمس الدين (المتوفى عام ١٣٢٧) بيانات الادريسى الخاطئة فى هذا الخصوص · فبالنسبة لأول هذين الجغرافيين أنظر : (Aboulfeda, Géogr. II, 340) (Ibn. Fosslan, p. 31) وبالنسبة للثانى أنظر ترجمة Mehren ص ٣٧٧ · والى جانب هذا أعتقد البعض فى وجود روسيا Rusia أخرى ، عاصمة الروس ، وجعلوها فى الشمال ، أنظر أبو الفدا وابن سعيد ، راجع Froehn ص ٣٢ ·

أمبراطور ألمانيا . ثم أن الجنويين استاءوا من رفض مانويل اعطاءهم حيا داخل عاصمته . واذ بقى مورتا فى القسطنطينية وقضى بها فصل الشتاء ، فقد أرسل اليه تعليمات ، حصلنا عليها فى صورة تعديلات للمعاهدة واضافات عليها ـ وهى المعاهدة المبرمة فى عام ١١٥٥ مع ماكريمبوليتس (١) . وتلقى مورتا الأمر بأن يبذل قصارى جهده لمحو الفقرة التى أشير بها الى شخصية متوجة ، أى فردريك بارباروسا ، وألا يسمح ببقاء هذه الفقرة الا اذا تعرضت المفاوضات للفشل بسبب هذا الالتزام . وخول لمورتا أن يقبل البند الذى يفرض على الجنويين المقيمين فى اقليم الامبراطورية ، التزاما بالمعاونة فى الدفاع عنها فى حالة غزو يقوم به عدو من الخارج ، وذلك بالصيغة المثبتة فى المشروع ، على أن يوضح صراحة أنه فى حالة حدوث غارة جزئية ، لا يستدعى للسلاح سوى الجنويين المقيمين فى الاقليم المهدد ، أما فى حالة غزو عام يشنه أسطول كبير للعدو يضم مائة سفينة حربية أو أكثر ، لا يجوز للجنويين أن يتركوا أكثر من عشرين رجلا فى كل وكالة من وكالاتهم التجارية لحراسة المبانى والسفن . ويجب على سائر الجنويين فى كل موقع من الامبراطورية يوجدون فيه أن يخدموا فى الأسطول الامبراطورى . وعلى مورتا فضلا عن ذلك أن يلح بشدة على الامبراطور ليسدد التعويضات المتأخرة . ولما كان ماكريمبوليتس قد تعهد بأن يتمتع الجنويون فى الأمبراطورية اليونانية بنفس المعاملة التى يتمتع بها البيزيون ، فقد كلف السفير بأن يجمع المعلومات الصحيحة عن أملاكهم والحقوق الممنوحة لهم ، والأعباء المفروضة عليهم ، حتى يتسنى له المطالبة بالمساواة فى المعاملة ، استنادا الى أدق المعلومات والتفاصيل . وأخيرا فيما يختص بالجالية الرئيسية ، أوصى بأن يبذل كل ما فى وسعه ليحصل للجنويين على مستودعات وأرصفة فى العاصمة : وعليه أن يختار بالأولى المنطقة الواقعة بين حى البنادقة وبين قصر الطاغية انجيلوس Angelos أو المكان المجاور للبيرفورم Perforum (٢) ، فان استعصى عليه الحصول على موقع فى الداخل فعليه على الأقل أن يطالب بمكان فى بيرا (٣*) بصفة مؤقتة مع التحفظ بأنه اذا حدث فى يوم ما أن رخص لسائر الجاليات اللاتينية بالاقامة فى المدينة ، فانه يجب أن يحفظ للجنويين بها مستودعات وأرصفة . ويجب على الحكومة اليونانية منذ الآن أن تعين للسفير مواقع هذه المستودعات والأرصفة .

---

(١) نجد هذه التعديلات والاضافات بعد نص المعاهدة مباشرة فى .
-- Le lib. jur. I, 184-186.

(٢) Cf. Nicét, p. 719, 742; Paspati, Journal du Syllogos de Constantinople, VI, 148, VII, 90 et B. p. 141.

(٣) *(حى فى القسطنطينية ـ المترجم)

وتحت الحاح مورتا ، تنازل مانويل أخيرا للجنويين عن حى فى داخل المدينة (أبريل ومايو ١١٧٠) (١) ، فى المنطقة المسماة كوباريون Coparion (أو كوبريا Coparia) على مقربة من حى بيزا ، واذ أبلغ مورتا حكومته بنتيجة مساعيه ، كان له الحق فى أن يتوقع منها حفاوة أحسن مما استقبلت بها مشروعه فى أكتوبر ١١٦٩ · وحين وصل الى جنوا ، وجد بها سفراء يونانيين ينتظرون عودته ليحصلوا على اجابة حاسمة ، وكانوا قد وصلوا هناك فى شهر يونية ١١٧٠ ومعهم مبلغ كبير من المال ، ولم يكن هذا المبلغ هو التعويض الذى كثيرا ما طالب به الجنويون عن الخسائر التى لحقت بهم فى حيهم القديم بالقسطنطينية ، ولكنه منحة خالصة أرسلها مانويل لاستمالة الحكومة الجنوية واقناعها بحمل السلاح ضد أسرة هوهنشتاوفن · ولعل السفراء فى محادثاتهم قد أضفوا على الفكر الحقيقى للامبراطور تأكيدا أقوى مما أثبته هذا فى كتابه ، غير أن كلامهم لم يكن يتوافق مع التقرير الشفوى الذى قدمه أميكو عن مفاوضاته مع البلاط البيزنطى · ورغم ما قد يبدو غامضا أو متناقضا فى هذه القضية كلها ، فلم يكن هناك ما يدعو حكومة جنوا الى الارتياب فى نوايا السفراء · غير أن قبول الهدية التى أرسلها مانويل قد يكون بمثابة تصريح قاطع لصالح الامبراطور اليونانى ضد الامبراطور الألمانى ، وهذا هو ما حرصت حكومة جنوا على تجنبه ، ومن ثم أخطرت السفراء بأنه ليس فى وسعها أن تقبل الهدية (٢) ، فعاد هؤلاء بنقودهم · ومع ذلك كان من الضرورى التخفيف شكلا من هذا الرفض ، وكان اميكو هو الذى كلف أيضا بالذهاب الى القسطنطينية لتقديم بعض التفسيرات فى هذا الخصوص (٣) · ورجع الامبراطور دون صعوبة عن مشروعه الخاص بالتحالف واكتفى بوعد من حكومة جنوا بالا تعقد أى تحالف ضده مع أية شخصية متوجة أو غير متوجة ، وأن تتعاون فى الدفاع عن الامبراطورية فى حالة وقوع هجوم خارجى تشنه قوات كبيرة ، وذلك بالطريقة المنصوص عليها فى التعليمات المسلمة قبلا لاميكو دى مورتا ووافق الامبراطور من ناحيته على منح الجنويين حيا داخل عاصمته ، وخفض رسوم الجمارك الى ٤٪ ، وأيد وعده بتقديم منحة سنوية دفع مقدما وفى الحال أقساطها السنوية العشرة الأولى (٤) · ولم يتمتع الجنويون طويلا وفى سلام بحيهم الجديد ، فقد أغار عليهم منافسوهم ، مثلما

---

(١) نشر وثيقتى التنازل هاتين ديز يمونى Desimoni فى نهاية كتابه :
Memoria sui quartieri dei Genovesi a Constantinopoli nel secolo XII, dans le Giornal. ligust. 1874 (p. 178 et ss.)

(٢) Annal. Jan. p. 90 91; Lib. jur. I, 254 et s.

(٣) Annal. Jan. p. 86.

(٤) Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 25 et ss. (33-36); Sauli, Della colonia dei Genovesi in Galata, II, 194 et s. ; M. Langer, p. 170.

حدث فى عام ١١٦٢ ، فهدموا بيوتهم ، ونهبوا أموالهم • وألقى الامبراطور مسئولية هذه الأحداث على البنادقة ، كما سنرى فيما بعد ، كما يتهمهم المؤرخ كيمانوس باقترافها • غير أن الناس فى جنوا لم يكونوا من هذا الرأى ، ونتبين ذلك فى التعليمات المرسلة فى عام ١١٧٤ الى السفير جريمالدى Grimaldi اذ نجد فيها بين سائر طلبات التعويض مطالب مختلفة متعلقة بالخسائر التى لحقت بالجنويين بسبب الغارة التى وقعت على حيهم الجديد ، ونطالع فيها أيضا أن الامبراطور اعتبر البنادقة مسئولين عن ذلك ، ومن ثم وضع أموالهم تحت الحراسة ، ولكنهم لم يكونوا الجناة الحقيقيين • وكان جريمالدى آخر سفير لجنوا لدى الامبراطور مانويل ، وكان مكلفا أيضا ، بالاضافة الى المطالب السابق ذكرها ، بطلب تعويضات عن أضرار لحقت بمواطنين جنويين فى البر وفى البحر فى جهات تابعة للامبراطورية اليونانية ، واضافة كنيسة قائمة على مشارف الحى ، وبضع منازل تفصل الحى عن البحر ، ورصيف ثان • وليس هناك أية معلومات عن نتيجة هذه المهمة ، ولا يوجد شىء خلاف التعليمات التى شرحناها آنفا(١) •

أما بيزا فانها ثابرت منذ زمن مبكر على اتباع سياسة جبللية (الجبلليون : اسم أطلق فى ايطاليا على أنصار الأباطرة الرومان الجرمانيين ، فى مقابل الجولفيين انصار البابوات واستقلال ايطاليا ـ المترجم) ، ولم تكن هذه بالتأكيد هى الطريقة الملائمة للحصول على منافع من مانويل • ففى أواخر عام ١١٦١ وصل سفيران من هذه الجمهورية ، هما كوكو جريفى Cocco Griffi ورانييرى بوتاكشى Runicri Bottacci الى بلاط مانويل لعقد معاهدة جديدة • ووضع مانويل شرطا مسبقا أنه فى حالة قيام حرب بين آل هوهنشتاوفن والامبراطورية اليونانية تتعهد بيزا بأن ترفض للأولين كل مساندة ، أدبية كانت أو مادية • ولكى يحمل السفيرين على قبول هذا الشرط ، استخدم حجته المعتادة ، وهى الوعد بتقديم اعانات مالية ضخمة • ولما كانت بيزا عازمة على أن تبقى مخلصة للعلم الجبللى ، مهما كان الأمر ، فانها رفضت هذا الشرط ، وتوقفت المفاوضات عند هذا الحد(٢) • وانتهز السفيران فرصة اقامتهما طويلا فى القسطنطينية فعملا على تنفيذ مرسوم للقناصلة البيزيين صدر فى عام ١١٦٠(٣) ، وينص على أن كل الرسوم التى تدفعها السفن التى ترسو عند الأرصفة البيزية ، والضرائب التى تحصل على استعمال الموازين والمكاييل

---

(١) لم يعرض سوى هذه التعليمات الا بكيفية ناقصة : Sauli, 1. c. p. 183-188.

(٢) Marang. Annal Pis. p. 246 et s. ـ عاد بوتاكشى الى وطنه فى ٢٩ من يونية ١١٦٢ ، وعاد كوكو جريفى فى ٢٢ من يولية ١١٦٣ •

(٣) Doc. sulle relaz. tosc. p. 8. et s., 10.

التى تملكها الجالية ، وايجار المنازل الممنوحة للمستعمرة ، والمبالغ المخصصة لمؤسسات خيرية ، الخ . وباختصـار كل ايرادات المستعمرة البيزية يجب أن تسلم لصندوق كاتدرائية بيزا فى القسطنطينية ، وفضلا على ذلك لا يمكن بيع كنوز كنيستى بيزا فى القسطنطينية ، أو رهنها أو استعمالها فى أغراض ذات نفع عام دون ترخيص الوكيل المفوض بالكاتدرائية . وهكذا فبنقل الثروة التى تملكها المستعمرة من ادارة علمانية الى ادارة كنسية كان المقصود على ما يبدو بوضوح جعلها فى مأمن من مشروعات الامبراطور الذى كان الجميع يخشون جشعه واستبداده ، وثبت بعد قليل أن هذا الاجراء كان ثمرة بصيرة حكيمة : ذلك أن استافورتى Astaforte سمير الامبراطور أوقع باللاتينيين كـل ضروب الكيد والأذى ، ووصلت جرأته الى حد مصادرة مبلغ من المال كان بيزى قد حصل عليه بموجب وصية لصالح بعض أعمال البر . وفى العصر نفسه نقل مانويل بالقـوة حى البيزيين الى خارج المدينة ، ولم تزل بواعث هـذا العمل مجهولة(١)، فهل كانت راجعة الى الخلاف السياسى الذى ظهر واضحا بعد بعثة عام ١١٦١ ؟ أم بسبب العداء الذى أبداه البيزيون ضد الجالية الجنوية الصغيرة ، ثم تحول فى الفترة الأخيرة الى عنف مكشوف ؟ أم لعل هذا الاجراء كان تنفيذا لأحد مشروعات الامبراطور ، يتغيا تطهير العاصمة من العناصر الأجنبيـة(٢) التى كانت متأهبة دواما للتآمر مع الأعداء الخارجين ، الأمر الذى يمثل خطرا مستمرا على الأمن العام ؟ وفى رأينا أن الباعث الأخير هو الصحيح ، اذ أراد الأمبراطور فى عام ١١٦٩ أن يخرج الجنويين من المدينة . ولسنا نملك عناصر تحدد لنا تاريخ طرد البيزيين ، ولكن لنا أن نؤكد أن الأمر لم يكن يتعلـق بطردهم من الامبراطورية كما يزعم ماران Marin (٣) ، وانما اكتفى مانويل بطردهم من الحى الذى كانوا يشغلونه داخل المدينة ، وتخصيص حى آخر لهم ، أقل ملاءمة لهم بطبيعة الحال ، ويقع على الضفة المقابلة من البسفور (ربما من ناحية سكودارى ، أو غلطة) ، وهذا هو كل شىء . ثم ان هذا النفى لم يكن طويل الأمد . ولكى تستعيد بيزا رضاء الامبراطور ، بعثت اليه فى شهر نوفمبر ١١٦٨ القنصل البرتوس بولسى Abbertus Bulsi ، والفقيه المشهور بورجنديوس Burgundius (٤) ، والكونت ماركوس Marcus وذهب الثلاثة أولا الى راجوزة Raguse (*) حيث مضوا فى ١٣ من مايو ١١٦٩ معاهدة بين المدينتين (٥) ، وقضوا بالقسطنطينية عام ١١٧٠ كله ، وبهذا

---

(١) Doc. sulle relaz tosc. p. 54.

(٢) نفى كذلك اليهود الى بيرا ، انظر : Benj. de Tudèl., I, 55.

(٣) Storia del commercio dei Veneziani, III, 118.

(٤) بخصوص هذه الشخصية أنظر :
Savigny, Gesch des R. Rechtes im Mittelater, 2e éd. IV, 394-410.

(*) (راجوزة مدينة بيوجسلافيا ، وهى الآن دبروفنك ـ المترجم)

(٥) Monumenta spectantia historiam Slavorum meridionalium (éd. Lijubic). Zagrab. 1868, I, p. 10.

العام أرخ الاتفاق الذى عقدوه مع مانويل ، ثم عادوا الى وطنهم فى ٩ من نوفمبر ١١٧١ ، واستصحبوا معهم فى عودتهم ثلاثة سفراء يونانيين مكلفين بتسوية كل التفاصيل(١) • ومال الامبراطور الى التساهل ، ورخص للبيزيين باستعادة الأماكن التى كانوا يشغلونها فى القسطنطينية ، وعلى العكس من ذلك كان على قناصلة بيزا أن يقسموا يمين الولاء له ، ويتعهدوا بأن يعتبروا لاغيا وكأن لم يكن كل التزام تعقده الجمهورية نحو أى أشخاص ، متوجين أو غير متوجين ، اذا كان الالتزام يتعارض مع هذا القسم(٢) • ووعد الامبراطور ، فضلا عن ذلك بتحسين حالة الأرصفة المخصصة للبيزيين ، وتسليم المدينة ورئيس أساقفتها الهدايا التى نصت عليها المعاهدات ، وكانت محتجزة منذ خمس عشرة سنة(٣) • ويبدو أن السفراء اليونانيين قد عادوا الى القسطنطينية فى بداية عام ١١٧٢ ومعهم المعاهدة مصدقا عليها من سلطات بيزا ، والغالب أن البيزيين حصلوا آنئذ على التصريح بعودتهم الى حيهم القديم •

ولم يهمل الامبراطور فى هذه الأثناء مشروعاته الخاصة بايطاليا ، وضاعف جهوده للتقدم فيها ، ولكنه كان يصطدم بعقبات فى كل الانحاء • لقد استطاع فى عدد كبير من المدن أن يضم الى قضيته بعض الأفراد(٤) ، الا أن الأغلبية أبدت عدم استعدادها للتمرد على امبراطور ألمانيا والوقوع فى حبائل الامبراطور اليونانى • وكانت أنكونا وحدها هى التى شذت من هذه الظاهرة : فمنذ أن أعاد مانويل الاستيلاء على كورفو ، فكر فى أن يجعلها مركزا للأسلحة والعمليات الحربية • ولم يقل المؤرخ كيناموس الذى ذكر هذه المعلومة شيئا عن السبب فى فشل المشروع ، هل كان ذلك بسبب عجز القائد اليونانى المكلف بالتنفيذ ، أو بتأثير البنادقة سرا(٥) • وبعد مضى بضع سنين ، نظم مانويل فى أنكونا مركزا للتعبئة من أجل حربه ضد النورمان • غير أن عملاءه لم يكتفوا بجمع قوات من المرتزقة ، ولكنهم كلفوا بورجوازى ثغر أنكونا وسادتها بالعمل فى هذا السبيل : واعتزم مانويل أن يعيد فى حالة نجاحه تنظيم اكسرخسية ، (حكومة عسكرية بيزنطية ــ المترجم) ، انكونا ، فيستطيع بهذه الوسيلة أن

---

(١) Marang. Annal Pis p. 262, ad an. 1172 (more Pisano), Ind. 5 (commencant au 24 Sept. 1171).

(٢) بلغنا نص هذه المعاهدة مدمجة فى وثيقة لاحقة للامبراطور اسحق ، وقد نشر النص باليونانية مكلوسش ومولر (Acta gracca, III, 13 et s.) وباللاتينية (Dal Borgo, pp. 155 et s.) وباللغتين فى : (les doc. sull relaz. tox p. 45, 54)

(٣) Marank. op. c.

(٤) Nicét, p. 262.

(٥) Cinnam. p. 102.

يهزم البندقية ويذلهـا ، فهو لم ينس ممــا أنزلت به من ذل واهانة أمـــام كورفو (١) (*) كذلك لم يكن البنادقة من ناحيتهم يجهلون الأخطار التى تحيق بحريتهم السياسية وتفوقهم التجـــارى فى البحر الأدرياتى (٢) اذا نجح اليونانيون فى توطيد أقدامهم فى هـــذه المنطقة واحيـــاء تجارة انكونا ، وكانوا من جهة أخرى يحقدون على الامبراطور بسبب منحه الجنويين أحياء تجارية ومزايا ، وهم منافسوهم فى أسواق الشرق الأدنى • وأخذت وشائج الصداقة القديمة التى كانت تربط البندقية بالامبراطورية اليونانية تتراخى يوما بعد يوم، ولم يبق الا نقطة واحدة تتلاقى عندها مصالحهما المشتركة ، وكان هذا الأمر هو وحده الذى منع انقطاع العلاقات : فالواقع أن البندقية كانت عضوا من أشد أعضاء اتحاد المدن اللمباردية حماسة ، وكانت تعمل بكل قوتها ، كما يعمل الامبراطور اليونانى على طرد الامبراطور فردريك بارباروسا من ايطاليا • ويبدو أنها هى التى كانت تتفاوض مع الامبراطور اليونانى لكى يقر الاعانات المالية التى تمر عن طريقها للانفاق على كفاح اللمبارديين ضد آل هوهنشتاوفن(٣) • ومن الصعب تحديد السبب الذى أدى الى انقطاع العلاقات بصورة نهائية(٤) • وثمة سجل تاريخى حرر بعد مرور خمسين سنة على هذه الأحداث l'Historia ducum Veneticorum يذكر عدة بواعث اسهمت فى هذا الانقطاع : فقـد تكون الغيرة ، والغضب ، والخوف قد أثرت فى نفس مانويل ، الغيرة من الثروات التى يملكها البنادقة ، والغضب لرفضهم التآلف الذى عرضه عليهم ، وأخيرا الخوف من نشاطهم وقدرتهم(٥) • ويبدو أن المؤرخ ، عند ذكره الباعث الثانى ، قد أخذ فى اعتباره الأحداث التى رواها داندولو Dandolo فيما بعد وبمزيد من التفاصيل(٦) • يقول هذا الكاتب ان مانويل وعد ملك صقلية الشاب أن يزوجه ابنته ، ثم رجع بعد ذلك فيما وعد به(٧) ، واذ توقع أن تؤدى هذه الاهانة الى نشوب حرب بينهما ، فانه جعل يجس نبض البنادقـة ليعرف ما اذا كانوا فى هذه الحالة ينحازون اليه ، فكان جواب البنادقة عليه

---

(١)* (اكسرخسيه ، حكومة عسكرية بيزنطية ـ المترجم)

Cinnam. p. 170; Sudendorf, Registrum, II, 131 et ss.; Annal. Colon. max. dans Pertz SS. XVII, 767; Epist, Frederici I, dans Otto Fris., ibid. XX 348 et s. ; Rogevinus, ibid. 428.

(٢) على الضفة الشرقية من البحر الادرياتى انحازت سبالاتو ، وتراو ، وراجوزة الى مانويل ، كما أن زارا ثارت على البندقية •

(٣) Cinnam. p. 228-231; Vignati, Storia dipl. della lega lombarda, p. 145; cf. Prutz, Friedrich I, I, 354; II, 100 et s., 373.

(٤) Dand. p. 292-294; Appendini, Notizie sulle antichita dei Ragusei, I, 267.

(٥) Mon. Germ. SS. XIV, 78.

(٦) Murat. SS. XII, 291.

(٧) Romuald . Salern. dans Pertz. SS. XIX, 436, 439 et Nicét. p. 221 et s.

بالنفى · غير أن مؤرخا آخر جديرا بكل الثقة ، وهو روموالد دى ساليرن Romuald de Salerne يجعل هذه الواقعة فى عام ١١٧٢ أى عاما بعد وقوع الكارثة التى جلبت على البنادقة غضب مانويل · وعلى ذلك فليس فى وسعنا أن نقبل الباعث الذى قدمه واندولو دون أن نصادف مصاعب تتعلق بتاريخ الأحداث · ومع ذلك فليس هذا سببا يدعو الى ما أشارت Veneticorum l'Historia ducum فربما كان فى ذهن الكاتب اقتراح آخر بالتحالف ، ومن الأسف أنه لم يذكر القصد بمزيد من الايضاح · ومن بين المؤرخين اليونانيين ينسب نيكتاس الخطأ كله الى غطرسة البنادقة التى لم يعد مانويل يحتملها ، ولكنه لا يذكر أية واقعة ايجابية على أنها الباعث على انقطاع العلاقات(١) · وعلى العكس من ذلك يروى كيناموس الأمور على الوجه الآتى ، فيقول ان البنادقة المقيمين بالقسطنطينية أساءوا جهارا معاملة اللومبارديين ؛ وهو يقصد بهذه التسمية دون شك الجنويين(٢) ، وذلك بدعوى أن هؤلاء نقضوا معاهدات التحالف القديمة ، فدمروا منازلهم تدميرا ، وأنزلوا بهم خسائر لا تعد ولا تحصى ، ومن ثم حملهم الامبراطور مسئولية اصلاح الأضرار التى أوقعوها ، وحكم عليهم باعادة بناء منازل اللومبارديين ، وتعويضهم عن الخسائر التى حدثت نتيجة لأفعالهم · ولكن البنادقة لم ينصاعوا لهذا الحكم ، بل انهم هددوا اليونانيين بغارة كتلك الغارة التى راح ضحيتها الامبراطور يوحنا · وكان هذا أمرا فوق ما يمكن احتماله ، ولم يكن ثمة مجال للتردد ؛ وهذا ما استقر عليه رأى مانويل ، ومن ثم اعتقلهم جميعا فى يوم واحد · هذه الرواية تعتمد على وقائع تاريخية : ففى الفترة التى نتحدث عنها وقعت غارة على الجنويين فى حيهم ، وكان هذا الحى ، كما عرفنا من البيان الذى سلم للسفير الجنوى جريبالدى (١١٧٤) هو نفس الحى الذى منحوه قبل ذلك بوقت قليل (بمقتضى « مرسوم ذهبى » صادر فى شهر أبريل ١١٧٠) فى منطقة كوباريا Coparia · وألقى مانويل مسئولية هذا الفعل على البنادقة فصادر كل ما فى حوزتهم من أموال (٣) · ومع ذلك ففى جنوا ، لم يتهم الأهالى البنادقة بارتكاب هذه الأفعال(٤) · أما من ناحية الامبراطور ، فان الاتهام الذى وجه ضدهم ، والعقوبة التى وقعت عليهم ، لم يكونا سوى تمهيد للأعمال العدوانية التى نحاول أن نعرف سببها · وليس ثمة شاهد واحد ممن استشهدنا بهم يؤيد رواية كيناموس ، فهو من بين كل المؤرخين المعاصرين الوحيد الذى يتحدث عن غارة قام بها البنادقة على حى الجنويين فى

---

(١) Nicét. p. 222 et s.

(٢) يستخدم كيناموس كلمة « لومبارديون » كمرادف لليجوريين ، راجع صفحة ١٠ ·

(٣) Sauli, op. c. II, 185.

(٤) Sauli, op. c.

القسطنطينية (١) . ويبـدو لنا أنه من الأوفق أن نتمشى مع بيـانات ال Historia ducum Venetiiorum (٢) ونبحث عن السـبب فى غضـب مانويل ، وخيبة الأمل التى انتابته حين جس مشاعر « الولاية » عن طريق بعض الوسطاء فاصطدم برفض مطلق لسياسته فى ايطاليا ، بل وعزم ثابت عـلى مناهضة هذه السياسة اذا صمم على تثبيت أقدامه نهائيا على الضفة اليسرى من البحر الأدرياتى وبخاصة أن يتخذ مدينة أنكونا نقطة ارتكاز له . ولعلنـا نضيف الى هذا السبب أن منظر الثروات الضخمة التى جمعهـا بنادقـة القسطنطينية قد أثارت جشعه(٣). اذ أنه كان فى حاجة الى الكثير من المال ليواصل الحروب التى تورط فيها ، والانفاق على أساليب الرشوة التى كان يستخدمها بسخاء ، وضروب البذخ التى يمارسها . ورغم الأعباء التى كان يثقل بها كاهل رعينه ، فان خزانة الدولة لم تكن كافية للوفاء بمطالبـه (٤) . وشعر الدوق ميشيل الثانى Michel II ـ الذى كان يتولى الحكم وقتئذ ـ بالخطر الذى يتهدد مواطنيه ، فمنع بوجه عام الرحلات الى رومانيا(٥) . وردا على هذا الخطر ، أرسل مانويل بعثة وكلفها بدعوة البنادقة الى العودة كما حدث فى الماضى ، ضمن لهم السفراء أمنـا تاما على أموالهم ، كالأمن الذى يتمتعـون به فى بلدهم ، وأضافوا أن فى عزم الامبراطور أن يمنحهم امتيازا مطلقا بممارسة التجارة فى كل أنحاء الامبراطورية . فوقع الدوق فى الفخ ، وأذن لمواطنيه بالعودة الى رومانيا ، بل وأمرهم بذلك . وسافر عشرون ألف شخص مزودين بأموال كثيرة ، ومسلحين تسليحا جيدا ، وفى صحبتهم سفيران : سباستيانو زيانى ، وأوربو ماستروبييترو . وجدد لهم مانويل تعهداته ، وضاعف لهم من آيات الصداقة حتى يمحو الشكوك التى لم يستطع السفراء أنفسهم أن يبددوها . وفى هـذه الأثناء حشد قوات عسكرية كثيرة فى المدينة ، وزود أسوارها وقصورها بمعدات الدفاع . وحين أكمل استعداداته أصدر أمره بالقبض على كل البنادقة ومصادرة أموالهم ، واحتجاز سفنهم : وكان ذلك فى ١٢ من مارس عام ١١٧١ (٦) . ومن القسطنطينية وحدها راح ١٠٠٠٠ من البنادقة ضحية هذا الاعتداء . ولما كانت السجون غير كافية لاحتوائهم ، كان لابد من حبس جزء منهم فى بعض الأديرة . وصدر الأمر ذاته ليعمم فى الامبراطورية ، بل ونفذ فى ذات يوم صـدوره

---

(١) انظر الشرح فى : Langer, op. cit., p. 171, note 3.

(٢) Hist. ducum. Venet. 1. c.

(٣) Hist. ducum. Venet. 1. c.

(٤) Nicét p. 265 et ss.; Tafel, Komnenen und Normannen, p. 14 et ss.

(٥) يقول داندولو أن هذا الخطر كان فى عام ١١٦٨ : Dandolo, p. 291.

(٦) كان هذا عيد القديس جريجوار : Cronaca di Marco, Arch stor. ital, VIII, p. 260.

نفسه (١) ، وفى الميرو Almyro نجح عدد من البنادقة فى الهرب(٢) ، غير أن القليل هم الذين أتيحت لهم بالاجمال هذه الفرصة ، ولما لم يكن فى المستطاع ايواء المسجونين جميعا ، اضطر الامبراطور بعد بضعة أيام أن يطلق سراح عدد منهم بكفالة • وأبحر الكثير من هؤلاء ، ومعظمهم من العزاب ، وعلى متن سفينة كبيرة من سفن البحرية الامبراطورية ، وضعت بربانها تحت تصرفهم ، والربان بندقى الأصل ، وأقلعت السفينة مع ريح مواتية • وطوردت السفينة ، ولكنها استطاعت الافلات من القذائف والنيران اليونانيــة ، فلم يصبهـــا ضرر(٣) •

كان مانويل يتمتع بخليط غير عادى من الشجاعة العسكريـــة التى لا شك فيها ، والمكر والخداع اللذين حلا عند الرومان ذوى الأخلاق المخلة محل البسالة الزائلة : ولم يعلم البنادقة ذلك الا بعــد فوات الأوان ، وفى غير صالحهم • وفى البندقية كان الرعب أول انطباع لهذا العمل فى نفوس الأهالى ، وكانت أول فكرة طرأت لهم أن يرسلوا سفراء يطلبون من الامبراطور تفسيرا عن تصرفه العجيب ، الا أنه عند وصول الهاربين من الميرو ، وحين علم الأهالى بغدر الامبراطور ، وما حل بضحاياه من مصائب ، تغلبت فى نفوسهم الرغبة فى الانتقام على سائر المشاعر ، ونسوا فكرة ارسال وفد ، وأصبحت الحرب ضالتهم المنشودة • وفى بضعة أيام تم تجهيز مائة سفينة حربية جديدة وعشرين ناقلة ، وصدر الأمر الى كل الغائبين بالعودة الى البندقية قبل نهاية شهـــر أغسطس للاشتراك فى الحملة ، وعلى سكان استريا ودالماشيا أن ينضموا الى الحملة فى منتصف الطريق • وأقلع الأسطول فى أواخر شهر سبتمبر تحت قيادة الدوق نفسه ، وخرب فى طريقه شواطىء اليونان وجزره ، ولكن ما أن وصل الى جزيرة نجروبونت (ابوبية ــ ايفيا حاليا ــ المترجم) حتى توقف فجأة : فقد تراخى الدوق ، واستمع مرة أخرى الى اليونانيين ، وعاد أسلوب المفاوضة معهم • وأمضى الجيش الشتاء فى جزيرة خيو ، وهناك أصاب صفوف الجيش وباء أهلك خلقا كثيرا ، ولم يعرف سبب الوباء ، وشاع أن الامبراطور سمم ينابيع الماء والنبيذ • ونقل المعسكر مرارا الى جهات أخرى ، ورغم كل ما بذل فى هذا الشأن من علاج ، كان عدد ضحايا الوباء يزداد يوما بعد يوم ، ولم يعد الجيش قادرا على المقاومة بعد أن ضعف جنده ، وطوقه أسطول العدو •

---

(١) Annal Venet. breves, Mon. Germ. SS. XIV, 72 l'hist duc. 1. c. p. 78 et s.; Mort da Canale, p. 312; la Cronaca di Marco, 1. 1. c.; Dandolo, p. 293; Cinnam. p. 282; Nicét. p. 223.

(٢) Hist. duc. Venet p. 79.

(٣) Cinnam. p. 283; Nicét. p. 223; Taf. et Thom. I. 168.

وأخيرا ، وبعد عيد القيامة عام ١١٧٢ ، قر العزم على العودة الى البندقية(١) • وهكذا بدأت هذه الحملة بحماسة ، وبدت وكأنها سوف تلتهم كل شيء ، وشنت العديد من الغارات ، ومارست الكثير من أعمال التخريب على طول الشواطىء(٢) ، ولكنها بالاجمال انتهت دون أن تنجز عملا حاسما ، ودون أن تجبر الامبراطور على ارضاء البنادقة ، وأن يرد لهم حق الانتفاع بأحيائهم وسائر أموالهم • ولم يصل السفراء الذين بعثهم الدوج مرتين الى القسطنطينية الى أية نتيجة • وتريث الامبراطور أولا ، وترك الأمور تأخذ مجراها ببطء • غير أنه عندما راح الوباء يشتت صفوف أعدائه ، لم يبد عليه أى استعداد لتوقيع معاهدة شبيهة بالتى كانوا يطالبونه بها ، بل انه تحول الى التهديد ، ولم يعد يتحدث فى شيء خلاف ايقاع الهزيمة المنكرة بالبنادقة •

يقول المؤرخ ماركو (٣) ، انه ما أن عاد الدوق الى البندقية الذى قامت هذه الحملة التعسة بناء على أمره حتى بدأ يعد العدة لتسليحات جديدة ، ولكن مانويل جعل هذه التسليحات عديمة الجدوى بأن أطلق سراح كل البنادقة المسجونين • ورغم أن ماركو كتب ما كتبه بعد انقضاء مائة سنة على هذه الأحداث ، فانه كان يملك بوجه عام معلومات وافية ، ولكنه اقترف خطأ فى هذا الخصوص • فأولا ، اغتيل الدوق المشار اليه بعد عودته (فى مايو ١٩٧٢) دون أن يتاح له وقت للتفكير فى شن حملة ثانية ، وثانيا ، لم يتعجل مانويل كثيرا فى اطلاق سراح أسراه ، بل انقضت عدة سنوات فى مفاوضات عقيمة(٤) • وظلت تجارة البندقية مع بيزنطية منقطعة زمنا طويلا(٥) • ولا بد من التسليم بأن السياسة التى اتبعها البنادقة طوال هذا الوقت لم تكن ملائمة لأن تقربهم من الامبراطور • ولم يقنع البنادقة بدفع العرب الى محاربة الامبراطور (٦) ، ولكنهم أمدوا كريستيان ، رئيس أساقفة ماينس ، ومستشار فردريك الأول بالتعزيزات اللازمة لحصار مدينة أنكونا التى كانت نصف يونانية (٧) • ولكن

---

(١) Hist. duc. Venet. p. 79 et s.; la Cronica di Marco, p. 260 et s.; Dandolo, p. 293-296; Cinnam. p. 283-286; Nicétas, p. 224 et s.

(٢) كان الهدف من احدى هذه الغارات مدينة الميرو ، واحترقت فيها سفينة للجنويين الذين كانوا يدافعون عن المدينة ، وكانت هذه الواقعة من الأسباب التى حدت بهم الى مطالبة مانويل بتعويضات عن طريق جريمالدى : (Sauli, II, 185).

(٣) Archiv. stor. ital VIII, 261.

(٤) Hist. duc. Venet. p. 81 ; Dandolo, p. 298 et s.

(٥) Hist duc. Venet. p. 81.

(٦) Cinnam. p. 286.

(٧) Romuald. Salern. p. 441; Hist duc. Venet. p. 81 et s.; Buoncompagni, De obsidione Anconae, dans Murat. ss. VI, 929 et ss. Cinnam. p. 288 et s.; Taf. et Thom. I., 160.

هذا المشروع أخفق بالفعل • وفى هذه الأثناء كانت البعثات تروح وتجىء بين البندقية والقسطنطينية (١) : وأخيرا تعب البنادقة من التفاوض مع خصم يتهرب باستمرار ، فتحالفوا ضده مع وليم الثانى ملك صقلية (١١٧٥) • ونحن اذا نظرنا الى نص المعاهدة بمعناها الحرفى ، نجد أنها لا تحتوى فى الظاهر الا على بنود تتعلق بالتجارة ، وضمانات متبادلة بشأن الملكيات الاقليمية ، ومواطنى كل من الدولتين ولكن بامعان النظر فيها ، نكتشف فى النص سلاحا موجها ضد مانويل ، يتمثل فى حرمان أنصار الأمبراطور اليونانى من كل المزايا المنصوص عليها (٢) • ولم يخطىء الامبراطور لحظة فى فهم مدلول هذا التحالف ، وفى الوقت نفسه طرد الدوق كل سفرائه (٣) • ولم يكن الامبراطور يخشى شيئا كخشيته من تحالف الدول الغربية ضده (٤) ، ولذلك رأى من الحكمة أن يستسلم ، فأعاد الى البنادقة الحقوق التى كان قد منحها اياهم فى الوقت الذى جعلهم فى طبقة ال burgenses ، ووضعهم هذا الاجراء الجديد على قدم المساواة مع اليونانيين ، وأصدر مرسوما باطلاق سراح الأسرى ، وأن ترد لهم الخزانة أموالهم التى صودرت • ونيكتاس هو الكاتب الوحيد الذى يذكر هذا الصلح الذى تم بين مانويل والبنادقة (٥) • والغريب أنه يبدو أن داندولو لم يعلم شيئا عن هذا الخصوص ، بل يقول ان أسرى مانويل لم يطلق سراحهم الا فى عهد اندرونيكوس (١١٨٢ — ١١٨٥) تحت الحاح الدوق ، وان هذا الامبراطور وعدهم بتعويض يصرف اليهم على أقساط سنوية (٦) • الا أن داندولو جاء فى زمن لاحق لنيكتاس ، فهو ليس جدير بالثقة التى يستحقها الأخير ، ولهذا السبب أيضا أخذ ماران Marin وورومانين Romanin برواية الأخير (٧) •

ونحن حين نفكر فى كل الخلافات التى جرت ، ليس فقط بين مانويل والبنادقة ، ولكن أيضا بينه وبين سائر الأمم التجارية ، ندهش من أن رعاياه اليونانيين كانوا يعتبون عليه بالذات ميله المفرط الى اللاتينيين • والواقع كان فى خدمته على الدوام عدد كبير من هؤلاء ، وكان يأوى عنده المنفيين ، ويجد

---

(١) Streit, Venedig und die Wendung des vierten Kreuzzugs gegen Costantinopel, p. 40 et s. not, 118.

(٢) Taf. et Thom.I, 173; cf. Dandolo, p. 301.

(٣) Dandolo, p. 301.

(٤) Nicét. p. 260.

(٥) Nicét. p. 225 et s.; Taf .et Thom. I, 207, 210.

(٦) Dandolo, p. 309.

(٧) Marin, III, 166 et s.; Romanin, 11, 118.

المتذمرون عنده الحفاوة والحماية ، والتأييد لمؤامراتهم(١) • واذا كان قد أقام العراقيل أمام الحركة التى تجذب تجار الغرب الى امبراطوريته ، فان هذا لم يكن عنده مسألة مبدأ • ويقول نيكتاس بحق انه دعاهم الى المجىء وسعى الى استخدامهم بوسائل بارعة (٢) : هذا صحيح ، الا أن المشروعات الطموحة التى كان يخفيها وراء ما يبديه لهم من مودة ومجاملة ، والقيود غير المحتملة التى وضعها على حرية المستوطنين استثارت سخطهم ، وأدت فى الكثير من الأحيان الى انقطاع العلاقات التجارية • ثم ان المدن التجارية الرئيسية فى ايطاليا كانت تدين له بأملاك استعمارية كبيرة ، وزاد عدد الايطاليين المقيمين فى اليونان فى عهده زيادة كبيرة • ويقدر اوستات Eustathe عدد اللاتينيين المقيمين بالقسطنطينية فى حوالى عـــام ١١٨٠ (عام وفاتـــه) بأكثر من ٦٠ر٠٠٠ شخص (٣) • ويمكن التسليم بأن هؤلاء اللاتينيين كانوا كلهم تقريبـــا من الايطاليين ، وأن عـــدد البنادقة يفوق كبيرا عـــدد البيزيين والجنويين ، وفى الحشد المختلط الذى يملأ عاصمة الامبراطورية ، كان هؤلاء الألوف من اللاتينيين على صلة بتجار قادمين من الكثير من مختلف البلاد • وقد وصف بنيامين دى توديل (٥) الذى زار القسطنطينية فى عصر مانويل الحركة التجـارية وصفا بارعا ، ولم يعرف سوى بغداد ، مدينة يمكن أن تنافس القسطنطينية فى هذا المجال ، ويقول ان المرأ يصادف هناك تجارا من بابل ، وبلاد ما بين النهرين ، وميديا ، وفارس ، ومصر ، وفلسطين ، وروسيا • وهنغاريا • وبلاد البتشينج Petchenegues أو Patginaguie (*) ، وبلغاريا (٦) ، ولمبارديا ، وأسبانيا ، وثمة مصادر أخرى تتيح لنا تكملة هذا التعداد : فهناك الأرمن (٧) المقيمون بأعداد كبيرة فى القسطنطينية ، ويزاولون بها التجارة التى يبدو أنها مهنة شعبهم ، ويذكر الكثير من الفقرات صراحة أن «بيرى» Ibères مضيق القوقاز كانوا يذهبون

---

(١) Guill de Tyr, XXII, 10; Eustathe, Oraison funèbre de Manuel, dans ses Opuscules, éd. Tafel, p. 200, et dans Tafel, Komn. und Normann p. 15, 16; Nicét. p. 266-268. Robert Antissiod., dans les Monè Germ. ss. XXVI, 247.

(٢) Nicét. p. 260.

(٣) Opusc, p. 275 ; Tafel, Komnen, und Normann, p. 98.

(٤) نجد ٢٠ر٠٠٠ بندقى يلبون دعوة مانويل ، و ١٠٠٠ بيزى (فى عام ١١٦٢) يهاجمون متاجر الجنويين ، و ٣٠٠ جنوى فقط يدافعون عنها •

(٥) Ed. Asher, I, 51.

(٦) Tafel : De Thessalonica ejusque agro, p. 509.

(٧) Anne Comnène, éd. Bonn II, p. 3; Nicét. p. 527.

كثيرا الى القسطنطينية لأعمال تجارية (١) . وكثيرا ما شاهدوا هناك تجار من الترك واليونانيين قادمين من حدود ولايات سلطان قونية (Iconium) (٢)

وكان اللاتينيون يشكلون بتعدادهم الكبير النواة الأساسية لهذا الحشد المختلط ، لذلك راحوا يؤدون هناك بالتدريج دورا ممتازا . وبعد وفاة مانويل (فى ٢٤ من سبتمبر عام ١١٨٠) تولت أرملته مع نديمه « بروتوسيباست » الكسيوس الحكم باسم الامبراطور الكسيوس الذى كان وقتئذ قاصرا ، فأساءا التصرف حتى كرههما الشعب ، وكانا قد ورثا عن مانويل ايثاره اللاتينيين ، وأجبرتهما العزلة التى ما لبثت أن أحاطت بهما أن يلتمسا عون الأجانب (٣) أما الوطنيون فانهم لجأوا الى اندرونيفوس andranic الذى تشجع بهم فدبر ثورة فى عام ١١٨٢ وزحف على العاصمة . وأعد البروتوسيباست الكسيوس جيشا لصده ، وكان اللاتينيون أهم عنصر فى هذا الجيش ، أغرتهم الرواتب الكبيرة ، أو على الأقل كان هذا الخبر الذى ذاع بين اليونانيين ، ووعد ألكسيوس بأن يسمح لهم بنهب العاصمة واسترقاق اليونانيين (٤) .

ولم يلبث اليونانيون أن هجروا المدينة بجموعهم . أما اللاتينيون فقد حاصرهم من ناحية جيش اندروتيقوس ، ومن ناحية أخرى أنصاره الذين بقوا فى المدينة ، فانهزموا أمام الأعداء المتفوقين عليهم عددا (ربيع ١١٨٢) . وانصب حقد اليونانيين على كل الغربيين ، وأعقب ذلك بمذبحة مرعبة لم يسلم منها النساء والأطفال ، ولا المرضى فى مستشفى فرسان القديس يوحنا (٥) ، وانطلقت أعنة الأحقاد الدينية ، فعومل القساوسة ورجال الدين معاملة وحشية ، وبيع عدد كبير من اللاتينيين بيع الرقيق الى الكفار ، واستطاع ٤٠٠٠ منهم بعد ذلك أن يشتروا حريتهم ، أما منازلهم التى كانوا قد كدسوا فيها ثروات هائلة ، فانها نهبت ، وأحرقت الكنائس التى احتمى بداخلها الكثير ، وأحياء كاملة صارت رمادا (٦) . ويبدو أن القسم المسالم من السكان هو الذى كان به أكبر عدد من الضحايا ، واستطاع الكثير من الناس أن يهربوا ويركبوا

(١) Nicét. p. 303, 499.

(٢) Nicét. p. 653 et s.

(٣) Gull, de Tyr, XXII, 6, 10, 11 ; Eustathe, Opusc, ed. Tafel, p. 275.

(٤) Nicét. p. 321; Eustathe, 1. c.

(٥) Ducange, Cpol. christ lib. IV, p. 163, éd. Paris, et du même, annotations à l'oeuvre de Villeharpdouin, p. 302 et s.

(٦) Guill. de Tyr, XXII, 12; Nicétas, p. 326.

– لم يكن البيزيون وحدهم الذين أصيبوا ، فقد أصيب مثلهم الجنويون ، أنظر :

— Tafel, Komnenen und Normannen, p. 117 ; Eustathe, Opusc, p. 280.

– وبلغت قيمة التعويضات التى طالبوا بها ٢٢٨٠٠٠ هيبربر ، أنظر :
Miklosich et Muller, III, 27.

السفن . وامتلأ أربع وأربعون سفينة راسية فى الميناء بالهاربين . وتبعها بضع سفن أخرى استطاعت أن تلحق الواحدة بعد الأخرى بمعظم الأسطول . ويؤكد « أوستاث » أن قذائف أطلقت على السفن ، ولكن يبدو أنه كان مخطئا فى ذلك . وينفى نيكتاس هذه الواقعة نفيا باتا ، ويقول ان الفارين أمضوا ليلتهم أمام جزر الأمراء Princes ، ولم تقلع السفن الا فى اليوم التالى بعد أن أشعل هؤلاء النار فى بعض الأديرة . ويضيف وليم (من صور) أن الهاربين قد اتسع لهم الوقت والقدرة ليأخذوا بثأرهم بصورة أكمل مما قال بها نيكتاس . وكان أسطولهم قويا وكثير العدد فاستطاعوا أن ينهبوا ويدمروا ضفتى البسفور وبحر بروبنس (مرمرة حاليا ــ المترجم) دون أن يخسروا شيئا ، وقتلوا البورجوازيين ، والقساوسة ، والرهبان فى المدن والأديرة القائمة على الساحل ، ونهبوا كنوز الأديرة ، والأشياء الثمينة التى وضعها هناك سكان القسطنطينية أثناء نشوب الحرب ، وبذلك عوضوا كثيرا من خسائرهم . ودلت ألسنة النيران التى ارتفعت من الأديرة المحترقة لسادة الامبراطورية الجدد أن الانتقام لم يتأخر كثيرا (١) . ولما تمت هذه الأعمال ، أقلع الهاربون متجهين صوب سواحل الأرخبيل اليونانية ، ولم يكن ثمة ما يمنعهم من النزول حيثما شاءوا ، وممارسة اعتداءاتهم الرهيبة بكل ما يملكون من قوة ، ومضوا ينهبون ويدمرون حتى وصلوا الى تسالونيك وتجاوزوها (٢) .

وفى هذه الأثناء ، كان اندرونيقوس قد وطد دعائم سلطته . ونحن اذا فكرنا أنه يدين بعلو مكانته الى رد فعل نصفه سياسى ونصفه دينى ، موجه ضد الأجانب (٣) ، وأن جريمة مانويل والكسيوس كانت فى أعين اليونانيين أنهما أنعما بأكثر مما ينبغى على هؤلاء الأجانب ، فانا نجد من الصعب أن نقر مع داندولو أنه لكى يوطد هذا الامبراطور مركزه على العرش ، أطلق سراح التجار الذين سجنهم مانويل ، ووعد البنادقة بتعويضات . وقد أوضحنا فيما قبل أن مانويل اتخذ الخطوات الأولى للوصول الى مصالحة . وعلى العكس من ذلك استهل النظام الجديد بفتنة خربت فى خلالها أحياء التجار الايطاليين فى القسطنطينية . ومع ذلك لم يكن التخريب تاما ، وحتى فى عهد اندرونيقوس

---

(١) Guill. de Tyr, XXII, 13 : cf. Nicétas, 1. c.

(٢) Nicétas, 1. c. : Eustathe, Opux. éd. Tafel, p. 284; Tafel, Komnenen und Normannen, p. 127 et s.

ـ يذكر Guill de Tyr أيضا سواحل تساليا . وثمة سفينة محملة بالفارين اقلعت فى البحر المتوسط وسقطت فى أيدى القرصان المصريين .

(٣) كان هذا أيضا هو الرأى السائد فى الغرب ، أنظر :

— Sigeberti Gemblac. contin. Aguicinct. dans Pertz, ss. VI, p. 421 et s.; Rob. Altissiod., ibid. XXVI, 247.

بقى فى هذه الأحياء بعض الحياة • وتنبئنا بعض الاتفاقات الفردية المنعقدة فى سنتى ١١٨٣/١١٨٤ أن بعض البنادقة على الأقل كانوا يملكون عقارات فى القسطنطينية فى ذلك العصر (١) • غير أن معظم اللاتينيين هجروا مدينة عمها الفوضى والعسف دون رادع • ولم تقاس الأقاليم قدر ما قاسته العاصمة ، وبقى بها دون شك الكثير من التجار الأجانب الذين استشعروا بعض الجوانب الطيبة من طبيعة اندرونيقوس : فالواقع أن هذا الأمير اكتسب شهرة هو جدير بها ، اذ تعقب بشدة لم تكن معروفة حتى ذلك الحين الموظفين الطغاة ، وغير النزهاء فى الجمارك والادارة المالية ، ودافع بقوة عن الممتلكات الأجنبية ضد حق الكسر والتعطيل •

ومع ذلك جلب هذا المغتصب على نفسه أعداء كثيرين حتى لم يعد فى الامكان التسليم بطول عهده فى الحكم • وبالاضافة الى اللاتينيين الذين هلكوا على يديه ، فان عددا كبيرا من اليونانيين ، وبخاصة فى صفوف النبلاء وكبار الموظفين كانوا يرغبون فى سقوطه • هؤلاء المتذمرون ، ومنهم بطبيعة الحال البيزيون والجنويون ، راحوا يستقصبون آراء أمراء الشرق والغرب لينظموا حملة ضد طاغية بيزنطة (٢) • وثمة أمير واحد ، هو ملك صقلية قام بالفعل عام ١١٨٥ باعداد حملة ضد الامبراطورية اليونانية ، وكانت هذه الحملة بالنسبة لليونانيين بمثابة انتقام ١١٨٢ (٣) ، ولكنها كانت عنده بمثابة تنفيذ لحظة فتوحات واصل القيام بها اسوة بأجداده :. ولم يشترك فى هذه الحرب أية جمهورية من جمهوريات شمال ايطاليا التجارية • غير أنه حين أقبل النورمان وعسكروا أمام تسالونيك ، اتصل بهم اللاتينيون (اى التجار الايطاليون) وسهلوا لهم الاستيلاء على الموقع • وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد •

ومع أسرة انجيلوس الحاكمة ، بدأ عهد جديد أكثر ملاءمة للمستوطنات الايطالية فى الامبراطورية البيزنطية • ويبدو أن كلا الطرفين كان يشعر بالحاجة الى توثيق روابط الصداقة • وكان الامبراطور اسحق (١١٨٥ ــ ١١٩٥) يدرك تماما هذه الضرورة لأنه كان يتوقع دواما غزوا جديدا من ناحية النورمان أو حملة صليبية موجهة ضد الامبراطورية اليونانية ، ولم يكن كبير الثقة فى جيشه أو بحريته ، لذلك فحين وصل الى بلاطه أوتافيوكويرينى ، وبيترو ، وجيوفانى

---

(١) Taf. et Tom. I, 177; Flamin. Cornelius, Eccl. venet. III, 13.

(٢) Eustathe, Opux. p. 280 ; trad. par Tafel, dans Komnenen und Normannen, p. 117-119.

(٣) هذا هو رأى أوستاث (Opux. p. 275) فهو بعد نيكتاس الكاتب الجدير بالثقة من جانب اليونانيين ، فى كل ما يتعلق بهذه الحرب • أما المفاوضات التى أدت الى عقد الصلح فى عام ١١٨٧ فقد تحدث عنها : Rob. Altiss., l. c. p. 253. —

ميشيل (١) مبعوثين من قبل الدوج أوريو ماستروبيترو ، استقبلهم كأصدقاء قدامى عائدين بعد خصام طويل ، وعقد معهم معاهدة تحالف ، هجوى ودفاعى ، كان أول نتائجها أن وضع تحت تصرفه أسطولان يستطيع أن يواجه بهما أى عدو • فقد نص فى المعاهدة على أن تقدم البندقية فى حالة الغزو أسطولا يضارع فى قوته قوة الأسطول اليونانى ، وتكفل الامبراطور بنفقات التسليح ، والتزويد بالرحال والعتاد ، كما يلتزم البنادقة المستوطنون بالامبراطورية اليونانية اما بالاشتراك فى الدفاع عن المدينة التى يقيمون بها ، أو الخدمة فى السفن المرسلة من البندقية ، أو فى سفن الامبراطور ، ويجب أن تستقل السفن ثلاثة رجال من كل أربعة ، ويعفى من ذلك فقط الأشخاص الذين يقل عمرهم عن عشرين سنة أو يزيد على الستين (٢) • فاذا تم الاستيلاء على بعض المدن فى خلال حرب مشتركة ، كان للبنادقة الحق فى أن يكون لهم فى كل مدينة كنيسة وحى ورصيف ، وحرية التجارة ، والاعفاء من الرسوم الجمركية • ولا يجوز للامبراطور أن يعقد صلحا دون أن يشمل الصلح البندقية • وصدق « اسحق » من جهته على المزايا التى منحها أسلافه للجمهورية بموجب مراسيم ، وتعهد برد كل الأموال التى صادرها مانويل من البنادقة فى ١٢ من مارس ١١٧١ ، ولا يقتصر الرد على أحيائهم ، بل يشمل كل أموالهم المنقولة ، سواء انتقلت الى أيدى الأفراد ، أو استخدمت فى تزيين القصور والأديرة ، أو سلمت للخزانة العامة (٣) • وفى حالات كثيرة لم يكن فى الامكان تنفيذ هذا الحكم لاستحالة معرفة مصير الأشياء • غير أن البنادقة عرفوا كيف يتصرفون حتى لا يضيع منهم شيء : فبدلا من الأشياء التى لم يكن من الممكن العثور عليها ،استولوا على الأحياء والأرصفة التى يشغلها الفرنسيون والألمان ، ويكفل هذا لهم دخلا سنويا يقدر بخمسين « هيبربر » ، كما احتفظوا لأنفسهم بحق مقاضاة كل يونانى يثبت لهم أنه امتلك شيئا يخص أحد البنادقة فى عهد مانويل ولم يرده • وأخيرا حصلوا من اسحق على تعويضات مالية كبيرة • وقد وقعت معاهدة التحالف فى عام ١١٨٧ ، وعقدت الاتفاقيات الأخيرة فى شهر يونية عام ١١٨٩ بمعرفة السفراء

---

(١) Dandolo, p. 313 ; Taf et Thom. I, 207.

(٢) يتخذ رومانن (Romanin, Storia di Venezia, II, 127, note 3) هذه الفقرة من المعاهدة أساسا لاحصاء عدد المستوطنين البنادقة فى الامبراطورية اليونانية ، ولكن منطلقه هذا غير صحيح ، لانه يذكر أن المستوطنين قد زودوا بالعتاد الأسطول كله الذى جهز فى البندقية (من ٤٠ الى ١٠٠ سفينة حربية ، بكل منها ٤٠ جدافا) ، فى حين أن الأسطول أقلع من البندقية بمعداته وأسلحته ، سفينة حربية ، بكل منها ٤٠ جدافا) ، فى حين أن الأسطول أقلع من البندقية بمعداته واسلحته ، ولم يجهز المستوطنون الا بضع سفن •

(٣) كل ما سبق نجده فى الخطابات الثلاثة باعتماد الامتيازات الممنوحة من اسحق فى غضون شهر فبراير من عام ١١٧٨ • أنظر : Taf. et Thom. I, 178-203.

أنفسهم ، وانضم اليهم سفيران آخران : بيترو كورنارو ، ودومنيكو ميمو (١) ، الا أن الامبراطور لم يوافق عليها على ما يبدو الا بعد مفاوضات طويلة : فمن جهة كان يشق عليه أن يلتزم بدفع مبالغ نقدية ، ومن جهة أخرى كان يتردد فى منح البنادقة أماكن أكثر فى القسطنطينية ، لعلمه بمدى استهجان اليونانيين لهذا العمل • ومع ذلك فانه بدد وساوسه ، وبرر كربه هذا بأن البنادقة من جنس وثيق الصلة بجنس اليونانيين ، وأنهم كانوا فيما مضى تابعين للامبراطورية ومع ذلك كانت أمامه مشاكل محيرة : ذلك أن الممتلكات التى جرد منها الفرنسيين والألمان دون اخطارهم مسبقا بذلك كانوا قد منحوها بمقتضى « مرسوم ذهبى » امبراطورى ، فكان لابد له من مبرر ، فتعلل بأن الامتيازات لم تمنح للفرنسيين والألمان باعتبارهم هيئة تنتمى الى أمة ، وانما منحت لبعض الأفراد دون ارتباط بوطنهم ، ومن ثم لم يكن التمتع بهذه الملكيات مكفولا لهم • وهكذا تم التغلب على كل المصاعب لصالح البنادقة ، فلم يسترد هؤلاء حيهم القديم من الأفراد والجماعات التى اقتسموها فى أعقاب أحداث عام ١١٧١ فحسب ، ولكنهم حصلوا أيضا على مواقع جديدة فى المدينة •

وفى عام ١١٩٥ خلع اسحق من العرش ، خلعه أخوه الذى حكم باسم الكسيوس الثالث Alexis III حتى الحملة الصليبية الرابعة • وفى البداية كانت الجمهورية تأمل فى أن تواصل معه العلاقات الطيبة التى كانت تقيمها مع سلفه ، ولكن المفاوضات استغرقت معه زمنا طويلا دون نتيجة : فقد أرسل الدوق واندولو الى القسطنطينية ثلاث سفارات (٢) وأرسل ألكسيوس الى البندقية سفارتين (٣) ، كل ذلك دون جدوى • وكان من العسير علينا أن نفهم نوع المصاعب التى صاحبت هذه المفاوضات الكثيرة ، لولا الكشف الموفق الذى وقع عليه لسيد أرمينجو M. Armingaud فى «أرشيف فرارى» Archivio dei Frari تلك هى التعليمات (٤) المحررة لسفارة البندقية الثالثة المكونة من انريكو نافيجايوزو ، وأندريا دونانو(٥) • وكان لألكسيوس مصلحة تفوق مصلحة سلفه اسحق فى أن تتحلل البندقية من التزاماتها حيال مملكة صقلية وامبراطورية ألمانيا ، ومن ثم ترتمى بكليتها فى أحضان الامبراطورية اليونانية • ولما بدأت المفاوضات كان الامبراطور هنرى السادس يفكر فى مشروعات كبيرة بخصوص بيزنطة ، ولكنه توفى فجأة فى عام ١١٩٧ •

---

(١) Taf. et Thom. I, 206-211; cf. Dandolo, p. 314.

(٢) Dandolo, p. 318; Taf. et Thom. I, 249; Streit, op. cit., notes 185, 192

(٣) Dand. 1. c.; Taf. et Thom. 1. c.

(٤) Armingaud, Venise et le Bas-empire, dans les Archives des missions scientif., 2e serie, IV, p. 426 et s., not.

(٥) يبدو أن بنديتو جزيليونى لم يلحق بهم الا فيما بعد •

(٦) Taf. et Thom. I, 199 et s.

ولكن خليفته الملك فيليب السوابى ، صهر اسحق الامبراطور المخلوع من العرش ، وحما الأمير الكسيوس انجيلوس ، كان خصما لا يستهان به • أما البنادقة فانهم حريصين على الاحتفاظ بحرية التصرف : كانوا يريدون عقد تحالف مع بيزنطة ، ولكنهم لم يكونوا يريدون أن تسوء العلاقات بينهم وبين صقلية أو ألمانيا • وانتهى أمر السفيرين بييتر وميشيل ، واوتافيانو كويريني بأن يضعا مع الكسيوس فى ٢٧ من سبتمبر ١١٩٨ نصوص معاهدة (١) كانت بنوع ما نسخة مطابقة لمعاهدة التحالف الهجومى والدفاعى فى عام ١١٨٧ ، فيما عدا أنهما نجحا فى محو النص المتعلق بصقلية • وكان الامبراطور مرتاحا الى هذا المحو لأن صقلية لم تعد وقتئذ مرهوبة الجانب ، بل انه على العكس من ذلك توصل الى اضافة نص نلتزم به الجمهورية بمعاملة ملك ألمانيا على أنه عدو اذا هو غزا رومانيا (٢) • ويقول داندولو (٣) أن السفراء لم يستطيعوا أن يحملوا الامبراطور على توقيع هذه المعاهدة الا بالتهديد بتأييد مطالبة الأمير الكسيوس انجيلوس بالعرش • ولم تنفذ هذه الفكرة الا ابان الحملة الصليبية الرابعة • وعلى أية حال لم تستخدم هذه الفكرة فى تلك الآونة الا كوسيلة للضغط ، وعدلت عنها فى المعاهدة لأنها التزمت أن تنحاز الى الأمبراطور ضد الحامى الطبيعى للمطالب بالعرش • وشملت المعاهدة ، بخلاف تجديد الحلف الدفاعى والهجومى ، تصريحا خاصا لصالح البندقية ينص على الاعفاء من الرسوم على البضائع ، سواء كانت مصنوعة فى الداخل أو مستوردة من الخارج ، ومهما كانت وسيلة النقل المستعملة ، مركبات أو دواب أو سفن ، وجاء فى أعقاب هذا التصريح تعداد صادق ودقيق لكل ولايات الأمبراطورية المفتوحة للتجار ليقوموا فيها بجولاتهم التجارية • والواقع أن البنادقة كانوا يصادفون فى بعض الولايات ، وخاصة فى بعض الأقاليم التابعة للكنائس أو أديرة أو أملاك الدولة موظفين يدعون أن الاعفاء الممنوح لا يسرى على منطقتهم ، ومن ثم يفرضون عليهم ضرائب جزافية : ولذلك وضعت هذه القائمة درءا لهذا الوضع السيء • وكان لهذه القائمة فائدة كبيرة من الوجهة الجغرافية (٤) ، لأنها أكثر تفصيلا من القائمة التى من نوعها الملحقة بمرسوم الكسيوس الأول لعام ١٠٨٢ والتى اقتصرت على تعداد الموانىء والجزر أو المواقع التى يمكن الوصول اليها عن طريق

---

(١) Ibid. I, 246 et ss. Cf. Dand., p. 319.

ـ التاريخ الحقيقى (للمعاهدة) هو اليوم الذى أقسم فيه السفراء البنادقة بمراعاة بنود المعاهدة ، ولم يصدق عليها الامبراطور الا فى شهر نوفمبر •

(٢) Ibid. I, 254, 255.

(٣) Dand. p. 319.

(٤) اكتسب السيد تافل شهرة يستحقها ، بالتعليقات التى دونها باسفل « السجل الفينيسى » والشروح التفصيلية التى الحقها بكتاب Symbolae criticae geographiam Byzantinam spectantes, pars I (Abhandl. des hist Cl. der K. bair. Akad., V, sect. 2, 1849).

البحر ، فى حين أن القائمة الأخرى تشمل كلا من المقاطعات البحرية والمقاطعات البرية الداخلية ، مما يثبت أن البنادقة كانوا يتوغلون فى داخل اقليم بنطس Hemipont وآسيا الصغرى • وأخيرا استطاع السفراء بعد مقاومة طويلة من جانب الامبراطور أن ينتزعوا منه امتيازا متعلقا بالمحكمة المختصة بالقضايا والمنازعات بين المستوطنين البنادقة وبين الرعايا اليونانيين ، وهذه نقطة سوف نعود اليها فيما بعد •

أما بالنسبة الى الجنويين والبيزيين فقد تأخر التعويض عن خسائرهم مدة أطول من مدة التعويض عن خسائر البنادقة • ففى حين تم صلح البنادقة مع اسحق إنجيلوس فى عام ١١٨٧ ، فان البيزيين لم يتوصلوا الى التفاهم معه الا فى شهر فبراير عام ١١٩٢ ، والجنويون فى ابريل من العام نفسه • والواقع ، رغم ما يقوله السيد كانالى Canale (١) أن السفيرين نيكـولا مالونيه ، ولانفرانكو بيفيرى اللذين أوفدتهما جمهورية جنوا فى عام ١١٨٦ لم يحصلا على شىء (٢) ، وأعقبهما ثلاث سفارات لم تحرز أى نجاح (٣) : فمرة رفض أسحق مقابلة السفراء ، ومرة عرض سفيره الخاص قسطنطين ميزديوتاميتس مقترحات أكثر فائدة للجنويين ، فتنصل منها (الامبراطور) باعتبار أنها تجاوزت حدود تعليماته • والشىء الذى أزعج الامبراطور بنوع خاص هو مطالبـة الجنويين بتعويضهم عن الأضرار التى لحقت بهم فى عهد اندرونيقوس ، وأن يتسلمـوا الهدايا التى كان على هذا الامبراطور أن يرسلها الى جنوا ولكنه احتجزها • وكان لاسحق بعض الحق فى أن يرفض مسئوليته عن تصرفـات أندرونيقوس ، فلا مشاحة فى أنه اذا كان الجنويون قد عانوا من بعض المظالم ، فانهم انتقموا لذلك انتقاما شديدا • ومع ذلك كان الامبراطور مستعدا للتعامل مع الجنويين ، وشرح وجهة نظره فى خطابين وجه أحدهما الى الجنوى بالدوينو جويريكو (١١٨٨) والثانى الى «بورستات» محافظ جنوا ، مانيجولدو دى تيتوتشيو (١١٩١) (٤) • وردا على الخطاب الثانى أوفد المحافظ الى القسطنطينية جوليلمـو تورنيللو ، وجويدو سبينولا ، وأعاد هذان السفيران المطالبة بالتعويضات • الا أن اسحق رفض أن ينساق فى هذا الطريق ، وقدم بدوره مطالبات بالتعويض عن أضرار أوقعها الجنويون ببعض السفن اليونانية ، وببعض سكان السواحـل • وتبين استحالة الوصول الى اتفاق ، واستعد السفيران للعودة ، ولكن تم فى اللحظـة الأخيرة عقد اتفاق : ذلك أن الطرفين سحبا مطالبهما ، وأقسما اليمين على الصفح

---

(١) Nuova istorica di Genova, I, 319.

(٢) Annal. Jan. p. 101.

(٣) Miklosich et Muller, Acta groeca, III, 1, 2 et s., 27; cf. Annal. Jan. p. 103, 110, 113, 139, 140 ; Canale, op. 1, 436.

(٤) Miklosisch et Muller, op. c. p. 1, 2 et s.

عما مضى . ومن بين المسائل المشكو منها ، ذكر السفيران ما كان يقترفه الموظفون اليونانيون كثيرا من عسف بفرضهم رسما يزيد على ٤٪ على السفن الجنوية ، وعرضت الحالة بنوع خاص بالنسبة الى السفينة التى قدم عليها هذان السفيران :وكان من رأيهما أن مجرد توقيع العقوبة لهذه المخالفة لأحكام المعاهدات غير كاف ، وطالبوا بتخفيض الرسوم الجمركية الى ٢٪ بالنسبة الى السفن الجنوية التى ترسو عند القسطنطينية ؛ ووافق الأمبراطور على ادانة تصرفات موظفيه التعسفية ، ولكنه تمسك بثبات بمسألة الرسوم الجمركية بنسبة ٤٪ ، وأمر بأن تطبق هذه الرسوم بنسبة واحدة فى القسطنطينية وفى سائر أنحاء الامبراطورية (١) . أما بشأن باقى الطلبات فكان كريما ، اذ أضاف الى حى الجنويين القديم مجموعة من البيوت ، وضاعف حجم الرصيف القديم فالحق به رصيفا مجاورا ، ورفع رقم الهدايا المنصوص عليها لصالح الطائفة ، ورئيس أساقفة جنوا (٢) .

وتم الصلح مع البيزيين بكيفية مماثلة . ففى عام ١١٩٢ ، أوفد حاكم بيزا « تيديتشو Tedecii ابن الكونت اوجولن Ugolin الى القسطنطينية سفيرين : رينيريوجاثانى ، والقاضى سيجيريوس . وطبقا للتعليمات التى أعطيت لهما ، طالبا ، كما فعل الجنويون ، بتعويضات عن الأضرار التى أصابتهم بفعل اندرونيقوس ومن جاء بعده ، بالاضافة الى ما يعادل الهدايا المنصوص عليها فى المعاهدات والتى لم تسدد اليهم ؛ وكذا ايراد المخازن الذى حرموا منه منذ ذاك الحين ، وأخيرا رد الرسوم الاضافية التى فرضها لصالح التجار الجنويين بعض موظفى الجمارك اليونانيين ؛ وبالغا أيضا فى مطالبهما ، واستشاط اسحق غضبا حين طالب السفيران بسداد قرض تلقاه اندرونيقوس ، عدوه اللدود من تجار بيزيين فى القدس فى فترة طاف فيها البلاد مغامرا (٣) . وكان يمكن أن يستجيب لطلب بسداد قرض آخر كان أخوه وخليفته الكسيوس الثالث انجيلوس قد عقده مع بعض التجار البيزيين ليفتدى نفسه من الأسر لدى كونت طرابلس (٤) ، ولكنه رفض الاستماع الى هذا الطلب أيضا . وفى عام ١١٩٧ قدم سفراء آخرون هذا الطلب نفسه الى المقترض ذاته الذى أصبح

---

(١) تأيدت هذه الواقعة بالتعليمات المسلمة الى السفير اوتوبونو دللا كروتشى (١٢٠١) ، انظر : Sauli, Della colonia dei Genovesi in Galata, II, 198 et s.

(٢) Miklosich et Muller, Acta graeca, III, 25-37; Silvestre de Sacy, Mém. de l'Institut, III, 1818, cf. Miklosich et Muller, 111, 24 et S.; Desimoni, dans le Giornale ligustico, 1874, p. 164.

(٣) فى خصوص اقامة اندرونيقوس فى القدس انظر : Nicét. p. 180 et ss.; Cinnam p. 250; Guill. de Tyr, XX, 2.

(٤) la Lettre du levant dans le Presbyter Magnus, Pertz, ss. XVII, p. 511; Mon. hist. patr., Chartae, II, 1225.

بدوره امبراطورا ، وكان طلبهم هذا أكثر ملاءمة من الطلب الأول ، ولكنى لا أستطيع أن أؤكد أنه كان أكثر منه توفيقا (١) . ولتسوية هذه المطالب كلها بالجملة ، قدم اسحق قائمة بالأضرار التى أوقعها بعض البيزيين برعاياه فى بعض الأمور التى فصلها بالتحديد . واتفق الطرفان على اسقاط الماضى فى أغوار النسيان . وكان منح الامتيازات للبيزيين أمرا ميسورا ، ولم يضن عليهم الامبراطور فى منحهم مزايا جديدة ، اذ وعد بزيادة الهدايا السنوية لكاتدرائية بيزا ورئيس أساقفتها ، وسمح بتوسيع المستوطنة البيزية فى القسطنطينية ، بشغل منازل وأرصفة جديدة . وفيما يختص بالضرائب ، كان مرسوم الكسيوس الأول يميز بين البضائع التى يستوردها البيزيون من بلدهم أو من أى جهة أخرى غير تابعة للامبراطورية اليونانية وبين منتجات الامبراطورية . فبالنسبة الى الأولى يدفع البيزيون ضريبة تعادل ٤٪ ، وبالنسبة الى الثانية يدفعون نفس الضريبة التى يدفعها اليونانيون . وبناء على طلب السفراء الغى اسحق هذا الفرق ، وقرر أن يخضع البيزيون من ذلك الحين لضريبة واحدة قدرها ٤٪ لجميع بضائعهم ، دون تمييز من حيث مصدرها .

ويمكن القول على وجه اليقين بأن اليونانيين استاءوا من المزايا التى منحها اسحق للاتينيين . وكان أهل القسطنطينية بنوع خاص يكرهون هؤلاء الدخلاء الذين يحتكرون القسم الأكبر من الأعمال التجارية ، ويغزون خطوة بعد أخرى فى الحى البحرى أكثر المواضع ملاءمة للحركة التجارية ، وقضوا بالخراب على الصناع والتجار الوطنيين ، ودفعوهم الى داخل المدينة ، وتأسفوا على عهد اندرونيفوس ، حين كان بوسعهم أن ينقضوا على اللاتينيين وينهبوا بيوتهم دون أن ينالهم أى عقاب . ونجد الدلالة على هذه الروح فى حدث وقع قبيل تتويج اسحق فى عام ١١٨٦ : فقد برز شخص يدعى الكسيوس براناس Alexis Branas يطالب بالعرش . وفقد الأمبراطور رشده بعض الشىء ، الا أن صهره كونراد دى مونفيرا Conrad de Montferrat حشد من اللاتينيين فى القسطنطينية جيشا صغيرا ولكنه قوى والحقيقة أن هؤلاء لم يكونوا من المستوطنين ، ولكنهم بالأحرى من الجنود المرتزقة الذين يجوبون البلاد ، ومن البحارة والمغامرين الذين يوجد منهم الكثير بالمدينة (٢) . وتولى كونراد قيادتهم ، وما لبث أن أنهى أمر براناس ، الا أن اللاتينيين ، وقد أسكرهم النصر ، اقترفوا كل ضروب العنف والأذى فى ضواحى العاصمة . وحين عادوا الى قواعدهم ، كانت أعمالهم قد جرحت مشاعر اليونانيين ، وغلت

(١) Doc. sulle relaz. tox p. 72, au haut de la 2e colonne.

(٢) Eustathius, Opux. p. 200, cap. 18.

فى قلوبهم مراجل العداوة ، فاحتشد الصناع واندفعوا بقضاهم وقضيتهم الى أحياء التجار ليعتدوا عليهم • غير أن الوقت كان قد اتسع لسكان هـــذه الأحياء ليأخذوا أهبتهم ، فتحصنوا خلف المتاريس ، وانتظروا المغيرين بقـدم ثابتة ، وكان معظم هؤلاء سكارى غير مسلحين ، فقتلوا عددا منهم • وفى اليوم التالى جدد الرعاع هجومهم ، وفى هذه المرة قام جنود الامبراطور باخضاعهم ، وأعادوا الأمن الى نصابه • واذا كانت معاملة اسحق الطيبة للايطاليين قـــد أغضبت رعاياه ، فمن الثابت أن الايطاليين لم يجازوه عن ذلك الا بالجحود • ويبدو أن ما نالهم فى عهدى مانويل واندرونيقوس من ضروب الطرد المتكررة قد ترك فى نفوسهم ضغينة لا تفتر ضد اليونانيين • وكان فى وسع حكومات المدن التجارية الايطالية أن تعقد أواصر السلام مع الامبراطور ، غير أن هذا لم يكن ليمنع بعض الأفراد من الاستمرار فى مطاردة السفن اليونانية ، والاغارة على السواحل • ولم يكن من النادر رؤية تاجر ، تعب من دوام المطالبة بسداد دين يستحقه ، أو استغله أحد موظفى الجمارك دون وجه حق ، ينقلب قرصانا ، ويسعى بوسائله الخاصة الى استعادة ماخسره • ويبدو أن الجنويين والبيزيين كانوا أكبر من يعمل فى هذه المهنة (أى القرصنة) حمية وصلابة ، ويشكلون القسم الأكبر من طائفة القراصنة الذين كانت تعج بهم المياه اليونانيـة • وكانت حالة البحرية اليونانية السيئة للغاية تسمح لهم بأن يشنوا غـارات قوية • ففى صيف عام ١١٩٢ ، قام اثنان من القراصنة ، أحـــدهما جنوى والآخر بيزى بغارة أثرت فى نفس اسحق بنوع خاص(١) • وكان اسم القبطان الجنوى هو أول اسم يشد الأنظار فى الخطاب الذى كتبه الامبراطور شاكيا من هذا الاعتداء : ولهلمس جراسوس Wilhelmus Grassus ، وهذا فى الواقع هو نفس الشخصية التى نجدها فيما بعد أميرال مملكة صقلية ، وكونت مالطة ، وهما انريكو بســـكاتورى Enrico Pescatore ، اشهر كونت عرف بهذا الاسم ، وكان تبعا لكل ما نعرفه عنه ، من أصل جنوى(٢) • وبعد أن زار القرصانان رودس وسواحل آسيا الصغرى الجنوبية ، استوليا على سفينة أو أكثر من سفن البنادقة القادمة من مصر متجهة الى القسطنطينية • وكان الاسطول الفينيسى الصغير عائدا ببعض سفراء اسحق فى البلاط المصرى ، وبـــه بعثة مرسلة من قبل صلاح الدين الى اسحق ، ومكلفة بأن تقدم له هدايا ، منهـا

---

(١) Miklosich et Muller, Acta gracca III, 37 et ss., 40 et ss.; Les Doc. nulle relaz. tox p. 66 et ss.; Desimoni, dans le Giornale ligusfico. 1874, p. 165 et s.

– كتب الامبراطور اسحق ثلاثة خطابات يشكو فيها من هذه الاعتداءات •

(٢) Cf. winkelmann, Geschichte Friedrichs II. p. 362, et Forschungen Zurdeutschen Geschichte XII, 556; Huillard — Bréholles, Hist-dipl. Frid. II, Introd. p. cxliii; Desimoni, dans le Giorn., ligust. 1876, p. 222 et ss.

خيول ، وبغال ، وحيوانات برية ومستأنسة ، من مصر وليبيا . وسروج مذهبة ، ومرصعة باللآلىء والأحجار الثمينة ، وحرائر ، وخشب الألوة ؛ وبلسم ، وعنبر (١) ، وبين الركاب أيضا بعض العملاء المكلفين من قبل اسحق وأخيه الكسيوس بشراء بضائع ثمينة لهما ، وتجار يونانيون وسوريون وغيرهم . وقتل القراصنة السفراء والتجار ، ولم يتركوا حيا سوى الغربيين ، واستولوا على كل ما وقع فى أيديهم ، وعاملوا بمثل هذا سفينة لومباردية كان على متنها الأسقف باقوس Paphos الذى أسروه . ترى هل وقع القراصنة بالصدفة على السفينة التى تستقل السفراء اليونانيين والمصريين ؟ لنا أن نشك فى ذلك حين نتذكر أن بعض البنادقة (ويقول البعض أنهم جنويون) قد استولوا فى عام ١١٨٩ فى صور على أثر اسلامى ثمين (سماه أحد المؤرخين خطأ idolum Saladini ، أى تحفة لصلاح الدين) كان معدا للارسال الى القسطنطينية (٢) . أليس من المحتمل أن يكون هذان العملان قد قصد بهما بث الاضطراب فى روابط الصداقة بين اسحق وصلاح الدين ، ألد أعداء الدول الصليبية ، وكل من يساعدها ، وموضع مقت ورعب العالم المسيحى الغربى كله ؟ (٣) ومهمما كان الأمر ، فان قتل السفراء أثار سخط اسحق ، كذلك حاصره التجار اليونانيون الذين استولى القراصنة على بضائعهم ، وطالبوه بالحاح ليعوضهم عن خسائرهم . ولم يضيع الأمبراطور وقته ، بل أرسل الى جنوا وبيزا شكوى رسمية مرفقا بها طلبا بالتعويض ، وفى الوقت نفسه حجز على كمية من البضائع التى يملكها المستوطنون الجنويون والبيزيون (٤) فى القسطنطينية ، وذلك لتهدئة نفوس الضحايا الذين عيل صبرهم ، وحتى يكون تحت يديه رهن تعادل قيمته قيمة الأشياء المغتصبة : وقد استبدل بهذا الرهن العينى بعد بضعة أيام كفيل مضمون . وعندما تلقت حكومة جنوا الشكوى أوفدت الى القسطنطينية بلدوينو جويرشيو Balduino Guercio ، وجويدو سبنيولا Gdido Spinola (١١٩٣) وكلفتهما بأن يتوسلا الى الامبراطور الا يحمل شعبا بأسره مسئولية جريمة اقترفها بعض الأفراد ،

---

(١) لهذا التعداد أهميته ، أولا لأنه يعطى فكرة عن نوع البضائع التى كانت تستورد كثيرا من مصر الى اليونان ، ثم لأنه لم يذكر هدية لا بد أن يذكرها اسحق لو أنه وجدها بالسفن القادمة : أقصد بذلك الصليب « الحقيقى » المشهور الذى وقع فى أيدى صلاح الدين فى معركة حطين (١١٨٧) .

(٢) Gesta Henrici II, éd. Stubbs, II, 52.

(٣) Riczler (Forschungen X, 102); Monum. hist. patr., Chartae, II, 1226.

(٤) فقد الخطاب الأول الذى وجهه الامبراطور الى مدينة بيزا ، ولا نعلم بوجوده الا عن طريق خطاب ثان لخصت فيه الوقائع ، وينبئنا هذا الخطاب الثانى بالذات أن اسحق أراد أن يحصل على ضمان أكيد ، فصادر بضائع يملكها بيزيون .

وأن يؤكدوا له أن المجرمين حكم عليهم بالنفى ، فاذا وطئت أقـــدامهم أرض الوطن فانهم سوف يسلمون اليه • وفى أعقاب السفيرين أقبـــلت عن كثب سفينة تجارية تحمل مبالغ كافية لسداد التعويضات ، واستعادة الرهن المأخوذ من المستوطنين • واتبعت بيزا هذا السلوك نفسه • ففى بداية شهر يولية من عام ١١٩٣ قررت أن تبعث وفدا رسميا الى القسطنطينية(١) ، واضطلع البيزو Albizzo ابن البيتزونى Albizzone وانريكو بارلاشيو Enrico Parlascio بهذه المهمة ، وقدما للامبراطور كل ما يرغبه من ترضيات ، وحصلا منه على رفع الحجز الذى كان قد أمره به(٢) • وهكذا تلاشت غمامة كثيفة من التهديدات التى كان يمكن ، مع امبراطور من خلق آخر أن تنزل بالمستوطنات البيزيـة والجنوية فى القسطنطينية كوارث يصعب اصلاحها •

وفى عام ١١٩٤ ، بينما كان السفراء البيزيون فى القسطنطينية ، أقبل أسطول من خمس سفن يقودها قراصنة من مواطنيهم ، وألقت السفن مراسيها أمام أبيدوس Abydos ، وراحت تنهب أملاك اليونانيين وتوقف القوافل المتجهة الى القسطنطينية : وأرسل قناصلة بيزا ، ورؤساء المستوطنة البيزيـة فى القسطنطينية ، والسفراء أنفسهم تحذيرات الى القراصنة ، ولـــكن دون جدوى • وأخيرا أقتربت سفن حربية يونانية وحملت القراصنة على الفرار • الا أن سفن قراصنة أخرى اقبلت وحلت محل السفن الغارة ، وانقضت عـلى السفن اليونانية ، الى أن اقتربت من القسطنطينية وصارت على مرمى البصر منها ، فحرقت بعض هذه السفن اليونانية ، وباعت سفنا أخرى ، وأعملت السلب والتقتيل فى كل مكان • وأدرك الامبراطور مدى العار الذى ســوف يلحق بحكومته اذا لم يتمكن من القضاء على هذا الاخلال بالأمن ، الا أنه لم يكن يملك القوة الكفيلة بذلك ، فبعث الى بيزا بمبعوثه جاك(٣) Jacques حاملا رسالة تفصح عن يأسه • وحصل جاك من قناصلة بيزا على تعهد بمطاردة القراصنة بقوة السلاح ، وتخليص رومانيا منهم • ولكن ما قيمة هذا العلاج بالنسبة الى هذا البلاء الشديد ؟ ثم ان الطبقة البورجوازية فى بيزا رفضت المواثيق التى التزم بها قناصلتها • وتوقفت الأمور عند هذا الحد(٤) •

وفى فترات الاضطرابات العامة ، كانت المدن التجارية الايطالية ، جنوا

---

(١) Doc. sulle relaz tox. p. 61 et ss.

(٢) Ibid, p. 66 et s.

(٣) كان هذا الشخص بيزيا حسب مولده ، واعتقد انه هو نفسه جاك البيزى الذى أرسله اسحق للاقاة الجيش الصليبى بقيادة فردريك بارباروسا ، أنظر :

Ansbertus, De expeditione Friderici, éd. Tauschinsky et Pangerl, p. 46; Doc, sulle relaz. tox. p. 67, 69, 77, 78.

(٤) Doc. sulle relaz tox. p. 66 et s., 72.

وبيزا بنوع خاص ، وكذا البندقية ، بدرجة أقل تتساهل مع أعمال القرصنة(١) ان لم تكن تشجعها ـ ولم تكن القرصنة تعرقل التجارة الوطنية ، لأن القراصنة كانوا يتسامحون دائما مع مواطنيهم ، ولكنها (أى القرصنة) كانت وبالا على الأعداء والمنافسين ، حتى دون اعلان حرب ، وكان فى المستطاع دائما التنصل من أعمال هؤلاء المغامرين • وعند نشوب الحرب ، كان لدى القوم بحـــارة شجعان ومدربون ، لا يعرفون الخوف ، مستعدون لخوض غمارها ، وشوهد أكثر من زعيم قديم من زعماء القراصنة يتولى بصفته أمير حرب قيادة أسطول وطنه ، أو أسطول دولة صديقة(٢) • أما بالنسبة الى جزر البحـــر المتوسط وسواحله التى لم يكن لها أسطول قوى يحميها ، فان المصيبة كانت فادحة • وعندما عاد فيليب أوجست ملك فرنسا من فلسطين فى عام ١١٩١ زار جزر الأرخبيل ، فوجد معظمها وقد هجره سكانه ، أو احتله بعض القراصنة • وكان « الميناء البيزى » الذى صادفه عند مصب نهر فنيكا Phinéca غربى مير Myre فى ليقيا Lycie ينتسب اسمه دون شك الى وجود قراصنة جعلوا منه مأوى لهم أكثر منه الى تجار مسالمين يترددون عليه(٣) • ولاخضاع هؤلاء الذين يعكرون صفو الأمن والسلام كان لا بد من وجود بحرية قوية ، ولكن البحرية اليونانية كانت قد أصابها الانحلال باهمال الأباطرة أنفسهم • ففيما مضى كانت الأمم التجارية تخشى المخاطر التى تتعرض لها سفنها بتواجدها فى المياه اليونانية ، ومن ثم كـــانت تلتمس حمايـــة الســـفن الحربيـــة الأمبراطورية(٤) • أما فى عهد الكسيوس الثالث ، فانه هو نفسه الذى يطلب مساعدة القراصنة ضد نظائرهم ، أو يسعى للتحالف مع دولة بحرية ليحارب قراصنة دولة أخرى : وسوف نرى مثالا لذلك فى موضع لاحـــق من هـــذه الدراسة •

وبعد انقضاء بضعة أيام على اعتلاء الكسيـــوس الثالث ، أخى اسحق وخليفته العرش (١١٩٥) ، دعا مدينة بيزا الى أن تبعث اليه بسفراء يجدد معهم المعاهدات القديمة • ولم يرد حاكم بيزا على هذه الدعوة الا فى صيف عـــام ١١٩٨ : وكان سفيراه فى هذا الخصوص هما أوجوتشيونى Uguccione

---

(١) Les Annales génoises, p. 114.

ـ تحكى الحوليات الجنوية أن بيزا استدعت قراصنتها فى عام ١١٩٦ لتعزيز الحرب ضد جنوا

(٢) فى تاريخ جنوا بنوع خاص أمثلة كثيرة من هذا النوع •

(٣) Gesta Henrici II, éd. Stubbs, II, 195, 198.

(٤) Doc. sulle relaz. tox. p. 20 et ss.

ابن لامبرتو بوتو ، وبيترومودانو Pietro modano (١) وكانت التعليمات التى يحملانها تنص أولا على اعفاء مواطنيهما اعفاء تاما من الرسوم الجمركية ، أو على الأقل ، اذا لم يتمكن من ذلك فخفض هذه الرسوم الى٤٪ بالأكثر، وهذه هى فى الواقع القيمة الرسمية منذ زمن بعيد ، ولكن كثيرا ما كان بعض موظفى الجمارك يطلبون أكثر منها ، فكان من الضرورى على أية حال القضاء على هذا التعسف ٠ وكان على السفراء فضلا عن ذلك أن يطلبوا الغاء التفرقة فى جمارك القسطنطينية مستقبلا بين السفن البيزية القادمة من بيزا مباشرة أو تلك القادمة من مكان ما من الاقليم البيزنطى ، والمعافاة من الرسوم الجمركية لصالح التجار البيزيين اذا أرادوا أن ينقلوا من مكان الى آخر بضائع بقيت معهم ، وذلك فى أول سوق تصادفهم ، وأخيرا اذا أرادوا العودة الى بيزا أو الذهاب الى بلد آخر ، فلهم أن يحصلوا على اذن بمغادرة الأراضى اليونانية ومعهم بضائعهم دون اتخاذ أية اجراءات بشأنها ودون أن يدفعوا رسوما جديدة ٠ وكان على السفراء ثالثا أن يحصلوا على زيادة فى الهدايا السنوية ، وضم مجموعة من المنازل ورصيف الى الحى البيزى ، وكانت هذه المنازل والرصيف تشكل عائقا لحركة السكان ٠ وأخيرا ، كان عليهم أن يعالجوا بضع مسائل متعلقة بمنشئات تسالونيكا ، والميرو ، وسوف نعود الى ذلك فيما بعد ٠ ولسنا نعرف ما اذا كان الامبراطور قد حقق كل هذه الرغبات ، ولكن الثابت أن قراره قد نشر فى صورة مرسوم ذهبى محرر باليونانية واللاتينية : ذلك لأن فيكونت البيزيين كان عليه أن يدفع من أجل المرسوم نفسه أربعة « هيبربر » وللختم ثلاثة ، وريالا من عملة مانويل Manuellatus وبالنسبة الى المسائل الخاصة بتسالونيكا والميرو ، أصدر الأمبراطور مرسوما خاصا دفع الفيكونت أجر ترجمته ثلاثة « هيبربر » ، الى رئيس المترجمين (٢) ٠ وقد ضاعت هذه العملات ٠

ولكنا لم ننته بعد من التعليمات المسلمة الى السفراء البيزيين : فنحن نرى فى هذه التعليمات أن هؤلاء السفراء يملكون السلطات الضرورية لعقد الصلح مع البندقية ، فى حالة ما اذا أبدى سفراء الدوق ، أو قناصلته أو فيكونتات البنادقة فى القسطنطينية أو قادتهم العسكريين الرغبة فى ذلك

(١) اتخذت الاجراءات التمهيديه الأولى فى شهر بولية ١١٩٧
(Doc. sulle relaz. tox. p. 69)
وتحمل التعليمات المعطاة للسفراء تاريخ ٦ ستمبر ١١٩٧ ، ولكنها مصحوبة بملحق فى ١٨ من يولية ١١٩٨ ، وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون رحيل السفراء قبل هذا التاريخ ٠ وكان بييزو مودانو فى القسطنطينية فى ٣٠ من يونية ١١٩٩ .(Doc. p. 78) ، كذلك كان جواز السفر المسلم الى السفيرين من أجل عودتهم يحمل هذا التاريخ :
— Doc. p. 79; Miklosich et Muller, Acta graeca III 48.

(٢) les Doc. sulle relaz. tox. p. 78.

بصــورةواضحة (١) • هــذه المعلومة تثبت أن بيزا والبندقية كانتا فى وضع عدائى ، احداهما حيال الأخرى • والواقع أن هذه الحالة استمرت زمنا طويلا • ويؤكد نيكتاس (٢) أنه فى عهد الامبراطور الكسيوس حاربت الاثنتان احداهما الأخرى . أحيانا فى القسطنطينية (٣) ، وأحيانا فى البحر ، وتقاسما النجاح والفشل • وانهم الامبراطور بأنه كان يحرض سرا أحداهما ضد الأخرى الا أن التحريض لا يكفى لتبرير صراعات مسلحة بين الأمتين ، فقد كان هناك باعث آخر : فللذهاب من بيزا الى القسطنطينية كان لابد من عبور البحر الأدرياتى فى خط مستقيم ، لذلك كان سفراء بيزا فى بلاط الشرق يركبون السفن بوجه عام فى أنكونا (٤) وكان التجار يفضلون بلا شك سلوك هذا الطريق بدلا من اتخاذ طريق بحرى طويل بحذاء سواحل ايطاليا واليونان ، غير أن ما أعلنته البندقية على الملأ من سيطرتها وحدها على البحر الأدرياتى كان أمرا مزعجــا لجمهورية بيزا التى ترغب هى الأخرى فى أن يكون لها بعض المراكز علىسواحل ايطاليا ودلماشيا ، وحرصت على أن تكفل لمواطنيها أمن الملاحـــة على البحـــر الأدرياتى • هذه الحالة تفسر السبب الذى من أجله عقدت بيزا معاهدة صداقة مع راجوزه ، ويمكن فهم العلاقة المباشرة التى كانت قائمة بين هذه المعاهدة وبين المصالح التى كانت بيزا تدافع عنها فى القسطنطينية اذا تذكرنا أنهـا أبرمت أثناء مرور بعض السفراء البيزيين فى طريقهم الى عاصمة الأمبراطورية اليونانية ، وأنه كان على الفيكونتات البيزيين فى القسطنطينية أن يجددوا كل سنة التعهد بمراعاة أحكام هذه المعاهدة (٥) ، وهذا الظرف نفسه يفسر العلاقات التى كانت قائمة بين بيزا وأنكونا (٦) ، وبينها وبين زارا (٧) : وأخيرا انفجار الصراعات بين المنافستين بعد سلام استمر خمس عشرة سنة ، وأمكن المحافظة عليه بفضل معاهدة عام ١١٨٠ (٨) التى تحددت مدتها أولا بخمس سنوات ثم مدت الى عشر سنوات أخرى (٩) •

سبق أن تحدثنا عن أسطول من القراصنة البيزيين الذين استقروا فى ابيدوس (فى عام ١١٩٣ أو ١١٩٤) ، واستثارت غاراتهم على الأراضى اليونانية

---

(١) Toeche, Heinrich VI, p. 463, not 2.

(٢) Ed. Bonn. p., 713.

(٣) Doc. sulle relaz. tox. p. 78.

(٤) Doc. sulle relaz. tox. p. 62, 63.

(٥) Monum. spect. hist. Slav. merid. I, 10.

(٦) Doc. sulle relaz. tox. p. 21, 22

(٧) معاهدة التجاره لعام ١١٨٨ : Makuscev. Monum. hist Slav. merid. I, 422 et ss. :

(٨) Doc. sulle relaz. tox. p. 20 et ss.

(٩) Dandolo, p. 311.

شكاوى اسحق ، ولعل هذه الغارات لم تكن على الأرجح سوى بداية لنشوب المعارك ، ذلك لأنها تدل على أن القرصان كانوا يريدون محاربة البنادقة (١) ٠ وفى عام ١١٩٥ قام البيزيون بحملة فى البحر الأدريانى واستثاروا على ما يبدو ثورة فى مدينة بولا Pola ضد البندقية ٠ ولكن فى شهر أغسطس خرج أسطول حربى يرافق قافلة من السفن التجارية من ميناء البندقية تحت قيادة جيوفانى موروسينى ، وروجيرو بريمارينى ، وبدأ بالقضاء على ثورة بولا ، ثم انطلق يطارد البيزيين ، وهاجم أسطول من ست سفن تجارية ، فأسر اثنتين منها فى عملية ، ثم سفينة ثالثة ، وعاد الى البندقية ومعه أربعمائة أسير (٢) ٠ وفى السنة التالية طلبت الجالية الفينيسية ـ وكانت تخشى على ما يبدو أعمالا ثأرية من جانب البيزيين المتربصين فى جزر الأرخبيل ـ طلبت المعونة من أسطول راس أمام أبيدوس ٠ ولست أجد تفسيرا لسلوك قادة هذا الأسطول ، لأنهم رفضوا أمرا صدر اليهم من الدوق بالعودة ، وتحملوا مسئولية البقاء فى الدردنيل (٣) ٠ حدث هذا فى شهر مارس عام ١١٩٦ ، وفى أول سبتمبر من السنة نفسها ، تصالحت الجمهوريتان بشروط مناسبة لصالح مدينة بيزا (٤) ٠ ولكن تبين من كل من التعليمات الصادرة الى السفيرين البيزيين اوجوتشيونى بونو ، وبيترو مودانو ، والسفيرين الفينيسيين انريكو نافيجاجوسو ، واندريا دوناتو فى عام ١١٩٨ (٥) ، أن أيا من الطرفين لم يراع كثيرا الأوضاع السلمية بالنسبة الى الطرف الآخر ٠ فالواقع أن البيزيين عادوا فى عام ١١٩٩ الى شن الغارات على البندقية ، وانطلق أحد أساطيلهم يجول قبالة برنديزى ليقطع الطريق على سفنها ، غير أن أسطولا فينيسيا نجح فى فتح الطريق ، وارتد البيزيون على أعقابهم (٦) ٠

واستطال نزاع الخصمين على هذا النحو طوال عهد الكسيوس الثالث ، فلم يترك لجاليات القسطنطينية سوى لحظات قلائل من الهدوء والسكينة ٠ وانحاز الامبراطور على ما يبدو بوضوح ضد البنادقة ، فأثقل كاهلهم بالضرائب رغم المعاهدات ، وآخر مرة بعد أخرى دفع التعويضات التى وعد بدفعها ، وانتهى الأمر ، من كثرة ماسببه لهم من ازعاج الى أن جعل منهم أعداء للامبراطورية (٧) ٠ وعلى العكس من ذلك خص البيزيين برعايته ، وكثيرا

---

(١) Dandolo, p. 66.

(٢) Annal. Venet. brev. I. c. p. 72 : Chron. Justiniani, ibid. p. 91; Mart da Canale, p. 338; Dandolo, p. 317.

(٣) Taf. et Thom. I, 216 et ss.

(٤) Toeche, Heinrich VI, p. 463; Cod. Ambr. Dandolo, p. 317 et s.

(٥) Armingaud, Op. c. p.. 426 et s.

(٦) Dandolo, p. 319 et s.; Winkelmann, Acta imperue inedita, saec. XIII, p. 470 et s., no. 583.

(٧) Nicét. p. 712 et s.

مازورهم بالسفن ليقاتلوا بها القراصنة أو غيرهم من الأعداء (١) · لسنا نذكر من ذلك سوى مثال واحد : فثمة جنوى يدعى جافوربو Gaffairo (٢) · كان يقوم برحلات كثيرة الى القسطنطينية بصفته تاجرا بسيطا مسالما : وفى حوالى تام ١١٩٨ تصدى له رجل مســـتغل جشع ، هو الأميرال ميشـــيل ستريفنوس ، أوقع عليه غرامة ظلما وعدوانا ، فاضطربت فى نفسه الرغبة فى الانتقام ،وتحول الى قرصان ونجح فى وضع الامبراطور فى مأزق حرج ، وبدأ على رأس أسطول كبير يغير على موانىء وجزر الأرخبيل ، ونهب ادراميتيوم Aderamyttium ، وهزم أسطولا من ثلاثين ســـفينة تحت قيادة جيوفانى ستيريونى . وهو قرصان كالابرى (من كالابريا ، جنوبى ايطاليا) قديم ، أصبح أميرالا فى خدمة امبراطور اليونان · وبعد هذا العمل الرائع ، فجأ سفنا حربية أخرى رأسية عند سستوس وأسرها ، واستطاع منذ ذلك الحين أن يمد جولاته البحرية مسافات طويلة ، وفرض ضرائب على الجزر والثغور ·

واذ رأى الكسيوس أن الحرب المكشوفة لا تجدى معه ، لجأ الى الحيلة ، وتفاوض معه بوساطة بعض الجنوبين من ســكان القســطنطينية الذين كانوا يعرفون مواطنيهم ، وبذل له أحلى الوعود · وانخدع جافوريو ، ولم يأخذ حذره لسوء حظه ، وذات يوم أغار عليه فجأة ستيريونى Stirione على رأس سفن يونانية وبيزية ، فأسره وقتله ، أما سفنه ، فيما عدا ثلاثا أو أربعا فانها وقعت فى قبضة العدو (٣) ·

واتهم عـــدد كبير من الجنويين بالتواطؤ مع جافوريو ، وأسر الكثير منهم معه ، ومع ذلك أطلق الامبراطور سراحهم (٤) ، وواحد منهم فقط دفع ما أخذه من الثورة بتنازله عن اقطاعيته ، ويدعى بلدونيو جويرشيو ، وهو جندى قديم كان منذ سنين طويلة فى خدمة الأباطرة اليونانيين ، وكان مانويل قد منحه اقطاعيات كبيرة مكافأة له على ما أداه له من خدمات جليلة ، ولاخلاصه المشهور به · وفى عهد اسحق ، تذبذب هذا الاخلاص فى وقت ما ، ولكنه استعاد ثقة الامبراطور ، وصدق الامبراطور الكســيوس على حقه فى اقطاعيته · على أن الحركة الأخيرة أفقدته نهائيا اقطاعيته ، وحل الخراب بأسرته (٥) · ولم يكن

---

(١) Doc. sulle relaz. tox. p. 72, 77.

(٢) Nicétas; Doc. sulle relaz. tox. p. 72; Mon. hist patr. Chartae II, 1225; Lib jur. I, 411 et s.

مدينة فى تراقيا على الدردنيل قبالة ابيدوس ــ المترجم

(٣) يقول نيكتاس فقط ان هده الأحداث لاحقة على وفاه الأمبراطور (Nicét. p. 636 et s.) هنرى السادس أى فى ٢٨ من سبتمبر ١١٩٧ ، ولكنه لا يحدد التاريخ ·

(٤) Miklosich et Muller, Acta gracca III, 46 et s.

ــ يبدو مع ذلك أنه احتفظ بعدد منهم فى الأسر ·

(٥) Monum. hist partr., Chartae II, 1225; Miklosich et Muller, op. c. p. 1.

هــذا الثأر كافيا وحـــده لتسكين غضب الامبراطور ، فأنزل جام غضـــبه على مدينة جنوا ، أو بالأرجح على الجالية الجنوية بالقسطنطينية . وهناك ما يدعو الى الاعتقاد بأنه انتهز فرصة قيام ثورة جافوريو فاسترد من الجنويين قصر كالامانوس Calamanus بملحقاته من مصلاة ، وحمام ، وصهريج ، وفناء، وكان اسحق قد منحهم هــذا القصر فى عــام ١١٩٢ (١) ، وأسكن به بعض الألمــان (٢) . ولكى تستعيد مدينة جنــوا خطوتها لدى الامبراطور بعثت اليه بالطبيب نيكولاس حاملا رسالة تطلب اليه فيها أن يستقبل ســـفارة مكلفة بتجديد المعاهدات القديمة . وحين وصل هذا الطلب ، كانت السفن الجنوية قد أغارت منذ قليل على الأراضى اليونانية وأحدثت بهـــا بعض الدمار بحجة الاعتداء الذى وقع على البيزيين ، ومع ذلك أجاب الامبراطور اجابة مرضية(٣). وكلف قناصلة جنوا لعام ١٢٠١ ، اوتو بونى ديللا كروتشى أن يمضى لعقد اتفاق جديد مع الامبراطور ، وكانت طلباته (٤) تتعلق بنقطتين : أولاهما مسائل تتعلق ببعض الأفراد ، وتهتم بها حكومة جنوا ، ومضمونهـــا أن يســـترد الجنويون الذين أصابتهم خسائر مالية ما فقدوه من مال ، واطلاق سراح أولئك الذين مازالوا مسجونين فى أعقاب مسألة جافوريو ، كما كان رد الاقطاعية التى نزعت حديثا من جويريكو شرطا من شروط التسوية المطلوبة . وتتعلق النقطة

---

(١) ليس ثمة شك فى أن الأوصاف التى سوف نذكرها تتعلق بموقع واحد فحسب : — Chartae II, 1224; Sauli, II, 196.

(٢) Mon hist. part., Chartae, II, 1224; Sauli, Storia di Galata II, 196; Serra (Storia dell'antica Liguria I, 434 et ss.)

— فيما يختص بالألمان ، آخر دون صعوبة أنهم هم المرتزقة الذين استخدمهم اسحق ، وضمهم الكسيوس اليه ، وغمرهم بافضاله ورعايته . (Toeche, Heinrich VI, p. 364 et s.)

(٣) Miklosich et Muller, III, 46 et s.

— لا أجد فى أى موضع برهانا على أن الطبيب نيكولاس قد أرسله الأمبراطور فى سفارة ، كما يؤكد السادة مولر وديزيمونى : (Muller et Desimoni (Giorn. ligust. 1874) —

(٤) التعليمات التى ذكرت بها هذه الطلبات ، وصلتنا فى نسختين خطيتين : نسخة فى تورين ، فى محفوظات (أرشيف) البلاط حيث استنسخها سولى Sauli لينشرها ، أنظر (Della Colonia di Galata II, 195-199). ، ولكنه لسوء الحظ صرف النظر عما اعتبره ذا أهمية ثانوية ، أما النسخة الثانية فانها محفوظة فى « الأرشيف » السرى بجنوا ، وقد نشرت فى : Les monum, hist part, Chartae, II, 1224-1227; et dans Cibrario, Della economia politica del medio eco; 2e éd, III, 399 et ss.

وفى رأس النسختين دونت أسماء السلطات التى حررت هذا الأمر . وهى قناصل جنوا لعام ١٢٠١ ، ولكن اسماء هؤلاء القناصل فى النسخة الأولى فقط تتوافق مع تاريخ ٤ مايو ١٢٠١ ، أما النسخة الثانية فانها تحمل تاريخ ١٥ مايو ١٢٠٣ وهذا التاريخ يتعارض مع اسماء القناصل ، لأنه فى عام ١٢٠٣ لم يكن القناصل هم أنفسهم قناصل عام ١٢٠١ الذين كانوا على رأس الحكومة ، بل حتى لم يكن ثمة قناصل ، لأن الحكومة كانت فى ايدى « البودستات » جويردوتو جراسيللو Guifredotto Grasello . وفيما يختص بالمواد فانها محررة فى النسختين بعبارات متماثلة تقريبا .

الثانية بالملكيات والامتيازات ذات المصالح العام ، وموضوعها المطالبة بالمتأخر من الاعانات المالية السنوية التى لم تدفع منذ سبع سنوات ، والحصول على علاوة في المستقبل ، والمطالبة بخفض الرسوم الجمركية من ٤٪ الى ٢٪ ، أو على الأكثر ٣٪ ، وترميم قصر كالاماتوس الذى خربه الألمان الذين سكنوا فيه ، وأخيرا التنازل عن المبانى التى تسد منافذ الحى الجنوى ، وأرصفة أخرى ٠ ولسنا نعرف رد الامبراطور على كل نقاط هذا البرنامج ، لأن المرسوم الذهبى الذى عاد به السفير الى بلده لم يحفظ ، أو أنه على الأقل لم ينشر : وليس لدينا سوى الوثيقة الاصلية ، والترجمة اللاتينية لبروتوكول التسليم المرفق بها (١) ٠ ويتبين منهما أن السفير حصل على الاذن بتوسيع الحى الجنوى ٠ هذا البروتوكول مؤرخ فى النسخة اليونانية الأصلية بعام ٦٧١١ ، وفى الترجمة اللاتينية بعام ٦٧١٠ ، ويقابل هذان العامان عامى ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ من التاريخ المسيحى ٠ ولما كانت السنة فى التقويم اليونانى تبدأ قبل نظيرتها فى التقويم الغربى بأربعة شهور ، أى فى أول سبتمبر ، ولما كان اليوم المذكور فى البروتوكول هو ١٣ من أكتوبر ، فانه يتعين التسليم بأن تاريخ الأصل اليونانى يوافق ١٣ من أكتوبر عام ١٢٠٢ ، وتاريخ الترجمة اللاتينية يوافق ١٣ من أكتوبر عام ١٢٠١ (٢) ٠ هناك اذن اختلاف ، ولكن يبدو لى أنه يتعين تفضيل تاريخ النص اللاتينى بسبب أن تحديد تاريخ انعقاد المجلس فى الوثيقتين واحد : وعلى هذا يمكن التسليم بأن اوتوبونو ديللا كروتشى قد أنهى مأموريته فى ١٣ من اكتوبر ١٢٠١ ٠ الا أن السيد كانالى Canale (٣) يؤكد أن الجمهورية لم تقبل التسوية بشكلها الأول ، وأعادت السفير نفسه الى القسطنطينية مزودا بتعليمات جديدة ٠ هذه التعليمات المؤرخة ١٥ من مايو ١٢٠٣ لبست فى الكثير من النقاط سوى نسخة مطابقة من تعليمات ٤ مايو ١٢٠١ ، ويريد السيد كانالى أن يثبت بهذا الاستدلال أن التاريخ الحقيقى هو المثبت بالوثيقة الخطبة بالمحفوظات السرية بجنوا ٠ فلنعرض أنه على صواب : يتعين اذن التسليم بأن السفير عند عودته ثانى مرة الى القسطنطينية ، وجد هناك الجيش الصليبى الذى أطاح بحكومة الكسيوس الثالث فى صيف عام ١٢٠٣ ٠ غير أن صعوبات جديدة تظهر عندئذ : ذلك أن تعليمات جديدة محررة فى شهر مايو عام ١٢٠٣ لا يمكن بأية حال أن تحمل فى مقدمتها اسماء قناصل عام ١٢٠١ ٠ ينتج من ذلك أنه اذا كان تاريخ ١٥ مايو ١٢٠٣ لا يمكن الموافقة

---

(١) أنظر النص الأصلى فى ٠ Miklosich et Muller III, 49 et ss.
والترجمة اللاتينية فى : le Lib. jur. I, 496 et ss.

(٢) Desimoni (Giorn. ligust. 1874, p. 168-171).
– يتردد ديزيمونى بين سنتى ١٢٠١ و ١٢٠٢ ، ومع ذلك فهو يميل الى السنة الثانية ، وعلى أية حال فهو يرفض تاريخ ١٢٠٣ للأسباب نفسها التى ذكرتها ٠

(٣) Nuova istoria della republica di Genova, II, 365 et s

عليه ، فان البعثة الثانية المنسوبة الى اوتوبونو ديللا كردتشى تكـــون غير مقبولة ، والحقيقة أنه لم يقم الا برحلة واحدة ، ولم يتلق سوى مرة واحـدة تعليمات تاريخها الحقيقى ٤ مايو ١٢٠١ · وكانت الاجابة الامبراطورية التى عاد بها تتضمن التنازلات الأخيرة التى منحت لأمة تجارية غريبة قبل الحملة الصليبية الرابعة · وبعد مضى سنتين كانت القسطنطينية فى أيدى الصلبيين وعلى مدى نصف قرن كان الأمراء اللاتينيين هم الذين يسيطرون على البسفور ·

بقى لنا ، قبل أن ندخل فى القرن الرابـــع عشر ، ان نستعرض المدن الاقليمية اليونانية التى كان التجار الايطاليون يزورونها أو يقيمون بها قبل الحملة الصليبية الرابعة ، ثم نعود أدراجنا الى القسطنطينية ، وندرس نطاق الأحياء التجارية بها ووضعها ، ونذكر القليل الذى نعرفه عن الادارة والنظام الداخلى بهذه المستوطنات ·

لقد أشرت من قبل الى أن المزايا التى منحها الأباطرة الروم للتجـــار الايطاليين ترخص لهم بممارسة التجارة فى جميع أنحاء رومانيا حتى حدود الأمبراطورية ، الا أنه حين تذكر أسماء مدن على سبيل المثال ، فان هذه المدن تكون دائما ، فى أقدم الوثائق مدنا بحرية أو قريبة جدا من السواحل ، ولا تظهر أسماء مدن داخلية الا فى الوثائق الأكثر حداثة · ثم ان هذا كان هو المسار الطبيعى الذى تتبعه التجارة : فهى تبدأ بتثبيت أقدامهـــا فى الموانىء البحرية ، ومن هناك تنطلق متوغلة فى داخل البلاد · وفى البدايـــة كانت وسائل النقل المستخدمة دائما هى السفن وفقط فى أواخر العصر الذى ندرسه الآن ، ورد فى مرسوم لألكسيوس الثالث لأول مرة ذكـــر دواب النقـــل والعربات(١) · وأدت الرحلات التجارية داخل البلاد الى اقامة منشئات ثابتة ، ولم تكن المراكز الكبرى هى الوحيدة التى أقيمت فيها مثل هذه المنشئات ، فثمة مدن صغيرة نالت هذه الخطوة · وفى الامكان تقدير المدى الذى بلغتـه أعمال البنادقة التجارية ــ على سبيل المثال ــ فى إقليم الامبراطورية ، من فقرة واردة فى المعاهدة المبرمة فى عام ١١٨٧ بين الجمهورية والامبراطور اسحق · نرى فى هذه الفقرة أن للامبراطور أن يدعو الى حمل السلاح دفاعا عن الاقليم ضد الأعداء الخارجين ، ليس فقط البنادقة المقيمين فى القسطنطينية ، ولكن أيضا من يقيم منهم بين القسطنطينية وأبيدوس ، وفى أبيدوس نفسها ، وبين القسطنطينية وفيلادلفيا ، وفى فيلادلفيا نفسها ، وأخـــيرا بين العاصـــمة واندرينوبل (حاليا ادرنة ــ المترجم) ، وفى اندرينوبل نفسها ·

وسنبحث الآن ، بدءا من الشرق الى الغرب عن المدن التى أنشئت بهـــا

---

(١) Taf. et Thom. I, 257.

(٢) Ibid. I, 199.

جاليات تجارية فينيسية وجنوية وبيزية . ففى فيلادلفيا ، المدينـــة الكبيرة المكتظة بالسكان على الحدود مع الأتراك(١) عند سفح جبل نمولس Tmolus (حاليا بوزدا ــ المترجم) بالقرب من ساردیس Sardes القديمة ، كان يوجد بنادقة كما قلنا من قبل . والى الشمال ، فى بيجى Pega (٢) وجد فردريك بارباروسا فى عام ١١٩٠ ، والبنادقة ، والفلامنك فى عـــام ١٢٠٤ جاليات لاتينية ، وهم فى الغالب تجار ايطاليون . وفى فجر الامبراطوريـة اللاتينية ازداد عدد السكان الغربيين بتلك المدينة حتى طالبت الادارة بتعيين اسقف كاثوليكى رومانى(٣) . وعلى الهلسبونتس ، كانت أبيدوس ، موقــع المراقبة الذى كثيرا ما احتلته أساطيل الغرب ، تضم جاليات فينيسية (أنظر فيما قبل) (٤) .

وبالانتقال الى أوروبا ، نجد فى زمن مبكر للغاية بنادقـــة مقيمين على الشاطىء الشمالى لبحر مرمرة ، فى رودستوس (رودستو) Rodosto وهى ميناء شديد الأهمية لتجارة الحبوب ، وفى خارج المدينة حى افرنجى به (مستودع) fondaco (٥) ، وبالقرب كنيسة مكرســة للعـــذراء ، ومستشفى ، وحديقة ، الخ ، وكانت الكنيسة فى الأصل تابعة لدير ســانت ماريا داندرينويل ، الذى تنازل عنه رئيس رهبان يدعى هوج Hugues فى عام ١١٥٧ الى دير سان جورجيو ما جيورى دى فينيسيا : S. Giorgio Maggiore de Venise . وقبل هذا التاريخ كان فى رودستو دير للقديس جورج تابع لدير سان جورجيو ماجيورى . ولكل صفقة تعقد فى هذه المدينة ، سواء بخصوص مادة صلبة أو سائلة يتجاوز وزنها خمسين رطلا يتعين على كل تاجر فينيسى أن يستخدم موازين الدير ومكاييله مقابل دفع رسم معين ، وكان الروم أيضا يستخدمون هذه الموازين والمكاييل ، ولكن فقط بالنسبة الى الصفقات التى يعقدونها مع البنادقة(٦) . وفى تراقيا كانت اندرينوبل (حاليا أدرنة) وفيليبوبولى Philippopoli مركزين تجاريين هامين ، وقد ذكرنا قبلا أنه كان يوجد بنادقة بالمدينة الأولى فى عهد الامبراطور أسحق . ولــكن

(١) Nicét. p. 521; Georg. Acrop. p. 111, 112; R. Muntaner, trad. Lanz, II, 115.

(٢) Pegoe ، واسمها الحالى بالتركية Bigha واقعة على مرتفع يشرف جنوبا على السهل الذى يخترقه نهر جرانيك Granique قبل أن يصب فى بحر مرمرة .

(٣) Ansbert, De expeditione Frid., éd. Tauschinski et Pangeral, p. 56; Villehardouin, 1. c.; Nicét. p. 795; Innoc. 111, Epist., XII, 144, éd. Baluze, 11, 355 et s.

(٤) Procop., De aedif. IV, 9; Mich Attaliota, p. 202.

(٥) Taf. et Thom. I, 138.

(٦) Les chartes des années 1145, 1147, dans Taf. et Thom. I, 103. et s., 107 et s., 137 et ss.

اذا سلمنا ، كما رأينا منذ هنبهة أن دير سانت ماريا بهذه المدينة كان منشأة فينيسية ، يكون من الثابت أن استيطان البنادقة بها يرجع الى تاريخ سابق وكانت مدينة فيليوبولى يسكنها تجار ارمن (١) ويحلق بها خارج أبوابها حى لاتينى أنيق (٢)

وفى مقدونيا كان لتسالونيك فى كل زمان علاقات تجارية واسعة النطاق، وتقع هذه المدينة على طريق اجناسيا Via Egnatia ، الطريق الكبير الذى يمتد من دوراتزو Durazzo الى القسطنطينية ، فكان يمر بها كل يوم أطواف من المسافرين،فضلا على أنها كانت تتيح للسفن ميناء فسيحا وأمينا(٣)، لذلك كانت البضائع ترد اليها من كل الجهات ؛ وكانت تنافس القسطنطينية(٤) من حيث الترف والرفاهية · ولم تكن حركة التجارة فى أية فترة من فترات السنة أكثر نشاطا منها فى فترة سوق أكتوبر التى توافق عيد القديس ديمتريوس شفيع المدينة · وفى ذلك الحين نشأ خارج أسوار المدينة ، مثلما يحدث فى المعجزات مدينة ثانية مكونة من صفوف من الأكواخ ممتدة حتى مدى البصر · وكان تجار القسطنطينية يجلبون اليها على ظهور الخيل والبغال منتجات شواطىء البحر الأحمر (وغالبا الجلود والفراء والأسماك المملحة) ؛ وكان تجار فينيقيا ومصر وايطاليا وأسبانيا يصلون اليها مباشرة بطريق البحر ؛ وكانت الأقمشة صنع نساجى بيوتيا Brôtie الماهرين تنافس الطنافس البديعة المزركشة (أغطية المذبح) من « أعمدة هرقل » (وكان هذا الاسم يطلق دون شك على القسم الجنوبى من أسبانيا الذى يسيطر عليه العرب) · ويتكون الحشد الذى يتزاحم فى مضمار السوق من يونانيين وبلغاريين وايطاليين وأسبان وبرتغاليين وفرنسيين (٥) ، ويجد الكثير من تجار العرب من مصلحتهم أن يستقروا بصفة دائمة فى تسالونيك · وبمرور الزمن تكون على هذا النحو حى لاتينى كامل فى داخل المدينة ، ملاصق للأسوار · ويتحدث اوستاث عن هذا

---

(١) Nicét. p. 527, 534.

(٢) كان نبيذ بيليبيو بولى يصدر الى الغرب

Odo de Diogilo, éd. Chifflet, p. 27 et s.
— Willehalm, 448, 7, cité par Schultz, Hoefisches Leben, I, 301.

(٣) Ellissen, Michaeel Akominatos, p. 70; Joann. Comeniat. De excidio Thessal., éd. Bonn. p. 492; Tafel, De Thessalonica ejusque agro, p. 209 et s.

(٤) Ellissen, op. cit., Eustathe, Opux., éd. Tafel, p. 304 et s.; Tafel, Komnenen und Normannen, p. 192 et s., 197.

(٥) Dialogue de Timarion, Chap. 5 et 6 (éd. Hase, Notes et extr. IX, 2, p. 171-174 : éd. Ellissen, dans les Analecten der mittel-und neugriechischen Literatur, vol. IV, sect. 1, p. 46 et ss., 98 et ss.); cf. Tafel, De Thessalon. p. 227-230.

الحى فى مناسبة استيلاء النورمان على تسالونيك (٢٤ أغسطس ١١٨٥) (١) : فمن أعلى برج متاخم لهذا الحى ، أرسل بعض الخونة اشارات كان لها فائدة كبيرة للمحاصرين ؛ وكان الايطاليون يشكلون فى هذه المدينـــة الأغلبية ، على الأرجح ؛ ونعرف بنوع خاص أن البيزيين كان لهم ثمة مستوطنة • فالواقع نطالع فى التعليمات المحررة فى بيزا عام ١١٩٧ الى اوجتشيونى بونو ، وبييترو مودانو أن عليهم أن يطلبوا من الأمبراطور أن يعيد اليهـــم (أو ربما يعطيهم اعترافا جديدا بالملكية) المنازل والسوق التى كان من عادة البيزيين منذ زمن بعيد النزول فيها ، والتصريح باقامة فيكونت بها ، بشرط أن لايستتبع ذلك أى تكليف أو ضريبة(٢)•وقد حظى هذا الطلب بالموافقة ؛ الأمر الذى ينبئنا به مذكرة صغيرة أرفقها فيكونت القسطنطينية بحساباته لعام ١١٩٩ (٣) •

فاذا نزلنا من تسالونيك واتجهنا صـــوب الجنوب ، قابلنا فى تساليــه Tessalie ، فى خليج فولوس Volo مدينـــــة ألميرو (أرميرو) Almyro, Armiro • ويتحدث بنيامين دى توديل ، والادريسى ، وهما معاصران للأمبراطور مانويل عن هذه المدينة ، على أنهـــا موقع تجـــارى كبير الأهمية • وتكمل معلوماتهما ، بعضها بعضا : فالادريسى يذكر أن اليونانيين يحضرون اليها بضائعهم ، كما يشير بينامين الى الأمم الغربية التى تأتى ثمة لاجراء مبادلات تجارية معهم ، ويذكر بخاصة البيزيين ، والجنويين ؛ والبنادقة ، وغيرهم أيضا (٤) • واشابت أن الغربيين كانوا يصلون عادة الى ألميرو عن طريق البحر. ومع ذلك يشير الادريسى الى طريق يبدأ من أفلونا Av.ona ويعبر مباشرة شبه الجزيرة من الغرب الى الشرق حتى ينتهى الى الميرو (٥) • والراجح أن هذا الطريق كان يستخدمه التجار الايطاليون ، وأن الجغرافى العربى الذى كان مقيما بصقلية قد سمع من أفواه بعض هؤلاء المســافرين المعلومات التى يذكرها عن هذا الطريق ، وعن الكثير غيره • وفى حوزتنا وثائق تتيح لنا أن تتبع المنشئات التجارية التى أقامها الايطاليون فى ألميرو منذ منتصف القــرن الثــانى عشر : هذه الوثائق هى صكوك رهن عقارى ، وشراء ، وهبة صادرة من رعايا بنادقة اشـــتروا ثمة أراض وبنـــوها ، منهم شـــخص يدعى ســـتيفانو كابيللو

---

(١) Annal. Ceccan., dans Pertz, SS. XIX, 287; Eustathe, opux, éd. Tafel, p. 293.
ـ هذا التاريخ هو الصحيح ، تبعا لهذه المراجع •
ـ اما تيكتاس ، ص ٣٩٢ فانه يذكر تاريخ ٢٥ أغسطس ، ولكن هذا خطأ •

(٢) Opux., éd. Tafel, p. 260; Tafel, Komnenen und Normanen, p. 146.

(٣) Doc. sulle relaz. tox. p. 72

(٤) Ibid. p. 78.

(٥) Edrisi, II, 296; Benj. de Tudél., ed. Asher, p. 49.

Stefano Capello ، بدأ يرهن أمـــلاكه لصـــالح كنيســـة القـــديس مرقص التابعة للبنادقة بالقسطنطينية ، وانتهى بأن باعها لها ؛ وشخص آخر يدعى ناتالى بيتانى Natale Betani وهب أملاكه لكنيسة سان جورج الفينيسية بمدينة الميرو (١) هؤلاء الأشخاص كانوا بالتأكيد أعضاء فى جالية كبيرة ، آية ذلك وجود العديد من الكنائس الفينيسية بالمدينـــة (٢) ، وبالأخص ذلك العدد الكبير من البنادقة الذين هربوا من ألميرو فرارا من اضطهاد مانويل (٣) ٠ والى جانب المستوطنة الفينيسية ، كان هناك مستوطنة بيزية ترجع الى العصر نفسه تقريبا ٠ وفى أثناء الحرب التى شـــنها وليم الأول ملك صقليـــة على الامبراطور مانويل ، استولى أسطول صقلى على مدينة ألميرو ٠ وفى خلال الهرج والمرج نهبت كنيسة القديس جاك التابعة للبيزيين ، وبرجها ؛ والتهمتهما النيران (١١٥٨) (٤) على الرغم من مرسوم صادر من انستاسيوس الرابع Anastase IV قبل ذلك ببضع سنوات (١١٥٣) صرح فيه هذا البابا أن يشمل بحمايته هذه الكنيسة مع كل أملاكها ، وفرعها كنيسة القديس نيقولاس Nicolas (٥)، واحتفظت مدينة بيزا بحق التمتع بالأموال التى تملكها فى ألميرو طوال هذه الفترة وما بعدها : ذلك أنه بناء على طلب سفرائها صدق الأمبراطور الكسيوس الثالث على هذا الحق (٦) ٠ ويبدو أن المستوطنتين اقتديتا بوطنهما الأصلى ، كما أدى تنافســـهما الى منازعات صريحة بينهما ، يـــدل على ذلك المعاهدة المنعقدة فى عام ١١٨٠ بين بيزا والبندقية : فقد التزم الطرفان المتعاقدان بألا يحصنا الأحياء التى يملكانها فى ألميرو ، وألا يحاولا اذلال أحدهما الآخر بأن يزيد أى منهما من ارتفاع كنيسته أو أبراجه بحيث تفوق ارتفاع كنيسة أو أبراج الآخر ، وأن يجعلا ذرى بيوتهما على مستوى واحد وأخيرا أن يلجئا الى القضاء لردع ما يقدم عليه أفراد مستوطنة منهما من انتهاكات لحقوق أفراد المستوطنة الأخرى (٧) ٠ وكان فى ألميرو أيضـــا مستوطنة جنوية ، وهذه حقيقة لابد لنـــا من التسليم بهـــا لأن بنيامين دى توديل قد ثبت له هناك وجود تجـــار من هذه الأمة ؛ كما نجد فى تحقيقات السفير جريما لدى أن الجنويين اشتركوا فى الدفاع عن المدينة ضد البنادقة على ١١٧١ ــ ٧٢ (٨) ٠

---

(١) les Chartes des années 1150, 1151 et 1156, dans Taf. et Thom. I, 125-133, 136 et s.

(٢) Doc. sulle relaz. tox. p. 22.

(٣) Hist. duc. Venet. p. 79.

(٤) Annal. Pis. Marang., dans Pertz, SS. XIX, 243 et s.

(٥) Doc. sulle relaz. tox. p. 5.

(٦) Ibid. p. 71, 78.

(٧) Ibid. p. 20, 22.

(٨) Sauli, II au bas de la page 185

ولسنا نجد فى غضون الفترة التى ندرسها سوى القليل جدا من الدلالات على رحلات قام بها تجار ايطاليون فى وسط اليونان والمورة • ومع ذلك كان يصنع فى طيبة حرائر مشهورة كان البنادقة يأتون للحصول عليها ، وكان الجنويون أيضا يزورونها للغرض نفسه (١) • نذكر أيضا كورنتوس Corinthe ويشيد نيكتاس بثرائها ، ويقول ان الايطاليين يأتون ثمة ويلقون مراسيهم فى أحد موانيها ، بينما يرسو الأسيويون فى الميناء الآخر (على الجانب الآخر من البرزخ) وان المبادلات التجارية تجرى فى المدينة (٢) •

ولابد أن نذكر فى المرتبة الأولى من جزر اليونان جزيرة يوبويا Eubée ، وكانت عاصمتها نيجربونت تجذب اليها جموعا كبيرة من التجار (٣) ؛ ثم جزيرة أندروس بمصنع حرائرها ، وكانت مزدهرة منذ مستهل القرن الثانى عشر (٤) ؛ وخيوس Chio ومزارعها التى تنتج المستكة (شجر يستخرج منه صمغ يمضغ) ، وأخيرا ليمنوس Lemnos حيث حصل رئيس كنيسة القديس مرقص (سان مارك) الفينيسية فى القسطنطينية فى عام ١١٣٦ من رئيس الاساقفة هبة تتمثل فى مصلى بشرط أن يقيم مكانها أو بجوارها كنيسة أكبر حجما تحت حماية القديس جورج (٥) : هذه المعلومة تثبت وجود حركة تجارية مستديمة بين البندقية والجزيرة • ولاحاجة بنا الى القول بأن المحطتين الكبيرتين لطريق الشرق الأدنى : جزيرة كريت ، وجزيرة رودس تستقبلان كثيرا فى موانئهما سفنا من كل دول الغرب البحرية (٦) •

غير أنه مهما كان الرخاء الذى تتمتع به كل هذه المحاط القائمة على طول سواحل الامبراطورية اليونانية وجزرها ، فانه لايعد شيئا بازاء ما تتمتع به العاصمة ، القسطنطينية ، بموقعها الممتاز ، فقد كانت مهيأة لأن تغدو مركزا من المراكز التجارية الرئيسية فى العالم ؛ لذلك كان لها جانبية خاصة للايطاليين : فكان هدفهم الدائم أن يمتلكوا بها أحياء تكون بقدر المستطاع واقعة لا فى أرباض المدينة أو ضواحيها ، ولكن فى المدينة ذاتها • ولقد رأينا من قبل بصورة عامة أنهم أصابوا غايتهم • وآن الأوان لنقول بنوع خاص ان هذه

---

(١) يتبين هذا من تعليمات كتبت لسفير جنوى ، لم يعرف اسمه ، بعث الى بلاط القسطنطينية بعد عام ١١٧٠ •

— Desimoni, dans le Giorn. ligust. 1874, p. 156.

(٢) Nicét. p. 100.

(٣) Benj. de Tudél. éd. Asher, p. 47.

(٤) Soewulfi (1102-1103) itinirarium, dans le Recueil de voy. et de mém., publ. par la Soc. de Géogr. VI, 834; Archiv. fuer oesterreich. Geschichtsquellen, XIV, p. 80.

(٥) Taf. et Thom. I, 98 et ss.

(٦) نجد مثالا لذلك فى خصوص كريت فى

— Les Mon. hist. patr. Chartae, II, 1226.

الأحياء كانت أحياء تجارية · ونجد فى « المراســـيم الذهبية » للأباطرة الروم البيزنطيين ، ومواثيق التمليك المرافقة لها وصفا مضبوطا للرقعة الممنوحة لكل أمة ، والرسم الرقيق لمحيطها ، وتعيين المبانى العامة القائمة فى دائرتها أو على حدودها · ونتج عن الحرائق ، والثورات الشعبية ، والغزوات ، وبخاصـــــة الأخيرة منها ؛ غزوة الترك ؛ نتج عنها تغيرات كبيرة فى المدينة ، حتى أصبح من المستحيل تقريبا ، باستثناء حالات نادرة ، حتى بالنسبة الى أكثر الأشـخاص معرفة بالأماكن تحديد مواقع المبانى المذكورة فى هذه الوثائق ، وليس فى هذا ما يبعث على الدهش · ومع ذلك تسنى حديثا لطبيب يونانى مقيم بالقسطنطينية، وهو السيد الكسندر باسباتى Alexandre Paspati أن يحرز تقدما كبيرا فى دراسة الأحياء التجارية (١) · غير أنه من الضرورى أن نقــدم بعض المعلومات الأولية قبل أن نقتفى أثره فى الأحياء التى كان يشغلها التجار الأجانب · ففى القسطنطينية البيزنطية ، وبالأخص فى أقسامها الأكثر ازدحاما بالســـكان ، كان بها عدد كبير من الشوارع التى تكتنفها « بواكى » يحتمى فيها المارة من المطر ، وقيظ الشمس · كان هذا النظام يتيح للتجار مزايا خاصة ، فتيسر لهم اقامة حوانيتهم ؛ ومن ثم كانت الامتيازات الممنوحة من الأباطرة الى الأمم التجارية تتضمن عادة شارعا أو اثنين من هذا النوع ، بحيث أن مساكن التجار كانت اما متاخمة لهذه الشوارع ، أو متجمعة حولها ، ومن ثم فان الحى بأكمله ، حتى ولو شمل مجموعة كبيرة من البيوت كان يطلق عليه اسم هذا النوع من الشوارع ذات البواكى (باللاتينية embolum) (٢) ·

وكثيرا ما نجد فى صكوك التمليك ذكرا لبعض أجزاء سور المدينة أو بعض الأبواب ، وفى هذا اشارة الى موقع الأحياء الممنوحة للايطاليين · وكان الأغلبية العظمى من المنازل فى داخل المدينة ، ولكن البعض منهــا كان خارجهــا ، على الشريط الواسع بنوع ما ، الذى يفصل المدينة عن البحر ؛ وتنتهى الأحياء كلها دون استثناء الى « القرن الذهبى » ، أى مرفأ القسطنطينية · ولايبدو أن هذه الأحياء قد توغلت كثيرا فى داخل المدينة ·

ومن العناصر الرئيسية لهذه المنشئات الأسكلة ، وكان هناك اسكلات كثيرة

---

(١) كان تحت ناظرى ، وقت اتمام هذا الكتاب ، الدراسات الأربع الكاملة التى جمعها هذا المؤلف ·

(٢) Ducange, Constantinopolis christiana, lib. I, p. 109 et ss.

— جمع دوكانج عددا كبيرا من الاستشهادات التى ذكر فيها هذه الشوارع ذات « البواكى » فى القسطنطينية · أنظر أيضا :

— Mich. Attal. p. 211, 275 et s.; Codin, De orig. Cpol. p. 22 : cf. Stephanus s.h.v.; Reisha, Comment de Constant. Porphyr., De Cerim. II, 130; Goar, Comment. de Cedren. p. 783; Unger, Griech. Kunst, dans Ersch et Gruber. sect. 1, vol. LXXXIV, p. 332.

مخصصة لكل أمة ، وهى من توابع الحى ، وتكفل الاتصال بين الحى وبين السفن التى تلقى مراسيها فى أقرب نقطة .

ونحاول الآن أن نحدد موقع كل من هذه الأحياء ، بادئين بحى البنادقة ، فهو أقدم الأحياء كلها . كان هذا الحى فى قلب الحيـاة التجـارية ، فى مكان يسمى بيراما Perama (١) : ويرجع اسم هذا الجزء من المدينة الى أنه كان موضـع الرسو لضاحيـة غلطة Galata (بيرا Pera) الواقعـة على الضـفة المقابلة للخليج (٢) . وكان بـاب بيراما (٣) واسـمه الحـالى Balik-Bazar-Kapoussi (اى باب سوق السمك ــ بالتركية ــ المترجم) من النقط القائمة على حدود حى البنادقة ، وفى الناحية المقابلة يمتد الحى الى المكان المسـمى Hebraîca أو Judeca (٤) ، ولم تكن هذه الكلمة تعنى فى هذه الحالة « حى اليهود » ؛ وينبغى الا ننسى أن اليهود كانوا قد طردوا من المدينة فى عهد ثيودوسيوس الثانى Theodose II (٤٠٨ ــ ٤٥٠) (٥) ، وأنهم كانوا طوال الفترة التى ندرسها يقطنون القسم من ضاحية غلطة المجاور للبسفور ، وهذا القسم ، مثل سائر الأراضى الواقعة على ضفتى البسفور معروف عامة باسم « المضيق » (٦) ، وعلى ذلك فليس من النادر أن نجد فى المصادر التاريخية هذه الكلمة ؛ ويقصد بها حى اليهود . وفى عام ١٠٧٧ أى قبل أن يمنح الامبراطور الكسيوس الأول البنادقة اقليم «ab Hebraica ad viglam» ببضع سنين شب حريق هائل أحال منازل اليهود الى رماد (٧) . وحتى عهـد مانويل كان رئيس (stratège) حى اليهود هو القاضى الوحيد الذى يمكنهم أن يلجأوا اليه (٨) . وحين زار بنيامين دى توديل القسطنطينية وجد اخوانه فى الدين فى « بيزا » ، ولم يكن هؤلاء يذهبون الى القسطنطينية الا من أجـل شئـونهم فى « بيرا » ، ولم يكن هؤلاء يذهبون الى القسطنطينية الا من أجـل شـئونهم التجارية ، فيصلون اليها فى مراكب (٩) ، وكان لهم أيضا جبانتهم فى بيرا ،

---

(١) Taf. et Thom. I, 50, 52; Paspati, VI, 163.

(٢) Paspati, 1. c.; cf. Nicét. p. 384.

(٣) «Porta Peramoe» ; Taf. et Thom. I, 56.

(٤) Ibid. I, 50, 52, 56.

(٥) Codinus, De aedif. Cpol. p. 83.

(٦) نجد من ذلك أمثلة كثيرة فى :

— Tafel, Symbolae criticae ad geogr. btz. spect., Pars posterior (Abh. der 3e Cl. der Muenchen. Akad., vol. 5, sect. 3) p. 96-98.
Cf. Krug, Chronologie der Byzant. p. 190 et ss.; Wilken, Ueber die Verhaelt-nisse der Russen zum byzant. Reiche dans les Abhandl. der Berlin. Akad., 1928, p. 85 et s., 102.

(٧) Mich Attal. p. 252.

(٨) Zacharioe, Jus graeco-romanum, III, 504.

(٩) Benj. de Tudél, éd. Asher, I. 55 et s.

كما يقول ينكتاس (١) . نضيف أخيرا ، حتى ننتهى من موضوع حى اليهود ، أنه فى عام ١٢٠٣ وجد الصليبيون الميناء مسدودا بسلسلة ، فاتجهوا الى ستينون Stenon (l'Estanor) حيث استقروا (٢) .

من الثابت أنه لايجوز ترجمة كلمة Hebraica التى توجد في الميثاق الذى منحه الكسيوس الى البنادقة ، ولا كلمة Judeca التى تشير الى الموقع نفسه ،والتى نقرؤها فىوثيقة فينيسية أخرى متأخرة عنالأولى بثمانى سنوات فقط ، بعبارة « حى اليهود » . ولايزودنا النص اليونانى الأصلى بالتفسير الصحيح للكلمة ، فلا يبقى لنا سوى أن نطلب هذا التفسير من كاتبة جديرة بالثقة ، على علم تام بتصرفات الكسيوس وبنواحى القسطنطينية ، تلك هى آن كومنينوس : اذ تقول ان الأرض التى منحها الأمبراطور البنادقة تمتد من رصيف اليهود القديم حتى مركز الحراسة الذى سوف نعود الى الحديث عنه بعد قليل . والآن ، فى أى موضوع اعتاد اليهود ، أو بالأحرى كانوا مضطرين أن ينزلوا به من مراكبهم عند قدومهم من « غلطة » ؟ هذه المعلومة غير مذكورة للأسف فى أى مرجع ؛ ومع ذلك ففى وثيقتين ن القرن الثالث عشر اشارة الى Porta ebraica (باب اليهود) باعتباره جزء من حى البنادقة (٣) . فضلا عن ذلك ، يتبين من أحدث الوثيقتين أن باب اليهود هذا يؤدى الى قصر « الدانجاريوس » Drungarios أو كما يقال حاليا « الاميرالية » (مركز القيادة البحرية) .(٤) ومن الراجح كثيرا أن هذا الباب هو الذى كان يحمل فى نهاية ذلك القرن اسم Porta Drungarii (٥) . ومع ذلك فاننا لم نتقدم كثيرا بهذه المعلومات . ولنر اذن ما اذا كان بوسعنا أن نقترب من هدفنا عن طريق آخر . فبعد مرور قرن ونصف من الزمان ، يظهر مرة أخرى اسم porta judoea الذى يطلق على أول باب يصادفه المرء حين يبدأ من الموضع الذى يقع حاليا عند طرف « السراى » (قصر السلطان) فيسير مجاذيا سور المدينة من ناحية الميناء متجها صوب الغرب . وهذا أيضا هو الاسم المثبت على خريطة القسطنطينية التى رسمها « بوندلمونتى » Buondelmonti (١٤٢٢) (٦) . وفى العهد التركى ، سمع لونكلافيوس Leunclavius (٧) أيضا عامة الشعب يطلقون على أول باب بعد « السراى » اسم hebroea ؛ وهذا هو نفس الباب الذى كان يطلق

---

(١) Nicét, p. 382.

(٢) Villehardouin, éd. de Wailly, p. 88.

(٣) Taf. et Thom. II, 5, 271.

(٤) « Porta qua exitur ad Drungarium, quae dicitur Ebrayki».

(٥) Taf. et Thom. III, 139; Miklosich et Muller, 111, 88.

(٦) توجد هذه الخريطة فى مقدمة : Cpol. christ de Ducange.

(٧) Pandect. hist. turc. 1596, p. 206.

عليه في أواخر العهد البيزنطى الاسم القديم Porta Neorue (١) محرفا بعض الشيء فاذا سلمنا بأن هذا الباب اليهودى فى أواخر العصر البيزنطى وفى العصر التركى هو نفس « بـاب اليهـــود » Porta hebraica فى العصر اللاتينى ، و scala hebraica (مرسى اليهـــود) الذى ذكـرته آن كومنينوس ، فانا نستنتج أن الحى الفينيسى كان يمتد من Porta Permatis وهو حاليا Balık-Bazar-Kapoussi) و porta piscarie الذى ذكره بوندلمونتى) حتى باب Porta Neorue القديم ، أى الباب المسمى حاليا Baghtche-Kapoussi (بالتركيـــة : باب الحـــديقة · غـير أن هـــذا الاستنتاج يبـــدو لأول وهلة غير مقبول ، لأن هذا البـــاب المسمى porta Veorue كان موجـوا كما سنرى فى منطقة البيزيين ، وأن الرقعة الموجودة ناحية الغرب ، أى من جانب باب سوق السمك كان يشغلها الأمالفيون · ويبدو أن الباب الذى أطلق عليه البيزنطيون الأخيرون والأتراك اسم « باب اليهود » لم يكن له أية علاقة بالباب الذى أسماه البيزنطيون القدامى واللاتينيون الاسم نفسه · ولابد أن الباب الذى كان معروفا حتى عام ١٢٢٩ باسم باب اليهود ، ثم من هذا التاريخ باســم porta Drungarue (٢) كان واقعـا الى الغرب من la porta Permatis ، وكان موجودا على الأرجح فى موقع الباب المسمى حاليا Zindan-Kapoussi (باب الســـجن ، وفيما مضى باب سوق الأعشـــاب) · هذا أيضا هو رأى باسبانى Paspati ، فهو يجعل حى البنادقة فى المنطقة المحصورة بين باب سوق السمك وباب السجن ، ويسلم بتماثل هذا الأخير مع باب « الأمرالية » Porta Orungaru

نجد أيضا بين أسماء الصروح الواقعة على حدود حمى البنادقة ، نصب La Bigla (مركز الحراســـة) ، والمزار المتاخم Sacrum (٣) ، وليس لدينا أى دليل يسمح بتحديد الموقع · وقد أراد البعض (٤) أن يبحث عن مكان هذين الصرحين فى موقع « باب السجن » ، غير أنه يستحيل التوقف عند هذا البحث ، لأن الأمر يتعلق بجدول ماء أو قناة آتية من « مركز الحراسة »؛ وعلى ذلك يتعين التسليم بأنه « أى مركز الحراسة » كان موجودا داخل المدينة ·

نستنتج من كل ذلك أن البنادقة كان لهم حيهم قبالة الباب المسمى حاليا « باب سوق السمك » ، والذى كان يستخدم فى كل الأزمان كطريق للمواصلات

---

(١) Gyllius, De bosporo Thracio, dans Muller Geographie groeci minores, II, p. 22; Leunclav. 1. c.

(٢) Scala hebraica Taf. et Thom., II, 11 60; la Scala Drongario

(٣) Taf. et Thom. I, 50, 52, 56, 111 et s.

(٤) Paspati, VI, 162, not. 4, 164, not 4.

بين القسطنطينية وبين ضاحية غلطة (١) ؛ والراجح أنه كان يمتد من هناك حتى « باب السجن » ، وأن الأرصفة الثلاثة المخصصة لهم كانت موجودة أيضا فى هذا القطاع (٢) · بقى أن نعرف أبعاد الحى فى داخله ·

ولننتقل الى البيزيين : ان ما كان لباب porta permatis عند البنادقة كان لباب porta Neorii (باب دار الصناعة ، أو الترسانة Arsenal) بالنسبة الى البيزيين · هذى هى النقطة الثانية التى يمكننا أن نبدأ منها لكى نحدد على وجه التقريب موقع حيهم · هـذا البـاب يقابل البـاب الذى يحمل حاليا اسم Baghteché-Kapoussi ، أى باب الحديقة (٣) ؛ وتبعا للوثيقة الصادرة من الامبراطور انجليوس عام ١١٩٢ ، وهى الوحيدة التى تعطينا بعض التفاصيل عن حى البيزيين ، كانت أرصفتهم (٤) موجودة ؛ معظمها أو كلهـا غربى هذا الباب (٥) · وعلى هذا كان حيهم يمتد من « باب الحديقة » الى « باب سوق السمك » حيث يبدأ حى البنادقة ؛ غير أنه لم يصل الى هذا الحد ، اذ كان هناك بين الحيين مستودع صغير ورصيف تابعان للأمالفيين ، وأسكلة أخرى خاصة بدير القديس انطوان اليونانى (٦) ·

بقى علينا أن نتحدث عن ممتلكات الجنويين فى القسطنطينية (٧) · وتبعا للعرض التاريخى الذى قدمناه عن الأحداث الخاصة بهم نعرف أنهم غيروا مرارا حيهم · وقد استهل ديمتريوس واكريمبوليتس المفاوضات فى هذا الشأن فى عام ١١٥٥ بتكليف عن الامبراطور اسحق ، والراجح أن أميكو دى مورتا الموفد من قبل جمهورية جنوا بعد هذا بسنتين كان هو الذى استلم الأرض المعينة · ولم يكد المستوطنون الجنويون يستقرون فى حيهم حتى وقعت بهم من جانب البيزيين الغارة الرهيبة التى نعرفها من قبل · وحين مرت العاصفة طالبوا بتعويضات عما وقع بهم من أضرار ، ونجد فى الوثائق المكتوبة فى هذه المناسبة ، لأول

---

(١) Gyllius, I. c. Leunclavius, 1. c. ; Paspati, VI, 163, 165 et s.; Hammer Constantinopel und der Bosporus, I, 102.

(٢) Taf. et Thom. I, 52; ibid. I, 57, 112, 183; II, 11 60.

(٣) Paspati, VI, 156; 153.

(٤) لم يكن للبيزيين حتى عام ١١٩٢ سوى رصيف واحد ، ولم يذكر كل من الكسيوس ومانويل فى براءاتهما سوى رصيف واحد (doc. sulle relaz. tox. p. 45 et s., 53 et s.) وفى عام ١١٦٢ لم يكن لدى السفيرين يوتاتشو وجريفى الا رصيف واحد (ibid, p. 10)

(٥) Ibid. p. 48 et s., 57 et s.

(٦) أنظر شرح براءة اسحق فى : Paspati,VI, 155 et s., VI, 153 et s.

(٧) بخلاف كتاب باميانى فى هذه المسألة ، يحسن البدء بقراءة :
Le Memoria sui quartieri dei Genovesi a Constantinopoli nel secolo XII dans le Giorn. ligust. 1874, p. 137-180, par C. Desimoni.

مرة اسم أول حى شغلوه • كان اسم هذا الحى Embolum de Sancta Cruce (١) ، وموقعه غير معروف بالمرة ، ثم انهم هجروا هذا الحى بعد غارة البيزيين • ومن ناحية أخرى ، كان الامبراطور مانويل مستاء كل الاستياء لأن يرى تنافس الأمم التجارية ينقلب الى معارك تنشب حتى فى شوارع عاصمته ، وكان نفوذاللاتينيين القوى فى القسطنطينية يثير قلقه ، ومن تم منحهم فى اكتوبر ١١٦٩ بدلا من حيهم الأصلى حيا آخر خارج المدينة ، فى منطقة تسمى اوركو Orcu (٢) • وعلى الرغم من عبارات النص الواضحة كل الوضوح ultra Constantinopolim اى خارج القسطنطينية) ، فان السيد باسباتى يصر على أن هذه المنطقة موجودة داخل المدينة ، ولا يكتفى بهذا ، بل يبيح لنفسه أيضا أن يغير فى لفظ النص حتى يتسنى له أن يحدد الموقع الذى يبحث عنه : ففى رأيه أنه يجب أن نقرأ orea بدلا من Orcu ، وهذا اسم أطلقه البيزنطيون فى عهدهم الأخير على ال porta Neorii (٣) (بوابة الحديقة) • ومع ذلك فحسبنا أن نفحص الوثائق المذكورة قليلا لكى نهدم هذه الفروض • فأوركو Orcu كانت ولم تزل منطقة واقعة خارج القسطنطينية (٤) ، يفصلها البحر عن المدينة (٥) ، ونجدها على الأرجح فى بيرا Péra ومن المشكوك فيه أن يكون الجنويون قد قبلوا الحى الذى منحوه ، لأنهم لم يرتاحوا اليه بالمرة : وكان المرسوم الذى منحهم هذا الحى قد صدر فى شهر أكتوبر ١١٦٩ ، وفى السنة التالية صدر مرسومان آخران فى شهرى أبريل ومايو ، نعلم منهما أن الامبراطور استجاب أخيرا لرغباتهم ، فعين لهم حيا آخر داخل أسوار المدينة intra-muros ، استقروا فيه نهائيا ، وكان اسم هذا الحى الجديد تبعا للمنطقة القائم بها embolum de Coparia (٦) هـــذا الاسم Coparia أو Coparion كوباريا ، أو كوباريون) (٧) مقتبس من كلمة يونانية ، معناها : مجداف • والواقع كان يوجد فى هذا الحى من قديم الزمان ورش المجاديف ، واستمر الجنويون يمارسون هذه الصناعة (٨) • ولا تزودنا

---

(١) Sauli, II, 184; Desimoni, 1. c. p. 159.
— يبدو لى أنه من غير المحتمل أن يكون هذا الحى ، وحى كوباريا Coparia قسمين من حى واحد كما يقول باسياتى ، ولم يشغل الجنويون أبدا هذين الحيين فى وقت واحد •

(٢) Sauli, II, 192, Lib jur. I, 254.

(٣) Paspati, VI, 147; p. 138 et s.

(٤) الى جانب كلمة ultra (Sauli, II, 192) التى حولها باساتى الى inter توجد عبارة — Lib. jur. I, 254; Desimoni, p. 180.

(٥) Desimoni, p. 180.

(٦) Sauli, II, 185; Desimoni, p. 178.

(٧) Desim. 1. c.; Mikl. et Mull. Acta graeca, III, p. vi.

(٨) Mikl. et Mull. 1. c. p. 51, 52; Lib. jur. I, 497 et s.; Sauli, II, 196:

والمصادر اليونانية بأية بيانات عن موقع هذا الحى (١) ، كما أنها لا تعرفنا أين توجد بوابة تسمى porta veteris rectoris أو أيضا porta bonu (٢) التى ورد ذكرها فى الوثائق الرسمية المذكورة آنفا . أما الجهات الأخرى المذكورة أسماؤها فى هذه الوثائق فانها لا تفيدنا باعتبارها نقطا للاستدلال ، أما لأنها غير معروفة ، واما لأنه لا يمكن تحديد مواقعها (٣) . ومع ذلك ففى الامكان أن آن نعين بوجة عام موقع الحى الجنوى فنحن نعرف أن ارصفتهم لم يكن يفصلها عن أرصفة البيزيين سوى رصيفين لليونانيين (٤) ، ثم أن حيهم كان متاخما لحى البيزيين ، ونحن نعـلم نقطـة الاتصـال بين الحيين ، تلك هى دير أبولوجوتيتون Apologotheton المذكور فى وثائق الأمتين الرسمية . وموقع هذا الحى المبين بصورة غامضة (٥) فى وثيقة الجنويين بين بصورة أكثر وضوحا فى وثيقة البيزيين اذ كان مجاورا لكل من بوابة ينورى Porta Neorii شرقى هذه البداية ، وعلى الحد الأقصى من الحى البيزى من ناحية الشرق (٦) . يدل هذا على أن الحى الجنوبى كان ممتدا من مجاورات بوابة ينورى (بوابة الحديقة) شرقا حتى حوالى Iali-Kiosk (كشـك يالى) (٧) كذلك يتعين البحث عن أرصفة الجنويين على طول هذا الجزء من الشاطىء . ولم يكن لهم فى البدايه سوى رصيف واحد ، ولكن اسحق منحهم رصيفا ثانيا ، كما منحهم ألكسيوس الثالث رصيفا ثالثا (٨) . وأخيرا فان الحى لم يكن ممتدا بالطول فحسب ، ولكنه كان متوغلا فى الداخل ، من ناحية كنيسة القديسة صوفيا ، وفى الأجزاء العليا من المدينة (٩) .

ونحن اذا تمثلنا فى مخيلتنا مجموعة الأحياء التجارية فى القسنطينيـــة حسب الخلاصة التى قدمناها آنفا ، فاننا حقيقون بأن نسلم بصحة الوصف الذى قدمه « اوستات » اذ يقول ان اللاتينيون يعيشون على حدة ، على طول شاطىء « قرن بيزنطة » فى الجزء الذى ينظر شرقا أى الجزء المكشوف شرقى

---

(١) فى Novelle 159 لجستنيان ، تنويه بمنطقة « كوباريا » ، ولكن هذه المنطقة واقعة خارج المدينة .

(٢) Mikl. et Muller, 1. c. p. 53; Lib. jur. I, 499; Desimoni, p. 179 (cf. p. 145); Desimoni, p. 145 et s.

(٣) Desimoni, p. 171-176.

(٤) Mikl. et Muller, 1. c. p. viii; Mon hist. patr. Chartae, II, 1225.

(٥) Desimoni p. 178 ; Mikl. et Muller, 1. c. p. vi et ss. 29, 31, 51, 53. Lib. jur 1, 499.

(٦) Mikl. et Muller, III, 19, 21.

Desimoni, p. 179; Mikl. et Muller, 1. c. p. vi, ix e ts., 28, 31, 50, 53 et s.

(٨) «Versus S. Sophiam»; Mon. hist patr. Chartae, II, 1225; Sauli 11, 125.

(٩) Paspati. VI, 157, 162; 156, 163.

الخليج ، والذى احتفظ الى يومنا هذا باسم « القرن الذهبى » (١) • وعلى هذا احتل اللاتينيون أكثر النقط ملاءمة للتجارة والملاحة ، الشىء الذى ملأ نفوس اليونانيين سخطا اذ وجدوا أنهم دفعوا أكثر فأكثر الى داخل المدينة • ومع ذلك لم تكن أحياء اللاتينيين متلاصقة بحيث لا تترك بينها مسافات بقى اليونانيون مسيطرين عليها • كان هنا وهناك بين أمسطلات الايطاليين ، أمسكلات أخرى لليونانيين ، كما كان هناك على محيط الأراضى الممنوحة للايطاليين عدد كبير من البيوت المحصورة بين هذه الأراضى والتابعة لكنائس أو أديرة يونانية • وكان هناك أيضا عدد من اليونانيين يقطنون كمستأجرين داخل الأحياء الايطالية • ومع ذلك فالثابت أن كل القسم الممتد على طول الشاطىء من « بوابة السجن » الى طرف « السراى » تابعا على وجه التقريب للغربيين ، وكان غالبية السكان من الغربيين وكانت كل أمة تؤجر المنازل والحوانيت والورش وأسكلات السفن (٢) . والأراضى التى يشملها امتيازها ، الا أن المستأجرين كانوا جميعا على وجه التقريب تجارا أو حرفيين من الأمة نفسها (٣) •

ولعل من المفيد جدا دراسة تنظيم وادارة المستوطنات التجارية الغربية فى الامبراطورية اليونانية ، ولسوء الحظ لا نملك الا القليل النادر من المعلومات بشأن بدايات تنظيم هذه المستعمرات وادارتها ، ولا تتعرض تحقيقات السفراء والمعاهدات التى فى حوزتنا نصوصها لهذه التفاصيل الا فى القليل النادر • ومن جهة أخرى لم تدون اللوائح الادارية الخاصة بالمستعمرات الا فيما بعد • ونهاية القول أنه لم يصل الى أيدينا سوى عدد محدود جدا من الوثائق الصادرة من المستوطنات نفسها • وأول سؤال يعن لنا هو أن نعرف ما اذا كان هناك فى كل عصر ، على رأس هذه المستوطنات رؤساء مفوضون من قبل الوطن الأم ، ولهم سلطة الحكم والادارة باسمه • والمعروف كثرة ايفاد السفراء Legats الى بلاط القسطنطينية ، وكانت المفاوضات المكلف هؤلاء باجرائها تستغرق زمنا طويلا ، وتقتضيهم أن يمكثوا فى العاصمة كثيرا ، والمطلوب معرفة ما اذا كان هؤلاء السفراء مكلفين بضمان تنفيذ الاجراءات التى يقررها الوطن الأم بشأن المستوطنات ، وتسوية المسائل القانونية التى يمكن أن تكون محتجزة فى الفترة بين وفد وآخر ، أو أنها انبثقت أثناء وجودهم هناك • وفى هذه الحالة لم يكن الوطن الأصلى ممثلا فى المستوطنة الا بصورة غير نظامية ، ولم يكن يمارس بها سلطة حقيقية • والمسألة تستحق أن تدرس ، فالثابت أن السفراء كان عليهم ، الى جانب وظائفهم الدبلوماسية أن يؤدوا مهاما ادارية

---

(١) Opux. éd. Tafel, p. 275 ; Tafel, Komnenen und Normannen, p. 97 et s.

(٢) Lib. jur. I, 449; Mikl. et Muller, 1. c. p. x.

(٣) Taf. et Thom. II. 8-11; Doc. sulle relaz. tox. p. 74 et ss.

وقضائية فى الأحياء التى يشغلها مواطنوهم • وهاكم مثالا لذلك : كان قناصل بيزا قد قرروا تحويل كل أموال الكنيسة الموجودة فى القسطنطينية وكل الايرادات الآتية من تأجير الحى البيزى الى كاندرائية بيزا : ففى عام ١١٦١ قام سفيرا بيزا فى بلاط مانويل ، كوكو جريفى ، ورواينيرى بوتاتشى بتنفيذ هذا الاجراء ، ومعاقبة كل اعتداء على حقوق الكاتدرائية ، ووضعا فوق ذلك لوائح تتعلق باستعمال الأرصفة والموازين والمكاييل العامة التى تملكها المستوطنة(١) • وثمة مثال آخر : اذ أصدر بعض السفراء البنادقة فى البلاط نفسه أثناء اقامتهم بالقسطنطينية حكما فى قضية معلقة بين رئيس كنيسة سان جورج فى رودستو Rodosto وبين التجار البنادقة فى المدينة نفسها(٢) • ومن هذين المثالين السابقين ، يحق لنا بازائهما أن نتساءل عما اذا لم يكن هناك ممثل دائم للوطن الأصلى ، مزود بسلطات كافية لوضع مثل هذه اللوائح الادارية ، أو الفصل فى مثل هذه الخلافات • ونمة واقعتان يبدو أنهما تنبئان أنه لم يكن فى المستوطنة الفينيسية موظف خاص قائم على رأس الادارة : فمن جهة هناك وثيقة رسمية لمانويل ، قيل فيها ان كبار المستوطنة الفينيسية أتوا اليه باسم المستوطنة طالبين منه توسيع حى المستوطنة(٣) ، وهناك من جهة أخرى تعليمات أصدرها عام ١١٩٨ الدوق داندولو الى سفرائه يوصيهم اختيار مجلسهم (من العمال وأصحاب العمل) من بين أفراد المستوطنة فى القسطنطينية (٤) ويعتقد السيد هوف Hopf (٥) أنه اكتشف رئيسين للمستوطنة الفينيسية فى القسطنطينية ، فيذكر أولا شخصا يدعى باراسترو Giov. Barastro يتخذ لقب procurator in Constantinopoli super redditibus (مدير مالى ...) وذلك فى قسيمة موقعة منه بصفته صراف البلدة (للجالية الفينيسية) فى عام ١١٩٤ (٦) ، وثانيا ماجسترليو Magister Leo بصفة « مدير مالى •• procurator Constantinopolitanus أرسل اليه البابا سيلستان الثالث Célestin III فى عام ١١٩٧ الأمر بسداد عشور لأسقف كاستيللو Castello فينيسيا) (٧) • الا أن هذا الأمر نفسه يثبت أن الموضوع لا يتعلق بموظف فينيسى ، وانما بوكيل للبابا • من الثابت أننا لا نجد حتى عام ١٢٠٤ أى اسم لأحد الرعايا البنادقة يحمل لقبا أو يتولى وظيفة من طبيعة أى منهما أن يضفى عليه صفة « رئيس المستوطنة » • ولكن لدينا دلائل

---

(١) Doc. sulle relaz. tox. p. 10.

(٢) Taf. et Thom. I, 107.

(٣) Taf et Thom. I 110.

(٤) Archives des missions scientifiques, Série II, T. IV, p. 426 et s. not.

(٥) Gesch. Griechenlands im Mittelater, dans Ersch et Gruber, LXXXV, p. 169.

(٦) Taf. et Thom. I. 215 et s.

(٧) Ibid. p. 226.

تثبت أن هذه الوظائف كانت موجودة . من ذلك أن فى التعليمات التى دونتها فى عام ١١٩٧ حكومة بيزا لأوجوتشيونى بونو ، وبيتيرو مودانو ، أمرا بأن يعملا على مصالحة البنادقة فى حالة ما اذا عرض عليهما اقتراح بذلك ، اما بواسطة سفراء الدوق (فى القسطنطينية) أو قناصل البنادقة أو نوابهم ، أو قادة أسطولهم (١) . ولا يمكن أن تنطبق ألقاب القنصل أو الفيكونت التى نجدها فى هذه الوثيقة الا على وظائف خاصة بالمستوطنة ، باعتبار الجملة التى استخدمت فيها هذه الألقاب ، ذلك لأننا بالتالى مباشرة ظهور رئيس الجالية البيزية بلقبه ، لقب الفيكونت . وقد تضللنا فقرة فى وثيقة رسمية لألكسيوس الثالث لعام ١١٩٩ بشأن القضايا بين اليونانيين والبنادقة (٢) . فالامبراطور يوافق على أنه فى الحالات التى يقدم فيها يونانى شكوى ضد فينيسى لأضرار اصابته فى مسائل نقدية ، أو لاهانات ، أو ضرب ، وجرح فله أن يلجأ الى المحكمة الفينيسية : والاشخاص المذكورون ثمة على أنهم يشكلون المحكمة هم : سفير legatus الدوج فى القسطنطينية ، ومرؤوسوه من القضـــاة (٣) . ولما كانت كلمة legati (جمل legatus ـ المترجم)هى نفسها المستخدمة للدلالة على الأشخاص المكلفين بالتفاوض مع الامبراطور باسم البندقية ، فقد يتراءى لنا أن هؤلاء هم نفس الاشخاص الذين يمارسون القضاء باسم الجمهورية . ولما كانت فترات طويلة تنقضى بين رحيل سفارة ووصول سفارة أخرى ، فان فترات تأخير وانقطاع طويلة تحدث فى أعمال القضاء ، ولا تتناسب مع كثرة الدعاوى التى تستثيرها المصالح المالية . ينبغى اذن التسليم بأن محرر الوثيقة أو من قام بترجمتها قد ارتكب خطأ حين استخدم كلمة legatus لتدل أحيانا على العضو الدبلوماسى ، وأحيـــانا على المفوض الدائم من قبـــل الدوق ، أى الممثل الشرعى للوطن الأم وحكومته فى المستوطنه ، ولقبه الرسمى هو عادة « قنصل » vicecomes . ومن الواضح أن هذا القاضى المفوض يعين بصفة موظف لفترة طويلة ، ويستصحب قضاة آخرين ، مرؤوسيه ، ويقسم معهم اليمين بالتزام النزاهة التامة ، وذلك فى جلسة رسمية أمام الجالية مجتمعة وبحضور مندوب يونانى . ولا يمكن أن ينطبق كل هذا على عضـــو دبلوماسى مهمته ذات طبيعة غير نظامية من حيث زمانها ومن حيث مدتها . لنا اذن أن نؤكد أنه كان على رأس الجالية الفينيسية فى القسطنطينية رئيس معين من قبل الدوج ، لا تنتهى وظيفته الا يوم أن يحل محله فيها خليفة آت من البندقية .

---

(١) Doc. sulle relaz. tox. p. 72.

(٢) Taf. et Thom. I, 273 et s.

(٣) Taf. et Thom. I, 273 et ss.

ـ اثبت السيد توماس فى بحث صغير هام أنه فى القضايا المرفوعة أمام المحكمة الفينيسية ، تتبع الاجراءات البيزنطية .

ونصل الى النتيجة نفسها الى مستوطنات بيزا ، ولكن بكيفية أكثر بساطة ٠ كان تنظيم هذه المستوطنات في الأصل مختلفا ٠ لقد أتيحت لنا قبلا الفرصة للقول ، حسب رواية مارانجون Marangone أنه فى عام ١١٣٧ حمل سفراء من قبل يوحنا كومنينوس هدايا باسمه الى بيزا ٠ ويضيف بعض المؤرخين الأحدث عهدا ، كما رأينا أيضا أن السفراء اليونانيين كان فى صحبتهم عند عودتهم اوجوني دودى ، البيزى Ugone Duodi الموفد الى القسطنطينية من جهة لشكر الامبراطور ، ومن جهة أخرى لتولى ادارة المستوطنة البيزية بهذه المدينة ٠ ويبدو أن اللقب الذى يطلقه المؤلفون على « دودى » هذا أكثر حداثة بالنسبة الى ذلك العصر ، فيقولون انه عين قنصلا مقيما بالقسطنطينية (١) ٠ ولدينا ميثاق باقامة منشأة ، حرر فى حضوره فى القسطنطينية ، أثبت فيه صفته ، لا بأنه «قنصل» ولكن باعتباره Legatus (٢) ٠ هذا الميثاق يثبت أن « دودى » كان بالفعل وزيرا مفوضا لوطنه فى القسطنطينية ٠ هناك اذن أسباب تؤيد ما يقوله المؤلفون الذين ذكرناهم آنفا : وكذلك ما يرونه من اخبار مستقاة بعامة من مصادر موثوق بها ٠ وعلى ذلك فنحن هنا بازاء حالة خاصة ، حالة شخص كلف بمهمة لدى الامبراطور ، وعين مقدما ليؤدى لعدة سنوات (٣) وظيفة رئيس المستوطنة ، وذلك بعد انجاز مهمته التى كلف بها ٠ وفى مواثيق لعصر لاحق ، نجد منصب السفير ، ومنصب رئيس المستوطنة مسندين الى شخصين مختلفين : فالمنصب الأول يوصف بأنه legati, missatici, nuntue والثانى بأنه Vicecomites (٤) ٠ وكان فى الامكان تكليف السفراء بتنفيذ بعض الاجراءات التنظيمية فى المستوطنة ٠ الا أن الممثل الشرعى الدائم للوطن الأم فى المستوطنة ، كان ، كمبدأ عام على الأقل ، ومنذ عام ١١٦٠ هـ الفيكونت الذى يعين سنة بعد سنة ٠ من ذلك أنه أوفدت سفارة الى القسطنطينية فى عام ١١٦٩ ، ولم يكن أحد من الاشخاص الثلاثة الذين يشكلون السفارة معينا فى منصب رئيس المستوطنة ، ولكن كان فى صحبة هؤلاء موظف معين لهذا المنصب ، هو الفيكونت مارسيوس Marcius ، وكان مارسيوس هذا هو أول جماعة من أربعة الى خمسة فيكونتات عرفنا أسماءهم (٥) ٠ ولسنا نجد ، الا فى مرة واحدة الى جانب الفيكونت اسم

---

(١) يزعم مؤرخان : السيد ترونشى Tronci (ص ٣٧) ، والسيد رونشونى Rencioni (ص ١٥٢) أن بيزا حصلت منذ عام ١٠٠ على الاذن بارسال قناصل الى القسطنطينية ، وقد اوضحت فيما قبل أن التاريخ الصحيح ينفى نفيا قاطعا مثل هذه المزاعم ٠

(٢) Doc. sulle relaz. tox. p. 4.

(٣) يقول Ranciani ص ٢٥٦ ان اقامة « دودى » فى القسطنطينية امتدت الى ما بعد ارتقاء مانويل العرش (١١٤٣) ٠

(٤) Doc. sulle relaz. tox. p. 8, 10, 62; Monum. spect. hist. Slav. merid. I. 10.

(٥) Marcius, 1169. Mon. Slav. merid. I. I. ; Doc. sulle relaz. tox. p. 81, Gerardus Marzucci, 1195, ibid. p. 67, 72 : Gerardus Arcossi ? 1199, ibid. p. 75-78; Sigerius Cinami, 1199-1200 : ibid. p. 74 et s., 82.

comes Pisanorum (رينيريوس Raynerius (١) • غير أن هذه الصفة تبدو أنها اللقب الشخصي لرينيريوس هـذا ، وليست لقبا لمنصب فى مستوطنة • والراجح أن هذه الشخصية هى نفسها التى نصادف اسمها فى ميناق آخـر Raynerius comes de Segaıari (٢) • القاعدة العامة هى اذن أننا لانجد سوى فيكونتات كرؤساء للمستوطنة • وكانت مهام وظائفهم الرسمية تنظم اما بتعليمات خاصه ، يؤدون اليمين لمراعاتها ، أو (٣) بقوانين سارية فى الوطن الأم ، واما بمعاهدات • وفى الظروف العصيبة بنوع خاص كانوا يطلبون موافقة كل أفراد المستوطنة (٤) • وثمة وثائق ادارية ، ونصوص أحكام قضائية قد تكون ذات فائدة كبيرة لنا لأنها تعطينا فكرة عن أهمية دور هؤلاء فى هذين المجالين • غير أنه لم يصلنـا شىء من ذلك ، فلا نكاد نملك الا بضـعة سجلات للايرادات والمصروفات تثبت أن من وظائفهم وظيفة مدير خزانة البلدية ، وهم بهذه الصفة يحصلون ايجارات المنازل والأراضى ، والموانى ، وحوانيت الصيارف الخاصة بالمستوطنة بوجه عام ، ونصيب الجماعة من الأموال التى يتركها المستوطنون الذين يموتون دون أن يتركوا وصية ، ويسددون أيضا نفقات المستوطنة ، ويقدمون حساباتهم فى اجتماع رسمى فى كنيسة القديس نيكولاس بحضور السفراء حين يكونون موجودين فى القسطنطينية (٥) • وكان يتبعهم موظفون آخرون ، منهم مراقبو الأسواق embolarue ، ومراقبو الاسكلات scalarue وقضاة Judices يساعدون الفيكونت فى وظائفه القضائية (٦) •

ورغم ندرة المعلومات التى وصلتنا بشأن ادارة المستوطنـات البيزية والفينيسية ، فانا نملك على الأقل بعضا منها ، فى حين أن المصادر الجنوية ، على الأقل ما نشر منها الى الآن لا تزودنا بأى ايضاح عن تنظيم المستوطنة الجنوية فى القسطنطينية ، ولا عن الادارة الكنسية • وفى هذا الموضوع كما فى الموضوع السابق ، يتعين علينا أن نقنع بما نعرفه عن المستوطنات الفينيسية والبيزية • ففى كل المرات التى حصل فيها المستوطنون البنادقة فى القسطنطينية على كسب جديد ، كان نصيب كنائس البندقية منه موفورا بقدر كبير • فمن جهة كان الأباطرة اليونانيون أنفسهم هم الذين يخصصون لكنيسة سان مارك بالبندقية(٧)

---

(١) En 1195; Doc. p. 67.

(٢) Doc. p. 94.

(٣) Doc. p. 74.

(٤) مثال ذلك : عندما يقتضى الأمر تجهيز سفينة بناء على طلب الأمبراطور Doc. p. 77.

(٥) Doc. sulle relaz. tox. p. 74-78; cf. 72.

(٦) Ibid. p. 8, 18, 74 et s.

(٧) Taf. et Thom. I, 52, 97, 117, 183.

نصيبا معينا فى الايرادات ، وذلك فى عقود الامتياز . ومن جهة أخرى كان الأدواج هم الذين يتبرعون بجزء من المبانى أو الأراضى المتنازل عنها لصالح وطنهم للعديد من الأديرة ، كدير القديس جورجيو ماجيور S. Giorgio Maggiore والقديس نيكولو S. Niccolo الخ . وفى القسطنطينية نفسها ، كان البنادقة يملكون بالفعل ، قبل وثيقة الكسيوس الكبرى (١٠٨٢) كنيسة القديس اكنديئوس St. Akindynos اليونانية التى كان لهـا امتيـاز الاحتفاظ بالموازين والمكاييل المستعملة فى كل الصفقات التجارية التى يعقدها البنادقة بداخل المدينة (١) . وكانوا يملكون أيضا كنائس أخرى شيدوها هم فى الغالب : كنيسة سان مارك وديرها ، وهى تابعة لكنيسة القديس جورجيو ماجيورى فى البندقية ، وكنيسة القديسة مريم المسماة de embulo تمييزا لها عن كنيسه أخرى بنفس الاسم ، وكنيسة القديس نيكولاس ، ومجموعها لا يقل عن أربع كنائس (٢) . وثمة مرسومات من البابا أدريان الرابع ، والكسندر الثالث (٣) يرخصان لبطريرك جرادو Grado (البندقية) بأن يقيم أسقفا فى القسطنطينية وفى مدن الامبراطور اليونانية ، اذ اقتضت ذلك أهمية المستوطنة ، أو كان للبنادقة بها عدة كنائس : وليس هناك وثيقة معروفة تثبت أن هذا الترخيص قد نفذ .

وكان البيزيون يملكون فى القسطنطينية كنيسـتين ، كنيسـة القديس نيكولاس ، وكنيسة القديس بطرس ، وكانت الأولى ضمن المنحة الأولى التى أجراها الكسيوس ، أما الثانية فقد أقاموها هم أنفسهم فى حيهم (٤) : ويتبع هاتين الكنيستين مستشفى وجبانة ، وتملكان ثروة كبيرة تشمل منازل وايرادات من الموازين والمكاييل وأسكلات السفن ، الخ (٥) . وكان للكنيستين رئيس واحد (٦) ، ولكنهما تابعتان لكاتدرائية بيزا ، فلم يكن هذا الرئيس بالاجمال سوى مدير (bailius) يتولى الادارة باسم رئيس كاتدرائيـة بيزا . وتتكون ايرادات الكنيستين من الايجارات ، وحصيلة بعض الرسوم ، وايرادات المؤسسات

---

(١) Ibid. I, 68; ; ibid, 127, 129, 132, 227, 281.

(٢) Taf. et Thom. I, 98 et ss., 125-133, 280 et s.

(٣) Armingaud, I.c.p. 427 et ss.

(٤) Doc. sulle relaz, tosc. p. 50, 55; les chartes, à partir de 1160 (Doc. p. 8, 10, 12 etc.)

(٥) Doc. p. 10, 18 et s., 70, 75, 93.

(٦) فى عام ١١٨٠ شغل هذا المكان شخص يدعى بتروس Petrus (Doc. p. 18, 81 et s.) وخلفه فى عام ١١٩٧ من يدعى بنيناتوس Benenatus (Doc. p. 79, 81 et s.) بقى شاغلا وظيفة فترة طويلة بعد استيلاء الفرنجة على القسطنطينية (ibid. p. 84 et ss., 88, 93 et s.)

الخيرية • وحين يتسلم الرئيس مهام وظيفته ، بقسم أن يؤدى هذه الايرادات الى صندوق كاتدرائية بيزا بعد خصم المبالغ اللازمة لصيانة الكنيستين وأداء الشعائر ، وكان محظورا عليه أن يبيع أو يرهن أو يستخدم لغرض ذى نفع عام الأشياء الثمينة التى تملكها الكنيستان دون ترخيص من رئيس الكاتدرائية (١) • وبخلاف هاتين الكنيستين المكرستين للشعائر الكاتوليكية الرومانية ، كانت المعاهدات تكفل للبيزيين مكانة فى كنيسة القديسة صوفيا اليونانية : وكان الغرض من هذا النص غالبا أن يضمن للفيكونت البيزى مكانا فى الاحتفالات الدينية الكبرى ، كما كان للمستوطنين أيضا عدد من الأماكن محجوزة لهم فى مضمار السابق للأعياد المدنية (٢) •

لقد عرضنا من جميع وجهات النظر حالة العلاقات بين مدن البندقية وبيزا وجنوا وبين الامبراطورية اليونانية قبل الحملة الصليبية الرابعة ، ولم يبق علينا فى ختام هذا الفصل الا أن نعطى فى بضعة سطور لمحة من الوثائق النادرة التى تسجل علاقات البلاد الغربية الأخرى بهذه الامبراطورية وسبق أن رأينا فى نص للأمبراطور الكسيوس كومنينوس أن المستوطنين الأمالفيين الذين يملكون حوانيت فى القسطنطينية كانوا تابعين لكنيسة سان مارك بالبندقية • وعندما سقطت أمالفى فى أيدى الملوك النورمان ، سحب منهم الأباطرة اليونانيون كل امتيازاتهم : ومن ناحية أخرى سدد البيزيون فى أغسطس ١١٣٥ ضربة قاضية لهذه المدينة ولأسطولها • ولما كان البيزيون حلفاء للامبراطور الألمانى لوتير Lotaire فى حربه ضد الملك النورماندى روجر ، واضطلعوا فى الحرب بدور فعال ، وانتهزوا الفرصة للانقضاض على السفن التجارية التابعة لخصمهم القديم ، ونهبها واشعال النيران فيها ، وكانت هذه الكارثة نقطة البداية لانهيار أمالفى ومع ذلك تشبثت أمالفى بمستوطنها بالقسطنطينية • وفى عام ١١٩٢ بمناسبة طلبت قدم لتوسيع الحى البيزى ، أمر الامبراطور اسحق بعمل وصف لهذا الحى ، ونرى فى هذا الوصف أن حى الأمالفيين ورصيفهم كانا متاخمين لحى البيزيين ورصيفهم (٣) • وبجانب هذه المنشأة القديمة العهد ، والتى تمد وجودها بلا ضوضاء زمنا طويلا ، يتبين لنا منشأة جديدة • واذا كانت أمالفى قد فقدت عطف الأباطرة ، فان « انكونا » على العكس من ذلك قد غمرها مانويل بآيات فضله واحسانه ، جزاء لها على استعدادها لأن تجعل من نفسها أداة لمؤامرات الامبراطور ودسائسه • والراجح أنه الى هذا التاريخ يرجع وجود مستوطنة

---

(١) Doc. p. 10, 18 et s., 70, 93.

(٢) Doc. p. 53.

(٣) Doc. sulle relaz. tox. p. 56 et s.

ـــ كانوا فى الغرب بالنسبة الى حى البيزيين ورصيفهم ، أنظر : Paspati, p. 156, 154.

أنكونية فى القسطنطينية • وفى عام ١١٩٩ وقع رئيس الكنيسة الأنكونية فى القسطنطينية بروتوكولا فى مسألة تخص رئيس الكنيسة البيزية • هذه المعلومة تثبت أن الانكونيين كان لهم كنيستهم فى القسطنطينية (١) ، ومن ثم يجوز لنا أن نستنتج وجود مستوطنة لهم • ومن الجائز أن نعتبر من الشعوب الايطالية أهالى راجوزة (الآن دبروفنك بيوغوسلافيا ـ المترجم) ، ذلك لأن العنصر السلاقى (الصقالبة) الذى صار له فيما بعد أهمية كبيرة بين هؤلاء (أى أهالى راجوزة) كان فى ذلك العصر محسوسا بالكاد • وثمة حوليات تذكر أن مانويل منحهم حق البورجوازية فى القسطنطينية (٢) • حقا ، ان هذه الحوليات ترجع الى عصر أكثر حداثة ، ولا تستند الى أية وثيقة حقيقية ، ومع ذلك فليس من المستحيل أن يكون فيها أساس من الحقيقة ، فالمعروف أن مانويل كان فى نزاعة مع البندقية يعتبر راجوزة من حلفائه •

وفيما يختص بسائر الأمم الممثلة فى الامبراطورية اليونانية ، فان رعاياها كانوا منتشرين فى كل ناحية • وفى عام ١١٤٢ طلب كونراد الثالث (من أسرة هوهنشتاوفن) ، من الامبراطور يوحنا كومنينوس التنازل لصالح الألمانالمقيمين فى القسطنطينية عن رقعة من الأرض كافية لبناء كنيسة : واستجاب لهذا الطلب أما يوحنا كومنينوس ، واما خليفت مانويل • وفى خطاب لاحق أعلن كونراد لمانويل سفر امبريكو Embrico السقف فـيرتزبورج موفدا سـفيرا الى القسطنطينية (١١٤٥) ، وينبئه بأن مبعوثه هذا مكلف ببعض المسائل المتعلقة بموقع الكنيسة (٣) • وزعم البعض أن هذه الكنيسة شيدت خصيصا للجنود الألمان ، فقد كان الكثير منهم فى القسطنطينية ، وكان العاهل الالمانى قد أرسل عددا منهم لنجدة يوحنا كومنينوس • الا أنه لا يمكن التسليم بهذا الحدث العارض كباعث على انشاء الكنيسة ، على الأقل ، وبالذات لأن كونراد يقيم فى خطابه تفرقة تامة بين هؤلاء الجنود وبين الألمان الذين يتعين انشاء كنيسة لهم • يجب اذن أن نفترض أن هؤلاء تجار ، وان أردنا برهانا على ذلك ، فانا نجده فى الوثيقة المؤرخة يونية ١١٨٩ ، وفيها يقترف الامبراطور اسحق عملا غير

---

(١) Doc sulle relaz. tox. p. 82.
ـ كانوا يقومون برحلات عمل فى القسطنطينية وفى الأمبراطورية اليونانية ، أنظر :
— Jac. Bon compagnie, dans sa relation du siège d'Ancéne
(جاك بونكومبانى فى روايته لحصار أنكونا عام ١١٧٤) :
en 1174 Murat. SS. VI, 930.

(٢) Luccari, Copioso ristretto-degli annali di Rausa, Venise, 1605. p. 22, 27.
ـ يقول هذا المصدر (ص ٢٧) ان الكسيس ابن مانويل ، (أو بالأحرى أوصياؤه) صدق على امتيازات الراجوزيين •

(٣) Otto Frising, dans Pertz, SS. XX. 364, 365 ; cf. Jaffé, Konrad III, p. 101, 103; Giesebrecht, Gesch. der deutschen Kaiserzeit, IV, 465, 468, 497.

شرعى بصورة واضحة ، اذ ينزع من الفرنسيين والألمان حيين واسكلات لرسو السفن ، وكان الفرنسيون يتمتعون بها بموجب قرار امبراطورى (١) ، ويعطى هذه الأشياء للبنادقة • ولتبرير هذا التصرف ، ادعى أسحق أن عقد امتيــاز هؤلاء المستوطنين لم يحدد الايجار الواجب أن يدفعوه ، وأن تقدير قيمته متروك للظروف ، وأن الامتياز لم يمنح لمجموع الفرنسيين والألمان ، ولكن لبعض أفراد غير معروفين ، لا صلة تربطهم بأمتهم • أما بالنسبة الى الألمان (٢) ، فانا نتساءل: من أين جاء هؤلاء التجار ، الذين لا صلة تربطهم ببلدهم بحيث لا يوجد خلفهم أية سلطة قادرة على توفير الاحترام والحماية لهم ؟ هل جاءوا من مدن الدانوب ، أو من فيينا أو راتسبون ؟ وهل أتوا عن طريق البر أو البحر ؟ أو كانوا ينتسبون الى بلاد تطل على بحر الشمال ، أو من بريم Brème أو كولن Coelln وجاءوا الى القسطنطينية على متن سفنهم ؟ يبدو أن امتياز الارصفة الممنوحة لهم بأشخاصهم يدل على أن سفنهم كانت ملكا لهم ، أو لعلهم كانوا يجوبون البحار فى سفن تنتمى الى جنســيات أخرى ، ولم يختاروا القســطنطينية الا كنقطة للتلاقى ؟ أما بخصوص المستوطنين الفرنسيين الذين جردهم أسحق أيضا من ممتلكاتهم، فانا نستطيع أن نؤكد ، ولدنيا البرهان على ذلك ، أنهم ينتمون الى المدن التجارية الكائنة بجنوب فرنسا ، مثل « الفرنسيين » الذين كانوا فى تسالونيك يترددون على سوق القديس ديمتريوس ، مع الاسبان والبرتغاليين •

الامبراطورية اللاتينية

كان العالم اليونانى يعيش فى مواجهة الصليبيين الغربيين فى حالة مستمرة من الفزع ، يستشعر وقوع كارثة تكون القسطنطينية ضحيتها الأولى • وكان اليونانيون فى أكثر من مرة يتسببون بأخطائهم فى تفجير الكارثة • ففى عام ١١٤٧ أثناء مرور الجيش الذى يقوده لويس السابع ، كان سلوك اليونانيين مثيرا ، والهياج شديدا فى صفوف الصليبيين ، حتى لقد عانى الملك مصاعب جمة فى الدفاع عن نفسه حيال مطالبهم الملحة التى كانت تنزع على أقل تقدير الى حمله على التحالف مع الملك النورماندى روجر للاستيلاء على القسطنطينية(٣) وفى ظروف مماثلة ، كان فردريك باربروس يفكر بعض الوقت فى مشروع الاستيلاء قسرا على حاجة الامبراطورية ، فأقام معسكره الشتوى فى ادرينوبل •

---

(١) Taf. et Thom. I, 208 et s.

(٢) نجد أيضا اشارة الى هؤلاء الألمان فى : Guntherus, Hist. Cpol.
اذ يذكر أنه حين استولى الصليبيون على القسطنطينية لثانى مرة (١٢ أبريل ١٢٠٤) ، قتل عدد كبير من اليونانيين •

(٣) Kagler, Studien zur Geschichte des Zweiten Kreuzzugs, p. 141, 142

ولما كان فى حاجة الى أسطول حتى يتيسر له فرص النجاح ، فانه كلف ابنه هنرى بخطاب حرره فى ١٦ من نوفمبر ١١٨٩ أن يجرى مفاوضات مع مدن ايطاليا البحرية ، وبالذات جنوا ، وانكونا ، والبندقية ، وبيزا . وكان على الأمير أن يقترح على هذه المدن تجهيز الأسطول وارساله الى القسطنطينية فى شهر مارس من السنة التالية ، بحيث يمكن مهاجمتها برا وبحرا فى آن واحد . ووافقت بيزا على أن تسهم فى هذا المشروع ، وأوفدت سفيرا الى باربازوس ، وعندما لحق به السفير كان الامبراطور قد تخلى عن مشروعاته بخصوص القسطنطينية وتأهب لعبور الدردنيل (مارس ١١٩٠) (١) .

وأخيرا هبت العاصفة التى كانت تتهدد « ملكة المدن » ، وذلك بمناسبة الحملة الصليبية الرابعة . وقد نظم هذه الحملة فرسان فرنسيون وفلمنك ، وتعززت فيما بعد باسهام البنادقة ، وكان هدفها الأصلى مصر ، وغايتها ضمان سلامة مسيحيى سوريا (٢) . وفجأة غير رؤساء الحملة وجهتهم . وأصدروا الأمر بالابحار الى القسطنطينية ، وأعلنوا على رؤوس الأشهاد قصدهم باعادة الامبراطور اسحق الى عرشه الذى خلع منه منذ قليل ، ورد حقوقه وحقوق ابنه الأمير الكسيوس . فماذا حدث اذن ؟ تمكن الأمير من الهرب من القسطنطينية (١٢٠١) بمساعدة ذوى نفوذ فى المستعمرة البيزية (٣) الكونت رينبيوس دى سيجالاى (٤) والبيراندس فارسيلياتس (٥) ، ولاذ البلاط الألمانى حيث استقبلته بالترحاب اخته ايرين Irene وزوجها فيليب دى سواب Philippe de Souabe اهتم هؤلاء اهتماما شديدا بمشروعه الخاص باسترداد العرش . وهنا طرأت لهم فكرة الاستعانة بالفرسان الفرنسيين والفلمنكيين الذين كانوا وقتئذ يعدون عدتهم للرحيل لشن الحملة الصليبية ، وتكليفهم القيام بعملية حربية مضللة لصالح أسرة انجيلوس : وكان الرئيس الذى انتخبه الفرسان فى أحسن حالة نفسية تدفعه للاستماع الى تلميحات فيليب : كان هو المركيز بونيفاس دى مونفرا Boniface de Montferrat وكانت مصاهرات أسرته ، ومثال اخوته ، وما أصابه من اهانات يريد أن يثأر لها ، بدت أنها قد تجمعت لتدفعه الى القسطنطينية (٧) : وعهد اليه فيليب دى سواب الأمير ألكسيوس الصغير

(١) Ansbertus, De exped. Friderici, p. 32, 55; et Riezler : Forschungen Zur deutschen Geschichte, X, 48.

(٢) Villehardouin, éd. de Wailly (1872), p. 19; Rob. de Clary, dans Hopf, Chroniques gréco-romanes, p. 5.

(٣) كانت السفينة التى استقلت الأمير سفينة بيزيه : Doc. p. 94; Nicétas, p. 711. Ughelli, Ital. sacr. I, 539.

(٤) Doc. sulle relaz. tosc. p. 67.

(٥) Doc. p. 9, 12, 13 ; ibid 19.

(٦) Winkelmann : Jahrbuecher der deutschen Gesch. 1197-1208, Revue des questions historiques, XVII, p. 321 et ss., XV111, p. 5. et ss.

(٧) Robert de Clary (I.c. p. 24,31).

بنوع خاص (١) . وكان لابد أخيرا من مشاورة الفرســـان مجتمعين : وأقام بونيناس نفسه المحرك الرئيسى المتحمس للمشروع ، وقدم السفراء الألمان المزيد من الوعود الخلابة ، وتقدم ألكسيوس متوسلا فأثار المشاعر . ومع ذلك لم يكن ثمة شيء يقنع الفرسان بالموافقة على قلب كل الخطط التى اشتركوا فى وضعها ، بهذه الصورة غير المتوقعة ، وذلك من أجل مغامرة لا يهتم بهـا الغالبية منهم . وبدا أن المشروع قد أهمل ، ولكن الدوج دونالدو تناوله من جديد ، وتولى تحقيقه وكان هو الذى جهز الأسطول . ولما كان الفرسان مفلسين ، صار الدوج ، بسبب ما قدمه من مال هو القائد الفعلى للحملة بعد أن كان مجرد حليفا لها ، ولم يهتم برغبات فيليب دى سواب ، ولم يشغل باله فكرة الانتصار على البابا بتحويل الحملة الصليبية عن هدفها الرئيسى ، فى حين كان لهذه الفكرة فى مجالس الملك أهمية لا تقل عن سائر الحوافز . كان اعتبار واحد هو الذى يوجه تصرفات الدوج : ذلك هو الدفاع عن مصالح البندقية التجارية ، وكان يعرض هـذه المصالح للخطر ارسال أسطول حـربى مجهز بمعرفة الجمهورية للاغارة على مصر ، وهى بلد لكل تجار البندقية مطلق الحرية فى دخولها بسفنهم والخروج منها ، ومباشرة أعمال تجارية مثمرة معها . أما فى القسطنطينية ، فعلى العكس من ذلك كان المغتصب يذيق البنادقة ألوان الذل والهوان ، ويفضل عليهم البيزيين ، لذلك كان من صالحه اسقاط المغتصب ، وارتقاء أسرة ملكية أخرى العرش . واذ أصبحت هذه الأسرة مدينة بالفضـــل للبندقية ، كان اقرارها بالجميل يحتم عليها أن تفعل كل ما يطلبه منها . وهكذا حان الوقت لتنفيذ التهديد الذى وجهه فى عـــام ١١٩٨ سفراء البندقية الى الامبراطور الكسيوس ، ولمساندة المطالب بالعرش مســاندة فعالة . ولا ننسى اعتبــارا شخصيا كان له بالتأكيد نصيب فى التأثير على الدوج : ذلك هو حب الظهور على رأس أسطول قوى أمام مدينة القسطنطينية حيث كان قبلا ضحية لخبث الشعب اليونانى وهمجيته . ومنذ اليوم الذى عرفت فيه مشروعات الصليبيين ، أصبح وضع البنادقة المقيمين فى القسطنطينية سيئا للغاية ، كما كان متوقعا ، كذلك لم يكن وضع سائر اللاتينيين بأحسن حالا . وكان سيكارد Sicard أسقف كريمونة موجودا فى القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ ، ومن ثم كان على علم تام بأحداث عامى ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، اذ يروى أنه عندما علم الناس أن الصليبيين بدءوا المعارك بنهب سواحل الامبراطورية على طول البحر الأدريانى ، قامت ثورة، فاقتحم اليونانيين والحرس القارانجى الحى الفينيسى وارتكبوا فيه كل ألوان العنف والقسوة ، وألقوا بالكثير من البنادقة فى السجون ، وقتل الكثير منهم(٢) . واستبد الهياج بالدهماء فهدموا المنازل التى يسكنها الغربيون على ضفاف القرن الذهبى . ويسجل نيكتاس بأسف أن الأمالفيين الذين كانوا وقتئذ تصف

(١) Villehardouin, p. 64.

(٢) Murat. SS. VII, 619.

يونانيين ، وكذا البيزيين قد أصابهم ما أصاب سائر اللاتينيين (١) .

وقد ارتكب الدهماء خطأ جسيما حين أوقعوا ضرباتهم الهائجة بالغربيين كافة دون تفرقة : ذلك لأن الجنوبيين والبيزيين كانوا أولا قد رفضوا التعاون مع الحملة الصليبية (٢) . ولم يكن ثمة مواطن واحد من مواطنى هاتين الجمهوريتين فى صفوف الجيش ، بل على العكس ، أسهم المستوطنون البيزيون اسهاما فعالا فى الدفاع عن القسطنطينية ، وكانوا يشكلون قسما من حرس برج غلطة (٣) ، وذات يوم دحروا نفرا من العدو اقتحموا المدينة من ثغرة فتحوها فى السور بالقرب من الرصيف الامبراطورى (٤) ولم يكن سلوكهم هذا يمليه فقط الرغبة فى مساندة الامبرطور اعترافا بأفضاله عليهم ، وانما كانوا يحمون بيوتهم ، ويدافعون عنها ضد خصوم أثبتت لهم تجارب السنين الأخيرة ، على أقل تقدير مواقفهم غير الطيبة . ومع ذلك لم يستطيعوا الحيلولة دون سقوط المدينة فى أيدى الصليبيين . وفر المغتصب ، وابتهج الأمير الكسيوس حين رأى أباه اسحق الشيخ الكفيف يسترد عرشه ، ويقى هو الى جوار الامبراطور بصفته شريكا له فى الحكم . ولسنا نعرف كيف عامل الصليبيون فى هذه الأحوال (١٧ يولية ١٢٠٣) الغربيين المقيمين فى العاصمة . وانقضت بضعة أسابيع ، وأسعد الامبراطور اسحق بعدها أن يجرى تقاربا بين البنادقة وبين البيزيين : فذهب هؤلاء لزيارة البنادقة فى معسكرهم فى بيرا (حى بالقسطنطينية) ، واستقبلوا ثمة بالترحاب (٥) ونسيت الخلافات القديمة ، وصارت مقاليد الحكم فى أيدى الامبراطورتين اللذين يحابيان اللاتينيين . يبدو اذن أن كل شيء لابد أن ييسر للتجار الايطاليين استعادة نشاطهم التجارى . لسوء الحظ بقى نفور الشعب اليونانى من الغربيين شديدا كما كان فيما مضى ، وزادته حدة أعمال العنف والقسوة التى اقترفها الصليبيون ، وكان فى هذا ما يكفى لمحو كل نتائج الحملة تقريبا . ولسوء الحظ قامت عصبة من النهابين الفرنجة باشعال حريق انتشر بدرجة مخيفة . وزادت هذه الكارثة من هياج الشعب اليونانى حتى لم يعد الغربيون يشعرون بالأمان فى المدينة ، ولم ينج الكثير منهم من هذه البلية ، اذ نزل الخراب بهم ، وفقدوا ديارهم (٦) . فى هذا الوقت العصيب قر عزمهم على تأمين

---

(١) Nicét. p. 730.

(٢) Villehardouin, p. 21; Clary, p. 5.

(٣) Epist. Hugonis comitis S. Pauli, dans Taf. et Thom., I, 307.

(٤) Nicét. p. 721.

(٥) Nicét. p. 730; Wilken, Gesch. d. Kreuzz. V, 241,

(٦) Nicétas, p. 731 et ss.; Villehardouin, p. 119.

يتبين من وصف نيكتاس للأحياء التى أصابها الحريق ، أن الحريق أصاب أيضا الأحياء التجارية ، وامتد يسارا الى بيراما .

— Cf. Paspati, dans le Bulletin du Syllogos de Constantinople, VII 94 et s., p. 190. ويسلم باسياتى بأن الحى الفينيسى هو وحده الذى سلم من الحريق

سلامتهم بالهجرة الجماعية : فعبر خمسة عشر ألف منهم الميناء ، مع نسائهم وأطفالهم ، ولجأوا الى معسكر الصليبيين فى بيرا (١) ٠ كان ذلك فى شهر أغسطس عام ١٢٠٣ ٠ وبعد زمن قليل هب اليونانيون علانية ، وأشعلوا ثورة مضادة بقيادة الكسيوس دوكاس مورتزوفيلوس Alexis Ducas Muréuphyle (يناير ١٢٠٤) الذى نشر مرسوما بطرد كل اللاتينيين المقيمين بالقسطنطينية بقصد منعهم من التآمر مع الصليبيين المعسكرين تحت أسوار المدينة ٠ ولكن رغم ما يؤكده كاتب لاحق ، هو جورجيوس اكروبوليس Georgius Acropolitès فانى أشك فى أن هذا الامبراطور أصاب بمرسومه « الألوف » : اذ لم يبق ثمة الكثير من هؤلاء اللاتينين (٢) ٠ومع ذلك فان اللاتينيين لم يهجروا القسطنطينية هجرا مطلقا ، فقد بقى بها دائما بعض البنادقة ، حتى فى أشد الأوقات خطورة ٠ ويحكى المؤرخ نيكتاس أنه فى اليوم الذى استولى فيه الصليبيون على القسطنطينية لثانى مرة نجا بحياته بفضل حماية بعض البنادقة من أصدقائه(٣) هذا لا يمنع من أن الذين اضطروا الى الخروج من المدينة كانوا متعطشين للانتقام ، وفى أثناء الهجوم وضعوا فى خدمة المقاتلين سواعدهم ونصائحهم ، وفيما بعد أبدوا منتهى العنف والقسوة فى مذبحة المهزومين (٤) ٠

أصبح الصليبيون لثانى مرة سادة القسطنطينية (١٣ من أبريل ١٢٠٤) ، الا أن هذه العملية الحربية الجديدة كان لها نتائج مختلفة كل الاختلاف عن العملية الأولى ٠ فأول كل شىء عدل (الصليبيون) عن القيام بمحاولة جديدة لاقامة أمير يونانى على العرش : فتوطدت امبراطورية لاتينية فى الأقاليم اليونانية ، وملأت الأرض حولها مجموعة من الامارات والبارونيات على رأسها سادة يتكلمون الايطالية أو الفرنسية ٠ وكان الغزاة منقسمين الى جزأين متباينين كل التباين ، وكل جزء يسعى الى مصلحة خاصة به ، وبقيا كذلك وقت التقسيم : فهناك من جهة البنادقة ، ومن جهة أخرى الصليبيون peregrimi وثمة معاهدات ، وضعت مبادؤها مقدما ، تولت تنظيم الامبراطورية اليونانية مستقبلا ٠ وتم الاتفاق على أن يحكم الامبراطورية كلها امبراطور واحد ، ويجرى اختيار هذا الامبراطور اثنا عشر ناخبا ، ستة عن الصليبيين ، وستة عن البنادقة ، ويعترف الجميع به رئيسا ، ويوضع ربع الامبراطورية تحت سلطته المباشرة ، ويقسم الباقى الى جزءين متساويين

---

(١) Villehardouin, p. 119.

ـ يحدد أبو الفرج (السورى) عدد التجار الفرنجة المقيمين بالقسطنطينية فى هذه الآونة بثلاثين ألفا ، ولكنا نفضل بيان قبلها دون فى هذا الخصوص اذ كان شاهد عيان ٠ ويتولى اوستاث ٠أنه فى حوالى عام ١١٨٠ كان هناك من هؤلاء قرابة ستين ألفا وأكثر ٠

(٢) Georg. Acrop., p. 8,9 : Gunther (Hist cpolit, dans Riant..)

(٣) Nicét. p. 777; Gunther, I. c.

(٤) Georg. Acro p. 9; Guntheri, Hist. Cpolit I. c.

تحددهما لجنة خاصة، ويسلم كل جزء الى واحد من المتقاسمين ، يستلمه كاقطاعية من قبل الامبراطور فى مقابل التزامات محددة • وعند تحرير هذا المشروع الأولى لم يفت البنادقة أن يحتفظوا لأنفسهم فى الامبراطورية اللاتينية الجديدة بكل الحقوق والعادات والأموال التى كانوا يتمتعون بها فى الامبراطورية البيزنطية (١) •

وبعد الاستيلاء على المدينة ، جرى انتخاب الامبراطور (٩ مايو) ، والمعروف أن الاختيار وقع على بودوان (بلدوين) كونت الفلاندر ، ولم يجر تقسيم الأقاليم التى كان يحكمها قبلا الاباطرة البيزنطيون الا بعد انقضاء عدة شهور ، وذلك فى مستهل شهر أكتوبر (٢ ، ٣) وفى حوزتنا وثيقة التقسيم • وقد دون السيد تافل M. Tafel النص الأصلى بعد أن أجرى تصحح لما أصابه من تلف ، وأتاح له معرفته العميقة بالجغرافيا ايضاح قدر كبير من الغموض (٤) ونلقى الامبراطور فى التقسيم أقليم آسيا ، والجزر الواقعة شمالى بحر ايجه وشرقيها ، وشريط من اقليم تراقيا على طول البحر الأسود ، ونال الصليبيون (الحقيقيون) القسم الأكبر فى براقيا ، من نهر هبرس (ماريتسه ، أو ماريكا Maritza) حتى بحر مرمرة ، والقسم الجنوبى من مقدونيا ، وتساليه ، والقسم الشرقى من الهيلاد (هيلاس : الاسم القديم لبلاد الاغريق — المترجم) وأخيرا فان نصيب البنادقة ، وهو الذى يهمنا فى هذا المجال ، كان يشمل :

١ — ابيروس l'Epire ، داكارنانيا l'Acarnanie وايتوليا l'Etolie مع مدن دورانرو Durazzo ، وأرته Arta ، وغيرها ، ٢ — الجزر الأيونية ، وذكر منها بنوع خاص كورفو ، وكيفالونيا Céphalonie ، وسانت مور Sainte-Maure وزانتى Zante ، ٣ — البيلوبونيز ، والمشار اليها فى المعاهدة بمدن : بتراس Patras وكالفريتا Calovryta ، وأوستروفا Ostrova ومودون Modon ولاكيدومونيا Lacédomonia ٤ — جزر جنوبى وغربى الأرجنيل (بحر ايجه قديما — المترجم) ، ومنها ناكسس Naxos ،

---

(١) Taf. et Thom. I, 446, 450; II, 229.

(٢) هذا هو التاريخ الذى ذكره فيلهاردوين (ص ١٨١) ، أنظ. أيضا :
Robert de Clary, p. 80 :

(٣) Nicetas, p. 787; Tafel, Symboloe criticoe, pars. 2, p. 31.
يذكر نيكتاس أن التقسيم شمل أيضا مصر وليبيا ، وفارس ، وأشور . وهده مبالغة غير معقولة ، ولىس هناك شىء من هذا القبيل فى نص معاهدة التقسيم • ومع ذلك يرى راموريو Ramusio فى المعاهده مدينة من مدن كيليكيا Cilicie « طرسوس » Tarse ومدينة بمصر ، « بيلوز » •

(٤) Tafel, Symboloe critica geographian byzantinam spectantes, pars 2 dans les Abh. der 3. der Munch. Akad. V, 3e sér, p. 1-136, et Venet. Urkund, Buch, I, 452-501.

٣

، اندروس Andros ، وجزيرة يوبيه المشار اليها بمدينتى أوريوس Oréos وكاريستوس Karystos ، ٥ ـ مجموعة من المدن ، متراصة على طول الشاطىء الأوروبى لمضيق الدردنيل وبحر مرمرة ، أهمها جاليبولى Gallipoli ، ورودستو Rodosto وهيراقليا Heraclée ، ٦ ـ وأخيرا بضع مدن داخل تراقيا أكبرها اندرينوبل · نضيف أيضا جزيرة كريت التى حصل عليها البنادقة بمقايضة أجريت مع المركيز دو مونفيرا · وانا لنعترف بأن البنادقة أثبتوا فى اختيارهم هذا بتمتعهم بروح عملية فى كل ما يؤدونه من أعمال ، اذ كان معظم هذه الجهات أقاليم خصبة ، تصل اليها السفن بسهولة ، فهى مناسبة للاستغلال التجارى ، وكلها تقريبا موجــود على الطريق البحرى الكبير الذى يصل البندقية بالقسطنطينية ·

وبعد أن تم التقســيم ، كان لابد من اســتلام الأملاك : وعندئذ اصطدم البنادقة ، والامبراطور ، وسائر الصليبيين بصعوبات كثيرة ، اذ سرعان ما تبين للدوق بيتيرو زيانى زيانى ، خليفة داندولو أنه لكى يحتفظ بالمكاسب الجديدة ، فلا مناص من الانفاق لسنوات عديدة على الكثير من فرق الجنود المرتزقة المتناثرة على مواقع مختلفة ، ولا تتناسب المبالغ الضخمة التى يتطلبها الانفاق على هذه الفرق مع القيمة الحقيقية لهذه الممتلكات بالنسبة الى دولة بحرية كالبندقية · وعلى ذلك قنع الدوق بالاحتفاظ بداقية دوراتزو الصغيرة (١) التى تأسست عام ١٢٠٥ ، وتنازل عن الحقوق المكتسبة للجمهورية طبقا لمعاهدة التقســـيم فى باقى أقاليم ابيروس ، وأكارنانيا ، وايتوليا · واستغل الطاغية اليونانى ميخائيل الأول فترة خلو العرش فوضع يده على هذه الأقاليم · وكان لابد من حــرب ، ربما طويلة ليستعيد الدوق هــذه الممتلكات ، لذلك سره أن يجرى تسوية : فوافق ميخائيل على أن ينسلم الأقاليم المذكورة بصــفة اقطاعية من حكومة البندقية ، ووعد البنادقة ومواطنيهم الجدد فى دوراتزو أن يسمح لهم بممارسة التجارة بمطلق الحرية فى ولاياته (١٢١٠) (٢) · ولم يمتنع هذا من تدمير دوقية دوراتزو بعد انقضاء بضع سنوات فقط من انشائها (١٢١٥) ، دمرها الطاغية تيودور أخو ميخائيل وخليفته (٣) ، ومن ثم لم تتمتع الجمهورية بهذا الجزء من فتوحاتها ثم كان للجمهورية فيما بعــد قنصل فى دوارتزو ، ولكنه كان قنصلا تجاريا فحسب ، مثل زميله قنصل أرته ، عاصمة الطاغية (٤) ·

---

(١) Dandolo, p. 332.

(٢) Taf. et Thom. II, 120 et ss.

(٣) Georg. Acropol. p. 28.

(٤) Hopf, Griechenland, dans Ersch et Gruber, LXXXV, 299, 331.

وفى المورة ، وجد البنادقة المكان وقد احتله الغير ، فقد استولى عليها الفارس جوفروى دى فيلهاردوين Geotfroi de Villehardouin وليم دوشامبليت Guillaume de Champlite وأقاما بها دوقية أخايا achaie . ومع ذلك ففى عام ١٢٠٦ استغل البنادقة حملة مرسلة الى جزيرة كريت ، فاحتلوا بالقوة موقعا فى الجنـــوب الغربى من شـــبه الجزيرة ، مســـينا القديمـــة ، وبالذات فى الجزء الذى كان جوفروى دى فيلهاردوين قد أنشأ به امارة ، ولكنه لم يحسن حراســـة ثغرى مودون وكورون ، وكانتـــا من أوكار القراصنة (١) . ولم يجد البنادقة عناء كبيرا فى فرض سيطرتهم عليهما وعلى مجاوراتهما : فبعـــد أن استقر بهما المقام هناك ، تفاوضوا مع جورفروى ، واتخـــذوا كحد شـــمالى لهـــذا الاقليم خطا يمتـــد من النهر الصـــغير الذى يصب فى خليج نفارينـــو Navarin (٢) الى مينـــاء ســـينات Sinate (٣) (ازينيه القديمة) . وعلى العكس ، تخلى البنادقة عن سيطرتهم بصورة مباشرة على بقية أجزاء البيلوبونيز ووافقو ـ كضمان كان كافى لحقوقهـــم على البلد ـ على وعد جورفروى بالاعتراف بدوق البندقية سيدا على امارة أخايا ، بالاضافة الى الالتزام بأن يصـــبح هو نفسه من مواطنى البندقية ، وأن يكفل المساعدة والحماية لمواطنيه الجدد فى كل أنحاء الاقليم ، ويمنحهم أينما شـــاءوا كنيســـة وسوقا صغيرة fondiculum ومحكمة خاصة (٤) : وهذى نسخة مطابقة تقريبا للالتزام الذى اتخذه ميخائيل طاغية ابيروس . وكانت هذه السيادة على المورة وقتية بالضرورة ، ولم يخف ذلك على البندقية ، بيد أنها تمسكت بهذه الملكية تمســـكا ضعيفا . وبعد قرن من الزمان (١٣٢١) عرض عليها بعض الأتباع الاقطاعيين القائمين على امارة « أخايا » السيادة الفعلية على الامارة ، لكنها لم تستسلم لهذا العرض المغرى بالتوسع ، وأجابت برفض قاطع (٥) . لقد كان لتجارها حق ممارســـة التجارة فى كل البلاد ، وكانت علاقاتها الودية مع أمراء أخايا تكفل أن تـــكون الموانىء مفتوحة لهـــا على الدوام ، وكان هذا هو كل ما ترغبـــه . ثم ان منتجات البلد كانت قليلة ، تشـــمل الزبيب ، وعنب كورنثوس (٦) ، والتين ، والزيت ؛ والعسل ، والشمع (٧) ، والســـنديان ، وحب القرمز ، والحرير ، والسكر ،

---

(١) Sanuto, dans Murat. ss. XXII, 536, les Annal. Jan. p. 125.

(٢) Dandolo, p. 335; Sanut. 1. c.

(٣) Buchon, Mém. géogr., placé en préambule du Livre de la conqueste, p. xlii, et Lelewel, Géographie du moyen-âge, Atlas.

(٤) Hopf. Griechenland, op. cit., p. 239.

(٥) Juillet 1209. Taf. et Thom. II, 96-100.

(٦) Hopf. op. cit. p. 406; Coll. des doc. inéd., nouv, mélang, hist: III, 54-57 (= Commem reg. I, 231, nos 277, 278).

(٧) Pegol p. 107; Uzz. p. 89 et ss.

والمادتان الأخيرتان موجودتان بكميــات قليلة ، ومن صنف غير جيــد (١) .
وحتى فى الركن الصغير من المورة حيث احتفظت البندقية بسيادتها المباشرة ، لم تكن لسلع التجارية أهمية تذكر : ومع ذلك كان ينتج بها نبيذ وزيت ، وكان للقرمز بمجاورات « كورون » شــهرة كبيرة (٢) (القرمز : صــبغ لونه أحمر قان .. المعجم الوسيط) . ولم يكن البنادقة يقيمون وزنا للكينهم الطرف الجنوبى من المورة الا من أجل موقعه . وفى سجل من سجلات مجلس شــيوخ البندقيــة (٣) نجــد مورون ، وكورون مذكورين بعبارة نمطية واحدة ocu.i capitales communis . والواقــع أن الغالبيــة العظمى من السفن التجارية القادمة من الغرب صــوب القسم الشرقى من البحر المتوســط ، أو الأرخبيل ، أو البحر الأســود ، أو بحر آزرف كان تمر على مرأى من هذين الميناءين . وعلى ذلك كان للجمهورية هناك نقطتان ممتازتان للمراقبة يمكنها أن تراقب منهما كل تحركات أصــدقائها وأعــدائها فى مياه الشرق الأدنى ، وكانتا فضــلا عن ذلك محطتين مناسبتين ، ومأويين ممتازين ومكفولين لسفنها الذاهبــة والعائدة فى رحلاتها الى الشرق . لذلك لم تدخر وســعا فى تحويلهما الى محطتين بحريتين فى الدرجة الأولى من الأهمية ، وتحصينهما ، وتسليحهما. كانت طبيعة هاتين المستعمرتين عسكرية قبل كل شيء ، ويتولى ادارتهمـا قادة القلاع ، وكان هناك دائما اثنان على الأقل من هؤلاء القــادة ، وثلاثة فى بعض الفترات الطويلة ، ويقيمون بالتناوب فى مودون وكورون (٤) .

واذا كان البنادقة قد تخلوا عن بسط فتوحاتهم على القارة اليونانية ، فان الأمر كان على خلاف ذلك بالنسبة الى الجزر : ثم انهم ضمنوا فى معاهدة التقسيم ضم قسم من هذه الجزر اليهم ، فلم يروا من الضرورى تملك هذه الجزر كلها بصورة مباشرة ، ولكنهم حرصوا على أن تكون السلطة فى الجزر التى لا يوجــد بها دوق أو بايل bai.e مفوض من الجمهــورية ، فى أيدى مواطنين يمكن الاعتماد على اخلاصهم فى الدفاع عن مصالح الوطن الأم فى كل المناسبات : لذلك فرضوا عليهم صراحة ألا يتنازلوا لأفراد من غير البنادقة عن الجزر أو أجزاء من الجزر المسلحة .

وفى عام ١٢٠٣ وجد الجيش الصليبى فى كورفو عنــاصر معارضــة

---

(١) سوف تتاح لى فرصة الحديث عن هذه المنتجات الثلاثة .

(٢) Bened. Petrob., éd. Stubbs, II, 199; Buondelmonti, Liber insularum archipelagi, p. 63; Viaggi di lion. Frescobaldi, p. 16; Roehricht et Meisner, Deutsche Pilgerreisen, p. 135, 251.

(٣) Acte du 30 Mars 1375, cité par Hoff, op. cit., LXXXVI, 10.

(٤) Thomas ; Abh. der Munchen Akad. Cl. 1, vol. XIII, sect. 1, p. 20-22 ; Hopf, Griechenland, op. cit., LXXXV, 307 et s., 341 et s., 396, 440; LXXXVI, 10, 24.

لمشروعاته . وفى عام ١٢٠٥ انتهزت البندقية فرصة مرور أسطول صغير يحمل الى القسطنطينية أول بطريرك فينيسى لتطالب بحقوقها الجديدة فى الجزيرة ، ولكن لم تزل الصعوبات نفسها قائمة . وثمة قرصان جنوى يدعى ليونى فترانو Leone Vetrano كان يجوب تلك المياه . مسيطرا عليها ، فشجع الكورفيين على المقاومة ، فلم يكن هناك مناص من ارسال أسطول كبير فى عام ١٢٠٦ لاسقاط القلعة الرئيسية فى الجزيرة ، ومن ثم انهزم فترانو ، وأسر ، وأعدم (١) . وفى عام ١٢٠٧ منح الدوق هذه القلعة هى والجزيرة كلها ،وبضع جزر مجاورة لها ، باعتبارها اقطاعية وراثية ، منحها لعشرة من النبلاء بشرط أن يتكفلوا بالانفاق على عدد معين من الجنود المرتزقة . ويقدموا فروض الولاء للدوق ، ويلطبوا من رعاياهم أن يؤدوا يمين الاخلاص لهم . وتعهد السادة الجدد بطبيعة الحال أن يقفوا الى جانب الجمهورية فى كل المسائل السياسية ، كما تعهدوا برعاية مصالحها التجارية . والحفاوة بسفنها الحربية. وضمان حرية التنقل للتجار البنادقة ، ومعافاة بضائعهم الصادرة والواردة من كل الرسوم (٢) . ولم يدم هذا النظام زمنا طويلا ، اذ يبدو أن كورفو سقطت مع دوراتزو (٣) فى وقت واحد فى أيدى طاغية أبيروس الذى لم نستطع البندقية أن توقف تقدمه المظفر ، وبقيت أكثر من أربعين عاما خاضعة لسلطانه أو سلطان خلفائه . كان هؤلاء الطغاة فى الوقت نفسه سادة سانت مور جارتها ، وكان على البندقية ، كما سنرى أن تصطبر وقتا طويلا قبل أن يتسنى لها أن تعتبر ضمن ممتلكاتها هذه المحطة الهامة فى البحر الأيونى .

وبالاضافة الى كورفو وسانت مور (لوكاد Leucade) أعطت معاهدة التقسيم لعام ١٢٠٤ البندقية جزيرتى كيفالونيا ؛ وزانتى : وفاتنا أن نذكر أن هاتين الجزيرتين لم تعودا منذ بضع سنين تنتميان الى الامبراطورية اليونانية ، فقد انتزعهما منها فى عام ١١٨٥ نورمان جنو ايطاليا وكونتا من ذلك الحين كونتية منفصلة ، وكان أول من تولى أمورهما أشراف تابعون لتاج صقلية ، وبعدهم بارونات من امارة أخايا (٤) . وفى عصر الحملة الصليبية الرابعة ، كان السيد الحاكم هو ماتيو Matteo الذى عاش حتى عام ١٢٣٨ ، ويصفه المؤرخ الفينيسى داندولو بأنه nobilis gallicus (أى نبيل ذو شأن — وربما كان السبب فى ذلك أنه ينحدر من جنس نورماندى) ، ويزعم أنه أقسم فى عام ١٢٠٩ يمين الولاء للبندقيه ، بمقتضاه اعترفت هذه بسيادته على الجزيرتين .

---

(١) Dandolo, p. 334.

(٢) Taf. et Thom. II, 54-59.

(٣) وعلى أية حال نتحدث ال : Liber Plegiorum, p. 148. عن كورفو عام ١٢٣٨ على أنها جزيرة تحت سيادة اليونانيين .

(٤) Hopf, op. cit., LXXXV, p. 181 et s., 257, 314 et s., 331 etc., p. 421, note 53; Buchon, Recherches historiques sur la principauté française de Morée I, (1845). p. lxxxii et s. ; II, p. 478-461.

ولننتقل من البحر الأيونى الى الأرخبيل ، فنجد ثمة من نصيب البندقية جزر الكيكلاء . وكان المطلوب احتلال هذه الجزر ، وهو أمر لم يكن خلوا من المصاعب ، اذ لم يكن بد من قتال السكان الذين كان يساندهم بعض القرصان. وتقدم بعض الأشراف الرومان ، وكانوا يشعرون بشىء من الشـــجاعة يؤهلهم للاقدام على هذه العملية ، ومعهم ما يكفى من المال لتحمل نفقاتها : وتنازلت لهم الحكومة عن حقوقها ، دون أن تخسر شيئا . وفى عام ١٢٠٧ اجتمع فى القسطنطينية عدد كبير من القراصنة البنادقة ، وقاموا بحملة بقيادة ماركو سانودو Marco Sanudo ونجحت الحملة نجاحا كبيرا . وتلقى سانودو ، مكافأة له على انتصاره جزيرة ناكسس naxos أكبر الجزر كلها ، ملكا خالصا له ، ومعها عـدة جزر ، كبيرة وصغيرة ، تحيط بها ، ومنح فضلا على ذلك حقــوق السيد الاقطاعى على سائر الجزر التى تم غزوها فى نفس الحملة ، وكما جعله امبراطور القسطنطينيه « دوق نكسس » (١) . أما ســـائر الكيكلاء فقـد تقاسمها زملاؤه القدامى الذين أصبحوا أتبـــاعه من ذلك الحين : منهم مارينو داندولو الذى نال جزيرة اندروس Andros (٢) ، ونـال الاخوان جريميـا واندريا غيزى Geremia et Andrea Ghisi تينوس Tenos وميكونوس Myhonos ثم جزءا من سريفوس Sériphos وخيوس Keos ، اقتسماها مع دومينكو ميشيل Domenico Michiel وبيترو جوستبانى Pietro Giustiniani (٣) . وفيما بعد منح يوحنا فاتازيس Jean Vatatzès امبراطور نيقية اليونانى جريميا غيزى القسم الشرقى من أمورجوس Amourgus وفى القسم الجنوبى من الأرخبيل ، كان لليوناردو فوسكولو Leonardo Foscolo جزيرة نامنيو (أناذيه) الصغيرة ولجاكوبو باروتزى Jacopo Barozzi جزيرة ســـانتورن Santorin (٤) غير أن سانودو ورفاقه لم يقنعوا بجزر الكيكلاد ، بل تقدموا فى المناطق المجاورة من ذلك أن جيوفانى Giivanni Quirini استولى على ستامباليا (استروباليا) Stampalia (Astropaloea) (٥) ، وهى احدى جزر سيوراديس Sparades فى حين مضى ماركو فينيه ، وجاكوبو فيارو الى الجنوب الغربى ، فاحتل أحدهمـــا Cérigo والثانى Cérigotto وجعلا منهما مركيزيتين (٦) . ولم يتورع هؤلاء المغامرون فى أن يعتدوا على أملاك امبراطور القسطنطينية ، فقد كان يملك فى شمال الأرخبيل وشرقية عددا كبيرا من الجزر ، بعضها كبير : غير أنه لما كان

---

(١) Hopf. Griechenland, op. cit., p. 222 et s., 308.

(٢) Hopf. Geschicte von Andros, p. 36 et ss.

(٣) Hopf. article Ghisi, dans Ersch et Gruber, LXVI, 336, article Giustiniami, ibid. LXVIII, 303.

(٤) Hopf, Veneto-byz. Analecten, op. cit., 499 et ss., 378 et ss.

(٥) Hopf, ibid, p. 461 et s.

(٦) Hopf, Gricchenland, dans Ersch et Gruber, LXXXV, 223. cf. Archiv. Venet, XVII, 263; XVIII, 61.

فرسانه الفلمبكون والفرنسيون يفضلون الاقطاعيات الواقعة على الأرض اليابسة فانه لم يكن يسوؤه أن يتولى احتلال هذه الجزر بنادقه اعتادوا حياة البحار . وهكذا استقر فيلوكالو نافيجاجوزو Filocalo Navigajoso فى جزيرة ليمنوس الكبيرة (١) وأضاف الاخوان غيزى الذين سبق ذكرهم الى الجزر التى يملكونها من قبل فى الكيكلاء ، جزر سكيروس ، وسكوبلوس ، وسكياتوس ، وخيليدرومى، من جزر سيوراديس الشمالية شرقى جزيرة يوبيا (٢) وكان أهم أمير من أمراء الجزر هؤلاء البنادقة دون ناكسس (٣) ، وغرندق ليمتوس اللذان لا يعترفان بسيادة الوطن الام ، ولكنهما يتبعان الامبراطور ، حتى ان غالبيـــة الســـادة الأقل مرتبة ، الذين أخذوا اقطاعيانهم من دون تاكسس كانـوا بمثابة « مولى المولى » بالنسبة الى الامبراطور . وكان من حق البندقية أن تقتضى ولاء أولئك الدين يملكون جزرا تخضع لسيطرتها ، الا أن حكومتها كانت من الحصافة بحيث تجنبت اثارة نزاع فى هذا الخصوص ، فاعتمدت على سياستها الخاصة ، وعلى قوة الظروف لضم الامبرين الى صفوف أتبـاع البندقية الاقطاعيين . وكانت الأمور كلها وقتئذ مواتية لهـا ، فالغالبية من الجزر اليونانيـة فى أيدى مواطنين من البندقية : وهذى هى النقطة الأساسية . والواقع أنه أينما أقام البنـادقة امارة كان مقرهم يحاط بمستوطنات ايطالية ، وحيثما كان فى الماضى أوكار القراصنة الذين يبعثون الرعب فى تجارة البندقية ، نجد الآن موانى صـــديقة ، وملاجىء أمينة وحصينة يستطيع ربابنة السفن والتجار البنادقة أن يطلبوا فيهــا الملاذ والحماية وهم على ثقة من احتفاء القوم بهم . واذا كان سادة هـــذه الجزر يتساهلون أحيانا فى وجود بعض القراصنة عندهم ، فان هؤلاء لم يعودوا يشكلون خطرا على السفن الفينيسية . ثم ان صغار البارونات هؤلاء ، والمستوطنات التى أتت فى أعقابهم لم تقض على الموهبة التجارية التى تتمتع بها أمتهم ، ومن ثم لم تلبث أن نمت وتطورت حركة تجـارية كبيرة ، أولا من جزيرة الى أخرى ، ثم بين الجزر والأراضى اليونانية وأخيرا بين الجزر والبندقية ، والواقع أن بعض هذه الجزر لم يكن أكثر من صخور عارية ، وفقيرة جدا بحيث لا يمكن أن تغذى سكانها . وهناك على العكس من ذلك جزر تسهم بنصيبها فى التجارة ، من حبوب ، وفواكه مجففة ، وزيت ، وعســل ، وشـمع ؛ وقطن ، وصـــوف ؛ وحرير (٤) . وفى العصـــور الوســطى كان عسل الجزر اليونانية ، وجبن سانتورن يصدر الى مصر (٥) ، وكبريت نزيروس Misyros سلعة تجـارية

(١) Hopf, Veneto-byzant. Analecten, p. 496.

(٢) Hopf, art. Ghisi, op. cit.

(٣) Hopf .. philos hist. Cl., 1856, XXI, 242 et ss.

(٤) Liber insul. archipelagi, éd Sinner, p. 85; Hopf, Veneto-byzant. Analecten, p. 394; Caumont p. 86.

(٥) Piloti, p. 376.

واشتهرت تكسس بالصنفرة (١) ، وثبت أن محاجر باروس Paros كانت ولم تزل تستغل ، وأن هذه الجزيرة تصدر رخامها ، ليس فقط الى خيوس ولكن أيضا الى البندقية (٢) . ويتبين لنـا أن امتلاك البنادقة هذه الجزر كان يكفل لهم نموا كبيرا فى الحركة التجـارية . وفى الجنوب ، كانت جزيرة كريت لحسن الحظ آخر مجموعة الممتلكات الفينيسية فى المياه اليونانية . ولا ترجع نشأة حقوق البندقية فى هذه الجزيرة الى معاهدة عام ١٢٠٤ ، فهى لم تذكر بها ، لأنها فى تلك الآونة كانت تابعة بالفعل للبندقية . وفى غضون الحملة الصليبية الرابعة أهداها الكسيوس انجيلوس ـ هذا الأمير الذى أقامه الصليبيون أولا على العرش ثم ما لبثوا أن أطاحوا به ـ أهداها الى المركيز مونفيرا . ويبـدو أنه وقت انتخـاب الامبراطور اللاتينى الذى يحل محـل الكسيوس ، قر العزم على أن تكون كريت والأقاليم الأسيوية للأمبراطورية اليونانية من نصيب من يخفق من المرشحين الاثنين (لعرش الامبراطورية) . وكان هـو المركيز مونفيرا . لذلك كان له حق مزدوج فى الجزيرة . وقد سجلت هذه الواقعة فى أخبار جوفروا دى فيلهاردوين ، وهى المصدر الوحيد الذى نجد فيه قصة انتخاب الامبراطور . غير أن المخطوطات التى فى حوزتنا تعرض قراءات مختلفة عن الفقرة المقصودة : فمنها ما ورد به isle de Crète (جزيرة كريت) ، أما السيد وايلى M. Wailly فانه يفضل نصا isle de Grèce (جزيرة اليونان) (٣) متمشيا مع رأى بوشون Buchon ، فهذا الاسم كان يطلق كثيرا فى هذا العصر على شـبه جزيرة المورة (٤) وعلى أية حـال ، لم يذكر بونيفاس Boniface سوى منحة الكسـيوس فى وثيقة ١٢ أغسطس ١٢٠٤ التى تنـازل فيها عن جزيرة كريت للدوق داندولو فى مقـابل أقاليم ذات قيمة مساوية لها واقعة فى القسم الغربى من القارة اليونانية (٥) . وكان لهذا التنازل باعثان : أولا كان الكسيوس حريصـا على استمالة الدوق لأن علاقاته مع الامبراطور كانت متوترة للغاية ، وقد يحتاج اليه فى يوم من الأيام ، وثانيا كانت حملاته البرية قد كلفته مالا كثيرا ، وكان يطلب له أن يتخلص من النفقات التى تتطلبها فوق ذلك حملة بحرية . فالواقع أنه لابد من غزو كريت لاحتلالها . وفى الوقت الذى كان يجرى تسليحها كانت وام

---

(١) Buondelm. p. 78 et s. 96; Ross, Reisen auf den griechischen I s ln, I, 41; II, 78.

(٢) Cyriacus Anconitanus, dans Targioni-Tozzetti, Relazioni d'alcuni viaggi fatti in Toscana, V (Firenze 1773), p. 424; Buondelm; l.c. p. 94; Fel. Fabri, Evagatorium, III, 264, 299.

(٣) Geoffroy de Villehardouin, éd. de Wailly, p. 152, 156.

(٤) ظر على سبيل المثال Henri de Valenciennes

(٥) Taf. et Thom. I, 512 et ss.; Monum hist. patr. Chartae, I, 1112 et ss.

نزل تحت سلطة اليونانيين (١) · وأخطأت الجمهورية بترددها منذ البداية ، واكتفت مؤقتا بأن تعطى الأسطول الذى كان عليه أن يرافق البطريرك موروسينى Morosini الى القسطنطينية الأمر بأن تترك فى طريقها حامية صغيرة فى حصن سبينالونجا Spinalonga (شرقى كانديا Candie) · واعتقد كونت مالطة ، انريكو بسكاتورى Enrico Pascatore التابع لعرش صقلية ، والذى كان شديد الحماس لسيادة وطنه جنوا ، من الوجهين البحرية والتجارية (٢) ، أعتقد أن اللحظة المناسبة قد حانت لايقاف تقدم البنادقة فى اليونان · لذلك بدأ فى عام ١٢٠٥ بارسال ثلاث سفن حربية الى المياه اليونانية لايقاع كل أذى مستطاع بأعداء جنوا ، فأسرت بالفعل سفينتين بندقيتين (٣) · وفى عام ١٢٠٦ قام بنفسه على رأس حملة كبيرة متجهة الى كريت ، وبسط سلطانه على الجزيرة بأسرها (٤) · واذ امتلأ زهوا بنجاحه ، فانه أضاف الى لقبه comes maltoe كونت dominus cretoe (٥) (سيدكريت) وتأهب لغزو الجزر والسواحل المجاورة · وتبعا لبعض الأخبار التاريخية اللاحقة ، نجد أن التجار الجنويين المقيمين بالجزيرة شكلوا من أنفسهم هيئة اجتماعية تحت رئاسة أربعة قناصل (٦) · ومن عجائب الصدف أننا نجد أسماء هؤلاء القناصل هى بالذات أسماء قناصل الاسكندرية المذكورة فى « الحوليات الجنوية » لعام ١٢٠٤ (٧) : هذه المعلومة كافية لأن تجعل الخبر كله مشكوكا فى صحته · وفى السنة التى استقر فيها الكونت انريكو فى كريت ، أرسلت البندقية الى هناك أسطولا كبيرا استرد قسما كبيرا من الجزيرة · ودافع ازيكو عن الأرض خطوة خطوة · وأخيرا فى عام ١٢٠٧ أمست العاصمة وباقى أجزاء الجزيرة فى أيدى البنادقة · وفى عام ١٢٠٨ استطاع انريكو أن يعاود النضال بفضل التعزيزات التى أرسلها اليه وطنه ، وواتاه الحظ فى البداية ، فأسر الاميرال الفينيسى رانييرى Ranieri ، غير أن وصول أسطول ثان على التقهقر (٨) · وفى عام ١٢١٠ طلب من جديد مساعدة جمهورية جنوا : فحاولت الحكومة أولا أن تتدخل بالطرق الدبلوماسية

---

(١) Hist. duc. Venet., l.c. p. 95.

(٢) Annal. Jan. p. 121; Hist. duc. Venet., ibid; Papon, Histoire de Provence, II, Preuves, no 51; Annal. Jan. ad. an. 1243, p. 209; Canale, Nuova istoria di Genova, II, 440.

(٣) Annal. Jan. p. 124.

(٤) Hist. duc. Venet., l.c.; Annal Jan. p. 125; Dand. p. 335.

(٥) Lib. jur. I, 540, 553. نجده بهذا اللقب فى عام ١٢٠٨ ، ١٢١٠ ·

(٦) Pagano, .. Delle impresse e del dominio dei Genovesi nella Grecia, p. 12.

(٧) Annal Jan. p. 122.

(٨) Dandolo, p. 335; Hist duc. Venet., l.c.; Da Canale, dans l'Archiv. stor. ital. VIII, 347.

ولكن البندقية رفضت حتى مجرد الكلام عن اجراء تســوية مع انريكو ، فأرسلت اليه الحكومة أسطولا (١) ، وفتح بعض المواطنين باب التبرع لتغطية نفقات الحملة (٢) ٠ وجوابا على ذلك وعد بسكاتورى المشتركين فى الاكتتاب بالسداد العاجل ، وأعطى بعضهم كضمان لذلك ايرادات جزيرته « جوتزو » Gozzo ، ومن ناحيــة أخرى تعهد لوطنه بموجب معــاهدة بتاريخ ٢٥ يولية ١٢١٠ أن يمنح الجنويين فى كل مدن الجزيرة التى سوف يغزوها (٣) ، حيا وكنيسة ، وسوقا ، وحمامــا ، وفرنا ، بالاضافة الى محكمة خاصة فى أربع مدن ، وتعهد أخيرا بالتصريح بحــرية التجــارة ٠ أما بخصــوص مبلغ ١٨٠٠ جنيه جنوى ، وهو مجموع ما قدمته الجمهورية من مال ، فانه تعهــد برده على أقساط ، بالاضافة الى دفع جزية سنوية قدرها ألف « هيبربر » ، وأن يوصى للجمهــورية بملكية الجزيرة فى حالة وفاته دون أن يترك ورثة شرعيين من الذكور (٤) ٠ وليس ثمة مصــدر فينيسى أو جنوى ينبئنــا عن تصرفات كونت مالطة أثناء هذه الحملة ، ولكن الشىء المؤكد هو أن البندقية ظلت مالكة للجزيرة ، وأنه فى المعاهدة التى وقعتها الجمهوريتان عام ١٢١٢ تخلت جمهورية جنوا ضمنا عن ملكية الجزيرة ٠ وأقسم الكونت ايزيكو نفسه اليمين على مراعاة تنفيذ المعاهدة ، والا تتحول قوات وطنــه ضــده اذا ما شن حربا من جديد ضد البندقيــة (٥) ٠ وفرض الشرط نفسه على زميله « اليمانو داكوســنا » كونت (سيراكيوز) ٠ وعلى الرغم من العهــد الذى أعطاه هذا الأخير ، فانه سلح فى عام ١٢١٧ أسطولا من القراصــنة للقيام بحملة الى كريت ، وكلفه هذا العدوان سنة قضــاها فى الأسر فى البندقية ، فضلا عن أنه استدان مبلغا كبيرا لسداد التعويضات التى طلبت منه (٦) ٠

ولم يكن الأعداء الخارجيون هم وحدهم مصدر ازعاج حكومة البندقية فى كريت : فقد كانت الجزيرة آهلة بســكان مستقلين ومحبين للقتال ٠ فبتأثير التحريضــات الخفية والوعود بالنجدة من جانب يوحنــا فاتانزيس امبراطور نيقية ، اشتعلت ثورات كثيرة اتخذت أحيانا أبعادا مزعجة ، فكان لا مفر من اتخــاذ اجراءات قمع شــديدة ٠ ولما كانت حــكومة الجمهورية (الفينيسية) راغبة فى اقامة علاقات وثيقة بين جزيرة كريت وبين البندقيــة فانها أجرت فى كل أنحاء الجزيرة تقسيمات للأراضى وزعتها على بعض المواطنين البنادقة ، فأعطت الأشراف قطعا كبيرة ، والعامة قطعا صغيرة مع حق نقلهــا

---

(١) Annal. Jan. p. 127; Dand l.c.

(٢) Annal. Jan. p. 129.

(٣) Lib. jur I, 554; Pagano, l.c. p. 15.

(٤) Lib. jur I, 553 et s.

(٥) Canal (Nouva istoria di Genova, II, 17); Annal. Jan. p. 132.

(٦) Annal. Jan. p. 138; Hist. duc. Venet., l.c.; Lib jur, I, 613, 819.

الى ورثتهم من أقربائهم المباشرين ، أو التصرف فيها بالبيع بشرط أن يكون المشترى من البنادقة · وكانت الملكيات الكبيرة اقطاعيات للفرسان ،والصغيرة اقطاعيات للجنود المشـــاة ، وكان ملاكهـا ملزمين بأداء الخدمة العسكرية اذا طلب منهم ذلك دوق كانديا ، أما فى وقت السلم فانهم أحـرار فى ممارسـة التجارة · وبعد ذلك توسعت الجمهـورية فى نظـام الاقطاع هذا (١) . ولم تحتفظ لنفسها الا بشريط ضيق من الاقليم على طول السواحل ، وبالعاصمة حيث أقامت دوقا (حاكما) يعين عادة لسنتين ، ويحكم المدينة بمساعدة اثنين من المستشارين ومجلسين ·واحتفظت المستعمرة زمنا طويلا بالطابع العسكرى الذى كان لها فى البداية ، وذلك على أثر نشوب العديد من الثورات التى قام بهـا الأهالى اليونانيون ؛ وأجبرت هذه الثـورات المستعمرين أن يتدربوا على القتال ، ومن مساوئها أنها كثيرا ما عرقلت تجارتهم · غير أنه لما كانت الجزيرة واقعة على الطريق التجارى العالمى الرئيسى ، كان من السهل عليهم أن يحصلوا على جميع أنواع السلع ، ويبيعوا منتجات حقولهم ، وكرومهـم ، وخلايا النحل الخ · وكانت كريت تنتج الدقيق (٢) ، والعسـل ، والشمع ، والجبن (٣) ، وكذلك · وبالاضافة الى هذه الأغذية العادية ، نبيذ مالقوازيا Malvoisie (٤) المشهور ، والسكر ، والقطن ، والقرمز ، واللادن (٥) . وكان المئات من السفن تأتى من كل صوب وحدب نشحن أنبذة الجزيرة ، وكانت الشخصيات الكبيرة فى مصر تتعاطى خفية هـذا الشراب اللذيذ (٦) · الا أنه لم تكن هناك أمة تستطيع الحصول على هذه المنتجات بشروط مغرية مثلما يستطيع البنادقة ، ذلك لأنه كان من المنصوص عليه صراحة ــ وهذا شىء بديهى ــ أنه لا يجوز للمستعمرين أن يفرضوا ضرائب على السلع المبيعة للبنادقة (٧) ·

ولم يكن ما جعل امتلاك هذه الجزيرة عظيم الفائدة للبندقية خصوبتها الفائقة فحسب ، ولكن كان ذلك بنوع خاص بسبب موقعهـا الملائم كل الملائمة عند ملتقى طرق أقسام العالم الثلاثة · فعلى طريق الغرب الكبير الى

---

(١) Taf. et Thom. II, 129 et ss., 234 et ss., 314, 470 et ss.

(٢) Fel. Fabri, III, 280; Cammem. regesti, I, 50, no 233.

(٣) Piloti, p. 376, Aboulf., trad. Reinaud, II, 276; Taf. et Thom. III, 254.

(٤) Fabri, l.c., Uzz. p. 106; Piloti, l.c.; Casola, p. 42; Commem. regesti, I, 238, no 312. Roehricht et Meisner, Deutsche Pilgerreisen p. 341 : cf. p. 325; Sanudo, Diar. II, 478, 628.

(٥) أنظر البراهين فى الفصل المخصص للسلع التجارية ·

(٦) Piloti, p. 376, 404; Hopf, Griechenland, op. cit., LXXXVI, 462. Pashley, (Travels in Crete, II, 51 et ss.)

(٧) Taf. et Thom. II, 132, 244 et s.

مصر وسوريا ، كانت كريت هى المحطة التجارية الرئيسية ، وكثيرا ما كانت السفن التجارية الفرنسية والاسبانية تعبر البحر على خط مستقيم ، تاركة الجزيرة الى يسارها ، وكان هذا هو أقصر خط بالنسبة اليها . ولكن الأمر كان جد مختلف بالنسبة الى الايطاليين . وكان على الجنويين والبيزيين مثلا أن يجتازوا حتما مضيق سينا للابحار الى مصر أو سوريا ، ومن هناك كان من الميسور عليهم أن يتوقفوا عند جزيرة كريت الواقعة بالضبط عند منتصف الطريق (١) . أما بالنسبة الى القادمين من البحر الادرياتى ، كالبنادقة ، فانهم يمرون أولا أمام مودون وكورون حيث لا يفوتهم أن يلقوا مراسيهم . ويبدو أنه عند خروج السفن التى تنقل الحجاج الى سوريا من هذين الثغرين ، فانها تتخذ فى يسر الطريق المباشر الذى يمر بجزر اكيكلاء ورودس ، وتترك عندئذ جزيرة كريت الى يمينها (٢) . وحين تكون وجهتها مصر ، فانها تتخذ أحيانا طريقا مباشرا فى أعالى البحار من مودون تاركة كريت الى يسارها (٣) ، ولكن ذلك كان يحدث لماما ، اذ كانت ترسو غالبا عند كانديا (٤) . كانت هذه هى القاعدة العامة بالنسبة الى السفن التجارية . وعندما تقلع قاصدة مصر فانها تسير بحذاء سواحل الجزيرة حتى طرفها الشرقى: وهناك تقابل السفن القادمة من الشمال ، من القسطنطينية أو البحر الأسود قاصدة مصر (٥) ، ولما كانت السفن الأخيرة لا يفوتها أن تتصل بالجزيرة ، وهى ماضية طريقها ، فان الطريقين يختلطان فى اتجاههما صوب الجنوب (٦) نرى من ذلك مدى اهتمام البنادقة بضمان امتلاكهم جزيرة كريت : اذ كانت نقطة دعم قوى لتجارتهم مع سوريا ومصر . وفى حز كان ربابنة سفنهم يقنعون بالمرور على مرأة من الجزيرة دون أن يرسوا عندها ، فانهم يستطيعون أن يبتعدوا عنها وهم مطمئنون آمنون . ومن الوجهة السياسية البحتة كان احتلال الجمهورية لكريت يكفل لها التفوق على كل جزر الأجنيل الصغيرة : وفى امكاننا . أن نمضى الى أبعد من ذلك فنؤكد أن هذا الاحتلال كان شرطا جوهريا لبقاء السيادة الأوروبية التى استقرت فى اليونان فى أعقاب الحملة الصليبية الرابعة (٧) .

واذ لم يقنع البنادقة بضمان تفوقهم فى المياه اليونانية عن طريق احتلال

(١) Gesta Ricardi, éd. Stubbs, II, 198.

(٢) Nic. d'Este, p. 113; Fabri, I, 166; Gumppenberg dans le Reyssbuch des heil. Landes, p. 237.

(٣) Frescobaldi, p. 19 ; Sigoli p. 157 : Gucci, p. 273.

(٤) Casola, p. 42; Georg. Gemnicensis (Baumgarten), p. 470, 623.

(٥) سوف نرى كيف أن دوق كريت قبض على بعض العبيد المرسلين من القسطنطينية الى مصر ، عند مرورهم بالجزيرة ، مما أثار خلافا بين هذا الأمير وبين سلطان مصر .

(٦) Sanudo, Secr. fid. cruc. p. 69.

(٧) Taf. et Thom. III, 57.

جزيرة كريت ، فانهم عزموا أيضـــا على انشـاء نقطة ارتكاز غربى الأرخبيل بالقرب من القارة . كانت جزيرة يوبيا Eubée ، حسب معاهدة التقسيم من نصيب البنادقة (وقد أشير اليها فى النص بنقطى : أوريوس Oréos فى الشمال ، وكارستوس uarystos فى الجنوب) ، ولكنهم وجدوا هنـاك عند وصولهم ، كما وجدوا فى مواضع أخرى أن المكان قد استولى عليه بعض الدخلاء . ففى الوقت الذى كان فيه جيش المركيز دو مونفيرا قد اجتاح شمال اليونان ووسطهـــا ، تقدم فارس فلمنكى من رفاقه اســـمه جاك دافسن Jucques d'Avesnes ناحية جزيرة يوبيا ، وكان دخولها ميســـورا لوجود قنطرة تربطها بالقـارة ، فانتهز الفرصـــة وأقام حامية فى نجربونت (حاليا يوبيا) ، وعاد بالتالى فلحق بالجيش وتبعه حتى البيلوبونيز . وهكذا كانت جزيرة يوبيا ضمن فتوحات المركيز دومو نفيرا الذى قسمها الى ثلاث اقطاعيات كبيرة ، ومن ثم أشير الى سادتها فى الوثائق الخاصة بهذه الجزيرة ، وفى عهد السيادة الأوربية عليها بصفتهم Terzicri و tierciers (١) (أى الثلاثيون)

وعلى هذا يبدو أن البندقية وجدت ثمة من يقوم مقامها . ولكن حدث فى عام١٢٠٩ أن أكبر هؤلاء الثلاثى، رافانو دالى كارتشيرى Ravano delle Carceri من فيرونا اعترف رســـميا بحقوق الجمهـــورية : وكان هذا الاعتـــراف بالنســـبة اليه وســـيلة للتخلص من سيادة الامبراطور اللاتينى ، بعد أن ثار ضده بالاتفاق مع المركيز بونيفاس . وعلى ذلك أعلن نفسه تابعا للجمهورية ، واستخدم نفـوذه لحمل سائر الســادة الفرنجة و « الأرخونت » (الولاة) اليونانيين فى الجزيرة على الاقتداء به . وكان الدليل الملموس على هذه التبعية ضريبة اقطاعية مقدارها ٢١٠٠ هيبربر ، وهدية مكونة من أقمشة حريرية . وتم الاتفاق فضلا على ذلك على أن يكون للبندقية كنائس ومنشئات ، وأن تقام الدعاوى المتعلقة بمصالح البنادقة أمام قضاة من جنسيتهم ، وأن يمارس التجار البنادقة تجارتهم بمطلق الحرية فى الجزيرة ، ودون أن يدفعوا ضرائب (٢) . وبعد موت رافانو جدد الولاء أرملته وابنته ، وابنا أخيه (أو أخته ؟) مارينو ، وريزاردا ، ومواطنـــاه البرتو وجوليليمو ، واقتسموا مثنى مثنى الاقطاعيات الثلاث التى تشكل اقليم الجزيرة (٣) . وفى البداية كانت أملاك الجمهـــورية المباشرة هنــــاك قليلة ، تشـــمل بضــــعة مبانى منعزلة ، ومجموعات منازل فى نجربونت ، أهمها مســـكن رافانو دالى كارتشــــيرى الذى صــــار دارا عامة تستخدمها المستعمرة الفينيسية (٤) ، وبضـــع كنائس فى المدينة نفسها

---

(١) Hopf, Griechenland, op. icit., LXXXV, 211, 225 et s.

(٢) Taf. et Thom. II, 89-96.

(٣) Ibid, II, 175-184.

(٤) Ibid, 11, 177, 181 et s ; III, 5, 10, 14 ; Sathas, Doc. inéd. 11, 113.

منها كنيسة سان مارك ، وهي في الوقت ذاته كاتدرائية (١) ، وأخيرا fondaco وميدان يستخدم سوقا للنبيذ (٢) • ولا نعرف ما اذا كانت البندقية قد استخدمت حقها في امتلاك كنائس وأسواق في سائر مدن الجزيرة ، ولكن كان لها « بايل » (حاكم) مقيم في وسط الحي Campus الذي يقطنه البنادقة في العاصمة ، وكان هذا الموظف يتولى ادارة المستعمرة بمساعدة اثنين من المستشارين ، ويمثل الدوق بصفته السيد عاهل الجزيرة كلها ، ويتمتع بهذه المنابة بسلطات واسعة • وحين تنتقل ملكية قسم من الاقاليم الى حاكم « ثلاثى » جديد ، بالوراثة أو الزواج ، فان هذا الحاكم لا يستطيع ممارسة حقوق السيادة الا بعد أن يقلده « البايل » منصبه ، وبعد أن يقدم اليه ولاء اقليمه • ومع ذلك كان الحكام « الثلاثة » منذ البداية تابعين لعاهلين اقطاعيين فى وقت واحد ، عاهل جمهورية البندقية من جهة ، وأمير المورة من جهة أخرى • وحين تزوج وليم دى فيلها ردوين من وريثه رافانو دالى كارتشيرى ، أمد هذا الزواج بذريعة جديدة للتدخل فى شئون الجزيرة ، وكان ذلك من سوء طالع البندقية • كان أهم ما يشغل الحكام البنادقة هو القضاء على نفوذ جيرانهم الأقوياء فى الجزيرة • وانتهى هذا النضال المستتر الى نشوب معارك علنية • واستمرت الحرب عامين (١٢٥٦ – ١٢٥٨) وتقلبت أحداثها ، وانتهت بهزيمة الحلفاء الذين كانوا مع البندقية فى الأراضى اليونانية • ولم يزل فى مقدور الجمهورية أن تتفاوض ، الا أنها فقدت من ذلك الحين كل أمل فى النجاح • وانتهى الأمر بالصلح فى عام ١٢٦٢ ، ولكن كان من شروط المعاهدة هدم قصر نجربونت ، وكان هذا الحصن يتحكم فى القنطرة القديمة القائمة بين الجزيرة وبين القارة ، ومن ثم يحمى كلا من المدينة والجزيرة من أى هجوم يأتى من هذه الناحية ، واحتفظت الجمهورية فى الجزيرة بحقوقها المكتسبة بمقتضى المعاهدات السابقة ، ولكن كان عليها أن تقر بسيادة أمراء المورة على الحكام الثلاثة ، وكان هذا عقبة دائمة فى سبيل ممارسة حقوقها (٣) • وكان لابد للجمهورية من أن تؤجل الى المستقبل أملها فى أن تصير السيدة الوحيدة على الجزيرة ، ولم يكن الوقت الحاضر مناسبا للخلافات الداخلية • وأخيرا أطاح اليونانيون بالامبراطورية اللاتينية ، وأقاموا ميخائيل باليولوجوس على العرش • وكان لابد أن يتماسك الفرنجة بقوة ويقاوموا العدو المشترك ، وفى هذه الأثناء كان التجار البنادقة يمارسون التجارة فى جزيرة يوبيا بكامل حريتهم مثلما يمارسونها فى بلدهم الأصلى دون أن يدفعو ضرائب ، ويتمتعون أيضا بامتياز استعمال الموازين والمكاييل الخاصة بهم فى عمليات البيع (٤) •

---

(١) Taf. et Thom. II, 91, 94, 117 et s., 181 et s., 480 et s.; 111, 15, 370-372.

(٢) Ibid, II, 91, 94, 177, 181.

(٣) Taf. et Thom. III, 46-55.

(٤) Ibid II, 177, 182; 111, 15, 48, 54.

وكانت الرســـوم التى يدفعهـا التجـار الأجانب للجمارك تدخل فى خزائن الجمهورية ، وكان الخراج الذى يؤديه الحكام الثلاثة سنويا تنفيذا للمعاهدة الأولى (١) قد ألغى فى عام ١٢٥٦ ، واستبدل به ايرادات الجمارك من البضائع الأجنبية (٢) . وكانت الجزيرة شـــديدة الخصـوبة ، تصـدر القمح (٣) ، والنبيذ ، والزيت (٤) والشمع ، والعســل (٥) ، والحرير (٦) . ويبدو أن الحرير كان يصنع فى الجزيرة نفسها ، اذ يتبين من معاهدتى عامى ١٢٠٩ ، ١٢١٦ أن الحـكام الثلاثة كان عليهم أن يرسلوا سنويا الى الدوق قطعـة من « البروكار » المذهب ، كما نستنتج أيضا من هـــاتين الوثيقتين أن الحرير الخـام والحرير المصنع يشكلان جزءا من الثروة التى يتمتع بها هؤلاء الحكام بضمان الجمهورية .

تكلمنا قبلا عن مدينة هالميروس Halmyros (الميرو ، ارميرو) (٧) الواقعـة شمالى جزيرة يوبيا فى خليج فولوس Volo ، وكانت بموقعها هذا سوقا لتصريف قمح تساليه (٨) . ولم تكن فى معاهدة التقسيم من نصيب البندقية ، لا هى ولا جارتهـا وسميتها (الميرى) (٩) . وعنـدما اســتولى المركيز دو مونفيرا على تساليه كانت ضمن الاقطاعية التى منحها لنبيل لومباردى يدعى جوليلمو دى لارسا Guglielmo de Larsa و « دى لارسا » هذه تحريف لاسم لأريس (لازيسا) — (Larissa) Larisse مقر هذه الشخصية (١٠) . ونحن نعرف أن البنادقة كان لهم مستعمرة فى الميرو قبل الحرب الصليبية الرابعة بزمن بعيد ، ومكثوا هناك طوال عهد سيادة الفرنجة فى سلام مستمتعين بأملاكهم وكنيستهم (١١) . واتماما لهذا العرض ، يتعين الآن أن نعبر الأرخبيـل فى خط مستقيم ، ونمر بكيرسوينز تراقيـة Chersonnèse de Thrace (الآن شبه جزيرة جاليبولى) : هنا جـرى التقسيم طبقا لنصوص المعاهدة . ونجد أحسن برهان على ذلك فى اتفاقية (١٢) عقدت عام ١٢٠٦ بين مندوبى الامبراطور هنرى

---

(١) Ibid. 11, 90, 93, 176, 181.

(٢) Ibid, III, 14, 47, 53.

(٣) Pegol, p. 145.

(٤) Taf et. Thom. II, 177, 181, 183; 111, 15.

(٥) Pegol. 1.c., Piloti, p. 375.

(٦) Pegol. 1. c.

(٧) Tafel, De Thessalonica, p. 495 et s.; Taf. et Thom. I, 266, 488.

(٨) Sanut. Secr. fidel. cruc. p. 68.

(٩) Taf. et Thom. I, 487.

(١٠) Hopf. Griechenland, op. cit., LXXXV, p 210.

(١١) Taf. et Thom. II, 15; 111, 28; Docum. sulle relaz. tox. p. 89:

(١٢) Muratori, Antiq. ned. oevi, III, 233 et s.

من جهة ومحافظ (بودستات) البندقية من جهة أخرى فى مناسبة وضع الحدود للأقاليم . وكان بين البنادقة الذين يحتلون جاليبولى ، ومونتينيانى Muntinianoe وسيجوبوتاموس Sigopotamos ، وبين « الفرنجة » سادة سستوس Sisto ، وبلاجيا Plagia ، وبوتاميا Potamia (١) منازعات متكررة ، بخصوص تحديد الأراضى فى النواحى الرئيسية . ففى المعاهدة الكبرى كانت المناطق الثلاث الأولى من تصيب البنادقة (٢) ، وبلاجيا (٣) وبوتاميا من صيب الصليبيين » أما سستوس فانها وحدها هى التى لم تذكر فى المعاهدة ، بل ذكر بدلا منها جارتها ماديتوس madytos (٤) . وكانت جاليبولى وحدها هى أهم المدن كلها للبندقية ، اذ كانت فى حاجة اليها لتكفل تفوقها فى الدردنيل ، ومع ذلك منحتها كاقطاعية لاثنين من النبلاء ، ماركو داندولو ، وجياكومو فيارو ، فعاد داندولو الى البندقية ، ومضى فيارو الى جزيرة تشيريجوتو حيث أنشأ بارونية . عندئذ الحقت جاليبولى بالاقاليم التى يحكمها مباشرة « بودستات » الجمهورية فى القسطنطينية(٥) . وكان من الأهمية العظمى لدى ربابنة السفن الفينيسية أن يكون فى حوزة وطنهم موقع حصين فى هذه القناة الضيقة التى لابد لهم من عبورها للوصول الى القسطنطينية . ولكن للتوقف فى الطريق ، أو البحث عن فرصة مناسبة لعقد صفقات تجارية (٦) ، فانهم يفضلون كثيرا ثغور بانيوم Panium ورودستو ، وهيراقليا فى بحر مروة ، فهذه الموانىء ، وبخاصة رودستو (٧) كانت بمثابة أسواق لقمح سهول تراقيا الغنية . ثم ان البندقية كانت قد رفعت علمها فى قلب هذا الاقليم . وفى سجلات هذا العصر نجد أركاديوبل Arcadiople وهى برجولا Berguloe (٨) القديمة ، مدينة Tchatal-Borgas أو Leulé-Borgas الحالية على الطريق من بيزنطة الى اندرنيول ، مذكورة على أنها مدينة فينيسية (٩) . وحتى أندرينوبل نفسها

---

(١) Muntaner, trad. II, 160.

(٢) Taf. et Thom. I, 468.

(٣) لازال الجزء الأكبر من سكان هذه الناحية من أصل يونانى حتى اليوم يسمونها بلاجيارى ، أما الترك فيسمونها بولاير .

(٤) Taf. et Thom. I, 483.

(٥) Dandolo, p. 334

(٦) Hopf, Griechenland, op. cit. LXXXV, p. 222 et s.; Liber plegiorum, p. 52.

(٧) Villehardouin, p. 136, 146.

(٨) Brochart, Advis directif, dans la Collect, des chron. belges, Namur, V. 306.

(٩) Commentaire d'Hiéroclis par Wesseling, éd. Bonn. p. 402 et ss. ; Willehardouin, p. 125, 145.

كان يحتلها فى البداية حامية فلمنكية ، فاضطرت الحامية الى الجلاء بمقتضى معاهدة التقسيم ، وحلت محلها حامية فينسية (١) • ولم يدم هذا الحال زمنا طويلا ، فبعد بضعة شهور ، ثار الأهالى وطردوا البنادقة ، الا أنهم وافقوا بعد ذلك على قبول سيادة البندقية بشرط أن يكون الحاكم يونانيا صديقا للاتينيين ، اسمه تيودور براناس Théodore Branas • وبعد أن استقر المقام بهذا الحاكم اعترف بدوق البندقية سيدا اقطاعيا له (١٢٠٦) (٢) • ورغم كل شيء ، كانت سيادة البندقية على اندرينوبل دائما سيادة وقتية غير ثابتة •

أما فى القسطنطينية ، فعلى العكس من ذلك كان لاقامة البنادقة طوال عصر الامبراطورية اللاتينية صفة الثبات والرسوخ ، واتسع حيهم القديم الذى كان لهم فى عهد اليونانيين (٣) ، وذلك بضم العديد من الملحقات : ذلك لأن العاصمة كانت موزعة بينهم وبين سائر أصحاب الحقوق فيها بنفس النسبة التى كانت لسائر أجزاء الامبراطورية : الربع للامبراطور (٤) ، وثلاثة الأثمان لهم • ولم تكن أملاكهم الجديدة بعيدة عن القديمة ، ذلك لأن ثمة مجرى مائيا (قناة أو جدولا ؟) يروى العاصمة كان يمر « من الحى الفينيسى القديم الى الجديد » (٥) • ويبدو أنه ينبغى البحث عن هذه الممتلكات الجديدة بخاصة داخل القرن الذهبى (٦) حتى البلاكويرن (٧) Blaquernes ولكن بقى للامبراطور القصر الذى يحمل هذا الاسم • (٨) وضم الحى الفينيسى فى محيطه الجديد حوض المرفأ (arsana) الذى تهدم الآن ، وكان وقتئذ مجاورا لباب القصر Balat-kapoussi (٩) بالاضافة الى مجموعة من الاسكلات تستطيع السفن أن ترسو عندها بسهولة ، وتباشر عمليات الشحن والتفريغ (١٠) • ولاحتواء كميات البضائع الهائلة التى تجلبها السفن، شيد « البودستات » جاك تيبولو Jacques Tiepolo فى عام ١٢٢٠ مستودعا هائلا (١١) • وترتب على امتلاك مساحة أكبر من الأراضى امتلاك عدد أكبر

---

(١) Ibid, p. 108 et s., 110 et s., 124.

(٢) Ibid, p. 147; Nicét. p. 830; Taf. et Thom. II, 17-19.

(٣) Taf et Thom. II, 289, 298

(٤) Villeh. p. 136.

(٥) Taf. et Thom. II, 284, 292.

(٦) Paspati, VII, 10 et s., 197 et s.

(٧) Taf. et Thom. II, 48.

(٨) Taf. et Thom. I, 447, 450.

(٩) Ibid, II, 284, 293 ; Cf. Hammer, Constantinopolis und der Bosporus, 1, 21, 126-603.

(١٠) Ibid. II, 4 et s., 11, 60.

(١١) Flamin. Cornelli. Eccl. venet. III, 99.

من الكنائس والأديرة • وقبـــل الغزو كان البنـــادقة يملكون كنيســـتى سان مارك ، وسانت مارى المسماة **de embulo** (أى الخاصة بالحى) تمييز لها عن الكنيستين الأخريين (١) : كنيســـة ســـان نيكولاس (٢) ، وكنيسة سان اكند St Akindynos (٣) • وكانت الأحياء الملحقة تضم دير بانتيبوبيتس Pantépoptès (٤) ، وكنيسة بانتوكراتور **Pantocrator** (٥) التى أصبحت فيما بعد مسجد تل زيريك Zeirek (٦) ، ودير ماريا بيربليتيه Maria Périblepté (حاليا صولو ــ موناستر Soulo-Monastir (٧) • ولفصـــل أملاك البنادقة عن أملاك جيرانهم فصلا تاما ، وربما أيضا لحمايتها من غارة مفاجئة ، بدأ أول بودستات ، مارينو جينو Marino Geno ببناء حائط جديد (٨) • الا أن وسائل الدفاع كانت على ما يبدو مركزة فى قلعة حقيقية castrum (٩) •

كانت القسطنطينية بطبيعة الحال مركزا لمتلكات البندقية الاستعمارية ولكن تركز فها فى الوقت نفســـه مجموعة كبيرة من المصالح ذات الأهميـــة الحيوية للجمهورية ، حتى لقد طرأ لها فى وقت ما أن تنقل مقر الدوق اليها(١٠) وعلى أية حال بقيت هذه الفكرة فى نطـــاق المشروع ، وربما لم تناقش بالمرة بصورة جدية • واستمر خلفاء انريكو واندولو الذى توفى فى القسطنطينية يحكمون من مدينة البندقية الجمهورية ، وممتلكاتهـــا فى اليونان مستغلين نفوذهم على حلفائهم الأباطرة اللاتينيين • ومع ذلك ، فاعتبارا من تلك اللحظة وعلى مدى قرن ونصف (١١) اضافوا الى ألقابهم لقب : dominator quartoe **partis et dimidioe totius imperue Rimanioe** وهو لقب ليس فيه كثير من المبالغة لأنه بالاجمال يعبر عن الواقع الذى سجلته معاهدة التقسيم • ولا ننسى

(١) Taf. et Thom. I, 167 et s., 280; II, 422; Lib. jur. I, 1352; Commem, Reg. 92, no. 530.

(٢) Taf. et Thom. I, 280; El Cornel., l.c. II, 259.

(٣) Taf. et Thom. I, 67, 127, 381; II, 5, 10, 449 et s.; Ughelli, Ital. sacr. V, 1133; Archiv. Venet XX, 314 et s.

(٤) Flamin. Cornel. l.c. VIII, 134 et ss.; Dandolo, p. 342 et s; Taf. et Thom. II, 423.; Hammer, op. cit., I, 381, Dethier, Der Bosphor und Constantinopel (1867), p. 39; Paspati, 313 et s.

(٥) Taf. et Thom. II, 46, 348.

(٦) Hommer, op. cit., I, 378 et s., 471; Dethier, op. cit., Paspati, 290. 309 et ss.

(٧) Riant, Exuvoe sacrae Cpol. p. XCV, 135, 137; Paspati, 379.

(٨) Taf. et Thom. II,

(٩) Lib. jur. I, 1352.

(١٠) لم يذكر هذه الواقعة سوى مؤرخ واحد فى عصر أكثر حداثة ، هو دانيل باربارو : أنظر Daniele Barbaro : Hopf, Griechenland, op. cit., LXXXV, 251.

(١١) Jusqu'à Giov. Delfino (1356-1361).

أن سيادة البندقية كانت تمتد على كل من ممتلكاتها المباشرة ، ومجموعـــة من الدويلات التى قبل أمراؤها سيادة البندقية عليها • وفى القسطنطينية كان يمثل الدوق نائب «بودستات» هو فى ذات الوقت رئيس المستوطنة الفينيسية بالعاصمة، وحاكم كل ممتلكات البندقية فى رومانيا Romanie (١)• وقد انتخب هؤلاء « البودستات » وهو مارينو جينو بعد وفاة واندولو بوساطة مجلس من بنادقة القسطنطينية واختير من بين أعضاء هذا المجلس لأنه كان من الضرورى الاسراع فى آن يحل محله رئيس نشيط وحازم • ولكن البندقية احتجت على هذا التعدى على حقوقها ، ولما كان هؤلاء المستوطنون مخلصين لوطنهم قبل كل شىء ، فانهم امتنعوا فيما بعـد عن انتخـــاب رئيسهم ، وأقســموا أن يقبـلوا من يعبنـــه الدوق (٢) • وعلى هــذا كان كل البودستات بعـــد مارينو جينو موفدين من البندقية ، ولسنا نعرف على وجه اليقين أســماءهم أو مدة توليهم وظيفتهم أو عدد المستشارين الملحقين بهم ، ذلك لأننا نجد قوائم باسمين تارة ، أو ثلاثة أو بخمسة أسماء تارة أخرى : وكان المجلس يتكون غالبا من ستة أعضاء ، كما فى البندقية • ويساعد البودستات فى الشئون القضائية خمسة قضاة judices وربما ستة ، وفى الشئون المالية وكيلان للخزانة camerarue (٣) • وكان لوظائف البودستات هذه فى أعين الكافة أهميـــة كبرى ، وفى لقبــه بالذات برهان على ذلك ، وكان هذا اللقب يضفى على حامله اعتبارا آخر ، خلاف الاعتبار الذى يتمتع به القنصل أو « البايل » (حاكم المستوطنة) • وينبغى فضلا عن ذلك ، ولمزيد من الدقة القول بأن البودستات البندقى كان مثيلا فى التدرج الوظيفى بالامبراطورية اللاتينية بال despotc (ومعناه الأمير فى المفهوم البيزنطى) : كان يعامل الأباطرة وبارونات مجلس الوصاية باعتباره ممثلا لدولة حليفة ، متمسكة بحقوقها ، ولا يجوز التغاضى عن نصائحها وطلباتها ،

---

(١) Taf. et Thom. I, 567 et ss., II, 18, 206, 216, 221, 227, 254, 347;; 111, 23. Taf. et Thom 1, 569 et ss.; II, 15.

ــ ومع ذلك ، فمنذ أكتوبر ١٢٠٥ لم يحتفظ البورستات الأول فى نطاق سيادته بدوقية دورانزو ، وجزيرة كورفو بسبب بعدهما • أما جزيرة كريت فانها لم تكن تابعة له منذ البداية لأن معاهدة التقسيم لم تتضمنها • وعلى العكس ، كان يتصرف فى أموال فى الميرو فى خليج فولوس •

(٢) Taf. et Thom, I, 566 et ss. ; Dandolo, p. 334.

(٣) Taf. et Thom. I, 559 et s., 568, 579 et s.; II, 6 et s., 19, 230; Liber pelgiorum, p. 34.

ــ نجد أيضا ، منذ عام ١٢٠٥ فى مستوطنة القسطنطينية وظيفة انشئت منذ بضعة عشرات السنين فى البندقية (انظر Romanin, 11, 137 et s.) وظيفة الـAvagadore del commune المكلف بتمثيل البلدية فى المسائل المتنازع عليها بينها وبين الأفراد : (Taf. et Thom. I, 560) وكانت المرافعات المدنية فى المنازعات بين البنادقة والفرنجة ينظمها قانون خاص وضع بالاتفاق بين الامبراطور هنرى والبورستات م• جينو فى عام ١٢٠٧ (المرجع السابق ، الجزء الثانى ٤٩٢ ــ ٥٢) ويقوم على مبادىء القانون الرومانى فى العصر الأخير ، كما أوضحه السيد توماس فى : M. Thomas dans le Bulletin der Muenchen. Akad Gel. Anz., 1854. XXXIX, no. 4. p. 26-28.

بالنظر الى الحاجة الى أموالها وأساطيلها • وفى مناسبة ارتقاء كل امبراطور العرش ، لا يفوته أن يطلب منه اقرار الحقوق والمتلكات المكفولة للبنادقة بموجب معاهدات • وبخصوص الادارة الكنسية والأكليريكية كان له علاقات مع الكرادلة والبطاركة ، ويناقش حضوريا أصعب المسائل وأكثرها تعقيدا • وكان عليه ان يهتم بنمو التجارة ، ومن أجل ذلك عليه أن يتفاوض دواما مع الأمراء المجاورين • وكان أخيرا ، بالنسبة الى البنادقة المقيمين بالقسطنطينية أو الذين يمرون بها ، وكذلك البنادقة فى مدن الأقاليم أو الجزر يمثل أعلى السلطات السياسية والقضائية •

وفى حماية شخصية لها هذه الأهمية كان لا بد لمستوطنات البندقية أن تزدهر فى كل الأقاليم اليونانية كما ازدهرت فى القسطنطينية • واذا كان الامبراطور لم يزل يؤدى الدول الأول من الوجهة السياسية ، فان البندقية أصبحت مع ذلك بلا جدال القوة التجارية الأولى فى بلاد اليونان • ولم يكن الامبراطور أو باروناته يتدخلون فى شئون التجارة ، أو ينافسون البنادقة • أما الدولتان الوحيدتان اللتان استطاعتا حتى ذلك الحين مواصلة التنافس بقدر كثير أو قليل من النجاح بفضل الامتيازات التى حصلتا عليها من أسرتى كومنيتوس وانجيلوس ، وهما جنوا وبيزا فانهما تراجعتا بتواضع أمام الحليفة القوية لسادة الامبراطورية الحاليين ، والاكتفاء بالمركز الثانى أو الثالث • ولم يكن من شأن حرب تنشب لهذا الغرض الا أن تقصيهما تماما عن السوق اليونانية والواقع أن المعاهدة الأساسية التى انعقدت بين البنادقة وبين سائر الصليبيين وجددها على التوالى كل الأباطرة اللاتينيين كانت تشتمل على مادة خاصة تحظر دخول الامبراطورية والاقامة بها على كل من ينتمى لأمة تحارب البندقية (١) •

ويبدو فى الأوقات الأولى التى أعقبت نشأة الامبراطورية اللاتينية أن حربا نشبت بين البندقية وبين جمهوريتى جنوا وبيزا ، وعلى الأقل يتهم كتاب « تاريخ دوقية البندقية l'Historia ducum Veneticorum البيزيين بأنهم أرادوا أن يرفعوا رؤوسهم أكثر مما ينبغى • ويطمعوا فى الاستيلاء على الامبراطورية البحرية عن طريق الرعب الذى يثيره قراصنتهم ، واضفاء هالة من المجد على الدوق بييترو زيانى لأنه كسر نخوتهم (٢) • والكتاب لا يحدد تاريخا ، ولكن ، كما نعلم من حكايات هذا الدوق مع البيزيين فى السنوات الأخيرة من حكمه ، ينبغى أن نسلم بأن هذه الوقائع ترجع الى السنة الأولى (١٢٠٥ ــ ١٢٠٦) ، وليس هناك أية اشارة الى ذلك فى أى موضع آخر • ولما لم يكن البيزيون فى حالة تسمح لهم بمواصلة النضال ضد كل من البنادقة والجنويين ، أعدائهم الوراثيين

(١) Taf. et Thom. I, 448, 573; II, 229.

(٢) l.c. p. 95.

فانهم عقدوا العزم على مصالحه البنادقه ، ولم يلبث هذا الصلح أن نحول الى اتحاد وثيق . وكان بودستات بيزا ، جيراردوا كورتفيكا Gerardo Cortevecchia هو الذى بدأ المفاوضات الأولى عام ١٢٠٦ ، وفى هذه الآونة كانت البندقية مضطرة الى جمع كل ما لديها من قوات لانقاذ كريت المهددة بالوقوع فى أيدى الجنويين ، وكان البيزيون يحاربونهم منذ عدة سنوات فى صقلية وسردينيا . وقبل الدوق بييترو زيانى اليد التى امتدت اليه ، وفى ٢ من يولية عقد مع سفراء بيزا معاهدة تحالف التزم فيها كل من الدولتين بتجهيز أربعين سفينة حربية، واتفق على أن ينضم الاسطولان أحدهما الى الآخر قبالة مسينا ، ويهاجمان الجنويين أينما التقيا بهم ، وتم التصديق على المعاهدة فى بيزا فى الخامس من أغسطس (١) . ولسنا نعرف مصير هذه المعاهدة ، فالتاريخ لم يقل شيئا عنها (٢) . وفى معاهدة ثانية وقعت عام ١٢١٤ تعهد البنادقة بالامتناع عن كل عمل من أعمال النهب والسلب البحرية ضد البيزيين (٣) ، وأعلنوا استعدادهم لتجهيز سفن تتعاون مع سفن بيزا لقمع أعمال القرصنة (٤) . ونجنبا لكل فرصة للنزاع بين الأمتين ، تم الاتفاق على أن يمتنع مواطنو كل من الأمتين عن دخول أى بلد يملكه عدو أى منهما ، وفى الحالة التى يستولى فيها مواطن بندقى بطريقة غير مشروعة على أرض يملكها بيزى ، أو بالعكس ، فعلى المغتصب أن يرد الأرض الى مالكها الشرعى . ونص بنوع خاص على رد المال ، ووافقت جمهورية البندقية على ذلك مقدما فى حالة استيلاء بندقى على حقول أو كروم أو حدائق أو طواحين تتعلق أما بمستعمرة الميرو **Almyro** البيزية أو بكنيسة سان جاك البيزية فى المدينة نفسها . وكان الباعث على هذا النص هو أن الأحياء الفينيسية والبيزية فى الميرو كانت متلاصقة ، وأن المشاجرات بين الجاليتين كثيرة الحدوث على ما يبدو . والواقع أن البنادقة ، فى المعاهدة التى نجرى تحليلها يفرضون كشرط للتفاهم السلمى أن يكف البيزيون فى الميرو عن بناء أى معقل أو تحصين كنيستهم أو برجهم ، بالاضافة الى أن تكون الكنيسة وبرجها فى كل من المستعمرتين على ارتفاع واحد ، وأيضا تكون سقوف المنازل كلها مسطحة .

هذه المعاهدة تثبت بلا ريب أن مستعمرة ألميرو البيزية كانت موجودة بعد

---

(١) من بين الوقائع المنسوبة الى عام ١٢٠٦ تذكر ال **Annal Jan.** واقعة تعزز تماما التواريخ التى أوردناها : ذلك أن السفن الحربية الجنوية ذهبت الى ميناء بيزا واشعلت النيران فى سفينة بيزية تحت انظار سفير فينيسى جاء خصيصا ليرى هذا العمل ، وكان موجودا فى بيزا بحجة استعجال التصديق على المعاهدة ، وتابع بمزيد من الاهتمام أعمال التسليح .

(٢) رغم أن هذه المعاهدة كانت بمثابة حبر على ورق ، فان لدراستها أهمية كبيرة :
— **Cicogna, Inscr. Venez. IV, 539.; le Giorn ligur. 1874, p. 69 et ss.**

(٣) Loc. sulle relaz. tosc coll' Oriente, p. 88-90.

(٤) Ann. Jan. p. 136

نشأة الأمبراطورية اللاتينية ٠ وهناك وثائق لا تقل عنها أصالة تزودنا ببرهان مماثل بالنسبة الى سائر منشئات البيزية فى رومانيا ٠ فمستعمرة القسطنطينية على سبيل المثال استمرت قائمة تحت حكم فيكونت ٠ ولكن عندمـــا سقطت المدينة عام ١٢٠٤ ، سبب لها النهب والسلب والحرائق خسائر لم تستطع تعويضها زمنا طويلا ، وحل بها الضيق والعوز لدرجة أنه من عام ١٢٠٤ الى ١٢٢٣ اضطر رئيس الاكليروس بنيناتوس **Benenatus** أن يتحمل جزءا من نفقات الشعائر الدينية ٠ ومع ذلك كان له الحـــق فى ايرادات الموازين والمكاييل ، بالاضافة الى ايرادات المنشئات الخاصة ٠ غير أن الايرادات لم تصل طوال هذه الفترة الى مبلغ خمسة عشر دينارا بيزنطيا فى أية مرة(١) ، ولما كانت كنيستنا سان بيير وسان نيكولاس من أملاك الجالية البيزية ، فانهما أصيبتا بأضرار بالغة نتيجة اشتعال النار فيهما ، وأصبحتا غير صالحين لأداء الشعائر الدينية فيهما ، ومن ثم منحت الجالية كنيسة ثالثة مجاورة لحيهـا ، كنيسة سان سوفير (القديس المخلص) **St. Sauveur** (٢) ٠ وحصلت الجالية مع الكنيسة على ملحقات لها تشمل أراضى ، كروم ، وأديرة متفرقة فى أنحاء مختلفة ، حتى فى آسيا الصغرى(٣) ٠ وقد نال البيزيون هذه المنحة بناء على اقتراح ثلاثة من كبار قادة جيش الصليبيين ، وأقواهم نفوذا ، وهم أساقفة سواسون **Soissons** وتروى Troyes ، وبيت لحم Bethléem ٠ الا أن تحالفهم بعد ذلك مع البنادقة ، واخلاصهم للبيت الأمبراطورى أكسبهم أيضا عطف سادة الأمبراطورية ٠ وامتدح الأمبراطور هنرى الأول وزوجته مارى الأميرة البلغارية الخدمات التى قدمها الفيكونتان البيزيان راينيرى فيديرتشى ، وجاك سكارلاتى ، اللذان أثبتا عرفانهما بهذا الجميل ، واستطاعا أن يجددا للبيزيين ضمان ممتلكاتهم داخل الأمبراطورية ، واشترط الامبراطور لذلك أن يقسما بين يديه يمين الاخلاص مثلما فعلا قبلا مع اسلافه(٤) ٠

ويختلف عن ذلك وضع الجنويين كل الاختلاف فى البداية بالنسبة الى الدويلات التى نشأت فى أعقاب الحملة الصليبية الرابعة ٠ فما أن انتهت هذه الحملة حتى راح الكثير من « القرصـــان » الجنويين يجوبون البحر الأدرياتى وبحر ايجة ، ويعرقلون الاتصالات بين البندقية وبين فتوحـــاتها الجديدة ، ويحثون اليونانيين على مقاومة سادتهم الجدد ٠ والمؤكد أنهم لم يفعلوا ذلك

---

(١) Doc. sulle relaz. tosc. p. 94.

(٢) Ducange, Cpol. christ., lib. IV, p. 82, éd. Paris; Miklosich et Muller, Acta graeca, III, vi et ss., 19, 1, 29, 31 50, 53; Docum. sulle relaz., tosc. p. 47 s., 56 et s., cf. Paspati, op. cit., p. 157.

(٣) Doc. sulle relaz tosc. p. 84-46.

(٤) Docum. sulle relaz. tosc. p. 86, 87; les Archiv de l'or. lat. II, 2, p. 256 et s.

من تلقائهم(١) فالمساعدات التى قدمتها جنوا لأكبر هؤلاء القراصنة ، الكونت هنرى المالطى Henri de Malte لم تكن سرا لأحد • واذ تورطت جنوا الى هذا المدى فى عدائها للبندقية ، فانها مع ذلك لم تكن تطمع بالمرة فى الاحتفاظ بمستعمراتها فى اليونان وبخاصة فى عاصمة الأمبراطورية ، وحيثما كان نفوذ البندقية سـائدا • لذلك ففى نص الهدنة المنعقدة عام ١٢١٢ بين القوتين لمدة سنتين ، لم يكن ثمة اشارة الى التصريح بدخول التجار والمستعمرين الجنويين فى رومانيا (٢) • ومع ذلك تم الصلح أخيرا فى عام ١٢١٨ (٣) ، وفى المعاهدة التى أبرمت لهذا الغرض ، تعهدت جمهورية البندقية بمنـح الجنـويين فى الأمبراطورية الرومانية كل الضمانات التى منحهـا اياهم قبلا الأمبراطـور الكسيوس الثالث ، وتم الاتفاق على أن تكون لهم الحرية فى ممارسة التجارة فى كل أنحاء الامبراطورية ، وأن يحتفظوا بكل الحقوق والممتلكات التى كانت لهم فيما مضى على أن يخضعوا لنفس الرسوم والضرائب التى كـانوا خاضعين لها • ووافقت البندقية على أن تعيد لورثة بلدونيو جويريكو Balduino Guerico الاقطاعيات الواقعة خارج القسطنطينية والتى أعلن الأمبراطور مانويل تجريده منها ، على أن تكون من أملاك الجمهورية ، أو تعطيهم ما يعادلها على أن يلتزم الورثة قبل الجمهورية بنفس الواجبات التى التزموا بها لمانويل • وتوجـد المواد نفسها مدرجة فى معاهدتى ١٢٢٨(٤) ، ١٢٥١(٥) مما يثبت أنها كانت سارية المفعول طوال عهد الأمبراطورية اللاتينية • وليس هناك وثائق أخرى خلاف هذه المعاهدات يظهر فيها بمثل هذا الوضوح التأثير القوى الذى كانت تمارسه البندقية فى الأمبراطورية • ولم يكن فى وسع الأمبراطور نفسه أن يعبر عن ذلك بلغة أخرى • ويبدو من سماع أقوال الأمبراطور أن البندقية كان فى أيديها مفاتيح الأمبراطورية كلها ، ولم يكن ثمة حاجة لمرسوم أمبراطورى لمنع الجنويين من دخول أراضى الأمبراطورية ، والواقع أنه لم يكن هناك مرسوم من هذا القبيل ، وكان فى تصريح البندقية فى هذا الشأن ما يكفى •

والمؤكد أنه بعد صلح الجنويين مع خصومهم ، استعادوا تجارتهم مـع القسطنطينية ، وتشير معاهدة الصلح لعام ١٢٥١ صراحـة الى المستعمرين

---

(١) Mart. da Canale, p. 353; Dand. p. 335, 341; Innoc. III, epist. éd. Baluze, II, 56 (cf. Riant, Exuvioe sacroe Cpol. I, p. clv.); Annal. Jan. p. 123.

(٢) Canal, Nuova istoria di Genova, II, 17.

(٣) Lib. jur. I, 609 et s.; Cf. Annal. jan. p. 139.

(٤) Tafel et Thom. II, 197-205; Lib-jur; I, 815-820; Cf. Liber plegiorum, p. 151.

(٥) Lib. jur. I, 1090 et ss., 1099 et ss.; Pagano, I.c. p. 246-248; Taf. et Thom. II, 547.

الجنويين ورؤسائهم (١) • ثم يبدو أنهم اتجهوا بالأحرى الى أجزاء الأمبراطورية الفرنجية الجديدة الأقل خضوعا بصورة مباشرة للبندقية ولعميلها الأمبراطور • وثمة أمير ينتمى الى بلد مجاور لجنوا ، هو بونيفاس مركيز دو مونفيرا ، أنشأ لنفسه مملكة فى تساليا ، وكانت وشائج التبعية التى تربطه بالأمبراطورية اسمية على وجه التقريب • على أنه لم يكد يستولى على سالونيك عاصمة الاقليم حتى أبحرت سفن جنوية قاصدة هذه المدينة (٢) ، ولم يكن ذلك بالتأكيد من قبيل الصدف • والى الجنوب قليلا أسس بعض الأشراف البورجنديين من بيت لاروش فى بيوتيا القديمة وفى أتيكا امارة أخرى ، كانت هى أيضا مستقلة عن القسطنطينية•وفى ٢٤ من ديسمبر ١٣٤٠ وقع الأمير الثانى فى هذه الأسرة وهو جى دولاروش Guy de Roche امتيازا لصالح الجنويين(٣) ، وفى هذه الفترة كان قانعا بلقب « سيد أثينا » : dominus Athenarum ، ولكنه فيما بعد (وعلى الراجح ابتداء من عام ١٢٦٠) اتخذ لقب دوق ، وكان هذا الامتياز يكفل للجنويين الاعفاءات التى كانوا يتمتعون بها فى عكا ، وفى سائر الجهات التى كانوا فيها الأمة الأكثر رعاية ، أى الاعفاء من الضرائب ، واقليم خاص بهم ، ومحكمة استعمارية ، كما وعد بمنحهم فى كل من مدينتى أثينا وطيبة أرضا حسنة الموقع ليقيموا بها حيهم ويشيدوا دارا للبلدية ، ولا يخضع الجنويون الذين يستقر بهم المقام فى هاتين المدينتين الا لقضاء قنصلهم ، فيما عدا ما يرتكبونه من جرائم السرقة والقتل وهتك العرض ، فهى من اختصاص محاكم البلد ، وتفصل هذه المحاكم أيضا فى استئناف الدعاوى التى يقيمها أفراد من غير الجنويين ضد أفراد جنويين ، ولم يكن الحكم الصادر من القناصلة قد أنصفهم • ومهما كانت أهمية هذه الوثيقة ، فمن الخطأ اعتبارها أول اجراء يرخص بانشاء مستعمرة جنوية بأثينا ، فالواقع أن هذه المستعمرة كانت موجودة من قبل : ذلك أننا نطالع فى نهاية هذه الوثيقة اسم القنصل الجنوى الذى كان يتولى منصبه فى اقطاعية أثينا Riccio di S. Donato وتعرفنا الوثيقة أيضا أن الجنويين لم يكونوا يمارسون التجارة فحسب ، ولكنهم كانوا يشتغلون أيضا بصنع الأقمشة الحريرية : فالواقع أنه قد نص بالوثيقة أن الأقمشة الحريرية المصنوعة بأيديهم أو لحسابهم فى داخل البلد تستثنى من الاعفاء الجمركى وتخضع للضرائب المفروضة على كل المشتغلين بنفس النوع من الصناعة ، وسوف نعود فى ملحقات هذا الكتاب الى الكلام عن صناعة الحرير فى طيبة ، وازدهار هذه الصناعة فى ذاك العصر •

ولنعد الى مركز الأمبراطورية اللاتينية • سبق أن رأينا أن القوى الرئيسية

---

(١) Lib. jur. 1, 1093.

(٢) Voy.Canale, Nuova storia di Genoya, II, 625, 628.

(٣) Lib. jur. I, 992 et s.

المنافسة للبندقية قد اعتزمت الواحدة بعد الأخرى أن تهادنها لصالح مستعمراتها فى القسطنطينية ٠ وهناك أمم تجارية غربية لم يسمح لها ضعف بحريتها أن تباشر منافسة جدية ، كان لها نفس المزايا دون حاجة الى أن تتعامل معهـــا بصورة رسمية ٠ مثال ذلك أن « أمالفى » ــ التى فقدت آنئذ ما كان لها من عظمة، كانت ولم تزل ضمن الأمم التجارية فى القسطنطينية ٠ ولم يزل دير سانتا ماريا دى لاتينا Santa Maria de Latina القديم موجودا ٠ وفى عام ١٢٥٦ أعلن البابا الكسندر الرابع حمايته على ممتلكاتها وما تتمتع به من اعفـــاءات مثلما فعـــل قبله الكثير من ســـفراء أسلافـــه(١) ٠ وزعم البعض أن الأمالفيين لم يزالوا يملكون فى القسطنطينية كنيسة مكرسة للقديس أندريه St. André شفيع مدينة أمالفى ، مثلها مثل كاتدرائية أمالفى ، غير أن هذا الزعم لا يستند الا على ما أكده أوغيللى Oghelli وهو تأكيد لا أســـــاس له ، وثبت عدم صحته(٢) ٠ والواقع أن رفات القديس أنديه كان محفوظا فى القسطنطينية ، وقد تسلمه الكاردينال بيير دى كابو Pierre de Capoue المواطن الأمالفى المبعوث الى القسطنطينية سفيرا للبابا ، وذلك بعد استيلاء الصليبيين على المدينة بوقت قليل ، ونقل الرفات فى عام ١٢٠٨ الى كاتدرائية وطنه الأصلى ٠ ترى بأية سلسلة من الاستنتاجات توصل أوغيللى الى الزعم بأن المكان الذى أودع فيه هـــذا الرفات فى البداية بالقسطنطينية لا يمكن أن يكون الا كنيسة مكرسة القديس أندريه ، وتابعة للأمالفيين ؟ أنه الأمر من الصعب فهمه ٠ وليس هناك شىء شبيه بهذا ، لا فى قصة نقل الرفات التى نصص لها بضع صفحات فيما بعد (٣) ، ولا فى أى تاريخ آخر (٤) ٠ حقا ، كان فى القسطنطينية عدة كنائس مكرسة للقديس أندريه (٥) ، ولكن لم يكن أى منها قد آوت رفات القديس الذى تحمل اسمه ٠ والى أن جاء اليوم الذى حمل فيه الكاردينال سفير البابا الرفات الى الغرب ، كان الرفات محفوظا فى كنيسة القديسين الحواريين Saints A potres (٦) ٠ ترى هل يوجد على الأقل وثيقة تشهد بأن احدى كنائس القسطنطينية المكرسة للقديس أندريه قد منحت للجالية الأمالفية ؟ كلا ٠

لننتقل اذن الى موضوع آخر ، ونكتفى بأن نعرف أن هذه الجالية قد احتفظت بديرها القديم ، دير سانتا ماريا دى لاتينا ، وحسبنا هذا لاثبات

---

(١) Ughelli, Italia sacra, 2e éd VII, 222 et s.

(٢) Ibid. p. 187.

(٣) Ibid. p. 206 et ss.

(٤) Chron Amalph. dans Murat. Aliq. I, 215 et s.

(٥) Ducange, Constantinopolis christiana, lib. IV, p. 76.

(٦) Ibid p. 71 et ss.; Hammer, Constantinopolis und des Booporus, I, 388.

وجود حى أمالفى فى القسطنطينية فى العصر الذى ندرسه · ثم أن الممتلكات والاعفاءات الخاصة بتلك الجالية كانت عرضة للانتهاكات المتكررة ، ولم تكن الجالية قادرة على الدفاع عن نفسها دون أن نعتمد على حماية قوية · لذلك وجه رئيس أساقفة أمالفى فى عام ١٢٥٧ التماسا الى البابا الكسندر الرابع ، وحصل على مرسوم يخول لرئيس دير سنت آنج « السسترى » بالقسطنطينية استخدام سلطاته الكهنوتية لصالح الجالية الأمالفية(١) · وفى تصورنا ، على أقل تقدير أن هذه الجالية الضعيفة التى عانت من اضطهاد جيرانها الأقوياء ، لاقت مشقة كبيرة فى استمرار وجودها الذى يبدو أنه لم يكن مقدرا له أن يتجاوز وجود الأمبراطورية اللاتينية ·

وفى منشور بابوى لعام ١٢٠٨(٢) بشأن العشور الواجبة الأداء لبطريرك القسطنطينية ، يذكر البابا انوسنت الثالث Innocent III من بين الأجانب المقيمين بالمدينة ، غير البيزيين والأمالفيين ، لمبارديين ، ودانمركيين ، وأنجليز · وليس من المحتمل أن يكون هؤلاء الغربيون موجودين هناك لممارسة التجارة ، وعلى أية حال فان هذا الافتراض لا يبدو على جانب من الصحة الا بالنسبة الى اللمبارديين ، أما الآخرون فلا بد أنهم كانوا يؤدون مهمات عسكرية : فالمعروف أن الأباطرة البيزنطيين كانوا يجندون عساكرهم المرتزقة بنوع خاص من شمال أوروبا (٣) · وقد ورد ذكر الجنود المرتزقة من الانجليز والدانمركيين بصفة خاصة عدة مرات ضمن المدافعين عن القسطنطينية ضد الصليبيين عام ١٢٠٤(٤) · والمرجح أنهم بعد سقوط المدينة بقوا بها ، وانتقلوا من خدمة الأباطرة اليونانيين الى خدمة الأباطرة اللاتينيين ·

وتذكر الحوليات الجنوية أيضا عنصرا آخر من سكان القسطنطينية : أولئك هم « الانكونيون » (نسبة الى انكونا)(٥) ، والبروفانسيون وكان هؤلاء بالذات تجارا · وقد ثبت لنا من قبل وجود جالية انكونية فى القسطنطينية قبل الحملة الصليبية الأولى ، الا أن البروفانسيين جاءوا فيما بعد(٦) ، وكان لهم حى مشترك مع الاسبانيين ، وليس فى ذلك

---

(١) Ughelli, 1. c. p. 223.

(٢) Epist. éd. Baluze, II, 147.

(٣) Ducange, Villehardouin, p. 296-299.

(٤) «Englois et Danois» : Villehardouin, dé. de Wailly, p. 96, 106., Taf. et Thom., I, 307.

(٥) Annal. Jan. p. 136.

(٦) من الثابت أن تجارا من سان جيل ومونبيلييه كانوا يسافرون الى القسطنطينية ، ويتبين هذا من المعاهدات المبرمة بين سان جيل وجنوا فى عام ١٢٣٢ ، وبين جنوا ومونبيلييه فى عامى ١٢٢٥ ، ١٢٥٢ ، أنظر : Lib. jur. I, 761, 903, 1148. —

ما يثير الدهشـــة لأنه كان يوجـــد فى ذاك الحين بـين سـواحل فرنســا الجنوبية وسواحل أسبانيا الشرقية (كتالونيا) كل أنواع الروابط السياسية والقومية . لم يكن بين تلك الأمم التجارية المتفاوتة من حيث عدد أفرادها ، ونفوذها ، وأقدمية استقرارها فى القسطنطينية من لا تعترف بتفوق جمهورية البندقية . فأولا ، كفلت هذه الجمهورية لنفسها مزية كبيرة على مزاحميها ، تتمثل فى الاعفاء المطلق (من الرسوم والضرائب) المنصوص عليه فى الميثاق الأساسى لصالح تجارها ، ليس فقط فى البلاد التى تحكمها حكما مباشرا ، أو يحكمهـا مواطنوها أو اتباعها ، ولكن أيضـا فى لأمابراطورية اللاتينية بأسرها(١) ، هذا فى حين أن النظام الجديد لم يكن يكفل للجنويين والبيزيين الا الامتيازات وتخفيضات التعريفات التى كانوا قد حصلوا عليها فيما مضى من الأباطرة اليونانيين . فاذا كان الأمر كذلك بالنسبة الى هاتين الأمتين ، تبين لنا أن الأمم الأخرى الأقل أهمية لم تكن لتستطيع حتى التفكير فى طلب الاعفاء التام من الرسوم الجمركية . على أن هذا لم يكن كل شىء ، فقـد وجدت البندقية فوق ذلك وسيلة أخرى لتأكيد تفوقها على سائر الأمم التجارية . ذلك أنه اتماما للاجراءات المتخذة ابان تقسيم الأمبراطورية ، اتفق الأمبراطور روبرت Robert مع جمهورية البندقية فى عام ١٢٢٣ على اقتسام ايرادات الضرائب والرسوم التى تدفعها للدولة الأحياء التجارية بنسبة ٥/٨ للأمبراطور ، ٣/٨ للجمهورية(٢) . ولم يصلنا نص هذه المعاهدة ، ولسبب ما ، جعل فيها تحفظ فيما يختص بحى البروفانسيين والاسبان ، وأجل البت فيه الى زمن لاحق . الا أن قرارا بتاريخ ٢٠ من فبراير ١٢٢٤ جعل هذا الحى فى نفس الفئة التى ضمت سائر الأحياء (٣) . وتبعا لهذا الاتفاق أصبح المستوطنون الغربيون فى القسطنطينية يؤدون الضرائب للبندقية ، ومن ثم كان وضعهم يتضمن بعض التبعية .

وكان لا بد للوضع المتفوق الذى اكتسبته الجمهورية (الفينيسية) فى البسفور أن يكفل لها مزيدا من السيطرة فى علاقاتها مع القوى المجاورة ، وكانت حريصة على الا تفرط فى هذه المزية ، واعتماد كل تاجر بندقى أن يجعل من القسطنطينية التى أضحت بنوع ما وطنا ثانيا له مركزا لعمليات تجارية واسعة ، ونقطة انطلاق لرحلات بعيدة فى مناطق البحر الأسود وما بعدها ، أو فى آسيا الصغرى . وهكذا أخذ « البودستات » البنادقة يتوسعون بالتدريج بفضل سياستهم التجارية ، وروح المغامرة لدى التجـار ، وامتدت علاقات البندقية أكثر فأكثر ، وبخاصة صوب الشمال والشرق . ولنتتبعهم أولا صوب

(١) Taf. et Thom. I, 573; II, 229, 383, 292.

(٢) Ibid. II, 253, 283, 292.

(٣) Ibid. II, 255.

الشمال . ففى شهر يونية عام ١٢٤٧ كان المبشر يوحنا دو بلان دو كاربن Jean du Plan de Carpin عائدا من بلاد التتار ، فأقام فى كييف ، وتعرف ثمة بالكثير من التجار الايطاليين الآتين من القسطنطينية ، ومن هؤلاء ثلاثة من البنادقة فى الغالب ، واثنين من الجنويين(١) . وهكذا كان الايطاليون هم الذين وثقوا فى تلك الآونة من جديد العلاقات التى كانت قائمة بين الروس واليونانيين .

وهناك فضلا عن ذلك حقيقة غريبة ، ذلك أن معاهدة التفسيم لم تتضمن أية مدينة يونانية من مدن الضفة الشمالية لاقليم بنطس ، لاصغداية Sougdaia ولاخرسون Cherson . وقد ورد اسم صاغوداى Sagoudai وهو موقع نسبته المعاهدة الى البندقية (٢) (*) على القائمة بين مدينتى خرسونيز Chersonnèse بتراقيا ، وهكساميليوم Hexamilium (٣) ، وجاليبولى . وان اعتبار ذلك الاسم « صاغوداى » هو اسم المدينة صغداية ، وهى مدينة بالقرم ، كما قال السيد برون nM. Phil Brunn (٤) لهو من قبيل الزعم ، دون مبرر بأن صانعى هذه الوثيقة قد أخطأوا خطأ غير معقول باطلاق اسم مدينة على مدينة أخرى(٥) . ومن الراجح أنه فى وقت انعقاد المعاهدة كانت هذه الأقاليم فيما وراء البحار قد انفصلت عن الأمبراطورية ، ويفسر هذا السبب فى أنها لم تذكر فى مناسبة التقسيم ، وكيف أنها ألحقت بأمبراطورية طربزون Trébizonde ، يؤيد ذلك وثائق لاحقة بوقت غير بعيد(٦) ، دون أن يوجه اليها الفرنجة اهتماما أكثر مما وجهته للغزوات التتارية التى كانت هذه الاقاليم مسرحا لها مرارا . والواضح أن الفرنجة لم يكونوا ليهملوا استغلال الحقول التى يخولها لهم كونهم غزاة هذه الامبراطورية فى الأقاليم التى كانت فيما مضى تابعة لها لو أنهم استشعروا فى ذاك العصر

---

(١) Jean du Plan de Carpin, publ. par d'Ovezac. dans le Recueil de Voyages et de mémoires, IV, 772; Brunn (Not. sur les colonies en Gazarie, p. 5).

(★) (بنطس اقليم ش.ق آسيا الصغرى على شاطىء البحر الأسود ــ المراجع)

(٢) Taf. et Thom. I, 467.

(٣) Ramon Muntaner, trad. Lanz, II, 122.

(٤) Brunn : Notices historiques et topographiques concernant les colonies italiennes en Gazarie (Mém. de l'Acad. des sciences de S. Pétersbourg, 7e série X. no 9 S. Pétersb. et Leipzig, 1866) p. 8.

(٥) نشرت ردا على رأى السيد برون فى : Le Bulletin de l'Acad, de St. Pétersb. XIII, 1869, p. 269 et s. (Mélanges russes tirés du Bulletin etc. IV, p. 582-584).

(٦) Fallmerayer, Original fragmente zur Geschichte des Kaiserthums Trapezunt. Abh. der hist. Cl. der Muenchen. Akad. III, 3e sect. p. 18 et s., 72 et s, 87. 92 103, 144 et s.

ما سوف تكتسبه مناطق البحر الأسود وبحر آزف فى المستقبل من أهمية تجارية عظيمة . وكان هناك فى عصر الأمبراطورية اللاتينية تجار يستخدمون الطريق الذى رسمه اليونانيون للسفر من القسطنطينية الى محطة ماتريكا (Matricc) Matrega القديمة فى شبه جزيرة تامان ، ويصلون من ثمة الى مصب نهر الدن فى زوارق ، ولكنهم لم يكونوا يذهبون الى هناك بحثا عن شيء خلاف السمك المجفف ، ولم يكونوا يفكرون فى منتجات آسيا الوسطى والصين(١) . ولم تكن التوابل التى تصل فى ذلك العصر من قلب الشرق الى سواحل روسيا الجنوبية الحالية تنحدر فى مجرى الفولجا والدن ، بل كانت على العكس من ذلك تصعد صوب الشمال عن طريق آسيا الصغرى .

والواقع أنه كان يوجد فى ذلك العصر حركة مبادلات تجارية كبيرة بين السكان المسلمين فى آسيا الصغرى وسوريا ، وبلاد ما بين النهرين من جهة وبين سكان جنوب روسيا (الكبتشاك (Kiptchaks) من جهة أخرى . وكان تجار روسيا والموصل يتقابلون عادة فى سيواس Sivas فى أعداد كبيرة تكفى لتشكيل قوافل ، ويمضون من ثمة صوب البحر الأسود عبر اقليم السلاطين السلاجقة أو طربزون ، ويعبرون البحر ليصلوا الى جنوب روسيا(٢) ، وكان التجار الترك ، أى الذى ينتمون الى سلطنة السلاجقة يركبون السفن فى سينوس Sinope وهى من صنع سلطنة قونية Iconium (حاليا قونية) ، وذلك منذ عام ١٢١٤ (٣) (*) ، ثم ينزلون برا على شواطىء القرم عند صولديا Soldaia (سوداك Soudak) ، وكانت بضائعهم تتكون ــ حسبما يذكر « وليم دو روبروك » من أقمشة حريرية وقطنية وتوابل (٤) . وثمة مثال ، بين أمثلة أخرى يوضح الأهمية التى كان السلاطين السلاجقة يولونها لهذه التجارة . ذلك أن علاء الدين قيقباد Alaeddin-Kaikobad وجه فى عام ١٢٢٧ حملة ضد سوداك لينتقم من سوء المعاملة التى عانى منها أحد رعاياه ، ويقتضى ترضية نالها على أكمل وجه مستطاع (٥) . ومن جهة أخرى كان سكان القرم وروسيا يعبرون كثيرا البحر حاملين لآسيا الصغرى فراءهم الجميل (٦) .

---

(١) Guill. de Roubrouck, p. 215.

(٢) Ibn-Alathis, dans Defrémery, Fragmente de géographie et d'hist arabes et persans inédits relatifs aux anciens peuples du Caucase et de la Russie méridionale. Journ. asiat. 4e série, XIV. p. 461 et s.

(٣) M. Th. Houtsama, Ueber eine tuerkische Chronik zur Geschichte der Seldschunken Kleinariens (tiré du 2 vol. des travaux de la 6e section du congrès int. des Orientalistes à Leyde) p. 10 et s.

(*) (مناء سينوس تركى على البحر الأسود ــ المترجم)

(٤) Guill. de. Rubruck, p. 215; Ibn-Alathir (I. c. p. 459).

(٥) Houtsama, op. cit., p. 12 et s.

(٦) Buill, de Rubrouck, l.c. : Ibn-Alathir, l.c. p. 461 et s.

وتشكل هذه المادة أيضا مع الرقيق من الجنسين شحنة سفن المسلمين العائدة(١)٠ وكان استعمال الفراء الناعم قد انتشر فى تقاليد العالم الاسلامى لدرجة أنه اذا وقعت بعض الأحداث الحربية فى القرم أو فى آسيا الصغرى فأوقفت تصدير الفراء ، كان ذلك بمثابة كارثة فى كل مكان (٢) ٠

ويبدو أنه كان لابد من انقضـاء زمن طويل قبل أن تبلغ حركة التجارة بين اللاتينيين فى القسطنطينية وبين اليونانيين فى القرم مثل هذا النشاط ٠ ونتيجة طبيعية للأحداث السياسية تحول اليونانيون عن القسطنطينية واتجهوا صوب طربزون ، ومن ثم كان نزوع تجارتهم الى ترك الوجهة الجنوبية الغربية والتحول الى الجنوب الشرقى ٠ ويبدو أن الغربيين أنفسهم لم يوجهوا اهتمامهم ناحية القرم الا منذ اليوم الذى أقام فيه التتار فى جنوب روسيا خانية كيتشاك ٠ ولأسباب سوف نوضحها فيما بعد ، نشأت علاقات نشيطة ومثمرة بين الأمراء المسيحيين وبين الخانات التتار ٠ واعتقد الرهبـان والتجار الغربيون أنهـم اكتشفوا فى بلاد التتار ــ البعض من أجل رسالتهم الدينية ، والبعض الآخر من أجل تجارتهم ــ ساحة تبشر خيراتها وحصادها بما يزيد كثيرا على أعظم ما كانوا يأملون ٠

ولكى يمكن دخول هذه المناطق المجهولة ، كان أفضل موقع لهذا الغرض هو بالذات فى القرم ذلك هو « صولدايا » ٠ كانت تلك المدينة واقعـة على الساحل الجنوبى للقرم بين كافا Caffa ، والوستا Alousta عند منفذ واد خصيب مغطى بالكروم أشاد الرحالة ابن بطوطة بمينائه ووصفه بأنه من أفضل الموانىء فى العـالم وأجملها (٣) ٠ وكان اليونانيون ينطقون اسـم هـذه المدينة « صغداية » (٤) Sougdaia ، أما الغربيون فكانوا يسمونها طوال العصور الوسطى « صودايا » (٥) Sodaia أو « صولداشيا » Soldachia (٦) أو بعامة « صولدايا » (٧) وكتبها الادريسى « شولتاديا » Scho Itadia أو «صولتاديا» Soltadia (٨) ، ويسميها الجغرافيون الشرقيون (٩) والأهالى فى عصرنا

(١) Ibn-Alathir, l.c. p. 457.

(٢) Ibn-Alathir. 1 c. p. 460-462.

(٣) I, 28; II, 415.

(٤) Micklosich et Muller, Acta et dipl. groeca medii oevi, I, II, passim; voy. la Table du T. II.

(٥) Carte catal. p. 83; Thomas, Periplus des Pontus Euxinus, p. 19 et s.

(٦) L'édition de Marco Polo publiée par pasini, p. 430 et s.

(٧) Guill de Rubrouck, p. 215 et s., 219; M. Polo, éd. Pouthier, I, 6 : Annal. Jan. p. 285; Atlante Luxoro, p. 125 etc.

(٨) Trad. Jaubert. III, 395.

(٩) Aboulf. Géogr. trad. Renaud II, 319; Annal muslem. IV, 301; Ibn-Alathir, l.c. p. 457; Chehabeddin, dans les Not. et extr. XIII, 361; Ibn Batouta, Voyages. éd. Defrémery et Sanguinetti, I, 414 et s.

الحاضر « صوداك » (صوداغ Soudagh ، وكان معظم السكان من أصل يونانى ويعتنقون المسيحية • غير أن نمو التجارة مع البلاد التى تشرف على البحر الاسود والمناطق الواقعة شمالى القرم جلب اليها الكثير من الأفراد من جنسيات وديانات مختلفة (١) • وقد استولى التتار على صولدايا لاول مرة فى عام ١٢٢٣ فى غضون حملة مظفرة عبر برزخ القوقاز وسهل كتبشاك ، وكان أكبر عمل حربى فى تلك الحملة هو النصر الذى أحرزه التتار على الروس بالقرب من كلكا Kalka (٢) : وقد انتزعت المدينة بعد قليل من سيطرتهم ، ولكنهم استعادوها فى عام ١٢٣٩ (٣) ، ومع ذلك احتفظت بادارتها الوطنية وأسقفها اليونانى ، وقنع الخانات التتار باقتضاء جزية (٤) • كانت صولدايا يسكنها قوم جلهم من اليونانيين ، وغالبيتهم مسيحيون (على الاقل فى تلك الحقبة) ولكنهم فى الوقت نفسه خاضعون للتتار ، وكانت محطة دسطى محطه ممتازة للتجارة والرهبان قبل أن تصير في داخل بلاد التتار ، ونزل بها الراهب «وليم دو روبروك» فى عام ١٢٥٣ وأقام ضيفا على ملحقات الكنيسة الكاتدرائية ، ومن هناك بدأ رحلته الى أقاصى آسيا • والراجح أن هناك أيضا نزل فى عام ١٢٦٠ (٥) التاجران البندقيان نيكولو Niccolo ، ومافيو بولو Maffio Polo (ماتيو Mathieu ليبيعا جواهر فى بلاط السلطان بركه Berké خان القيشاق ، ووصلا مباشرة من القسطنطينية حيث أمضى أخوهما الأكبر وشريكهما ماركو Marco شطرا من حياته ، وكان هو أيضا قد مد عملياته حتى صولدايا ، ان لم يكن فى تلك الآونة ، فعلى الأقل فيما بعد ، وكان له بها بيت تجارى (لعله فرع) • وعندما تقدمت به السن قر عزمه على أن يعتزل فى البندقية ، وطنه ، وكان يسكن ببيته ابنه نيكولاس Nicolas وابنته ماروكا Marocca • وفى وصيته التى حررها فى ٥ من أغسطس ١٢٨٠ ترك لهما حق الانتفاع بالدار طوال حياتهما ، فى حين أوصى بملكية الرقبة لفرنسيسكان المدينة(٦) • وليس من المحتمل أن يكون ماركو بولو هذا استثناء بين البنادقة ، ولابد أن آخرين غيره اشتروا أملاكا فى صولدايا ، وسوف نرى أنه كان هناك فيما بعد.

---

(١) Ibn-Saïd, dans Aboulf. trad. Renaud.

(٢) Ibn-Alathir, I.c. p. 457; Aboulf. Annal musl. IV, 301; Erdmann, Temudschin, p. 434; L'Archimandrite Antoninos (les Mémoires-en russe- de la société d'histoire et d'Antiquités d'Adessa, V, 1863, p. 595 et ss.)

(٣) Notes du Synaxorion, op. cit., p. 597, no. 10.

(٤) Guill. de Rubrouck, p. 217.

(٥) Neumann, dane la trad. de M. Polo par Buerk, p. 606 l'éd. de M. polo par Pasini, p. 271, celle de Pauthier, I, 5, 7, 17; celle de Yule, I, 2, 5, 8; M. Hammer, Geschichte der goldenen Horde, p. 168, not. 3.

(٦) Cicagna, Incr. venez. 111, 489 et s.; puis dans le supplément de Viaggi di M. Polo éd. Pasiri p. 430 et s.

جالية بندقية مزدهرة ، يرجع أصلها غالبا الى العصر الذى كانت البندقية قوية السلطـان فى القسطنطينية • ويلاحظ مارن marin (١) بحق أنـه لا يمكن التسليم بأن نيكولو ، ومافيــو بولو قد خاطرا بحمل أشـياء ثمينة فى بلد مجهول ، ودون أن يكون قد سبقهما اليه بعض مواطنيهما • وليست آسـيا الصغرى الا على بعد خطوتين من القسطنطينية ولا بد أن البنادقة قد فكروا فى أن يفتحوا بها أسواقا ، ولم يفتهم ذلك : فأولا كان الجزء الذى غزاه الصليبيون عام ١٢٠٤ مع باقى أجزاء الامبراطورية ، ولم يزل بالطبع مفتوحا للتجـار البنادقة طالما بقى بها الفرسان الفرنسيون والفلمنكيون • وحصل بعض الأفراد من أهل البندقية على أملاك بها ، واستقر ثلاثة من البنادقة ، هم جورجيو (؟) كويرينو ، وجاكوبو كويرينو ، وجيوفانى سوكوجولو على الشاطىء الأسيوى • عند لامبساكوس Lampsaque (لاباساكو Lapasaco ، كما لو كانوا تابعين للامارة الصغيرة التىأسسها اثنان منالبنادقة فى جاليبولى علىالشاطىء الأوروبى من الدردنيل ، ونسبوا الى أنفسهم حقوقا من حقوق الريادة : ونجد اثباتا لذلك فى قائمة للضرائب التى يدفعها لهم السكان (٢) ، وتظهر فى القائمة أسماء الأرصفة والسوق ، الشىء الذى لعله يثبت أنه كان يمارس ثمة نوع من التجارة • الا أن حدود الاقليم التابع للأمبراطورية البيزنطية القديمة كانت أضيق من أن تنمو التجارة فيها • ولم يتوان البنادقة فى تخطى هذه الحدود • ولتمهيد الطريق لهم عقد « بودستان » القسطنطينية معاهدات مع رؤساء الدول المجاورة ، من سلاجقة ويونانيين • وفى هذه الفترة ، كان القسم الأكبر من آسيا الصغرى يشكل « امبراطورية سلاطين قونية » ، ويتحدث عنها ماركو بولو باسم تركمانيا Turqueménie - ورغم تغير الأسماء ، فانـه من الميسـور التعرف على تماثل الاسماء التى ذكرها مع اسماء المدن الحقيقية : مثال ذلك قونية Iconium canie - ، وسيواس Savast (Sivas) ، وقيصرية Caserie (Kaisarièh) • ووسط سكان أغلبهم من الترك الذين يمارسون بنوع خاص تربية الماشـية والخيول ، وجد الرحالة ذائع الصيت حشودا كبيرة ممن بقوا على قيد الحياة من الأجناس اليونانية والأرمنية الذين ازدهرت عندهم التجارة والصناعة ، فهم الذين كانوا يصنعون أجمل الطنافس ، وتميزت منســوجاتهم الحريرية بثراء ألوانها وتنوعها (٣) • وكان الشب من الحاصلات الطبيعية المطلوبة أكثر من غيرها • وفى عام ١٢٥٥ ، حين زار وليم دو روبروك السلطنة عند عودته من

---

(١) IV, 122.

(٢) حرر هذه القائمة فى عام ١٢١٩ ، انظر : Tafel et Thom. II, 208 et ss.; cf. Hopf, Veneto-Byzantinische Analecten, p. 461.

(٣) M. Polo, éd. Pauthier, I, 35-37.

رحلته في وسط آسيا ، وجد في العاصمة عددا من الغربيين ، من بينهم تاجران شريكان ، أحدهما جنوى يدعى نيكولاس دى سانتو سيرو ، من عكا ، وبندقى اسمه بونيفاس دى مولنديتو (١) وكانا يحتكران تجارة الشب المستخرج فى البلد ، ويرفعان ثمنه كثيرا حتى ان ما كان يساوى قبلا ١٥ دينارا بيزنطيا ، بيع وقتئذ بسعر خمسين دينارا(٢) · هذا أول مثال لغربيين اجتذبتهم منتجات البلد الى سلطنة قونية · ولعل التجارة كانت تجرى فى ذاك الأوان عبر الطريق الكبير الذى يجتاز آسيا الصغرى بانحراف من الجنوب الشرقى الى الشمال الشرقى ، ويصل برا بين سوريا والقسطنطينية ، ويبدأ من أنطاكية ، ويعبر ممر بيلان Beilan ويلف حول خليج الاسكندرونة ، ويصل الى آسيا الصغرى على حدود كيليكيا Cilicie · ولما كان هذا القطر وقتئذ فى أيدى ملوك مسيحيين ، كان التجار الغربيون يطوفون به فى جميع الاتجاهات ، وكثيرا ما كانوا يدخلونه عن طريق سوريا ويخرجون منه عبر ممر « جوليك بوغاز » Goulek-Boghaz على طريق ايكونيوم(٣) · وبالطبع لا ينبت هذا أنهم كانوا يرتحلون عادة ودون انقطاع من سوريا الى ايكونيوم ، ومن ايكونيوم الى القسطنطينية · والثابت أنهم اذا كانوا يفضلون الطريق البرى على البحرى فى الذهاب من سوريا الى القسطنطينية ، فذلك لأنهم لم يصادفوا أية عراقيل من ناحية السلاطين السلاجقة الذين كان من المحتمل أن يقفوا منهم موقفا متشددا بسبب اختلاف الديانة · ومارست البندقية بوساطة «بودستاتها» فى القسطنطينية تأثيرا طيبا على هؤلاء الأمراء : وبفضل هذه العلاقات الطيبة حصلت على امتيازات وقعها ثلاثة منهم : غياث الدين كيخسرو الأول (المتوفى عام ١٢١١) ، وابناه وخليفتاه عز الدين كايكاوس (١٢١١ – ١٢٢٠) ، وعلاء الدين كيقباد (١٢٢٠ – ١٢٧٧) · ولسنا نعرف لسوء الحظ سوى الوثيقة الأخيرة الصادرة عام ١٢٢٠(٤) والتى ورد بها الكثير من الاحالات الى الوثيقتين السابقتين ، وقد منح علاء الدين فيها التجار البنادقة ، مثلما فعل سلفاه الاعفاء من رسوم الدخول على الأحجار الثمينة ، أما بالنسبة الى السلع الأخرى فقد احتفظ برسم خفيف عليها مقداره ٢٪ · وبهذه المناسبة تبادلت الدولتان الضمانات بشأن سلامة أرواح المسافرين وأموالهم ، حتى فى حالة غرق السفن · واذا قام نزاع فى اقليم السلطان بين بناقة ولاتينيين آخرين ، كان من حق البنادقة أن يشكلوا فى كل قضية محكمة من قضاة يختارونهم من

---

(١) Savuto, Secr. fid. cruc p. 235 et s.

(٢) Guill de Rubrouck, p. 332.

(٣) أنظر المعاهدة التجارية المبرمة عام ١٢٨٨ بين جنوا وارمينيا ·

(٤) Taf. et Thom. 11, 221 et ss.; cf. I, 438 et s.; Dandolo p. 341.

– ينبغى ايضا التنويه بأن ال Liber plegiorum ص ١٦٠ تذكر أحد البنادقة ويدعى فيليبو جوليانو الذى بعث بمهمة لدى سلطان ايكونيوم فى عام ١٢٢٨ ·

بينهم : ومع ذلك يحتفظ السلطان لمحاكمه الخاصة بالفصل فى كل قضايا السرقة والقتل · هذه المعلومة تثبت أن السلطنة كانت مفتوحة لكل اللاتينيين ، ثم ان البيزيين ذكروا بالاسم فى الوثيقة نفسها · وكان الكثير من هؤلاء الأجانب يأتون الى البلد عن طريق أرمينيا الصغرى ، وآخرون عن طريق جزيرة قبرص · فالبروفانسيون مثلا ، كانوا يمارسون تجارة عابرة (ترانزيت) بين قونية وقبرص ، ويجلبون الى الجزيرة ، ضمن أشياء أخرى ، الشعير والصوف والجلود والحرير الخام والمشغول(١) ، وتوضح خرائط العصور الوسطى بنوع خاص على شاطىء آسيا الصغرى ، فى مواجهة قبرص ، جنوب غربى مصب نهر سلف Selph ميناء مكونا من جزيرة أطلق عليها اسم Portus Prorensalium أو la Proensal (٢) · وربما كان هذا الموقع يتردد عليه البروفانسيون ، وربما كان اسمه مأخوذا من فرسان القديس يوحنا الذين يتكلمون اللغة البروفانسية،وكان لهم ثمة محطة(٣)،كما هى الحال بالنسبة الى جزيرة مجاورة يدل اسمها «كافاليرى»Cavalière (portus Cavalierus Sadut) لأول وهلة على أنها ملك لفرسان غربيين · بيد أن السلاطين كانوا يملكون على الشاطىء الجنوبى موانىء أهم من هذه ، منها كانديلورى Candelore (ويسميها الشرقيون علاية Alaia ، وساتاليا Satalia

وكان ميناء ساتاليا مفتوحا لكل الأمم التجارية المرتبطة بمعاهدات مع الامبراطورية البيزنطية ، الى أن غزا الصليبيون الأمبراطورية(٤) · ورغم أن المدينة كانت واقعة تحت ضغط جيرانها الأتراك منذ عهد الأباطرة كومنينوس ، وكثيرا ما هددوها حتى تضطر الى أن تدفع لهم الجزية ، فانها بقيت يونانية حتى وقعت الكارثة ، وكانت دائما مفتوحة للغربيين من ناحية البحر(٥) · وفى زمن الغزو ، انتهز شخص يدعى الدوبراندين Aldobrandin من أصل ايطالى ، ولكنه اصطبغ بعض الشىء بالطابع اليونانى ، انتهز فرصة الفوضى التى عمت المدينة ففرض سيادته عليها(٦) ، وكان هذا فى صالح المدينة اذ كان له تأثير حسن على علاقاتها بالغرب · واذا حاصر السلطان غياث الدين كيخسرو

---

(١) أنظر البراءة المؤرخة بشهر مارس ١٢٣٦ والتى منحها هنرى الأول ملك قبرص لصالح سكان مرسيليا ومونبيلييه وسائر البروفانسيين ، فى Mery et Guindon, I, 419 et s. —

(٢) Cf. Sanuta, p. 89 ; la Carte Catalane ; l'Altante Luxoro, p. 114 ; les cartes de Munich, dans Thomas. Periplus von Armenien, dans les Abh. der Muenchen. Akad Cl. I, vol. X, sect. 1, p. 283 et s.

، ما زالت هذه الجزيرة تحمل الى اليوم اسم بروفنسال Provençal

(٣) Beaufort, Caramania, p. 214 et ss. et Ritter, Kleinasien, II, 412 et s.

(٤) Taf. et Thom. I, 118, 272: Manum. hist patr. Chartoe, II, 351.

(٥) Guill, de Tyr, XVI, 26 ; Cinnam. p. 179 ; Nicet, p. 50, p. 340.

(٦) Nicét, p. 842 et s. ; Innoc. III, Epist., dans Bréquigny, Dipl. 11, 997.

المدينة ، تولى الدوبراندين الدفاع عنها ببسالة بمعاونة فرقة عسكرية من قبرص ، ولكن السلطان شدد الحصار على المدينة حتى استسلمت فى ٥ من مارس ١٢٠٧(١) ، وأصبحت من ذلك الحين جزءا من سلطنة ايكونيوم · وكان البنادقة قد وثقوا مع السلطان المظفر علاقات تجارية واصلوا ربطها مع خلفائه · وعلى ذلك فلا شك أن سفنهم كانت تستطيع ، قبل هذا الحادث وبعده أن ترسو دون عائق فى ساتاليا · ومن الأسباب التى كانت تأتى بهذه السفن الى هناك نقل البضائع بين مصر وساتاليا (٢) : وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد · وقد رأينا من قبل أنه كان الى جانب هؤلاء غربيون آخرون يتمتعون بحرية مطلقة فى التنقل فى البلاد التى يحكمها السلاجقة ، وعلى ذلك يمكن الجزم بأنه حتى ما بعد عام ١٢٠٧ كان ميناء ساتاليا تزوره سفن أخرى غير سفن البندقية · ومن المشكوك فيه ، على العكس من ذلك أن تكون مدن البحر الأسود التى أصبحت تركية فى عهد سيادة الأمبراطورية اللاتينية قد تلقت فى موانيها سفنا أوروبية ·

وفى القسم الأمامى من آسيا الصغرى ، استطاع جزء من الأمبراطورية اليونانية أن يحافظ على استقلاله ، واستمر قائما باسم أمبراطورية نيقية Nicée · وبعد أن ناضل سادة هذه الأمبراطورية الصغيرة نضالا بطوليا دفاعا عن أرضهم ضد هجمات اللاتينيين ، عادوا يشنون الهجوم بقصد استرداد ما كانوا قد فقدوه ابان الحملة الصليبية الرابعة · واتصلت الحرب سنين طويلة ، تخللتها فترات من التوقف · وانتهز « بودستات » القسطنطينية جاكوبو تيبولو Jacopo Tiepolo ، الذى أبرم عام ١٢٢٠ معاهدة مع السلاجقة ، انتهز فترة من فترات الهدوء هذه فحصل من الأمبراطور تيودور لاسكاريس Théodore Lascaris على امتيازات لصالح مواطنيه (١٢١٩) (٣) · أما بالنسبة الى المعاهدة ، أسوة بالمعاهدات المبرمة مع السلاجقة ، فان الوثيقة التى فى حوزتنا ليست هى الأقدم ، لأنها تشير الى معاهدة انتهى أجلها منذ زمن قصير · وفى معاهدة ١٢١٩ هذه منح لاسكاريس تجار البندقية حق دخول أمبراطوريته ومعهم كل ما يطيب لهم حمله من سلع ، وكذا معافاتهم من تفتيش الجمارك ومن كل الضرائب والمكوس ، فى حين بقى رعاياه ملزمين بأن يدفعوا للقسطنطينية ، وفى باقى أنحاء الأمبراطورية اللاتينية الضرائب المعتادة ، فضلا عن أنه تكفل كالمعتاد برعاية أموال البنادقة الغارقين أو المتوفين فى البلد · وأخيرا جرى الاتفاق على أن يكون للعملات التى تضرب لحسابه ، ال

---

(١) Ibn-Alathir, publié par M. de Mas-Latrie. Hist. de Chpyre II, 13. et s.; Nicétas, p. 843 et s.; Nicéphore Gregoras (1, 17).

(٢) Taf. et Thom. III, 430.

(٣) Taf. et Thom. II, 205 et ss., cf. Dandolo, p. 341.

و manuclates hyperpres (١) ، و stamena (٢) نمط مختلف عن عملات بنادقة القسطنطينية ، والعكس بالعكس · ولم تكن السوق التى فتحتها هذه الاتفاقية ، أو بالأحرى كفلتها لتجارة البندقية قليلة الأهمية · وتتيح أجور النقل المنخفضة لمنتجات الغرب أن تنافس منتجات الشرق التى تضطر لاجتياز اقليم سلاطين قونية · وكان اليونانيون المقيمون فى البلد يستعملون لملبسهم نوعين من الأقمشة ، بعضها مصنوع في ايطاليا ، والبعض الآخر منسوج فى فارس أو بلاد ما بين النهرين بحرير صينى · ومع ذلك توقفت هذه العادة فجأة فى اليوم الذى حظر فيه الامبراطور يوحنا فاناتزيس (١٢٢٢ ــ ١٢٥٥) على رعاياه شراء هاتين السلعتين ، وأمر باستخدام المنتجات الوطنية وحـــدها ، والا تعرضوا للعقاب ، وذلك بدعوى منع تصدير عملة البلد(٣) ، وربما أيضا للقضاء على مصالح اللاتينيين ، موضع كراهيته · ومن المحتمل أن يكون هــذا القانون الخاص بتحديد النفقات الكمالية ، شأنه شأن سائر القوانين المماثلة قد أهمل تطبيقه ، ذلك لأنه من العسير التوفيق بين مراعاة تطبيقه وبين وجود تجار من مواطنى Lucques فى نطاق الأمبراطورية ، وهى مدينة مشهورة بنوع خاص بجودة هذه المنسوجات · ولا بد من القول بأننا لا نعرف سوى اسمين من مواطنى هذه المدينة ، هما لانفرا نشينوس Lunfranchinus وايلدبيرانينوس Ildebrandinus ، وليس من الثابت أن هذين التاجرين قد استوردا منسوجات حريرية وقطيفة : بل انهما على العكس من ذلك أتيا ومعهما مبلغ كبير من المال لأداء بعض المشـــتروات ، وذات يوم ، ولسبب ما ، اعتقلتهما السلطات المحلية فى ادرايتيوم Adramyttium واحتفظ بهما الأمبراطور ميخائيل باليولوجوس اسيرين ، وتوسط لهما البابا الكسندر الرابع (٤) ، فأخلى سبيلهما ، ولكننا نقرأ فى عريضة ثانية وجهها الى الأمبراطور لصالحهما البـابا أوربـان الرابع (٥) . أن المـال الذى وجـد عنـد لانفرانشينوس قد صودر ولم يستطع صاحبه أن يسترده ، هذه الأحداث جرت قبل أن يستولى ميخائيل باليولوجوس على القسطنطينية · ومنذ أن كان تجار

---

(١) هذى عمله تحمل اسم الأمبراطور مانويل ، نجدها مذكورة فى :

Taf. et Thom. II, 18 dans les Documenti sulle relaz. tox. coll'Orient. p. 77, 78, et dans Arnold. Lubec, dans Pertz, SS. XXI, 174.

وكان هناك عملات مماثلة ، أنظر ·

— Anne Comm. I, 175; Guill de Tyr. XI, II, X111, 15; Raoul de Caen, p. 709 et l'éd. Paris.

(٢) عملة نحاسية صغيرة ، أنظر :

Taf. et Thom. I 108; Paspati, dans la Revue du Syllogos de Constantinople, VII, 121.

(٣) Niceph. Gregor. I, 43. éd. Boun.

(٤) Iib. jur. I, 1345.

(٥)

البندقية ولوكاس يترددون على أمبراطورية نيقية ، فـانا لا نعجب من أن نجد فيها أيضا جنويين . وفي البداية لم تكن العلاقات بين الأمبراطورية وجنوا قد اتخذت في الواقع سمة الود والألفة التي اتخذتها فيما بعـد حين انحدت القوتان ضد الأمبراطورية اللاتينية . وفي عام ١٢٣٦ كان الجنويون يقاتلون الى جانب البنادقة والبيزيين دفاعا عن القسطنطينية التي حاصرهـا كل من اليونانيين والبلغار(١) الأمر الذي لم يمنع استمرار المفاوضـات بين القوتين منذ عام ١٢٣١ ، تلك التي انتهت بالاتفاق بينهما . وفي هذا التاريخ توجـه سفيران جنويان لمقابلة أكبر أميرين يونانيين ، يوحنا فاتانزيس ، ومانويل ، طاغية أبيروس ، بحجة الاعداد لعقد معاهدة صلح (٢) . ولسنا نعرف القصد الحقيقي مـن هذا العمل ونتيجته . وفي عـام ١٢٣٩ ، حضر من نيقية الى جنوا شخصية أخرى بصفة سفير يتمتع بسلطات مطلقة ، الا أن المفاوضات لم تصل أيضا الى نتيجة هذه المرة (٣) . ومن المحتمل ان مسألة سـقوط الأمبراطورية اللاتينية كانت وقتئذ محل بحث ، ولكن من المرجح أيضا أن جنوا بسعيهـا للتقرب من امبراطورية نيقية كانت تعمل للحصول على مزايا لتجارتها ، وأنها حصلت بالفعل عليها .

ومن بين كل الجزر التي بقيت في قبضة اليونانيين ، كانت رودس بالتأكيد هي التي استثارت أكبر قدرمنالرغبة لدى الغربيين لأنهاتشكل محطة في الدرجة الأولى من الأهمية من حيث الاتصالات التجارية بسوريا ، وأرمينيا الصغرى ، وجزيرة قبرص ، ومصر . وثمة حـاكم قـديم تابع للأمبراطورية يدعى لاؤون جابالاس Léon Gabalas اقتطع امارة بالجزيرة ، ولكنه أهمل الحصول من أباطرة نيقية على الاعتراف بها . ولمـا ضيق عليه يوحنا فاتانزيس الخناق ، ويئس هو منأن يحمىبقواته وحدها استقلاله، فانه تحالف معجمهورية البندقية التي كان يتهددها الامبراطور في تلك الآونة بانتزاع جزيرة كريت منها : وكان في اعتقاده أن قواتهما المجتمعة تستطيع مقاومة العدو المشترك . هذه المعاهدة ، معاهدة التحالف الهجومي والدفاعي التي انعقدت في رودس في شهر أبريل عام التحالف الهجومي والدفاعي التي انعقدت في رودس في شهر أبريل عام ١٢٣٤ ١٢٣٤ بين مارسيليوس جورجيوس Marsilius Georgius سفير البندقية ، ولاؤون جابالاس (٤) صـدق عليها في شهر أغسطس من العـام نفسه الدوق جاكوبو

---

(١) Hopf. art. Griechenland, dans Ersch et Gruber, LXXXV, 253.

(٢) Annal. Jan. p. 177.

(٣) Ibid. p. 190.

ـ اذا كان موضوع هذه المفاوضات القضاء على الأمبراطورية اللاتينية ، فانها تكون مخالفة صريحة للتحالف القوي المبرم قبل ذلك بقليل بين جنوا والبندقية ، أنظر في ذلك : Taf. et Thom. II, 341 et ss.; Annal Jan. p. 189; Lio., Jur. I. 980 et ss. 984 et s.

(٤) لمزيد من التفاصيل بشأن الأخوين لاؤون ويوحنا جابالاس أنظر مقال السيد شلومبرجر في : M. Schlumberger dans la Revue archéologique, XXXI (1876) p. 233 et ss.

وظهر «أمير جزيرة رودس وجزر الكيكلاء» في المعاهدة بصفته Jacopo Ticpolo الطرف الأضعف ، وطالب المعونة تابعا للدوق ، والتزم بأن يؤدى سنويا لكنيسة القديس مرقص (ســان مــارك) ضريبة تتمثل في قطعة من الحرير مطــرزة بالذهب ؛ كما تعهد باعفاء البنادقة وسكان جزيرة كريت في ولاياته من الرسوم الجمركية والضرائب ـ المستوطنين منهم والأهالى ؛ في حين استمرت البندقيـــة تقتضى من تجار رودس في مستعمراتها اليونانية الرسوم الجمركية المفروضة في عهد السيادة اليونانية ، ولم تعفهم من الضرائب الا في جزيرة كريت ٠ وأخيرا رخص جابالاس للبنادقة بأن يقيموا بها منشـأة تضـم كنيسة و fondaco ودارا للبلدية ، وأن يستعملوا موازينهم ومكاييلهم في أعمالهم التجارية ٠ ولا شك أن البنادقة استغلوا هذا الترخيص في انشاء مستعمرة لهم بها ، اذ كان الوضع ملائما لهم ٠ غير أنه لم يثبت استمرار هذه المستعمرة زمنا طويلا : ذلك لأن يوحنا جابالاس ، خليفة لاؤون ، قدم ولاءه لامبراطور نيقية ، وتابعه في حملاته ضد اللاتينيين مما يدل على أنه وقع في نزاع مع البندقية ٠ وذت مرات ، كان متغيبا عن جزيرته ، اذ مضى الى آسيا الصغرى ليقاتل اللاتينيين الى جانب الامبراطور ، فكادت الجزيرة تقع غنيمة للجنويين ٠ ففى ذات ليلة ، انقض فريق من الأنصار على العاصمة (١٢٤٨) واستقروا بها فترة طويلة بمساعدة مائة من فرسان المورة ٠ عندئذ اضطر يوحنا فاتاتزيس أن يرسل جيشا لاجبار هؤلاء الدخلاء على الجلاء عن المدينة (١٢٥٠) (٢) ٠ وبقيت رودس بعض الوقت في أيدى اليونـانيين ولم يترتب على سيادة البندقية عليها ، أو احتلال جنوا لها أى أثر يذكر ٠

وبوجه عام فان الفترة التى وصلنا اليها تمثل أوج احتلال الغربيين الأقاليم القديمة التابعة للأمبراطورية البيزنطية ، ولم يكن هؤلاء قبل هذه الفترة أو بعدها أكثر عددا أو أشد قوة ٠ كانت هناك « فرنسا جديدة » في القصــور والقـــلاع بالقسطنطينية وطيبة وأثينا وشبه جزيرة المورة ، « وايطاليا جديدة » في مقار الأمراء بمملكة سالونيك ، وجزيرة يوبيا ، والقلاع التى شيدها أشراف البندقية في جزر اليونان ، وفي الأحياء التجارية بالقسطنطينية ، ونجربونت ، والميرو ، الخ٠ الا أن هؤلاء الفرسان والتجار لم يكونوا سوى جماعات منعزلة وسط حشود كثيفة من السكان اليونانيين ، وبخاصة في الأرياف ٠ وزادت صلابة اليونانيين يوما بعد يوم بقيادة زعماء من المقاتلين الأشداء ، وجعلوا يتبادلون المعونة من آسيا الصغرى الى ابيروس ؛ وبمساعدة البلغـار راحوا يسحقون جيوش الفرسـان والمرتزقة الصغيرة التى استطاع اللاتينيون أن يواجهوهم بها (٣) ٠ ولفترة طويلة ، لم

---

(١) Taf. et Thom. II, 319-322.

(٢) Georg, Acrop. p. 92-95.

(٣) سقطت مملكة تسالونيك الافرنجية عام ١٢٢٢ تحت وقع ضربات تيودور دوق ابيروس ، من اسرة انجيلوس ٠ ومع ذلك فان الهدنة التى وقعها نارجو دو نوسى نائب أمبراطورية القسطنطينية اللاتينية في شهر سبتمبر عام ١٢٢٨ مع هذا الأمير اتاحت لتجارة البلدين أن تسترد صلاتها شيء من الأمان ، فى طرق كانت حتى ذلك الحين معرضة لغارات القراصنة : أنظر :
— Lib., pleg. oppend., p. 184 et s.

تعد القسطنطينية تشكل ــ كما كان ينبغي لها أن تكون ــ حاضرة الامبراطورية اللاتينية ٠ ففد ظلت أرضا محصورة داخل الاقليم اليــونانى ٠ حتى سقطت بدورهـــا ، وكانت عودة اليـــونانيين الى عاصمتهم القديمة ضربة قاضية على الامبراطورية اللاتينية ٠

كان لهذا الحدث دوى هائل ، وبقى لنا أن نبحث عن نتائجه ، وأن نتحدث قبل ذلك عن سوق تنتمى بموقعها الجغرافى الى شبه جزيرة هيموس Hoemus التى لم يسمح سكانها ــ وغالبيتهم العظمى فى الأصل من الايطاليين ــ الا فى وقت متأخر ــ لم يسمحوا بأن تختلط بهم عناصر سلافية أخذت تحتل شيئا فشيئا القسم الأكبر من شبه الجزيرة : تلك هى راجوزة Raguse ٠ كانت هذه المدينة فى الفترة التى استعرضناها منذ هنيهة تشغل فى ظل البندقية مركزا تجاريا من الدرجة الثانية ٠ وكان من نتيجة القوة الكبيرة التى بلغتها البندقية فى عهد الامبراطورية اللاتينية أن حملت راجوزة على أن تعترف اعترافا تاما بتفوقها ٠ كان لراجوزة منذ زمن مبكر بحرية مزدهرة ، وكادت تصبح منافسا خطيرا للبندقية التى تملك السيادة عليها ٠ وتوصلت راجوزة ، تارة بوضع نفسها تحت حماية الامبراطور اليونانى ، وتارة أخرى بالتحالف مع الأمراء النورمان بجنــوب ايطــاليا وصقلية ، توصلت الى التخلص من هذه التبعية ٠ وفى عـــام ١١٧١ اضطر الدوق أن يلجأ الى القوة لكى يحمل راجوزة على أن تقبل ، بصفة كونت نبيلا من البندقية يدعى رانيرى زانيه Ranieri Zane (١) ، ويبدو مع ذلك أنه لم يشغل هذا المنصب زمنا طويلا ، وفى القرن الثالث تغيرت التيارات الفكرية ، وأصبحت راجوزة هى التى انحنت بذاتها أمــام الجمهورية القــوية ، والتمست منها أن تعطيهــا كونتا (١٢٠٥) ٠ وفى عـــام ١٢٣٠ اضطر الكونت أن يترك منصــبه أمــام دفعة جديدة من التيارات المعادية للبندقية، الا أن رد الفعل هذا لم يدم طويلا ٠ وبعد سنتين استدعته المدينة نفسها (٢) واعتبارا من هـــذه اللحظـــة كان الرأى مجمعا على أن مصـــلحة رجوزا تكمن فى أن تبقى تابعة للبندقية ؛ وتأكد هذا الاعتقـــاد ثلاث مـــرات فى الأعــوام ١٢٣٢ ، ١٢٣٦ ، ١٢٥٢ بوثائق تنبت هذه التبعية (٣) ٠ وفى وثائق هامة من هذا القبيل لم يمكن اغفال المسائل التجارية ؛ وحتى فى هذا الخصوص لم يكن فى استطاعة سكان راجوزة أن يدعوا مساواتهم ببورجوازيى البندقية ، ووافقوا

---

(١) Dandolo, p. 294.

(٢) Appendini Notizie sulle antichita, storia a letteratura dei Ragusei (Ragusei 1802-1803) I, 275-279.

(٣) Taf. et Thom. II, 307 et ss., 328 et ss., 464 et ss.; Engel, Gesch. des Freistaats Ragusa, p. 289 et ss.; l'Archiv. stor. ital., App. IX, 382 et ss. Cf. Dandolo, p. 347, 360.

على دفع ضريبة للبندقية عن استيراد البضائع الأجنبية . وتعرفنا هذه الوثائق بالبلاد التى كانت راجوزة تستورد منتجاتها : تلك هى رومانيا (أى الأمبراطورية اللاتينية وتوابعها) ، ومصر ، وتونس ، وبلاد البرابرة ، وصقلية ؛ ويوليا . يتبين لنا من هذا أنه كانت لراجوزة علاقات واسعة ، ونمنح فى الامبراطورية اليونانية باعفاءات ترجع غالبا الى عهد الكومنينوس ، وبالأخص مانويل ، ذلك لأنجهود هذا الامبراطور كانتتستهدف تشجيعموانىء دالماشيا لمكافحة البندقية . وصدق على هذه الاعفاءات أول أباطرة اللاتينيين ، بلدوين ، وهنرى ، ويبدو أنها قد حصلت أيضا على امتيازات من أباطرة نيقية ، وطربزون ، وقيصر بلغاريا « كالويان » Johannitius (Kalojan) (١١٩٧ ـ ١٢٠٧) ولكن لم يصلنا شىء عن هذه الامتيازات (١) . وفيما يختص بمصر ، كان تجار راجوزة يترددون على سوق الاسكندرية العالمية : ولدينا فى هذا الخصوص شهادة بنيامين دوتوديل ، وان كان من الأصح أن نقرأ بدلا من كلمة « راكوفيا » Rakuphia الواردة فيما حكاه عن رحلته كلمة « راجوزة » Fagusa (٢)

ولما كان تجار راجوزة يقومون عادة وبسهولة برحلات طويلة من هذا القبيل ، فالمعتقد أنهم كانوا يزورون أيضا وبكثرة السواحل الشرقية لايطاليا ، اذ لم يكن عليهم من أجل القيام بذلك سوى عبور البحر الأدرياتى (٣) ، وكذا أبيروس ، والبلاد السلافية (بلاد الصقالبة) الجنوبية كانوا يتصلون بهم عن طريق البحر مباشرة . والواقع أنه يمكن اقامة البراهين على وجود تجارة لهم مع أبيروس قبل الحملة الصليبية الرابعة فى العهد الذى كان فيه يوحنا انجيلوس يتولى مهام الحاكم باسم الامبراطور اليونانى ، واستمراره فى عهد الطغاة المستقلين ميخائيل الأول (المتوفى فى ١٢١٤) ، ومانويل (المتوفى فى ١٢٤١) . وميخائيل الثانى(المتوفى فى ١٢٧١) وقد شجع كل هؤلاء الأمراء تجارة راجوزة بأن منحوها كافة الامتيازات التى نعرفها عدا واحدا هو أقدمها (٤) . ثم أنه ليس ثمة ما يحملنا على التفكير فى هذا الأمر أكثر من ذلك لأنه لا يتعلق بتجارة الشرق الأدنى Levant بمعناه الصحيح . انما أردنا أن نوضح أن راجوزة ، وقد عادت الى ولائها للبندقية ، فانها اكتسبت مزيدا من القوة بانضمام بحريتها التجارية اليها : ذلك لأنه اذا لم تكن هذه البحرية تماثل بحرية الجمهورية

---

(١) Tof. et Thom. Griech. Orig. - Urk. zur Gesch. des Freistaats Ragusa, dans les Sitzungsberichte der Wiener Akad philos. hist. Cl. VI, 511.

(٢) Mon. slav. merid. I, 33.

(٣) Engel, Gech. des Freistaats Ragusa, p. 83, 106 et s., 112.

(٤) Taf. et Thom. Griech. Orig. - Urk. von Ragusa, op. cit., p. 524-529; Miklosisch et Muller, Acta graeca III, 58 et s., 66 et s., 87 et s; Hopf., Griechenland, op. cit., LXXXV, 211, 254, 258; Taf. et Thom. op. cit., p. 508-518.

الكبرى من حيث عددها فانها مع ذلك كانت قوية بدرجة تسمح لها بالمخاطرة في مشروعات بعيدة المدى ، كالمشروعات التى تقوم بها بحرية الجمهورية ٠
وختاما نقول كلمة عن موانىء دالماشيا : زارا Zara ، وتروا Trau ، وسبالاترو Spalatro التى يسكنها بحارة نشطون متمرسون بنوع خاص على التجارة مع سوريا وقبرص (١) ٠ كانت هذه المدن فى الحقيقة فى وضع من التبعية للبندقية ، أقوى من تبعية راجوزة لها ، ويمكن اعتبار بحرينها بوجه عام جزءا لا يتجزأ من بحرية البندقية ، فى حين احتفظت راجوزة بقدر كاف من الاستقلال ينيح لها أن تعقد معاهدات تجارية لحسابها الخاص ، ومع ذلك لم تكن فى الواقع سوى نصف جمهورية ، وطالما كان على رأسها كونت بندقى فانه يمكن القول بأن بحريتها ، رغم كبرها لم تكن سوى جزء من قوة البندقية البحرية الضخمة ٠ وهذا برهان آخر يدعم ما سبق أن ذكرناه عن التفوق الهائل الذى اكتسبته البندقية خلال الفترة التى درسناها ٠

الدول الصليبيـة فى ســوريا
فى غضون القرن الثانى من وجودها

يعتبر ظهور صلاح الدين بداية لعهد جديد فى تاريخ الدول الصليبية ٠ وقد جعلت موقعة حطين (٤ من يولية ١١٨٧) هذه الدول فى موقف ميئوس منه على وجه التقريب ٠وبغض النظر عن فقد بيت المقدس كنتيجة مبـاشرة لهذه الموقعة ، وكان هذا الفقد نكبة على العالم المسيحى كله ، فان هذه الهزيمة كانت نذيرا بسلسلة من الكوارث التى حلت بالمستعمرات التجارية ٠ وبعد انقضاء بضعة أيام (فى ٩ من يولية) فتحت عكا أبوبها للمنتصر دون قتال ، وكانت حتى ذلك الحين ، كما يقول بهـــاء الدين ، وابن الأثير مركزا من أكبر المراكز التجارة فى آسيا (٢) . وملتقى التجار الفرنجة واليونانيين وغيرهم من القادمين من قريب ومن بعيد (٣) ٠ واذ فر الأهالى من المدينة تاركين لهم كل شىء فى مكانه ، فقد اســـتولى المنتصرون على غنيمة هائلة ، أهـــم ما فيها الذهب ، واللآلىء ، والمنسوجات الحريرية من النوع المسمى « سجلاتون » Siglatoun ، وأقمشة البندقية benedikiy ، والسكر ، والأسلحة ، الخ (٤) ٠ وقبل انقضاء السنة كان صلاح الدين سيدا على يافا ، وصـــيدا ، وجبلـــة ، وبيروت ، وقيصرية ؛

(١) Guill de Tyr, II, 17; Monum. slav. merid III, 396 et s. : IV, 52, 75.
(٢) Boha-eddin, Vie de Saladin, dans le Rec. des hist. des crois hist. orient III, 98.
(٣) Ibn-Alathir, ibid.
(٤) Ibn-Alathir, ibid.

وعسقلان ، واستولى أيضا على طرطوس ، وجبل ، ولاوديكيا ، ولم نذكر هنا سوى الاماكن ذات الأهمية الكبيرة للتجارة . وصور وحدها هى التى استطاعت أن تقاومه ، ولاذ بأسوارها عدد كبير من الفرسان الذين نجوا بأرواحهم من هزيمة حطين ، وكذا حشد ممن هربوا من المدن السورية التى أعاد صلاح الدين فتحها (١)٠ومع ذلك فكان من الراجح سقوطها لو لم يأت اليها المركيزدو مونفيرا الذى تولى بهمة ادارة شئون الدفاع . ومع ذلك لم ينتظر البيزيون والجنويون وصوله لينظموا أعمال الدفاع الأولى (٢) . ومن تلك الآونة واصلوا القتالى الى جواره ببسالة يحفزهم تشجيع الأمراء الكنسيين والعلمانيين بالمدينة المقدسة ، ويساندهم كذلك عدد كبير من مواطنيهم الذين هرعوا الى نجدتهم من جميع الأنحاء (٣) . ولم يخش البيزيون أن ينظموا قبل الحصار وبعده حملات بحرية ، ويهاجموا عكا نفسها ، ويعودوا كل مرة ومعهم كميات وافرة من الغنائم والأغذية(٤) ونميز من بين هؤلاء بنوع خاص فرقة « الحمر » societas Vermiliorum (٥) ، وسميت هكذا بسبب لون شاراتها ، ومن ثم نالت مكافأة على ما قدمته من خدمات أموالا وحقوقا فى صور(٦) . ونذكر أيضا الى جانب هؤلاء المدافعين تجارا من سان جيل ، ومونبيلييه ، ومرسيليا ، وبرشلونة مقيمين بالمدينة(٧) . وأثار سقوط القدس وما سبقه وأعقبه من أحداث انفعالا شديدا فى الغرب كله . وكان الجنويون من أوائل من أذاعوا الخبر المشئوم(٨) ، ونشروا نداء بارونات الأرض المقدسة بالدعوة الى حملة صليبية جديدة ، وأرسلوا مرارا سفراء الى فرنسا وانجلترا : (روفو ديللا فولتا فى عام ١١٨٨ ، واتريكو ديويتسالفر ، وانسالدو بوخيريو فى عام ١١٨٩) لحث فيليب أوجست ، وريتشارد قلب الأسد على الجهاد(٩) . ولسوء الحظ كان هؤلاء الأمراء يتحاربون ، وكانوا أيضا فى حرب مع البيزيين ، وكان لابد من أن يوجه

---

(١) Epistola Januensium ad Urbanum Papam, dans les Gesta R. Henrici II, éd. Stubbs, II, 12.

(٢) Lib. jur. I, 347, 357, 400, 405; Doc. sulle relaz. tox. p. 26, 28, 30, 33, 34, 36, 39.

(٣) Lib jur. I, 346 et s. Voyez Belgrano, Arch. stor. ital., série III, T. V111, part. 2, p. 160.

(٤) Cont. de Guill. de Tyr, p. 77 (Rec. des hist des crois I); Caff. Annal Jan. p. 54.

(٥) Sicard. Cremon., dans Murat. SS. VII, 604 et s., Robert de Clary dans Hopf. Chron. greco-romanes, p. 28 et s.

(٦) Bonaini, Stat. Pis II, 573 et s.

(٧) Doc. sulle relaz. tox. p. 33, 34 et s.

(٨) Voy. le diplôme du marquis Conrad, dans Méry et Guindon, I, 190-192.

(٩) Voy. la lettre des Genois dans les Gesta Henrici II.

تعنيف رسمي من قبل البابا جريجوري الثامن ، والبابا كليمنت الثالث الى هؤلاء الخصوم الالداء لحملهم على التقارب • ومـا أن تم الصلح بينهم (١) حتى أبحر أسطول بيزى تحت قيادة كبير الأساقفة أو بالدو Ubaido (١١٨٨) : وكانت خطته أن يمضى الشتاء فى سينا حتى يتحسن الجو فى العام التـالى فيبحر الى فلسطين (٢) • وأبحر الأسطول الجنوى فى عام ١١٨٩ تحت قيـادة القنصل جويدو سبنيولا Guido Spinola ، وتبعه فى عام ١١٩٠ (٣) أسـطول آخر يعززه • وطلب الدوق أوريو ماستروبيترو Aurio Mastropietro من كل رعايا البندقية ، السادة منهم والخدم أن يكونوا مستعدين للاشتراك فى عيد القيامة لعام ١١٨٩ (٤) ؛ وأرسل بالفعل أسطولا قويا لحق فى الطريق بأسطول بيزا(٥)• وعلى ذلك فان جيوش الدول التجارية الثلاث الأولى سبقت بكثير جيوش فيليب أوجست وريتشارد التى لم تصل الى الأرض المقدسـة الا فى أشهر أبريل ومايو ويونية ١١٩١ ، وضم الأميران جيوشهما تحت أسوار عكا الى الجيش الصغير التابع للملك « جوى » Guy الذى كان قد بدأ يضرب الحصار على المدينة(٦)• وطال هذا الحصار المشهود قرابة سنتين (من أواخر أغسطس ١١٨٩ حتى ١٢ يولية ١١٩١) • ويشيد المؤرخون الذين سجلوا قصة هذا الحصـار بالآلات الحربية القـوية التى يملكها الجنويون والبيزيون ، وبالغـارة التى قام بها البيزيون بجرأة تزيد عما نالوه من نجاح على برج « الذباب » الذى يحمى مدخل الميناء ، وأخيرا بدورهم فى الغارة الأخيرة التى أجبرت الحامية على التسلم (٧) • وكان الجيش القائم بالحصار يضم فى صفوفه محاربين من جميع أمم أوروبا ، تميز من بينهم بنوع خاص بورجوازيو مرسيليا(٨) • واذ تم الاستيلاء على المدينة ، عاد الذين كانوا يملكون بيوتا أو عقارات أخرى قبل غزو صلاح الدين ، واستطاعوا أن يقدموا أدلة جديدة تثبت حقـوقهم ، فاستردوا بذلك ما كانوا يملكونه (٩) • وعاد التجار والصيارفة البيزيون وغيرهم فشغلوا حوانيتهم فى

---

(١) Dal Borgo, Dipl. Pis. p. 114 et ss.

(٢) Breviarium hist. Pis. dans Murat. VI, 191.

(٣) Annal. Jan. p. 104, 105.

(٤) Taf. et Thom. I, 204. Toeche, Heinrich VI, p. 107.

(٥) Dandolo, dans Murat. SS. XII, 312 et s.

(٦) Breviar. hist Pis. l.c.; Sicard. Cremon. dans Murat. SS. VII, 606; Itinerar. R. Ricardi I, éd. Stubbs, p. 62, 74; Gesta Ricardi I éd. Stubbs, p. 95 et s.

(٧) Itiner. Ric. p. 84, 109 et s., 228; Gesta Ric. p. 173, 178; Contin. de Guill. de Tyr, p. 157; Annal. Jan. p. 104; Lib. jur. I, 357, 411.

(٨) Diplôme du roiG uy, de l'année 1190, dans Méry et Guindon, I, 194 et s. et dans Papon, Hist. de Provence, II, Preuves, p. XXV et ss.

(٩) Contin. de Guill. de Tyr. p. 175 et s.

ميدان السوق (١) . ونشطت كل الأمم التجارية لاستعادة أملاكها القديمة في المدينة . وكان الجنويون قد اتخذوا حيطتهم من قبل حتى لا يضيع منهم شيء ؛ وتعهد فيليب أوجست بموجب معاهدة عقدها معهم فى ١٦ من فبراير ١١٩٠ أن يرد اليهم الاملاك التى فقدوها على أثر فتوحات صلاح الدين ، ويمنحهم فوق ذلك فى كل المدن التى يستولى عليها خلال الحروب الصليبية مستعمرة ومحكمة خاصة ، مع كل الملحقات المعتادة ، وكانت هذه الشروط قد فرضها الجنويون على سفير الملك « هوج دو بورجونى » الذى كلفه سيده أن يتفاوض لتأجير أسطول لنقل الجيش الفرنسى الى سوريا ، فقبل السفير هذه الشروط ، وأقرها الملك فى أثناء وجوده فى جنوا فى شهر أغسطس ١١٩٠(٢) . واذا لم يرض الجنويون عن هذه الوعود ، فانهم حصلوا لأنفسهم على ضمان مزدوج ، وحصلوا من الملك جى دو لوزينيان ، على وثيقتين رسميتين تحملان ذات المضمون (٣) . وحصلت بيزا على ضمانات مماثلة من الماركيز كونراد دو مونفيرا . حقا ان هذه الضمانات ترجع الى فترة لم يكن أحد يفكر فيها فى حصار الموقع ، الا أن جى دو لوزينيان ، وريتشارد قلب الأسد صدقا عليها فيما بعد (٤) ، وكانت الاعمال البطولية التى قام بها البيزيون قد أكسبتهم الحق فى أن يعترف بهم هؤلاء الأمراء ، ولا شك أنهم أوفوا بعهودهم(٥) . كذلك ألحق الأمالفيون وحدتهم بالجيش القائم بالحصار ، ومكافأة لهم على خدماتهم الجليلة أعفاهم الملك جى من رسوم الدخول والخروج ، وكذا رسوم البيع والشراء على بضائعهم فى عكا ، ورخص لهم بأن يقيموا بها فيكونتات أو قناصل ، وأهدى لهم فضلا على ذلك دارا ليقيم بها هؤلاء الموظفون (٦) . وأخيرا ، وفى أثناء الحصار ، حصل البنادقة من جديد من الماركيز كونراد ، وبصفة عامة ، على الحقوق والأملاك التى كانت لهم قبلا فى مملكة القدس ، وسجل مؤرخهم داندولو أنهم استردوا بالفعل ، بعد الاستيلاء على المدينة ، حيازة بيوتهم ، وكنيسة القديس مرقس (سان مارك) (٧) . وثمة أمر غريب : ذلك أنه لم تذكر كلمة واحدة ، لا فى وثيقة كونراد ، ولا فى الوقائع المدونة عن الأعمال البطولية التى أداها هؤلاء أمام الموقع ، ولم يكن ثمة شيء يختص بهم ، اللهم الا فى هذا الاقرار البحت بأملاكهم القديمة ، فى حين حصل الجنويون والبيزيون خلال بضع السنين هذه على مجموعة من الامتيازات التى تضيف أملاكا

---

(١) Gesta Ricardi., II, 181.

(٢) Lib. jur. 1, 355 et s., 368 et s.; Annal. jan. p. 104; Annal. Jan. 1. c.; Gesta Ricardi II, 113; Heinrich VI, p. 107 not. 11.

(٣) Lib jur. I, 359 et s., 380 et s.

(٤) Doc. sulle relaz. tosc. p. 30 et s., 38 et s., 58 et s.

(٥) Roncioni, Istorie Pisane, dans l'Archiv. stor. ital. VI, 1, p. 419 et s.

(٦) Charte du 10 Avril 1190, dans Camera, Memorie di Amalfi, I, 201; Ficker, Acta imperue selecta II, 609 et ss.

(٧) Taf. et Thom. I, 712; Dandolo, p. 314

كبيرة على الأملاك التى ضمنوها لأنفسهم من قبل ، وكفلت لهم مجموعة من الحقوق والاعفاءات • والجدير بالملاحظة بوجه عام أن البنادقة فى سوريا قد هبطوا زمنا طويلا الى المرتبة الثانية ، وأن هذا الوضع تفاقم بصفة خاصة منذ أن تلاشت قواتهم بتأسيس ودعم الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، وبقى لهم قدر من الطاقة يتيح لهم بالكاد الاحتفاظ بأقدم أملاكهم ، وعلى هذا الوجه تركوا المجال مفتوحا للبيزيين والجنويين • كذلك كانت هذه الفترة أزهى عصور البيزيين (١) •

وقد يثير الدهشة هذا السخاء الذى تجلى فيما منحه الأمراء لهاتين الأمتين من امتيازات ، لو لم نكن نعرف أن الاعتراف بخدماتهما لم يكن عاملا ذا أهمية فى هذا الشأن(٢) ، اذ كان العرش معرضا للخطر ، وكان يهمهم أن يكتسبوا أنصارا • كانت الهزيمة فى معركة حطين ، والأسر ، والوضع الخارجى قد أفقد جى دو لوزينيان كل ما كان له من هيبة ونفوذ ، أما كونراد دو مونفيرا الذى لم يزل يزهو بالنصر الذى اكتسبه ابان دفاعه عن صور ، آخر معاقل المملكة ، فانه فرض نفسه جهارا مطالبا بالعرش ، ومنافسا خطيرا • ولا مجال هنا لسرد وقائع الصراع بالتفصيل ، ولكن هناك نقطة واحدة تهمنا ، تلك هى الدور الذى لعبه الجنويون والبيزيون فى هذه الظروف • فقد انحاز الجنويون الى المركيز دو مونفيرا ، وسانده فيليب أوجست • أما البيزيون ، فعلى العكس من ذلك جهروا بتأييدهم جى دو لوزينيان(٣) ، وكان لهم علاقات مودة بنوع خاص مع ريتشارد قلب الأسد(٤) ، ويبدو أن هذا الأمير قد حثهم جهارا على اتخاذ هذا السلوك (٥) • وكان لا بد أن يؤدى هذا الموقف الى انفجار : ففى شهر فبراير (٦) من عام ١١٩٢ شنت الأمتان احداهما على الأخرى حربا صريحة • فقد تناهى الى اسماع البيزيين فى عكا نبأ مؤامرة دبرها الجنويون لتسليم الموقع لكونراد دو مونفيرا ، فبادروا الى حمل السلاح ، وأغاروا على الجنويين وحلفائهم الفرنسيين ودحروهم • وعندما وصل المركيز متوقعا أن يستولى على المدينة على حين غرة ، وجدها متأهبة للدفاع عن نفسها • وبعد انقضاء ثلاثة أيام فى غارات فاشلة ، اضطر الى التحول عنها والهجوم مع الفرنسيين على صور • ووصل ريتشارد قلب الأسد الذى

---

(١) Cont. de Guill. de Tyr. p. 202, D.

(٢) قدم الجنويون والبيزيون لبعض الفرسان الانجليز والفرنسيين فى الجيش المحاصر مبالغ من النقود بمثابة سلف كانت لهم جزيلة الفائدة ، أنظر :
Delisle, Catalogue des actes de Philippe Auguste, p. 82 : Bibl. de l'école des chartes, Série I, V, 35 et s.

(٣) Roehricht, Forschungen zur deutschen Gesch. XVI, 487; Itinerar Ricard. p. 321; Tractatus de terra sancta, éd. Thomas, p. 35.

(٤) Gesta Ricardi II, 170; Itiner. Ric. p. 212 et s.

(٥) Contin. de Guill de Tyr, p. 152-154.

(٦) Roger de Hoveden, éd. Stubbs III, 180.
التاريخ الذى ذكره روجر دو هوفدن غير صحيح :

استنجد به البيزيون ، وصل بعد انسحاب كونراد • وفى ٢١ من فبراير • دبر تصالحا بين البيزيين والجنويين(١) • وفى هذه الأثناء توفى كونراد (فى ٢٨ من ابريل ١١٩٢) ، وبقى البيزيون أنصارا مخلصين لجى دو لوزينيان ، ودعوه الى الاتحاد معهم لاستعادة صور(٢) ، ولكنهم لم يعملوا حسابا لبارونات سوريا الذين قدموا العرش لهنرى كونت دو شا Henri, comte de Champagne بموافقة عمه ريتشـــارد قلب الأســـد • وقنع جى لوزينيـــان بالسيادة على قبرص • وبعد كل ما حدث ، لم يكن فى وسع السيد الجديد الا أن يغذى فى صدره مشاعر الحقد والريبة حيال البيزيين، وخاصة ان هؤلاء استمروا على علاقة بالملك المخلوع عن عرشه (٣) ، واستمهلهم حتى شهر مايو عام ١١٩٣ ليعقد معهم اتفاقية بتسوية (٤) ، ووافق على أن يضمن لهم امتيازاتهم وأملاكهـم فى صور ، وعكا ، وبوبيه Yoppé ، ويعفيهم من الرسوم الجمركية عند مدخل ميناء عكا ومخرجه ، ولكنه رفض أن يضـمن لهم سائر ما كان لهم من امتيازات ، ووعدهم بها حين يتاح له استرداد بيت المقدس : أى الى أجـــل غير مسمى ! واشترط عليهم فوق ذلك الا يقيم فى صور خلال السنة القادمة كلها أكثر من ثلاثين بيزيا فى وقت واحد لا بتصريح خاص منه ، وأن يقسم القناصل والرعايا البيزيون عندما يطأون أرض المملكة أن يدافعوا عن حياته وكرامته واقليمه ضد أعدائه كلهم • وعلى أية حال ، فهم لم يراعوا هذا الشرط الأخير ، فقد جهزوا حملة بحرية على مرأى من سواحل سوريا ، وراح بحارتهم ينهبون المسافرين الذين يريدون دخول المملكة أو الخروج منها • وأنذر الكونت البيزيين فى عكا أن يضعوا حدا لهذه الحال ، فلم يذعنوا ، فاستشاط غضبا وأمر بطردهم من عكا ومن المملكة كلها (٥) •

ومع ذلك فانه عقد الصلح معهم من جديد فى عام ١١٩٤ ، وأذن بترميم البرج الذى كانوا يمتلكونه في عكا ، ومن المحتمل أن هذا البرج قد أصيب بأضرار فى العديد من الثورات التى نشبت هناك • وفضلا على ذلك أقر بملكيتهم للفرن والحمام اللذين كانا لهم فى كل الأزمان (٦) • وفى عام ١١٩٧ تعهد بأن يمنحهم حمايته فى كل جهات المملكة التى يريدون الاقامة بها أو ممارسة التجارة فيها ، ولكنه أيد قرار الطرد الصادر ضد طاقم السفينتين (اكويلا ، وامبريالس) المتهمين بقتل بعض الحجاج (٧) •

---

(١) Itiner. Ric. p. 321 et s. ; Roger de Hoveden, l.c.

(٢) Contin. de Guill de Tyr, p. 194.

(٣) Op cit., p. 199 202.

(٤) Doc. sulle relaz. tox p. 60.

(٥) Contin. de Guill. de Tyr, p. 202.

(٦) Ibid. p. 203; Doc. sulle relaz. tox. p. 65 et s.

(٧) Doc. sulle relaz. tox p. 78.

وتعطى الأحداث التى لخصناها آنفا فكرة عن وجود « مستوطنات تجارية » فى غضون هذه الفترة الثانية من تاريخ الامارات الصليبية · فحتى ذلك الحين قنعت هذه المستوطنات بأن تزدهر دون جلبة أو ضوضاء ، حتى ان المؤرخ قلما يجد هنا أو هناك احداثا تتعلق بها ، واستمدت هذه المستوطنات قوة فى الدولة ، وقوى نفوذها فى كل التغيرات السياسية مهما كانت خطيرة · وفى الكثير من الأحيان لم تكن هذه المستوطنات تختشى ، من أجل ضمان نفوذها أن تشترك بأسلحتها فى المعمعة · وكان النظام الاقطاعى شرا على المملكة ، وأضيف الى هذه العلة ضروب المنافسة المتوصلة التى كان العرش هدفا لها ، وثمة ملوك وأباطرة أجانب كانوا يدعون أن لهم حقوقا فى العرش ، ويطالبون بها على حساب حقوق اللوزينيانيين فى قبرص ، ولكنهم جميعا لم يظهروا فى سوريا الا فى القليل النادر ، واكتفوا بارسال نواب عنهم ، ومعهم جيوش صغيرة · وبالتدريج ، وفى غضون هذه الفوضى ، استولى بارونات المملكة على جزء كبير من مخصصات المملكة ، والى جانبهم لعب الأساقفة ، وطوائف الفرسان ، والجمعيات الأخوية (التى سوف نتكلم عنها) والمستوطنات التجارية دورا يزداد أهمية يوما بعد يوم · غير أن سكان سوريا كانوا تقريبا ممزقين من جراء الخلافات الداخلية ، وقلما وجدت المستوطنات كلها منضمة الى جانب واحد (١) ، وهذى من النقاط التى اختلف فيها هذا العصر مع العصر الذى قبله · ففيما مضى ، ورغم كل المنافسات فى مجال التجارة ، كانت المستوطنات تعيش جنبا الى جنب فى سلام دون أن تنشب بينها نزاعات ذات أهمية · وابتداء من الفترة الثانية ، جرت صراعات مسلحة لا نهاية لها : فأحيانا كانت الحروب التى تشنها أوطانها الأصلية تمد فروعها حتى تصل اليها وأحيانا كانت المعارك تشتعل فى المستوطنات نفسها بسبب منازعات من أجل الحدود أو الممتلكات ، وكثيرا ما كانت هذه الصراعات تتسبب فى توقف حركة التجارة ، ومع ذلك لا يبدو أن هذه الحركة عانت كثيرا وبصورة محسوسة من هذه الصراعات · وكانت طبقة التجار بين سائر الطبقات الممثلة فى مملكة القدس هى التى تزيل بأسرع ما يمكن آثار الكوارث التى أوقعها صلاح الدين · وكانت المدن البحرية بالاجمال هى مراكز التجارة الرئيسية ، وقد أعاد المسيحيون الاستيلاء عليها الواحدة بعد الأخرى فى زمن وجيز ، وامتلأت أسواقهم من جديد ، ونشطت حركة المبادلات كما كانت من قبل · وبقى داخل البلاد فى أيدى المسلمين ، ولم تعد الامارات الصليبية تشغل سوى شريط ضيق من الأرض على طول الساحل ، وكان فى ذلك ضرر بالغ بالتجارة ، لأن قوافل البضائع الراحلة من المدن المسيحية كانت فيما مضى تغادر الاقليم المسيحى الصديق على مسافة بضعة أميال من الساحل ، ففى زمن

---

(١) انظر على سبيل المثال : Le contin. de Guill de Tyr. p. 474 et s.

السلم كان المسلمون يتركونها تمر دون عائق ، أما فى زمن الحرب ، فان حركة التجارة مع الداخل كانت تتعرض لكل أنواع المخاطر .

وفى الفترة التي نتحدث عنهـــا ، تركزت التجارة أكثر من ذى قبل فى مدينة عكا . وقد أصبحت هذه المدينة منذ سقوط بيت المقدس المركز السياسى للمملكة ، وفيها مقر الملك أو من يمثله ، وتنعقد فيهـــا جلسات محكمة العدل العليا ، واليها لجأ الكثير من كبار شخصيات الكنيسة الذين طردهم العدو من كراسيهم الأسقفية ، والفرسان الذين طردوا من قلاعهم . وكان لابد لهـــذه الظروف أن تجتذب المزيد من تجار الغرب وتثير بينهم روح المنافسة . وبدا لأهالى « انكونا » الذين لم يكونوا حتى تلك الآونة يزورون سوريا الا تسللا خلف البيزيين أو الجنويين أو البنادقة ، بدا لهم أن الفرصة صارت مواتية لكى يعتمدوا على أنفسهم فى ترحالهم . وقدم لهم البابا انوسنت الرابع يد المساعدة فأوصى بهم بطريرك القدس ، وأسقف عكا ، ومنحهم الاعفاء من الرسوم الجمركية فى عكا وسوريا بوجه عام ، فى التصدير والاستيراد (١) . بقى أن نعرف ما اذا كان بارونات الأرض المقدسة قد قبلوا هذا القرار وكفوا عن طلب الرسوم عن البضائع التى يحملها الانكونيون : ونحن نشك فى ذلك . وبعد زمن قليل ، أقامت الجالية الانكونية مستوطنا مستقلا فى عكا . وفى ١٠ من أغسطس ١٢٥٧ عقد المندوبون المفوضون من انكونا معاهدة مع يوحنا ديبلان Jean d'Ibelain ، سيد أرسور Arsour ، والقائد العام لمملكة القدس : وفى هذه الوثيقة منحت مدينة انكونا قطعة أرض داخل عكا نقيم بها كينسة لخدمة مواطنيها ، وقصرا لأعضـــاء القنصلية ، وبيوتا للسكنى وحوانيت ، وصرح لجالية التجار الجديدة أن يكون لها ادارتها ومحكمتها ، غير أنه كان عليها أن تسهم فى الدفاع عن الموقع فى زمن الحرب (٢) . ومع حركة التدفق الجديدة للتجار الذين توافدوا على عكا ، كان لتسكانيا نصيب كبير ، ووصل الفلورنسيون ثمة مع أوائل من وصلوا من البيزيين (٣) . وأسس تجار مدينة « لوكا » Lucques هناك توكيلات تجارية (٤) ، وحصلت مدينة سينيا Sienne فى عام ١٢٦٨ على وعد من كونرادن دى سواب Conrandin de Souabe بالاعفاء من الرسوم عند الدخول فى مدينة عكا والخروج منها وتخفيض رسوم الميناء بمقدار ١٪ (٥) ، ولم يسمح الحظ العاثر لهذا الأمير التعس بالوفاء بوعده . وفى حين كان عدد البـــلاد

---

(١) Berger, Registres d'Innocent IV, I, 214 (trois chartes du 28 juillet, 1245).

(٢) Pooli, Cod. dipl. dell'ord gerosolim. I, 157-161.

(٣) Contin. de Guill. de Tyr, p. 218.

(٤) Comme preuve, voy. une charte citée par Bini, I Lucchesi in Venezia, I, 113 et s.

(٥) Doc. sulle relaz. tox. p. 100 et s.

الايطالية الممثلة فى عكا فى تجارة البضائع يزداد يوما بعد يوم . قامت شركات البنوك الايطالية التي كان لها فروع مصرفية فى أوروبا بانشاء فروع لها فى عكا ، ذلك لأن هذا الموقع يتيح أكثر الظروف ملاءمة لتجارة واسعة فى الفضة . والمعروف أنه بفضل العلاقات التي كانت لبعض البيوت المصرفية التابعه لسيينا ، وبخاصـــة لبياتشنزا Piancenza اســتطاعت أن نزود القديس لويس بالموارد اللازمة للانفاق على جيوشه أثناء الحروب الصليبية وبعدها (١) . والى جانب التجار الايطاليين نجد أيضا فى عكا آثار مستوطنة من التجار الانجليز : والغالب أنهم وصلوا هناك فى أعقاب الحملة الصليبية التى قادها ريتشارد قلب الأسد . وكان « حي الانجليز » يقع على التل المسمى« جبل موزارت » Mont Musart (٢) . ومع ذلك كان أهـــم المستوطنات ، بعد المستوطنـــات الايطالية ، مســـتوطنة البروفانسيين ، وكان لهم أيضا حيهم (٣) وكنيسة مكرسة لمريم العذراء (٤) . الا أن نمة مدينتين كانتا تزودان المستوطنة بغالبية أعضـــائها هما مرسيليا ، وموتبيلييه ، وكان تجارهما ينمتعون بالاعفاء من رسوم الدخول والخروج ، وكان لمن استقربهم المقام هناك بصفة نهائية موظفون استعماريون من موطنهم الأصلى

وأدت المنافسة بين كل هؤلاء التجار ، من ايطاليين وفرنسيين وانجليز الى اعطاء دفعة جديدة لتجارة عكا اذ اضطرتها الى توسيع علاقاتها أكثر فأكثر . ونحن نعلم من قبل أن البنادقة وغيرهم كانوا يذهبون من هناك الى دمشق . ويرحل منها أيضا وكلاء متجولون قاصدين دمياط وآنيا Ania بآسيا الصغرى ، والقسطنطينية (٥) . وعندما زار المبشر وليم دو روبروك ســلطنة ايكونيوم. وثمة مبشر آخر ، هو يوحنا دو بلان دو كاربان Jean du Plan de Carpin (حاليا قونية ، بتركيا) وجد تجارة الشب حكرا لجنوى من عكا ، ولبندقى . التقى فى مدينة كييف بتاجر من عكا (٦) . ثم ان الشرق لم يكن الهدف الوحيد لتجارة عكا ، فهناك أكثر من تاجر عاد الى الغرب وزار هناك المواقع التجارية

---

(١) Belgrano, Doc. ined. riguard le due crociate di S. Luigi IX; G. Servois, Emprunts de Saint-Louis en Palestine et en Afrique, dans la Bibliothèque de l'école des chartes, Série IV, T, IV, p. 113 et ss.; A. G. Tononi, Documents relatifs aux Plaisançois d'Orient, dans les Archiv. de l'or. lat. II, 2. p. 208-212.

(٢) Charte de 1240. dans les Arcives de l'Or. lat. II, 2. p. 156: Charte de 1255 dans Paoli, Cod. dipl. I, 261; les Archiv. de l'Or lat. I, p. 426; les Itinèraires à Jérusalem et descriptions de la terre sainte, éd. Michelant et Reynaud

(٣) Rue des Provenancaux "Paoli I., 265 ; Mas-Latrie, Hist. de Chy. ne, II. 67; « Ruga Provincialium» ibid. 111, 636 : " Vicus Provincialium» Taf. et Thom. II, 32.

(٤) Taf. et Thom. II, 32; Paoli, I, 264.

(٥) Doc. sulle relaz. tosc. p. 103, 104.

(٦) Recueil de voyages et de mémoires, publ. par la Société, de géographie, IV, 392, 772.

الرئيسية . من ذلك أنه فى أواخر القرن الثالث عشر كان يوجد تجار من هؤلاء فى أسواق شامبانى الكبيرة(١) ، وفى جنوب ايطاليا(٢) وغيرها .

كانت صور من الناحية التجارية تحتل المرتبة الثانية ، وكانت الأحياء الايطالية بها ، تلك التى بقيت من غارات الأعداء تتمتع برخاء متصل ، وتكون بها باسم البروفانسيين مستوطنة جديدة مؤلفة من بورجوازيى مرسيليا ، ومونبيلييه ، وسان جيل ، وبرشلونه (٣) ، وقد غمرها كونراد دو مونفرا بالأموال والحقوق والاعفاءات ، فلم يكن ثمة شىء كثير يثير حسدها من أخوتها الأقدم عهدا منها (٤) . وأقر فيليب دو نفزر سيد صور من ١٢٤٣ الى ١٢٦٩ الاعفاءات الخاصة بأهالى مرسيليا بالمدينة (٥) .

وفى خريف عام ١١٩٧ استعاد المسيحيون سيادتهم على مدينة بيروت التى كان لمينائها بعض الأهمية فى عهد مملكة القدس القديمة (٦) ، غير أنه اعتبارا من هذه الآونة ، وبتأثير أمراء أسرة ايبلان Ibelin ، وبراعتهم فى الادارة ، أرسيت بها دعائم رخاء استمر مزدهرا عدة قرون بعد ازدهار صور وعكا . وأول هؤلاء السادة معروف ، لأنه كثيرا ما ذكر فى « قوانين بيت المقدس » باسم « سيد باروت الكبير » vieux sire de Baruth ومن ١٢٢١ الى ١٢٢٣ منح الجنويين (٧) والبنادقة (٨) والمارسيليين (٩) بسخاء حقوقا وأملاكا فى مدينته ، واتسمت علاقته بالجنويين بطابع صداقة ومودة فى شتاء عام ١٢٢٢ — ١٢٢٣ ، وكان هؤلاء قد احترقت املاكهم فى عكا بفعل البيزيين ، واشتد غيظهم لعدم قدرتهم على الحصول على التعويضات التى طالبوا بها فهجروا المدينة ورحلوا الى بيروت التى أصبحت من ثمة المرفأ التجارى الوحيد (١٠) . وسوف نرى فيما بعد الظروف التى توثقت فيها العلاقات بين الجنويين وسادة بيروت .

عندما يغادر المرء بيروت متجها نحو الشمال ، يصل أولا الى حدود مملكة بيت المقدس عند مصب نهر الكلب Nahr-el-Kelb . وعلى مسافة بضعة أميال

(١) Contin. de Guill. de Tyr, p. 195, not. 21.
(٢) Charte de l'an. 1266, dans Del Giudice, Cod. dipl. di Carlo d'Angio I, 235.
(٣) M. Germain, Hist. du commerce de Montpellier I, 180; cf. Vic et Vaissette, Hist de Languedoc, éd. Du mège, III, 231, IV, 214.
(٤) Charte du mois d'octobre 1187, dans Méry et Guindon I, 190.
(٥) Ruffi, Hist. de Marseille, I, 96.
(٦) Wilken, Gesch. der Kruzz. P, 35-39.
(٧) Lib. jur. I, 665 et s. 687 et s.
(٨) Taf. et Thom. II, 230 et ss., 232 et ss.
(٩) Méry et Guindon 1, 287 et s.
(١٠) Annal Jan. p. 150.

من هذا النهر يصادف مدينة « جبيل Gibelet أول مدينة باقليم طرابلس ، وكانت أسرة امبرياتشي Embriaci قد استولت عليها عام ١١٩٣ ، ووجد الجنويون في أفراد هذه الأسرة مواطنين لهم وحماة ، وكانت الميناء مفتوحة لهم بالاعفاء الكامل من كل الرسوم ، ومن ثم كانوا يؤثرون التردد عليها (١) ٠ ولم يكن البنادقة يتمتعون بالامتيازات نفسها ، فحتى عام ١٢١٧ كانوا يدفعون ٤٪ من قيمة السلع ، ولكن اعتبارا من هذا التاريخ حصلوا على خفض نصف هـذه النسبة (٢) ، غير أن المجهود الذى كانوا يبذلونه للوصول الى هناك يدل على أنهم كانوا حريصين على الا يتركوا هذا المكان ٠

وبالمضى على طول الساحل بين جبيل ونفين Nefin على بعد أربعة فراسخ ونصف فرسخ من طرابلس (٣) نصادف مدينة التبرون الصغيرة التى استخلصت من أيدى المسلمين ، وعادت الى سيدها القديم بعد فترة قصيرة أمضتها بلا حاكم ، وكان اسمه بليبانوس Plebanus (٤) ، وينتمى الى أسرة غنية موطنها الأصلى بيزا ، ثم استقر بها المقام فى طرابلس ، وكان يدين بسيادته لكفاءة أحد أعمامه : اذ لما كانت سلالة الذكور فى بارونات الباترون قد انتهت فى شخص جويوم (وليم) دوريل ، فان ابنته ووريثته سيسيل لم يكن بوسعها أن تتزوج الا باذن كونت طرابلس الذى كان له الحق فى التصرف فى زواجها بصفته السيد الاقطاعى ، وكان قد وعد بزواجها لفارس يدعى جيرار ريدفورت ، ولكن مبلغ ١٠٠٠٠ دينار بيزنطى دسه سرا فى يده البيزى الثرى حمله على تفضيل الشرير على الفارس ، وهكذا تزوج بليبانوس الوريثة وأصبح سيد مدينة الباترون (٥) ٠ حدث هذا قبل غزو صلاح الدين بعدة سنين ٠ وكلف انتصار صلاح الدين بليبانوس اقطاعيته وحريته (٦) ٠ ولكنه استعادهما بعد بضع سنين ٠ وفى عام ١٢٠٢ منح تجار وطنه الأصلى الاعفاء من الرسوم الجمركية عند الدخول والخروج (٧) ٠ وكان من شأن وثوق البيزيين من الترحيب بهم فى مكان سيده من مواطنيهم أن أجتذبهم الى مدينة الباترون ، كما دفع الجنويين صوب جبيل ٠ ولسوء الحظ لم يرزق بليبانوس بوريث ذكر ، فانتقل ارثه من بعده الى أيد

---

(١) Diplôme de 1168, dans le Lib. jur. I, 230.

(٢) Taf. et Thom. II, 196 et s.

(٣) Wilbrand ab Olenburg, dans Laurent, Peregrinatores, p. 168; Iacq. de Vitry. p. 1072 ; Sanut. p. 245: Edrisi, I, 356; Ghistele, p. 263; Asien XVII, 1, p. 584-588; voy. aussi p. 37.

(٤) Paoli, Cod. dipl. 1, 70, 103, 218, 252, 283 ; Doc. sulle relaz. tox. p. 65, 79; Lib. jur. I. 523; Tab ord. teuton, éd. Strehlke, p. 18, 35; Hopf, dans la Revue critique et littéraire 1e déc. 1871, p. 236.

(٥) Annal. Jan. p. 52; Contin. de Guill de Tyr, p. 51, Lignages d'Outremer, éd. Beugnot. p. 468.

(٦) Cont. de Guill. de Tyr. p. 66 D.

(٧) Doc. sulle relaz. Tosc. p. 83 et s.

أجنبية ، وكان خلفاؤه ينتمون الى أسرة أمراء انطاكية (١) • ولسنا نعلم ما اذا كانوا يحابون البيزيين مثل أسلافهم •

ومن جبيل والباترون ، وهما من البارونيات الصغيرة ، ننتقل الى مقر سيدهما الاقطاعي ،كونت طرابلس • وقد آن الأوان لدراسة موقف هؤلاء الأمراء من الأمم التجارية في غضـــون الفترة الثانية من تاريخ الدول الصـــليبية • فبالنسبة الى البنادقة ، لا يوجد سوى ونيقة واحدة في صالحهم ترجع الى تلك الفترة ، مؤرخة الأول من يونية ١٢٩٧ ، وعليهـــا توقيع الكونت بوهمند السابع (٢) ، وتشهد فقط بأنهم يملكون في عاصمة الكونتية مستودعا وحماما وفرنا • وكان من حق الجنويين منذ البداية أن يتسلموا ثلث المدينة ، وذلك بموجب المعـاهدات ، ولكنهم لم ينالوا حقهم هـذا بسوء نيـة الكونت بترام Betram • وبوجـه عام وجدوا الكونتات الأوائل غـــير مستعدين للاهتمام برغباتهم • ويبدو أن وفاة ريموند الثالث قد فتح عهدا أكثر ملاءمة لمصالحهم : فقد انتقلت الكونتية الى أيدي أمراء أنطاكية ، وكان بوهمند الرابع قد تزوج لأول مرة بلاسنتيا Placentia ابنـة هوج امبرياكو Hugues Embriaco سيد جبيل ، فهي من ثمة جنوية ، وأثمر هذا الزواج بوهمند الخامس • والواقع أنه في عام ١٢٠٣ حصل السفيران الجنويان لامبرتو فوناري ، وبلمستو ليركاري من بوهمند الرابع على وثيقة تضمن لمواطنيهما الحرية المطلقة في مزاولة التجارة ، والاعفاء التام من الرسوم الجمركية ، ومحكمة قنصلية خاصة (٣) • وفي عام ١٢٠٥ وقع حادث كان من شأنه أن يحسن موقف الأمير : ذلك أن كونت مالطة الذي تحدثنا عنه قبلا كان قد بعث الى مياه رومانيا (الأرخبيل) أسطولا صغيرا قوامه ثلاث سفن بقيادة الفيكونت الامانوس (أرمانوس) ، والبرتس جالينا ، للهجوم على أعداء جنوا ، فواصلت سفينتان منها الى سوريا ، ونزل بحارتهما وعددهم ٣٠٠ رجل في طرابلس ، ووضعوا أنفسهم تحت تصرف بوهمند الرابع ، وساعدوه في اخضاع تابع متمرد يدعى رينوار Renoart (٤) ، سيد نفين ،

---

(١) Ducange, Familles d'Outremer, éd. Rey, p. 258 (Doc inédit sur l'hist. de la France).

(٢) Rey, Recherches hist. et géogr. sur la domination des Latins en Orient, Paris 1877, p. 42-45.

(٣) Canale, Nuova istoria di Genova, II, 304 et s.; Olivieri, Carte e cronache, p. 59.

Annal Jan. p. 124 et s.; le Contin de Guill. de Tyr, p. 315; Sanuto, p. 205.

ـ يقول المؤلفان الأخيران أن جريمة رينوار كانت في خطبته ابنة سيد جبل ـ عكـــار دون الحصول على اذن بذلك من سيدة كونت طرابلس ، ولهذا السبب لقي جبل عكار مصير نفن •

(٤) Ducange, Familles d'Autremer, p. 414

وهى مدينة تقع على مسافة بضعة فراسخ جنوبى طرابلس(١)،وفكوا الحصار عن مدينة جبيل التى كان يطوقها المسلمون وقتئذ (٢) ٠ وأضاف كونت مالطة على هذه الخدمات اعانة مناسبة تبلغ ألفى دينار فضى بيزنطى وأعطى بوهمند لصالح كونت مالطة ومواطنيه الجنويين اقرارا منه بهذا الجميل وثيقة مماثلة لتلك التى حصلوا عليها منذ سنتين(٣) ٠

ولم يكن للبيزيين علاقات طيبة مع كونتات طرابلس ٠ وكان أصل الخلاف نزاع قام بينهم وبين أسقف طرابلس : فقد كان لهذا الأسقف حق فى ثلث ايرادات الجمارك ، وكان البيزيون قد حصلوا فى عام ١١٨٧ على اعفاء كامل من الرسوم ، ولكن الأسقف أنكر صحة الاعفاء فيما يختص بالثلث الذى يستحقه ، ورفض البيزيون من جانبهم أن يدفعوا ، واحتكموا الى بوهمند الرابع الذى وافق مؤقتا ، فى انتظار قرار المحاكم ، الا يضع أموال البيزيين تحت الحراسة ضمانا لمطالب الأسقف ، ولكنه أضاف أنه اذا قدم له الأسقف حججا كافية ، فانه سوف يحكم له بما طلب ، وهذا ما يبدو أنه حدث بالفعل ٠ ومن هنا نشأ نزاع خطير ٠ وأخيرا فى عام ١١٩٩ قرر البيزيون أن يدفعوا للكونت بمثابة تعويض عن الاضرار التى أوقعوها خمسة آلاف دينارا بزنطيا ، ويدفعوا ثلاثة آلاف لرعاياه ، كما تعهدوا بأن يدفعوا بالتدريج علاوة قدرها أربعة آلاف دينارا كضريبة تفرض على البضائع ٠ أما الكونت فقد أعاد اليهم بيوتهم ومحكمتهم واعفاءاتهم ، ولكنه أعلن أنه اذا ارتكب البيزيون المقيمون خارج طرابلس أعمالا عدائية ضده ، فانه يحتفظ لنفسه ، ازاء البيزيين المقيمين فى طرابلس بالحق ، لا فى اعتقالهم ومصادرة أموالهم ، ولكن فى طردهم من البلد فى مهلة قدرها ثلاثة شهور ٠ ولا يبدو أن الأمور وصلت الى هذا الحد ، وواصلت المستوطنة حياتها العادية ، بل ان الكونت بوهمند الخامس منحها فى عام ١٢٣٣ وثيقة تؤيد الامتيازين اللذين منحهما جده ريموند الثالث (٤) ٠

وازداد عدد المستوطنات المستقرة فى طرابلس بانشاء مستوطنة من تجار مونبيلييه ، وأفرد لهم الكونت بوهمند الخامس حيا فى المدينة ودارا لقنصلهم ٠ وكان مرخصا لهذا القنصل بالفصل فى المنازعات بين مستوطنى مونبلييه ، أو بينهم وبين مستوطنى جنوا وبيزا ٠ ولم يمنح بوهمند المستوطنين الاعفاء الكامل من الرسوم على المبيعات والمشتروات والمرور ، ولكنه خفضها لصالحهم الى ثلث

---

(١) Sanuto, Secr. fidelium-crucis p. 85, 245 ; Breydenbach (Reyssbuch des heil. Landes p. 65, 6) et Burchard (éd. Laurent, l.c. p. 28).

(٢) Les annal. Jan. I 1.c.

(٣) Lib. jur. I, 522 et s.

(٤) Les trois diplômes des Doc. sulle relaz. tosc. p. 65, 79, 99.

القيمة المعتادة • ومع ذلك كانت كل هذه الامتيازات مشروطة ، فلكى يستمر الانتفاع بها ، كان على مونبيلييه أن ترسل الى طرابلس كل سنة سفينة يسيرها طاقم من أربعين بحارا على الأقل ، وتحمل شحنة بضائع لا تقل عن ٨٠٠ طن(١)• وفى عام ١٢٥١ حصل بورجوازى قوى النفوذ فى مونبيلييه ، يدعى بتروس دى تيركو(٢) على امتيازات جديدة لمواطنيه ، مما يحملنا على الافتراض بأن التجارة كانت نشيطة جدا بين المدينتين فى أواسط القرن الثالث عشر ، وربما حتى استيلاء المسلمين على طرابلس •

وقاست امارة انطاكية من حملات صلاح الدين أكثر مما قاست كونتية طرابلس ، ولم يعد الأمراء يملكون خارج عاصمتهم أكثر من بضعة قصور حصينة • وحتى بعد وفاة صلاح الدين لم يكن فى مقدورهم أن يعوضوا خسائرهم لأن جيرانهم سلاطين حلب المحاربين الأشداء أبناء صلاح الدين وخلفائه لم يتركوا لهم وقتا للراحة • من ذلك أن ميناءى جبيل ولاوديكيا (اللاذقية) وكل الاقليم المتوسط الذى فتحه صلاح الدين فى عام ١١٨٨ (٣) بقيت فى أيدى المسلمين • باستثناء فترات قصيرة ، وكان الطريق الوحيد الذى تستطيع به الرقعة الوحيدة الباقية من امارة انطاكية أن تتصل بالبحر هو طريق السويدية (ميناء سان سيميون) • ولما كانت الامارة الصغيرة كائنة بين أرمينيا المسيحية وسوريا المسلمة فانها كانت تعانى من ضغط جيرانهـا • ومع ذلك احتفظ الجنويون والبيزيون زمنا طويلا بمستوطناتهم فى انطاكية ، ومعهم فيكونتاتهم (٤) •

وثمة وثيقة تثبت أن الجنويين كانوا يملكون فى عام ١٢٦٤ كنيسة القديس يوحنا St. Jean والحى المجاور لها ، وكانت الكنيسة والحى قد منحهما لهم بوهمند الأول بعد الفتح مباشرة (٥) ومنح آخر الأمراء النورمانديين مستوطنى الأمتين امتيازات تتعلق باختصاص محاكمهم وتسوية ضرائبهم(٦) • وعلى العكس من ذلك لم يعد هناك أثر للبنادقة : ومن الراجح أنهم توقفوا عن مزاولة تجارتهم مع أنطاكية ، كذلك لا يبدو لنا أن الأمم التجارية التى بدأت وقتئذ تزور سوريا فكرت فى أن تنشىء بها مستوطنات • حقا ان بيتروس دى تيريكو من مونبيلييه ، الذى صادفنا اسمه قبلا قد ذهب الى بلاط أمير انطاكية فى عام

(١) Germain, Hist de la commune de Montpellier II, 513 et s.

(٢) Germain, du commerce de Montpellier I, 214 et ss.

(٣) Itinerar. R. Ricardi p. 26; Weil, Gesch. d. Chalif. III, 407 et s.

(٤) Lib. jur I, 577; Doc. sulle relaz. tosc. p. 90.

(٥) Canal II, 307.

(٦) Le Lib. jur I, 364, 432, 577; les Doc. sulle relaz. tox. p. 80, 90 et s. 99 et s.

١٢٥٠ (١) بأمر سيد موطنه الاصلى جايم الأول ayme ملك أراجون ليتفاوض معه فى شئون تجارية ، ولكن الموضوع كان يتعلق بالحصول على شروط أكثر ملاءمة فى كونتية طرابلس التى كان يحكمها وقتئذ بهموند الخامس ، لا فى امارة انطاكية • وقد رأينا أن هذه المأمورية قد حظيت بكل النجاح المنشود (٢) •

ذكرنا الى الآن المدن التى احتفظت الحركة التجارية فيها بنشاطها بنوع ما خلال الفترة الثانية من وجود الدول الصليبية ، كما بينا مختلف الأمم الغربية التى كانت تشغل السوق فى كل منها • ومع ذلك بقى علينا أن نتحدث عن الاسبان والفرنسيين فى الجنوب ، ذلك لأن بضع الكلمات التى ذكرناها هنا وهناك لا تكفى لتغطية فكرة عن أهمية الدور الذى لعبه هذان الشعبان فى سوريا •

أما الاسبان فانهم لم يسهموا فى الحروب الصليبية الا بنصيب قليل نسبيا (٣) ، ولم يكن لهم حاجة للخروج من بلدهم لمحاربة المسلمين • وكانت المدينة التى قدر لها أن تفوق ذات يوم سائر المدن فى شبه الجزيرة بنشاطها التجارى وقوتها البحرية ، برشلونة ، كانت ملزمة بأن تطهر ما حولها من أماكن قبل أن تطالب بنصيبها من المزايا التى جعلت الأمم التجارية تسعى للحصول عليها فى سوريا • فالواقع أن المغاربة ، وهم عمال مهرة ، وبحارة أكفاء ، وقد اتخذوا مقاما لهم فى طرطوس ، وفالنسيا ، والميرية ، (المرية) (٤) ، وجزر البليار كانوا منافسين خطرين لمدينة برشلونة ، وأضحت جزر البليار أوكارا للقراصنة الذين كانت جيرتهم ثقيلة الوطأة ، ليس على سكان برشلونة فحسب، ولكن وبوجه عام على كل المسيحيين فى الجزء الغربى من البحر المتوسط • وفى عامى ١١٤٧ ، ١١٤٨ نظم الاسبان والجنويون نوعا من الحروب الصليبية ، واتجهت قواتهم المشتركة أولا صوب الميرية واستولت عليها ، ثم الى طرطوس التى لقيت المصير ذاته • وكان هذا كسبا ارتاحت له برشلونة ، ولكنه شيء قليل بالنسبة الى النتائج التى حصل عليها فيما بعد جايم الأول فى سلسلة من الحملات المظفرة : فقد استعاد هذا الامير من المسلمين جزر ماجورقا (١٢٢٩) ، ومينورقا (١٢٣١) ، وعلى القارة مملكة فالنسيا (١٢٣٥) • ومن هذه الآونة وجدت برشلونة نفسها محاطة بحزام عريض من البلاد الصديقة ، وتيسر لأسطولها أن ينطلق صوب الشرق دون خوف من أن يعترض طريقه قرصان البليار • وكان العهد الطويل لحكم هذا الأمير العظيم (١٢١٣ ــ ١٢٧٦) من جميع الوجوه مقدمة لفترة من

---

(١) Germain. Hist. du commerce de Montpellier I, 220 et s.

(٢) Ibid. I, 214 et ss.

(٣) Memorias de la R. Academia de la historia T.V., Madrid 1817 : Mem. da R. Academia de Lisboa 1854.

(٤) Colmeiro, Historia de la economia politica in Espana I, 388.

الرخاء والمجد لمدينة برشلونة · وتصرف هذا الأمير بحكمة ، فسلم ادارة المصالح الكبرى فى المدينة للطبقة البورجوارية النى تشكل طائفة التجار ذوى النفوذ الأكبر · وفى عهده ، وفى كل مرة كان على السلطة الملكية أن تتدخل فى المسائل التى تنصل بالصناعة او الملاحة أو التجـــارة ، وهى تفعل ذلك لا للاعاقة أو الوصاية ، ولكن بمثابة حماية وتشجيع · من ذلك أنه فى عام ١٢٢٧ حظر جايم أن تشحن السفن الأجنبية بضائع الى سوريا أو مصر (الاسكندرية) طالما وجدت فى الميناء سفن وطنية (١) · وكان يطيب له أن يرى التجار الأجانب يجرون مشتروات فى برشلونة ، ويصدرون منها منتجاتها ، ولكنه لم يصرح لهم بأن يبيعوا بالتجزئة البضائع التى استوردوها من الخارج (٢) · ولم يكن يطيق أن يرى فى برشلونة منشئات يقيمها أجانب : ففى عام ١٢٦٥ بالغ فى هذا الشعور فأمر بطرد التجار اللومبــارديين ، والفلورنسيين والسيينليين (من سبينا) ، واللوكيين (من لوكا) ، وحظر عليهم الاقامة مستقبلا فى المدينة لمزاولة التجارة بها (٣) · كان يريد أن تبقى تجارة برشلونة كلها فى أيدى التجار الوطنيين ، وأن يأخذ مئونته من الصناعة الوطنية ، ولا يستخدم سوى وسائل المواصلات الوطنية · ثم ان برشلونة كانت تملك كل ما يلزم لتحقيق هذا الغرض : ففيها طبقة من التجار الأذكياء ، والصـــناع المهرة ، والبحارة البواسل · وقد يكون من المبالغة الادعاء بأن هذه المدينة لم تبدأ فى نبوأ مكان لها بين المراكز التجارية الا ابان حكم جايم الأول ، فقد جرى هذا منذ زمن بعيد ، ووجد بها بنيامين دى توديل من قبل عددا كبيرا من التجار من كل أنحاء العالم المعروف ، من اليونان وفلسطين والبلاد المجاورة لهما ، والاسكندرية ، وصقلية ، وجنوا(٤) ، ولم تتوقف هذه الحـــركة فى عهد جايم ، وكان الميناء يأوى على الدوام ســفنا قادمة من ســوريا ومصر (٥) · ولكن الشىء الذى لم يشاهد حتى القرن الثالث عشر هو الحركة العكسية ، أى انطلاق تجار برشلونة يجوبون العــالم دون مســاعدة أجنبية · حقا لقد رأيناهم من قبل ينشئون مستوطنة فى صـــور فى أواخــر القرن الثانى عشر ، بالاشــتراك مع بعض البروفانسيين ، غير أن دلائل تجارتهم مع سوريا لم تبدأ فى التواتر الا فى عهد جايم ، عندئذ تردد ذكر السفن التى تحمل تلك الجنسية مبحرة الى سوريا أو عائدة منها (٦) والأفضل من ذلك أن التعريفات الجمركية المقررة فى ذلك العصر

---

(١) Campany, Memorias sobre la marina, comercio y artes de Barcelona II(1779) 11 ets.

(٢) Ibid. p. 34. Ordounance de l'année 1268.

(٣) Ibid. p. 31.

(٤) Benj. de Tudèl. éd. Asher. p. 31 et s.

(٥) Capmany, I. c. p. 11.

(٦) Ibid. 1.c. p. 11, 16, 33, 34.

بالذات للمبادلات التجارية بين برشلونة وبعض البلاد المجاورة (١) ، وكذا تعريفات الرسوم المفروضة على المبيعات والمشتروات الجارية فى برشلونة ذاتها(٢) ، هذه التعريفات تنهض أدله بينة على نشاط العلاقات التى كانت قائمة بين هذه السوق وبين الدول الصليبية • فعن طريق سوريا كانت برشلونة تحصل غالبا وبكثير من السهولة على توابل وسط آسيا • ونجد فى تعداد المواد المقرر لها هذه التعريفة أسماء التوابل والعطور ، وخشب الصباغة المستورد من آسيا ، ونخلص من ذلك الى أن هذه المنتجات كانت تستورد عادة الى أسبانيا فى سفن برشلونة •

وفى جنوب فرنسا ، مدينة كبيرة أخرى ، هى مونبلييه ، كانت مثل برشلونة خاضعه لحكم أسرة « اراجون » Aragon ، وتتاجر مثلها مع الشرق • ولما انتهت سلاله سادة مونبلييه القديمة خلفهم ملوك أراجون بالوراثة المباشرة (١٢٠٤) • غير أن الطبقة البورجوازية فى المدينة لم تفقد شيئا من حرياتها البلدية ، فكانت فى الواقع تحكم نفسها بنفسها ، اذ كان يحكمها قناصلة منتخبون . ولها دستور ديموقراطى حقيقى • وكان الملوك يقيمون دواما بعيدا عن المدينة ، فتركوا لها من ثمة حرية شبه تامة ، ولم يمنعهم ذلك من الاهتمام برخائها المادى • وكان جايم يفخر بنمو هذه المدينة نموا غير عادى ، اذ أصبحت فى عهده من أهم مدن العالم(٣) ، وكان محقا فى فخره لأنه اسهم بنفسه فى هذا النمو ، كما كان هو الذى شجع اتساع تجارة المدينة فى الشرق الأدنى ، وبأمره ذهب بتروس دى يتريكو الى سوريا ، وحصل لصالح مواطنيه فى عكا وفى طرابلس على حقوق واعفاءات جديدة (٤) • وقبل ذلك بعامين بعثت بلدية مونبلييه باسمها الى طرابلس سفيرين مكلفين برعاية مصالحها التجارية (٥) • وكانت تقيم قناصل فى عكا (٦) ، وصور (٧) ، وطرابلس (٨) ، ومع أنها كانت من أواخر القادمين الى سوريا ، فانها لم تكن تخشى أن يقارن بينها وبين سائر الأمم التجارية •

ولم تكن مرسيليا تتمتع باستقلال تام ، شأنها فى ذلك شأن مونبلييه •

---

(١) Ibid. p. 3-11.

(٢) Capmany, dans les notes du 2e volume, p. 72 et ss.

(٣) Diplôme du 8 févr. 1273, cité par Germain, Hist. du commerce de Montpellier. I, 12 et s., not.

(٤) Les-diplômes des années 1251 et 1253, ibid I, 214 et ss., 220 et s.

(٥) Germain, Hist de la commune de Montpellier II, 513 et s.

(٦) Germain, Hist du commerce de Montpellier I, 243.

(٧) Méry et Guindon I, 190 et s.

(٨) Germoin, Hist. de commune de Montpellier II, 513.

غير أن سيادة كونتات بروفانس عليها لم تمنعها من أن تدير بنفسها شئونها الداخلية بوساطه موظفين منتجين ، وان تعقد معاهدات مع دول اجنبية • واستمر هذا الوضع حتى عهد شارل دانجو Charles d'Anjou الذى الغى انتخاب موظفى البلديه ، ولكن حتى فى عهد أمراء هـذه الأسرة ، احتفظت مرسـيليا ببعض الامتيازات ، من بينها عقد المعاهدات • وفى أيدينا مراسيم بشأن الاستيراد والتصوير ، والضرائب والجمـارك ، حررت فى عام ١٢٢٨ ، فى عصر كان بمرسيليا « بودستات » (محافظون) منتخبون • ونظهر لنا فى هذه المراسيم مدينة تجارية فى أوج ازدهارها ، نقيم علاقات مع الموانى المسيحية بصقلية وسوريا وأرمينيا من جهـة ، ومع الموانى الاسلامية فى الاسكندرية ، ودول شمال أفريقيا (١) ، وتتضمن فضلا عن ذلك تعريفة جمركية ذات أهمية قصوى، أدرج بها أسـماء منتجات أوروبا وشمال أفريقيا مختلطة بتوابل الهند (٢) • وهناك أيضا وثيقة قيمة أخرى أحدث عهدا بقليل (١٢٥٥ ؟) وهى سجل لقوانين ولوائح مرسيليا باسم « الكتاب الأحمر » • وفى هذا السجل أحكام خاصة ، ليس فقط بالمواطنين المقيمين داخل أسوار المدينة ، ولكن أيضا بالتجار الذين يجوبون البحر المتوسط • والذين لهم منشئات فى سبتة ، ، أو بجاية ، أو الاسكندرية ، أو سوريا • ولا بد أن هؤلاء التجار كان لهم أثناء عبورهم البحر ، وعنـد اقامتهم فى محطات ما وراء البحـار رؤساء يختارون من بينهم يمثلون بلدية مرسيليا ، ويسألون أمامها • ومن بين القناصلة الاستعماريين ، كان قنصل عكا يستحق تنويها خاصا (٣) • ولم تكن مرسـيليا تملك أحياء تجارية كبيرة فى مدن الشرق الأدنى ، ولكن كان لها فى مختلف الأنحاء منشئات نظمها كتاب القوانين livre des statuts (٤)•ومن العبث أن نبحث فى هذا الكتاب عن تفاصيل بشأن أملاك مرسيليا فى الشرق الأدنى • ولسوء الحظ ، فان مراسيم الأمراء السوريين التى استقينا منها كل المعلومات التى ذكرناها هنا شحيحة جدا فى هذا الخصوص • لذلك فليس فى وسعنا أن نعرف الظروف المتعاقبة التى أدت الى الحد من الاعفاءات والأملاك الممنوحة للمرسيليين فى عكا ، وقبرص • وجهات أخرى فى غضون الفترة التى ندرسها • بيد أنه من الثابت أنه حين سلمت مرسيليا مقاليد أمورها الى شارل دانجو فى عام ١٢٥٧ ، حررت وثيقة بعنوان « أحكام السلام » Chapitres de paix وعد فيها هذا الأمير بمساعدتهم

---

(١) Méry et Guindon, Hist. de la municipalité de Marseille I, 329, 333, 355, et s.

(٢) Ibid. 341-349 ; le supplément à la préface du Cartulaire de l'abbaya de S. Victor de Masseille T. I, p. lxxiii et ss. (Coll. des doc. inéd.); Rawdon Brown, Colendar of stale papers Venetian I, p. 1.

(٣) Méry et Guindon IV, 121.

(٤) Ibid. II, 205-212.

بكل ما له من سلطة على استرداد ما كانوا قد فقدوه (١) • وبالفعل حين ارتقى عرش بيت المقدس ، استخدم حقوقه كملك لتأكيد اعفاءات المرسيليين فى عكا وفى آماكن أخرى(٦ من سبتمبر ١٢٨٤) (٢) • وتبعا لهذا يمكن التسليم بأنه من الثابت أن المرسيليين زاروا سوريا واحتفظوا ثمة بامتيازاتهم وأملاكهم الى أن سقطت السيادة نهائيا هناك •

ولم تكن مدن جنوب فرنسا التى بقى لنا أن نتحدث عنها فى مثل أهمية مرسيليا ومونبيلييه • وقد أرسلت سان جيل سفنا تجارية الى سوريا (٣) ، وأقامت كما رأينا قنصلية فى صور • بتكاليف مشتركة مع مدن أخرى من بروفانس ، ومع ذلك فان هذه المدينة لم تصبح أبدا مكانا تجاريا • وكان لناربونة Narbonne (*) من قبل معاملات تجارية مع عكا فى القرن الثالث عشر (٤) ، الا أن أوج ازدهار هذه المدينة ، حين بلغ نشاطها التجارى مع الشرق الأدنى أقصاه يقترب كثيرا من العصر الحديث • ونلاحظ الشىء نفسه بالنسبة الى « ايج مورت » Aigues-Mortes أول ميناء استولى عليه ملوك فرنسا فى البحر المتوسط • والمعلوم أن القديس لويس حرص على أن يحشد أساطيله فى ميناء يتبعه ، بحيث يتيسر له أن يطلقها وقتما يشاء • ومن ايج مورت أبحر مع حملته الصليبية فى عامى ١٢٤٨ ، ١٢٧٠ ، ولكن كان عليه أولا أن يشترى هذا الميناء من كبير قساوسة بسالمورى Psalmodi • وبدأ بتوسيع الميناء وتحصينه حتى يكون صالحا لتحقيق غرضه ، ولكنه بعد ذلك وضع مشروعا لتمويل هذا الموقع الصغير المجهول الى مدينة آهلة بالسكان ، ولينشىء بها سوقا كبيرة لها صلات فيما وراء البحار : وأراد أن يكون لمدينة ايج مورت حيها وقنصليتها فى عكا ، وأن تتمتع ثمة بالاعفاء من الرسوم الجمركية أسوة بالجمهوريات الايطالية (٥)• ولسنا نعلم ما اذا كانت رغبته هذه قد تحققت ، وعلى أية حال فان ايج مورت لم تكن أبدا مركزا تجاريا هاما • ومع ذلك فان ميناءها أصبح بعد ذلك ملتقى عدد كبير من السفن التجارية ، الأمر الذى أكسب مكتبها الجمركى أهمية كبيرة • ولكن هذه النتيجة ترجع الى ارادة ملوك فرنسا أكثر مما ترجع الى موقع المدينة

---

(١) Ibid. IV, 322.

(٢) Ruffi, Hist de Masseille, I, 150 et s.; Regeste communiqué par Minieri Ricco, dans l'Arch. stor. ital. IVe série, T. VII, 1881, p. 304; Del Giudice, Cod. dipl. dl Carlo d'Anjio, I, 296.

(٣) Lib. jur. I, 903.

(٤) Port, Essai sur l'histoire du commerce maritime de Narbonne (Paris 1854), p. 124.

(★)ناربونة كما أسماها العرب مدينة بجنوب فرنسا — المراجع

(٥) ايج مورت — ميناء بجنوب فرنسا — المترجم
Memard, Hist de Nismes, I, Preuves, p. 78, 118.

المناسب (١) ، لقد استعرضنا كل مدن الغرب المسيحى الممثلة فى أسواق الشرق الأدنى فى غضون الفترة الثانية من وجود الدول الصليبية • وبفضل الكمية الكبيرة من الوثائق الخاصة بهذا العصر ، والتى حفظت الى وقتنا هذا ، أصبح من الميسور لنا الآن أن نقدم عرضا تفصيليا لتكوين وتنظيم المستوطنات القديمة والجديدة التى أقامها الغربيون فى سوريا ، وكذا الحقوق والامتيازات التى كانت للمستوطنين . وعلينا فضلا عن ذلك أن ننوه بأكثر من تغير حدث فى حياة هذه المستوطنات •

فاذا ما بدأنا بادارة المستوطنات ، لرأينا أن دور الجاليات التجارية ، وبخاصة الايطالية فى الحياة العامة والسياسية بنوع خاص قد اتخذ أهمية جديدة • كانت هذه المستوطنات تعيش منعزلة حتى ذلك الحين ، تعمل كل منها لحسابها الخاص ، تحت ادارة فيكونتاتها • ثم بدا للجمهوريات التى تتبعها هذه الجاليات أنه قد آن الأوان لاقامة روابط بينها عن طريق نظام مركزى • فبالنسبة الى البندقية ، تميز الانتقال باقامة موظف كان يسمى أحيانا bajulus Syrioe وأحيانا bajulus Venetorum in Syria وأحيانا tota uerra Syrioe super Venetos و bajulus Venetorum in Occon, in Tyro et in tota Syria (٢) • وعندما نجده مذكورا بلقب Baile d'Acre أو Baile à Acre (٣) فمعنى ذلك أن مقامه الرسمى فى عكا ، مقر الملك ، ومركز الحياة السياسية لسوريا كلها (٤) ، ولو أن مستوطنة البندقية فى صور كانت أهم من نظيرتها فى عكا (٥) • وكان أول هؤلاء « البايلات Bailes البنادقة لسوريا كلها » الذين نملك بشأنهم معلومات كافية لكى نحدد على وجه التقريب ، معتمدين فى ذلك على وثائق تحت أيدينا — الزمن المحدد لأداء مهام وظيفته ، كان هذا البايل يدعى بانتاليونى باربو Pantaleone Barbo ، وقد استلم وظيفته فى الفترة التى كان فيها الكونت هنرى دو شامبانى يحكم مملكة القدس (١١٩٢ — ١١٩٨) (٦) • وأشهر هذه المجموعة هو مارسيليو جورجيو Marsilio Giorgio (Zargi) ، فبعد أن شغل العديد من المهام الدبلوماسية (٧) ، بعث الى عكا فى عام ١٢٤٠ • وفى أثناء اقامته التى

---

(١) Du mège, Mém. sur Aigues-Mortes, dans les Mém. de la Soc. archéol.du Midi de la France, T. II; Em. di Pietro, Hist. d'Aigues-Mortes, Paris 1849; Martins, dans la Revue des deux mondes du 15 fev. 1874.

(٢) Taf. et Thom. II, 203, 261; Lib. jur. I, 612, 818; Taf. et Thom. 11, 354, 196; II, 360 et s.; 111, 151.

(٣) Taf. et Thom. III, 32.

(٤) Taf. et Thom. II, 174 (Charte de 1214); Ibid. 11. 390 et s.

(٥) Taf. et Thom. II, 386.

(٦) Taf. et Thom. II, 379, 387, 389; l'Archiv. Venet. XX11 (1881), p. 325 et ss.

(٧) Taf. et Thom. II, 319 et ss. (a Rhodes); Archiv. stor. ital. 111e série X111 (1871), p. 228 (à Ravenne).

امتدت حتى عام ١٢٤٤ أو ربما بعد ذلك عمل على استعادة الأموال والحقوق التى كان يمتلكها فيما مضى مواطنوه فى عكا وصور ، والتى انتزعها منهم بالقوة بعض الملوك ، أو بعض الأتباع الذين لا ضمير لهم ، أو جردوا منها بسبب اهمال بعض الموظفين . ولنا أن نتساءل ما اذا كان الى جانب هذا « البايل » المقيم فى عكا ، لم يزل هناك مرؤوس له ، ال Vicecomes in Accon ، ويبدو أن هذا محتمل ، اذ نرى من يدعى اندريا فيتاليس Andrea Vitalis يشغل فى عكا ، فى عام ١٢١٤ وظيفة البايل ، وكان موجودا هناك منذ بضع سنين حاملا لقب vicecomes (فيكونت) (١) ، أو هل ينبغى أن نسلم بأن الموظف نفسه كان يحمل فى وقت واحد لقب بايل الذى أصبح فيما بعد لقبا معتادا ، ولقب فيكونت الأقدم منه ؟

وعلى أية حال فان مستوطنة صور كان لها مدير محلى يعينه بايل عكا ، ومرؤوس(٢) ، وكان يحمل أيضا لقب بايل(٣) ، وله مساعد بلقب فيكونت . وكان المستوطنون البنادقة فى صور ، وكل الأفراد المقيمين فى حيهم ، وكذا القادمون الجدد يقسمون يمين الولاء ، ليس فقط لبايل أمتهم « رئيس مستوطنات سوريا كلها» ، وانما أيضا لكل بايل أو فيكونت مكلف من قبله أو من قبل مفوض آخر عن الدوق بادارة حيهم (٤) . وكان قنصل بيروت ، وقنصل (وفيما بعد بايل) طرابلس ، (٥) وفيكونت (؟) أنطاكية يخضعون بالتأكيد لأوامر البايل العام .

وأدركت جنوا أيضا ضرورة تركيز ادارة مستوطناتها فى سوريا ، ولكن بدلا من أن تعهد بالسلطة الى شخص واحد ، وزعتها بين اثنين من الموظفين باسم (قناصل)consules (٦) consules et viacomites Januensium in Syria (٧) ،

---

(١) 1207., dans Strelke, tab. ordin. Teuton, p. 34 ; 1212, Lünig, Cod. dipl. Ital. I, 2459 et s.

(٢) Taf. et Thom II, 361.

(٣) Ibid, 360 et s., 364 ; Thomas, Die ältesten Verordnungen, op. cit., p. 107 et s., 127 et s.; Chart de 1206, dans Taf. et Thom. II, 12.

(٤) Taf et Thom, II, 361.

(٥) Lib. bleg. p. 56 ; Thomas (Die ältesten Verordnungen, op. cit. p. 107, à l'année 1279) ; le diplôme de Bohemond VI, de l'année 1277 (Rey. 1.c.)

(٦) Lib. jur. 1, 366, 400 et s., 405, 665, 688, 1286 : Canale, Nuova istoria della republica di Genova II, 310 s.; Strehlke, Tab. ord. teuton p. 37 . Lünig, Cod dipl. Ital. I, 1259 et s.

(٧) Lib. jur. I, 899, 941; Arch. de l'Or. lat. II, 2, p. 214 et s., 217 et s., 222; Canale, II, 295, 300,311; Belgrano, dans l'Arch. stor. ital. Série 11, V111, 2e part., p. 160.

(قناصل وفيكونتات) ، ونجدهما هكذا مثنى مثنى فى مجموعة من الوثائق ابتداء من عام ١١٩٢ · واذا كنا نجد أن وثيقة ما لا تحمل الا اسم واحد من هذين الموظفين العاملين بصفة رسمية ، كما نجد مثالا لذلك فى عام ١١٩٠ بشأن من يدعى مورينس Maurinus فى عام ١١٩٢ ، وجويل ريسيوس Guill Ricuis فى عام ١٢٣٢ ، و (دى اورتو) Gugl. de Orto فى عام ١٢٣٣ ، و (بيليترو دى مارى Pietro de Mari (١) ، فما تلك الا حالات فردية ينبغى الاحتراز من الاستنتاج منها أن جنوا لم يكن يمثلها فى هذه السنين الا قنصل عام واحد · والواقع أننا نجد فى مناسبات أخرى اسم دى أورتو مقترنا باسم زميله فيراريوس، واسم بيترو دى مارى مقترنا باسم من يدعى بيكاميليو(٢) ولا بد أن الأمر كذلك بالنسبة الى مورينوس ، وريسيوس ·

كان هؤلاء ، ممثلو جمهورية جنوا فى سوريا يقيمون فى عكا(٣) ، شأنهم شأن ممثلى البندقية · وكان هناك أيضا موظفون خصوصيون على رأس مستوطنات عكا وصور وبيروت ، يحملون هم أيضا لقب consules أو vicecomites ، وأحيانا اللقبين معا ، ولا يمنع هذا عادة من وجود لقب واحد فقط (٤) ·

وأخيرا ، فان بيزا أيضا نظمت ادارة مركزية لمستوطناتها فى سوريا لذات البواعث التى حملت البندقية وجنوا على تنظيم مثل هذه الادارة ، وفى الفترة ذاتها · وكان مقر هذه الادارة فى عكا ، ولكنها مدت سلطتها الى طرابلس وأنطاكية (٥) ·وثمة وثيقة بتاريخ ١١٩١ ترينا هذه المناصب وقد عهد بها الى اثنين من القناصل (٦) ، ولكن عددهم ارتفع فى السنة التالية الى ثلاثة ، وبقى ثابتا على هذا الرقم حتى أواسط القرن التالى(٧) · وفى أثناء هذه الفترة الطويلة ، نجد بطبيعة الحال ، حالات يعمل فيها أحد هؤلاء الأشخاص على انفراد ، أو يشغل وظيفة قضائية دون مساعدة أى من زملائه(٨) ·ومنذ عام ١٢٤٨ لا نجد سوى قنصلا واحدا Consul Communis Pisanorum Accon et totius Syrioe (٩) ·

---

(١) Lib. jur. I, 366, 400 et s. ; Maslatrie, Hist de Chypre, I, 282 ; Archives des missions scientifiques II, 363.

(٢) Lib. jur. I, 899, 941 et s.; Giorn. ligust, 1877, p. 22.

(٣) Lib. jur. I, 1286.

(٤) Lib. jur. I, 347. A. 1250; Archiv. de l'Ar. lat. II, 2, p. 224; Canale 11, 311; Canal 1. .; Luenig. 1, c.; Archiv. de l'Or. lat. I, 526 et s.

(٥) Doc. sulle relaz. tox. p. 65, 80.

(٦) Ibid. p. 39.

(٧) Strehlke, 1.c. p. 25 ; Doc. p. 80 ; Lünig, 1. c.

(٨) Contin. de Guill de Tyr, p. 443 (à l'an. 1256); Breviar, hist. pis., dans Murat SS. VI, 192 (à l'an 1258) ; Taf. et Thom. III, 151 (à l'an 1277) ; Doc. sulle relaz. tox p. 105 (à l'an 1286).
Bonaini, Stat pis. I, 51, 334 et s.

ولم يكن ذلك من باب الصدفة ، ولكنه نتيجة لاجراء اتخذته حكومة بيزا ، ويتبين لنا ذلك عند قراءتنا بعض فقرات اللوائح التنظيمية لبلدية بيزا بخصوص مستوطنات ما وراء البحار . وفي « قرار بلدية بيزا » Breve Pisani communis لعام ١٢٨٦ ، وكذا من قبل فى قرار عام ١٢٧٢ ، نجد نصا يتعلق بقنصل عكا بعبارات واضحة تستبعد احتمال وجود عدة موظفين معا في وقت واحد (١) . وبالاضافة الى هؤلاء القناصل الذين تشمل سلطتهم سوريا كلها ، كانت بيزا تقيم أيضا فى كل من مدينتى طرابلس وأنطاكية فيكونتا (٢) يحمل أحيانا لقب قنصل (٣) .

ومع البروفانسيين ، نجد تشكيلة أخرى . ففي عام ١١٨٧ تنازل كونراد دى مونفيرا لمواطنى سان جيل ومونبيلييه ، ومرسيليا ، وبرشلونة المقيمين في صور عن المبنى المسمى « القصر الأخضر » وفرن ، وكوخ . ومن المرجح أن عدد التجار الذين ينتمون بأصلهم الى كل واحدة من هذه المدن لم يكن بكاف ليسمح لهم بتشكيل مستوطنة خاصة بهم وحدهم ، لذلك كان يضمهم « جالية بروفانسية مختلطة » يدير شئونها ستة أو سبعة قناصل (٤) ، ومحكمة مشتركة يرأسها فيكونت واحد (٥) . وها هو أيضا مثل آخر للكيفية التى كانت مدن بروفانس تتآلف من أجل الدفاع عن مصالحها التجارية : ففى عام ١٢٣٦ ، توجه « جيرار اوليفييه » قنصل مرسيليا فى عكا الى بلاط هنرى الأول ملك قبرص بصحبة شخص يدعى ريمون دو كونش . يمثل مونبيلييه بصفة سفير على ما يبدو ، لا بصفته موظفا استعماريا ، وعقد مع الملك معاهدة تجارية باسم مدينتى مرسيليا ومونبيلييه وجاليات بروفانسية أخرى(٦) . ومع ذلك فان اجتماع البروفانسيين تحت ادارة قنصل مشترك لم يكن أمرا ثابتا بقدر ما هو ثابت في مدينة صور . وقد رأينا أنهم كانوا فى عكا يقطنون فى شارع واحد ويترددون على كنيسة واحدة ، الا أن المستوطنين من مرسيليا(٧) ، ومن مونبيلييه (٨) ، كان لهم ثمة قناصلهم . وقد حصل المرسيليون فى بيروت ومستوطنو مونبيلييه فى طرابلس بموجب معاهدات خاصة على حقهم فى أن يكون لهم قناصلهم (٩) .

---

(١) Bonaini, Stat. pis. I, 51, 334 et s.

(٢) Doc. sulle relaz. tox. p. 65, 91.

(٣) Ib. p. 90.

(٤) لا ندرى كيف كانت المدن الأربع توزع فيما بينها هذه الأماكن القنصلية الستة أو السبعة .

(٥) Méry et Guindon, 1, 190 et s.

(٦) Ibid. 1, 419 et s. سوف نتكلم فيما بعد فيما يختص بقبرص .

(٧) Méry et Guindon 1, 194 et s., 419; Bibl. de l'école des chartres 2e série, 111, p. 210.

(٨) Bibl. de l'école des chartes, 1. c.

(٩) Méry et Guindon I, 287 et s.; Germain, Hist. de la commune de Montpellier 11, 513 et s.

وقد أتيح لنا من قبل أن نلمس عرضا مسألة القناصل هذه ، وقلنا انه كان من غير المقبول عند ملوك الامارات الصليبية أن يكون عندهم قناصل تكفل لهم بعض المعاهدات حرية التصرف باعتبارهم قناصل قادمين من بلاد بعيدة ، ومن ثم لا يهتمون فى أداء وظائفهم الا بتعليماتهم الخاصة ، وتصديق أعضاء مجالسهم ٠ وانا لنزداد شعورا فى غضون الفترة التى ندرسها باهتمام أمراء سوريا بانتزاع الأشخاص والمسائل القانونية من القضاء القنصلى ، واحالتها الى المحاكم الاقليمية وكانت المعاهدات المبرمة فى الأصل تقوم عقبة كؤود فى سبيل تحديد سلطة القضاء القنصلى على هذا النحو ، سواء بصفة رسمية أو ضمنية ، وكانت تنص على أن يحال الى القناصل كل الأفراد المقيمين فى دائرة القرية ، مهما كانت جنسيتهم (١) ، وبالنسبة الى كل الجرائم على اختلاف أنواعها ودرجة خطورتها ٠ ولوضع حد لهذا الوضع ، لم يكن أمام الأمراء من سبيل سوى استخدام القوة ٠ ففيما يختص ببعض الأشخاص ، بدأ بعض ملوك الفترة الأخيرة بأن يعلنوا بأن يخضع السوريون واليهود المقيمون فى الثلث البدقى فى صور لمحاكمهم الخاصة ، وكان هذا الحكم غير قانونى بشكل صارخ ، ولم يكن ثمة بد من الغائه ٠ أما يوحنا دو مونفور أمير صور فانه كان أكثر فطنة ، اذ تعامل حسب الأصول مع البندقية ، وتوصل بهذه الطريقة فى عام ١٢٧٧ الى أن ينتزع من القضاء القنصلى الاتباع والبورجوازيين من رعاياه المقيمين فى هذا الثلث(٢) ٠ وبالنسبة الى الجرائم ، وضع حدا لاختصاص المحكمة القنصلية فى صور لفترة ما ٠ فقد انتزع مرسوم لأحد ملوك القدس لا نعرف اسمه من اختصاص هذه المحكمة حالات السرقة والقتل ٠ وفى فترة لاحقة لم يعد هناك أثر لهذا القيد ، ورأينا « البايل » مرسيليو جورجيو يتولى دون نزاع محاكمة اللصوص والقتلة ٠ ولم يتردد يوحنا دو مونفور البتة فى أن يمنح البنادقة القضاء المدنى والجنائى دون أى قيد(٣) ٠ غير أن الجالية البندقية فى صــــور كانت محمية فى كل الأحوال بالشروط الملائمة لها بنوع خاص والواردة فى معاهدة عام ١١٢٥ ٠ وفى الفترات اللاحقة ، وبخاصة تلك التى نحن بصددها ، فى المعاهدات المبرمة بين بعض أمراء سوريا وبعض أمم الغرب التجارية ، كان الأوائل يحتفظون دائما لأنفسهم بالحق فى أن يحيلوا الى محاكمهم المسوطنين المتهمين بجريمة قتل ، استنادا الى قوانين مملكة القدس التى تتضمن نصـــا صريحا يحيل الى محاكم الملك كل المستوطنين المتهمين بجريمة قتل(٤) ٠ وكان المركيز كونراد دو مونفور يصرح لمواطنى جنوا المقيمين فى صور بأن تتولى محكمتهم الخاصة الفصل فى المسائل

(١) Taf. et Thom. I, 88.

(٢) Ibid. 11, 358 et s.

(٣) Ibid. 111, 152; Doc, sulle relaz. tox. p. 14; Lib. jur. I, 433.

(٤) Taf. et Thom. 11, 358; 111, 152.

المتعلقة بالواقع كلما كان أحدهم متهما بالقتل أو السرقة أو الاختلاس ، وهذه حالة استثنائية (١) • غير أن فيليب دو مونفور الذى جاء بعده دفع بروح المصالحة الى أقصى حد بأن ترك للمحكمة الجنوية حق اصدار الحكم حتى بالنسبة الى أخطر الجرائم ، ولم يحتفظ لنفسة الا بحق التنفيذ(٢) •

وثمة ساحة خصبة للنزاع بين السلطات الاقليمية والسلطات القنصلية ، تلك هى ساحة الشرطة • ففى البداية كان المسلم به أن الجالية وحدها هى المكلفة بالاشراف على التجارة وضمان الأمن العام فى داخل حيها ، ومع ذلك فمن عهد يوحنا دو برين Jean de Brienne ، أى منذ عام ١٢١٠ ، أجاز رئيس الشرطة الملكية فى صور لنفسه أن يتدخل فى مراقبة الأسواق ، حتى فى حى البنادقة ؛ واشتكى البايل مرسيليو من هذا التعدى على حقوق أمته ، وطرد الدخيل ، واستبدل به رجال شرطة خصوصيين من الجالية (٣) •

وأخيرا ، فان الاعفاء من القضاء الاقليمى جلب ضمنا للمستوطنين ذات الحق بالنسبة الى المحاكم الخاصة المقامة فى موانىء مملكة القدس للفصل فى المنازعات المتعلقة بالجمارك ، وكانت هذه المحاكم تسمى « محاكم السلسلة » Cour de la chaîne ، ويرجع هذا الاسم الى العادة المنتشرة خاصة فى الشرق

---

(١) Diplôme de 1190, Lib. jur. I, 358.

(٢) Diplôme de 1264, Archiv. de l'Or lat. II, 2, p. 225 et ss.

ـ هذه الوثيقة حافلة بالمعلومات • ففى فقره أخرى نرى أن الفصل بين القسم من المدينه الخاص بالمركز دو مونفور وبين الحى الجنوى لم يكن فصلا تاما بحيث لا يستطيع جنود الشرطة فى قسم أن يمروا فى القسم الآخر ، ولكن اذا قبض جنود البارون على متهم ، وصرح بأنه ينتمى الى الجنسية الجنوية ، كان عليهم أن يسلموه الى المملكة القنصلية ، والعكس بالعكس •

(٣) Taf. et Thom. II, 359 et s.

ـ كان موظف الملك هذا يسمى بالمحتسب ، ويدل هذا الاسم بذاته على أن هذا النظام كله كان موروثا من النظام العربى • فالمحتسب عند العرب شخص نصادفه فى كل حين • وما علينا لكى نقتنع بذلك الا أن نتصفح نقرات الكتاب الشرقيين ، وأوصاف الرحلات فى الشرق الادنى ، التى جمعها كاترمير Caatremère فى كتابه عن تاريخ سلاطين المماليك للمقريزى ، الجزء الأول ص ١١٤ ، وكذلك :

les commentaires de Behrnauer dans les journ. asiat. 4e série, XVI, p. 118 et ss., 347 et ss.; XV11 5 et ss.; ainsi que ceux de Freund dans L'ausland, 1879, p. 461 et ss.

ـ كان الملوك بيت المقدس محتسبون ، وفيما بعد ادخل ملوك قبرص هذا النظام فى جزيرتهم وبقى هذا النظام حتى عصر السادة الفنيسية • أنظر :

— l'Abrégé originaire de Chypre, dans le Suppl. des Assises de Jérusalem II, 237 et s., 243 et s., Lusignano. Corograffia di Cipro p. 80 ; de Mas-Latrie, Hist de Chypre 111, 206 et s., 853; Romanin VI, 281.

يغلق مدخل كل ميناء بسلسلة ممتدة بين برجين (١) ٠ فحين تدخل بضائع في البلد عن طريق أحد هذه الموانىء ، كان يقال انها وردت « عن طريق السلسلة » ، وكانت الدخول الجمركية المقررة في تلك الموانىء تسمى introitus catena (٢) (دخول السلسلة) وعلى ذلك فان عبارةCour de la chaîne محكمة السلسلة) كانت تطلق على محكمة تتولى الفصل في القضايا المتعلقة بالميناء ، أى بجمرك الميناء (٣) ٠ وكان رعايا الأمم صاحبة الامتيازات معافين من قضاء هذه المحاكم ، اما بمقتضى عرف ، واما تنفيذا لنص صريح في المعاهدات ؛ وكانت هذه هي حال الجنويين في عكا ، وترجع الوثيقة التي تعنيهم الى عام ١١٩٥ (٤) ٠ ورغم هذه الحقوق المكتسبة ، فان الكونت توماس دى اسيرا Thomas de Acerra المبعوث من قبل فردريك الثاني ليمثله في سوريا عام ١٢٢٧ أحال البيزيين الى محكمة ميناء عكا ٠ ورأى قناصل بيزا في هذا التصرف اعتداء على حقوق المستوطنين ، وحصلوا من الامبراطور في عام ١١٢٩ على الغاء هذا الاجراء(٥) وفي المسائل الجمركية ، كان البيزيون على حق لأن يظهروا حساسية وريبة لأنهم كانوا يتمتعون في عكا وصور ويوبيه بامتياز خاص مؤداه أن يقيموا بجمرك الميناء ، وبالسوق العامة ، وأبواب المدينة موظفين يختارونهم ، يكلفون برقابة سلوك موظفي الخزانة الاقليمية مع مواطنيهم ، ووضع حد للمطالب غير المشروعة (٦) ٠

هذا الموضوع ينقلنا من مجال القضاء والادارة الى مجال المالية ٠ وهنا أيضا نجد فروقا كبيرة بين مختلف العصور ٠ فبمقتضى المعاهدات الأولى المبرمة مع الملوك ، كان البنادقة والجنويون يتمتعون في مملكة بيت المقدس بالاعفاء التام من الرسوم الجمركية عند الدخول والخروج ، ومن رسوم الانتاج على المبيعات والمشتروات (٧) ٠ وقد منحوا هذا الامتياز اعترافا بخدماتهم في الحروب ضد المسلمين ٠ وفيما بعد حصل المرسيليون على هذه الامتيازات للأسباب

(١) Theophanes, Chronogr. p. 567 ; Isstachri, p. 68 ; Cheuseddin, les Nouv. annal des voyages, 1864, II, 293; Ibn-Batouta, 1, 131, 183; Benj. de Tudèl., 1, 63; Guill de Tyr, XX, 16; Contin. Guill. de Tyr, p. 108, 266, 326 et s; Sanuto, p. 171; Chron. Ursperg. dans Pertz, SS. XXIII, 300

(٢) Taf et Thom. II, 231; Lib. jur. I, 358, 401, 665; Taf el Thom. I, 141; Doc. sulle relaz. tox. p. 33; Archiv. ed l'Or. lat. II, p. 145, 166 et s.

(٣) Beugnot, Assises de jérusalem, II, Introduction, p. xxiii.

(٤) Lib. jur. I, 411.

(٥) Doc sulle relaz. tox. p. 96.

(٦) Doc sull relaz. tox. p. 27, 29, 30, 37, 38 ; Assises de Jerus II, p. xxiv, 171, 173 et s., 178 485; Taf. et Thom. I, 86, 141; II, 231, 397; Lib jur. I, 358, 401, 665; Doc sulle relaz. tox. p. 33. Méry et Guindon I, 288; Histoire de la commune de Montpellier II, 514; Paoli, Cod. dipl. I, 103, 122, 130; Archiv. de l'Ar. lot. II, 2, p. 144, 146, 147, 167; Strehlke, Tab. ord. teuton p. 6-8, 13 et s., 17, 52-55, 75.

(٧) Lib. jur. I. 16; Taf. et Thom. 1, 86.

ذاتها (١) · ومع ذلك ، وبمرور الزمن ، تناسى بعض الملوك التزاماتهم الأدبية قبل هذه الدول البحرية ، فلم يروا فى هذه الامتيازات سوى شيء واحد ، ذلك هو الاعفاء الممنوح بنوع خاص للأمم الاكثر ثراء ، وما يترتب على ذلك من نقص فى الخزانة · ومن ثم عكفوا على الحد من هذا الاعفاء ، وهاجموه من جهتين فى وقت واحد · فمجموعة قوانين بيت المقدس Assises de Jérusalem وضعت كمبدأ أن البضائع المصدرة برا من المملكة الى بلاد اسلامية يجب أن يدفع عنها رسم ، وحدد هذا الرسم بالنسبة الى البيزنطيين بمقدار « كاروبل » Carouble واحد ، أى $\frac{1}{24}$ من لدينار البيزنطى (٢) ولما كان البنادقة يتمتعون باعفاء مطلق ، فلم يكن من الجائز تطبيق هذه المادة عليهم · ومع ذلك فرض عملاء الملك ضريبة على البضائع التى يصدرها التجار البنادقة من عكا الى دمشق أو الى مدن اسـلامية أخرى (٣) ، وطبقوا الاجراء ذاته على الجنويين · وطبقا لرسوم بتاريخ ١١٩٢ فرضت عليهم ضريبة عند انزالهم من البحر بضائع واردة من بلاد اسلامية أو مرت ببلاد اسلامية ، وبيعهم هذه البضائع فى صور (٤) · ومن جهة أخرى كان عملاء الملك فى القرن الثالث عشر يقتضون رسم مرور على البضائع القادمة فى سفن بندقية الى موانى المملكة ، اذا لم يجـد أصحابها من يشتريها وأرادوا اعادة تصديرها الى مكان آخر (٥) كان هذا أيضا تطبيقا غير مشروع ، اضرارا بالبنادقة، لنص قانونى خاص بالسوريين والمسلمين (٦) · وشيئا فشيئا ازدادت القيود على مبدأ الحصانة العام ، ووصلت الأمور فى عام ١٢٤٤ الى درجة اضطر معها المفوض القضائى le bailli مرسيليو جورجيو الى الشكوى بمرارة ؛ ولا نعلم فى الواقع الى أى مدى سمعت شكواه ·

قلنا من قبـل ان البيزيين لقوا منذ البداية معاملة أقل حظوة من المعاملة التى لقيها من سبق لنا ذكرهم ، فلم يتمتعوا بالاعفاء من الرسوم الجمركية ، اللهم الا فى مدينة صور التى فضلوا الاقامة بهـا · وفقط ، بعد انقضـاء زمن طويل ، عند استعادة عكا ، واحتلال البلاد التى أعيد فتحها على قواعد جديدة ، حصل البيزيون على وعد بمعاملة أفضل فى عكا ويافا (٧) · وليس لدينا مايحملنا على الظن بأن هذا الوعد لم ينفذ ·

---

(١) Méry et Guindon I, 182, 183 et s., 194 et s.

(٢) Assises, éd. Beugnot II, 174; ibid, 173.

(٣) Taf. et Thom. II, 398.

(٤) Lib. Jur. I, 405 et s.

(٥) Taf. et Thom. op. cit.

(٦) Assises de Jérus. II, 174.

(٧) Doc. sulle relaz. tox. p. 6. et s., 28 et ss.

ـ فى عام ١١٥٧ لم يرد الكونت أمورى ، كونت عسقلان ، وسيد يافا الى البيزيين الا نصف الضرائب التى يدفعونها من قبل ·

واقتفى كونتات طرابلس أثر ملوك بيت المقدس فمنحوا الايطاليين الذين كانوا يظهرون كثيرا فى البلد ، أى الجنويين والبيزيين والبنادقة (١) الاعفاء من الرسوم الجمركية عند الدخول والخروج · وقد رأينا بالنسبة الى أهالى مونبيلييه أن الرسوم على المبيعات والمشتروات وكذا رسوم الترانزيت قد خفضت الى ثلث التعريفة المعتادة (٢) ·

وفى امارة أنطاكية ، كان الجنويون وحدهم هم الذين يتمتعون منذ البداية بالاعفاء الكامل من الضرائب المفروضة على التجارة (٣) : وكان البنادقة والبيزيون يدفعون بعض هذه الضرائب التى كانت مرتفعة القيمة ، ومع ذلك فمن كثرة مساومتهم مع الأمراء ، انتهوا الى الحصول أولا على خفض هذه الضرائب ، وأخيرا الى الغائها (٤) · الا أن هذا الاعفاء فقد كل قيمته عند الجنويين والبيزيين عندما فرض الأمير روبن Roupen فى عام ١٢١٦ ضريبة ثقيلة على البضائع التى تستوردها هاتان الأمتان الى ميناء سان سيميون ، وهو الميناء الذى يصل العاصمة بالبحر (٥) · وأسهم هذا التشدد من جانب أمراء أنطاكية دون شك فى أن تقل زيارات التجار الغربيين لشمال الامارات الصليبية حتى صارت نادرة ··

قلنا ما فيه الكفاية عن الوضع الداخلى للمستوطنات التجارية ، ولنعد الآن الى تاريخها · ففى غضون هذه الفترة الثانية ، وثق الامبراطور فردريك الثانى وسلطان مصر بعض الزمن علاقات قائمة على تقدير متبادل بينهما · وكانت هذه الفترة نسبيا أصلح فترة للتجارة ، على الأقل لأن الطرفين كفا عن القتال . واهتم الأمبراطور بنوع خاص بتحسين أحواله · ولسوء الحظ ، فان المنازعات المسلحة مع ملك مصر القوى — باستثناء هذه الهدنة القصيرة — كانت كثيرة ، وسببت أضرارا كبيرة لسكان سوريا · ومن وقت لآخر ، كان يشار الى وصول جماعة من الصليبيين ، كثيرة أو قليلة العدد الى الأرض المقدسة ، وكان القادمون الجدد يتطلعون الى اكتساب المجد بأدائهم أعمالا باهرة ، وأدى ذلك فى كل مرة الى انقطاع حالة السلم الضرورية مع ذلك لاستمرار بقاء الامارات الصليبية · ولم يكن للجيوش الصليبية القوة والوقت الكافيان لدعم قواعد سيادة المسيحيين فى سوريا ، بل كان كل يوم يمر يزيد من ضعف هذه السيادة ، وتضييق

---

(١) Lib. jur. I, 18: Doc. sulle relaz. tox p. 25 : Rey, Recherches, I.c. p. 42.

(٢) Germain, Hist. de la commune de Montpellier II, 513.

(٣) Ughelli, It. Sacr. IV, 846 et s., 847 et s.; Lib jur. I, 30 et s., 249 et s. 364.

(٤) Taf. e t Thom. I, 133 et ss. ,148, 176; Doc. sulle relaz. tox. p. 6, 15 et s., 80, 90 et s.

(٥) Lib. jur. I, 577; Doc. sulle relaz. tox. p. 90 et s.

نطاقها ؛ ولم يخف على أحد أنه لابد عاجلا أو آجلا من ترك هـــذه الســـيادة للمسلمين . وعجــل المسيحيون أنفسهم بوقوع الكارثة بما وقع بينهم من فتن وخلافات كانت طوائف التجار الذين يطمحون فى ممارسة نفوذ سياسى ، تسهم فيها بنشاط كبير .

والمعروف أن النزاع بين الجولفيين والجبلين الذى قسم ألمانيا وايطاليا الى معسكرين متعادين امتد حتى وصل الشرق ، واشتركت فيه الجاليات التجارية هناك بدافع من أوطانها الأصلية . وحين وصل فردريك الثانى الى سوريا فى ربيع عام ١٢٢٨ . لم يكن مجرد قـائد جيش صليبى ، ولكنـــه كان فى الوقت ذاته يطالب بالاعتراف بحقوقه فى تاج القدس ، لذلك استقبل هناك بمشاعر منوعة : بعداء سافر من البعض ، وبرود متحفظ من البعض الآخر ، وود واخلاص من الأقلية . وأيده البيزيون ، انصار جنسه القدامى ، رغم اعتـــداء نائبـــه توماس دى أسيرا Thomas de Acerra على حقوقهم . ومكافأة لهم على اخلاصهم . وعدهم بتوقيع العقاب على عملائه الذين اجترأوا على الاعتـــداء على حقـــوقهم المكتسبة ، وأعفاهم فوق ذلك من كل الضرائب فى عكا والقدس (١) . وفى هذه الفترة كان الجنويون أيضا جبليون ، وكان البنادقة وحدهم هم المترددين(٢) . وعند رحيل فردريك الثانى (مايو ١٢٢٩) ترك المارشال ريكاردو فيلانجييرى Riccardo Filangieri فى منصب الحاكم : ولمـا كان هذا الأخير قد اعتاد فى حكمه أن يسلك سلوك القائد ، فانه لم يعمل أى حساب للقانون العرفى بالمملكة) وأسفر استبداده عن تذمر الكثيرين ، والتف الغالبية من البارونات والبورجوازيين حول يوحنا ديبلان Jean d'Ibelin ، سيد بيروت ، خصم الحاكم . وقـــام « بايل » البنادقة وقناصل الجنويين والبيزيين بالاتحاد مع بعض الشخصيات بمحاولة للتوفيق (٣) ، ولكن المحاولة فشلت ، وانتهى النزاع الخاص بين ديبلان وبين فيلانجييرى الى حرب عامة (٤) .

واذا لم نكن على يقين من الاتجاه الذى اتخذه الجنويون ، فان هذا الشك لم يدم طويلا : ففى شهر فبراير عام ١٢٣١ أرسل فريدريك الثانى الى نائبـــه أمرا بأن يقتضى من الجنويين عند نزولهم برا فى عكا رسم الميناء ؛ وكان فى هذا اعتداء مباشرا على حقوقهم ، ومن ثم رفضوا الامتثال للأمر ، ولما كان تعدادهم

---

(١) Doc. sulle relaz. tox. p. 96-98, et Huillard — Bréholles, Hist. dipl. Frid. II, III, 131-135.

(٢) Chron. Ursperg. dans Pertz., SS. XXIII, 383; Winkelmann, Friedrich II, I, 389.

(٣) Cont. de Guill. de Tyr, p. 394.

(٤) فى خصوص تاريخ هذه الحرب ، نكتفى بالاحالة الى :

— l'Introduction de M. Huillard-Bréolles, Hist. dipl. Frid. II, à M. de Mas-Latrie, Hist de Chypre I, 254 et ss. et à Winkelmonn, Friedrich II, I, 491 et ss.

وقوتهم يجعلهم مرهوبى الجانب ، فان الحاكم لم يجرؤ على تنفيذ الأمر (١) ·
الا أن هذا كان كافيا لأن يظهر للجنويين ما ينتظرهم فى اليوم الذى يتربع فيه
الهوهنشتاوفن على العرش · وفى الفترة ذاتها (١٢٣٢) قام على رأس الحكومة
فى جنوا محافظ معروف بآرائه الجويلفية (٢) ، وتلقى الجنويون فى سوريا
الأمر بالوقوف جهارا ضد الحاكم ، ومن ثم أرسلوا فرقا عسكرية وسفنا الى
يوحنا ديبلا (٣) · وفى ٢٤ من أكتوبر ١٢٣٣ عقدوا مع الحزب المعادى
للامبراطورية معاهدة صدق عليها فى نيقوسيا فى الثانى من ديسمبر من ذات
العام (٤) · وفى هذه المعاهدة التزم البارونات لخمس سنوات ألا يعقدوا أى
تحالف مع البيزيين دون موافقة الجنويين ، وصدقوا على الامتيازات التى منحها
للأخيرين يوحنا ديبلان رئيسهم فى مدينة بيروت ، وكفلوا لهم امتيازات مماثلة
فى حيفا ، ونعلم أن هذا الميناء الواقع عند سفح جبل الكرمل له بعض الأهمية
التجارية بسبب مجاورته لمدينة طبرية (٥) ؛ وكان رئيس هذه المدينة الصغيرة ،
روهارت الثانى (٦) Rohart II أحد المتعاقدين · وبعد ثلاثة أشهر (١٢ من
يناير ١٢٣٤) منح ثمة للجنويين امتيازات باسمه (٧) · وهكذا جنى هؤلاء ثمار
انضمامهم الى الحزب المنتصر ، فى حين اقتسم البيزيون الحظ السىء الذى لقيه
أنصار الأمبراطور · وكان البنادقة آخر من خرجوا من موقف الترقب · واذا
كانت جمهورية البندقية لا تميل الى الأمبراطور ، فانها كانت تنفر من السير مع
جنوا خصمها تحت أعلام واحدة · غير أن البابا جريجوار التاسع نجح فى حمل
الأطراف على قبول وساطته ، وتحت تأثير نفوذه عقدت المدينتان فى عام ١٢٣٨
معاهدة تحالف هجومى ودفاعى موجه بنوع خاص ضد الامبراطور (٨) · وابتداء
من هذه اللحظة اتخذت البندقية موقفا صريحا ضده · وكان مقر نائب الامبراطور
فى سوريا فى مدينة صور · وردا على اعلان الحرب هذا ، عامل البنادقة معاملة
الأعداء ، وصادر أموالهم وايراداتهم فى داخل المدينة وخارجها · وفى عام ١٢٤٣
تقرب « بايل » البنادقة مرسيليو جورجيو الى البارونات وأوضح لهم الخطر من

---

(١) Annal. Jan. p. 176 et s.,

(٢) Ibid. p. 178 et s.; Voy. Boehmer, Regesta Friderici II p. 154 et s.

(٣) De Mas-Latrie, l.c. p. 277, 282, 293, 298; Huillard-Bréholles, Hist. dipl. Frid. II, 1, 2, p. 904.

(٤) De Mas-Latrie, l.c. II, 56-58.

(٥) M. de Mas-Latrie (Archives des missions scientif. II, 363), Olivieri (Charte et cronache p. 59 et s.), Canale (Nuova hist. di Genova II, 291); M. Grassi, le Giorn. lig. 1877, p. 22.

(٦) Ducange, Familles d'outremer, p. 267 et s.

(٧) Lib jur. I, 941 et s.

(٨) Taf. et Thom. II, 341; Annal. jan. p. 189; Winkelmann, Friedrich II II, 1ère part. p. 119 et s

تحقيق المشروعات التى وضعها فيلانجييرى فى عكا ، وهى المقر العـــام للحزب المناهض للامبراطورية (١) • وبناء على الحاحه ، تقرر أولا اتخاذ كل الاجراءات اللازمة للمحافظة على عكا ، ثم انتزاع صور من أيدى فيلانيجييرى • واذ سلك البارونات هذا المسلك ، فانهم اتخذوا خطوة أخرى باعترافهم بحقوق اليكس Alix ملكة قبرص فى الوصاية على عرش مملكة القدس ، فأقسموا يمين الخلاص لها ولزوجها النانى راؤول دوسواسون Raoul de Soissons • وكان أول عمل قامت به الوصية اعداد حملة لاستعادة صور • وتنفيذا للوعود الصريحة بضمان حقوق البنادقة وأملاكهم فى المملكة بعامة ، وفى صور بخاصة . وضع مرسيليو جورجيو تحت تصرف الوصية سفينة حربية ، واشترك بنفسه فى الحملة ومعه فرقة مكونة من ثلاثين رجلا • وتم سريعـــا الاستيلاء على المدينـــة بفضل تواطؤ السكان البنادقة ، واستسلمت القلعة بعد ثمانية وعشرين يوما: وكان هذا آخر نقطة ارتكاز لسلطة آل هوهنشتاوفن فى سوريا • وقد أســـهم البنادقة بقوة فى نجاح الحملة • ولكن بعد أن بذل البارونات الوعود بسخاء ، لم يفوا بعهودهم . وثار الاحتجاج عليهم ، ولم يسترد حلفاؤهم حقوقهم التى طالبوا بها (٢) •

ورغم هذه الأحوال السيئة ، بقى البيزيون أوفياء للحزب الذى انضموا اليـــه • ولم يحضر قنصلهم المجلس الـــذى أعلنت فيــــه اليكس وصـــية على العرش (٣) • أكثر من ذلك أنه رغم أن نفوذ آل هوهنشتاوفن كان يؤول الى زوال ، فان البيزيين لم تزل عندهم الجرأة لأن يرفعوا علم آل هوهنشتاوفن على سفنهم وهى داخلة ميناء عكا ، بل ويحملوا هذا العلم فى طلائع مواكبهم وهى تسير فى شوارع المدينة •

كان لطول النزاع الذى عرضناه آنفا رد فعل على القـــوة التى كـــان المسيحيون فى سوريا فى حاجة اليها لمقاومة العدو فى الخارج • حقيقة ان

---

(١) كان عملاء فردريك الثانى التجاريون يمارسون التجارة بحرية فى عكا • ففى عام ١٢٣٩ باع واحد منهم فيها أغذية وتبيذا ، واشترى بثمن البيع أقمشة صوفية ، وأقمشة قطنية خفيفة ، وأوشحة . وشمل • وكان البعض يشترى فى عكا سمكا لحساب الأمبراطور • أنظر :
— (Huillard - Bréholes I.c. V, I, p. 587, V, 2, p. 720 et s., 804).

ويبدو بوجه عام أنه كان يوجد فى ذاك العصر حركة تجارية نسيطة بين صقلية وسوريا • نجد مثلا أصواف سورية مذكوره ضمن المواد المستوردة فى صقلية • أنظر :
— Ricc. de S. Germano, ad. an 1232, dans Pertz, SS. XIX, 369.

(٢) Taf. et Thom. II, 351 et ss.; les Assises de jérus. éd. Beugnot II, 399 et s.; Cont. de Guill. de Tyr. p. 422, 426 et s.

(٣) لا نجد سوى اسماء السلطات الاستعمارية الجنوية والفينسية •
Taf. et Thom. II, 355.

الجاليات التجارية لم يكن لها هذه المرة الا أقل نصيب من المسئولية ، ومهما كانت أهمية عملهم ابان الصراع ، فانهم لم يكونوا هم الذين استثاروه ، ولم يؤدوا فيه الدور الرئيسي · ولكن دورهم حل بعد قليل · ذلك أن تنافس الأمم التجارية ، والمنازعات التى أثارتها مسائل الحدود بين أحيائها أسفرت فى الكثير من الأحيان عن معارك دامية · ففى غضون النصف الأول من القرن الثالث عشر ، اقتتل الجنويون والبيزيون مرارا فى شوارع عكا · وفى عام ١٢٠٣ تمكن القاصد الرسولى الكاردينال بيير دى مارشيللو Pierre de S. Marcello بمشقة من ازالة الخلافات القائمة بينهم(١) · وفى عام ١١١٢ أمكن أيضا عن طريق التحكيم انهاء نزاع نشأ من مسألة خاصة بالملكية(٢) · ولكن فى عام ١٢٢٢ تفجرت من جديد العداوة الكامنة ، بعنف أشد من ذى قبل(٣) ، وانهزم البيزيون أول الأمر أمام خصومهم ، واضطروا الى التقهقر ، ولكنهم أشعلوا حريقا التهم قسما كبيرا من المدينة ، وعددا من المبانى الأثرية من بينها برج مرتفع وجبل يملكه الجنويون الذين أخطأوا فى تصرفهم ، فانصرفوا عن القتال وهرعوا لانقاذ أملاكهم · واستغل البيزيون هذا الخطأ · يساندهم الملك ، وعاودوا الهجوم ، وسحقوا بدورهم خصومهم · وفى أعقاب هذه الأحداث أرسلت حكومة جنوا أسطولا الى سوريا ، ولكنها لم تستطع الحصول على التعويضات التى طالبت بها عن الخسائر والأضرار التى سببها الحريق(٤) · وغضب الجنويون من ذلك ، وامتنعوا لعدة سنوات عن زيارة ميناء عكا ، وظهر أثر ذلك فى هذا الموقع وفى سائر أنحاء المملكة · وبذل الأمبراطور فريدريك الثانى مساعيه لدى الجنويين لحملهم على العودة الى ممارسة تجارتهم فى هذه الناحية · ولم يستجب الجنويون أول الأمر ، بل قدموا شكاواهم من ضروب الظلم التى ارتكبت فى حقهم ، ومع ذلك امتثلوا أخيرا ، وضمن لهم الأمبراطور ترحيبا طيبا بهم فى عكا(٥) · وفى عام ١٢٤٩ عادت المنازعات الى سيرتها الأولى من جديد بين الأمتين ، ونشب بينهما القتال واحدا وعشرين يوما بكل أنواع الآلات الحربية ، وانهزم الجنويون ، وقتل فى المعارك أحد قناصلتهم · وأخيرا توسط بين المتحاربين يوحنا ديبلان ، سيد أرسوف Arsour ، ونائب ملك قبرص ، وانتهت وساطته بعقد هدنة لمدة ثلاث

---

(١) Innoc. III, epist., éd. Bréquigny, et du Theil, Diplom. ad res Francicas spectantia, 2e part. T.I, p. 408 (cf. gesta Innoc. ibid. p. 96, not. 2).

(٢) Luenig. Cod. dipl. Ital. I, 2459 et s.

(٣) عين « بابل » البندقية حكما ، ولكن البيزيين رفضوا الامتثال لحكمه · أنظر · — Canale, Nuova storia di Genova, II, 297.

(٤) Annal Jan. page. 150; Rancioni, Istorie pisane, dans l'Archiv. stor. ital, VI, I, p. 491 ; Tronci, Annali pisani, p. 184.

(٥) رسالة الى سكان عكا ، من كتابنا فى ٢٨ من مارس ١٢٢٤ · أنظر فى : — Winkelmann, Acta imp. ined. soec. XIII, p. 241).

سنوات(١) . ولم يكن هذا التنافس هو الوحيد الذى خضب شوارع عكا بالدماء : ففى أواسط القرن الثالث عشر ، جرت مشاحنات بين تجار مونبلييه وبين المستوطنين المرسيليين أدت الى اثارة الشقاق بين المدينتين(٢) .

أما من حيث عدد المتقاتلين ، وضراوة الصراع ومدته وخطورة النتائج ، لم تكن الاشتباكات التى ذكرناها آنفا شيئا الى جانب الحرب الاستعمارية الكبرى التى نشبت عام ١٢٥٥ واستمرت ضارية عدة سنين فى جميع أنحاء سوريا . كانت البندقية وجنوا تعيشان زمنا طويلا فى سلام ، وفى عام ١٢٥١ جددت الجمهوريتان لثمانى سنوات معاهدة صداقة موضوعها حل كل مابينهما من خلافات بالطرق السلمية(٣) . وفى سوريا كان الوئام يسود مستوطناتهما طالما اشتركتا فى اضعاف نفوذ آل هوهنشتاوفن . وعندما تحقق هذا الغرض ، استيقظت الغيرة التى كانت كامنة فى النفوس . ففى الوقت الذى كان فيه سيمون مالوتشيللو Simone Malocello يتولى مهام قنصل جنوا فى عكا(٤) ، قتل جنوى بيد أحد البنادقة ، فثارت ثائرة مواطنى القتيل ، وهرعوا الى الأسلحة ، واجتاحوا حى البنادقة ، واعتدوا على سكانه . وتقول « الحوليات الجنوية » أنه من ذاك الحين أشتد الحقد فى نفوس البنادقة ضد الجنويين ، وكان يكفى أصغر الأشياء لاثارة مشاعرهم المتحفزة على الدوام(٥) . وكان لابد لمثل هذا الوضع أن يؤدى الى نشوب الحرب ، غير أن المصادر تذكر أسبابا أخرى لهذه الحرب .

كانت الأراضى التى تحتلها الأمتان فى عكا مفصولة عن بعضها بعضا بتل يسمى « مونجوا » Montjoie (٦) ، يعلوه مبانى دير مكرس للقديس ساباس Sabas (٧) ، وادعى كل من البنادقة والجنويين أن لهم على هذا

---

(١) Contin de Guill. de Tyr, 1, 437; Sanut. Secr. fidel. cruc. p. 218; Epist. Odonis, dans d'Achery, Spicileg. III, 627, Guill. de Mangis, dans le Recueil des hist. de France, XX, 368.

(٢) Vic et Vaissette, Hist. de Languedoc, éd. du mèg, VI, 514 et ss.; voy. Germain, Hist. du commerce de Montpellier I, 222.

(٣) Annal, Jan. p. 138, Lib. jur. I, 1090 et ss.; 1099 et s. Giov. di Bolgaro

(٤) كان مالوتشيللو قنصلا مرتين ، الأولى فى عام ١٢٤٩ مع ـــ ومرة ثانية فى عام ١٢٥٠ مع Ogerio Ricci . انظر :
— Arch. de l'Or. lat. II, 2, p. 215, 222.
لذلك فان تاريخ حادث القتل هذا غير مؤكد تماما .

(٥) Annal. Jan. p. 238.

(٦) انظر خريطة عكا فى كتاب Sanuto ، وقد أشير الى موقع هذا التل بكلمة Auonzoja
— Mar da Canale, Cronaca Veneta (Arch. stor. it VIII), p. 454, 729. not. 177; Dondolo, p. 367.

(٧) Le contin. de Guill de Tyr, p. 443, 634, et Da Canale p. 454.

الدير حقوقا ثابتة في وثائق رسمية(١) • وأخيرا استولى الجنويون ذات يوم (١٢٥٦) بقوة السلاح على الدير موضوع النزاع ، واستقر بهم المقام فيه ، وأغاروا على حي البنادقة (٢) • وفي ظروف مماثلة ، تكرر النزاع : فثمة خلاف ثار بخصوص سفينة ، استغله الجنويون في الاستيلاء على كل سفن البنادقة الراسيه في الميناء(٣) ، وبمساندة البيزيين ، مساندة قوية ، ضغطوا على خصومهم ضغطا شديدا حتى كادوا يلقون بهم خارج المدينة(٤) • ولم يكتف الجنويون بذلك ، بل اقنعوا فيليب دى مونفيرا سيد صور ، بدسائسهم ، أن يطرد منافسيهم من الثلث الذى كانوا يملكونه في المدينة(٥) • وبلغ سخط البنادقة ذروته ، وحاولت حكومة جنوا أن تعقد صلحا ، ولكن البنادقة لم يستمعوا اليها(٦) ، وكان السلاح هو الوسيلة الوحيدة الكفيلة بالفصل نهائيا في النزاع • ولم يكن من شأن الاستعدادات للقتال أن تنسى البنادقة الوسائل الكفيلة بأن تضمن لهم النجاح • ففي عام ١٢٥٧ تقربوا الى البيزيين ، واقنعوهم بالتخلي عن تحالفهم مع جنوا ، وعقدوا معهم معاهدة تحالف هجومي ودفاعي(٧) ، واستطاع بايل البندقية ماركو جستنياني Marco Giustiniani وهو مفاوض قدير ، أن يكسب في عكا نفسها حلفاء أقوياء ، منهم يوحنا ديبلان نائب ملك قبرص الذى كان فيما مضى يؤيد الجنويين ، وشخصيات أخرى ذات نفوذ • وانقسمت المدينة حزبين متميزين : فكان مع البنادقة بطريرك القدس ، وفرسان الهيكل ، وفرسان التيوتون ، والجالية البروفانسية(٨) • وكان مع الجنويين فرسان القديس يوحنا ، وتجار انكونا وكتالونيا (٩) ، ثم ان البلد كله كان يؤيد أيا من الطرفين •

---

(١) Sanut. p.. 220; Dandolo, p. 365; Lib. jur. I, 1097 et s., 1098 et s., année 1251.; Contin de Guill. de Tyr p. 634;

(٢) Contin. de Guill. de Tyr, p. 443; Sanuto, I.c.; Dandolo,, 1.c.

(٣) Annal (J. and. I.C. : Dandolo, p. 365:

(٤) Contin de Guill. de Tyr, p. 443; Sanut. 1.c.; Dandolo, 1.c.; Annal. Jan. p. 239.

(٥) Dandolo, 1.c.; Taf et Thom. 11, 354 et ss.; Assis de Jérus. II, 400; Contin. de Guill de Tyr, p. 423; Mas-Latrie, 1.c. p. 338.

(٦) Annal Jan. p. 238; Mart. da Canale, p. 454; Dandolo, 1.c.

(٧) Dal Borgo, Dipl. pis. p. 72 75; Dand. p. 365, 373.

ـ تجددت هذه المعاهدة فيما بعد • أنظر

— Murat. Antich. tal. IV, diss. 49, col. 403 et ss.

(٨) معاهدة الصداقة التى عقدها البايل ماركو جستنياني والاميرال البندقى لورنزو تيبيولو مع قنصل مرسيليا فى عكا ، صدق عليها فى أكتوبر ١٢٥٩ دوق البندقية بشرط تصديق مدينة مرسيليا • وكان مندوب من قبل شارل دانجو شاهدا على تحرير المعاهدة بصفته ممثلا لسيد مرسيليا ، وحضر الشخص نفسه التصديق على المعاهدة • أنظر :

— Coll. des doc. inéd., Mélanges historiques, III (1880) p. 11-14.

(٩) Cont. de Guill de Tyr, p. 445, 633; Da Canale, p. 460; Dandolo, p. 366 et s.; Chron. Pis. dans Murat. VI, 192; Lib. jur. I, 1272; Annal. Jan. p. 239, not. a, 240.

وكان الجنويون على علم بمناورات خصومهم ، ولم يكونوا يجهلون أن البنادقة يضمنون لأنفسهم الامدادات بفضل تحالفاتهم ، فى حين أنهم (أى الجنويين) يجدون مشقة كبيرة فى استمالة بعض الحلفاء ، الذين هم أصلا حلفاء ضعاف ، لا جدوى منهم (١) · ومع ذلك عقدوا العزم على المضى فى الكفاح الى النهاية ، وبدأوا بمعاقبة البيزيين لتخاذلهم ، فدمروا برجهم القديم (يقول البعض برجين) · وبعد هذا أعدوا عدتهم لمقاومة أسطول البنادقة الحربى المنتظـــر وصوله(٢) · ولكن خاب سعيهم ! ذلك لأن الأميرال لورنزوتيبولو Lorenzo Tiepolo أطلق سفنه بأقصى سرعة على سلسلة الميناء فحطمتها ، ودخـل الميناء حيث تنتظره السفن الجنوية ، فاستولى عليها ، وأشعل النيران فيها ، ثم أنزل جنوده برا ، واستولى عنوة على الميناء المحصن الذى أقامه الجنويون أمام كنيسة القديس ساباس ، وأشعل فيه النار · وفى اليوم التالى واصـل هجومه على الحى معززا ببنادقة عكا الذين أحضرهم البايل ماركو جستنيانى ، واستولى على شارع مستوف كان الجنويون قد انتزعوه من البنادقة فى بداية الحرب (٣) · ولما سيطر على الحى الجنوى ، مد غزوه الى مون موزار Mont-Musard (٤) ، أى على قسم كبير من المدينة · ويرجح أنه وجد فى صفوف أعدائه الكثير من سكان المدينة ، وأراد أن يعاقبهم · وحين وصل الى هنـاك توقف ومنح العدو هدنة لبضعة أيام · واستغل الأسطول الجنوى فترة الراحة هذه فتجمع فى صور تحت امرة باسكويتو ماللونى Pasquetto mallone وفى نهاية الهدنة ، طارد تيبولو الأسطول ، وهاجمه على مرأى من صور ، واستولى على سفينة القائد ، وثلاث سفن حربية ، وأصبح الأميرال الجنوى أسيره · وفى هذه الأثناء أغار البنادقة فى عكا على برج محصن يدافع عنـــه الجنويون ، واستولوا عليه(٥) ·

وللتعويض عن هذه الهزائم ، عزم الجنويون على النضال ، وأطلقوا أسطولا قويا تحت امرة روسو ديللا توركا Rosso della Turca ، وأرسلت البندقية من ناحيتها تعزيزات كثيرة الى أسطولها · وأفضت بنا رواية هذه الأحداث الى عام ١٢٥٨ ، وكانت الحرب محتدمة منذ ثلاث سنوات ، وتهدد باتساع نطاقها

---

(١) Annal. Jan. p. 240.

(٢) Ibid. p. 239; Dandolo, p. 365 et s.; Da Canale, p. 454, 456.

(٣) Da Canale, 1.c.; Dand. Annal Jan. p. 238.

(٤) Da Canale, p. 456; Dandolo, p. 366.

— كانت مون موزار ضاحية من ضواحى المدينة : انظر خريطة عكا فى مؤلف سانوتو ،
— les Chartes dans Pooli, Cod. dipl. I, 254, et dans Strehlke; Tab. ord. teuton. p. 73, 83, 117; Contin. de Guill de Tyr, p. 438. ed de la Vie de S. Loris ... dans les Rec. des hist. de France, XX, 68, 103.

(٥) Da Canale, p. 456-460; Dand p. 366.

أكثر فأكثر . وقاست مدينة عكا أهوالا كبيرة . فالواقع ، أنه بالاضافة الى البيوت التى احترقت خارج الأحياء التجارية ، ركب المحاربون من خمسين الى ستين آلة حربيـــة دمروا بهـا القســم الأكبر من الأبراج ، وعددا كبيرا من المنازل ، بوابل من القذائف الحجرية الضخمة . وقد قدر أنهم أهلكوا ما لا يقل عن ٢٠٠٠٠ نفس فى المدينة(١) . وبدأ الرأى العام يشعر بالقلق ، وشاع الخوف من أن يغدو استمرار هذا الحال خطرا على وجود الجاليات المسيحيـة كلها فى سوريا . وبهذا الشعور اتجه بعض الشخصيات الكبيرة فى البلد ، من رجال الدين ، والعلمانيين الى البابا الكسندر الرابع ، والتمسوا منه أن يفرض وساطته لعقد الصـــلح(٢) . واســتدعى الكســندر مندوبين عن الأمم المتحاربة الثلاث للاجتماع فى فيترب Viterbe فى ٣ من يولية ١٢٥٨ ، وحررت ثمة وثيقة يبدو أنها مقدمة لحل مناسب . وتعهد كل من الأمم المتعاقدة ، عن طريق مندوبها أن تسلم الى مندوب مفوض من البابا — الى أن يتيسر لهذا الأخير أن يجد الوسيلة الكفيلة بازالة كل العقبات — الأبراج والقلاع التى تملكها فى عكا ، دون استثناء ، وأن تنتظر قرار البابا ، وتقبله بامتثال مطلق (٣) (*) .

وبعد توقيع الاتفاقية مباشرة ، بعث البابا الى بيزا رئيس أساقفة سينا حاملا رسالة بابوية يناشد فيها السلطات أن توقف للتو الأعمال الحربية ضـــد الجنويين ، وأن تبلغ قناصلها وقادة أساطيلها ، وكل البيزيين المقيمين بسوريا ، عن طريق بعثتها القادمة فى شهر أغسطس على أكثر تقدير ، وقف الأعمــال الحربية ، ووصول قاصد رسولى عن قريب ، مكلف باعداد الشروط النهائية للصلح . وفى سبيل الاسراع فى تنفيذ هذه الأمور ، رجا البابا حكومة بيزا فى هذه المناسبة أن ترسل دون ابطاء تعليماتها الى عملائها فى سوريا بشأن المفاوضات التى سوف تبدأ هناك . واستلمت جنوا والبندقية رسائل مماثلة(٤) .

وطبقا لتعليمات البابا ، أرسل مبعوثان بندقيان على سفن جنوية ، ومبعوثان جنويان على سفن بندقية ، بمهمة اعلان الصلح . ولكن منذ بدء قيام الرحلة ، فى « زارا (تلقت السفن البندقية نبأ بأن الأحداث تتلاحق سريعا فى الشرق ، وأن كل شىء قد انتهى (٥) . وحاكم ما حدث : ففى حين كانت المفاوضات جارية فى أوروبا ، انتهز بنادقة عكا فرصة وصول جزء من امداداتهم فاستولوا على

---

(١) Annal. Jan. p. 239; Da Canale, p. 462; Dandolo p. 366.

(٢) Annal. Jan. p. 239; Cont. de Guill. de Tyr, p. 635

(٣) Annal. Jan p. 238.

(★) فيترب Viterbe مدينة بايطاليا ، بلاتيوم — المترجم .

(٤) Lib. jur. I, 1271 et ss. ; Annal Jan. 1.c.; Da Canale, p. 476; Dandolo, p. 367

(٥) Raynald, Annal eccles. XXII, 30 et s.; Dal Borgo. Dipl. pis, p. 184 et ss. ; voy. Posse, Analecta vaticana, p. 13.

ما كان باقيا فى أيدى الجنويين خارج حيهم ، واحتلوا مون موزان ، وكان أسطولهم الكبير فى حالة جيدة ، ويستطيع أن ينتظر بهدوء وصول أسطول روسو ديللا توركا الذى أبحر من صور فى ٢٣ من يونية ١٢٥٨ ، واتجه الى عكا ، كما اتخذ فيليب دى مونفور الوجهة ذاتها عن طريق البر ومعه حاشية كبيرة من الفرسان(١) ٠ وفى ٢٤ من يونية(٢) خرج الأسطول البندقى، وعدته ٣٨ أو ٣٩ سفينة حربية تحت امرة لورنزو تييبولو ، واندريا زينو ، من ميناء عكا لملاقاة الجنويين ٠ وكان البيزيون تحت قيادة الكونت جويوم (وليم) دو كابراريا Guillaume de Capraria (٣) ، وسار البروفانسيون تحت راية البندقية : وعلى هذا النحو كان الجنويون يواجهون قوات تفوقهم كثيرا ٠ وبعد معركة ضارية ، فروا هاربين فى غير انتظام ، تاركين فى أيدى عدوهم أكثر من نصف سفنهم(٤) ، وفقدوا أكثر من ١٧٠٠ رجل ما بين قتيل وأسير(٥) ٠ وكانت نكبتهم أشد لو لم تهب ريح ملائمة سهلت هروبهم ٠

وبينما كان الأسطول يقاتل بحرا ، صد بايل البندقية فى عكا هجوما شنه الجنويون ٠ وعندما شهد هؤلاء من فوق برجهم هزيمة أسطولهم ، أدركوا أن موقفهم غدا ميئوس منه ، خاصة وان حليفهم فيليب دو مونتفور قد توقف ، وعاد فى طريق صور(٦) ٠ وعلى ذلك عزم الجنويون على التخلى تماما عن مستوطنهم فى عكا(٧) وتحويله الى صور ومعه قنصلهم ٠ ومع رحيلهم تركوا حيهم والبرج المحصن الذى شيدوه على تل مونجوا ، تركوا كل ذلك للبنادقة والبيزيين الذين دكوا البرج وهدموا المنازل(٨) ، ثم اقتسموا الموقع فيما بينهم على

---

(١) Annal Jan. p. 239; Da Canale p. 464-468, 472; Sanut. l.c. p. 221.

(٢) Chronique des Pisans, Murat l.c.p. p. 221; les Annales génoises; Dandolo p. 361; Wilken (Kreuzz. VII, 397, not. 37); Dandolo, p. 251; Da Canale, p. 527, 742; Flamin. Cornel. Eccl Venet. X, 69 et s.; XI, 399.

(٣) Chron. Pis. dans Murat l.c.

(٤) كان الاسطول الجنوى يضم (بما فيه المدد القادم من صور) من ٤٤ الى ٤٨ سفينة حربية ، استولى العدو على ٢٤ ــ ٢٦ منها ، أنظر :
— Da Canale. p. 468, 470; Dand p. 366 et s. Sanut, p. 22; Annal. Jan. p. 240; Jac. de Voragine, dans Murat. IX, 149; Contin. de Guill. de Tyr. p. 557.

(٥) Contiin de Guill. de Tyr, op. cit : Sanuto, op. cit. ; Mart. da Canale,
ــ مارت ٠ دا كانالى هو الذى يعطى أدق الأرقام ٠

(٦) Da Canale, 470, 472.

(٧) Annal. Jan. p. 240; Dandolo, p. 367; Le contin. de Guill. de Tyr, p. 443.

(٨) Contin de Guill. de Tyr. p. 443 ; Annal Jan. p. 240 ; Cieogna, Inx. venez. I; 371-390, 251.

مايبدو(١) • ولما كان البنادقة والبيزيون منتصرين ، فانهم لم يشاءوا مع ذلك أن يحرموا خصومهم حرمانا تاما من مزاولة التجارة فى ميناء عكا ، على ألا ترفع أية سفينة جنوية علمها حين تدخل الميناء : ومن ثم يبدو أن الجنويين لم يكن فى وسعهم أن يزوروا الميناء كثيرا •

ولم يترك انتصار البنادقة الحاسم للبابا أية فرصة للتدخل مؤقتا(٢) • حقا ، لقد أوقف البنادقة ارسال التعزيزات الى الشرق ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك اكراما لخاطر البابا ، وانما لأنهم لم يعودوا فى حاجة اليها • ومع ذلك فانهم بناء على طلب البابا ، أطلقوا سراح الجنويين الذين أسروا فى موقعة عكا(٣) ، ولم يكونوا على استعداد للتفاوض أو تقديم أية تنازلات • ورغم كل شىء لم يعدل البابا عن ارسال مبعوث الى سوريا : ففى عام ١٢٥٩ تقدم توماس انيى دى لنتينو Thomas Agni de Lentino ، وهو راهب دومينيكانى ، يحمل لقب أسقف بيت لحم ، تقدم الى عكا بصفته هذه (٤) ، ولكنه صـادف متاعب جمة كان لا بد له من التغلب عليها لكى يحقق مهمته السلمية • وأخيرا فى شهر يناير عام ١٢٦١ نجح فى استقدام الخصوم أمام مجلس مكون من الأعيان الكنسيين والعلمانيين فى المملكة ، وكان أول المتحدثين مندوبو قناصلة جنوا فى صور ، فناشدوا رسول البابا أن يسلم اليهم ، طبقا لتعليمات البابا الحصـون والأبراج التى كانت لهم فى اقليم سوريا ، واحتلها البنادقـة والبيزيون • واستجاب الرسول البابوى لهذا الطلب ، وأرسل للحال الى يوحنا واندولو ، بايل البندقية ، ويوحنا درابيريوس Yean Drapperius قنصل البيزيين دعوة للحضور أمامه وأمام الأعيان فى ١٣ من يناير ، وفى ذات الوقت أنذرهم شفاها وكتابيا بأن يسلموا اليه فى هذا التاريخ الأماكن المذكورة • واستجاب الموظفان لهذا الاستدعاء ، ولكن لم يوافق أى منهما على المطالب ، وراحا يسوفان منتحلين أوهى الأعذار(٥) • وبالاجمال ، فانا لا نعلم ما اذا أمكن عقد الصلح ، ونحن نشك فى ذلك بالنظر الى سوء نوايا المنتصرين • وعلى أية حال لم يطل أمد الهدنة ، ذلك أن الجنويين لم يستسلموا لمصيرهم فى سوريا ، ومن ثم تحالفوا مع ميشيل باليولوجس Michel Paléologue لاسقاط الأمبراطورية اللاتينية ، وكان هذا ضربة قاضية على سيادة البنادقـة فى القسطنطينية ،

---

(١) Vov. Plus loin le traité de 1288.

(٢) Dandolo, I, c.

(٣) Dandolo, 1.c. ; Da Canale, p. 474, 476.

(٤) Contin. de Guill de Tyr, p. 444 et s.; Taf. et Thom. III, 38; Paoli, Cod. dipl. I, 173 et ss.; Charles de Notre de Norte-Dame de Josaphat; 1.c p. 106 et ss.; Ducange, Familles d'Autremer, p. 371, 788; Mas-Latrie, Hist. de Chypre, 1, 447.

(٥) Sauli, Colonia dei Genovesi in Galata, II, 190-204; Taf. et Thom. III, 39-44.

وازدادت الاحقاد شدة بين الخصمين · ولم تعد سفن البنادقة والجنويين تتلاقى في عرض البحر دون أن تتقاتل ، ولم تعد الأساطيل التجارية تجرؤ علـــى الخروج من جنوا أو بيزا دون حراسة قوية ، والا وقعت فريسة لسفن العدو الحربية · وكان البنادقة يغيرون على الموانىء التى يرتادها الجنويون ويحاصرونها ويشعلون فيها الحرائق ، والعكس بالعكس ·

ومنذ أن أضطر الجنويون الى الخروج من عكا ، جعلوا مركز قيادتهم فى صور ، وكان فيليب دِو مونفور قد أبدى لهم الكثير من دلائل الصداقة ، وزاد من تقريبهم الى شخصه ، وضمهم الى مدينته بمعاهدة تحالف هجومى ودفاعى ، وبمقتضى هذه الاتفاقية أصبحت صور ليس فقط مقرا لقناصلهم العموميين فى سوريا ، ولكن أيضا المرفأ الوحيد الذى يتزود بالبضائع عن طريق أساطيلهم التجارية فىسوريا · وقد سبق أن ذكرنا أن الأمير قد منحهم فى هذا الظرف توسعا كبيرا فى اختصاصات محاكمهم ، ولم يكن ذلك التوسع الا جزءا من المزايا التى منحها اياهم على سبيل المعاملة بالمثل : فهو لم يكتف بالتصديق على حقهم فى ثلث ايرادات الميناء ، وهو الحق الذى كانوا يتمتعون به منذ سنين عديدة ، ولكنه منحهم أيضا جزءا من الضرائب المفروضة على البضائع التى تمر بصور مرورا عابرا لتصدر الى الغرب ، وأعفى ربابنة السفن والتجار الجنويين مستقبلا من كل ضريبة تستحق عند الوصول أو الرحيل ، وكل رسم انتاج على المبيعات والمشتروات ، ولم يكن عليهم أن يدفعوا سوى رسم قدره كاروبل ونصف عن كل دينار بيزنطى من قيمة البضائع التى يدخلونها فى حوانيتهم بصور ، أو يعيدون تصديرها عن طريق البر (١) · وفى هذه الظروف كانت صور المركز الرئيسى لتجارة الجنويين ، ومقر أمير متحد معهم بروابط وثيقة من الصداقة ، كانت هدفا ملائما لغارات أساطيل البندقية · وفى عام ١٢٦٤ استولى اندريه باروتشيو André Barocio الأميرال البندقى على سفينة جنوية محملة قطنا ، على مرأى من صور ، وأراد الجنويون أن يخلصوا السفينة من قبضة البنادقة ، الا أن فيليب مونفور أثناهم عن ذلك ، ووعدهم بتعويض يساوى ضعف ما فقدوه ، يأخذه من أملاك البندقية التى وضعها تحت الحراسة كما عرفنا · وردا على ذلك ، شرع باروتشيو فى حصار المدينة بمعونة قوات أرسلها بنادقة عكا ، الا أن السكان ، يساندهم أشراف عكا ، دافعوا دفاعا شديدا لدرجة أن قرر العدو أنه من الأسلم له رفع الحصار(٢) · واســـتمر

---

(١) راينا فيما سبق أن الدينار (البيزنطى besant-) ينقسم الى ٢٤ كاروبل (Caroubles)

ولمزيد من التفاصيل عن النظام النقدى عند الدول الصلبية انظر البحث الذى أجراه :

— M. de Mas-Latrie : Notice sur les monnaies et les sceaux des rois de Chypre : Biblitt. de l'école des Chartes : Séri I, V, p. 124.

(٢) ls Archiv de l'Or. lat. II, 2, p. 225-230.

العداء بين صور والبندقية طوال حياة فيليب دو مونفور(١) • وقسما كبيرا من حياة يوحنا ابنه وخليفته(٢) • وواصل يوحنا هذا سياسة أبيه الخاصة باغتصاب أملاك البنادقة وحقوقهم ، وتمادى فى ذلك الى درجة أثارت حنق البنادقة ، الى أن حدث ذات يوم فى عام ١٢٧٣ حين كان فى عكا ، أن احتج البايل البندقى بينرو زينو Pietro Zeno على وجوده فى المدينة ، وقام بعدة مساع حتى تمكن من ابعاده (٣) • وأخيرا تم الصلح فى عام ١٢٧٧ ، وأعاد سيد صور الى البنادقة نصيبهم من ثلث المدينة ، وبعامة كل الأموال التى كانت تمتلكها الجالية والأفراد ملكية شرعية ، ووعد بترميم كنيسة سان مارك وبرج أجراسها على نفقته الخاصة ، وكذا رواق البنادقة ، واعادة تشييد المبانى التى تهدمت • كما تعهد بأن يدفع على أقساط سنوية اجمالى الايرادات التى استلمها هو وأبوه منذ مصادرتها • وبالمناسبة نفسها ، أعطى محاكم البنادقة القنصلية الاختصاص فى القضاء المدنى والجنائى دون قيد ، وصدق على الاعفاء من الضرائب على الأموال والبضائع • وضمانا لدوام السلام ، تم الاتفاق على ايداع كفالات كبيرة ، وتعيين قضاة عرفيين(محكمين) للفصل فى الخلافات التىقد تنشأ (٤)•

وفى حين كان البنادقة يعاملون مدينة صور على أنها عدوة لهم ، كانت عكا فى رأى الجنويين المركز العام لقيادة عدوهم • واذا سلمنا بالمعنى الذى يتجلى فى بعض عبارات المؤرخ العربى ابن الفرات (٥) ، فان فيليب دى مونفور والجنويين قد تمادوا فى ابداء مشاعر الكراهية لتلك المدينة حتى انهم اتفقوا مع السلطان بيبرس على أن يشتركوا فى الاغارة عليها • ولكن حين وقف بيبرس تحت أسوار المدينة ، انتظر حضور حلفائه دون جدوى ، ومن ثم اضطر للعودة دون أن يفعل شيئا • وفى أعماق هذه القصة شىء من الحقيقة ، يشهد بذلك مصادر أخرى (٦) • ففى عام ١٢٦٣ عسكر بيبرس زمنا طويلا تحت أسوار المدينة ، وشنت عساكره معركة دامية ضد السكان ؛ الا أن الحملة التى شنها السلطان وقتئذ كانت غايتها حصون مدينة صفد(٧) ، وليس عكا ؛ ومن ثم فانه مر فقط أمام عكا • ولما ابتعد عنها ، واصل طريقه الى صفد ، ولم يكن بذلك متقهقرا •

---

(١) Annal. Jan. p. 251, 260; Paoli I, 191, 168 et ss.
— مات مقتولا فى عام ١٢٦٩ •

(٢) حكم من ١٢٧٠ الى ١٢٨٣ ، السنة التى توفى فيها :
— Sanut. p. 229; Mas-Latrie l.c. p. 472.

(٣) Contin. de Guill de Tyr, p. 464; Sanut. p. 225.

(٤) Taf. et Thom. III, 150 et ss.; Dandolo, p. 381-393; Contin. de Guill. de Tyr, p. 478.

(٥) Bibliothèque des croisades, par Michaud-Reinaud IV, 489, 499.

(٦) Contin. de Guill. de Tyr, p. 446 et s; Makrisi, Hist. des sultans mamlouks, trad. par Quatremère I, 2, p. 27 et s.

(٧) Voy. la note de Weil, Gesch. d. Chalif. IV, 47.

وتبعا لذلك لا يكون من الصواب أن نسلم دون تمحيص بفكرة وجود اتفاق بينه وبين الجنويين وسيد صور . ولهذا التحفظ ما يبرره . لأن المؤلف الوحيد الذى أشار الى هذه الواقعة أثبتها فى عصر بعيد عنها توفى عام ١٤٠٥) ، ثم اننا لا نملك النص الأصلى للتاريخ الذى كتبه . كذلك يقول السيد رينو M. Renaud ان الفقرة التى تقوم عليها تلك القصـــة كلها تتألف من عبـــارات شـديدة الغموض (١) (*) .

ثم انه لا أهمية لكل ذلك ؛ فالثابت مع الأسف الشديد أن الجنويين مضوا بأنفسهم يغيرون على عكا فى وقت كان فيه السلطان يترقب فرصة ملائمة للاستيلاء على المدينة . فالواقع أنه حدث فى عام ١٢٦٧ أن ظهر الأميرال الجنوى كشيتو جريمالدى Lucchetto Grimaldi أمام المدينـــة ، واستولى على برج موش Mouches (برج الذباب) القائم على البحر ، وسد مدخل الميناء ، وأجبر السفن التى كانت تريد الدخول أن تتجه الى صور ، ولم يترك سفينة تخرج من الميناء دون أن يطاردها ويقبض عليها ويحرقها . وبعد وقت ما ، انصرف هـــو نفسه الى صـــور ، ونرك قسـما من أسطوله تحت امرة باسكويتو مالوفى Pasquetto Mallone الذى واصل الحصار الى أن اضطر الى الانسحاب أمـام أسطول بنـدقى يقـــوده ياكوبو داندولو ، ومارينو موروسينى ، ومضى ليلحق برئيسه فى صور (٢) .

وانتهى هذا الصراع الشرس بين البندقية وجنوا ، والذى كان شرا وبيلا على مدينتى صور وعكا فى عام ١٢٧٠ بعقد هدنة طويلة الأمد (عقدت أولا لخمس سنوات ، ثم موت سنتين) (٣) . وكان البابا كليمنت الرابع قد بدأ مسـاعى الصلح ، وحققها الملك القديس لويس (٤) . وفى غضون هذه الهدنة ، ان لم يكن قبلها (٥) استرد الجنويون على الأقل ملكيتهم لحيهم القديم فى عكا ، والذى احتله البنادقة . ومع ذلك فمن ١٢٧٢ الى ١٢٧٥ اتهموا بايل البندقية القائم بهذه المدينة بأنه لم يراع تماما شروط الصلح ، وأنه ما زال يحتفظ ببعض المنازل التى كان لهم حق ملكيتها (٦) . ولكن البيزيين كانوا هم أيضا ولم يزالوا يشغلون قسما من الاقليم الجنـوى ، وكان هذا حسابا خاصا بينهم (وبين

(★) (يقصد بهذا المؤلف الوحيد ابن الفرات — المترجم)

(١) Wilken, Gesch. der kreuzz. VII, 463 et ss. ; M. de Mas-Latrie, (Histoire de Chypre, I, 396, 441 ; M. Röhricht, dans les Archiv, de l'Or. lat. II, p. 375.

(٢) Da Canale, p. 453-553 ; Dandolo, p. 374 ; Annal. Jan. p. 260 et s. ; Cotin. de Guill. de Tyr, p. 455 et s.; Sanuto, p. 223; Mas-Latrie (Hist. de Chypre, I, 396, 418).

(٣) Da Canale, p. 628, 630; Dandolo, p. 380, 389.

(٤) Wilken, op. cit. VII, 511.

(٥) Mas-Latrie (l.c. p. 422).

(٦) Da Canale, Nuova storia di Genova, II, 300; III, 179.

الجنويين) ، ولم تلبث الفرصة أن سنحت لتسوية هذا الحساب • ففى عام ١٢٨٢ نشبت حرب جديدة بين جنوا وبيزا بشأن كورسيكا ، وتكبدت بيزا فى موقعة ميلوريا البحرية المشهورة (٦ من أغسطس ١٢٨٤) هزيمة ساحقة جعلتها قاب قوسين أو أدنى من الهلاك ، ودمرت الى الأبد قوتها • وامتدت آثار هذه الحرب الى عكا ، واستمرت ثمة بضع سنين بعد المعركة الفاصلة •

وفى عام ١٢٨٧ ، أغار الأميرال الجنوى رولاندو اسكيرى Rolando Ascheri على اقليم البيزيين فى عكا • الا أن هذه الاثارة لم يترتب عليها سوى حدوث بعض المناوشات (١) • وفى عام ١٢٨٨ اضطر البيزيون أخيرا ، وقد نفدت مواردهم أن يقبلوا عقد صلح مهين ، وتضمنت معاهدة الصلح بنودا هامة بخصوص مدينة عكا • كان البيزيون فيما مضى قد اشتركوا فى هدم برج الجنويين ، ومن ثم اشترط صراحة فى المعاهدة أنه يجب عليهم ، تكفيرا عن هذه الاساءة أن يهدموا بأيديهم البرج العالى الفاخر الذى شيدوه فى حيهم لينافسوا به الجنويين ، والذى كان مصدرا للنزاع بين الأمتين : وكان عليهم أن يمتنعوا بتاتا عن بناء أى برج عادى أو حصين فى حيهم ، أو شراء أى برج من أى شخص أو جالية • وكانوا قد احتلوا فى عام ١٢٥٨ قسما من الحى الجنوى ، ذلك القسم الذى كان به البرج الذى هدموه ، وكانوا قد أقاموا به العديد من المبانى ، من بينها سور ، فكان عليهم أن يتعهدوا بهدم هذه المبانى فى مهلة قدرها سنة ونصف ، وأن يردوا القسم الذى كانوا قد احتلوه فى حى الجنويين الى ملاكه الأصليين بالحالة التى كان عليها قبلا فى عام ١٢٥٨ ، والا يقيموا أى بناء فى اقليم جنوى (٢) •

يمكن القول بأن الحرب التى بدأت بخصوص دير سان ساباس لم تنته الا بعقد هذا الصلح • نعم • انتهت هذه الحرب ؛ الا أن العدو كان يدق على الأبواب ، وفات الاوان لجنى ثمار هذا الصلح • وكانت قيصرية ، وأرسوف (١٢٦٥) ، ويوبيه ، وأنطاكية ، وجبيل (١٢٦٨) قد وقعت فى أيدى بيبرس سلطان مصر • أما لاوديكيا التى استردها المسيحيون منذ قليل ، فقد أمست مهددة من جديد • وهناك قضى السلطان قلاوون خليفة بيبرس على سيادة المسيحيين باستيلائه على قلعة البحر : ولم يكن هذا الفتح سوى تحقيق لمشروع قديم يستهدف ارضاء تجار الاسكندرية الذين كانوا ينظرون بعين الحسد الى ازدهار تجارة هذه المدينة (٣) • وهذى نقطة هامة فى تاريخ التجارة ؛ ولما كانت هذه المعلومة ثابتة فى مصدر عربى ، فانها تستحق أن نتوقف عندها

---

(١) Annal. Jan. p. 317.

(٢) Lib jur. II, 135-138; voy. aussi 116 et s.

(٣) Michaud-Reiaud. Biblioth, des crois. IV, 560 et s.

قليلا : ذلك أنها فى الواقع تثبت أن لاوديكيا كانت على علاقات واسعة بالشرق ، عن طريق حلب ، وبلاد حوض الفرات ، وأن التجار الغربيين كانوا دائما يأتون اليها طلبا للتوابل وغيرها من السلع • وحتى تثار الى هذا الحد غيرة الاسكندرية كان لابد من أن تكون تلك المدينة (لاوديكيا) مركزا هاما لتجارة الجملة ؛ وهذى نقطة سوف نعود اليها فى خصوص التجارة التى كانت تمارسهـا البندقيـة مع حلب ، وهى تجارة كان معظمها يمر بمدينة لاوديكيا •

وكان من شأن استيلاء المسلمين على هذه المدينة أن قضى على آخر أثر لامارة انطاكية القديمة • وما لبثت كونتية طرابلس أن لقيت المصير ذاته • وكان الكونت بوهيموند الثامن قد توفى فى شهر أكتوبر ١٢٨٧ ولم يترك ولدا ، وطالب بتركته كل من أمه سيبيل Sybille ابنة أحد ملوك أرمينيا ، وأخته لوتشيا Lucie (١) المنزوجة من فارس فرنسى يدعى نارجـو دو توسى Nargaud de Toucy : واعترف أهالى طرابلس بلوتشيا وريثـة شرعية ، غير أنها كانت وقتئذ فى الغرب ، وقبل حضورها ، انقضى وقت كاف انقلبت فيه الأمور فى غير صالحها • ذلـك أن بارتولوميو امبرياكـو(٢) Bartolommeo Embriaco سيد جبيلة القائم بأعمال الحكومة بالنيابة ، كان قد دبر تحويل الكونتية لمصلحته ، فبدأ بالتضالح مع أهالى طرابلس ، وشعر بضرورة عقد محالفات مع الخارج ، فسعى الى الحصول عـلى مساندة قلاوون(٣) سلطان مصر من جهة ، وجمهورية جنوا(٤) من جهة أخرى ، وبذل لهما أجمل الوعود • فبالنسبة الى جنوا ، تعهد بين ما تعهده لها بأن يرد لها ثلث مدينة طرابلس ، الثلث الذى كان لها الحق فيه منذ بداية الغزو • وبالفعل بعث الجنويون الى طرابلس فى عام ١٢٨٨ الأميرال بنديتو زاكاريا مزودا بسلطات واسعة ، ومعه سفينتان حربيتان ، وضم اليه فى الطريق ثلاث سفن أخرى • وكانت الأميرة لوتشيا وقتئذ تحت أسوار طرابلس على رأس قـوات كبيرة ، وكانت قد أتت معها من الغرب بخمس سفن حربية ، ضمت لها أربعا أخرى منذ وصولها الى سوريا ، منها واحدة فينيسية وواحدة جنوية • وكانت المدينة توشك على الاستسلام ، الا أن وصول زاكاريا زود أنصار سيد جبيلة بعزم جديد ، فاضطرت لوتشيا أن تتقهقر • ولم تتضمن المعاهدة المبرمة بين الأميرال وبين بارتولوميو كل الوعود التى قدمها الأخير ، ولكنه مع ذلك ضمن

---

(١) Lignages d'outremer, p. 447 ; Minieri Riccio, I grandi uffixi del regno di Sicilia p. 29.

(٢) Sanut, p. 229 ; Michaud-Reinaud, Biblioth, des crois. IV, 561 et s. Not. et extr. XI, 47; Weil, Gesch der Chalif. IV, 161; les Annal. Jan. p. 322.

(٣) Aboul Mahasin, dans Weil, op. cit., IV, 161 et s.

(٤) Annal. Jan. p. 322.

لجنوا توسعا فى سلطتها وأملاكها ، وكان أول نتائجها أن بعثت حكومة جنوا للتو الى طرابلس موظفا يحمل لقب بودستات (١) • وما لبث زاكاريا أن اعترف بأن بارتولوميو لم يكن فى عزمه أن يوفى بتعهداته ، وهذا ما أكده بنفسه ، وحملته خيبة الأمل على أن يتقرب من لوتشيا (١٢٨٩) ويجرى معها تسوية نجهل تفاصيلها (٢) •

ولم تأت أية واحدة من هاتين المعاهدتين لجمهورية جنوا بالمكاسب التى كانت تنتظرها • ولم يمض على توقيعهما سوى وقت قصير حتى أقبل فلاوون ، وحاصر طرابلس ، ونسى الأميرال الجنوى كل المآسى التى كابدها فى هذه الناحية ، وهرع الى نجدة الموقع ومعه البيزيون والبنادقة ، ولكنه لم يستطع أن يمنع سقوطه فى أيدى المصريين (٢٧ أبريل ١٢٨٩) (٣) ، واكتفى بانقاذ السكان ومساعدتهم فى الانتقال الى جزيرة قبرص • وكان أهالى طرابلس على وشك أن يتلقوا مددا آخر من جهة لم يكونوا يتوقعونها دون شك ، تلك هى مستوطنة حيفا الجنوبية التى جهزت ثلاث سفن حربية حين بلغها نبأ الخطر الذى يتهدد طرابلس ، وأرسلتها تحت امرة قنصلها باولينو دوريا Paolino Doria لنجدة مواطنيه ، ولكنه لسوء الحظ وصل متأخرا • وانا لنعلم من قبل تعلق هذه المستوطنات بوطنها الأصلى • وهذا مثال طيب لتعلقها بعضها ببعض (٤)

وأخيرا ، فى ١٨ من مايو ١٢٩١ ، سقطت عكا الحصن الرئيسى للدول الصليبية ، وكانت مهمة الدفاع عنها موكولة أساسا لهيئات الفرسان الدينية ولكن كان ينقصهم شيئان : الاتحاد فيما بينهم ، وسلطة كافية لفرض الطاعة على الغير • وتسجل الوقائع فى هذا الخصوص عدم التناسق بين البنادقة والبيزيين(٥) • على أن سكان الأحياء التجارية تحملوا بحماسة قوية كل أعباء الدفاع والخدمات الليلية (٦) • وقد أثنى البعض على شجاعة البيزيين وكفاءة آلاتهم الحربية (٧) • ولم يقل المؤلفون الذين تركوا لنا قصة هذه الكارثة كلمة واحدة عن الجنويين ، والسبب على ما يبدو بوضوح أنهم منذ أن هاجروا الى صور لم يعودوا أبدا الى عكا فى جموع كبيرة • وعندما اقتحم العدو المدينة كان

---

(١) Ibid. p. 326.

(٢) Annales génoises, texte donné par Pertz, p. 322,323 et s.

(٣) بعد بضعة أيام لقيت نفين وبترون نفس المصير الذى لقيته العاصمة • انظر :
— Wilkeu, Gesch. der Kreuzz., VII, 706; Weil, Gesch. der Chalif., IV, 163.

(٤) Annal. Jank. p. 324.

(٥) Relation d'Assenius dans Murat., SS. XIII, 1183.

(٦) Le Magister Thadeus, de Naples, dans son : Historia de desolatione et conculcatione civitatis Acconensis éd. Riant), Genevoe 1874, p. 27.

(٧) Amadi, dans Mas-Latrie, Hist de Chypre, I, 489.

المستوطنون الذين ينتمون الى الأمم التجارية أول من فروا ، وهرعوا الى السفن لينقذوا أرواحهم وأموالهم(١) • ولما لم تكن المدينة محاصرة من ناحية البحر ، فان الذين أعوزتهم الارادة أو القدرة على الاشتراك فى الدفاع ، وجدوا أمامهم متسعا من الوقت للفرار حاملين أمتعتهم الى قبرص أولا ، ومنها الى الغرب . لذلك لم يجد العدو فى المدينة غنيمة ثمينة(٢) • على أن التجارة الغربية حين فقدت عكا ، فقدت بها سوقا فسيحة ، مزودة على الدوام بوفرة من السلع المطلوبة النادرة ، وذلك لأمد طويل ، لأن العدو دمر المدينة تدميرا • ومنذ هذه اللحظة كف المسيحيون فى المدن التى مازالت حرة فى مملكة بيت المقدس وكونتية طرابلس عن ابداء مقاومة لا جدوى منها ، ومن ثم جلوا عن صور ، وصيدا ، وبيروت ، وطرطوس ، وجبيل دون أية مقاومة •

وانتهى كل شىء بالنسبة الى الدول الصليبية ، وأمسى الدمار الذى كان يتهددها زمنا طويلا حقيقة واقعة • ولا مجال هنا للاستفاضة فى ذكر أسباب هذا الانهيار ، ولكننا نشير من بين هذه الأسباب الى النصيب من المسئولية الذى يقع دون شك على كاهل أفراد الجاليات التجارية ، وبخاصة الايطاليين • وقد أوضح ذلك جاك دو فيترى ، اذ كان على علم تام بشئون الأرض المقدسة فى القرن الثالث عشر : فهو يسلم بمزايا الايطاليين ، وبصيرتهم ، ويقظتهم ، ورعايتهم مصالح الدولة ، وصلابتهم فى الدفاع عن حقوقهم ومؤسساتهم ، وقناعتهم التى جعلتهم أكثر من سائر الأمم قادرين على مسايرة الحياة فى الشرق ، وهو يقدر الخدمات التى أسدوها للمسيحية فى سوريا ، بفضل تفوق بحريتهم العسكرية ، ونشاط بحريتهم التجارية التى تكفلت بالنصيب الأكبر من عمليات نقل الحجاج والمؤن والبضائع ، ولكنه يستنكر أيضا تنافسهم الحاد فى مضمار التجارة ، وحبهم للكسب بدرجة الجشع ، الأمر الذى تسبب فى منازعات لا آخر لها ، وحروب أهلية يبتهج لها العدو وحده(٣) • وكثيرا ما بعث أهالى سوريا بشكاواهم الى الغرب ، ووصفوا منازعات الجاليات التجارية الايطالية بأنها شر لا بد أن يؤدى الى خراب المؤسسات المسيحية كلها ، وطالبوا باجبارهم على أن يعيشوا قبل كل شىء فى سلام ، حتى ولو تطلب ذلك حرمانهم من امتيازاتهم(٤) • وقد حمل بعض الحجاج شكاوى من هذا النوع الى فريزيه Frise • وبعد انقضاء زمن طويل على سقوط عكا ، وقف لودلف دى سوذيم

(١) Thadeus Neopolitaus, l.c.

(٢) Wilken, VII, 748, 756, 774 not. 129.

(٣) Jacq. de Vitry, dans Bongars, Gesta dei per Francos I, p. 1085 et s., 1089; le Tractatus de terra sancta, éd. Thomas, p. 15, 31.

(٤) La Biblioth. de l'école des chartes, 4e série, T. IV, p. 288 et s., 290 et ss. ; le Mémoire d'Amaury de la Roche, dans Mas-Latrie, Hist. de Chypre, II, 72.

Ludolphe de Sutheim فوق أطلال المدينة ، فلعن تفرق البيزيين ، والجنويين، واللومبارديين ، تفرقا أدى الى ضياعهم (١) (*) • ومع ذلك ينبغى لنا ألا ننسى أنه اذا كانت الجاليات الايطالية مسئولة عن وقوع الكارثة ، فان جانبا أكبر من المسئولية يقع على كاهل أولئك الذين كانت مهمتهم الخاصة هى الدفاع عن الأرض المقدسة ضد المسلمين ، وقصروا فى أداء هذه المهمة ، ومنهم هيئـــات الفرسان ، بما كان يشيع فيهم من حسد وغيرة ، وكذا البارونات بعصيانهم •

ولم يتأخر العقاب ، وكان قاسيا ، ليس فقط على الأمـــراء والبارونات الذين جردوا من أراضيهم ، وعلى هيئات الفرسان الذين وقعت قصـــورهم الحصينة فى أيدى العدو ، ولكن أيضا على الأمم التجارية التى شاركت أحياؤها الغنية التى تهدمت فى مصير المدن التى نشأت فيها • ومع ذلك لم يقل المستقبل كلمته الأخيرة بشأن الجاليات التجارية فى سوريا • فقد أقام الايطاليون فى عهد الدول الصليبية علاقات مع دمشق وحلب ، على سبيل المثال ، علاقات لم تنقطع أبدا ، ولم تلبث بيروت أن احتلت مكانة هامة بين الأسواق المشتركة فى تجـارة الشرق والغرب ، وأصبحت من الموانىء التى يكثر تردد الأســـاطيل التجارية الايطالية عليها •

---

(١) Menconis chronc., dans Pertz, SS. XXIII, 555.

فهرس

صفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٧١٧ / ١٩٨٥

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٦٨١ ـ ×

عمل موسوعى موثق ومؤصل فى تاريخ الحضارة خلال حقبة من تاريخنا ، وهى الحقبة التى تخللتها الحروب الصليبية فى الشرق الأدنى ، ما بين القرنين التاسع والرابع عشر الميلادى .

ويضم الكتاب بحوثا موثقة عن العلاقات الرسمية وغير الرسمية بين دول البحر المتوسط ـ على شاطئيه الإسلامى والمسيحى ـ شملت التاريخ والجغرافية والاقتصاد والتجارة والسياسة والثقافة والاجتماع .

ويُعد هذا الكتاب أثرا من آثار المعرفة والتحقيق المنهجى الحديث للتراث الثقافى ، بجانب قيمته التاريخية والحضارية .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب